موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية

المجلد الأول

توحيد وأنبياء

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
تشرين ثاني (نوفمبر)
١٩٧٠

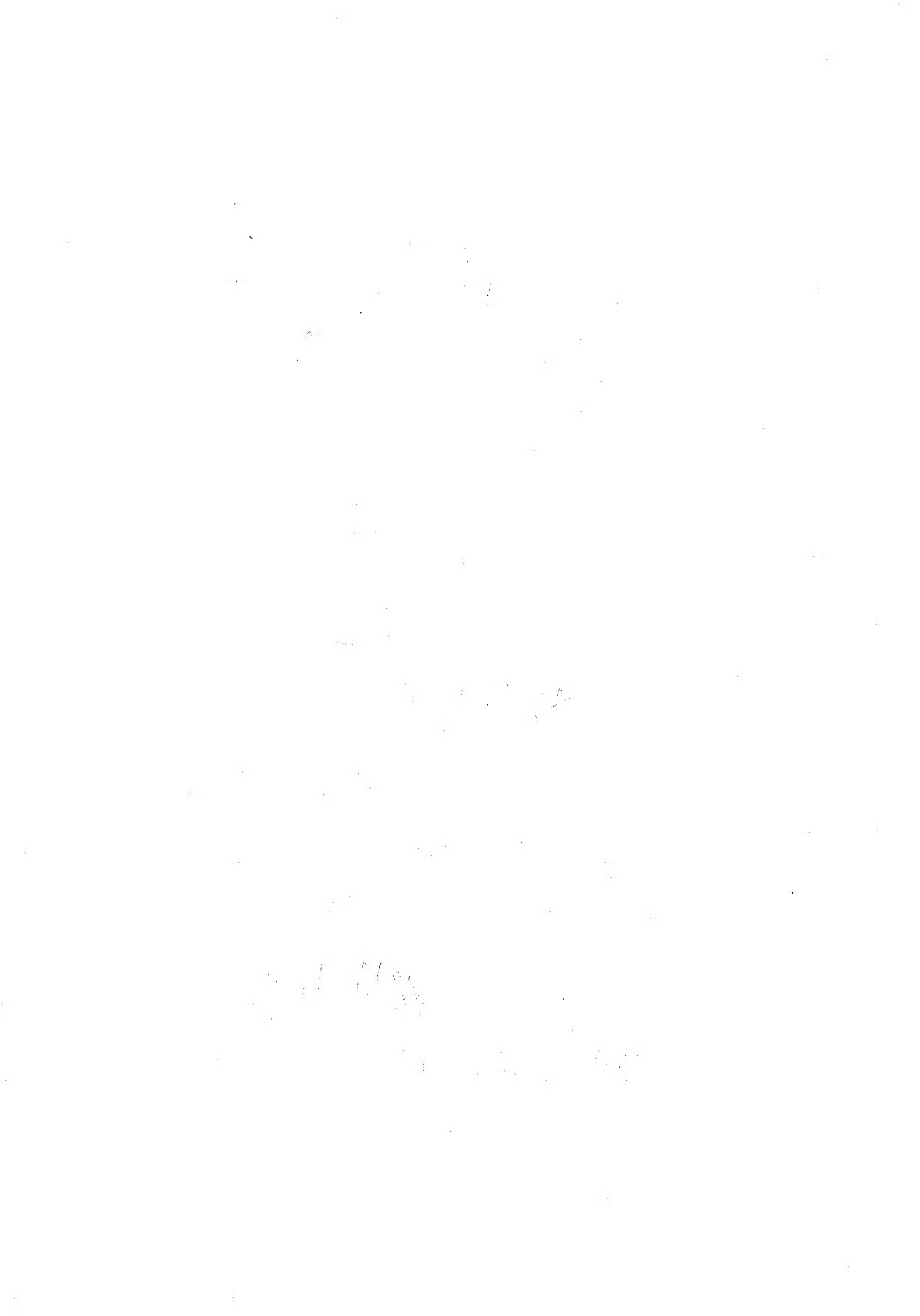
مجموعة
توحيد وانبياء

– الله

– ابراهيم
أبو الأنبياء

– حياة المسيح
عيسى بن مريم
في التاريخ وكشوف العصر الحديث

– مطلع النور
طوالع البعثة المحمدية



عباس محمود العقاد

الله



فهرست

صفحة

الأديان بعد الفلسفة :

مطلع النور

مقدّمة الناشر

سيظل « عباس محمود العقاد » ، في تاريخ الأدب المتناوِل لهذه العقود الستة من القرن العشرين التي نحياها — الدوحة الأرحب: بما وسعت ظلالها من أقاليم المعرفة ، وبما قدّمت ثمارها من ألوان الثقافة المختلفة الطعوم .

وإن ذلك ليتضح إذ نُرجع البصر كَرَّة في ثبت المؤلفات التي نتجت عن يراع هذا المؤلف المعطاء . ففيها القصة والرواية ، وفيها الدراسة والبحث ، وفيها التحقيق والتقرير ، وفيها المطالعات والمراجعات ، وفيها الخطرات والاستقصاءات ، وفيها غير ذلك وغيره ...

ولعل الجامعة التي تربط بين هذا الإنتاج الثرّ المختلف المتلون هي تلك السمة الطاغية التي تسم ذلك الإنتاج كافة : سمة تقديس الحقيقة ، وسمة احترام الوسيلة المفضية بها إلى الناس — بما تقتضيه هذه الوسيلة من لغة ونهج واختيار — .

ونحن إذ نورد هذا الانطباع العام عن نتاج العقاد لا ندّعي تقييمه ، بل كل ما نهدف إليه هو الإشارة إلى طابعه العام ، وذلك بصدد هذا الإصدار لمجموعة من كتبه .

لقد شرح العقاد غايته من كتبه « العبقريات » ... و « شخصيات إسلامية » وغيرها ؛ لذلك لا نرى ضرورة لإعادة ما أورده في شرح تلك الغاية . ولكننا نأمل في هذا التقديم لفت القارىء الكريم إلى ما يلي :

إن الصورة المستحدثة ، التي مال العقاد في تأليف خطوطها واختيار

ألوانها ، لإبراز كثير من وقائع التاريخ التي احتاج إلى إبرازها في رسم عبقرية كل من أبطال العرب المسلمين الذين هدف إلى ابراز عبقرياتهم ، وفي إبراز ملامح كل شخصية من « الشخصيات الإسلامية » التي تصدى إلى عرضها ، هي الصورة التي يستسيغ المحدثون استيعابها واستجلاءها والتملي من جمالها ، لينتهوا بعد ذلك كله إلى تمثّلها .

ولقد كان في اطلاع العقاد على قسط وافر الغزارة من كتابات أهل الغرب في التاريخ الإسلامي مجالٌ لردّه الكثير من مواطن سوء فهم بعض المؤرخين الغربيين لبعض المواقف في ذلك التاريخ ، ولردّه الكثير من خطأ التعليل لدى أولئك المؤرخين في كثير من المواقف أيضاً ، فضلاً عن تعريته لكثير من التغرض الذي ظهر منهم في الحكم على بعض المواقف في بعض الأحيان .

ولعل أقوى ما اصطنعه العقاد من وسيلة للإقناع فيما كتبه : الروح الحيادية ، والاحتكام إلى المنطق ، ومعطيات علم المناهج وعلم النفس ، والمحاكمة العقلية ، والنهج العقلاني . فلم يكن فيما أراد إثباته أو نفيه ذلك المؤمن الذي يكتفي بإيمانه ويقتصر على أدلة ذلك الإيمان ، ويدعو الخصم إلى منازلته في ساحته هو ؛ بل انتقل إلى ساحة الخصم واستعمل سلاحه ، حتى لا يكون للخصم ، إذ يُغلب ، أي تعلّة في انهزامه وحبوط رأيه وحكمه .

والعقاد بعدُ ، في « العبقريات » ... وفي « شخصيات اسلامية » ... وغيرها من كتبه المفردة للبارزين في التاريخ ، يتكشف عن محلّل نفسي لا يبارى في استكناه الدوافع النفسية للمواقف المصيرية الحاسمة ، ولنماذج السلوك في الأحداث العادية ، التي اتخذها أولئك البارزون . إذ هو في كل ذلك يعمد إلى اصطناع المحاكمة المناهجية العلمية ، فيلقي الأضواء على تلك الأحداث ، وينتهي إلى تأكيد السِّمات والعناصر التكوينية في النماذج العبقرية من الشخصيات التي تناولها بالبحث .

وإذا كان لنا أن نضيف إلى ما ذكر شيئاً يختص بهذه المجموعة الموسومة

« بتوحيد وأنبياء » ، فإننا نشير إلى تفرد المؤلف فيها ـ من بين المتناولين للأبحاث الدينية عامة ـ بميزة جعلت من كتاباته في هذا الموضوع ضرورة لازمة وسداً لحاجة ماسة دعت إليها الأجواء العقائدية التي أوجدها المناخ العقلاني العام في مثقفي هذه الحقبة التي نعيشها .

لقد شهد العقاد قلقاً ، أو قل رغبة في الاطمئنان لدى الشبيبة الآخذة بالمعارف الحديثة والمعتمدة للموضوعية والعقلانية إلى أن ما استقر لديها من معارف لا يتعارض وما تحرص عليه من معتقدات وإيمان . وهو إذ يقدم لنا هذه الكتب يكون قد قدم أجوبة وإيضاحات لحل ما يثور في نفوس المثقفين من تساؤلات حول الموضوع .

وكلمة أخيرة في مجال بعث التراث العربي ، وتوجيه الأفكار إليه ، وحمل الجماهير العربية على الإعجاب به والاطمئنان إليه .

لقد رافق حركة البعث هذه ـ مذ تمادت أقيستها ، وتقبلتها الأجيال الطالعة قبولاً حسناً ـ ، شعورٌ بأن إحياء هذا التراث سيف ذو حدين : فهو إن كان يُطلع النشء الجديد على مدى الإسهام الحضاري البالغ ، الذي اضطلعت به أجيال متعاقبة من الشعب العربي في القرون الماضية ، ويخلق لديه الاطمئنان إلى أصالة هذا الإسهام ، ومن ثمّ ـ انطلاقاً من هذه الأصالة ـ إمكان الأجيال الحالية من هذا الشعب معاودة الإسهام في البناء الحضاري ، فإنه يُخشى أن يؤدي من جانب آخر إلى ايجاد شعور لديه بالاطمئنان والدعة ، والاكتفاء بما سبق أن قدم العرب من إنجازات ، والنوم على تلك الأمجاد ، والانخداع بالفخر بها ، دون أن تكون مدعاة ـ لهذا النشء الجديد ـ وحافزاً له إلى خوض المعركة الحضارية من جديد ، وما في خوضها من حتمي ومصيري في هذه الحقبة من تاريخه .

وحول ذلك نرى ان انتهاء بعث التراث إلى هذه النتيجة أو تلك إنما يكون مبعثه ومقرره ـ إلى حدّ بعيد ـ ، الصيغة التي نلقي بها ذلك التراث إلى هذه الأجيال الطالعة ، مضافة إلى المناخ التكويني العام لشخصيتها ومعتقداتها وحوافزها

ومُثلها ؛ ولعل الصيغة التي اعتمدها العقاد — من بين العوامل المقررة لدرج مفعول التراث تحت العوامل الدافعة أو المثبطة لدى الجيل الصاعد — هي بلا مراء مما يؤدي إلى ايجاد الحافز إلى الانخراط من جديد في المعركة ؛ ويبقى على واضعي فلسفة التربية للشعب العربي في مرحلته الحالية ، وعلى منفذي تلك الفلسفة ، القيام بالشق الثاني من المهمة .

إن جميع ما ذكر كان وراء سعي « **دار الكتاب العربي** » ومزيد اندفاعها في إصدار ما أصدرت من تراث السابقين ، وحرصها الدائم على إصدار هذه الآثار الأخرى ، التي تجلو ذلك التراث في الصورة المستحدثة المستساغة ؛ آملة أن يحسن ذلك لدى قرائها ، وأن يكون فيه ما يجسد إيمانها برسالة الناشر ، والله من وراء القصد .

الناشر

موسوعة عباس محمود العقاد

الإسلامية



تقديم

موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية ، منذ اتخذ الإنسانُ ربّاً إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد .

وقد بدأناه بأصل الاعتقاد في الأقوام البدائية ، ثم لخصنا عقائد الأقوام التي تقدمت في عصور الحضارة ، ثم عقائد المؤمنين بالكتب السماوية ، وشفعنا ذلك بمذاهب الفلاسفة الأسبقين ، ومذاهب الفلاسفة التابعين ، وختمناه بمذاهب الفلسفة العصرية ، وكلمة العلم الحديث في مسألة الإيمان .

وكانت عنايتنا فيه بالعقيدة الإلهية دون غيرها . فلم نقصد فيه إلى تفصيل شعائر الأديان ولا إلى تقسيم أصول العبادات . لأن الموضوع على حصره في نطاقه هذا أوسع من أن يُستقصى كل الاستقصاء في كتاب .

وإن موضوعاً كهذا الموضوع المحيط لعرضة للتشعب والتطويل كيفما تناوله الكاتب ومن أي جانب تحراه ، فلا بد فيه من إيجاز ، ولا بد فيه من اكتفاء .

غير أننا تحرينا الإيجاز وتحرينا معه أن يغنينا فيما قصدناه ، وذاك هو الإلمام بأطوار العقيدة الإلهية على وجهتها إلى التوحيد ، وأن تكون هذه الأطوار مفهومة العلل والمقدمات .

وإن الله الذي هدى الأمم كافة على هذا المنهج البعيد ، لكفيل أن يهدينا عليه ، وأن يوفقنا لسداد النظر فيه . فلا هداية إلا به ، ولا معوّل إلا عليه . إنه سميع بصير مجيب .

عباس محمود العقاد

مقدمة المؤلف

في نهاية الطبعة الثانية من هذا الكتاب لخصنا زبدة الآراء الراجحة فيما تستطيعه العلوم الحديثة من الحكم الصادق في مسألة الحقيقة الإلهية ، فقلنا إن العلوم الطبيعية : « ليس من شأنها أن تخول أصحابها حق القول الفصل في المباحث الإلهية والمسائل الأبدية، لأنها من جهة مقصورة على ما يقبل المشاهدة والتجربة والتسجيل ، ومن جهة أخرى مقصورة على نوع آخر من الموجودات، وهي — بعد هذا وذاك — تتناول عوارض الموجودات ولا تتناول جوهر الوجود ، وهو لا يدخل في تجارب علم من العلوم » .

واستطردنا في هذا التلخيص قائلين : « ولكن العالم الطبيعي يحق له إبداء الرأي بحق العقل والدليل والبديهة الواعية ، لأنه إنسان يمتاز حقه في الإيمان بمقدار امتيازه في صفات الإنسان . أما العلم نفسه فلا غنى له عن البديهة الإنسانية في تلمس الحق بين مجاهل الكون وخوافيه... فكيف تسري المقررات العلمية بين العلماء — فضلاً عن الجهلاء — لولا ثقة البديهة ؟ كيف يعرف المهندس صدق الطبيب في مباحثه العلمية ، ولا نقول كيف يعرفها الجاهل بالطب والهندسة ؟ ... ما من حقيقة من هذه الحقائق تسري بين الناس بغير ثقة البديهة وثقة الإيمان ، وما من حقيقة من هذه الحقائق يعرفها جميع المنتفعين بها معرفة العلماء أو يمكن أن يعرفها جميع الناس كما يعرفها بعض الناس . وهي مع ذلك مسائل محدودة يتاح العلم بها لمن يشاء. فلماذا يخطر على البال أن حقيقة الحقائق الكبرى تستغني عن ثقة البديهة الإنسانية ولا يتأتى أن تقوم في روع الإنسان إلا بتجارب المعامل التي يباشرها كل إنسان ؟ » .

وقد مضى العلم قدماً في كشوفه وبحوثه عن حقيقة المادة وحقيقة ما وراءها خلال هذه السنوات ، فلم يظهر في هذه الكشوف والبحوث ما يزيد دعوى العلم الحديث أكثر مما تقدم : قصاراه أن يذهب مع التجارب العقلية والحسية إلى غاية أشواطها ، ثم ينتهي إلى عمل البديهة لإدراك أقرب الموجودات إلى الحس وأبعدها منه ، على حد سواء .

ويبدو أن الفلسفة اللاهوتية والفلسفة العلمية تتلاقيان على هذا الاتجاه . فلا تدعي الفلسفة اللاهوتية أنها أقدر من العلم على بلوغ أسرار الحقيقة الكبرى ، وإنما غاية ما تدعيه أن الحقيقة الكبرى فرض محتوم كفروض الرياضة الصحيحة التي نسلمها لنقيس عليها الحقائق البرهانية .

ونحن نكتب هذه المقدمة في أواخر السنة (١٩٥٩) وأمامنا كتاب في موضوع الفلسفة الإلهية وخبر عن جائزة نوبل التي منحت للممتازين بخدمة العلم الطبيعي هذه السنة ... فإذا نحن واقفون مع الفلسفة واللاهوت والعلم الطبيعي معاً عند نهاية أشواط الحس والفكر وبداية أشواط البديهة ، ثم لا سبيل إلى الرجوع خطوة في هذه الطريق ولا سبيل إلى التقدم وراءه خطوة واحدة بالتجربة الحسية أو العلمية .

بين أيدينا كتاب البروفسور هـ . د . لويس Lewis الذي سماه « تجربتنا الإلهية » أو تجربتنا عن الإله Our Experience of God ولخص بها نتائج البحث المشروعة عن الحقيقة الإلهية . فما هو غاية المدى الذي تذهب إليه الفلسفة في رأي هذا الفيلسوف ؟

غاية المدى في رأيه أن الحقائق التي يقررها العلم والفكر لا تعدو أن تكون حقائق نسبية أو حقائق بالإضافة إلى غيرها كما نقول في مصطلحات المنطق العربية . وبعض هذه الحقائق مقياس لبعض ، ولكنها جميعاً لا تثبت للذهن بحال من الأحوال بغير القياس إلى حقيقة مطلقة أبدية تحيط بها جميعاً ؛ وهي الحقيقة الإلهية .

وليس البروفسور « لويس» ممن يستضعفون البراهين الفكرية التي يستعان

بها على إثبات وجود تلك الحقيقة، وليس هو كذلك ممن يقنعون بها ويحسبونها يقيناً قاطعاً يحسن السكوت عليه ، ولكنه يرى أن هذه البراهين هي واجب العقل الذي لا يجوز له أن يتخلى عنه في سعيه إلى هــذه الحقيقة وإلى كل حقيقة ، أو لا يجوز له أن يركن إلى البديهة وحدها ويعفي نفسه مما هو قادر عليه . فإنه لا يستطيع أن يثق بالبديهة إن لم يبلغ بالبحث غاية الأمد المستطاع . وقد يشعر العقل أحياناً أنه وثب بالإدراك الملهم وثبة تذهب به وراء المدركات التجريبية والمدركات الفكرية أو المنطقية، ولكن هذه التجارب القاصرة هي جزء من التجربة الإلهيــة وليست شيئاً مناقضاً لها أو مستوعباً لجميع أجزائها .

ولو كان الفيلسوف لويس من المتصوفة القائلين بإمكان المعرفة من طريق الاتحاد بين الله والإنسان لما كان لفلسفته محل من البحث الحديث ولا البحث العلمي الفكري على إطلاقه ، فهو لا يقول بإمكان هذا الاتحاد الإلهي الإنساني ولا يسميه تجربة إنسانية في سبيل العرفان بالله، بل هو يرى أن المتصوفة يخطئون التعبير عن هذه التجربة وينبغي أن يفرقوا بين معرفة تقوم على فناء الإنسان في الذات الإلهية ومعرفة تقوم على إدراكه لوجوده في صميمه ثم إدراكه لما هو أعظم منه وأرفع من شأوه... ومحل فلسفة لويس من البحث الحديث أنه لا يعيد لنا عبارات الاتحاد والفناء ووحدة الوجود كما رددها بعض المتصوفة من جميع المذاهب ، ولكنه يأتي بالجديد حين يقول إن إدراك الحقيقة المطلقة عمل إنساني يعالجه الإنسان بما عنده من الوسائل المحدودة ، وكل ما هنالك أنها رسائل غير كافية تحتاج إلى تتمة، فهي لا تعطينا كل شيء ولا تحيط بكل شيء ، ولكن الفرق بينها وبين المعرفة الواجبة إنما هو فرق بين ناقص وتام وليس بفرق بين باطل وحق ، ولا بين شك ويقين .

وعلى الجملة يمكن أن تدل فلسفة لويس، ونظائرها من الفلسفات الدينية في هذا العصر ، إلى نتيجتين :

« أولاهما » أن أدلة المنكرين غير كافية للإنكار ، فليس عندهم من دليل مقنع يستند إليه العالم أو المفكر في الجزم بإنكار وجود الله .

« وثانيهما » أن أدلة المؤمنين كافية لبعض الإثبات ، ولا بد من ملاحظة الفرق بين هذا القول وبين القول بأن تلك الأدلة لا تكفي للإثبات على وجه من الوجوه . فإن ما يثبت بعض الثبوت بالعقل ويتم ثبوته بعد ذلك بالبديهة غير الدعوى التي ليس لها ثبوت على الإطلاق ، وبخاصة حين نعلم أن الاعتماد على البديهة سند معول عليه في الدراية الإنسانية ، كما يعول الطبيب على حقائق الهندسة ويعول المهندس على حقائق الطب ، ويعول الناس جميعهم في الحكم ببديهتهم على الحقيقة التي لا يحيطون بها كل الإحاطة .

* * *

أما المباحث التي اختص أصحابها بجائزة نوبل العلمية لهذه السنة فهي ذات مغزى كبير في التعريف بالأقيسة النسبية والأقيسة المطلقة أو المجردة من ناحية أخرى : وهي ناحية الحقيقة المادية .

فالباحثون في تركيب المادة يبحثون في البروتون والبوزيترون والكهرب والنيوترون ، ويعلمون أنها جميعاً موجودات بالنسبة إلى غيرها ، ولم يعرف بعد كيف يكون وجودها إذا انفردت بذاتها .

فالبروتون كهربة موجبة بالقياس إلى السالبة، والنيوترون كهربة محايدة بالنسبة للاثنين ، والسالبة تلتزم السلب في علاقتها بالكهربات الأخرى ، وقد يكون بعض هذه الموجودات سالباً في حالة وموجباً في حالة أخرى ...

وهذه كلها وجودات اعتبارية بالقياس إلى غيرها . فكيف يكون وجود المادة المجردة من جميع هذه الاعتبارات ؟ وكيف تكون المادة المطلقة على قدر ما نتصور الإطلاق في هذه الموجودات ؟

إننا أشرنا إلى تجارب علماء « كليفورنيا » في هذه المباحث في باب العوالم الأخرى من كتاب (القرن العشرون ما كان وما سيكون) وذكرنا أنهم يحتملون وجود كائنات لا مادية Anti-Matter على بعض العوالم الأخرى . ولا نعلم ماذا ثبت من هذه الكائنات (اللامادية) في مباحث البروتون التي

أجراها العلماء المجازون وزملاؤهم المشتغلون بها في شتّى الميادين ، ولكن المهم في الأمر أن الحقيقة المادية والحقيقة المجردة لا تتناقضان عند العلم الحديث ، خلافاً لما جرى عليه العرف بين عامة الباحثين إلى عهد قريب .

فقد كان العرف الشائع إلى أوائل القرن العشرين أن البحث عن الحقيقة المجردة والبحث عن الحقيقة المادية طريقان متعارضان ، ينبغي لمن يتوخى أحدهما أن يولي ظهره للآخر ولا يترقب الوصول إلى غاية معقولة من سلوكه إياه .

فاليوم قد تبين — على الأقل — أن الإمعان في البحث عن حقيقة المادة يؤدي بنا إلى الحقيقة المجردة وينتهي بنا إلى التسليم بكائنات « لا مادية » تخالف ما كنا ندركه من صور المادة المحسوسة .

ولا بد من الحقيقة المجردة إلى جانب الحقائق الاعتبارية أو الحقائق التي يقاس بعضها إلى بعض ولا تستقل بذواتها عن وجود آخر وراءها : وجود يسميه علماء المادة أنفسهم وجوداً « لا مادياً » للتمييز بينه وبين الموجبات والسوالب والمحايدات وسائر هذه المضافات .

إن السنوات التي مضت منذ تأليف هذا الكتاب عن « الحقيقة الإلهية » قد تقدمت بنا في طريقنا ولم تزل تتقدم بنا فيه وتحطم الحواجز التي يخيل إلينا بادىء الرأي أنها تنكص بنا عنه أو تتشعب بنا حوله .

فإذا أردنا أن نلخص ذلك كله في سطور قليلة فخلاصته الواضحة أن الإيمان بالمحسوسات ينقص على أيدي التجارب العلمية نفسها ويحل محله إيمان بالغيب المجرد الذي لا يوصف بالمادية ، أو كما قلنا في كتابنا « عقائد المفكرين » : إن القرن العشرين عصر الشك في الإلحاد والإنكار بمقدار ما كان القرن الذي قبله عصر الشك في الإيمان والنظر إلى الغيب المجهول .

وكيف يكون الموقف يا ترى عند نهاية هذا القرن العشرين ؟

لا نراه مؤدياً بنا إلى رجعة عن هذا الطريق ، بل نراه — علمياً — كما نراه

دينياً — يمعن بنا في هذه الوجهة التي لمحناها على كثب يوم ختمنا هذا الكتاب عن الحقيقة الإلهية في طبعته الأولى ، ولعل طبعاته المتواليه أن تكون في تقدير قرائه معالم متوالية لهذا الطريق المحدود إلى أن يشاء الله .

عباس محمود العقاد

أصل العقيدة

ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات .

فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى .

وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات .

لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى .

وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة وهي أظهر ما تراه العيون وتحسه الأبدان ، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألغاز والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت في ظلام من أمرها فوق ظلام ، ولعلها لا تزال .

فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التديّن ، ولا على أنها تبحث عن محال . وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحد ، وأن الناس يستعدون لعرفانها عصراً بعد عصر وطوراً بعد طور ، وأسلوباً بعد أسلوب ، كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التي يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان .

وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التي آمن بها الإنسان الأول ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، أو بين أمم الحضارة العريقة ، ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك ، ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة ، فهذه هي وحدها النتيجة المعقولة التي لا يترقب العقل نتيجة غيرها ، وليس في هذه النتيجة جديد يستغربه العلماء أو يبنون عليه جديداً في الحكم على جوهر الدين . فإن العالم الذي يخطر له أن يبحث في الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء إنما يبحث عن محال .

فأياً كان الرأي في جوهر الدين فالنقص في العبادات الهمجية أمر مفروغ منه لا يستدل به على نفي ولا إثبات . وإنما يصح أن يوصف بالغرابة لسبب واحد ، وهو هذا الإجماع على الاعتقاد أياً كان موضوع الاعتقاد ، كأنما يوجد الاستعداد للعقيدة أولاً ثم توجد العقيدة على اختلاف نصيبها من الرشد والضلال ، أو توجد الملكة أولاً ثم يوجد موضوع الاعتقاد ، ولا تتوقف صحة الملكة على صحة الموضوع .

ففي الطبع الإنساني جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام .

ولنا أن نقول إن « الروح » تجوع كما يجوع الجسد ، وإن طلب الروح لطعامها كطلب الجسد لطعامه ، لا يتوقف على جودة الغذاء ولا على حلاوة المذاق ، بل يتوقف على شعور الغريزة بالحاجة إليه .

ونخال أننا لا نخرج بالمشابهة عن مداها إذا قلنا إن إنكار الحاسة الدينية لرداءة العقيدة الأولى أو سخف موضوعها كإنكار المعدة في الجوف لرداءة المأكول وسخافة الغذاء . فإنما المرجع إلى بنية الروح وبنية الجسد في الحالتين ، وكلتاهما حق لا يقبل المراء .

حق لا يقبل المراء أن الحاسة الدينية بعيدة الغور في طبيعة الإنسان .

وحق لا يقبل المراء أن الإنسان يحب أن يؤمن ولا يستقر في وسط هذه العوالم بغير إيمان .

وهو قد وجد في وسط هذه العوالم لا مراء . فإذا كان الإيمان هو الحالة التي يتطلبها منه وجوده — فضعف الإيمان شذوذ يناقض طبيعة التكوين ويدل على خلل في الكيان .

وقد اتفق علماء المقابلة بين الأديان على تأصيل العقيدة الدينية في طبائع بني الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ ، ولكنهم لم يتفقوا على أصل العقيدة أو أصل الباعث عليها . ولا بد لها من باعث . فلن يكون الوقوف على باعثها دليلاً على بطلانها . لأنها لا تأتي بغير باعث يؤدي إليها كائناً ما كان .

نعم هي ترجع إلى باعث يحفز الطبيعة الإنسانية إلى البحث عنها ، وكذلك نبحث عن الطب إذا مرضنا . ونبحث عن الملجأ الأمين إذا فزعنا ، ونبحث عن المال إذا افتقرنا ، ولا يقدح ذلك بحال من الأحوال في صحة الطب أو الأمن أو المال .

فما هو الباعث في الطبيعة الإنسانية إلى طلب العقيدة ، وهل يلزم أن يكون باعثاً واحداً أو يجوز أن يرجع إلى بواعث كثيرة ؟ وهل يثبت هذا الباعث على حالة واحدة أو تتجدد له أحوال بعد أحوال بتعاقب الأطوار أو الأجيال ؟

أما أنه باعث واحد فلا وجه للزومه ، ولا مانع لتعدده . ويصح جداً أن تتفق جميع البواعث التي تفرّق العلماء في شرحها وسرد الشواهد عليها ، وألا ينفرد باعث منها بنشأة الدين منذ أقدم العصور ، وألا توصد الأبواب على البواعث الأخرى التي قد تتجدد الآن ، وقد تمضي في التجدد إلى غير انتهاء .

* * *

يرى كثير من العلماء أن الأساطير هي أصل الدين بين الهمج . وهو رأي لا يرفض كله ولا يقبل كله . لأن العقائد الهمجية قد تلبست بالأساطير في جميع القبائل الفطرية ، فلا يسهل من أجل هذا أن نرفض القول بالعلاقة بين الأسطورة والعقيدة ، ولكن لا يسهل من جهة أخرى أن نطابق بين العقيدة والأسطورة في كل شيء وفي كل خاصة ، لأن العقيدة قد تحتوي الأسطورة ولكن الأسطورة لا تحتويها . إذ يشتمل عنصر العقيدة على زيادة لا يشتمل عليها عنصر الأسطورة

وهي زيادة الإلزام الأخلاقي والشعور الأدبي بالطاعة والولاء ، والأمل في المعونة والرحمة من جانب الرب المعبود .

وقد وجدت أساطير كثيرة لا تتجاوز الأوصاف الرمزية والمشابهة الفنية التي طبع عليها الخيال : فهي ترجع إلى ملكة التجسيم والتصوير ، ولا ترجع إلى ملكة الإيمان والاعتقاد .

ووجدت أساطير كثيرة سببها عجز اللغة الإنسانية في نشأتها الأولى ، كما ثبت للعلامة اللغوي ماكس موللر صاحب هذا التفسير لنشأة الأساطير ، فإن الذي يقول إن الأرض أم الثمرات كالذي يقول في العصر الحديث إن فرنسا أم الثورة ، ولكننا نعرف التلاقح الحي فلا نخلط بين الحقيقة والمجاز ، ولم يكن الأقدمون على علم بذلك فلا يمضي الزمن على التشبيه حتى تصبح الأمومة المجازية كأمومة الواقع بين الأحياء .

ولا شك أن الإنسان يسمع الأسطورة ولا يتدين بها ، ويتدين بالعقيدة ولا يلزم من ذلك أن تصطبغ أمامه بصبغة الأساطير . فليست كل أسطورة عقيدة وإن كانت كل عقيدة في الجاهلية الأولى قد تلبست ببعض الأساطير .

* * *

ويرى تايلور Tylor أن ملكة الاستحياء Animism هي أصل الاعتقاد بالأرباب .

فالطفل يضرب الكرسي إذا أوقعه كما يضرب الإنسان والحيوان ، وتايلور يعتقد أن الإنسان الأول كان كالطفل في تخيله الأشياء وتمثله لها في صور الأحياء ... فالنجوم أرباب حية تشعر وتسمع وتطلب ما يطلبه الحي من غذاء ومتاع ، وكذلك الرياح والسحب والينابيع والعوارض الطبيعية على اختلافها . فلا جرم يشعر الهمجي الأول بما حوله من هذه القوى الحية شعور الرهبة والرغبة ، ويحتاج إلى استرضائها بالصلاة والدعاء كما يسترضي الأقوياء من بني قومه بالملق والرجاء .

ويسبق هربرت سبنسر هذا التفسير بتفسير يوافقه في ظواهر الاستحياء ولا يوافقه في تعليل الاستحياء .

فالإنسان الأول — على ما يرى سبنسر — كان يؤمن بحياة الأرباب لأن عبادة الأسلاف هي أقدم العبادات ، وكان يرى الأطياف في المنام فيحسب أنها باقية ترجى وتخشى ، وأنها تتقاضاه فروضاً لها عليه كفروض الآباء على الأبناء وهم بقيد الحياة .

ولكن يرد على القول بعبادة الأسلاف أنها لم تستغرق عبادات الأقدمين في زمن من الأزمان ، وأن النائم يرى أطياف الغرباء كما يرى أطياف الآباء ، ويرى أطياف الأطفال الضعفاء . بل يرى أطياف السباع التي يخافها في يقظته فلا يعبدها لأنه يخافها وتتردد عليه أطيافها ، بل يقتلها ويحول بينها وبين الطعام .

ومهما يبلغ من قصور العقل في الهمج فهم لا يجهلون أن « الروح » الذي يحوم حولهم في طلب الطعام والشراب يحتاج إليهم ولا يستغني عنهم . فإن شاءوا منعوا عنه القوت فأردوه ، وإن شاءوا والوه بالقوت فأبقوه ، ولو لم يكن محتاجاً إليهم لما حام حولهم ولا انتظر منهم أن يسترضوه بإشباعه وإروائه ، ولماذا لا يسعى لنفسه كما كان يسعى لها وهو مقيم بين ذويه ؟

ومن الواجب أن نسأل إذا كان الهمجي كالطفل ينظر إلى جميع الأشياء كنظرته إلى الحي الذي يقصد ما يفعل : ترى لماذا لم يعبد الهمجي جميع الأشياء ؟

لا بد أنه قد عرف قبل العبادة وصفاً للربوبية يميز به طائفة من الكائنات عما عداها ، ويرى ذلك الوصف موفوراً في هذا الشيء وغير موفور في سواه .

وقد نقل السائحون عن أقزام أفريقيا الوسطى — وهم في حضيض الهمجية — أنهم يؤمنون برب عظيم فوق الأرباب ، وعُرفت من الهمج قبائل مسفة في الجهالة لم تعبد الأسلاف وجعلت ظواهر الطبيعة مسخرة لروح عظيم .

ويرجح آخرون أن السحر هو أصل العبادة وأصل الشعائر الدينية .

ولكن يقال في الرد عليهم إن السحر يستلزم وجود الأرواح التي تعالج به وتراض بتعاويذه . لأن السحر لا يخلق الآلهة وإنما يخلقه السحرة والكهان الذين يخدمون تلك الآلهة ، ويزعمون أنهم على مقربة منها وعلى علم بما يغضبها ويرضيها .

وقد شوهد منذ القدم أن طبيعة السحر غير طبيعة العبادة في أساسها . لأن السحر منوط أبداً بالأمور الخبيثة والوسائل الدنسة والنفايات التي تعاف وتنبذ في الخفاء ، ولم تخل العبادة قط من توسل إلى الخير ورجاء في كرم المعبود ، وقلما تخلو من « تطهر » بنوع من أنواع الطهارة يناقض وسائل السحر الخبيث ، فكأنما فرق الناس بين العبادة والسحر عندما فرقوا بين الأرباب المرجوة والأرباب المرهوبة ، فاتخذوا العبادة لأرباب الخير والمحبة واتخذوا السحر لأرباب الشر والبغضاء .

ومهما يكن من تعليل نشوء السحر فليس لنا أن نزعم أن الناس سحروا ثم عبدوا ، بل يحق لنا أن نزعم أنهم قد عبدوا ثم سحروا ، لأن السحر اختراع لا معنى له ما لم يسبقه إيمان بالمعبودات التي يروضها السحرة ويخافها العباد.

* * *

والأكثرون من ناقدي الأديان يعللون العقيدة الدينية بضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من القوى الطبيعية والأحياء ، فلا غنى له عن سند يبتدعه ابتداعاً ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلوات في شدته وبلواه .

على أن القول بضعف الإنسان تحصيل حاصل إن أريد به بطلان العقيدة الدينية وإثبات التعطيل . لأن الإنسان ضعيف على كلا الفرضين فليس من شأن ضعفه أن يرجح أحد الفرضين على الآخر .

فإذا ثبت أنه من خلق إله فعال قدير فهو ضعيف بالنسبة إلى خالقه ، وإذا لم يثبت ذلك فهو ضعيف بالنسبة إلى الكون ومظاهره وقواه . فماذا لو كان

قوياً مستغنياً عن قوى العالم ؟ أيكون ذلك أدعى إلى إثبات العقيدة الدينية والإيمان بالله ؟

إننا إذا حكمنا ببطلان العقيدة الدينية لضعف الإنسان فقد حكمنا ببطلانها على كل حال ، ثبت وجود الله أو لم يثبت بالحس أو البرهان ! لأنه لن يكون إلا ضعيفاً بالنسبة إلى الخالق الذي يبدعه ويرعاه .

لكن الواقع أن الضعف لا يعلل العقيدة الدينية كل التعليل . لأنها تصدر من غير الضعفاء بين الناس . وليس أوفر الناس نصيباً من الحاسة الدينية أوفرهم نصيباً من الضعف الإنساني سواء أردنا به ضعف الرأي أو ضعف العزيمة . فقد كان الأنبياء والدعاة إلى الأديان أقوياء من ذوي البأس والخلق المتين والهمة العالية والرأي السديد .. ومهما يكن من الصلة بين ضعف الإنسان واعتقاده فهو لا يزداد اعتقاداً كلما ازداد ضعفاً ولا يضعف على حسب نصيبه من الاعتقاد ، وما زال ضعفاء النفوس ضعفاء العقيدة ، وذوو القوة في الخلق ذوي قوة في العقيدة كذلك .

فليس معدن الإيمان من معدن الضعف في الإنسان ، وليس الإنسان المعتقد هو الإنسان الواهي الهزيل ، ولا إمام الناس في الاعتقاد إمامهم في الوهن والهزال .

وربما كان الأصح والأولى بالتقرير والتحقيق أن العقيدة تعظم في الإنسان على قدر إحساسه بعظمة الكون وعظمة أسراره وخفاياه ،لا على قدر إحساسه بصغر نفسه وهوان شأنه .

فمبلغ الإحساس بالعظمة هو مبلغ الإحساس بالعقيدة الدينية ، وصغر الكون في نظر الإنسان نقص في الشعور بظاهره وخافيه ؛ ونقص من أجل ذلك في طبيعة الاعتقاد وطبيعة الإيمان .

ومن هنا تكون الحاسة الدينية مجاوبة صحيحة للوجود العظيم الذي يحيط بالإنسان ، سرمدياً بعيد الأغوار عميق القرار .

فليس الكيان الصحيح هو الذي يمر بهذا الوجود السرمدي كأنه لا يراه

ولا يهتز له ولا يستجاش من أعماقه إذا سبر غوره فقصر عن مداه .

وإنما الكيان الصحيح هو الذي يجيش بتلك الحاسة القوية فيستهول الكون ويستقبله بالحيرة والتقديس ، لأنه في الواقع هائل محير جامع لمعاني القداسة من حيث نجمت في لغة اللسان أو لغة الضمير .

وعلى هذا تكون العقيدة من مصدر الصحة لأنها تجاوب الوجود المحيط بالنفس الإنسانية ، ولا تكون من مصدر النقص والغفلة عن حقائق الأمور.

وإذا رجح القول بأن العقيدة « ظاهرة اجتماعية » يتلقاها الفرد من الجماعة فليس الضعف إذن بالعامل الملحّ في تكوين الاعتقاد . لأن الجماعة تحارب الجماعة بالسلاح المصنوع وقوة الجنان مع القوة العددية ، وتقيس النصر والهزيمة بهذا المقياس المعلوم ، فلا تلجأ إلى مقياس العقيدة المجهول إلا إذا آمنت به لباعث غير باعث التسلح والاستقواء .

ورأي فرويد Freud قريب من رأي هؤلاء الذين يردون العقيدة الدينية إلى شعور الخوف في وسط العناصر الطبيعية . وربما اختلط به مزيج من الغريزة الجنسية في بعض المتهوسين وذوي الأعصاب السقيمة . فإن حب الله — كما يفسره فرويد عند هؤلاء — هو بمثابة الحب الجنسي في حالة « التسامي » أو حالة الحماسة ، وتتشابه العوارض كلها مع هذا الفارق بين الحبين .

قال فرويد في مقاله «مستقبل وهم» : « ومتى نما الطفل ورأى أنه قد كتب عليه أن يظل طفلاً ما طوال حياته ، وأنه لن يستغني عن حماية في وجه القوى الجبارة المجهولة — خلع عليها صورة الأبوة وخلق لنفسه الآلهة التي يخافها ويرجو أن يستميلها ولا بد له من أن يكل إليها أن تحميه وترعاه . ومن هنا يصبح تفسير الشوق إلى الأبوة مقروناً بالباعث الآخر وهو حماية الإنسان من جرائر ضعفه ، فتؤدي حالة الطفل الذي يشعر بقلة حيلته ولا يقوى على الحرمان من حنان الأبوة — إلى حالة الرجل الكبير الذي يشعر بقلة الحيلة أيضاً ويفتقر إلى نوع من الحنان الأبوي ، فيصيبه في الديانة » .

وقال في الحضارة ومقلقاتها بعد أن أشار إلى آلام الواقع ومحاولة الهرب منها

إلى التعزي بالأوهام : « ان ديانات بني الإنسان جميعاً ينبغي أن تحسب في عداد الأوهام الجماعية التي من هذا القبيل ، ولا حاجة إلى القول بأن الذي يخضع للوهم لا يعلم أنه من الواهمين » .

* * *

ومن الواضح أن حالة « التسامي » هي آخر ما ارتقت إليه الديانات فلا يمكن أن يقال إنها هي ينبوع العقيدة الهمجية الأولى .

ولا يمكن كذلك أن يقال إن « العقيدة الدينية » حالة مرضية في الآحاد والجماعات . لأننا لا نتخيل حالة نفسية هي أصح من حالة البحث عن مكان الإنسان من هذا العالم الذي ينشأ فيه ، ولا يتجاهل حقيقته إلا وهو في « حالة مرضية » أو حالة من أحوال الجهالة تشبه الأمراض .

ولا بد أن نسأل : ما هو الكون في نظر الهمج الأولين ؟ لأن الهمجي إذا أدرك أن الكون « كل واحد » كان قد ارتفع بنظرته عن الجهالة البدائية وقضى دهراً طويلا وهو متدين على مختلف الديانات ، فلا يقال إذن إنه بقي بغير أرباب حتى أدرك الكون العظيم ، وأدرك ضعفه وقلة حيلته بالقياس اليه .

أما إن كان الهمجي الأول يخاف العناصر المحيطة به فهو لا يتوهم أنها أحياء تفهم وتسمع دعاءه بعد أن ينحلها عواطف الأبوة ، بل يتوهم ذلك قبل أن ينحلها تلك العواطف ويشعر بأنها قابلة لأن تحل منه محل الآباء من الأبناء. فمرحلة الشعور بالأبوة مسبوقة لا محالة بمرحلةأخرى قد نشأت فيها الأرباب والعبادات .

وقد أسلفنا في هذه الصفحات أن معدن العقيدة غير معدن الضعف ، فليس أكثر الناس اعتقاداً هم أكثرهم ضعفاً ، وليس الضعيف دائماً بالقوي في التدين والاعتقاد .

* * *

وطائفة أخرى من علماء الإنسان يقرنون بين « الطوطم » والدين ويظنون أن الطواطم هي طلائع الأديان بين الهمج الأولين .

وقد تحقق أن شعائر الطواطم منتشرة بين مئات القبائل الهمجية في أستراليا وإفريقية والأمريكتين وبعض أقطار القارة الأسيوية وجزائرها .

فلا تزال في هذه القارات قبائل كبيرة وصغيرة تتخذ لها على الأكثر حيواناً تجعله طوطماً وتزعمه أباً لها أو تزعم أن أباها الأعلى قد حل فيه ، وقد يكون الطوطم في بعض الحالات نباتاً أو حجراً يقدسونه كتقديس الأنصاب .

وإذا اتخذت القبيلة « طوطماً » لها حرمت قتله وأكله في أكثر الأحوال وحرمت الزواج بين الذكور والإناث الذين ينتمون إلى ذلك الطوطم ولو من بعيد . وقد يكون للقبيلة الكبرى بطون متفرقة تتعدد طواطمها ويجوز الزواج بين المنتمين إليها ، ولكنهم يحرمونه في الطوطم الكبير .

ومن هذه اللوازم الطوطمية يرجح المخالفون لهذه الفكرة أن الطوطمية لم تكن أصل العقيدة الدينية ، لأنها تنشأ بعد اتساع القبائل واعترافها بأنظمة الزواج وآداب المعاملات ، وليست هذه المرحلة أولى المراحل في تطور الاعتقاد .

ولا شك أن الناس قد عرفوا شيئا يسمى « الروح » يحل في جسد الحيوان أو يتلبس به قبل أن يعرفوا الطوطمية ، وعرفوا كذلك تقديس الأسلاف قبل أن يعرفوها ، وقد وجدت قبائل شتى تتخذ الطواطم وتعبد أرباباً غيرها ، ووجدت قبائل لا تخلع على الطواطم صفة الأرباب على الإطلاق .

* * *

والفيلسوف الفرنسي — هنري برجسون — يرجع بالعقيدة الدينية إلى مصدرين : أحدهما اجتماعي لفائدة المجتمع أو فائدة النوع كله ، والآخر فردي يمتاز به آحاد من ذوي البصيرة والعبقرية الموهوبة .

فالحاسة الدينية الاجتماعية هي « حيلة نوعية » يلجأ إليها خيال النوع الإنساني لكبح الأثرة الفردية وإقناع الإنسان بنسيان مصالحه في سبيل المصالح الكبرى التي تتعلق بها حياة النوع في جميع الأجيال ، فان الإنسان لو استوحى عقله وحده خدم نفسه وأطاع لذته ولم يحمل الألم ولا الخسارة من أجل أبناء نوعه . ولما كانت إرادة الحياة مستكنة في النوع كما هي مستكنة في آحاده

على انفراد ، نشأت من الغريزة النوعية ملكة يسميها برجسون بملكة الخرافة الرمزية أو ملكة الأساطير ، وتكفلت للإنسان بخلق العوض الذي يستعيض به عن منافعه ولذاته حين يهجرها لمنفعة نوعه . فاعتقد الجزاء بعد الحياة وأحس أنه محاسب على الإضرار بغيره مثاب على الخير الذي يسديه إلى أبناء نوعه ، واقترنت فيه أثرة الفرد بأثرة النوع ، فاستقامت على التوازن بينهما مصلحته ومصلحة الناس أجمعين .

أما الحاسة الدينية في الفرد الممتاز فهي الإلهام أو الكشف الذي يصل بينه وبين قوة الخلق أو دفعة الحياة Elan Vital كما يسميها برجسون ، وقد تطورت دفعة الحياة هذه في ذهن الفيلسوف حتى أصبحت في كتبه الأخيرة « ذاتاً » إلهية تغير ولا تتغير ولكنها كونية غير منفصلة عن هذه الموجودات ، وهي تتجلى على أكملها وأوضحها في بديهة النخبة المختارين من كبار العباقرة الروحانيين ، وهم خالدون كما يرجح الفيلسوف أو أن خلودهم مسألة لا يمنعها العقل ولا يبعد أن تحققها الدراسات النفسية بالأسانيد العلمية ، ولو بعد حين .

ويسأل السائل هنا : إذا كانت للخلق قوة كونية تتجلى لبعض الملهمين فلماذا تكون الحاسة الدينية الاجتماعية وهماً مختلقاً أو خرافة مزخرفة أو اختراعاً لا أساس له غير الحيلة النوعية لحفظ البقاء ؟ لماذا لا تكون من قبيل « التلمس » البديهي لتلك القوة الكونية ؟ لماذا لا تكون من قبيل الهداية المتدرجة في طريق البحث الصادق عن الحقيقة المجهولة ؟ لماذا يكون في هذا « الوجود » ذات إلهية ثم نسمي البحث عنها حيلة مختلقة أو وهماً من الأوهام ؟

* * *

وممن يسمع لهم رأي راجح في مباحث العقيدة امام علماء اللغات المحدثين « ماكس موللر » صاحب الرأي المعدود في اشتقاق اللغات ومعاني الأساطير وعلاقتها بالعقائد والعبادات ، فهو يؤمن بأن « البصيرة » هبة عريقة في الإنسان ، وأننا كما قال — في كلامه على مقارنة الأساطير — « مهما نرجع بخطوات الإنسان إلى الوراء فلن يفوتنا أن نتبين أن منحة العقل السليم المستفيق كانت من خصائصه

منذ أوائل عهده ، وأن القول بإنسانية متسلسلة على التدريج من أعماق البهيمية إنما هو قول لن يقوم عليه دليل » .

ومصداقاً لهذا الرأي يرجح موللر أن الإنسان قد تدين منذ أوائل عهده لأنه أحس بروعة المجهول وجلال الأبد الذي ليس له انتهاء ، وأنه مثل لهذه الروعة بأعظم ما يراه في الكون وهو الشمس التي تملأ الفضاء بالضياء، فهي محور الأساطير والعقائد كما ثبت له من المقابلة بين اللغات واللهجات .

وإذا قيل لموللر إن « الأبد » أو اللانهائية معنى لا توجد له كلمة في اللغات الهمجية ولا الحضارة الأولى قال إن الإحساس بالمعاني يسبق اختراع الكلمات ، وقد ثبت أن الإنسان الأول لم يضع في لغاته كلمات لبعض الألوان ، مع أنها قديمة محسوسة بالنظر موصولة بتجاربه اليومية. فإذا بحثنا عن لفظة تدل على معنى اللانهاية فلم نجدها في لغات الإنسان القديمة فليس ذلك بدليل على أن المعنى النفساني غير موجود أو غير محسوس .

* * *

ويبدو لنا أن القول بإدراك « الهمجي » لفكرة اللانهاية بعيد التصديق ، وأنه لو كان قد أدركها قبل أن يتدين لتنزهت عقائده الأولى عن كثير من السخف الذي لا يجمل بتلك الحقيقة الكبرى ، ولا يسلم من فساد الذوق ولا من العجز عن فهم العظائم التي تتجاوز أفقه الضيق ومعيشته المحدودة .

* * *

وإلى هنا نحسب أننا قد ألممنا بأهم الفروض التي خطرت على الأذهان في تعليل العقيدة الدينية ، أو تعليل نشأتها الأولى .

وجملة ما يقال فيها أننا لا نجد فرضاً منها يستوعب أسباب العقيدة كلها ويغنينا عن التطلع إلى غيره .

وجملة ما نفهمه من ذلك أن مسألة العقيدة أكبر من أن يحصرها تعليل واحد ، وأنها قد تتسع لجميع تلك التعليلات معاً ولا تزال مفتحة الأبواب لما يتجدد من البحوث والدراسات .

وهكذا كل شعور واسع النطاق في طبيعة الإنسان .

فما من شعور متغلغل في أصول الطبيعة يقبل التفسير على وجه واحد والانطواء في هيئة واحدة ، ولو كان مقصوراً على العالم المحسوس فضلاً عن عالم الغيب أو عالم ما بعد الطبيعة .

فلا يكفي في تفسير الحب مثلاً أن نفسره بحب البقاء أو بحب الجمال أو بحب اللذة أو الغلبة أو بحب التضحية والمفاداة .

ولا يكفي في تفسير الوطنية مثلاً أن نفسرها بالمصلحة أو باللغة أو بوحدة التاريخ أو بوحدة المكان أو بوحدة الدين أو بعصبية القرابة .

فالمسألة الكونية — بل المسألة الأبدية — أعظم جداً من المسألة النوعية أو المسألة الوطنية ، وأحق من جميع المسائل بتعدد الأسباب وتشعب المناحي وغرابة الأطوار .

وليس مما يقدح في النتيجة أنها نجمت من هذا السبب أو ذاك ، على اختلاف قيمة الأسباب في الفكر والشعور .

فالإنسان قد وصل إلى الطب النافع من طريق الشعوذة ، ووصل إلى الكيمياء الصحيحة من طريق الكيمياء الكاذبة ، ووصل إلى الصواب على الإجمال من طريق الخطأ على الإجمال ، ولا يقول أحد إنه لن ينتهي إلى صواب إلا إذا بدأ على صواب ، وإنه إذا أخطأ في المحاولة وجب أن يلزمه الخطأ بغير أمل في الهداية .

ويجوز على هذا أن تنبعث العقيدة عن أكثر الفروض المتقدمة ولا تنبعث عن فرض واحد ، ولكنها على تعدد الأسباب يمكن أن تجتمع في تفسير يشملها جميعاً لأنه يعتبر منها بمثابة التعميم الذي لا تشذ منه ناحية من نواحي التخصيص .

فنحن لا نهمل سبباً يخطر على البال إذا قلنا إن العقيدة هي ترجمان الصلة بين الكون والإنسان ، أو قلنا إنها مظهر الصلة بين العالم الأكبر والعالم الأصغر كما يقول جماعة المتصوفة والنساك .

فلا بد من صلة بين الكون وبين كل موجود فيه .

ولا بد من أن تمتزج هذه الصلة بالوعي والشعور متى كان الموجود من أصحاب الوعي والشعور .

ومن العجيب أن يعرف العلماء شيئاً يسمى الغريزة النوعية ، بل شيئاً يسمى غريزة الجماعة ، ولا يعرفون شيئاً يسمى الغريزة الكونية أو السليقة الكونية ، أو ما شاءوا من الأسماء .

فمن المحقق أن الصلة بين الكون وموجوداته ماثلة في جميع الموجودات ، ومن المحقق أن « الوعي » لا يخلو من ترجمان لهذه الصلة لا يحصره العقل. لأنه سابق له محيط به غالب عليه .

ومن المحقق أن « الوعي الكوني » ملكة قابلة للترقي والاتساع ، لأن الحقائق التي تقبل الفهم في الكون لا تزال على اتساع وارتفاع يفوقان كل وعي ترقى إليه بنو الإنسان .

بل هذه الحواس الجسدية — ودع عنك الحقائق الأبدية — لا تحيط بكل ما تحسه العيون والأنوف والآذان . فبعض الحيوان يستنشق الرائحة على بعد أميال وهي كالعدم في أنف حيوان آخر ولو كانت منه على مدى قراريط . وبعض الأصوات نلتقطها بالآلات من وراء البحار والقفار وقد كان الظن قبل العصر الحاضر أن الصوت « عدم » على مد البصر القريب . ومن زعم أن « الموجود » هو ما تناوله الحس دون غيره كذبه الحس نفسه وقامت الحجة عليه من العيون والأنوف والآذان فضلاً عن البصائر والعقول .

ففي الكون مجال « للوعي الكوني » أوسع من مجال الحواس والملكات ، وما دامت الصلة بين الإنسان وبين الكون قائمة فلا بد من دخولها في نطاق وعيه على مثال من الأمثلة ، ولا موجب لوقوفها دون غاية من الغايات التي تطيقها ملكات الجنس البشري ، ومنها ملكة الاعتقاد والإيمان .

وفي الكون العظيم حقائق لم تقابلها الحواس الجسدية ولا الحواس النفسية كل المقابلة إلى الآن .

ولا يوجد عقل سليم يمنع أن تترقى المقابلة بين الحواس النفسية وبين تلك الحقائق ، ما دامت قائمة ، وما دام الوعي في طريق الارتفاع والاتساع .

ولا يوجد عقل سليم يمنع التفاوت في هذه الحواس النفسية — التي نسميها بالوعي الكوني — فيمتلىء بها أناس ويقفر منها أناس ، ويكون الفارق فيها بين الموهوبين والمجردين كالفارق — على الأقل — بين أذن الموسيقيّ التي تميز مئات الألحان وآذان السواد الذين يحسبونها كلها صوتاً واحداً أو بضعة أصوات .

ونقول « على الأقل » لأن المحسوسات التي تدرك بالأذن أضيق من المحسوسات التي تدرك بالكيان كله مما يعيه وما لا يعيه .

فإذا قال لنا قائل إنني أحس « الحقيقة الكونية » أو أحس خالق الكون فلا ينبغي أن نكذبه لزعمنا أن الحقيقة الكونية مستحيلة وأن الوعي الكوني مستحيل . فإن الحقيقة الكونية لا شك فيها وإن الوعي الكوني لا شك فيه . ولكننا نكذبه — إن كذبناه — متى شككنا في صدقه كما نكذب من نشك في روايته لوقائع العيان ... ولا شك في وقائع العيان .

ولنا أن نستبعد هذا الأصل أو ذاك من أصول العقائد الهمجية الغابرة أو الحاضرة ، ولكن ليس لنا أن نستبعد « الوعي الكوني » لأنه حقيقة يستلزمها العقل وتؤكدها المشاهدة في كل زمن وفي كل موطن وفي كل قبيل .

فالعقل الذي يرى للإنسان غرائز نوعية وغرائز اجتماعية يستبعد كل الاستبعاد أن يخلق الإنسان وهو ذرة من قوى الكون ومادته ثم يخلو من وعي يترجم هذه العلاقة التي هي أكثر من علاقة ، لأنها احتواء واشتمال .

والديانات في كل قبيل تترجم هذا الوعي الكوني منذ القدم وتمثله بما تشاء من الرموز والعبادات . وهذا عدا الآحاد الممتازين الذين يبلغ فيهم هذا الوعي أقصاه ولا يسهل تفسير حالاتهم بعوارض الجنون كما يقول عنهم الجهلاء من أبناء قومهم . فإن هؤلاء الآحاد هم في الغالب من أعظم الرجال وأقدرهم على تبديل أحوال الشعوب والأجيال ، ولا يسعنا أن نصرف حالاتهم بهذه السهولة أو بكلمة واحدة تسمى الجنون ، وهي هي الحالات التي ترتبط بها عقائد الملايين

وألوف الملايين ، وتعلم أنها لازمة ومعقولة بل أعظم من اللازم والمعقول ، لأننا إذا حذفنا تلك الحالات وما تعبر عنه من العقائد نظرنا إلى الإنسان بعدها فإذا هو أعجب من أعجب الخرافات في أسخف البدائه والعقول . إذ نحن نراه موجوداً في عالم منبتّ عنه لا يحسه ولا يبالي أن يحسه ولا يربط حياته بظواهره وخوافيه ولا يقابل تلك الأسرار بسرٍّ فيه ، وإن غيلان الصحراء وهامات الجاهلية وأصداءها لأقرب إلى العقل من هذا الإنسان .

أطوار العقيدة الإلهية

يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب ، وهي :

دور التعدد Polytheism

ودور التمييز والترجيح Henotheism

ودور الوحدانية Monotheism

ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أرباباً تعد بالعشرات وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ، ويوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة ربٌّ تعبده أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور وتقبل الصلوات والقرابين .

وفي الدور الثاني وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ويأخذ رب منها في البروز والرجحان على سائرها . إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة وتعتمد عليها في شئون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب المختلفة ، كأن يكون رب المطر والإقليم في حاجة إليه ، أو رب الزوابع والرياح وهي موضع رجاء أو خشية ، يغلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

وفي الدور الثالث تتوحد الأمة فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة . ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ،

ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع والحاشية للملك المطاع .

ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية . فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة ، وتقترن العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية ، وكثيراً ما يتفرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحقة وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية .

والرأي الأرجح عند علماء المقابلة بين الأديان أن الاعتقاد بالثنائية Dualism يأتي أحياناً كثيرة بعد اعتقاد الوحدانية على الصورة التي أجملناها ، وهي الوحدانية الناقصة التي تأذن بوجود الأرباب معها أو بتنازع الوحدانية بين إله دولة وإله دولة أخرى .

وهم يعللون ظهور الثنائية بعد الوحدانية بأن الإنسان يترقى في هذا الطور فيحاول تفسير الشر في الوجود بنسبته إلى إله غير إله الخير ، ولا يكون هذا من قبيل النكسة في عقيدته . لأنه لا يزال يسيغ تعدد الأرباب ويسيغ التمايز والترجيح بينها والتفاوت بين درجاتها وطبائعها . فلا تكون الثنائية بعد الوحدانية نكسة من الأعلى إلى الأدنى بل تقدماً من الأدنى إلى الأعلى لتنزيه الله والارتفاع بصفاته إلى أرفع صور الكمال الموافقة لترقي الإنسان في أطوار العبادة .

وأثبت من هذا عندهم — أي عند علماء المقابلة بين الأديان — أن وحدة الوجود Pantheism تأتي بعد جميع هذه الأطوار توفيقاً بين النقائض والضرورات ، وإثباتاً لوجود الله من طريق الثبوت الذي لا شك فيه ، وهو ثبوت الكون بالحس والعقل والإيمان .

* * *

ولم تكن أرباب الأمم الماضية في جميع أطوارها نوعاً واحداً أو مثلا

لفكرة واحدة ، ولكنها أنواع شتى يمكن أن نجمعها في الأنواع التالية، وهي :

(١) أرباب الطبيعـــة أو الأرباب التي تتمثل فيها مشاهد الطبيعة وقواها كالرعد والبرق والمطر والفجر والظلام والينابيع والبحار والشمس والقمر والسماء والربيع .

و (٢) أرباب الإنسانية وهي الأرباب التي تقترن بأسماء الأبطال والقادة المحبوبين والمرهوبين ، ويحسبهم عبادهم من القادرين على الخوارق والمعجزات.

و (٣) أرباب الأسرة وهم الأسلاف الغابرون ، يعبدهم أبناؤهم وأحفادهم ويحيون ذكراهم بالحفلات والمواسم المشهودة كما يحيي الناس ذكرى الموتى في هذا الزمان ويزورونهم بالأقوات والألطاف ، ولكن مع هذا الفارق البين : وهو أن الرجل الهمجي لا يمنعه مانع أن يجعل الذكرى عبادة وأن يجعل هدايا القبر في حكم الضحايا والقرابين .

و (٤) أرباب المعاني كرب العشق ورب الحرب ورب الصيد ورب العدل ورب الإحسان ورب السلام .

و (٥) أرباب البيت كرب الموقد ورب البئر ورب الجرن ورب الطعام .

و (٦) أرباب النسل والخصب وهي على الأغلب الأعم في صورة الإناث ويسمونها بالأمهات الخالدات ، وقد ترقت مع الزمن إلى واهبات الخلود بعد هبة الحياة .

و (٧) آلهة الخلق التي ينسب إليها خلق السماء والأرض والإنسان والحيوان .

و (٨) والآلهة العليا وهي آلهة الخلق التي تدين عبادها بشرائع الخـــير وتحاسبهم عليها وتجمع المثل العليا للمحاسن والأخلاق، وتضمن السعادة الأبدية للأرواح في عالم البقاء .

وهذه الطبقة من طبقات العبادة هي أرقى ما بلغته الإنسانية في أطوارها المتوالية ، واستعدت بعده للإيمان بإله واحد لجميع الأكوان والمخلوقات بغير استثناء أمة من الناس .

* * *

ومن العسير جداً أن نبني من هذه الأطوار جميعاً سلماً متعاقب الدرجات لا تتقدم فيه درجة على درجة ولا يتلاقى فيه نوعان أو أكثر من نوعين من المعبودات .

فقبائل الهوتنتوت الأفريقية التي لم تفارق مرتبة الهمجية حتى اليوم ولا يزال أناس منها يأكلون لحوم البشر تعرف إلهاً واحداً فوق جميع الآلهة يسمى أبا الآباء .

وقبائل البانتو الأفريقيين يقسمون المعبودات إلى ثلاثة أنواع : نوع هو بمثابة الأطياف الإنسانية الراحلة وهو الذي يسمونه ميزيمو mizimu . ونوع هو أرواح لم تكن قط في أجساد البشر وهو الذي يسمونه بيبو Pepo ويزعمونه قابلاً للتفاهم والاتصال بالعرافين والحكماء ، ونوع مفرد لا جمع له وليس من الأطياف ولا من الأرواح المتعددة ويسمونه « مولنجو» mulungu . لا يمثلونه في وثن ولا تعويذة ولا تفلح فيه رقية الساحر ولا حيلة العراف ، وفي يديه الحياة والسطوة ووسائل النجاح في الأعمال ، ويصفونه بأعلى ما في وسعهم من صفات التجريد والتفرد والكمال .

وكفار العرب كانوا قبيل البعثة المحمدية يدين أناس منهم بالمسيحية وأناس باليهودية ويذكرون « الله » على ألسنتهم ويسمون أبناءهم بعبد الله وتيم الله ... ويعبدون مع ذلك أسلافهم فيقولون إن أصنام الكعبة تماثيل قوم صالحين ، كانوا يطعمون الطعام ويصلحون بين الخصوم فماتوا فحزن أبناؤهم وإخوانهم عليهم وصنعوا تلك الأصنام على مثالهم وعبدوهم من فرط الحب والذكرى ، ولكنهم لم يعبدوهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى .

ووصل المصريون إلى التوحيد ، وبقيت أسماء الإله متعددة على حسب التعدد في مظاهر التجلي المتعددة لذلك الإله . فكان أوزيريس هو إله الشمس باسم رع وهو الإله الخالق باسم خنوم وهو الإله المعلم الحكيم باسم توت وهو في الوقت نفسه إله العالم الآخر وإله الخلق أيضاً حيث ينبت منه الزرع ويصورونه في كتاب الموتى جسداً راقداً في صورة الأرض تخرج منه السنابل والحبوب ، وكانوا بعد كل هذه الأطوار يرسمون أوزيريس على مثال مومياء محنطة

ويردون أصله إلى العرابة المدفونة ... كأنهم لم ينسوا بعد عبادة الإله الواحد الخالق للكون كله — عبادة الموتى أو عبادة الأسلاف .

واليهود عبدوا العجل بعد عبادة الله الواحد ، وسموا الإله الواحد باسم الجمع وهو في العبرية « ألوهيم » أو الآلهة ... ثم أصبح الجمع علامة التعظيم .

* * *

فالتطور في الديانات محقق لا شك فيه، ولكنه لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات . بل كان على سلالم مختلفة تصعد من ناحية وتهبط من أخرى . وقد أوجب هذا الاختلاف أن الشعب على وحدته لا يطّرد في التقدم عقيدة بعد عقيدة ولا تزال له عقائد شتى قلما يسري عليها حكم واحد في عوامل التطور والارتقاء ، وأن الديانات نشأت في شعوب كثيرة لا في شعب واحد . فما تقدم هنا لم يلزم أن يتقدم هناك ، وما استعاره شعب من شعب غريب عنه قد يكون أرفع من طبقته التي ارتقى إليها من طبقات الحضارة ، فيتفق له في الوقت الواحد ضربان من العبادة أحدهما سابق والآخر متخلف ، ويتقهقر السابق أحياناً قبل أن يتقدم المتخلف إليه . وربما سمت قبيلة متخلفة ربّاً من أربابهم باسم خالق الأشياء جميعاً ولم يكن ذلك دليلاً على ارتفاع في فهم الربوبية ، على ضيق في حصر نطاق المخلوقات وقصرها على الحيز المحدود الذي تعيش فيه القبيلة .

* * *

إلا أن المشاهدات التي أحصاها علماء المقابلة قد تتوافى كلها إلى نتيجة يجمعون عليها ، وهي : أن الإيمان بالأرواح شائع في جميع الأمم البدائية ، وأن الأمم قد جاوزت هذا الطور إلى أطوار الحضارة وإقامة الدول لا تخلو من مظاهر العبادة الطبيعية أو عبادة الكواكب على الخصوص وفي طليعتها الشمس والقمر والسيارات المعروفة ، وأن عبادة الأسلاف تتخلل هذه الأطوار المتتابعة على أنماط تناسب كل طور منها حسب نصيبه من العلم والمدنية .

أما التوحيد فهو نهاية تلك الأطوار كافة في جميع الحضارات الكبرى

فكل حضارة منها قد آمنت بإله يعلو على الآلهة قدراً وقدرة وينفرد بالجلالة بين أرباب تتضاءل وتخفت حتى تزول أوتحتفظ ببقائها في زمرة الملائكة التي تحف بعرش الإله الأعلى .

لكن الأديان الكتابية — بعد كل هذا — هي التي بلغت بالتوحيد غاية مرتقاة وعلمت الناس شيئاً فشيئاً عبادة الإله («الأحد » الذي خلق الوجود من العدم ووسعت قدرته على كل موجود في السماوات والأرضين ، ولم يكن له شريك في الخلق ولا في القضاء .

* * *

وذاك التوحيد الإلهي الذي نشأ من توحيد الدولة لم يعرض لخلق الكون كله ، ولم يذهب بفكرة التكوين إلى أبعد من خلق الإنسان من مادة موجودة لا حاجة بها إلى موجد . ولما بحثوا في خلق الأرض والسماء كانت فكرة الخلق عندهم بمثابة فكرة التنظيم والتجميل ، لأنهم نظروا إلى مادة الأرضين والسماوات كأنها حقيقة راهنة ماثلة للحس والنظر في غنى عن المبدع ولا حاجة بها إلى شيء غير التركيب والتنسيق ، وفرضوا لتركيبها أسلوباً من الصناعة كأسلوب الإنسان في تركيب مصنوعاته من موادها الحاضرة بين يديه . وظل العقل البشري محصوراً في هذا الأفق إلى عهد الديانة الإغريقية قبيل الدعوة المسيحية بل بعد الدعوة المسيحية في بعض الجهات بزمن غير قليل . فلم يكن « زوس » كبير الآلهة خالقها ولا خالق الكون بما رحب من أرض وسماء ولكنه كان بينها كرب الأسرة بين الأبناء والأحفاد ، أو كالسيد المطاع بين الأعوان والأتباع . وبلغ من سريان هذه « الحالة العقلية » في الأذهان أن الفلاسفة أنفسهم لم يجهدوا عقولهم في البحث عن أصل للمادة الأولى أو الهيولى . كأن وجودها حقيقة مفروغ منها لا تتوقف على مشيئة خارجة عنها . فلما ترقى الإنسان في فهم الوحدانية الإلهية أصغر من الكون بمقدار ما أكبر من الله . فجاء تفكيره في خلق الكون من طريق تعظيمه لقدرة الله وإفراده بالوجود الصحيح والقدرة السرمدية على الإيجاد فاقتحم بالإيمان باباً لم يقتحمه بالتأمل والتفكير .

فالإيمان بالأرواح كان أشيع إيمان وألزمه لبديهة الإنسان في مبدأ هدايته للتدين والاعتقاد .

ولا مانع من تعليل اهتدائه إلى « الروح » بالعلة التي شرحها سبنسر وتيلور : وهي الأحلام واستيحاء الجماد ، إذ لم يكن في طاقته أن يفهم الروح فهماً أصح من هذا الفهم في ظلمات الجاهلية وعثرات النظر بين غياهب تلك الظلمات .

فكان ينام ويرى أنه كان يعدو ويرقص ويأكل ويشرب ويقاتل في منامه ، ثم يستيقظ فإذا هو في مكانه لم ينتقل منه قيد خطوة إلى مكان غيره . فيقع في حدسه أنه فعل ذلك بالروح الذي يسكن جسده ويتركه أو يعود إليه حين يريد . وكان يرى الموتى في منامه فيحسبهم أحياء يتحركون مثله كما تحرك بروحه وهو نائم بجسده . وراقب الموتى فرأى أنهم يفقدون النفس حين يموتون ، فوقع في حدسه من ذاك أن النفس هو الروح المفارق للأجساد في حالة الموت ، فهي شيء في لطف الهواء الخفي يحتجب عن الأنظار فلا تراه ، ولا شك على الإطلاق في ارتباط الروح بالهواء في بديهة المؤمنين الأولين بالأرواح فإن الكلمات التي تطلق عليها في العربية تدل كلها على ذلك وهي الروح والنفس والنسمة ، وكلمة بسيشى Psyche اليونانية معناها النفس كمعنى سبريت Spirit في اللغات الأوربية الحديثة وفي ذلك دلالة لا شك فيها على أصلها الأول من بداهة الإنسان .

ونحن الآن نفهم الظل الذي يلازمنا ونفهم الصورة التي تتراءى لنا حين ننظر في الماء ، ولكن الهمجي لم يكن يفهم هذه الظلال ولا هذه الصور كما نفهمها الآن ، بل كان يحسبها نسخاً حية منه يصاب من جهتها بالسحر والطلاسم ، ويصونها من كيد أعدائه كما يصون أعضاء جثمانه ، ويحار في هذا الازدواج فيلحقه بازدواج الأشباح والأجساد على نحو من الأنحاء .

ولم يكن جهله بالأشياء دون جهله بالظلال والأشباح . فلا يستغرب منه أن يلبسها ثوب الحياة كما يفعل الطفل حين يعطف على ما حوله من الأشياء

أو يقابلها بالرهبة والإحجام ، وكثيرون من الراشدين المثقفين في عصرنا هذا يهتاجون فيخاطبون الجماد بالزجر والسباب كما يخاطبون الأحياء ، وتغلبهم عاطفة الحزن أو الوجد فيعتبون على الشيء الذي لا حس له كأنه يحس منهم العتب والدعاء .

والمهم أن الإنسان الأول قد اهتدى إلى فكرة « الروح » من نواحيه التي تلائمه ، فكانت هذه الهداية مفرق الطريق في الثقافة الإنسانية سواء منها ثقافة العقل أو ثقافة الضمير .

فتسنى له بذلك أن يفتح لعقله منفذاً إلى ما وراء المادة المطبقة على حسه وفكره ، ولو ظلت مطبقة عليه هذا الإطباق لفاته العلم كما فاته الدين .

وتبدلت قيم الحياة كلها منذ دخل في روعه إمكان الوجود لما لم يلمس باليد وينظر بالعين . فمن هنا كل تفرقة بين الروح والجسد ، وبين العقل والمادة ، وبين الحركة والجمود ، وبين الخير والشر ، وبين النور والظلام وبين المعاني المجردة والأجسام المحسوسة ، ومن هنا كل اتساع في أفق النظر وراء أفق الحيوان .

وإذا حسب الإنسان مكسبه من هذه الهداية فلا ينبغي أن يحسبه بما قصد بل بما وجد ، ولا ينبغي أن يقيسه على خطئه في التعليل بل على صوابه بعد ذلك في التوفيق بين العلل والمعلولات .

وينفعنا هنا أن نذكر قصة الأب الذي أوصى أبناءه وهو يودعهم ويودع الحياة أن ينبشوا الأرض عن كنز دفنه فيها ونسي مخبأه منها. فلما نبشوا الأرض لم يجدوا كنزاً من الذهب والفضة ، ووجدوا كنزاً يساوي الذهب والفضة ، ويثمر لهم في كل عام كنوزاً بعد كنوز .

فلما وقع الإنسان الأول على فكرة الروح وقع عليها خطأ لا شك فيه ، ولكنه خطأ توقف عليه إلهام الصواب في عالم العقل وعالم الضمير .

* * *

وقد امتزجت عقيدة الروح بكل عقيدة دينية بعد أطوار العقيدة البدائية وفي أثنائها فعبادة الأسلاف لا تخطر على بال ما لم تخطر معها فكرة بقاء الأرواح ، وإنما تترقى الأنماط على حسب الترقي في المعارف والمعقولات . فالهمجي الذي جهل أسرار التناسل قد يتخذ له جدّاً معبوداً يتمثله في شبح الأسد أو الكلب أو الصقر أو العقاب ، ولا ينكر أن يكون أبوه من سلالة الحيوان جسداً وروحاً بغير مجاز ، لأنه لا يفقه المانع الذي يمنع الروح أن تسكن جسم حيوان كما تسكن جسم إنسان . والحضري الذي تهذب واستطاع أسرار الخليقة بعض الاستطلاع يجعل أباه روحاً تتجلى في الشمس ويفرق بين أبوة الأجساد وأبوة الأرواح ، وعلى هذا المثال ولا ريب زعم الكهنة أن هذا الفرعون أو ذاك من الفراعين ابن الشمس أو ابن أوزيريس ، ولم يفهموا ولا فهم أحد من ذلك أنهم ينكرون أبوته الجسدية المسجلة بالميراث ، وبحقها يجلس على عرش أبيه :

ولا يرى علماء المقابلة أن عبادة الشمس كانت معدومة في أطوار الديانات القديمة ، ولكنهم يقررون أن « ديانة الشمس » لم تنتشر في تلك الأطوار لأنها تستلزم درجة من الثقافة العلمية والأدبية لا تتيسر للهمج وأشباه الهمج في أقدم عصور التاريخ . فلا بد قبل ذلك من نظرة فلكية عالمية تحيط بعض الشيء بنظام الأفلاك وعلاقة الشمس بالفصول ومواعيد السنين حتى تنتظم « للديانة الشمسية » مراسم ومواسم ، وتقام لها معابد ومحاريب ، وتنتظم لها شعائر وصلوات وقرابين ، ولا بد للمتدين بالديانة الشمسية من علم بآثار الشمس في إنبات الزرع وتسيير الرياح وشفاء الأمراض وتقليب الأيام والأعوام وضبط مواقع السيارات وما يتخيلونه لها من طوالع السعود والنحوس ... ولهذا سبقت عبادة القمر عبادة الشمس في قبائل شتى . لأنهم ربطوا بين القمر والحيض والولادة . لانتظام الحيض في مواعيد قمرية وسهولة هذه الملاحظة من غير حاجة إلى علم الفلك والحساب .

وتستدعي ديانة الشمس غير هذا أن يرتفع العقل البشري بفكرة الخلق من أفق الأرض القريب إلى الآفاق العليا في السموات . فتتسع دنياه وتتعاظم فيها دواعي الحركة والسكون والحياة والموت ، ويقترب من الأوج الذي يستوعب

فيه الكون بنظرة شاملة ، ويلتمس له سبباً واحداً « للحصول » كما حصل بعد أن أصبح الكون كله في حاجة إلى التعليل . فإنه كان قبل ذلك يعلل حياته بهذه القوة أو بتلك من العلل الكونية ، فإذا الكون كله لا يستغني عن تعليل مريح .

فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح . لأنها أكبر ما تقع عليه العين وتعلل به الخليقة والحياة ، فإذا دخلت هي أيضاً في عداد المعلولات فقد أصبح الكون كله في حاجة إلى خالق موجد للأرض والسماء والكواكب والأقمار . وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم في القرآن الكريم : « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون » .

وقد وصل الإنسان إلى عبادة الشمس حين قامت له دول وحضارات فتلاقت حوله جميع الطرق مجتمعة في طريق التوحيد الصحيح .

ذاك أن القبيلة عبدت أسلافها ، وظلت القبائل متفرقة في عبادة الأسلاف حتى غلبت قبيلة على سائر القبائل في أمة واحدة ، فوجب أن يسود رب القبيلة الغالبة سائر الأرباب . وتنحدر الأرباب المرجوحة إلى مكان دون المكان الأول وعمل دون العمل الأعظم المنسوب إلى رب الأرباب . فإذا كان العمل الأعظم هو الخلق فالأرباب التي تتولى ما دونه لا تتسامى إلى مرتبة الإله الخلاق المستأثر بأشرف الصفات وأوحد الأعمال . ثم تنطوي الأمم في الدولة أو الإمبراطورية فيقترب الناس من عبادة إنسانية عامة ، ومن تخصيص الإله الأكبر بما هو أعظم وأشرف من صفات الخلق والتقدير .

وفي الدولة تستفيض العلوم الفلكية والحسابية وتحتل الشمس مكانها المنفرد بين ظواهر الطبيعة جمعاء . فالجد القديم إذن هو الشمس في علياتها وأبناؤه قبس

على الأرض من روحها أو من قضائها . وتلتقي الديانة الشمسيةبالديانة السلفية من هذا الطريق .

وإذا بقيت في الأمة فرق قوية لا تفنى كل الفناء في الديانة التي يدين بها الملك الأكبر — فهي تحتفظ باستقلال كيانها في عناوين آلهتها المترادفة لا في حقيقة الإله وعنصره الأصيل ، فالشمس مثلا هي أوزيريس وخبرا ورع وآمون وآتون ، ولكنما اختلفت الأسماء لاختلاف الكهانات والأقاليم .

ومما لا منازعة فيه بين الثقات من علماء المقابلة أن أوزيريس جدٌ قديم في مصر الوسطى ، وأن قصته قصة إنسان عاش عيشة الآدميين في زمن من الأزمان ، ومما لا منازعة فيه أيضاً أن أوزيريس اسم من أسماء الشمس في مغربها أو في جهة المغرب التي اعتقدوا دهراً طويلا أنها هي عالم الأموات. ومما لا منازعة فيه مع هذا وذاك أن اسم أوزيريس أطلق بعد ذلك على الشمس في جميع الأحوال ، فكان هذا التدرج نموذجاً للسلم الذي تترقى عليه الديانات .

فأوزيريس أول ميت خالد بروحه معبود في قبيلة من جملة قبائل البلاد . ثم تمتزج القبائل فتعبده الأمة كلها أو تميزه بالعبادة على سائر الأرباب. ثم تبرز ديانة الشمس بما ينبغي لها من العلو والتفرد في أفق العبادات. فيتدرج أوزيريس في التلبس بالشمس حتى تنسى أشكاله الأولى فيعود هو والشمس مرادفين لذات واحدة: فهو « أولا » روح إنسان محتفظ بسلطانه بعد الموت ممثل في صورة المومياء للدلالة على الموت والخلود . ثم هو شمس في حالة الغروب لأنه انتقل من الأرض إلى عالم الأموات ، ثم هو الشمس في جميع أحوالها مع تقادم الزمان .

وتستفيد الديانات هنا من عقيدة الروح العريقة أنها جعلت للشمس روحاً أو معنى غير محسوس ، ينتقل منها إلى البشر المعبودين فيستحقون العبادة لأنهم كائنات علوية لا لأنهم رجال عظماء أو مجرد أسلاف مذكورين بالتجلة والتقديس. وما من أحد في مصر واليونان كان ينكر أن الإسكندر ابن فيليب بالوراثة الجسدية ، ولكنهم مع هذا لم يروا شيئاً من التناقض في انتمائه إلى عطارد

حين زعمت أمه أن عطارد نفخ فيها من روحه وهي تحمل هذا الجنين ، ولا رأوا شيئاً من التناقض في انتمائه مرة أخرى إلى آمون حين زعم كهان سيوة القديمة أنه ابن آمون .

ولنا أن نقول إن ديانة الشمس كانت هي القنطرة الكبرى بين عدوة التعديد وعدوة التوحيد ، وإنها وافقت اتحاد الأمم في نطاق الدول الجامعة فانتشرت حيث انتشرت الدول الجامعة من أقدم العصور ، لأنها انتشرت في مصر وبابل وفارس والهند واليابان ، وكانت رموزاً للقوة الكونية العظمى بعد أن كانت مبدأ الأمر جرماً محسوساً يعبد لذاته، وتضاف إليه الروح حيناً لأنه معبود حي ، ولا حياة بغير روح .

ولا تزال بداءة التوحيد من طريق تأليه الشمس مسألة تخمين لا مسألة يقين . فالحضارات القديمة في الدول قد عمت الأقطار الشرقية بين مصر وبابل وفارس والهند منذ ثمانية آلاف سنة أو تزيد ، كلها قد عبدت الشمس وميزتها بالعبادة في دور من الأدوار . فأيها هي الأمة السابقة إلى التوحيد ؟ أهي فارس أم الهند أم بابل أم أشور أم مصر أم اليابان في مجاهل القدم قبل اتصالها بالحضارة الأسيوية ؟ ليس الجواب على هذا كما أسلفنا مسألة يقين بل مسألة تخمين . وأغلب الظنون المدعمة بالقرائن المعقولة أن مصر بدأت بتوحيد الدين كما بدأت بتوحيد الدولة . فالمؤرخ هيرودوت القديم يقول إن الإغريق تعلموا أمور الدين من المصريين ، والسير إليوت سميث — وهو مرجع موثوق به في تاريخ مصر — يقول إن شعائر الهند القديمة في الجنائز نسخة محكية من كتاب الموتى ، وتفرق الديانات معقول في الدول الأخرى ولكنه غير معقول في قطر يجري فيه نيل واحد ويتحد وجهاه قبل خمسة آلاف سنة على أقل تقدير .

* * *

وجملة القول إن أطوار العقيدة الإلهية تشعبت بين الناس فلم تطرد على مراحل متشابهة في جميع الأمم ولا في جميع الأزمان .

ولكننا إذا أحطنا بوجهتها العظمى وجدنا أن عقيدة الأرواح لم تفارق

أطوارها الأولى ، وأن عبادة الأسلاف امتزجت بعقيدة الأرواح ، ثم اتسعت نظرة الإنسان إلى دنياه حتى التمس لها علة في السماء فكانت الشمس هي أكبر ما رآه وتوجه إليه بالعبادة ، ثم أصبحت الشمس رمزاً للخالق حين تجاوزها الإنسان بنظره إلى ما هو أعظم منها وأعلى . فهي القنطرة الأخيرة بين العدوتين : عدوة التعديد وعدوة التوحيد .

ولم يبق بعد اعتبار الشمس رمزاً للقوة الكونية إلا قبول التوحيد الصحيح فتعلمه الإنسان من الديانات شيئاً فشيئاً حتى بلغ بالقوة الإلهية نهاية التنزيه .

ويبدو لنا هذا الترقي الديني من ترقي العقل في تفسير كلمة الإله ... فكلمة « إيل » بالآرامية مرادفة لمعنى القوي أو البطل ، ثم أصبحت كلمة الإيل بالتعريف مرادفة لبطل الأبطال أو للبطولة المطلقة ، كما نميز عالماً بكلمة العالم مع التعريف ، لنقول إنه العالم دون سواه .

ومن فكرة البطل إلى فكرة الله الحي القيوم الأول والآخر الصمد الدائم الذي لا شريك له تاريخ طويل : هو تاريخ العقل في الترقي إلى التوحيد .

وقد ظل الموحدون يناضلون ديانة الشمس مئات السنين لأنها لم تتزحزح عن معقلها بغير جهاد عنيف ، ولا ننس أن الموحدين في جهادهم القديم لم ينكروا وجود الأرباب الأخرى ، بل سلموا وجودها واعتبروها من شياطين الشر التي ترين على العقول وتحجبها عن هداية الدين القويم . فبقيت إلى عصرنا هذا أيام يحتفل بها أتباع الديانات الإلهية ،ولا موجب للاحتفال بها إلا أنها كانت مواسم لعبادة الشمس على الخصوص . فأخذتها الديانات الإلهية لأن الله أحق بالتكريم من أرباب الوثنية ، ومضى زمن طويل قبل إقصاء تلك الأرباب من حظيرة الوجود ، فإنما أخرجها العقل البشري أولاً من حظيرة القدس والعبادة وسمح لها بالبقاء في زي الشياطين الخبيثة التي تغتصب الربوبية من الجهلاء . فترقى في فهم التوحيد ولم تنته جهوده بالوصول إليه .

الوعي الكوني

ما هي صفة الوجود ؟

وبعبارة أخرى : ما هو ألزم لوازم الوجود ؟

إننا لا نعرف الشيء الموجود تعريفاً سائغاً إذا قلنا إنه هو الشيء الذي ندركه بالحس أو بالعقل أو بالبصيرة . لأننا — بهذا التعريف — نعلق الوجود على موجود آخر هو الذي يدركه بحسه أو بعقله أو ببصيرته . فلا يكون الشيء موجوداً إلا إذا كان له محسون ومدركون .

إلا أننا نعطي الوجود ألزم لوازمه إذا قلنا إنه « غير المعدوم » ... فيكفي أن ينتفي العدم ليتحقق الوجود . وكل ما ليس بمعدوم فهو لا محالة موجود .

وليس من الضروري لانتفاء العدم قوام الكثافة أو قوام التجسد الذي يقبل الإدراك بحاسة من هذه الحواس الجسدية .

فليس هذا القوام الكثيف أو المتجسد ضرورياً لإثبات وجود المادة نفسها ، وهي التي عرفها الناس ماثلة في الأجسام الكثيفة وسائر المحسوسات .

لأن الأجسام المادية كلها تنتهي إلى ذرات ثم إلى إشعاع في الفضاء ، ويحق لنا أن نقول إن الإشعاع « معنى » أبسط من الحركة ، لأن الحركة تقع في جسم متحرك وفي وسط تتأتى الحركة فيه ، ونحن لا نعرف الوسط الذي يسري فيه الإشعاع إلا بالفروض والتخمينات ، ولا نبصر كل إشعاع بالعين المجردة ولو كان على مقربة من العين .

فقوام الكثافة ليس ضرورياً لإثبات وجود العناصر المادية فضلاً عما

عداها . ولا يستلزم وجود الشيء المادي أن يكون له هذا القوام . فيجوز لنا أن نقول إن الوجود أقرب إلى طبيعة المعقولات المجردة منه إلى طبيعة الملموسات والمحسوسات .

وسواء جاز هذا أو لم يجز فلا شك أن العدم ينتفي بمجرد العلم بالوجود ، ولا يستلزم إنتفاؤه أن يتلبس هذا العلم بمادة لها قوام . فعلم الموجود بوجوده يحقق له كل صفات الوجود التي ينقضها العدم ، وليس لها نقيض سواه .

وليس لأحد أن ينكر وجود شيء من الأشياء لأنه لا يدركه بحاسة من حواسه التي تعود أن يدرك بها الأشياء .

فقد تتم للشيء كل صفات الوجود وهو غير محسوس ، وقد تدق الحاسة الطبيعية حتى تتجاوز أضعاف مداها المعهود في معظم الأحياء ، وقد تتضاعف بالوسائل الصناعية فيثبت لنا أن الأسماع والأبصار قد فاتها شيء كثير مما يدرك بالآذان والعيون .

فالموجودات إذن غير محصورة في المحسوسات .

ومن الواجب أن نسلم بقيام موجودات لا تحيط بها الحواس والعقول ، لأن إنكارها جهل لا يقوم على دليل ، ولأن وجودها ممكن وليس بالمستحيل ؛ بل هو ألزم من الممكن على التحقيق. لأن الحواس كلها لم تكن إلا محاولة مترقية لإدراك ما في الوجود ، ولم تقف هذه المحاولة ولا هي مما يقبل الوقوف .. إذ وقوفها يستلزم مانعاً يعوقها أن تزداد كما ازدادت فيما مضى ، وأن تترقى كما ترقت في طبقات المخلوقات . وليس هذا المانع بالمعروف .

فمما لا شك فيه أن الكون أعم من الوعي الإنساني على اختلاف درجاته ، وأن الوعي الإنساني كله أعم من هذا الوعي الظاهر الذي تترجم عنه الحواس ويدخل أحياناً في نطاق المعقولات . وقد أصبحت كلمة « الوعي الباطني » من الكلمات الشائعة على الأفواه ، وما « الوعي الباطني » مع هذا بجماع ما احتواه تركيب الإنسان ، وما تزود به من طبيعة الحياة والوجود .

وغاية ما يملكه المتردد في حقيقة الموجودات الخفية أن يقول إن وجودها غير ثابت لديه . فأما أن يقول إن وجودها غير ثابت له ولا لغيره ، وأنها لن يثبت لها وجود على الإطلاق – فذلك قول لا حق له فيه ولا سند له عليه . وقد يكون المصدق بالخرافات أحكم منه رأياً وأصوب منه فكراً . لأنه يصدق شيئاً قد يتسع للتصديق والتكذيب .

ولا نقصر القول هنا على « الوعي الكوني » الذي أشرنا إليه في خاتمة الفصل المتقدم ، لكننا نطلقه على كل وعي يتجاوز آماد الحواس المعهودة ، وهو على ضروب كثيرة يبحثها العلماء في عصرنا هذا ولا يقطع أحد منهم باستحالتها وقلة جدواها ، ولكنهم يتفاوتون في تقرير نتائجها وتعليل هذه النتائج ، ويتركون الأبواب مفتوحة فيها لزيادة البحث والاستقراء .

* * *

والملكات النفسانية التي يدور عليها بحث العلماء في الوقت الحاضر أكثر من نوع واحد في أفعالها وتجاوزها لمألوفات الحواس الإنسانية والحيوانية ، ولكنها تتلخص في بضعة أنواع هي :

الشعور على البعد أو الـ Telepathy والتوجيـــه على البعد أو الـ Telergy والتنويم المغناطيسي أو الـ Magnetism .

وقراءة الأشياء أو معرفة الأخبار عن الإنسان من ملامسة بعض متعلقاته كمنديل أو قلم أو خاتم أو علبة أو ما شاكل هذه المتعلقات Object reading or psychometry .

وتفسير الأحلام Dream Interpretation .

والاستيحاء الباطني أو Automatism .

والوسواس أو Hallucination .

واستطلاع المستقبل أو Precognition .

واستطلاع الماضي أو Retrocognition .

والكُشف Clairvoyance .

وتحضير الأرواح Spiritualism .

وكل هذه الملكات قديم معهود في جميع الأجيال والعصور ، لم يجد عليه إلا التسمية العصرية ومحاولة العلماء أن يحققوه بالتجربة والاستقصاء .

وربما كان أشيع هذه الملكات وأقربها إلى الثبوت وأغناها عن أدوات المعالجة والتناول بأساليب التلقين والتدريب هو الشعور على البعد أو « التلباثي » — كما سمي في أواخر القرن التاسع عشر — تركيباً مزجياً من كلمتي البعد والشعور في اللغة اليونانية .

وقد تواترت أحاديث الناس في الشعور « على البعد » فرويت فيه روايات كثيرة يتفق أصحابها في أقوال متقاربة . وفحواها أنهم يستحضرون في أخلادهم سيرة إنسان بعيد لغير سبب يعلمونه فإذا هو ماثل أمامهم ساعة استحضاره ، أو يقلقون لغير سبب في لحظة من اللحظات ثم يعلمون بعد ذلك أن إنساناً عزيزاً عليهم كان يتألم أو يذكرهم في تلك اللحظة وهو في ضيق وتغويث ، وقد يسمعون هاتفاً يلقي إليهم بعض الكلمات ثم يقال لهم إن هذه الكلمات قد هتف بها مريض يحبهم ويحبونه وهو غائب عن وعيه ؛ وندر من الناس في الحواضر والقرى من لم يسمع برواية من هذا القبيل .

وقد جرب الشعور على البعد باحثون مختلفون،منهم المؤمن بالنفس،ومنهم الملحد الذي لا يؤمن بغير المادة ، ومنهم المتدين الذي يلتمس لهذا الشعور علة من العلل الطبيعية ، ولا يرى ضرورة للرجوع به إلى عالم الروح والعقل المجرد .

فالنفساني الكبير وليام مكدوجال — وهو من المؤمنين بالعقل المجرد — يقول في خطاب الرياسة لجماعة البحوث النفسية سنة ١٩٢٠ : « إنني أعتقد أن التلباثي وشيك جداً أن يتقرر بصفة نهائية في عداد الحقائق المعترف بها علمياً بفضل هذه الجماعة على الأكثر ، ومتى بلغنا هذه النتيجة فإن خطرها من الوجهتين العلمية والفلسفية سيربى كثيراً على جملة المسائل التي أدركتها معاهد التحقيق النفساني في جامعات القارتين » .

وفي سنة ١٩٢٧ قال الدكتور ت . و . متشل في خطابه لقسم المباحث النفسية في المعهد البريطاني : « لا بد من الاعتراف بالتلباثي أو بوسيلة من الوسائل التي قد نسميها الآن خارقة للعادة . لأننا إذا أنكرناه وقفنا حائرين بين يدي الظواهر المعززة بأدلة الثبوت ، مما لا نستطيع له نفياً ولا تعليلا » .

والـكاتب الأمريكي المشهور أبتون سنكلر Upton Sinclair يؤمن بالفلسفة المادية دون غيرها ويجرب الشعور على البعد بينه وبين زوجته على ملأ من الشهود والمتعقبين ، ويقرر أنه أجرى مائتين وتسعين تجربة يعتبر ثلاثة وعشرين في المائة منها ناجحة كل النجاح وثلاثاً وخمسين ناجحة بعض النجاح وأربعاً وعشرين مخفقة كل الإخفاق، ويقول الدكتور والتر فرانكلن برنس صاحب كتاب ما وراء المعرفة المألوفة Beyond Normal Cognition — وهو من المتعقبين لسنكلر وغيره من أصحاب التجارب في هذا الموضوع — « إنني — بعد سنوات من التجارب في تفسير مئات من الألغاز الإنسانية التي تشتمل على الغش المقصود وغير المقصود وعلى الوهم والضلال — أسجل هنا اعتقادي أن سنكلر وزوجته قد أقاما الشواهد إقامة وافية على الظاهرة المعروفة بالتلباثي ».

وقد كانت تجارب سنكلر يدور معظمها على الرسوم والأشكال ، فيطلب من بعض الحاضرين أن يختار له شكلاً هندسياً أو حيوانياً ثم يحصر ذهنه فيه ، وزوجته في بلد آخر تتلقى عنه شعوره في تلك اللحظة . فإذا هي ترسم الشكل بعينه ، وقلما يكون الاختلاف في غير الحجم أو درجة الإتقان .

وقد سمى سنكلر هذه الظاهرة بظاهرة الإشعاع الإنساني Human Radio لأنه لا يؤمن بأسباب لنقل الأفكار والأحاسيس غير الأسباب التي من قبيل أجهزة البرق والمذياع .

* * *

ومن أصحاب التجارب المتعددة في هذه المسائل جوزف سينل Joseph Sinel صاحب كتاب الحاسة السادسة [1] الذي يدل اسمه على رأي صاحبه في تعليل

(١) ترجمه الى العربية الفاضلان الاستاذ محمد بدران والاستاذ محمد عبدالخالق .

هذه القدرة على الكشف والتلقي والإيحاء وما شابهها من الصلات النفسية عن طريق غير طريق الحواس المعروفة .

فهو يقرر أن الأجسام المادية يمكن أن تحس من بعيد لأنها لا تني تبعث حولها ذبذبات متلاحقة تسري إلى مسافات بعيدة . وقد تخترق الحوائل كما تفعل الأشعة السينية ، ويعلل غرائز الأحياء التي تهتدي إلى أمثالها أو إلى الأماكن المحجوبة عنها على المسافات الطويلة بحاسة تتلقى هذه الذبذبات وتتبعها إلى مصادرها . أما الإنسان وسائر الحيوانات الفقارية فهي تعتمد على الجسم الصنوبري في الدماغ للشعور بالأشياء التي لا تنتقل إليها بحاسة النظر أو الشم أو السمع أو الملامسة ، ويستبعد الأستاذ سينل أن يخلق هذا الجسم الصنوبري عطلاً بغير عمل في جميع الأحياء الفقارية ، لأن ملاحظاته الدقيقة عن موضع هذا الجسم في الدماغ واختلاف حجمه بين الأحياء قد دلته على تفسير عمله حسب اختلاف موضعه وحجمه . فهو في الأنثى أكبر منه في الذكر وفي الهمجي أكبر منه في المتحضر وفي الطفل أكبر منه في الرجل ، وفي الحيوان أكبر منه في الإنسان . وهو قريب إلى فتحات الرأس في بعض الأحياء التي تعول على التحسس البعيد ولا تستغني عنه بالقياس العقلي أو بالوسائل الصناعية كما يفعل الإنسان ، وكلما انصرف الحي عن استخدام هذا الجسم الصنوبري ضمر واقترن ضموره بضعف الشعور بالذبذبات والرسائل المتنقلة من المسافات القصيرة .

قال الأستاذ سينل : « أما الكشف كما أعرفه أنا — وكما ينبغي أن يعرف — فهو إدراك الأشعة المغنطيسية أو قل الموجات المغنطيسية المنبعثة من الأجسام المحيطة بنا والتي من شأنها أن تخترق كل جسم يعترضها بدون حاجة إلى الاستعانة بأي عنصر من أعضاء الحس المعروفة . والكاشف في رأيي هو كل من يستطيع أن يضبط جانباً من مخه ويعده لكي يستقبل الإشعاع الصادر عن الحاجز ، يعني من شيء ما بعد استبعاده كل أشعة أخرى . شأنه في ذلك شأن الجهاز اللاسلكي الذي يضبط لكي يستقبل موجة منبعثة من محطة ما مع استبعاد كل موجة أخرى سواها » .

وفي حسبان الأستاذ سينل أن تلقي الأحاسيس على البعد ضرورة حيوية في

الأحياء الدنيا ، فهي من أجل هذا أقدر على استخدام هذه الحاسة. ومما نقله عن العالم الطبيعي الفرنسي الكبير جان هنري فابر Fabre « أنه وجد ذات يوم يرقة نوع كبير من الحشرات فحملها إلى منزله ووضعها داخل صندوق في غرفة مكتبه ، وبينما هو جالس في غرفة الطعام ذات ليلة إذ دخل عليه خادمه فزعاً وأخبره أن غرفة مكتبه امتلأت بفوج كبير من الذباب الضخم فلما ذهب ليرى ما حدث وجد أن يرقته — وكانت أنثى — قد خرجت من هذا الطور وأن عدداً كبيراً من ذكورها يحوم حول الصندوق . ولما كانت كلها من نوع غير مألوف في هذه المنطقة فقد حكم بأنها لا بد جاءت من مكانٍ سحيق . فأغلق النافذة وأمسك بها جميعاً وعددها خمسة عشر ذكراً. وأراد أن يعرف هل استعانت هذه الذكور في حضورها بحاسة الشم أو لم تستعن بها ، فنزع منها ملامسها ، وهي الأعضاء التي تحمل هذه الحاسة . ثم وضع الذكور في كيس ووضع الكيس في قمطر وفي صباح اليوم التالي نقلها إلى غابة تبعد نحو الميلين ، وأطلق سراح الذكران جميعاً ، ولكنها لم تلبث بعد الغسق أن شوهدت كلها متجمهرة في حجرة مكتبه لم يتخلف واحد منها . عندئذ أيقن أن حاسة الشم لم تكن النبراس الذي اهتدت به الذكور إلى مكان الأنثى [١] » .

فالأستاذ سينل كما نرى لا يتأثر في إثباته لقدرة الكشف والشعور على البعد بإيمانه بوجود الروح أو العقل المجرد ، ولا يعتمد في تجربة من تجاربه الكثيرة على تعليل غير التعليل الجسدي والمباحث الطبيعية ، وقد سبقه إلى التنويه بشأن الجسم الصنوبري فيلسوف كبير من المؤمنين بالقوة الروحية والقائلين بالتفرقة بينها وبين الكائنات المادية ، وهو رينيه ديكارت الذي يلقب بأبي الفلسفة الحديثة ، فإنه اعتقد أن الجسم الصنوبري هو الجهاز « الموصل » بين الروح والجسد ، أو هو موضع التلاقي بين حركة الفكر وحركة الأعضاء .

أما الذين اعتقدوا أن الجسم الصنوبري غدة منظمة للوظائف الجنسية أو أطوار النمو الأخرى فالأستاذ سينل يرد عليهم قائلاً : « إذا كان هذا الجسم غدة وظيفتها تنظيم التطور أو الأمور الجنسية كما يقولون فكيف صح أن يكون

---

(١) ترجمة الاستاذين بدران وعبد الخالق .

مقره وسط المخ بين المراكز التي تستقبل المرئيات ؟ ولماذا هو محمول على ساق؟ ... ولماذا كان في الفقاريات الدنيا فتحة تشبه النافذة في الجمجمة فتسمح لهذه الحيوانات بالاتصال بما حولها قدر المستطاع ؟ » .

على أننا إذا راجعنا أنواع التجارب التي سجلها النفسانيون لم نستغن بفكرة الإشعاع ولا بفكرة الجسم الصنوبري عن تعليل آخر يتصل بالعقل أو بالروح .

فنحن نفهم أن الإشعاع ينقل المجسمات والمحسوسات ولكننا لا نفهم كيف ينقل الفكرة أو الصورة المتخيلة ، فإذا تذبذب الشعاع بحركة الكلمات الملفوظة وصلت هذه الكلمات بحروفها وأصدائها إلى جهاز التلقي فنسمعها كلمات كما فاه بها المتكلم من محطة الإرسال ، ولكن الفكرة التي في الدماغ لا تتحول إلى كلمات بحروفها وأصدائها ولا تتأتى من تحولها حركة تهز الأثير كما تهزه حركات الأفواه . فكيف تنتقل الفكرة بالأشعة من دماغ إلى دماغ ؟

وإذا فكر أحد في صورة هندسية أو حيوانية فكيف تصبح هذه الصورة حركة إشعاع كحركة المذياع ؟ لقد شوهد كثيراً أن الذي ينتقل في هذه الحالة هو معنى الصورة لا شكلها ولا خطوطها التي تكونها : فإذا كان المرسل يفكر في عصفور ولا يحسن رسمه فإن المتلقي يحسن رسم العصفور إن كان من الحاذقين للرسم ولا ينقله نقلاً آلياً كما تمثل في الذهن الذي أرسل الصورة إليه ، وكذلك يحدث في أشكال المثلثات والدوائر والمستطيلات ، وكل شكل يختلف بالحجم والإتقان ويحافظ على معناه مع هذا الاختلاف .

فإذا ثبت الكشف والشعور على البعد بالتجربة التي لا شك فيها فلا بد من إثبات الأشعة العقلية أو الروحية لتعليل انتقال الأفكار بغير ألفاظ ، والصور بغير حركات في الأثير .

أما الجسم الصنوبري فإذا كان عضواً طبيعياً وجب أن يكون عمله على أشده وأصحه في أصحاب الأجساد الطبيعية والأمزجة السوية ، ولكن الذي يشاهد في أصحاب القدرة على التلقي أنهم يشذون عن سواء المزاج المعهود في

الأصحاء ، وأن هذه الملكة فيهم لا تحيا كما تحيا الأعضاء الأثرية المهملة بل تحيا كما تحيا العبقريات الخلاقة لمعاني الفنون ومبتكرات الفهم والخيال ، وأن الذي يمتاز بها لا يكون أقرب إلى الحيوان بل أقرب إلى المثل الإنسانية التي تتجافى كثيراً عن الغرائز الحيوانية والنوازع الجسدية .

وإذا كان الجسم الصنوبري متلقياً للحس على أسلوب العيون والآذان والآناف وجب أن تتساوى عنده جميع المرسلات ، وألا يميز ذبذبة عن ذبذبة ولا مكاناً عن مكان . ووجب عند جلوس عشرة في بقعة واحدة أن يتلقوا جميعاً صوت الاستغاثة المنبعث من الأماكن القصية ، لأن هذا الصوت حركة مادية والأجسام الصنوبرية عند هؤلاء العشرة أجسام مادية تهتز بتلك الحركة على السواء ، ولا يقال إن الذي يعنيه الخبر هو الذي يسمعه ، لأن العناية تتولد من سماع الخبر لا قبل سماعه ، وقد يكون المقصود بالخبر غافلاً عنه غير متهيىء لسماعه في تلك اللحظة، واذا كانت العناية من الجانبين تضيف شيئاً إلى قوة الحس فهي اذن شيء « عقل إرادي » ينحصر في العقل والإرادة ولا يعم كل حركة تخطر في الأثير .

ولا غرابة في ندرة الظواهر الروحية بين العوامل المادية ، فيحس بالآثار الروحية آحاد ولا يحس بها الأكثرون ، لأننا قد تعودنا أن نرى كائنات لا تحصى بمعزل عن فعل العقل أو الروح ولكن الغرابة البالغة أن يكون في كل دماغ جسم صنوبري وأن تنبعث الذبذبات من جميع الأجساد بغير انقطاع ثم تنحصر ظواهر الكشف أو الشعور البعيد في آحاد معدودين .

ولا يصح أن يقاس هذا على أجهزة المذياع التي تسكن عن الإذاعة بغير تحريك أو توجيه ، لأن امتناع هذه الآلات عن الحركة بغير مدير يعرف تركيبها هو الحالة الطبيعية التي لا يتصور لها العقل حالة سواها . أما الأحياء فإنهم هم المحركون والمتحركون ، وهم المفاتيح ومديرو المفاتيح . فامتناع العمل الطبيعي فيهم مع شيوع أسبابه عجب يحتاج إلى تفسير .

وحسب الناظر في الأمر بعد هذا أن يعرف أن تجارب الشعور البعيد

وما جرى مجراه تثبت عند أناس لا يعللونها بالروح ولا بالعقل المجرد، لينتفي من ذهنه أنها وهم من أوهام العقيدة وأنها خرافة متفق عليها فلا تستحق الجد في دراستها من طلاب الحقائق على سنن العلماء.

ويبدو للأكثرين من مراقبي هذه الظواهر النفسانية أن التنويم المغناطيسي أثبت من الشعور على البعد وأشيع منه وأقرب إلى التصديق والتعليل، وهو فيما نرى يعرض لنا أمثلة كثيرة لا نصادفها في ظاهرة الشعور على البعد لإثبات الاتصال العقلي بوسيلة غير وسيلة الذبذبات واستخدام الأجسام الصنوبرية. لأن النائم يتلقى عن منومه صوراً لا يتأتى تعليلها بالإشعاع أو ما شابهه من التيارات المادية وكثيراً ما تكون الرسائل المغناطيسية قائمة على تخيل لا وجود له في عالم الحس ولكنه ينتقل إلى ذهن النائم لأن المنوم لفقه وأمره بتلقيه وتصديقه. وهو يرى ما في خيال المنوم ولا يرى ما في خيال غيره، ولو كان معه في حجرة واحدة. وقد تعددت تعليلات الاتصال بين فكر وفكر بالوسائل المغناطيسية ولكنها جميعاً أعجب من القول بإمكان الاتصال بين العقل المجرد والعقل المجرد بمعزل عن الحواس والوسائط المادية. ويكفي في التجارب المتواترة أن يلقي المنوم نظرة على كلمة مكتوبة أو صورة مرسومة أو يستحضر الكلمة أو الصورة في خلده ليراها النائم كما رآها المنوم أو تخيلها تخيلاً لا يمثله شكل محسوس قابل لتحريك الأشعة أو التيارات. ولا ندري لماذا لا يتأتى تنويم الحيوان الأعجم ونقل المحسوسات إلى دماغه إذا كانت المسألة كلها مسألة الحواس والأعصاب والتيارات التي تنتقل كما ينتقل الشعاع.

ومما لا نزاع فيه أن حق الفكر الإنساني في قبول هذه الظواهر أرجح جداً من حقه في إنكارها، والبت باستحالتها كأنها شيء لا يتأتى وقوعه بحال من الأحوال. فلا استحالة في ظاهرة من هذه الظواهر، غير مستثنى منها النادر المستغرب بالغاً ما بلغ من الندرة والغرابة في جميع الأزمان.

فالاطلاع على المستقبل غريب لم تثبته تجربة علمية قابلة للتكرار، ولكننا لا نستطيع أن نجزم باستحالته إلا إذا استطعنا أن نجزم بحقيقة الزمن وحقيقة

المستقبل ثم جزمنا بأن هذه الحقيقة تناقض العلم بشيء قبل أن يأتي أوانه ويجري في مجراه .

فما هو الزمن ؟

نحن نتخيله في أوهامنا على صور كثيرة لا تخلو إحداها من نقص ومناقضة لبقية المقررات المسلمة لدينا .

فنحن تارة نتخيل الزمن كأنه بحر يزداد قطرة في كل لحظة ويمتلىء شيئاً فشيئاً ، ولا يزال فيه فراغ مهيأ للامتلاء ، وهوفراغ المستقبل المعدوم. ولكن هل الماضي إذن هو الموجود ؟ وهل هو الحاصل المتجمع في بحر الزمان والمستقبل هو المعدوم ؟ وما هو « الآن » الذي ليس بماض ولا بمستقبل ولا يوصف إلا بأنه حاضر غير ماض ولا آت ؟

وتارة نتخيل الزمن كأنه محيط شامل لما كان وما هو كائن وما سيكون ونحن نتقدم فيه كما يتقدم المسافر في أرض يراها بعد أن تقع عليها عيناه ، فالمستقبل في هذه الحالة موجود ولكننا نحن لا نراه إلا حين نصل إليه .

وتارة نتخيل الزمن كأنه خط ممتد والأوقات المتتابعة كالنقط المنطوية فيه ، ولكننا إذا تتبعنا هذا الخيال لم يذهب بنا إلى بعيد، لأن الخط ممتد في كل جانب متعمق في كل باطن ، فلا تشابه بينه وبين الخطوط .

وتارة نتخيل الزمن قابلاً للتجزئة ولكننا لا نستقر على المقياس الذي يحكم لنا بالقرب أو البعد أو العمق بين مسافات الأجزاء .

وإذا جزأنا الزمن حكمنا بأن الزمان كله محدود لأن مجموع المحدود محدود، ولكن ما هي حدود الحاضر ، وما هو الخارج منه والداخل فيه ؟ وما هو الفرق بين حاضر وحاضر بمقياس الزمان أو بمقياس الفضاء ؟

على أنه إذا كان الزمان أجزاء وكان محدوداً كأجزائه فقد بقي أمامنا «الأبد» الذي لا ماضي فيه ولا حاضر و لا مستقبل ولا ينقسم إلى أجزاء ولا يدرك له ابتداء ولا انتهاء ولا حركة بين الابتداء والانتهاء .

فمن الجائز أن « المستقبل » معدوم في الزمان المنقطع ، موجود في الأبد الذي ليس له انقطاع .

ومن الجائز أن يكون الزمن نفسه متعدد الأبعاد فيتلاقى فيه شيء من الحاضر وشيء من الماضي وشيء من المستقبل في بعض تلك الأبعاد .

ومن الجائز أن المستقبل يتكشف لعقل الإنسان من إيحاء العقل الأبدي المطلع عليه كما يطلع على ما حصل وما هو حاصل بلا اختلاف . وقد جاز أن ينتقل علم من عقل إنسان إلى عقل إنسان فينطبع فيه بالتوجيه والإيحاء كأنه منظور ومسموع . فلماذا لا يجوز أن تنتقل وقائع المستقبل إلى علم الإنسان من العقل الأبدي ؟ وهل نستطيع أن نقرر وجود العقل الأبدي دون أن نقرر أنه مطلع على كل ما يقع في الأبد الأبيد ؟

فالذي يجزم باستحالة الاطلاع على المستقبل عليه « أولا » أن يجزم بالصورة الصحيحة للزمن ويجزم بأنها لا توافق الاعتراف بوجود المستقبل على وجه من الوجوه .

وعليه « ثانياً » أن يجزم باستحالة « العقل الأبدي » واستحالة الإيحاء منه إلى العقول الإنسانية .

وعليه أن يقيم الدليل على هذا المستحيل أو ذاك المستحيل ، ولا دليل .

* * *

وربما خطر لبعضهم — عند النظرة الأولى — أن استطلاع الماضي Retrocognition ظاهرة لا تثير الاعتراض ممن يعترضون على العلم بما سيكون . لأننا نعلم حوادث التاريخ كأنها من حوادث الوقت الحاضر التي تنقل إلينا من مكان بعيد ، ولأن حوادث الماضي متفق على وجودها في زمانها ، ولا اتفاق على وجود ما سيكون قبل أن يكون .

لكن الحقيقة أن استطلاع الماضي واستطلاع المستقبل على حد سواء في طبيعة الملكة التي تقدر عليه . لأن القائلين بهذه الملكة لا يقصدون معرفة الماضي

كما نعرف روايات التاريخ أو روايات الشهود . ولكنهم يقصدون أن صاحب هذه الملكة ينكشف له منظر مضى دون أن يبلغه من طريق القراءة والسماع . فيشهد مثلا مجلساً من المجالس المجهولة عنده وعند غيره، ويبصر كل جالس في مكانه الذي كان فيه ، ويسمع ما قالوه ولو لم تدونه الكتب وتردده أقوال الرواة .

فالكشف عن الماضي محتاج إذن إلى التعليل الذي يحتاج إليه الكشف عن المستقبل ، لأنه دائماً يتأتى بإيحاء عقل الى عقل ، أو بتقدير صورة للزمن لا ينتفي فيها الماضي ولا المستقبل كل الانتفاء .

* * *

وهذه الظواهر كلها — أغربها وأقربها معاً — ليست بالشيء الجديد في تاريخ الإنسان . وإنما الجديد عليها في زماننا هذا أنها دخلت في متناول البحوث العلمية ، وأن الباحثين يتخذون منها شيئاً فشيئاً مواقف من العطف والفهم أقرب من مواقفهم الأولى في مطلع « الثورة العلمية » على سلطان رجال الدين .

ففي الأزمنة الماضية كان الناس يصدقون هذه الظواهر بغير بحث في حقيقتها وحقيقة من يدعونها ، أو كانوا يكذبونها تكذيباً باتاً بغير بحث كما يفعل المصدقون .

ومضى زمن كان العالم الطبيعي فيه يحسب الإنكار المطبق أمام هذه الظواهر أجدر شيء بوقار العلم وكرامة المباحث العلمية . ومن هؤلاء عالم في طبقة اللورد كلفن Kelvin الذي قال في بعض خطبه سنة ١٨٨٣ : « والآن قد أومأت إلى حاسة سابعة محتملة وأعني بها الحاسة المغناطيسية، ولنفاسة الوقت وضيقه عن الاستطراد وابتعاد الموضوع عما نحن بصدده اود أن أدفع الظن بأنني — على أي نحو من الأنحاء — أومىء إلى شيء من قبيل تلك الخرافة التعسة : خرافة المغناطيسية الحيوانية وتحريك الموائد وتحضير الأرواح ومناجاتها والتنويم المغناطيسي المعروف بالمسمرية والكشف والتخاطب بالدقات والنقرات الروحانية ، وما إلى ذلك مما سمعنا عنه كثيراً في الزمن الاخير . فليس هناك

حاسة سابعة من هذا النوع الغامض ، وإنمـــا الكشف وما إليه نتيجة خطأ في الملاحظة على الأكثر يمتزج أحياناً بالتزوير المتعمد على عقل بسيط جانح إلى التصديق ..» .

ولكن هذا الموقف يتغير على التدريج ، ولا يشعر العالم اليوم أنه يعطي العلم حقه من الوقار حين يبتدىء بالإنكار في هذا المجال ، أو يرجح الإنكار بغير دليل قاطع يقاوم أدلة التصديق . فمن لم يقبلها من العلماء لم يأنف من اعتبارها صالحة للقبول مع توافر الأدلة وتمحيص التجربة من الوهم وخطأ الملاحظة .

على أنها سواء دخلت في مقررات العلم أو لم تدخل فيها — لن تكون هي وحدها عماد الإيمان والتصديق بالغيوب . فإن الإيمان يحتاج إلى حاسة في الإنسان غير العلم بالشيء الذي هو موضوع الإيمان ، وقد تتساوى نفسان في العلم بحقائق الكون كله ولا تتساويان بعد ذلك في طبيعة الإيمان . لأن الإنسان لا يؤمن على قدر علمه، وإنما يؤمن على قدر شعوره بما يعتقد ومجاوبته النفسية لموضوع الاعتقاد ، وطبيعة الاعتقاد في هذه الخصلة مقاربة لطبيعة الإعجاب بالجمال أو لطبيعة التذوق والتقدير للفنون . فإذا وقف اثنان أمام صورة واحدة يعلمان كل شيء عنها وعن صاحبها وعن أدواتها وألوانها وتاريخها لم يكن شرطاً لزاماً أن يتساويا في الإعجاب بها والشعور بمحاسنها كما يتساويان في العلم بكل مجهول عنها، وصدق من قال إن القداسة مزيج من العجب والرهبة ، ولا يتوقف العجب من الأمر المقدس على استكناه كل ما ينطوي عليه .

وستظل هذه الظواهر تفصيلا يجوز الشك فيه لقاعدة مقررة لا يجوز الشك فيها : ونعني بالقاعدة المقررة أن الموجودات أعم من المحسوسات :

فهناك موجودات أكثر مما نحس ، بل هناك موجودات قابلة للإحاطة بها من طريق الإحساس أكثر مما نحسه الآن بالآلات ووسائل التقريب والتضخيم .

ولا تزال غرائز الحيوان تدلنا على ضروب من الإحساس الخفي لا يعللها العلماء بأكثر من تسميتها باسم الغريزة كأنهم إذا لجأوا إلى كلمة مبهمة لا

يفهمونها كانوا أجدر بكرامة العلم من الجاهل الذي يفسر الأمر كله بقدرة إله .

وفي الغريزة عبر كثيرة لا تنسى في صدد الكلام على الحاسة الدينية وخطأ الإنسان في التعبير عنها وتمثيل موضوعاتها .

فقد يساء استخدام الغريزة ولا يقدح ذلك في نشأتها ولا في وجهتها ، كالطير الذي يهاجر طلباً للسلامة أو للغذاء فيسقط في البحر من الإعياء لأنه يختار طريقاً انقطع بطغيان البحر عليه منذ عصور . فباعث الغريزة موجود ومعقول ، وحب السلامة موجود ومعقول ، وخطأ المحاولة في استخدام الغريزة لا ينفي صدق هذا ولا صدق ذاك .

والإنسان في غريزته النوعية يخدع نفسه ويضل عن الغاية من حيث يشعر أو لا يشعر بانخداعه وضلاله : يخدع نفسه حين يحسب أنه يعمل للذته أو يعمل لذاته ، ويضل ضلالاً بعيداً حين يقتل عشرين رجلا كبيراً ليكفل القوت أو السلامة لطفل واحد هو ابنه الذي لم يلده إلا لبقاء النوع كله ، يقتل عشرين مخلوقاً نامياً من النوع لبقاء مخلوق منه غير موثوق بنمائه ، وهو يطاوع الغريزة النوعية بذلك ولا يناقضها في نهاية المطاف. لأن حب الأبناء لو توقف على الحساب العددي والموازنة بين الكثرة والقلة لما حرص الناس على الأبناء ، ولا ظفر النوع بالبقاء .

وأدخل من ذلك في ضلال الغريزة وثبوتها في وقت واحد أن الأب الذي يدس عليه طفل غير ابنه ولا يخالجه الشك فيه يحبه ويرعاه ويفتدي بقاءه ببقاء الكثيرين ، ولا يجوز من أجل ذلك أن يقال إن الغريزة النوعية « غير صحيحة » لأن الولد « غير صحيح » .

فالتعبيرات عن الحاسة الدينية تقبل الخطأ الكثير ، ولا يستفاد من ذلك أن الحاسة الدينية غير لازمة أو أنها مكذوبة النشأة في أساس التكوين .

وهذا الذي سميناه « بالوعي الكوني » هو الذي يحس بوطأة الكون فيترجمها على قدر حظه من التصور والتصوير ، فيقع الخطأ الكثير في التعبير وفي محاولة

التعبير ، ولا يمتنع من أجل ذلك أن نتلقى الكون بوعي لا شك في بواعثه وغاياته وإن أحاطت بتعبيراته شكوك وراء شكوك .

وربما كان هذا « الوعي الكوني» فرضاً صادقاً أو راجحاً ثم ينتهي به الأمر عند ذلك لو لم تكن ظاهرة التدين التي تترجم عنه ملازمة لبني آدم في جميع الأماكن ومن أقدم الأزمان ، ولو لم ينبغ في الناس أفراد من ذوي العبقرية تملؤهم روعة المجهول ... ولكن الأديان تعم البشر ولا تغنيهم عنها غريزة حب البقاء أو غريزة حب النوع أو حب المعرفة أو دواعي السياسة الاجتماعية . وقد وجدت أديان تبشر بالفناء ولا تبشر بالبقاء وتحرم على كهانها النسل ولا تعدهم شيئاً في السماء . فهي — أي الأديان — من وعي غير وعي التحفظ والسلامة وغير وعي السياسة ودواعي الاجتماع . وقام في العالم عباقرة دينيون لا يهدأون بما يجيش في نفوسهم من قوة الشعور بالمجهول . ولو كان هذا المجهول المغيب عن الناس لا يستحق أن تجيش به نفس إنسانية لصرفنا سيرة هؤلاء العباقرة بكلمة واحدة : هي كلمة الجنون الذي وصفوا به كلما ظهروا بين قبيل من المعاندين ، ولكن « المجهول المغيب » أحق من جميع الموجودات بهذا الجيشان العظيم . فالطبائع التي امتازت باستيعابه واتسعت لدوافعه لا تمتاز بخلل خلو من المعنى ، بل تمتاز باستقامة في التكوين فيها كل معنى كبير من معاني الشعور العميق .

وقد أحس الإنسان قبل أن يفكر . فلا جرم ينقضي عليه ردح من الدهر في بداءة نشأته وهو يفكر حسياً أو يفكر « لمسياً » فلا يعرف معنى الوجود إلا مرادفاً لمعنى المحسوس أو الملموس . فكل ما هو منظور أو ملموس أو مسموع فهو واقع لا شك فيه ، وكل ما خفي على النظر أو دق عن السمع واللمس فهو والمعدوم سواء .

وقد كان « للحاسة الدينية » فضل الإنقاذ الأول من هذه الجهالة الحيوانية . لأنها جعلت عالم الخفاء مستقر وجود ، ولم تتركه مستقر فناء في الأخلاد والأوهام . فتعلم الإنسان أن يؤمن بوجود شيء لا يراه ولا يلمسه بيديه . وكان هذا « فتحاً علمياً » على نحو من الأنحاء ولم ينحصر أمره في عالم التدين

والاعتقاد . لأنه وسع آفاق الوجود وفتح البصيرة للبحث عنه في عالم غير عالم المحسوسات والملموسات ولو ظل الإنسان ينكر كل شيء لا يحسه لما خسر بذلك الديانات وحدها ، بل خسر معها العلوم والمعارف وقيم الآداب والأخلاق .

ويجيء الماديون في الزمن الأخير فيحسبون أنهم جماعة تقدم وإصلاح للعقول وتقويم لمبادىء التفكير . والواقع أنهم في إنكارهم كل ما عدا المادة يرجعون القهقرى إلى أعرق العصور في القدم ، ليقولوا للناس مرة أخرى إن الموجود هو المحسوس وإن المعدوم في الأنظار والأسماع معدوم كذلك في ظاهر الوجود وخافيه ، وكل ما بينهم وبين همج البداءة من الفرق في هذا الخطأ — أن حسهم الحديث يلبس النظارة على عينيه ويضع المسماع على أذنيه !

ويحسبون على هذا أنهم يلتزمون حدود العلم الأمين حين يلتزمون حدود النفي ويصرون عليه في مسألة المسائل الكبرى . وهي مسألة الوجود ، بل مسألة الآباد التي لا ينقطع الكشف عن حقائقها في مئات السنين ولا ألوف السنين ولا ملايين السنين .

« لا » إلى آخر الزمان في هذه المسألة الكبرى ... ونحن لا نستطيع أن نقول « لا » إلى آخر الزمان في مسألة من مسائل الحجارة أو المعادن أو الأعشاب أو مسائل البيطرة وعلاج الأجسام .

وليس النوع البشري على أبواب محكمة يخاصم فيها من يثبتون أو ينكرون ويتحداهم وهو جالس في مكانه أن يثبتوا له ما ينفيه ولا يهتدي إليه بالعين والمجهار . ولكنه على الأقل أمام « معمل للتجارب » يبدأ فيه البحث ويعيده ثم يبدؤه ويعيده في كل عصر على ضوء جديد ، وهو أمام الكون خاصة لم يكد يبدأ البحث في مسألة الآباد إلا منذ مئات معدودة من السنين . فيا له من علم بديع هذا العلم الذي يقطع بالنفي إلى آخر الزمان ... دون أن يتردد أو ينتظر مفاجآت الزمان .

والواقع أن العلم كله يقوم على أساس الإيجاب والترقب ولا يقوم على أساس النفي والإصرار . وما من حقيقة علمية إلا وهي تطوي في سجلها تاريخاً طويلا من تواريخ الاحتمال والرجاء والأمل في الثبوت ،وإن تكررت دواعي الشك بل دواعي القنوط . فبحث الإنسان عن العقاقير وبحث عن المعادن وبحث عن الثمرات أو الغلات بروح ترتقب إيجاباً وثبوتاً ولا تنتقل من نفي إلى نفي ومن إصرار إلى إصرار ، وهذه هي روح العلم أمام الصغائر من شئون البيوت والأسواق، فلماذا تكون روح العلم إصراراً محضاً وإنكاراً متلاحقاً على غير أساس وبغير ترقب أو انتظار في نفي كبرى المسائل على الإطلاق ؟

وأجدر الأزمنة أن يتبدل فيه هذا الموقف هو الزمن الذي تكشفت فيه الأجسام عن عنصرها الأول، فإذا هو إشعاع أو حركة في فضاء. فاقترب الوجود المادي نفسه من عالم المعقولات والمقدورات ، وتقرر لنا أن الحواس لا تستوعب معنى الوجود في الصميم ، لأن زوال العدم هو الصفة الوحيدة اللازمة للوجود، ولا يستلزم زوال العدم تجسماً ولا تجرماً ولا كثافة من هذه الكثافات التي تتمثل بها الأجسام للحواس بل يكفي فيه حركة مقدورة أو معنى كأنه من طبيعة المعقولات . فما أضيق النطاق الذي بقي للحس الظاهر من أسرار الوجود، وما أحرانا أن نفسح للوعي الكوني وللبداهة مجالاً يتسع مع الزمان ، ولا نحسبه في نطاق يضيق ثم يضيق حتى يسقط من الحسبان .

والإنسان قد رأى نور الشمس والكواكب بعينه منذ مئات الألوف من السنين ، ولم يقبس نور الكهرباء من ينبوع الضياء الكوني إلا في القرن الأخير. فتدرج من قدح الحجر إلى حك الحطب إلى فتيلة الدهن إلى غاز الاستصباح إلى نور الكهرباء في هذا الأمد الطويل من الدهور وراء الدهور .

فوعيه الباطن لم يقصر عن وعي عينيه في هذا الشوط البعيد ، لأنه تنقل من عبادة الحصى والحشرات إلى عبادة الإله الواحد في بضعة آلاف من الدورات الشمسية ، وجاز لنا أن نقول إن ضميره كان أسرع من عينيه إلى اقتباس الضياء ، وكان أقدر من فكره على مغالبة الظلام . وأي ظلام ؟ إنه لم يكن

ظلاماً كظلام الليالي والكهوف يُسلم مقاده لكل قادح زند أو نافخ عود ، ولكنه كان ظلاماً تجوس فيه مردة الجهل وشياطين العادات وأبالسة المطامع والشهوات . فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على حاجة الضمير إلى ذلك النور الذي اهتدى به ، واهتدى إليه .

الله ذات

الله ذات واعية .

فلا يجوز في العقل ولا في الدين أن تكون له حقيقة غير هذه الحقيقة . وأن يوصف بأنه معنى لا ذات له أو قوة لا وعي لها كما وُصف في بعض المذاهب النسكية – كالمذهب البوذي – الذي تفرع على البرهمية ، ولا يخرج الباحث من مراجعته على وصف مستقر للمعنى الذي أرادوه .

والكلمة العربية التي تعبر عن هذه الحقيقة – وهي كلمة الذات – أصح الكلمات التي تقابلها في لغات الحضارة الغربية أو الشرقية المعروفة ، لأنها تمنع كثيراً من اللبس الذي يتطرق إلى الذهن من نظائر هذه الكلمة في اللاتينية ومشتقاتها .

فكلمة « برسون » تدل على « الشخص » أو هو يوحي إلى الذهن صورة شاخصة للعيان ، وأصله من برسونا Persona أو النقاب الذي كان الممثلون يلبسونه ويستعيرون به على المسرح وجوه أبطال الرواية أو وجوه بعض الأحياء العجماء التي لها دور في الرواية . ثم أطلقوا الكلمة على الأشخاص الممثلين في عقد من عقود الاتفاق ، فيقال إن الاتفاق معقود بين شخصين أي بين طرفين ، ويقال إن هذا « شخص » في الموضوع أي طرف له صفة في الموضوع ... ومن هنا أصبحت كلمة الأغراض الشخصية مرادفة للأغراض المتحيزة أو التي تنحرف عن النزاهة والاستواء .

ومن العسير أن يطلق الفيلسوف هذه الكلمة على الذات الإلهية إلا وهو

يشعر بشائبة فيها تتنزه عنها فكرة الكمال المطلق والإله المتعالي على صفات « الشخوص » والأشباه .

وكلمة « سبستانس » Substance مأخوذة من كلمة **Substare** وهي مركب مزجي من كلمة Sub بمعنى تحت وكلمة Stare بمعنى يقف ، والمراد بها الراسب الذي يستقر تحت السائل ويبقى هناك ، كأنهم عبروا بها عن الجوهر لأنه يبقى بعد زوال الأعراض ، ولأن العرض يذهب جفاء ويمكث الجوهر في مكانه ، ثم استعاروها للماهية وهي حقيقة الشيء الباقية ، ثم استعاروها « للذات » لأنها جوهر لا يتجزأ بتجزيء الأعراض .

فإذا أطلقت هذه الكلمة فالذهن ينصرف لا محالة إلى الماهية والجوهر والذات ويجعل لها حكماً واحداً في التصور والتقدير ، فيستدق عليه الفارق بين المقصود بالذات والمقصود بالجواهر والماهيات .

أما كلمة الذات باللغة العربية فلا تستلزم التشخيص في الحقيقة ولا في المجاز ، ولا تقتضي نزاهتها عن التشخيص أنها معنى بغير كيان مشتمل على الوعي والصفات الواعية . فهي تدل على الجوهر الذي تضاف إليه الأوصاف وتدل على الكائن الذي يملك صفاته فهو « ذو » تلك الصفات . ولا تعارض صفة الوعي والإرادة والاستقلال بالكيان .

وإذا قلنا إن « الكمال المطلق » ذات لم نشعر بما يومىء إلى التناقض بين صفة الكمال الذي لا حدود له وصفة « الشخص » أو المادة المستقرة بعد رسوب .

وعلى خلاف ذلك نعدد صفات الكامل المطلق الكمال فلا نستطيع أن نفهم بداهة أن هذه الصفات الموجودة تكون لغير ذات . فإن كان الكمال المطلق يشتمل على الحكمة المطلقة والجمال المطلق والخير المطلق والإرادة المطلقة فهل يكون ذلك إلا لحكيم جميل خيِّر مريد؟ وهل يكون الحكم الجميل الخير المريد معنى عامّاً بغير ذات ؟

قال شكسبير في روميو وجولييت : ماذا في اسم ؟ ... ثم قال إن الوردة تفوح عطراً ولو سميت بغير ذلك من الأسماء .

ولكن الواقع أن في الاسم كثيراً من الإيحاء حتّى في عقول الفلاسفة ، ومن إيحاء كلمة « الشخص أنها حملت بعض الفلاسفة على التفرقة بين صفات الكمال المطلق وصفات « الذات » الإلهية ، لأنهم أخطروا في بالهم الشخوص وأخطروا معها الحدود ، ففرقوا بين الكائن المطلق الكمال وبين الكائن الذي له حدود .

ومن هنا وهم بعض الفلاسفة الأوربيين أنالكمال المطلق Absolute معنى من المعاني يتعارض مع « الذاتية » ... لأن الذاتية عندهم لا تكون بغير حدود .
أما كلمة « الذات » العربية فلا توحي إلى الذهن بتة معنى له حدود ، بل يستوجب الكمال المطلق أن يكون مالكاً لكل شيء ، وأن يكون « ذاتاً » في لفظه وفي معناه .

والكمال المطلق يحتوي كل موجود ، و « الذات » الإلهية تعبر عن هذا المعنى أصح تعبير .

فالعقل يستلزم أن يكون الكمال المطلق « ذاتاً » وتتطلب كائناً « كاملا » يوصف بالكمال ، وينكر أن يجعله معنى خلواً من الوعي . لأن نقص الوعي نقص من الكمال ونقص من صفات الكامل الذي لا يعاب ... ! وأعجب الصور العقلية حقاً وجودٌ يتصف بكل كمال ولا يعلم أنه كامل ... والعلم بالذات فضلاً عن العلم بالغير أول صفات الكمال !

أما الدين فلا يستقيم بغير إله تتصل به المخلوقات ويتقبل منها الحب والرجاء ويستمع لها استماع العالم المريد .

ولا نعتقد أن ديناً من الأديان قط دان به الإنسانوهو في قرارة نفسه مجرد من فكرة « الذات الإلهية » كل التجريد .

فالبرهمية ، وقد ذاع عنها أنها دين بغير إله ، مملوءة بأسماء الأرباب والشياطين والملائكة والأرواح ، وعقيدتها الكبرى قائمة على الثالوث المؤلف من برهما وفشنو وسيفا ، وفيها للآلهة صفات الذكورة والأنوثة فضلاً عن صفات الشخوص .

ولما انشقت البوذية عن البرهمية قالت إن القضاء على الآلام لا يكون إلا بالقضاء على الوعي والتجرد من لباس الجسد للدخول في « النرفانا » ... وهي السعادة العليا التي تتاح للمخلوقات .

ولزم من أجل ذلك أن تنكر الواعية في الإنسان وفي الإله . فالنرفانا هي الإله الذي لا يعي نفسه ولا يعي غيره ، والروح الإنسانية ليست « ذاتاً » مستقلة منفصلة عن سائر الموجودات ، ولكنها سلسلة من الأعراض والأحاسيس تتمثل في صورة « الذات » للعقل المخدوع بالمظاهر والأوهام .

إلا أنها تنكر الروح المستقلة من ناحية وتقول من ناحية أخرى أن الإنسان يولد مرات بعد مرات ، وإنه يلبس أجساداً بعد أجساد ، وإن القضاء الكوني يجزيه من طريق هذا التطهير بالدخول في « النرفانا » ... حيث يفنى آخر الأمر فلا يولد ولا يحمل الجسد في صورة من صور الأحياء .

فهذا الإنسان الذي يتجدد مرة بعد مرة — بأي شيء يتجدد في الأجسام إن لم يتجدد بذات باقية وروح واعية ؟

وهذا القضاء الكوني الذي يتتبع المخلوق يتطهر بالولادات المتعاقبة ماذا عسى أن يكون وكيف يتتبع المخلوقات ويحسبها ويحاسبها إن لم تكن له صفات التقدير والوعي والقضاء ؟

فلا انفصال بين طبيعة الدين وطبيعة الذات الإنسانية والذات الإلهية ، ولا يتأتى أن يتدين الإنسان وهو ينكر ذاته وينكر ذات الإله ، ويؤمن في قرارة الضمير بالقوى الكونية التي لا تعقل ولا تعي ولا تريد .

والعقل والدين في ذلك متفقان .

فلا يفهم العقل إلهاً بغير ذات ، ولا يفهم أن الكمال المطلق يأتي لغير كائن كامل أو يتأتى له ناقصاً منه الوعي ... ثم يوصف بغاية الكمال .

وإنما عرض الوهم من التناقض بين كلمة الـ Person وكلمة Absolute أو كلمة « الشخص » وكلمة الكمال بغير حدود .

وحاول بعضهم كما يقول الفيلسوف الإنجليزي برادلي Bradley أن يقرّب الفكرة إلى الفهم فطبق عليها مذهبه المعروف عن الحقائق والظواهر ، وهو أن الظواهر تدل على الحقائق ولكنها ليست هي إياها في الجملة والتفصيل . فالكمال المطلق هو الله ، ولكن الكمال المطلق هو الحقيقة ، والله هو الظاهرة التي يحيط بها وعي الإنسان . فهي « ذات » كما تظهر له ، ومعنى مطلق من وراء هذه الظواهر ، وهي حقيقة في معناها أو معنى في حقيقتها بلا اختلاف .

ولم تكن بالفيلسوف حاجة إلى هذا التقريب لو أحضر في خلده أن الذات التي لا حدود لكمالها معقولة ، بل واجبة . فإما أن نفهم أن الكمال المطلق ذات واعية وإما أن ننفي عنه الوعي وننفي عنه الوجود ، لأنه لا كمال بغير علم بالنفس كما أسلفنا — فضلا عن العلم بالموجودات .

فمن فكر في الله فكر في ذات .

ومن آمن بالله آمن بذات .

ومن قال إن الكمال المطلق شيء وإن الله شيء آخر كما قال بعض الفلاسفة لم يكن هناك معنى لتخصيصه قوة من قوى الكون باسم الله ، من غير فارق بينها وبين تلك القوى ، يجعلها ذاتاً لها كيان .

ولم نر أحداً من المفكرين يقول بأن الله « معنى » إلا ليجعله أكبر من ذات لا ليجعله أقل من ذات . ولكنه لا يكون أكبر من ذات بالتجرد من صفات الذاتية بل بالزيادة عليها ، فينتهون بالتنزيه إلى ذات أكبر من جميع الذوات .

* * *

والقول بالذات الإلهية يبطل القول « بوحدة الوجود » كما يبطل القول بأن الله معنى لا ذات له أو قوة غير واعية .

فإن القائلين بوحدة الوجود يرون أن الكون هو الله وأن الله هو الكون ، وأنه لا فرق بين الخلق والخالق ولا بين المظاهر المادية والحقائق الإلهية . وقد صدق الفيلسوف الألماني شوبنهور حين قال إن أصحاب هذا المذهب لم يصنعوا

شيئاً سوى أنهم أضافوا مرادفاً آخر لاسم الكون ... ! فزادوا اللغة كلمة ولم يزيدوا العقل تفسيراً ولا الفلسفة مذهباً ولا الدين عقيدة . فالكون إذن و« الوجود الواحد » مترادفان لا يفسر أحدهما الآخر ولا يزيد عليه . وليس هذا هو المقصود بالبحث في الحقائق الإلهية . لأنك لا تفسر الكلمة بكلمة تؤدي معناها بعينه ولا تفسر الشيء بالشيء نفسه أو لا تفسر الماء بالماء كما يقول بعض الأدباء .

فما الله ؟ هو الكون كله !

وما الكون كله ؟ هو الله !

وهذا قصارى ما يؤخذ من « وحدة الوجود » وليس هو البحث المقصود ، وكأنما التفسير النهائي لجملة الأشياء يلجئنا إلى « ذات» لا محالة تقصد وتريد . فلا تفسر القوى بالقوى ولا المعاني بالمعاني ولا الأكوان بالأكوان ، ولكنك تفسرها جميعاً « بذات » مريدة فيسمى ذلك تفسيراً تستريح إليه العقول . وشوبنهور نفسه يقرر أن الوجود فكرة وإرادة ، وأن الفكرة هي القداسة الإلهية والإرادة هي مظاهرها الدنيوية ، وأن الفكرة تدخل في حيز الإرادة لتعود إلى حالة لا سعي فيها ولا عنت ولا مجاهدة، لأن العنت كله من الإرادة في محاولاتها الكثيرة. فلا تفسير لشيء لا فكرة له ولا إرادة إلا بكيان يفكر ويريد ، وليس تصور « الذات الإلهية » عادة إنسانية تعودها الإنسان بغير تفكير – كما يرى بعض النفسانيين – لأنه تعوّد أن يخلع صورته على الأشياء ويحسبها ظلالاً له تحكيه في ملامحه وخوافيه ، ولكنها نهاية ما يدركه العقل واعياً صاحياً مع التفكير ومتابعة التفكير إلى أقصى مداه .

مصر

رأينا في فصل سابق أن تعميم العقائد المشتركة كان مرتهناً بقيام الدول الواسعة التي تَطوي فيها عقائد القبائل والشعوب وتتجاوز أطرافها حدود الأمة الواحدة ، ونسميها في عصرنا هذا بالإمبراطوريات .

والدول التي كان لها القسط الأوفى من هذه المساهمة العامة هي مصر وبابل والهند والصين وفارس واليونان ، وتضاف إليها اليابان لولا أنها في عزلتها قد أخذت أكثر مما أعطت ، وقد تخلفت من جراء هذه العزلة عن بعض الأطوار التي سبقتها إليها الأمم المتصلة بالمعاملات والمبادلات ، فتلبثت ببقايا الوثنية إلى مطلع العصر الحديث .

أما مصر فتاريخها في أطوار الاعتقاد هو تاريخ جميع الأطوار من أدناها إلى أعلاها بلا استثناء .

فشاعت فيها « الطواطم » في كلا الوجهين قبل اتحاد المملكة وبعد هذا الاتحاد ، ويظن الكثيرون من علماء الأديان أن تقديس الصقر والنسر وابن آوى والقط والنسناس والجعل والتمساح وغير ذلك من فصائل الحيوان هي بقايا « طوطمية » تحولت مع الزمن إلى رموز ، ثم فقدت معنى الرموز واندمجت في العبادات المترقية على شكل من الأشكال .

وشاعت فيها عقيدة الأرواح ، فكان المصريون من أعرق الأمم التي آمنت بالروح ثم آمنت بالبعث والثواب والعقاب بعد الموت ، ورمزوا للروح « كا » تارة بزهرة وتارة بصورة طائر ذي وجه آدمي وتارة بتمساح أو ثعبان ، وقالوا بأن الروح تتشكل بجميع الأشكال ولكنهم لم يقولوا بتناسخ الأرواح ،

ولعل اختلاف الرموز من بقايا اختلاف الطواطم في زمان سابق لزمان الاعتقاد بالبعث والثواب والعقاب .

أما أثبت العبادات وأعمها وأقواها وأبقاها إلى آخر العصور فهي عبادة الموتى والأسلاف دون مراء . فإن عناية المصري بتشييد القبور وتحنيط الجثث وإحياء الذكريات لا تفوقها عناية شعب من الشعوب . وقد بقيت آثار هذه العبادة إلى ما بعد بزوغ الديانة الشمسية وتمثيل أوزيريس بالشمس الغاربة ، ثم تغليبه على عالم الخلود وموازين الجزاء .

فقصه أوزيريس هي قصة آدمية تشير إلى واقعة قديمة مما كان يحدث في الأسر المالكة في تلك العصور السحيقة ، وهي قصة ملك أحبه شعبه ثم نازعه أخوه « ست » عرشه فقتله . وجاءت زوجته « إيزيس » بعد ذلك بابن اسمه « حوريس » أخفته في مكان قصي حتى بلغ الرشد ... فرشحته للملك فساعده أنصار أبيه على بلوغ حقه في العرش ؛ وعاد « ست » ينازعه هذا الحق أمام الآلهة ويدعي عليه أنه ابن « غير شرعي » من أب غير أوزيريس ، فلم تقبل الآلهة دعواه وحكمت لحوريس بالميراث .

وتقول الأسطورة إن أوزيريس ولد في الوجه البحري ولكن رأسه دفن في الصعيد بقرية العرابة المدفونة ، وان « ست » حين قتله فرق أعضاءه بين البقاع لكيلا يعثر على جثته أحد من المطالبين بثأره ، ولكن إيزيس جمعت هذه الأعضاء وتعهدتها بالصلوات والأسحار حتى دبت فيها الروح من جديد وحملت منه بحوريس الذي قدح عمه في نسبه . وقد حاول أوزيريس أن يعود إلى الملك فأخفق في محاولته وقنع بالسيادة على عالم «المغرب» حيث تغيب الشمس وتنحدر إلى عالم الأموات .

وللخصب شأن لا يستغرب في ديانة مصر القديمة . فهم يرمزون إلى الكون كله ببقرة تطلع من بطنها النجوم ، أو بامرأة تنحني على الأرض بذراعيها ويسندها « شو » إله الهواء بكلتا يديه ، وأقدم ما تخيلوه في أصل العالم المعمور أنه عيلم واسع من الماء طفت عليه بيضة عظيمة خرج منها رب الشمس وأنجب

أربعة من الأبناء هم « شو » و « تفنوت » القائمان بالفضاء « وجب » رب الأرض و « نوت » رب السماء . ثم تزاوجت السماء والأرض فولد لهما أوزيريس وإيزيس وست و نفتيس، فهم تسعة آلهة في مبدأ الخليقة نشأوا من تزاوج الأرض والسماء . ثم استقر الأمر لثلاثة من هؤلاء هم أوزيريس وإيزيس وحورس ، وهناك صيغة أخرى من قصة الخلق فحواها أن « رع » كان مزدوج الطبيعة ، فتولد منه الخلق فهو منهم بمثابة الأبوين .

ويتراءى لفريق من المؤرخين أن « رع » نفسه — إله الشمس — كان ملكاً على مصر في زمن من الأزمان ، ويستدلون على ذلك بخلاصة قصته المتداولة في الأساطير : وهي أن رع ملك الدنيا قبل سكانها من البشر فتمرد عليه رعاياه فسلط عليهم ربة النقمة « حاتحور » ثم أشفق عليهم من قسوتها فاعتزل الدنيا وحملته بقرة السماء على ظهرها فأقام هناك ، واندمج شخصه بعد حين بشخص أوزيريس .

وقد فعل غربال الزمن فعله في تصفية هذه العقائد والأرباب . فنسي أوزيريس السلف المعبود ورسخ في الأذهان وصف أوزيريس الشمس القائمة على المغرب أو عالم الأموات ، وتوحدت عبادة الشمس بمعناها وتعددت بأسمائها ومواعدها ، وجمعت بينها كلها عبادة « أمون » ثم عبادة أتون .

وعبادة « أتون » هي أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

فلم يكن المراد بأتون قرص الشمس ولا نورها المحسوس بالعيون ، ولكن الشمس نفسها كانت رمزاً محسوساً للإله الواحد المتفرد بالخلق في الأرض والسماء .

وإنما جاء هذا الطور بعد تمهيدات دينية وسياسية تهيأت لمصر ولم تتهيأ لغيرها من الدول الكبرى في تلك الفترة .

فكانت في أقاليم القطر — قبل ظهور عبادة أتون — ثلاث عبادات « شمسية » تتنافس في المبادىء الروحية ووسائل النفوذ التي تتغلب بها على النظراء .

فكانت منف تدين لإله الشمس باسم فتاح .

وكانت عين شمس أو « هليوبوليس » تدين له باسم رع وأحياناً باسم « أتوم » . وكانت طيبة تدين له باسم أمون .

ويتبين من مراجعة الدعوات والصلوات المحفوظة أن عبادة « فتاح » كانت أقرب هذه العبادات إلى المعاني الروحية . فارتفع « فتاح » من صانع حاذق بالبناء والتماثيل وسائر الصناعات إلى صانع مختص بإقامة الهيكل المقدس الذي أصبح في اعتقادهم مثالاً للعالم بأرضه وسمائه ، وما هي إلا خطوة واحدة بين بناء الهيكل الذي يمثل العالم كله وبناء العالم كله من أقدم الأزمان قبل خلق الإنسان . وارتفع فتاح طبقة أخرى في مدارج القدرة والتنزه عن النظراء ، فتعالى عن الأجساد الشاخصة للحس وتمثل لعباده روحاً مسيطرة على كل حركة وكل سكون في جميع المخلوقات ، من ذات حياة وغير ذات حياة . فكان فتاح كما جاء في إحدى صلواته هو « الفؤاد واللسان للمعبودات ، ومنه يبدأ الفهم والمقال ، فلا ينبعث من ذهن ولا لسان فكر أو قول بين الأرباب أو الناس أو الأحياء أو كل ذي وجود إلا وهو من وحي فتاح ... » .

وما وجد شيء من الأشياء قط إلا بكلمة من لسانه صدرت عن خاطر في فؤاده . فكلمته هي الخلق والتكوين .

ويرى المؤرخ الكبير برستيد أن عقيدة فتاح هي أساس مذهب الخلق بالكلمة Logos عند الإغريق الأقدمين . فلا حاجة بالخالق إلى أداة للخلق غير أن يشاء ويأمر فإذا ما يشاء موجود كما شاء . ومن المحتمل جداً أن كهان تلك العصور تدرجوا إلى فهم قوة الكلمة الإلهية من فهمهم لقوة الكلمة على لسان الساحر وقوة الكلمة على لسان المبتهل بالصلاة .

ونسج كهان عين شمس على منوال كهان منف في تنزيه رع وتجريده من ملابسات الحس والتجسيد ، ولا سيما بعد تفرغهم للعبادة الروحية وانصرافهم إليها كلما تعاظم سلطان الكهان في طيبة وتفاقمت سيطرتهم على مناصب الدولة ، وهم كهان أمون .

وقد توطدت كهانة أمون في أيام المملكة الوسطى وبلغت أوجها بعد عهد تحوتمس الثالث أكبر ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، ومرشح أمون — أو كهان أمون بعبارة أخرى — للسيادة المطلقة على أرجاء البلاد .

واتسعت الدولة المصرية في عهد تحوتمس الثالث حتى تجاوزت حدودها بلاد النوبة والصومال في الجنوب ، وامتدت إلى الفرات وآسيا الصغرى في الشرق والشمال ، وكان اتساع الأفق في السياسة مقترناً باتساع الأفق في تصور العالم وما ينبغي لخالقه من التعظيم والتنزيه ، فارتقى الفكر الإنساني في هذا العهد من البيئة المحلية إلى بيئة عالمية ، ثم إلى بيئة أبدية تنطوي فيها أبعاد المكان والزمان .

وطغى نفوذ الكهان الأمونيين على كل نفوذ في البلاد من جراء هذه القربى بينهم وبين الملك العظيم . فاستأثر رئيسهم بلقب « الرئيس » في أنحاء الديار ، وضيقوا الخناق على كهان رع وفتاح ، ولزموا حدودهم مع الملك العظيم في أثناء حياته لقوته ورهبته وعلو اسمه بالمظاهر والفتوح ، وفرط ما أغدق عليهم من الهبات والحبوس والأوقاف ، ولكنهم ذهبوا في الطغيان كل مذهب على عهد خلفائه ، فطمعوا في نفوذ الملك بعد اطمئنانهم إلى نفوذ الدين .

ومن هنا خطر للملوك خاطر الخلاص من هذا النفوذ ، فتكلم أمنحتب الثالث عن أمون في بعض أوامره وتسجيلاته باسم آخر : هو اسم آتون .

وساعد على هذا التبديل الطفيف أن صفات الإله في أذهان المصريين كانت أقرب إلى صفاته عند كهان منف وعين شمس ، وأن مسالك الكهان الدنيويين من شيعة أمون لم تكن وفاق الآداب والعادات التي استلزمها ارتقاء المصريين في فهم كمال الإله .

فلما تولى الملك امنحتب الرابع — أو إخناتون كما تسمى بعد ذلك — كان التمهيد للعبادة الجديدة قد بلغ مداه ، وكان اتساع الأفق في النظر إلى الدنيا والنظر إلى صفات خالقها قد وسع له المجال للابتكار والتجديد ، وأعان عبقريته على التدعيم بعد التمهيد .

* * *

وقد حفظت لنا النقوش والتماثيل والألواح وأوراق البردي كثيراً من أخبار إخناتون وأحواله وملامحه وسيرته في مملكته وفي بيته، وتكفي لمحات عابرة إلى شكل جمجمته وتركيب بنيته وأساليب تفكيره ومناحي عباراته للعلم بأنه كان عبقرياً من أولئك العباقرة الملهمين ، الذين يحدثنا النفسانيون أنهم يتلقون العبقرية على حساب أبدانهم وهناءتهم في حياتهم ، كما نقول في تعبير هذه الأيام .

وكان الفتى إخناتون حدثاً ناشئاً عند ولايته الملك ، معروفاً بالعكوف على التأمل والتفكير والخلوة بنفسه في صلواته ومناجاته ، وكان لطيف الحس حالم النفس منصرفاً عن طلب البأس والقوة ومتابعة الفتوح والغزوات التي توطد بها ملك آبائه وأجداده فطمع فيه كهنة آمون ، وخيل إليهم أنهم مالكون زمام الأمر كله على يديه .

غير أن الفتى الحالم كان عبقرياً يحب الابتكار والتفقه في العبادة بالعقل والبداهة المستقلة ، ولم يكن تقليدياً يلقي بزمامه لمن يسيطر عليه .

وكان مع لطف حسه قوي النفس صعب المراس ، فاستنكر دسائس الأمونيين وتهافتهم على المناصب والأموال .

فقمعهم قمعاً شديداً ومحا اسم أمون من كل مكان حتى هياكل أبيه واسمه الذي يبدأ باسم أمون ، وجهر بعبارة « آتون » دون سواه ، وهجر العاصمة التي ساد فيها هذا الإله إلى عاصمة أخرى في أواسط الصعيد ، وهبها لربه الواحد الأحد وسماها « أخت آتون » .

وألغى جميع الأرباب وأعوانهم من الأرواح والجنة ، وأولهم الرب القديم أوزيريس ، فكان هذا من أسباب غلبته يومئذ ، وأسباب التمرد عليه بعد حين .

ومن صلوات إخناتون تُعرف صفات الله الذي دعا إلى عبادته دون سواه ، فإذا هي أعلى الصفات التي ارتقى اليها فهم البشر قديماً في إدراك كمال الإله .

فهو الحي المبدىء الحياة ، الملك الذي لا شريك له في الملك ، خالق الجنين

وخالق النطفة التي ينمو منها الجنين ، نافث الأنفاس الحية في كل مخلوق، بعيد بكماله قريب بآلائه ، تسبح باسمه الخلائق على الأرض والطير في الهواء ، وترقص الحملان من مرح في الحقول فهي تصلي له وتستجيب لأمره، ويسمع الفرخُ في البيضة دعاءه فيخرج إلى نور النهار واثباً على قدميه ، قد بسط الأرض ورفع السماء وأسبغ عليهما حلل الجمال ، وهو ملء البصر وملء الفؤاد ، وهو هو الوجود وواهب الوجود ، وشعوب الأرض كلها عبيده لأنه هو الذي أقام كل شعب في موطنه ليأخذ نصيبه من خيرات الأرض ومن أيام العمر في رعاية الواحد الأحد آتون .

وقد عقد كل من هنري برستيد وأرثر ويجال Weigall مقارنة بين صلوات إخناتون وأحد المزامير العبرية فاتفقت المعاني بينهما اتفاقاً لا ينسب إلى توارد الخواطر والمصادفات .

ومن أمثلتها قول إخناتون : « إذا ما هبطت في أفق المغرب أظلمت الأرض كأنها ماتت ... فتخرج الأسود من عرائنها والثعابين من جحورها ... »

ويقابله المزمور الرابع بعد المائة وفيه إنك « تجعل ظلمة فيصير ليل يدب فيه حيوان الوعر وتزمجر الأشبال لتخطف، ولتلتمس من الله طعامها » .

ويمضي المزمور قائلاً : « . تشرق الشمس فتجتمع وفي مآويها تربض والإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله في المساء . ما أعظم أعمالك! يا رب كلها بحكمة صنعت . والأرض ملآنة من غناك ، وهذا البحر الكبير الواسع الأطراف ، وهناك دبابات بلا عدد صغار مع كبار ، هناك تجري السفن ، ولوياثان (التمساح) خلقته ليلعب فيه ... » .

ومثله في صلوات إخناتون : « ما أكثر خلائقك التي نجهلها . أنت الإله الأحد الذي لا إله غيره ، خلقت الأرض بمشيئتك ، وتفردت فعمرت الكون بالإنسان والحيوان الكبار والصغار » .

« ... تسير السفن مع التيار وفي وجهه ، وكل طريق يتفتح للسالك ، لأنك أشرقت في السماء . ويرقص السمك في النهر أمامك ، وينفذ ضياؤك إلى أغوار البحار » .

« ... وتضيء فتزول الظلمة ... وقد أيقظتهم فيغتسلون ويسعون ويرفعون أيديهم إليك ... ويمضي سكان العالم يعملون » .

* * *

وقد خطر لويجال — كما قال في كتابه عن حياة إخناتون وعصره — أن آتون وآتوم تصحيف « أدوناي » بمعنى السيد أو الإله في اللغة العبرية ، وأن إخناتون ورث آراءه من أمه وهي تنتمي إلى سلالة أسيوية من شعب يقيم بين سورية وآسيا الصغرى ، حيث يعبد دوناي أو آتون، على مختلف اللهجات .

وهذا وهم جلبه التشابه في الأسماء . لأن « آتوم » من أقدم الأرباب المصرية في معابد رع ، وقد كان رب الكون حيث لا شيء غير اللجة الطخياء المسماة في الأساطير المصرية « نون » ... وجاء في الفقرة السابعة عشرة من القسم الأول في كتاب الموتى على لسانه : « .. وأنا آتوم متفرداً في نون ، وأنا رع حيث يبزغ مع الفجر ليبسط يديه على الدنيا التي خلقها ... » .

وكانوا يمثلونه على تمثال رجل ملتح يضع على رأسه تاجي القطرين ، أي التاج الأحمر لمصر السفلى والتاج الأبيض لمصر العليا مجتمعين ، ويجعلونه رئيس مجلس الآلهة باسم رع هيرختي أتوم **Ra-Herakhty-atum**

فهو رب أصيل وليس بالرب المستعار ، ولا شبه بينه وبين أدوناي أو أدونيس — في صيغته اليونانية — لأن أدونيس رب الربيع والغرام يتخيلونه في ميسم الشباب ويزعمونه زوج فينوس أو الزهرة ، ولا شيء من هذا في خصائص آتوم الذي يبدو على مثال الكهول ذوي اللحى ، ويتقلد مفاتح الحكم والحكمة ، ويرجع إلى مبدأ الخليقة حيث لا شيء غير الماء والظلام .

والأرباب الشمسيون أشبه بهياكل عين شمس لأنها أرباب أصيلة فيها لا تحتاج تلك الهياكل إلى استعارتها من ديانة أجنبية . ولا سيما الرب الذي يحمل تاجي القطرين ويرأس المحكمة الإلهية في السماء .

وقد كانت لظهور آتون تمهيدات لازمة لم تحدث في غير المملكة المصرية ،

وهي تمهيدات الإمبراطورية ، وتمهيدات التنافس بين آمون ورع وفتاح وتمهيدات العبقرية التي تبشر بالدين الجديد .

وكانت لأتون خصائص متفردة لم يشركه فيها إله آخر من آلهة الأمم القريبة إلى مصر ، وهذا هو المهم في نشوء الديانات وليس المهم مجرد التشابه في مخارج الحروف. فليس أدونيس عند اليونان كأدوناي عند العبريين ، وليس هذا ولا ذاك كأتوم في معبد عين شمس أو غيره من المعابد المصرية ، وليس هؤلاء جميعاً كالإله آتون الذي دعا إليه إخناتون . فلا وجود لآتون بهذه الخصائص لو لم تسبقه التمهيدات القديمة التي مرت بعبادة آتوم في مصر ، ومنها اتساع الدولة وإيمان المصريين بصفات رع وفتاح وآمون ، وحاجة الزمن إلى فهم جديد لصفات الكمال في الإله ، ثم عبقرية إخناتون التي تممت بابتكارها واجترائها ما بدأه التاريخ .

وقد كان عرب الجاهلية مثلاً يعرفون اسم الله كما نعرفه اليوم ، ولكن الله الذي وصفوه والله الذي وصفه الإسلام لا يتشابهان بغير الحروف ، وبينهما من الفارق كما بين أبعد الأرباب .

* * *

على أن ويجال يقابل بين معاني إخناتون ومعاني المزمور فيرجح الاستعارة بينهما ، ويعود فيرجح أن إخناتون كان في غنى عن الاستعارة لما طبع عليه من العبقرية الدينية وما اتسم به كلامه من طابع الابتكار .

وقد تناول العلامة « فرويد » مسألة المقابلة بين عقائد إخناتون والعقائد العبرية فألف آخر كتبه في موضوع هذه المقابلة وسماه « موسى والوحدانية » Moses and monotheism وانتهى من مقابلاته وفروضه إلى تقرير رأيه المرجح لديه : وهو أن موسى عليه السلام تربى في مصر في كنف الوحدانية ونشأ في أعقاب المعركة بين آتون وآمون ، واستعد للنبوة في هذه البيئة الموحدة فعلم بني اسرائيل كيف يوحدون الله ويعظمون صفاته وآلاءه ، وكان خروج بني إسرائيل فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، أي في

الجيل التالي لانتشار التوحيد بالبلاد المصرية . واسترسل فرويد في تقديراته – وهو من بني إسرائيل – حتى ظن أن موسى عليه السلام من دم مصري ، وليس من اللاويين كما جاء في العهد القديم .

لكن المحقق أن بني إسرائيل قد أخذوا كثيراً من عقائد المصريين وشعائرهم قبل عهد إخناتون بعدة قرون ، وبعده بعدة قرون .

إلا أن هذه الدعوة – دعوة إخناتون – كانت صحوة وجيزة تبعتها نكسة سريعة من جراء الأحداث السياسية التي أحاطت بالدولة ، ومن كيد الكهان المخلوعين في طيبة وما جاورها ، وهم كهان آمون الأقوياء الذين سلبهم إخناتون مناصبهم وحبوسهم وسيطرتهم على العرش والمحراب . ولعلهم كانوا مخفقين في كيدهم لو اصطنع هذا المصلح الكبير شيئاً من الدهاء ولم تدفعه الحماسة الروحانية وراء كل تقدير وتدبير . لأنه هجم على الشعب في أعز العقائد عليه وهي عقيدته في أساطير عالم الأموات وشعائر الإله أوزيريس رب المغرب والخلود . فأنكر سلطان أوزيريس على الأرواح وجرده من قدرة الحكم عليها بالعقاب أو العذاب . فلم يؤمن بجحيم أوزيريس ولا بجحيم غيره وبشر الناس بحياة خالدة كحياة الأطياف ... تحياها الروح بين الهدوء في ظلمة الليل واستقبال الضياء من وجه آتون

ولهذا بقيت عبادة أوزيريس وإيزيس بين المصريين كما بقيت بين اليونان والرومان وانطوت أيام آتون بانطواء أيام نبي آتون .

الهند

ترجع الديانة الهندية القديمة إلى أزمنة أقدم من العصر الذي دونت فيه أسفارها المعروفة بالكتب الفيدية .

ويختلف المؤرخون المختصون بالهند في العصر الذي تم فيه هذا التدوين ، فمنهم من يرده إلى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، ومنهم من يرده إلى ستة آلاف سنة قبل الميلاد . ولكنهم لا يختلفون في سبق الديانة الهندية لهذا العصر بزمن طويل .

ومن المتفق عليه أن الديانة الهندية القديمة مزيج من شعائر الهنود الأصلاء وشعائر القبائل الآرية التي أغارت على الهند قبل الميلاد بعدة قرون . وقد كانت هذه القبائل الآرية تقيم على البقاع الوسطى بين الهند ووادي النهرين ، فاتجهت طائفة منها غرباً الى أوربة ،واتجهت طائفة منها شرقاً إلى الأقاليم الهندية من شمالها إلى جنوبها على السواحل الغربية ، قبل أن تتوغل منها إلى جميع أنحاء البلاد.

ويعتقد فريق من المؤرخين أن الديانة الهندية القديمة لا تخلو من قبس منقول إليها من البابلية والمصرية ، ويعللون ذلك بتوسط الموقع الذي أقام فيه الآريون الأولون ،وأنهم لم تكن لهم في موقعهم ذاك حضارة سابقة لحضارة مصر وبابل وآشور . فلا خلاف في أن تاريخ الأسر المصرية أسبق من تاريخ الكتب الفيدية وأسبق من كل حضارة عرفها التاريخ للآريين ، حيثما أقاموا من البقاع الأسيوية أو الأوربية .

وقد اشتملت الديانة الهندية القديمة على أنواع شتى من الآلهة التي تقدمت الإشارة إليها .

ففيها آلهة تمثل قوى الطبيعة وتنسب إليها . فيذكرون المطر ويشتقون منه اسم « الممطر » فهو الإله الذي يتوجهون إليه في طلب الغيث . ومن هنا اسم « أندرا » إله السحاب المشتق من كلمة « أندو » بمعنى المطر أو بمعنى السحاب .

وكذلك يذكرون إله النار وإله النور وإله الريح وإله البحار ويجمعونها في ديانة شمسية تلتقي بأنواع شتى من الديانات .

وأقدم معاني الإله عندهم معنى « المعطي » أو ديفا Deva بلغتهم التي بقيت آثار منها في اليونانية واللاتينية وبعض اللغات الأوربية الحديثة . فكلمة « ديو » الفرنسية Dieu ، وكلمة ديتي Deity الإنجليزية ، وكلمة زيوس اليونانية القديمة ، مأخوذة من أصلها الهندي المتقدم . ويرجحون أن جوبيتر عند اللاتين - وهو « المشتري » في اصطلاح علم الهيئة - هو مزيج من كلمة المعطي وكلمة الأب ، بمعنى أبي العطاء أو الأب المعطي للجميع ، وهما في الهندية القديمة ديوس بيتار Dyaus-peter ... إذ لا تزال كلمة الأب في أكثر اللغات الأوربية متفرعة من هذا الجذر الأصيل على تعدد اللهجات ومخارج الحروف.

واشتملت البرهمية القديمة على عبادة الأسلاف كما اشتملت على عبادة المظاهر الطبيعية . فتقديس الملك عندهم إنما هو تقليد موروث من تقديس جد القبيلة ، تحول إلى تقديس الرئيس الأكبر في الدولة بعد أن تحولت القبيلة إلى الأمة . ويحسب العلامة إليوت سميث - كما قال في كتابه « المبادىء » The Beginning : « إن مراسم تقديس الملك التي لا تزال مرعية في جوار الهند كانت تحاكي مراسم قصة الخليقة كما تخيلها المصريون ... فلم يكن حق الملك مستمداً من الجلوس على العرش أو من البناء بالمملكة التي تنقل إليه حقوقه الملكية ، ولكنه يتولى هذا الحق بعد تقديسه في حفل يمثل قصة الخليقة ، وكأنهم يعنون بهذا أن الملك يستمد من ذلك التقديس قدرته على الخلق ومنح الحياة ، وهي قدرة لا غنى عنها لاضطلاعه بالفرائض الملكية » .

وقصة الخليقة في الهند تشبه قصة الخليقة المصرية في أكثر من صيغة واحدة من صيغها العديدة : فالحياة خرجت من بيضة « ذهبية » كانت تطفو على الماء في العماء ، والإله الأكبر كان ذكراً وأنثى فهو الأب والأم للأحياء كما جاء

عن « رع » في بعض الأساطير المصرية ، وبناء العالم من صنع بناء ماهر في أساطير مصر والهند على السواء ، وتتفق مصر وبابل والهند على أن الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة .. فأمرها بأن توجد فبرزت على الفور إلى حيز الوجود .

* * *

وتعززت في الهند عبادة « الطواطم » بعقيدتهم في وحدة الوجود وتناسخ الأرواح كما تعززت بعقيدة الحلول .

فعبدوا الحيوان على اعتباره جداً حقيقياً أو رمزياً للأسرة ثم للقبيلة . ثم تخلفت عبادة الحيوان حتى آمنوا بأن الله يتجلى في كل موجود أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه ، وآمنوا بتناسخ الأرواح فجاز عندهم أن يكون الحيوان جداً قديماً أو صديقاً عائداً إلى الحياة في محنة التكفير والتطهير . فعاشت عندهم الطوطمية في أرقى العصور كما عاشت في عصور الهمجية ، لهذا الامتزاج بين الاعتقاد الحديث والاعتقاد القديم .

لكنهم خلصوا كما خلص غيرهم من هذه العبادات إلى الإيمان بالإله الواحد ، وإن اختلفوا في المنهج الذي سلكوه . فلم يكن إيمانهم به على الأساس الذي قام عليه إيمان الشعوب الأخرى بالتوحيد .

فهم قد بدأوا بإبطال جميع المظاهر فنسبوا إليها التعدد والاختلاف لأنها تتكرر وتزول وتستتر من ورائها الحقيقة الأبدية التي لا تتكرر ولا تزول ، وتلك هي حقيقة القضاء والقدر ، التي تقدر للآلهة وتقضي عليهم كما تقدر لسائر الموجودات وتقضي عليها في أجلها المحدود .

وهنا ذهب حكماؤهم إلى مذهبين غير متفقين : فبعضهم تمثل تلك الحقيقة إلهاً واحداً قريباً من الإله الواحد في أكثر ديانات التوحيد . قال ماكس موللر الثقة الحجة في اللغات الآرية : « أياً كان العصر الذي تم فيه جمع الأناشيد المسطورة في الرجفيدا فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون بالله الأحد الذي لا هو بذكر ولا بأنثى ولا تحده أحوال التشخيص وقيود الطبيعة

الإنسانية ، وارتفع شعراء الفيدا في الواقع إلى أوج في إدراكهم لكنه الربوبية لم يترق إليه مرة أخرى غير أناس من فلاسفة الإسكندرية المسيحيين ، ولكنه فوق هذا لا يزال أرفع وأعلى مما يطيف بأذهان قوم يدعون أنفسهم بالمسيحيين ».

وتبدو مداناة هؤلاء البراهمة لمذهب الموحد المؤمن « بالذات الإلهية » من إيمانهم بالخلاص على يد الله ، وبقاء فريق منهم بعد ذلك بمئات السنين ينقسمون في شرح سبيل الخلاص على نهجهم الذي لا نستغربه من قوم يعظمون الحيوان ذلك التعظيم . فمنهم من يسمي سبيل الخلاص بالسبيل القردية ومنهم من يسميها بالسبيل القطية ، ويقصدون بهذه التسمية أن الله يخلص الإنسان إذا تشبث به كما يتشبث ولد القرد الصغير بأمه وهي تصعد به إلى رؤوس الأشجار ، أو أن الله على اعتقاد الآخرين يخلص الإنسان وهو مغمض العينين مستسلم للقضاء ، كما يستسلم ولد القطة لأمه وهي تحمله مغمضاً من مكان إلى مكان .

فالله الذي يخلص عباده هذا الخلاص أو ذاك هو « ذات » على كلتا الحالتين يتشبث بها العابد أو يستسلم لقضائها فتسهر عليه وإن غفل عنها .

ويتسمى هذا الإله بثلاثة أسماء على حسب فعله في الوجود . فهو « برهما » حين يكون الموجد الخالق ، وهو فشنو حين يكون الواقي المحافظ ، وهو سيفا حين يكون المهلك الهادم . ولا نهاية للتداخل ولا للترجيح بين هذه الأسماء والوظائف والأفعال ، على تباين النحل والملل والأجيال .

أما الفريق الثاني فالحقيقة الأبدية عنده معنى ليس له قوام من « الذات » الواعية ، وإنما هو قانون يقضي بتلازم الآثار والمؤثرات ، ويقابل الاعتقاد بالقضاء والقدر عند المؤمنين بالأديان الكتابية ، ونعني بها الإسرائيلية والمسيحية والإسلام .

إلا أنه قضاء يسري على الآلهة كما يسري على البشر ، ويتغلغل في طبائع الخالقين كما يتغلغل في طبائع المخلوقات ، وحكمه الذي لا مرد له هو حكم التغير الدائم والفناء ، وحكم الإعادة والإبداء .

ولا نحسب أن أحداً من الأقدمين بلغ في إعظام الأكوان المادية مبلغ

البراهمة ، سواء في تقدير السعة أو تقدير القدم أو تقدير البقاء . فإن أناساً من الأقدمين لم يجاوزوا بعمر الأكوان المادية بضعة آلاف سنة . وأناساً منهم جعلوا لها خلقاً واحداً وفناءً واحداً خلال أجل مقدور من القرون . ولكن البراهمة جعلوا له أربعة أعمار تساوي اثني عشر ألف سنة إلهية وأربعة ملايين وثلثمائة وعشرين ألف سنة شمسية ، وبعض المتأخرين يضاعفها ألف ضعف ويقولون جميعاً إنها دورة واحدة من دورات الوجود ، وإن هذه الدورة هي يوم يقظة يقابله ليل هجوع ، ينقضي بين كل دورة فنيت وكل دورة آخذة في الابتداء .

والقانون الأبدي Karma يقلب هذه الأدوار فيبدئها ويحفظها ويفنيها ، ثم يختم هذا النهار بليل من ليالي الهجوع ، ثم يعود فيطلع النهار كرة أخرى دواليك إلى غير انتهاء ، لأنه لا انتهاء للزمان .

ويتضاءل الإنسان الفاني كلما تعاظم هذا الفناء الخالد أو هذا الخلود الذي يتجدد بالفناء ، فليس للإنسان حساب كبير في هذه الحسبة الأبدية . لأنه « رقم » ضئيل يغرق في طوفان الأرقام التي لا يحيط بها العد والإحصاء .

وعلى هذه القاعدة قامت البوذية التي بشر بها البوذا جوتاما قبل الميلاد المسيحي بحوالي خمسة قرون .

فقبل « جوتاما » بمئات السنين كان نساك الهند يتغنون بمضامين النشيد المرهوب الذي ترجمه ماكس موللر إلى الإنجليزية وجاء فيه عما كان قبل أن يكان أو يكون :

« حينذاك لم يكن ما وجد أو ما لم يوجد ، ولم يكن ما تثبته ولا ما تنفيه .

« لا أجواء ولا سماء وراء الأجواء .

« وماذا عساها تنطوي عليه ؟ أين كانت وأين قرارها ؟ أهي هاوية الماء التي ليس لها من قرار ؟

« لم يكن موت ، فلم يكن خلود .

« لم يكن ما يموت ، فلم يكن ما ليس يموت .

« ولم يكن ثمة نهار ولا ليل . ولم يكن إلا « الأحد » يتنفس حيث لا أنفاس . ولا شيء سواه .

« وكان البدء في ظلام : عيلم بلا ضياء .

« ومن البذرة في تلك القشرة قام « الأحد » بحرارة الحياة .

« وانتصر الحب حين نبتت البذرة من لباب العقل السرمدي ، وناجى الشعراء قلوبهم فتبينوا بالحكمة ما هو مما ليس هو . فقد نفذ شعاع القلب خلال ما هنالك ، فماذا نظروا فوق الأحد وماذا نظروا دونه ؟ كل ما هنالك حملة لبذور . قوى : قوة من أدنى ومشيئة من أعلى . ولا أحد يدري . ولا من يعلم من أين جاء ما جاء . فإنما جاءت الأرباب بعد ذاك . فمن إذن يعلم ما جرى ؟ أهو الذي حدثت منه الخليقة ؟ لعل الذي يعرفه « أحد » واحد في أعلى عليين . ولعله لا يدري كذاك ... » .

* * *

وقبل « جوتاما » آمن البرهميون بالدورة في وجود الكون والدورة في وجود الإنسان . فالكون يتجدد حلقة بعد حلقة ، والإنسان يتنقل في جسد بعد جسد ، وسلسلة الأكوان ليس لها انتهاء ، وسلسلة الحياة الإنسانية قد تنتهي إلى السكينة أو الفناء .

فالبوذية إنما قامت على أساس البرهمية في كل عقيدة من عقائد الأصول . وإنما تميزت البوذية بتبسيط العقائد لطبقات من الشعب غير طبقات الكهان ، فأخرجتها من حجابها المكنون في المحاريب إلى المدرسة والبيت وصفوة المريدين ، ولا تعتبر البوذية إضافة في صميم العقائد الدينية بل إضافة في آداب السلوك وفلسفة الحياة ، وإضافة في عرض الآراء على غير المستأثرين بها قديماً من سدنة الهيكل والمحراب .

وخلاصة الفلسفة التي أتى بها البوذا جوتاما هي تقريره هذه المبادىء الأربعة وهي :

« أولا » إن هناك عذاباً وشقاءً ، و « ثانياً » إن هناك سبباً للعذاب والشقاء ، و « ثالثاً » إن هذا السبب قابل للزوال ، و « رابعاً » إن وسيلة الانتهاء إلى هذه الغاية موجودة لمن يختار .

أما سبب الشقاء فهو الجهل الذي جعلنا نتعلق بالأوهام وننسى لباب الأمور ، أو نتعلق بالعرض ونعرض عن الجوهر الأصيل .

والعرض هو كل ما يزول ويتغير ، وهو من شر وفساد . وكل ما نحسه هو عرض تشمله لعنة الزوال . فما من شيء تمّ « يكون » بل كل شيء يصير ولا يكف عن التغير .أو كما قال : « إن الناس يؤمنون بالثنائية ، فيؤمنون بأن الشيء إما كائن وإما غير كائن . ولكن الناظر إلى الأمور بعين الصدق يعلم أن الرأيين طرفان متطرفان ، وأن الحقيقة و سط بين الطرفين » .

وعلى هذا النحو ينكر البوذا وحدة « الشخصية الإنسانية » لأنها لا تتجاوز أن تكون تلاحقاً مستمرّاً للأحاسيس يبدو لنا كأنه حزمة مضمومة في كيان واحد . ومفسروه في العصر الحديث يمثلون لذلك بشريط الصور المتحركة الذي يلوح لنا شيئاً واحداً وهو خطفة بعد خطفة من الألوان والظلال .

وإذا كان الشقاء في التطرف بالحس إلى النقيضين ، فالخلاص من الشقاء لا يتأتى بغير الاعتدال بين كل طرفين ، وبهذا نميط عنا غشاوة الخداع الذي يتراءى على ظاهر الأشياء للنفاذ إلى ما وراءها من سر الوجود .

فلا استغراق في إرضاء الحس ولا استغراق في قمعه وتجريده ، بل توسط بين الغايتين في أمور الحياة الثمانية ، وهي الفهم والعزم والكلام والسلوك والمعيشة والعمل والتأمل والفرح .

فالفهم طرفاه التصديق بكل ما يقال وإنكار كل ما يقال . والوسط بينهما التمييز بين الباقي والزائل والظاهر والباطن والثابت والذي ليس له ثبوت .

والعزم طرفاه التهافت والإهمال . والوسط بينهما ارادة الحكمة متى تبين السبيل إليها بالفهم الصحيح .

والكلام منه المهجور ومنه المطروق . والوسط بينهما قول الصدق وصون اللسان عن العيب والنميمة والمحال .

والسلوك طرفاه المحاباة مع الغرض والإجحاف مع الغرض . والوسط قوام بين الغرضين لا ينقاد لهذا ولا لذاك .

والمعيشة الصالحة قوامها أن يتخير الإنسان رزقاً حلالاً يتورع فيه عن التكسب بما يضر الآخرين .

والعمل الصالح أن يعرف ما يبتغيه ويقيس طاقته على مراده ويلتزم في كل ما يريد جادة الرشد والحكمة والإنصاف .

والتأمل الصالح سلام العقل وصفاء البصيرة ونبذ الوهم والعكوف على الحق البريء من النزعات .

والفرح الصادق هو فرح الرضوان الذي يتاح للإنسان في هذه الحياة فيبلغ به ملكوت « النرفانا » الأرضية في انتظار النرفانا الصمدية ، وهي السكينة أو الفناء ، وبينها وبين العدم فرق كبير . لأنها هي وجود يفنى في وجود ، ويفسرها بعض العصريين من أذكياء البوذيين بفناء ألوان الطيف في البياض الناصع الذي ليس له لون ، وهو ملتقى جميع الألوان .

بهذه الآداب ينجو الإنسان من رباط ذلك الدولاب الدائر بالولادة والموت والتجدد في حياة بعد حياة وجثمان وراء جثمان ، فيدخل في « النرفانا » ولا يولد بعد ذلك ولا يموت .

وحكمه في هذا المصير حكم الأرباب والملائكة وحكم السماوات والأرضين . فكلها خاضع لقانون القضاء والقدر الذي لا فكاك منه لموجود ، وكلها عرضة للتكفير والتطهير والتحول والتغيير ، ثم للذهاب في غمرة الفناء الأخير .

وموضع التناقض في هذه الفلسفة أنها تنكر « الشخصية الإنسانية » ولا تعترف بالذات أو بالروح وهي مع هذا تؤمن بتناسخ الأرواح وثبوت شيء

في الإنسان يبقى على التنقل بين الأجساد والدورات :

وأنها تؤمن بالكل أو « المطلق » الصمدي الوجود ، ثم تنفي عنه الذات كما تنفيها عن الإنسان . مع أن الكل بغير ذات لا يكون كلاً بمعنى من معاني الكلية ولكنه شتات من أجزاء متفرقات .

وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية . لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلى الآرية على اعتبارها عنصر الأوربيين الأقدمين والمعاصرين .

فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء ، وزعموا أنها « جرأة العقل الكبرى » في مواجهة المشكلة الكونية ، وأنها الخطوة المقتحمة التي لم يذهب وراءها ذو عقيدة في مطاوح التأمل والإقدام .

لكنها لا تحسب من الجرأة العقلية بوصف من الأوصاف ، فما هي إلا جرأة حسية في أقصى ما تطوحت إليه من الفروض والأظانين ، وما البوذية كلها إلا تململاً من وطأة الحس والجسد ، ولا سعادتها القصوى إلا ضيقاً بالحس وهرباً منه إلى الفناء أو « اللاوعي » على أحسن تقدير .

والمحسوس عندها شامل للمعقول ، والكائن بحق الحس عندها شامل للكائن بحق العقل وحق الوعي وحق الذات .

والآلهة عندها تأتي في المرتبة التالية بعد مرتبة الأكوان ، وما ارتفعت الأكوان عندها إلى هذه المرتبة إلا بأنها هي المحسوس ، وهي أول ما يفاجئنا قبل أن نفكر وقبل أن نتأمل وقبل أن ندين باعتقاد .

نعم إنها قد مدت نطاق الأكوان في الزمان والفضاء مدّاً قصر عنه المتدينون الأقدمون في معظم الأمم والأقطار .

ونعم إنها نفذت وراء الظواهر فتجاوزتها إلى ظواهر أعم منها وأبقى ، فكان البرهميون يجزمون بأن الشمس لا تغيب عن الفضاء حين تغرب في المساء ، يوم كان الأقدمون يحسبونها تهلك في مغربها أو يحسبونها تحجب وراء

الجبال أو تتوارى بما تخيلوه من ضروب الحجاب .

ولكنها مدت نطاق الأكوان بحسية كبيرة لا بالخروج من الحسية والجرأة عليها ، واختصرت الظواهر بالإقلال منها بعد تكثيرها ولم تردها آخر الأمر إلى ظاهرة واحدة ، ولا إلى عقل تتساوى فيه هذه الظواهر في عنصر التجريد .

والبوذيون المعاصرون يسوّغون تجريد « الكل » من الذات ، أو تجريد الإله الأعظم من الذات ، بأن الذات شبهة إنسانية نشأت من تخيل الإنسان كل موجود على مثاله ومنحاه .

ولكن تخيل الإنسان طبقة أعلى من تخيل الإله مجموعة من هذه الأكوان البكماء ، وكل ما يقولونه عن ربوات ربوات الفراسخ التي يمتد إليها الفضاء لا تزيده على أن يكون فضاء في كل مكان ؛ وذرةٌ واعية في نواة تعيش الألوف منها على سن الإبرة — هي أوسع امتداداً في آفاق الوجود من أوسع فضاء لا وعي فيه .

ومن راعه امتداد الفضاء ولم يرعه امتداد « الوعي » فهو يقيس العالم بالأشبار والامتار ولا يقيسه بعمق الحياة وكنه الوجود الذي يعلم أنه وجود ، وما من فارق كبير بين وجود لا وعي له وبين معدوم .

فالبوذية فتح في ميدان التصوف أو ميدان « الوجدانيات » والفضائل الخلقية ، ولكنها ليست بالفتح الجريء في معراج الوصول إلى الكمال : كمال الإله .

الصين واليابان

أما الصين فإنها — كالمنتظر من أمة في ضخامتها وكثرة شعوبها وترامي أطرافها — قد اختبرت جميع أنواع العبادات من أدناها إلى أرقاها .

ولكنها — على كثرة العبادات التي دانت بها — لا تحسب من أمم الرسالات الدينية كمصر وبابل والهند وفارس وبلاد العرب . لأنها لم تخرج للعالم قيماً دينية تلقاها منها ، وهي باصطلاح التجارة تحسب من الأمم المستنفدة في مسائل الديانات . لأنها أخذت من الخارج قديماً وحديثاً عقائد البوذية والمجوسية والإسلام والمسيحية ولم تعط أمة عقيدتها ، مع استثناء اليابان التي أخذت عنها نحلة كنفشيوس .

وأهل الصين لا يخوضون كثيراً في مباحث ما وراء الطبيعة ، ويوشك أن يكون التدين بينهم ضرباً من أصول المعاملة وأدب البيت والحضارة .

فأشيع العبادات بينهم عبادة الأسلاف والأبطال ، وأرواح أسلافهم مقدمة بالرعاية على جملة الأرواح التي يعبدونها ويمثلون بها عناصر الطبيعة أو مطالب المعيشة ، ولا يقدر الصيني قرباناً هو أغلى في قيمته وأحب إلى نفسه من قربانه إلى روح سلفه المعبود ، وهو يحتوي الأغذية والأشربة والأكسية والطيوب ، ومنهم من يحرق ورق النقد هبة للروح التي يعتقدون أنها تحتاج إلى كل شيء كانت تحتاج اليه وهي في عالم الأجساد .

والخير والشر عندهم هو ما يرضي الأسلاف أو يسخطهم من أعمال أبنائهم فما أرضى السلف فهو خير وما أسخطهم فهو شر . وقد يختارون فرداً من أفراد الأسرة ينوب عن جده المعبود فيطعمونه ويكسونه ويزدلفون اليه

ويحسبون أن روح الجد هي التي تتقبل هذه القرابين في شخص ذلك الحفيد .

وتتمشى عبادة العناصر الطبيعية جنباً إلى جنب مع عبادة الأسلاف والأبطال . فالسماء والشمس والقمر والكواكب والسحب والرياح آلهة معبودة أكبرها إله السماء « شانج تي » ويليه إله الشمس فبقية الأجرام السماوية فالعناصر الأرضية .

وهم يتقربون إلى « شانج تي » بالذبائح ويبلغونه صلواتهم بإشعال النار على قمم الجبال ، فيعلم الإله – مما أودعه الكاهن دواخينها – فحوى الرسالة التي يرفعها إليه عباده ، ولا يحسنون الترجمة عنها كما يحسنها الكهان .

وإله السماء هو « الإله » الذي يصرف الأكوان ويدبر الأمور ويرسم لكل إنسان مجرى حياته الذي لا محيد عنه. وإنما يداول تركيب الوجود من عنصرين هما « ين » عنصر السكون و « يانج » عنصر الحركة . وقد يفسر عنصر السكون بالراحة والنعيم وعنصر الحركة بالشقاء والعذاب . فهما بهذه المثابة يقابلان عنصري الخير والشر وإلهي النور في الأديان الثنائية .

وقد امتزجت عبادة الأسلاف بعبادة العناصر الطبيعية في القرن العاشر حين تسمى عاهل الصين باسم « ابن السماء » . ويقال إنه استعار الفكرة من كاهن ياباني أراد أن يزدلف إليه فعلمه مراسم تأليه الميكاد في بلاده . فنقلها العاهل إلى بلاط الصين .

وأراد الفيلسوف « شوهسي » في القرن الثاني عشر أن ينشىء بوذية صينية توافق مذهب بوذا في أمور وتخالفه في أمور ، فدعا إلى دين لا إله فيه ولا خلود للروح ، ووضع « لي » موضع « كارما » الهندية أو القانون أو القضاء والقدر . وسمى دولاب الزمن « تايشي » لأنه هو المحرك لجميع الكائنات ، وجعل القانون والدولاب والمادة أو « ووشي » قوام العالم ظاهره وخافيه . فالمادة تحد من القانون ، والقانون خالد لا وعي له ولا يسمع ولا يجيب ، وإنما ينشأ الوعي أو الإدراك في الإنسان من قدح القانون للمادة كما ينقدح الحجر من الزناد فيخرج الشرر ثم ينطفىء فيموت ، وتزول الأرواح

كما تزول الأجساد متى « نضجت » كما تنضج الثمرة في أجلها المعلوم . وقد يبطىء النضج فيطول بقاء الروح فهي إذن طيف أو شبح ، كأنها الثمرة في حالة العفن والإهمال .

وليس لأهل الصين رسل وأنبياء بـل لهم معلمون ومربون . فاسم كنفشيوس أشهر هؤلاء المعلمـين « كنج فو » وأضيفت إليه تسي أي المعلم . وكذلك « لاو » الذي ولد قبله ولم يشتهر في خارج الصين مثل اشتهاره يعرف بلاوتسي أي المعلم لاو . وكلا هما يبشر بالحلـم والصبر والبر بالوالدين والعطف على الأقربين والغرباء ، والفرق بينهما هو فرق في الخلق والمزاج وليس بفرق في العقيدة والإيمان . فلاو يقول : « من كان طيباً معي فأنا طيب معه ، ومن أساء إلي فأنا طيب معه كذلك . فلنجز السيئة بالحسنة ولنعمل الطيب على كل حال » أما كنفشيوس فهو يوصي بأن نقابل السيئة بالعدل وأن نقابل الإحسان بالإحسان .

ولما مات كنفيشوس (٤٧٨ ق.م) أقاموا له الهياكل وعبدوه على سنتهم في عبادة أرواح الأسلاف الصالحين ، وأوشكوا أن يتخذوا عبادته عبادة « رسمية » أي حكومية على عهد أسرة هان في القرن الثاني قبل الميلاد ، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه في المدارس ومعاهد التعليم ، وكانت هياكله في الواقع بمثابة مدارس يؤمها الناس لسماع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة . ولم تزل عبادته قائمة إلى العصور المتأخرة بل إلى القرن العشرين . فخصوه في سنة ١٩٠٦ بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكبر « شانج تي » إله السماء لأنه في عرفهم « ند السماء » ومن لم يؤمن اليوم بربوبيته من الصينيين المتعلمين فله في نفسه توقير يقرب من التأليه ، وقد جعلوا يوم ميلاده — وهو السابع والعشرون — من شهر أغسطس عيداً قومياً يحجون فيه إلى مسقط رأسه، وينوب عن الدولة موظف كبير في محفل الصلاة أمام محرابه .

وشعائر الدين بين أهل الصين هي شعائر الطريق أو شعائر « السلوك » وفرائض التهذيب والتثقيف ، ومحورها الحلم والسلم والتحذير من العنف

والغضب والإفراط والإسراف . وليس في تدين الصين مغالاة ولا حماسة ولا سورة من سورات الغيرة القوية والتعصب العنيف ، بل ليس شيءٌ من ذلك في معرض من معارض الروح القومي التي تعبر عنها الثقافة أو الفن أو الحكمة أو قواعد الأخلاق . لأن الدعة سمة عامة لمزاج القوم و « روح الأمة » . وهم متفائلون قلما يحنقون على الحياة ولا على الأحياء ، وغالب الرأي بين حكمائهم أن الإنسان طيب بالفطرة وأن الحياة تُرضي من لا يسرف في تقاضيها ويلحف في الطلب عليها . ولا تأتي الحماسة الدينية إلا حين يمتحن الإنسان بالشدة البالغة والحيرة الثائرة فيندفع إلى غاية الإصرار ، وينقلب من ضميره إلى أعمق الأغوار . ولا شك أن شعور النفس « بالقدرة الإلهية » يتوقف على هذه الحالات التي تتناهى إليها قدرة الإنسان . فلا جرم « يتوسط » أهل الصين في عقائدهم فيخلو إيمانهم بالإله من ذلك العمق الذي يغوص إليه الإنسان كلما جاشت نفسه بقوة الشعور .

ويظهر أن بيئة الصين لم تواجه أبناءها بالعقد النفسية ولكنها واجهتهم بتقلبات العناصر الطبيعية التي تعودت الشعوب قديماً أن تروضها بالسحر والكهانة ، فجار نصيب الإيمان بالسحر على نصيب الإيمان بالدين ، وذاع عن أهل الصين من ثَمّ أنهم أقدر أمة على تسخير الطبيعة بالطلاسم والأرصاد .

* * *

وموقف اليابان من الرسالة الدينية كموقف الصين على الإجمال . فقد تشابهت عقائدهم في أصولها وعبدوا الأرواح والاسلاف والعناصر الطبيعية ، واستعاروا البوذية والإسلام والمسيحية على تفاوت في عدد الأتباع من كل دين ، ومزجوا ديانة الشمس بديانة الأسلاف ، فلا مخالفة بينهم في هذه إلا بإفراط أهل اليابان في تأليه صاحب العرش واعتدال أهل الصين في تقديسه كاعتدالهم في جميع الشؤون .

وإذا كان لأهل اليابان سمة خصوصية في العبادات فهي أنهم اختاروا ربة أنثى لعبادة السلف الأعلى حين وحدوا الأسلاف في أكبرها وأعلاها . وتلك الربة هي « اميتراسوا ــ اموكامي » التي لا تزال معبودة إلى اليوم .

ويؤخذ من الأساطير اليابانية أنها كانت ربة الغزاة الذين أغاروا فيما قبل التاريخ على جزيرة كيوشو وأخضعوا أهلها وطردوهم منهزمين إلى الجبال . وكان أهل كيوشو الأولون يعبدون إله الريح والمطر « سوسا — نو — وو » فهبط هذا الإله بهزيمتهم إلى المرتبة التالية لمرتبة الربة السلفية . ثم انعقد الوئام بين الفريقين بعد تناسي الإحن والترات وامتزاج القبائل الغازية والمغزوة ، فاصبح الإلهان أخوين وأصبحت « اميتراسو » هي كبرى الأخوين .

ولا يعتقد اليابانيون أن هذه الربة خلقت الكون أو خلقت الإنسان ، لأنهم يعتقدون أن عهدها قد سبقته عهود مديدة تنازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب ، وهذه الأرباب عندهم هي بمثابة الأرواح والملائكة والجنة والشياطين من عناصر الخير والشر عند الأمم الكتابية . ويسمون الواحد منها « كامي » ... وهي كلمة تطلق على كل رائع خارق للعادة بالغ في القوة أو الجمال . ثم استسلمت هذه الأرباب بعد كفاح طويل وصار الأمر إلى الربة الكبرى برضوان من خالق السماوات والأرضين .

أما الخلق فهو منسوب عندهم إلى إله السماء « أزاناجي — نوميكوتو » وزوجته وأخته إلهة الأرض « أزانامي — نوميكوتو » . فولدا جزر اليابان وألقحاها ببذور الآلهة وجاء أبناء اليابان الآدميون من سلالة هذه الآلهة ... فكلهم في النسب الأعلى — وليس الميكاد وحده — إلهيون .

وفي إحدى الروايات الأسطورية أن ربة الأرض احترقت وهي تضع إله النار فجرد رب السماء سيفه وضرب به إله النار ، فانبعث من وميض سيفه ومن ضرباته رهط من أرباب الزوابع والبروق والرعود . ولم ترجع الأرض إلى خصبها إلا بعد شفاء ربتها وخروجها من هاوية الظلام لتلد الماء والطمي وعناصر الزرع والحياة .

وينسبون الخلق في رواية أخرى إلى « أزاناجي » وحده وهو يبحث عن رفيقة صباه ... فمن عينه اليسرى خلقت الشمس ومن عينه اليمنى خلق القمر ، ومن عطسته خلق « سوسا — نو — وو » رب الرياح والأمطار .

ولكنه أعجب من بين أبنائه بالشمس دون شقيقيها فخلع عليها عقداً يتلألأ بالجواهر وبوأها أرفع عرش في السماء .

فالديانة اليابانية الأصيلة ديانة شمسية سلفية جمعت معنى التوحيد أولاً في إله السماء حيث تصوروه أباً للخليقة بمفرده أو بمشاركة زوجه ، ثم جمعتهما في الربة الواحدة على اعتبارها ربة مختارة بين أرباب .

فارس

لعل تاريخ الديانة الفارسية القديمة أهم التواريخ الدينية بين الأمم الأسيوية ، لتوشج القرابة بينه وبين الديانات الهندية والطورانية والبابلية واليونانية ، وارتباطه بالتواريخ السابقة له واللاحقة به واقتباس الديانة الفارسية من غيرها واقتباس غيرها منها ، وتقدم الفكرة الإلهية على يد زرادشت صاحب الشريعة القومية في بلاد فارس وأرفع الأعلام شأناً بين دعاة المجوسة من أقدم عصورها إلى أحدثها .

فالفرس الأقدمون من السلالة الهندية الجرمانية ، وموقع بلادهم قريب من دولة بابل ، قريب من أقاليم الطورانيين ، قريب من مسالك الحضارة بين المشرق والمغرب ؛ وقد تلاقت حضارة فارس وحضارة مصر في السلم والحرب غير مرة ، وانقضى زمن طويل على الدنيا المتحضرة وهي تقرن بين المجوسية وبين الحكمة أو العلم بأسرار الطبيعة والسيطرة عليها بالسحر والمعرفة الإلهية . وكان لليهود وأبناء فلسطين وأمم العرب علاقات قديمة بالدولة الفارسية تارة والدولة البابلية تارة أخرى . فاتصل من ثم تاريخ المجوس بتاريخ اليهود والمسيحيين والمسلمين .

فالأقدمون من الفرس يلتقون مع الهند في عبادة « مترا » إله النور وتسمية الإله بالـ « أسورا » أو إله الـ « أهورا » وإن اختلفوا في إطلاقه على عناصر الخير والشر ... فجعله الفرس من أرباب الخير والصلاح وجعله الهند من أرباب الشر والفساد .

والبابليون عرفوا عبادة « مترا » في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ورفعوه إلى المنزلة العلية بين الآلهة التي تحارب قوى الظلام .

واستعار الفرس من البابليين كما أعاروهم ، فأخذوا منهم سنة التسبيع في عدد الآلهة ، وجعلوا أورمزد على رأس سبعة من أرباب الحكمة والحق وقوى الطبيعة وأنواع المرافق والصناعات .

ولم تخل الديانة المجوسية من عقائد الطورانيين ، لأن « زرادشت » عاش بينهم زمناً وبشرهم بدينه فاضطر إلى مجاراتهم في عباداتهم ليجاروه في عبادته ، وأدخل أرباباً لهم في عداد الملائكة المقربين .

ويعتقد المجوس في بعض أساطيرهم أن « زروان » أبو الإلهين إله النور والظلام. ولعل « زروان » هذا صنو لإله البابليين « نون » أو القدر الذي يتسلط على الآلهة كما يتسلط على المخلوقات .

وقد آمن المجوس بالعالم الآخر كما آمن به المصريون ، وآمنوا كذلك بالثواب والعقاب في الدار الآخرة ، ولكنهم قالوا بقيامة الموتى ونهاية العالم وبعث الارواح للحساب في يوم القيامة ... ولعلهم جمعوا بذلك بين عقيدة الهند في نهاية العالم وعقيدة المصريين في محاسبة الروح ووزن أعمالها في موقف الجزاء .

ولم يكن اليهود يتكلمون عن « الشيطان » قبل السبي أو قبل الإقامة فيما بين النهرين ، فتكلموا عنه بعد أن شبهوه « بأهرمان » الذي يمثل الشر والفساد عند المجوس .

وفي الكتب المسيحية أن حكماء المجوس شهدوا مولد المسيح وعلموا بنبئه فاهتدوا إليه بنجم في السماء .

وذكر أفلاطون زرادشت في كتاب « السيبادس » فسماه زرادشت بن أورمزد ، وقال بليني في تاريخه الطبيعي إنه المولود الذي ضحك يوم ولادته ، وقال ديوكريسستوم Dio Chrysostom إنه لا الشاعر هوميروس ولا الشاعر هزيود بلغا مبلغ زرادشت في الإشادة بمجد « زيوس » رب الأرباب في علياء مجده .

فتاريخ الديانة الفارسية عامة وتاريخ زراذشت خاصة على ارتباط وثيق بتواريخ العقائد الأسيوية وتواريخ بعض العقائد في مصر واليونان .

ولكن « زراذشت » لا يعرف له تاريخ مفصل على التحقيق ، فالمراجع اليونانية ترده إلى القرن الستين قبل الميلاد ، والمراجع العربية ترده لى ما قبل الإسكندر بنحو مائتين وسبعين سنة . فهو على هذا قد ولد حوالي سنة ٦٦٠ قبل الميلاد وهو أصح التقديرات ، وقد اعتمده الثقات الباحثون في تاريخه فرجحوا ، كما رجح كاسارتللي وجاكسون ، أنه ولد سنة ٦٦٠ ومات سنة ٥٨٣ قبل الميلاد .

ويقول الشهرستاني إن أباه من أذربيجان وأمه من الري ، ويكاد يتفق المؤرخون على أنه ولد في الناحية الغربية الشمالية من البلاد الفارسية على شاطىء نهر يسمونه في الكتب المجوسية داريزا ويعرف أخيراً باسم أراس .

ويزعم بعض مؤرخيه أن اسمه مركب من كلمتين في اللغة القديمة معناهما معاكس الجمل ، لأنه كان في صباه يعبث بالجمال ، ويجعلون لهذه التسمية شأناً في وصاياه العديدة بالإشفاق على الحيوان ، كأنه يكفر بذلك عن قسوته عليه في صباه

وخلاصة ما جاء به « زراذشت » من جديد في الديانة أنه أنكر الوثنية وجعل الخير المحض من صفات الله ونزل بإله الشر إلى ما دون منزلة المساواة بينه وبين الإله الأعلى ، وبشر بالثواب وأنذر بالعقاب ، وقال بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد ، وحاول جهده أن يقصر الربانية على إله واحد موصوف بأرفع ما يفهمه أبناء زمانه من صفات التنزيه .

وليست المجوسية كلها من تعليم زراذشت أو تعليم كاهن واحد من كهان الأمة الفارسية . فقد سبقه الفرس إلى عقائدهم في أصل الوجود وتنازع النور والظلام ، ولكنه تولى هذه العقائد بالتطهير وحملها على محمل جديد من التفسير والتعبير .

فالمجوس كانوا يعتقدون أن هرمز وأهرمن مولودان لإله قديم يسمى

زروان ويكنى به عن الزمان . وأنه اعتلج في جوفه وليدان فنذر السيادة على الأرض والسماء لأسبقهما إلى الظهور ، فاحتال أهرمن بخبثه وكيده حتى شق له مخرجاً إلى الوجود قبل « هرمز » الطيب الكريم ، فحقت لأهرمن سيادة الأرض والسماء وعز على أبيهما أن ينقض نذره ، فأصلحه بموعد ضربه لهذه السيادة ينتهي بعد تسعة آلاف سنة . ويعود الحكم بعده لإله الخير خالداً بغير انتهاء ، ويؤذن له يومئذ في القضاء على إله الشر وتبديد غياهب الظلام .

وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين ، وأن هرمز طفق في مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة وأهرمان غافل عنه في قراره السحيق ، فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيه راعه اللمعان من جانب مملكة أخيه فأشفق على نفسه من العاقبة وعلم أن النور يوشك أن ينتشر ويستفيض فلا يترك له ملاذاً يعتصم به ويضمن فيه البقاء . فثار وثارت معه خلائق الظلام وهي شياطين الشر والفساد ، فأحبطت سعي هرمز وملأت الكون بالخبائث والأرزاء .. وران هذا البلاء على الكون حتى كانت معركة « زراذشت » فكان البشير بانتهاء زمان وابتداء زمان ؛ ولكنه لم يختم صراع العدوين اللدودين بل آذن بتحول النصر من صف إلى صف ، وتراجع الشر والظلام عن مملكة الخير والنور ، وسيدوم هذا الصراع اثني عشر ألف سنة ، ينجم على رأس كل ألف منها بشير من بيت زراذشت فيعزز جحافل هرمز ويوقع الفشل في جحافل أهرمن ، وتنقضي المدة فينكص أهرمن على عقبيه مخلداً في أسفل سافلين لا فكاك له أبد الأبيد من هاوية الظلمات وسجن المذلة والهوان .

وتدل تسمية الإلهين دلالة واضحة على انتقال الفكرة الإلهية طبقة فطبقة من صورة التجسيم إلى صورة التنزيه . فإن هرمز مأخوذ من « أهورا » بمعنى السيد و « ومازداو » بمعنى الحكيم ، وأهرمن مأخوذ من « أنجرو » بمعنى السيء ومااينوش بمعنى الفكر والروح ، والمعنيان معاً من عالم الفكر المجرد أو القريب من التجريد . ثم أصبحت كلمة أو رمزد مرادفة لروح القدس وكلمة أهريمان مرادفة لروح الشر أو روح الأذى والفساد ، وقيل في مجمل الأساطير المجوسية إن أهريمان إنما هو فكرة سيئة خطرت على بال زروان فكان منها إله الظلام .

ويخيل إلينا أن زراذشت كان خليقاً أن يسمو بعقيدة المجوس إلى مقام أعلى من ذلك المقام في التنزيه ، وأن يسقط بأهرمن من منزلة الند إلى منزلة المارد المطرود ، لولا أن وجود « أهرمن » كان لازماً لبقاء الكهانة الفارسية في عهود المحن والهزائم التي منيت بها الدولة وتجرعت فيها الأمة غصص الذل والانكسار . فلو قال الموابذة للمؤمنين بهرمز إنه هو الإله المتفرد في الكون بالتصريف والتقدير لكفروا بدينهم وحاروا في أمرهم ، ولكنهم يكبرون من قوة أهرمن ويجعلون انتصاره عقوبة للناس على تركهم وحبهم للشرور ، ثم يبشرونهم بغلبة الإله الحكيم الرحيم بعد الهزيمة ، فتهدأ وساوسهم إلى حين .

* * *

على أن « زراذشت » قد استخلص من أخلاط المجوسية عقيدة وسطاً بين العقيدة الوثنية الأولى والعقيدة الإلهية الحديثة . سواء في تصحيح الفكرة الإلهية أو مسائل الأخلاق ومسائل الثواب والعقاب .

فالله في مذهب زراذشت موصوف بأشرف صفات الكمال التي يترقى إليها عقل بشري يدين على حسب نشأته بالثنائية وقدم العنصرين في الوجود .

فالخير عند زراذشت غالب دائم ، والشر مغلوب منظور إلى أجل مسمى ، وما زال « أهرمن » يهبط في مراتب القدرة والكفاية على هذا المذهب حتى عاد كالمخلوق الذي ينازع الخالق سلطانه ، ولا محيص له في النهاية من الخذلان.

وفي « الزندفستا » يقول زراذشت إنه سأل هرمز : « يا هرمز الرحيم ! صانع العالم المشهود . يا أيها القدس الأقدس : أي شيء هو أقوى القوى جميعاً في الملك والملكوت ؟

فقال هرمز : إنه هو أسمي الذي يتجلى في أرواح عليين . فهو أقوى القوى في عالم الملكوت .

فسأله زراذشت أن يعلمه هذا الاسم فقال له إنه « هو السر المسئول » وأما الأسماء الأخرى فأولها هو « واهب الأنعام ، وثانيها هو المكين ، وثالثها هو

الكامل ، ورابعها هو القدس ، والاسم الخامس هو الشريف ، والاسم السادس هو الحكمة ، والاسم السابع هو الحكيم ، والاسم الثامن هو الخبرة ، والاسم التاسع هو الخبير ، والاسم العاشر هو الغنيّ ، والاسم الحادي عشر هو الغنى ، والاسم الثاني عشر هو السيد ، والاسم الثالث عشر هو المنعم ،والاسم الرابع عشر هو الطيب ، والاسم الخامس عشر هو القهار ، والاسم السادس عشر هو محق الحق ، والاسم السابع عشر هو البصر ، والاسم الثامن عشر هو الشافي ، والاسم التاسع عشر هو الخلاق ، والاسم العشرون هو « مزدا » أو العليم بكل شيء » .

وقد حرم زراذشت عبادة الأصنام والأوثان وقدس النار على أنها هي أصفى وأطهر العناصر المخلوقة ، لا على أنها هي الخلاق المعبود . وقال إن الخلائق العلوية كلها كانت أرواحاً صافية لا تشاب بالتجسيد ، فخيرها الله بين أن يقصيها من منال « أهرمن » أو يلبسها الجسد لتقدر على حربه والصمود في ميدانه ، لأن عناصر الفساد لا تحارب بغير أجساد . فأبت أن تعتصم بمعزل عن الصراع القائم بين هرمز وأخيه ، واختارت التجسد لتؤدي فريضة الجهاد في ذلك الصراع .

ويتخيل « زراذشت » «هرمز» أو أورمزد أو « أهورا مازدا » أو يزدان — على اختلاف اللهجات في نطقه — مستوياً علىعرش النور محفوظاً بستة من الملائكة الأبرار ، تدل أسماؤهم على أنهم صفات إلهية كالحق والخلود والملك والنظام والصلاح والسلامة ، ثم استعيرت لها سمات « الذوات » بعد تداول الأسماء أو تداول الأنباء عما تفعله وما تؤمر به وما تتلقاه من وحي الله .

وتفيض أقوال « زراذشت » كلها باليقين من رسالته واصطفاء الله إياه لتبشير بالدين الصحيح والقضاء على عبادة الأوثان . ومن أمثلة هذا اليقين قوله : « أنا وحدي صفيك الأمين ، وكل من عداي فهو عدو لي مبين » وأن الله أودع الطبائع عوامل الخير جميعاً ، فإن هي حادت عن سواء السبيل كان إرسال الرسل للتذكير والتحذير آخر حجة لله على الناس . وأن زراذشت هو هـــذه الحجة التي أبرزها الله إلى حيز الوجود لتهدي من ضل وتذكر من

غفل وتستصلح من فيه بقية للصلاح ، وكلما انقضى ألف عام برز إلى حيز الوجود خليفة له من سلالته ، ولكن الأرواح التي تحف بالعرش هي التي تحمل بذرته إلى رحم عذراء تلهمها تلك الأرواح أن تتطهر في تلك الساعة بالماء المقدس في عين صافية مدخرة في ناحية من الأرض ليومها الموعود .

ويتخيل زراذشت أنه يناجي هرمز ويسمع جوابه ويسأله سؤال المتعلم المسترشد لمرشده وهاديه . فيناديه : رب ! هب لي عونك كما يعين الصديق أخلص صديق . ويسأله ، رب ألا تنبئني عن جزاء الأخيار ؟ أيجزون يا رب بالحسنة قبل يوم المعاد ؟ أو يسأله : من أقر الأرض فاستقرت ورفع السماء فلا تسقط ؟ ومن خلق الماء والزرع ؟ ومن ألجم للرياح سحب الفضاء وهي أسرع الأشياء ؟

ولا يبعد أنه كان من أصحاب الطبائع التي تغيب عن الوعي أو تسمع في حالة وعيها أصواتاً خفية من هاتف ظاهر أو محجوب كما روي عن سقراط وأمثاله من الموهوبين والملهمين .

* * *

ورواية الخليقة في مذهب زراذشت أن هرمز خلق الدنيا في ستة أدوار. فبدأ بخلق السماء ، ثم خلق الماء ، ثم خلق الأرض ، ثم خلق النبات ، ثم خلق الحيوان ، ثم خلق الإنسان .

وأصل الإنسان رجل يسمى « كيومرث » قتل في فتنة الخير والشر فنبت من دمه ذكر يسمى ميشة وأنثى تسمى ميشانة ، فتزوجا وتناسلا وساغ من أجل ذلك عند المجوس زواج الأخوين

ويفرق المجوس بين الخلائق جرياً على مذهبهم في اشتراك الخلق بين خالق الطيبات وخالق الخبائث ، أو بين إله النور وإله الظلام . فالأحياء النافعة من خلق أورمزد كالثور والكلب والطير البريء ، والأحياء الضارة من خلق أهرمن كالحية وما شابهها من الحشرات والهوام .

والناس محاسبون على ما يعملون. فكل ما صنعوه من خير أو شر فهو مكتوب في سجل محفوظ. وتوزن أعمالهم بعد موتهم فمن رجحت عنده أعمال الخير صعد إلى السماء ومن رجحت عنده أعمال الشر هبط إلى الهاوية ومن تعادلت عنده الكفتان ذهب إلى مكان لا عذاب فيه ولا نعيم ، إلى أن تقوم القيامة ويتطهر العالم كله بالنار المقدسة فيرتفعون جميعاً إلى حضرة هرمز في نعيم مقيم .

وتوزن الأعمال عند قنطرة تسمى قنطرة « شنفاد » تتوافى إليها أرواح الأبرار والأشرار على السواء بعد خروجها من أجسادها . فيلقاها هناك « رشنوه ملك العدل وميترا رب النور وينصبان لها الميزان ويسألانها عما لديها من الأعذار والشفاعات » ثم يفتحان لها باب النعيم أو باب الجحيم .

ونعيم المجوس من جنس الحسنات التي تجزى بذلك النعيم . لأن المجوس لا يستحبون الزهد في الحياة ولا يصدفون عن المتاع المباح . فمن عاش في الدنيا عيشة راضية وكسب رزقه بالعمل الصالح وأنشأ أبناءه نشأة حسنة فجزاؤه في النعيم رغد العيش وجمال السمت وطيب المقام بين الأقرباء والأصفياء ، ويسقى من لبن بقرة مقدسة درها غذاء الخلود . ومن كسب رزقه من السحت والحرام فجزاؤه في الجحيم عيشة ضنك وألم كألم الجوع والعري والذل والاغتراب عن الأحباب .

* * *

وهذه الخلاصة ترسم لنا اتجاه مذهب « زرادشت » ولكنها لا ترسم لنا شُعب المجوسية التي يشتبك بها هذا المذهب في مواضع ويفترق عنها في مواضع أخرى . وقد أجمل الشهرستاني بيان هذه المذاهب في كتابه الملل والنحل فقال في فصل مطول عن المجوس وأصحاب الاثنين والمانوية وسائر فرقهم المجوسية : « ... كانت الفرق في زمان إبراهيم الخليل راجعة إلى صنفين : أحدهما الصابئة والثانية الحنفاء . فالصابئة كانت تقول إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط . لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا

جسمانياً وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب ، والجسماني بشر مثلنا يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب يماثلنا في المادة والصورة . قالوا : (ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون) . والحنفاء كانت تقول إنا نحتاج في المعرفة والطاعة إلى متوسط من جنس البشر تكون درجته في الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانيات ، يماثلنا من حيث البشرية ويمايزنا من حيث الروحانية ، فيتلقى الوحي بطرف الروحانية ويلقي إلى نوع الإنسان بطرف البشرية ، وذلك قوله تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ) وقال جل ذكره : (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا) . ثم لما لم يتطرق للصابئة الاقتصار على الروحانيات البحتة والتقرب إليها بأعيانها والتلقي منها بذواتها فزعت جماعة إلى هياكلها وهي السيارات السبع وبعض الثوابت . فصابئة الروم مفزعها السيارات ، وصابئة الهند مفزعها الثوابت ، وربما نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن الإنسان شيئاً . والفرقة الأولى هم عبدة الكواكب والثانية هم عبدة الأصنام ، وكان إبراهيم مكلفاً بكسر المذهبين على الفرقتين وتقرير الحنيفية السمحة السهلة .. » .

ثم قال عن الثنوية : إنهم « ... أثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد ، ويسمون أحدهما النور والثاني الظلمة ، وبالفارسية يزدان وأهرمن . ولهم في ذلك تفصيل مذهب ، ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين : إحداهما بيان سبب امتزاج النور بالظلمة ، والثانية سبب خلاص النور من الظلمة ، وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معاداً.. إلا أن المجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين . بل النور أزلي والظلمة محدثة ، ثم لهم اختلاف في سبب حدوثها : أمن النور حدثت والنور لا يحدث شراً جزئياً فكيف يحدث أصل الشر ؟ أم شيء آخر ولا شيء يشترك مع النور في الإحداث والقدم ؟ وبهذا يظهر خبط المجوس ، وهؤلاء يقولون : المبدأ الأول في الأشخاص كيومرث وربما يقولون زروان الكبير ، والنبي الآخر زرادشت ، والكيومرثية يقولون :

كيومرث هو آدم عليه السلام ، وقد ورد في تاريخ الهند والعجم : كيومرث آدم ويخالفهم سائر أصحاب التواريخ » .

ثم قال عن الكيومرثية إنهم « .. أثبتوا أصلين : يزدان وأهرمن ، وقالوا : يزدان أزلي قديم وأهرمن محدث مخلوق ، قالوا : إن يزدان فكر في نفسه أنه لو كان لي منازع كيف يكون ؟ وهذه الفكرة رديئة غير مناسبة لطبيعة النور . فحدث الظلام من هذه الفكرة ، وسمي أهرمن . وكان مطبوعاً على الشر والفتنة والفساد والضرر والإضرار، فخرج على النور وخالفه طبيعة وقولا، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة ، ثم إن الملائكة توسطوا فصالحوا على أن يكون " " السفلي خالصاً لأهرمن وذكروا سبب حدوثه، وهؤلاء قالوا سبعة آلاف سنة ثم يخلي العالم ويسلمه إلى النور ، والذين كانوا في الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم ، ثم بدأ برجل يقال له كيومرث وحيوان يقال له ثور ، فقتلهما فنبت من مسقط ذلك الرجل ريباس وخرج من أصل ريباس رجل يسمى ميشة وامرأة اسمها ميشانة وهما أبوا البشر، ونبت من مسقط الثور الأنعام وسائر الحيوانات ، وزعموا ان النور خيّر الناس ،وهم أرواح بلا أجساد: بين أن يرفعهم عن مواضع أهرمن وبين أن يلبسهم الأجساد فيحاربوا أهرمن ، فاختاروا لبس الأجساد ومحاربة أهرمن على أن يكون لهم النصرة من عند النور والظفرة بجنود أهرمن وحسن العاقبة ، وعند الظفر به وإهلاك جنوده يكون الغاية ، فذاك سبب الامتزاج وذاك سبب الخلاص .. »

وقال عن الزروانية : « إن النور أبدع أشخاصاً من نور كلها روحانية نورانية لكن الشخص الأعظم الذي هو زروان شك في شيء من الأشياء فحــدث أهرمن الشيطان من ذلك الشك ، وقال بعضهم : لا بل إن زروان الكبير قام فزمزم تسعة آلاف وتسعمائة وتسعين سنة ليكون له ابن ، فلم يكن . ثم حدث في نفسه من ذلك وقال : لعل هذا العالم ليس بشيء ، فحدث أهرمن من ذلك الهم الواحد وحدث هرمز من ذلك الهم ، فكانا جميعاً في بطن واحد . وكان هرمز أقرب من باب الخروج . فاحتال أهرمن

الشيطان حتى شق بطن أمه فخرج قبله وأخذ الدنيا ، وقيل إنه لما مثل بين يدي زروان فأبصره ورأى ما فيه من الخبث والشرارة والفساد أبغضه فلعنه وطرده فمضى واستولى على الدنيا . وأما هرمز فبقي زماناً لا يدله عليه وهو الذي اتخذه قومٌ ربـاً وعبدوه لما وجدوا فيه من الخير والطهارة والصلاح وحسن الأخلاق ، وزعم بعض الزروانية أنه لم يزل كان مع الله شيء رديء إما فكرة رديئة وإما عفونة رديئة ، وذلك هو مصدر الشيطان ، وزعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن وكان أهلها في خير محض ونعيم خالص فلما حدث أهرمن حدثت الشرور والآفات والفتن ، وكان بمعزل من السماء . فاحتال حتى خرق السماء ، وصعد ، وقال بعضهم كان هو في السماء والأرض خالية عنه فاحتال حتى خرق السماء ونزل إلى الأرض بجنوده كلها فهرب النور بملائكته واتبعه الشيطان حتى حاصره في جنته وحاربه ثلاثة آلاف سنة لا يصل الشيطان إلى الرب تعالى ، ثم توسطت الملائكة وتصالحا على أن يقيم إبليس وجنوده في قرار الضوء تسعة آلاف سنة بالثلاثة آلاف التي قاتله فيها ثم يخرج إلى موضعه . ورأى الرب تعالى – على قولهم – الصلاح في احتمال المكروه من إبليس وجنوده ، ولا ينقص الشر حتى تنقضي مدة الصلح ، فالناس في البلايا والفتن والخزايا والمحن إلى انقضاء المدة ... »

وقال عن الزرادشتية : « ... زعموا أن الله عز وجل خلق في وقت ما في الصحف الأولى والكتاب الأعلى من ملكوته خلقاً روحانياً فلما مضت ثلاثة آلاف سنة أنفذ مشيئته في صورة من نور متلألىء على تركيب صورة الإنسان، وأحف به سبعين من الملائكة المكرمين .وخلق الشمس والقمر والكواكب والأرض وبني آدم غير متحرك ثلاثة آلاف سنة ثم جعل روح زرادشت في شجرة أنشأها في أعلى عليين وغرسها في قلة جبل من جبال أذربيجان يعرف بأسموية ضر ، ثم مازج شبح زرادشت بلبن بقرة فشربه أبو زرادشت فصار نطفة ثم مضغة في رحم أمه ، فقصدها الشيطان وغيرها فسمعت أمه نداء من السماء فيه دلالات على برئها فبرأت . ثم لما ولد زرادشت ضحك ضحكة تبينها من حضر واحتالوا على زرادشت حتى وضعوه بين مدرجة البقر ومدرجة

الخيل ومدرجة الذئب ، وكان ينتهض كل واحد منهم بحمايته من جنسه ، ونشأ بعد ذلك إلى أن بلغ ثلاثين سنة فبعثه الله نبياً ورسولا إلى الخلق فدعا « كشتاسف » الملك فأجابه إلى دينه ، وكان دينه عبادة الله والكفر بالشيطان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث ، وقال : النور والظلمة أصلان متضادان وكذلك يزدان وأهرمن ، وهما مبدأ موجودات العالم . وحصلت تراكيب من امتزاجهما وحدثت الصور من التراكيب المختلفة ، والباري تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما وهو واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة كما قالت الزروانية..لكن الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة ، ولو لم تميزها لما كان وجود للعالم ، وهما يتقاومان ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة والخير الشر ثم يتخلص الخير إلى عالم والشر إلى عالم وذلك هو سبب الخلاص ، والباري تعالى هو مزجها وخلطها ، وربما جعل النور أصلاً وقال إن وجوده حقيقي وأما الظلمة فتبع كالظل بالنسبة إلى الشخص . فإنه يرى أنه موجود وليس بموجود حقيقة . فأبدع النور وحصل الظلام تبعاً لأن من ضرورة الوجود التضاد فوجوده ضروري واقع في الخلق لا بالقصد الأول كما ذكرنا في الشخص والظل وله كتاب قد صنفه وقيل أنزل ذلك عليه وهو « زندوستا » يقسم العالم قسمين : مينه وكيتي . يعني الروحاني والجسماني ، والروح والشخص ، وكما قسم الخلق إلى عالمين يقول إن ما في العالم ينقسم إلى قسمين بخشش وكنش ، ويريد به التقدير والفعل ، وكل واحد مقدر على الثاني . ثم يتكلم في موارد التكليف وهي حركات الإنسان فيقسمها ثلاثة أقسام منش وكونس وكنش يعني بذلك الاعتقاد والقول والعمل وبالثلاث يتم التكليف ... » .

* * *

ولم تختم المذاهب المتجددة في المجوسية بمذهب زراذشت وتفسيراته المتعددة . بل بقيت هذه المذاهب تتجدد إلى ما بعد شيوع المسيحية بعدة قرون : وأشهرها وأهمها في تاريخ المقابلة بين الأديان ، مذهب مترا ومذهب ماني المعروف بالمانوية .

انتشر مذهب « مترا » في العالم الغربي بعد حملات « بومبي » الآسيوية وتدفق الآسيويين من جنوده إلى حواضر سورية وآسيا الصغرى . وأيده القياصرة لأنه كان يرفع سلطان الملوك إلى عرش السماء ، ويقول إن الشمس تشع عليهم قبساً من نورها وهالة من بركتها فيرمزون بعروشهم على الأرض إلى عرش الله في عليين .

وشاع هذا المذهب بعض الشيوع في القرن الثاني قبل الميلاد ، وقصر أتباعه على الذكور دون الإناث وجعل لهم درجات سبعاً يرتقونها إلى مقام العارفين الواصلين رمزاً إلى الدرجات التي تصعد عليها الروح بعد الموت ومن سماء إلى سماء ، حتى تستقر في نهاية المرتقى عند حظيرة الأبرار .

ويحتفل بالمريد كلما انتقل من درجة إلى درجة في وليمة يتناول فيها الخبز المقدس ويُمسح بالماء الطهور ، ولا يطلع قبل الدرجة الرابعة على أسرار المحراب ، بل يقتصر في العلم بتلك الأسرار على التقليد ، ثم يترقى في معرفة السر الأعظم إلى أن يعرف كلمة الله الخالقة في مقام العارفين الواصلين .

وأصل « مترا » قديم في الديانة الآرية ، يدين به الهنود كما يدين به الفارسيون ، وقد هبط في الديانة الزراذشتيه إلى مرتبة الملك الموكل بهداية الصالحين . ولكنهم جعلوه في الديانة المترية إله الشمس ورب الكون وخالق الإنسان وقاهر أهرمن بعد جلاد طويل .

ولا يسبقه في الوجود شيء غير « الأبد » أو « الزمان » أبي الأرباب عندهم وأبي كل موجود .

ويمثلون مترا حين تجسد على الأرض مولوداً من صخرة ناتئة في مكان منفرد لم يعلم بمولده أحد غير طائفة من الرعاة ألهموا معرفته فتقدموا اليه بالهدايا والقرابين ومضى بعد مولده فستر عريه بورق من شجرة التين ، وتغذى بثمرها حتى جاوز سن الرضاع

وكان أهرمن يحاربه ويتعقبه بالكيد ويحبط كل عمل له من أعمال الخير والفلاح فأرسل مترا على الأرض طوفاناً أغرقها ، ولم ينج معه إلا رجل واحد

حمل آله وأنعامه في زورق صغير وجدد على الأرض بعد ذلك حياة الإنسان والحيوان ، ثم طهر الأرض بالنار وتناول مع ملائكة الخير طعام الوداع وصعد إلى السماء ، حيث هو مقيم يتولى الأبرار بالهداية ويعينهم على النجاة من حبائل الشيطان .

وكان أتباعه يفردون لعبادته يوم الشمس أو يوم الأحد ، ويحتفلون بمولده في الخامس والعشرين من ديسمبر لأنه موعد انتقال الشمس وتطاول ساعات النهار ، ويقيمون له عيداً سنوياً في اليوم السادس عشر من الشهر السابع في تقويم الفرس القديم ... وقد كان المسيحيون الأولون يقابلون ذلك – بعد ظهور المسيحية وانتشارها – بتمجيد السيد المسيح في الأيام التي كان عباد مترا ينصرفون فيها إلى تمجيد هذا الإله الشمسي القديم .

أما المانوية فهي مذهب ماني بن فاتك الذي يرجح أنه ولد في أوائل القرن الثالث بعد الميـلاد ، ومذهبه يخالف مذاهب المجـوس الأقدمين في زعمه أن آدم من خلق الشيطان لا من خلق الله ... وأن الشيطان أودعه كل ما استطاع أن يختلسه من نور السماء ليكفل له البقاء ، فلما بصر به الملائكة ولمحوا فيه قبس النور ذهبوا يستخلصونه من قبضة الشيطان ليرتفعوا به إلى العالم الذي هم فيه . ولا يزالون يعملون في استخلاصه حتى يرجع إلى السماء آخر قبس من الضياء المسروق ... فيتجلى الله في سمائه ومن حوله تلك الأرواح النورانية ، ويتخلى الملائكة الذين يحملون الدنيا عن حملهم فتتساقط كسفاً وتلتهمها النيران تطهيراً لها من بقايا الرجس والمكيدة ، ويتم الانفصال يومئذ بين عالم النور وعالم الظلام .

قال الشهرستاني عن صاحب هذا المذهب : « إنه أخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية ويقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام . حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم : إن الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم ، وزعم أنهما لم يزالا قويين حساسين

سميعين بصيرين وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان ، وفي الحيز متحاذيان ، تحاذي الشخص والظل ... » .

ثم ذكر أمثلة من الاختلاف بين جوهر النور وجوهر الظلمة فقال إن جوهر النور حسن فاضل كريم صاف نقي الريح حسن المنظر ، وإن جوهر الظلمة قبيح ناقص لئيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظر ، وإن أجناس النور خمسة،أربعة منها أبدان والخامس روحها . فالأبدان هي النار والنور والريح والماء ، وروحها النسيم ، وإن أجناس الظلمة خمسة،أربعة منها أبدان والخامس روحها،والأبدان هي الحريق والظلمة والسموم والضباب وروحها الدخان ... »

* * *

وقد أصاب الشهرستاني حين قال إن هذه الثنوية هي ألزم سمات المذاهب المجوسية لأنها تتراءى في كل مذهب منها بلا استثناء ، وهي كذلك أبقى ما بقي منها في مجال التفكير ومجال الاعتقاد على السواء. لأننا نرى منها ملامح واضحة في مباحث التفرقة بين العقل والمادة ، ولا سيما مباحث حكماء اليونان .

بابل

والحضارة البابلية من أقدم الحضارات المروية في التواريخ .

ويزعم المتشيعون للحضارة التي ازدهرت في أرض بابل قبل انتقال الساميين إليها أنها أقدم الحضارات البشرية على الإطلاق ، ولكنها على الأرجح نزعة من نزعات العنصرية التي تجعل بعض الكتاب الأوربيين يتجاوزون كل حضارة سامية إلى حضارة سابقة لها منسوبة إلى عنصر آخر من العناصر البشرية.. ولهذا يبالغون في قدم الحضارة الشمرية وتقدير زمانها السابق لجميع الحضارات .

إلا أن الحضارة البابلية قديمة لا شك في عراقتها على تباين الروايات .

وهي على قدمها لم يكتب لها أن تؤدي رسالة ممتازة في تاريخ الوحدانية ، فكل ما أضافته إلى هذا التاريخ يمكن أن يُستغنى عنه ولا تنقص منه بعد ذلك فكرة جوهرية من أفكار التوحيد والتقديس . لأن الوحدانية تحتاج إلى « تركز وتوحيد » لا يستبان طويلاً في أحوال كأحوال الدولة البابلية . إذ كانت لها كهانات متعددة على حسب الحواضر والأسر المتتابعة ، وكانت الحواضر بمعزل عن البادية التي تترامى حولها وتنفرد بعقائدها وأساطيرها... أما الأسر المالكة فقد كانت شمرية ثم أصبحت سامية تنتمي إلى أرومات شتى في الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال ... وكانت أرض بابل في وسط العمران الأسيوي مفتحة الأبواب على الدوام لما تقتبسه عن عقائد الفرس والهنود والمصريين والعبريين ، وغير هؤلاء من أصحاب الديانات المجهولين في التاريخ .

فلم تتوحد فيها العقيدة حول مركز دائم مطرد الاتساع والامتداد بعيد من

طوارىء التغيير والتعديل . وكانت من ثم ذات نصيب في الشريعة وقوانين الاجتماع أوفى من نصيبها في تطور العقيدة الوحدانية على التخصيص .

ويستطاع الجزم بأن الرسالة البابلية في الدين لم تتجاوز رسالة الديانة الشمسية السلفية .

فالغزوات التي تُروى عن الأرباب الأقدمين هي غزوات أبطال من الأسلاف الذين برزوا بملامح الآلهة بعد أن غابت عن الأذهان ملامحهم الإنسانية ، ثم تلبست سيرتهم بظواهر الكون العليا فسكنوا في مساكن الأفلاك ، وحملت الأفلاك أسماءهم ولا تزال تحمل بقية منها إلى اليوم .

فمردوخ إله الحرب هو كوكب المريخ ، وقد تغلب على تيمات ربة الأغوار المظلمة فأخذ زوجها وخلائفها الأحد عشر وسلسلهم أسارى في مملكته السماوية . فهم المنازل الاثنا عشر التي بقيت في علم الفلك إلى اليوم .

وقد اتفق الساميون والشمريون على الارباب الكبرى كإله النور الذي يسميه الساميون « شمس » ويسميه الشمريون « آنّو » ... أو كالزهرة ربة الحب التي يسميها الساميون « عشتار » ويسميها الشمريون « ننسيانة » ... ولكن الأرباب البابلية أوفر عديداً من أن ينتظمها اتفاق بين قومين مختلفين ؛ لأنهم ارتفعوا بعددها إلى أربعة آلاف وقرنوا بها أنداداً لها من الشياطين والعفاريت تبلغ هذا العدد أو تزيد .

ولم ينقض على هذه الأرباب وقت كاف لإدماج صغارها في كبارها ثم فنائها جميعاً في أكبر الأرباب المشرفة على الكون ، أو في رب واحد ينفرد بهذا الإشراف ... كأن الطواطم التي عبدتها القبائل والأسر لم يطل بها عهد التطور حتى يفعل بها فعله من التصفية والاستخلاص والإدماج والتوحيد . فجاءت الأرباب التالية ولا تزال الأرباب السابقة لها على عهدها من النفوذ والاستقرار .

وهذا كانت سياسة الكون كما تخيلوها في الأدوار الأولى أشبه بالجمهورية بل بالمشيخة القبلية . فكانوا يتخيلون أن الأرباب تجتمع كل سنة في يوم

الاعتدال الخريفي لتنظر في السماء مقادير السنة كلها وتكتبها في لوح محفوظ لا يمحى قبل نهاية العام . وكان الملك نفسه يتلقى سلطانه على الأرض عاماً بعد عام في ذلك الموعد ... فيمثل الكهنة رواية الخلق ويشهدها الملك فرداً من الأفراد . ويعتمدون في بعض مواقف التمثيل أن يهينوه ويستخفوا به ليقرروا بذلك أنه فقد كل سلطان كان له على رعاياه ... فلا يعود إليه السلطان إلا بإذن جديد من « مردوخ » يتلقاه قبل ختام الرواية من يد حبر الأحبار .

ولم يؤثر عنهم في عهد الشمريين إيمان بعالم آخر أو بيوم للحساب والجزاء . فمن اجترأ على فعل محرم أو قصر في الصلوات والقرابين فالآلهة تجزيه على ذنبه بمرض يصيبه لا يشفيه منه غير كاهن المعبد بعد التوبة والتكفير ، وإن لم يكن جزاؤه مرضاً فهو خسارة في المال أو البنين أو ذوي القربى والأعزاء ، وكل مصيبة من هذه المصائب تنبيه إلى ذنب مقترف أو فريضة منسية ، وحثٌّ على التذكر وطلب الغفران .

وقد تعم الذنوب فيعم العقاب . وترسل الآلهة على الأرض طوفاناً أو وباء يأخذ البريء بذنب المسيئين ، ولكنها تنذر الناس قبل حلول العقاب وتلهم الكهان وحدهم تفسير ذلك النذير .

وهم يذكرون لتلك الأرباب غزوات وأخباراً قبل خلق هذه الدنيا كأنهم كائنات لا تحتاج إلى خالق ، ولكنهم يذكرون أخباراً قبل تلك الأخبار يروونها عن «تيمات» ربة الغمر أو ربة الأغوار والظلمات . ولا يفهم من أخبارهم هذه أن تيمات أنشأت الأرباب بقدرة الخلق ، لأنها عندهم ربة الفوضى والعماء . ولكنهم يحسبون أن الأرباب كانت تحوم في أغوارها كما تحوم الأشباح في الظلام ، ويصورونها في إحدى أساطيرهم — كما يصورون البشر الأولين — فنصفها سمك ونصفها إنسان .

أما قصص الخلق عندهم فهي مناسبة لموقع البلاد البابلية واشتغال أهلها القديم برصد الكواكب ومراقبة الأنواء ، وتدل القصة من أجل هذا على أنها من مأثورات قوم عريقين في سكنى تلك البلاد ولم ينقلوها إليهم من بلاد

أجنبية عنها ، ويرجح ذلك على التخصيص ذكرُ الطوفان المفصل في بعض القصص البابلية ، لأن الباحثين في الآثار يعتبرون أن الطوفان قد غمر ما بين النهرين إلى الشمال ، وأن الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح هو الجبل المعروف اليوم بجبل أرارات ، ولم تشتمل قصص الطوفان في البلاد الأخرى على تفصيل كهذا التفصيل .

وفحوى قصة الخلق بعد استخلاصها من الأوشاب الكثيرة أن الدنيا كانت قسمة بين تيمات ربة الأغمار أو ربة الماء الأجاج وبين « إيا » إله الماء العذب وعنصر الخير في الوجود . وموقع الأرض البابلية يجعلها في قبضة هذين الربين ويوحي إلى اهلها الإيمان بما عندهما من المخاوف والخيرات .

وقد انهزم « أنو » إله السماء أمام جحافل تيمات فلم ينتصر إلا بعد أن برز من الماء بطل وليد : هو مردوخ رب الجنود وسيد الحروب .

ثم عمد مردوخ إلى تيمات فشقها نصفين : صنع الأرض من أحدهما وصنع قبة الفضاء من النصف الآخر ، ثم قيد أسراه في هذه القبة فهم لا يبرحونها إلا بإذنه ، ورفع إلى السماء ما شاء من الأرباب .

وقد كشفت الألواح التي تضمنت شروح هذه القصة بالخط المسماري في أواخر القرن التاسع عشر ، ونقلت إلى المتحف البريطاني بلندن حيث تحفظ الآن . وهي مقسومة إلى سبعة أقسام : كل قسم يتحدث عن يوم من أيام الخلق آخرها اليوم الذي خلق فيه الإنسان . وقد جاء في اللوح المخصص لشرح قصته أن « مردوخ » أفضى إلى «إيا» بأنه سيخلق الإنسان من دمه وعظمه ، وأمر حاشيته أن تضرب عنقه — عنق الإله مردوخ — ففعلت . وسال الدم فنجم منه الإنسان . ويظهر أن ضرب عنق الإله لا يقتله ولا يقضي عليه . لأن مردوخ كان يتصد بروحه حشد الأرباب التي اجتمعت في السماء احتفالاً بخلق أبي البشر ، وسمع منها نشيد الفرح والثناء .

ويتمم البابليون قصة خلق الإنسان بقصة أخرى عن طموحه إلى الخلود

واجتهاده في اختلاس سره من الآلهة . فيعاقب على ذلك بالموت ، وتأبى الآلهة أن يشاركها أحد من الخلق في نعمة الحياة الباقية .

وتعتبر قصة الخلق البابلية أهم نصيب ساهمت به المأثورات البابلية في علم المقابلة بين تواريخ الأديان .

اليونان

أما تاريخ العقيدة في بلاد اليونان فقد حفل بجميع أنواع العقائد البدائية قبل أرباب « الأوليمب » الذين خلدوا في أشعار هومير وهزيود .

فعبدوا الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل ومزجوا هذه العبادات جميعاً بطلاسم السحر والشعوذة ، واستمدوا من جزيرة « كريت » عبادة النيازك وحجارة الرواسب التي شاعت بين أهل الجزيرة من أقدم عصورها البركانية ، فرمزوا بها إلى أرباب البراكين والعوالم السفلية ، واتخذها بعضهم « طواطم » ينتسبون إليها انتساب الأبناء إلى الآباء .

ولما شاعت بين الإغريق عبادة « أرباب الأوليمب » كان من الواضح أنها أرباب مستعارة من الأمم التي سبقتهم إلى الحضارة وتنظيم العبادات .

فالإله « زيوس » أكبر أرباب الأوليمب هو الإله « ديوس » المعروف في الديانة الهندية الآرية القديمة ، واسمه متداول في العبادات الأوربية جميعاً مع قليل من التصحيف بين اللغات واللهجات ، ومن تصحفاته أسماء الله والإلهية عند الفرنسيين والطليان والإنجليز المعاصرين .

والربة أرتميس — ومثلها الربة أفروديت أو فينوس — هي الربة عشتار اليمانية البابلية ... ومنها كلمة « ستار » التي تدل على النجم في بعض اللغات الأوربية الحديثة .

والربة « ديمتر » هي إزيس المصرية كما قال هيرودوت ، وهي واحدة من أرباب كثيرة تشابهت عبادتها في بلاد الإغريق وعبادتها بين قدماء المصريين .

وأضيف إلى هذه الأرباب « أدونيس » من « أدوناي » العبرية بمعنى السيد أو الإله ، وأضافوا اليها في مصر بعد الإسكندر المقدوني عبادة إله سموه سرابيس وهو اسم مركب من اسمى أوزيريس وأبيس المعبودين المصريين ، وكان لهما معبد تدفن فيه العجول التي تعبد باسم أبيس بعد موتها وذهابها إلى مغرب أوزيريس .

كما أضيفت إليها عبادة « ديونسيس » في أطوارها المتتابعة التي تلبست أخيراً بعبادة « مترا » في الديانة الأورفية السرية .

وقد ترقى اليونان في تصور صفات الأرباب خلال العصور التاريخية ، فعبدوها قبل المسيح ببضع مئات من السنين وهي على أسوأ مثال من العيوب الإنسانية ، وعبدوها بعد ذلك وهي تترقى إلى الكمال وتقترب إلى فكرة « التنزيه » التي سبقهم إليها المصريون والهنود والفرس والعبرانيون .

فكان أرباب الأوليمب في مبدأ الأمر يقترفون أقبح الآثام ويستسلمون لأغلظ الشهوات ، وقد قتل زيوس أباه « كرونوس » وضاجع بنته وهجر سماءه ليطارد عرائس العيون والبحار ويغازل بنات الرعاة في الخلوات ، وغار من ذرية الإنسان فأضمر له الشر والهلاك ، وضن عليه بسر « النار » فعاقب المارد برومثيوس لأنه قبس له النار من السماء .

ولم يتصوروه قط خالقاً للدنيا أو خالقاً للأرباب التي تساكنه في جبل الأوليمب وتركب معه متن السحاب . فهو على الأكثر والد لبعضها ومنافس لأنداده منها ، وتعوزه أحياناً رحمة الآباء ونبل العداوة بين الأنداد .

ولم يزل « زيوس » إلى عصر « هومير » خاضعاً للقدر مقيداً بأوامره ، عاجزاً عن الفكاك من فضائله .

ثم صوره لنا هزيود الشاعر المتدين على مثال أقرب إلى خلائق الرحمة والإنصاف ومثال الكمال ، ولكنه نسب الخلق إلى أرباب أقدم منه ومن سائر المعبودات الأولمبية ... وهي « جيا » ربة الأرض و « كاوس » رب الفضاء و « إيروس » رب التناسل والمحبة الزوجية ، وجعل إيروس يجمع بين الأرض وزوجها

الفضاء فتلد منه الكائنات السماوية والأرضية وآخرها أرباب الأوليمب ... وعلى رأسهم « زيوس » الملقب بأبي الأرباب .

وكان « أكسينوفون » المولود بآسيا الصغرى قبل الميلاد بنحو ستة قرون أول من نقل إلى الإغريق فكرة الإله الواحد المنزه عن الأشباه ، فكان ينعى على قومه أنهم يعبدون أرباباً على مثال أبناء الفناء ، ويقول إن الحصان لو عبد إلهاً لتمثله في صورة الحصان ، وإن الأثيوبي لو تمثل إلهاً لقال إنه أسود الإهاب ؛ وإن الإله الحق أرفع من هذه التشبيهات والتجسيمات ، ولا يكون على شيء من هذه الصفات البشرية ... بل هو الواحد الأحد المنزه عن الصور والأشكال ، وإنه فكرٌ محض ينظر كله ويسمع كله ويفكر كله ويعمل كله في تقويم الأمور وتصريف أحكام القضاء .

وكان أثر الديانات الأسيوية والمصرية أظهر من كل ما تقدم في الديانة الأورفية السرية . لأنها كانت ملتقى عبادة إيزيس وعبادة مترا وعبادة المجوس والبراهمة .

فعرفوا « الروح » وعرفوا تناسخ الأرواح ، وعرفوا أدوار التطهير والتكفير ، ومزجوا بها عبادة « ديونيس » الذي كان في عصورهم الغابرة إله الخمر والقصف والترف ... فجعلوا خمره رمزاً إلى النشوة الإلهية : نشوة الحياة والشباب الخالد المتجدد على مدى الأيام .

وكانت محاريبه الكبرى بآسيا الصغرى. ولكنهم كانوا يحتفلون في أثينا بعيد يسمونه الأنثستريا Anthesteria يوافق شهر فبراير ، وتقوم شعائره على مزيج من عبادة الحياة وعبادة الأسلاف والموتى ، فيشربون الخمر في جرار الجنائز والقرابين ويعتقدون أن هذه الخمر تسري إلى الأجساد البالية فتنفث فيها الحياة وتصلحها للبعث من جديد في أجسام الأجنة المطهرة من أدران حياتها الماضية .

ونحن لا نعنى هنا بالفلسفة اليونانية . بل نقصر القول في هذا الفصل على

العقيدة اليونانية التي تطورت عندهم تطور الأديان لا تطور الأفكار والمباحث العلمية أو الفلسفية .

ففي هذا المجال ــ مجال العقيدة ــ يمكن أن يقال إن اليونان أخذوا فيها كل شيء ولم يعطوا شيئاً يضيف إلى تراث البشر في مسائل الإيمان ، وإنهم حين بدأوا عصر الفلسفة كان أساسها الأول ممهداً لهم في العقائد التي أخذوها عن الديانات الأسيوية والمصرية ، وإنهم ظلوا بعد الفلسفة يدينون بالوثنية التي كانوا يدينون بها قبل الميلاد بعدة قرون .

مرحلة جديدة في الدين

بنو إسرائيل

ومثل بني إسرائيل – أو العبرانيين – مثل جميع الأمم الغابرة في تطور العقيدة .

فقد دانوا زمناً بعبادة الأسلاف كما دانوا بعبادة الأوثان والكواكب وظواهر الطبيعة وطواطم الحجارة والأشجار والحيوان .

وبقيت فيهم عبادة الأوثان بعد دعوة إبراهيم عليه السلام وظهور الأنبياء ، فعبدوا « عجل الذهب » في سينا ، بعد خروجهم من الديار المصرية . وفي الإصحاح الثامن عشر من كتاب الملوك الثاني أن حزقيا ملك يهودا « ... أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسى لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ... »

وجاء في الإصحاح التاسع عشر من كتاب صموئيل الأول أن إحدى زوجات داود عليه السلام – ميكال – « أخذت الترافيم ووضعته في الفراش ووضعت لبدة المعزى تحت رأسه وغطته بثوب » .

والمعروف أن الترافيم أو الطرافين بصيغةالجمع هي تماثيل على صورة البشر تقام في البيوت وتحمل في السفر ، ويرمز بها إلى الله .

وقد دعاهم موسى عليه السلام إلى التوحيد ونبذ الأصنام والأوثان . وقيل إنه عليه السلام أول من سمى الإله « يهوا » وهو اسم لا يعرف اشتقاقه على التحقيق . فيصح أنه من مادة الحياة ويصح أنه نداء لضمير الغائب ، لأن بني إسرائيل كانوا يتقون ذكره توقيراً له ويكتفون بالإشارة إليه ، ويصح غير ذلك من الفروض .

وعبدوا الإله باسم « إيل » أي القوي في اللغة الآرامية . ولكن الأسماء العبرية تدل على أنهم قد لبثوا زماناً يصفون الإيل بالصفات البشرية ويقبلون نسبةالقرابة الإنسانية إليه . كما في اسم عمائيل من « العمومة » أو « إيل أب » من الأبوة وغير ذلك من أواصر الأسرة البشرية .

وظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته . فذكروا أنه كان يتمشى في الجنة وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويغشى مركبات الجبال . وأنه دفن موسى حينما مات في موآب .

وقد خلت الكتب الإسرائيلية من ذكر البعث واليوم الآخر . فالأرض السفلى أو الجب ، أو شيول هي الهاوية التي تأوي إليها الأيتام بعد الموت ، ولا نجاة منها لميت ... « وإن الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد .. »

وأول إشارة ليوم كيوم البعث وردت في الإصحاح الرابع والعشرين من كتاب أشعيا الذي عاش نحو القرن الثالث قبل الميلاد ، وفيه نبوءة عن يوم « يطالب فيه الرب جند العلاء في العلاء ويجمعون جمعاً كأسارى في سجن ... ويخجل القمر وتخزى الشمس لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وفي أورشليم » ، وفي الإصحاح السابع والعشرين بعده أن الرب يعاقب بسيفه القاسي الشديد في ذلك اليوم « لوياثان الحية العارية ، لوياثان الحية المتحوية ، ويقتل التنين الذي في البحر » ومن أعمال ذلك اليوم كما جاء في الإصحاح الخامس والعشرين « أن رب الجنود يصنع لجميع الشعوب وليمة سمائن : وليمة خمر على دردى سمائن ممخة : دردى مصفى » .

وجاءت إشارة أخرى إلى يوم البعث والدينونة في الإصحاح الثاني عشر من كتاب دانيال ، وهي أصرح من الإشارات السابقة حيث يقول فيها النبي : « إن كثيرين من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون : هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي .. » ويلاحظ أن كتاب دانيال لا يحسب من كتب العهد القديم في جميع النسخ .

ويرجع تاريخ هذه النبوءة إلى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد حوالي سنة

مائة وخمس وستين ، وإنما كان الثواب والعقاب قبل ذلك نصراً يؤتاه الإسرائيليون على الأعداء أو بلاء يصابون به على أيدي الأقوياء ، جزاء لهم على خيانة « يهوا » وعبادة غيره من أرباب الشعوب .

وكان معنى الكفر في الإسرائيلية الأولى كمعنى الخيانة الوطنية في هذه الأيام ، فكانت للشعوب آلهة يؤمن الإسرائيليون بوجودها ، ولكنهم يحرمون عبادتها كتحريم الانتماء إلى دولة أجنبية . فربّ الشعب أحق بولائه وعبادته من الأرباب الغرباء .

وظلوا على ذلك إلى أن فهموا «الوحدانية» التي تتعالى على الشبيه والنظير في أيام أشعيا الثاني القائل بلسان الرب : « بمن تشبهونني وتسوونني وتمثلونني لنتشابه؟» ... وهو الذي شدد النكير عليهم قائلاً إن الله هو الأول منذ القدم ، وهو المخبر منذ البدء بالأخير ، ونعى عليهم أن يعبدوا صنماً « يرفعونه على الكتف ويحملونه ويضعونه في مكانه ليقف في موضع ولا يبرحه ، ويناديه الداعي فلا يجيب » .

وكان سقوط الدول الكبيرة في عهد أشعيا الثاني مؤذناً باقتراب يوم إسرائيل الموعود . فقد تداعت بابل ومصر ، وآذنت فارس بالتداعي والانقسام ، فتجدد رجاء إسرائيل في ملك العالم ، وفسروا سقوط الدول الكبرى بغلبة « يهوا » عليها وعقوبته لها على ما أسلفت من الإساءة إلى شعبه ، ولاح لهم — لأول مرة — أن ربهم يبسط ظله على الأرض بما رحبت ، وأن يوم الخلاص الموعود جد قريب .

والغالب في وصفهم للإله أنه غيور شديد البطش متعطش إلى الدماء ، سريع الغضب ينتقم من شعبه كما ينتقم من أعداء شعبه . ولكن موسى عليه السلام وصفه بالرحمة وفريقاً من أنبيائهم وصفوه بالحب واللطف وعلموهم أنه يحب عباده ويطلب من عباده أن يحبوه ، أو كما قال هوشع : « إنه يريد رحمة لا ذبيحة » وأن خلائق العدل والحق والإحسان والمراحم هي خلائق الأبرار .

* * *

وقد شغلت العقائد الإسرائيلية حيزاً كبيراً من مقارنات الأديان ، لأنها : « أولا » نقطة التحول بين العبادات القديمة والعبادات في الديانة الكتابية ولأنها « ثانياً » صحبت التطور في فكرة المسيح المنتظر في مبدئها ، فكانت تمهيداً متوالياً للدعوة المسيحية ، وهي أوسع الدعوات الكتابية انتشاراً بين الأمم التي عنيت بالدراسات العلمية الحديثة في مقارنات الأديان .

ولأنها « ثالثاً » موضوع مقابلة مستفيضة بينها وبين عقائد البابليين والمصريين والفرس والهنود الأقدمين ، ولها صلة قريبة بعقائد اليونان قبل عصر الفلسفة وبعدها إلى عصر السيد المسيح .

فكانت العقائد الإسرائيلية نقطة التحول ... لأنها بدأت بتصور الإله على صورة إنسان يأكل ويشرب ويتعب ويستريح ويغار من منافسيه ويخص قبيلته وحدها بالبركة والتشريع ، وقرنت هذه الصورة تارة بعبادة الأصنام وتارة بعبادة الموتى أو ظواهر الطبيعة وتماثيل الطواطم من الحيوان والنبات ، ثم تطورت صفات الله في اعتقاد أبنائها من أعلى إلى أعلى حتى عبدوا الإله الأحد المنزه عن التجسد وعن خلائق البشر القادر على كل شيء والعليم بما كان ويكون ، والرحيم الذي يحب الرحماء والودعاء والعاملين بالبر والعدل والإحسان .

ثبتت فكرة « المسيح المنتظر » في عقائد بني إسرائيل بعد زوال ملكهم وانتقالهم إلى الأسر في بابل قبل الميلاد بنيف وخمسة قرون . ومعنى كلمة المسيح « الممسوح بزيت البركة » لأنهم كانوا يمسحون به الملوك والأنبياء والكهان والبطاريق ، فكان شاؤل الملك يسمى بمسيح الرب كما جاء على لسان داود في كتاب صموئيل الأول : « حاشاني من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدي مسيح الرب » ... وكانوا يمسحون الأنبياء بالزيت المبارك كما جاء في كتاب الملوك الأول « وامسح أليشع بن شافاطا ... نبياً عوضاً عنك » ويمسحون به الكهان كما جاء في كتاب الخروج : « هذا ما نصنعه لهم لتقديسهم ... نأخذ دهن المسحة ونسكبه على رأسه ونمسحه » ويمسحون البطارقة ويسمونهم بالمسحاء كما جاء في المزمور الخامس بعد المائة : « لا تمسوا مسحائي ولا تسيئوا إلى أنبيائي .. » بل كانوا يمسحون به كل ما يريدون

تقديسه كما جاء في كتاب اللاويين : « ثم أخذ موسى دهن المسحة ومسح المسكن وكل ما فيه وقدسه . ونضح منه على المذبح سبع مرات ، ومسح المذبح وجميع آنيته والمرحضة وقاعدتها لتقديسها وصب من دهن المسحة على رأس هرون ومسحه لتقديسه » .

وكانوا في مبدأ الأمر ينتظرونه ملكاً فاتحاً مظفراً من نسل داود ، ويسمونه ابناً لله كما قال ناتان لداود عليه السلام في كتاب صموئيل الثاني : « هو يبني بيتاً لاسمي وأنا أثبت كرسي مملكته إلى الأبد ... أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً » .

ولكنهم أطلقوا اسم المسيح على كل من يعاقب أعداءهم ويفتح لهم باب الخلاص من أسرهم كما فعل كورش بالبابليين ؛ فجاء في كتاب أشعيا : « هكذا يقول الرب لمسيحه : لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس به أمماً .. » .

وخطر حيناً للنبيين زكريا وحجاي في أواخر القرن السادس قبل الميلاد أن زر بابل — والي يهودا — هو المسيح المنتظر . لأنه أعاد بناء البيت في السنة الثانية للملك داريوس .

وتهذبت هذه العقيدة مع الزمن فأصبحوا ينتظرون الخلاص على يد الهداة العادلين بعد طول انتظاره من زمرة الغزاة الفاتحين . فقال زكريا في رؤياه : « ابتهجي جداً يا ابنة صهيون ، اهتفي يا بنت أورشليم . هو ذا ملكك يأتي إليك : هو عادل ومنصور وديع . راكب على حمار : على جحش بن أتان » .

وقد طالت المقارنات بين بعض الصلوات الإسرائيلية وبعض الصلوات المصرية ... ولكن علماء الأديان عقدوا المقارنة الكبرى بين مأثورات بابل وفارس ومأثورات إسرائيل .

فقصة الخليقة في العقائد الإسرائيلية الأولى تشابه قصة الخليقة في ألواح بابل .. وعقيدة « المخلص » المنتظر موجودة في الديانة الفارسية وموجودة في الديانة الإسرائيلية .. وكان البابليون يؤمنون بأن الإنسان تمرد على قسمة الموت وطمح إلى خلود كخلود الأرباب فبحث عن ثمرة البقاء في السماء وخدعه إله

ماكر عن بغيته فناوله بديلاً منها ثمرة تشبهها في ظاهرها ولكنها ثمرة الفناء ، وهي ثمرة الحب التي تعطي الفناء في صورة البقاء ، وهذه في جملتها لا في تفصيلها قريبة من المأثورات الإسرائيلية في هذا الموضوع .

وعند البابليين قصة مفصلة عن الطوفان ، ولكنها في الواقع قصة متواترة شاملة توجد بقاياها في المأثورات القديمة من أمريكا الجنوبية إلى الهند . فيروي أهل إقليم كنديماركا Cundimarca بأمريكا الجنوبية أن امرأة الرجل المقدس بوشيكا أولعت بالسحر وأصغت إلى وسواس الشيطان فأخرجت نهر فونزا Funzha من مجراه وأغرقت الإقليم كله بإنسانه وحيوانه ونباته، فلم يعتصم منه إلا من تبع بوشيكا إلى الجبال . ثم عاد بوشيكا فجمع قومه وعلمهم عبادة الشمس وأسلم الروح .

وقصة الطوفان عند المكسيكيين المعروفين بالشيشميين Chichimygues أن العصر الأول من عصور الخليقة — وهو المسمى عندهم بعصر أتوناتيو — أي عصر شمس الماء — قد انتهى بطوفان جارف نجا منه رجل واحد اسمه تزبي وامرأته شُشكتزال ، وكانت نجاتهما على زورق مصنوع من خشب الصفصاف ، ويروي أهل بيرو قصة شبيهة بقصة المكسيكيين .

وأهل فريجية بآسيا الصغرى يروون قصة الطوفان ويجعلونها في زمن ملك من ملوكهم يسمى ناناشس Nannachus ويسمون البلد الذي لجأ إليه الهاربون من الطوفان باسم « كيبوتوس » .. ومعناها السفينة في لغة الفريجيين .

وقد ترجم ماكس موللر قصة عن السنسكريتية خلاصتها أن ناسكاً دعا بماء في الصباح ليغتسل فوثبت له من الماء سمكة وقالت له : احفظني فإنني سأحفظك فسألها : ومم تحفظينني ؟ قالت من الطوفان الذي سيغرق كل هذه الخلائق .. وسيأتي الطوفان يوم أكبر ، فاعلم يومئذ أن الساعة قد أزفت وابن لك سفينة واتخذني دليلاً للنجاة » .

ويعود الإغريق بقصة الطوفان إلى عهد أوجيج Ogyge ملك أتيكا الأول . ولعل اسمه مأخوذ من كلمة أوجا Augha السنسكريتية بمعنى الطوفان ،

وعندهم أن الماء علا حتى بلغ السماء فلاذ الملك وخاصة أهله بسفينة صنعها فنجا عليها من الموت . وفي رواية إغريقية أخرى أن زيوس غضب على البشر فأغرقهم وعلم برجيوس بما انتواه فنصح لابنه دوكاليون أن يصنع السفينة لينجو عليها ، فصنعها ونجا عليها مع زوجته بيرها إلى جبل البرناس .

ويقول اللتوانيون في قصتهم عن الطوفان إن الإله برمزيماس غضب على الدنيا فأرسل عليها ماردين هما « واندو » و « ويجاس » أي الماء والريح ، فغرق كل من في الأرض إلا من ألهمه الإله أن يعتصم بالجبل .

وقصة البابليين كما نقلها المؤرخ الإغريقي بيروسس Berosus قديماً تزيد على قصة الغرق والنجاة بقصة ألواح التشريع ، وخلاصتها أن إكزيسترس Xisuthrus الذي نجا بالفلك أحس قرب الطوفان فدفن في الأرض ألواح الشريعة ، وتفقدها أبناؤه بعد هبوط الماء فاستخرجوها من مكانها .. فهي أساس النظام القديم في دولة البابليين .

وتستند قصة الطوفان عند البابليين إلى تقدير من تقديرات علم الفلك أو على الأصح علم التنجيم ، يزعمون فيه أن العالم تتعاوره في الآباد الطوال أدوار الطوفان وأدوار الحريق ، ويختلفون في تقدير هذه الأدوار بالسنين الكونية ولكنهم يحسبون السنة الشمسية كأنها ثانية بالنسبة إلى اليوم العالمي أو كأنها ثانيتان بحسابنا لأنهم كانوا يقسمون النهار والليل إلى اثنتي عشرة ساعة لا إلى أربع وعشرين ، ويحسبون السنة العالمية كأنها يوم في السنة الكونية التي تقع أدوار الفناء بحسابها ، وقد اختلفوا كما أسلفنا في تقدير مدة هذه الأدوار ، ولكنهم يقولون إن الغرق الكوني يحصل كلما اجتمعت الأفلاك السماوية في برج الجدي ، وإن الحريق الكوني يحصل كلما اجتمعت في برج السرطان . وهنا يقع الخلط بين حساب الآباد وحساب الفصول الأرضية كما لاحظ العلامة جومبيرز مؤرخ الفلسفة اليونانية الكبير ، فإنهم وهموا أن الحريق الكوني من حرارة الصيف ، وأن الغرق الكوني من برد الشتاء كما يقعان في تقلبات الفصول .

وعموم قصة الطوفان يثبت وقوع الطوفان وإن تقادم به العهد فتعددت به الروايات .

وقد طالت المقارنات كما أسلفنا بين مصادر العقيدة عند الإسرائيليين ومصادرها عند شعوب بابل ومصر وفارس والهند على التخصيص .

فبعض علماء المقارنات يرى أن البابليين نقلوا قصة الخليقة وقصة الطوفان من قوم إبراهيم عليه السلام لأنه نشأ فيهم قبل الميلاد بألف سنة على التقريب. وبعضهم يرى على نقيض ذلك أن هذا النقل جائز في المؤثرات التي انقطعت أسنادها وأمكن أن تبدأ عند البابليين والإسرائيليين على السواء، ولكنه غير جائز في المأثورات التي تسلسلت مما قبلها في عقائد بابل وفارس .

ونحن هنا لا تعنينا مقارنات العقائد إلا من جانب واحد ، وهو جانب التطور البشري في إدراك صفات الله .

ومتى قصرنا النظر على هذا الجانب فالثابت من تاريخ الديانة الإسرائيلية أنها انقلبت بعد عصر إبراهيم عليه السلام إلى وثنية كالوثنية البابلية ، وأن التوحيد الذي بشر به إخناتون في مصر القديمة سابق لشيوع التوحيد في شعوب إسرائيل ، ولكن العقيدة الإسرائيلية عاشت بعد اختفاء عقيدة إخناتون وبعد عصر موسى عليه السلام .. فكانت هي كما تقدم نقطة التحول في تطور الاعتقاد بالله بين الأمم التي تؤمن بالأديان الكتابية .

الفلسفة

أول ما يقع في النفس من متابعة الأطوار الدينية كما أوجزناها كل الإيجاز فيما تقدم – أن مهمة الدين هي مهمة النوع الإنساني كله ، قد تلمس فيها السبيل القويم من أقصى عصور ماضيه إلى حاضره الذي نحن فيه ، وأنه كلما ترقى بتفكيره وترقى بأخلاقه وأحواله تهيأ لقبول عقيدة التوحيد ، وترقى في هذا الاتجاه من تنزيه إلى تنزيه ، ومن كمال إلى كمال .

وتتجلى هذه الظاهرة في الأديان القديمة التي أتمت نضجها وبلغت مستقرها في زمانها واستكملت من قبل جميع شعائرها . كالديانة المجوسية التي أسلفنا تلخيصها كما اعتقدها أهلها قبيل الميلاد وبعده بقليل ، فإن أبناءها قد أخذوا بعقيدة التوحيد بعد احتكاكهم بالمسلمين وأصبح المجوس الذين يسمون اليوم بالبارسيين يؤمنون بإله واحد : هو إله الخير يزدان ولا يشركون معه أهرمن كما فعل أسلافهم الأقدمون . قال العلامة جيمس دارمستتر Darmesteter في كلامه على زراذشت من كتاب حوادث العالم الكبرى : « إنهم قد انتهوا إلى الوحدانية ، وإن الدكتور ويلسون حين كان مشغولا بمناقشة البارسيين منذ أربعين سنة – نعت دينهم بالثنوية فأنكر مجادلوه هذه التهمة ، وقالوا إن أهرمن لم يكن له وجود حقيقي وإنما هو رمز لما يجيش بنفس الإنسان من خواطر السوء . فلم يعسر على الدكتور أن يبدي لهم أنهم يناقضون بذلك كتبهم المقدسة . ولم يزل النقاد الأوربيون حيناً بعد حين يعجبون للتقدم الذي تقدمه البارسيون في المذهب العقلي بعد مدرسة فولتير وجيبون . ولكن الواقع أنه ليس للمذاهب الأوربية تأثير وراء هذا التقدم . فإن البارسيين قبل أن يسمعوا بأوربة والمسيحية وُجد فيهم من فسر أسطورة تامورات الذي امتطى

أهرمن ثلاثين سنة كما يمتطى الحصان — بأنها تعني أن ذلك الملك قد كبح شهواته وزجر نوازع الشر التي تحيك بسريرة الإنسان . وشاع فيهم هذا التفسير المثالي نحو القرن الخامس عشر للميلاد ولا يزال شائعاً اليوم بين المفسرين . وليس في الوسع أن نقرر على التحقيق مبلغ تأثير الديانة الإسلامية في هذا التحول فقد نلمح هنالك علامات ضعيفة على ابتدائه منذ عهد المجوس الأقدمين ... »

ولا بد أن نلاحظ هنا أن المهم هو تهيؤ الذهن للتوحيد ، وليس المهم هو ما قصده الإنسان في نيته وعمله فعلاً في هذا السبيل .

فلا الحقائق الدينية ولا الحقائق العلمية يقدح فيها ما قصده العقل أو قصدته النوازع النفسية قبل الوصول إليها .

فإن الإنسان قصد تسيير السفن وتنظيم الملاحة فعرف الفلك ورصد ظواهر السماء ، وقصد قياس المزارع فعرف الهندسة ، وقصد الذهب فعرف الكيمياء ، وقصد الشعوذة فعرف الطب ، وبدأ بالفلسفة من بداءات أعجب من بداءات الأديان ، ولم يحسب ذلك عيباً على الحقائق التي انتهى إليها من هذا السبيل .

فالمهم في الأطوار الدينية هو الحافز الدائم الذي لزم النوع الإنساني من أقدم عصوره ، وهو الوجهة القويمة التي يسعى إليها ويقترب منها ، ولا تزال بداهة الفطرة سابقة فيها لأشواط العقل في مضمار الفلسفة والتفكير . وهذه هي معجزة الجهود الدينية عند الالتفات اليها وإنعام النظر فيها ، فإن عقول الفلاسفة أقدر على التأمل من بداهة الجماعات ، ولكن الذي رأيناه في تاريخ الفلسفة قديماً وحديثاً أنها أخذت من بداهة الجماعات آساسها المتينة ولم ترتفع إلى ذروة أعلى من التي ترقى إليها الضمير بعقيدة التوحيد والتنزيه ، ولا نفهم هذا عقلاً إلا على اعتبار واحد ، وهو أن هداية الله تأخذ بيد الإنسان خطوة فخطوة في هذا المرتقى الوعر . فيهتدي في كل مرحلة من مراحلها بمقدار .

لقد آمن الإنسان بالإله الواحد من طريق العقيدة قبل الميلاد بأكثر من

عشرة قرون ، ولكنه لم يعرف « السبب الأول » من طريق الفلسفة إلا حوالي القرن الرابع قبل الميلاد . وكان جل اعتماده في ذلك على الدين .

فمن الدين تلقى الفلاسفة فكرتهم عن الروح ، ومن الدين تلقوا فكرتهم عن بطلان الظواهر المادية ، ومنه تعلموا التفرقة بين العقل والمادة فتعلموا كيف ينفذون إلى ما وراء الحس ويوغلون في تصفية كنه الموجودات إلى أعماق لا تغوص فيها الأجسام وآفاق لا تدركها الأبصار .

وقد استعاروا من الأديان الأولى عقائد المؤمنين بها في تعليل أصول الكائنات والتنبؤ عن مصيرها بعد وفاء آجالها من الوجود . فقالوا إن السماء والأرض خلقتا من الماء ،وقالوا بالدورات الكونية التي تبدىء العالم وتعيده كرة أخرى على طويل الأدهار والآباد ، وقالوا بالحساب والعقاب كما قال سابقوهم من المتدينين ، وفهموا أن قدرة الله تخالف قدرة القوى المادية التي تعمل بالجهد والعناء ... فتعلموا أن الله يخلق بالكلمة أو بالمشيئة فيفعل ما يريد . وأخذوا من الديانات القديمة صوابها وخطأها وحقائقها وأوهامها ، ثم محصوها ومحضوها فلم يجاوزوا بالتمحيص والتمحيض آفاق الإيمان بوحدانية الله .

وإننا لنحسب أن الاهتداء إلى القوة الروحية أو قوة العقل هو أعلى ما ارتفع إليه فكر الإنسان وضميره ، بإلهام الدين وبحث الفلسفة والعلوم ... فليست القوة كثافة ولا مادة مجسمة للعينين واليدين . وإن القوة المادية نفسها حين تدخل في حساب العقل لهي أقرب إلى أن تقاس بالأرقام والتقديرات من أن تقاس بالثقل والضخامة . بل الثقل نفسه ليس هو إلا معنى من المعاني نسميه بالجاذبية ونقيسه بالتقديرات الرياضية .

ولهذا نستكبر على البادئين بهذه الفكرة المنزهة قبل عشرات القرون أنهم وثبوا إليها وثبة واحدة وقصدوا بها ما نقصده اليوم حين نتكلم في الفلسفة تارة ونتكلم في العلوم الطبيعية تارة أخرى .

ونتخذ من هذه الفكرة مثالاً للأساليب الإنسانية في الوصول إلى حقائق

الأشياء ، ودليلاً على القاعدة التي نقررهـــا لوزن الأطوار الدينية بميزانها الصحيح ، وهي أن العبرة بالوجهة التي نبلغها لا بالدواعي التي تحركنا إلى تلك الوجهة ، وإن قصد الإنسان لا يعبر تمام التعبير عن قصد القضاء الذي يسيره ويغريه بالعمل والاجتهاد .

فنحن نرجح أن العقل الذي خطر له أن الله يخلق بكلمة ولا يخلق بجهد من جهود الحركة المادية – قد استعار هذه الفكرة السامية من شيء رآه لا من شيء بحثه واستقصاه .

وأقرب هذه الأشياء المرئية إليه هي قدرة الساحر على التأثير بكلمة يقولها والسيطرة على الأجسام والأجرام الضخام بالهمهمة والتعزيم ، وهي ضرب من الكلام .

والله أقدر من الساحر . فإذا قدر الساحر أن يحرك الصخور بكلمة ويكسر السلاح بكلمة ، ويقتل العدو الشجاع بكلمة ، فأولى بالخالق الأعظم أن يملك هذه القدرة ويملك ما هو أعظم منها وأدل على المضاء ونفاذ المشيئة ، فلا جرم أن يشاء فيكون ما يشاء .

فلما جاءت الفلسفة وتناولت هذه الفكرة الكبرى لم تصل إلى شوط أبعد من شوطها ولكنها وصلت إلى بداءة أقوم من بداءتها . فكان مثلها في هذا كمثل من وجد الكنز ورسم الدروب التي تتأدى إليه . وكان مثل الأسبقين كمثل من عثر بالكنز فوقع فيه . وبقي الكنز بجوهره ونفاسته لمن يسلك إليه منهجه القويم .

وسنرى للفلسفة – كما رأينا للعقيدة – بدايات كثيرة كهذه البداية وتوفيقات كثيرة كهذا التوفيق .

بل سنرى أن بداية الفلسفة نفسها لم تخل من توفيق بيِّن لا يد فيه لتدبير ذويه .

* * *

فقد كان للتوفيق يدٌ ملحوظة في زمان الفلسفة ومكانها . فبدأت حوالي القرن السادس قبل الميلاد في العصر الذي بلغت فيه الديانات القديمة أقصى آمادها من تصور الفكرة الإلهية والعقيدة الروحية ، وكان ذلك العصر هو عصر النضج والتمام في الديانة الإسرائيلية ، وهي آخر الحلقات في السلسلة القديمة وأول الحلقات في سلسلة جديدة من ديانات الوحي والأنبياء ، أو الديانات الكتابية .

أما مكان الفلسفة اليونانية فهو رقعة من الأرض على اتصال بأبناء كل دين قديم من تخوم الهند إلى ضفاف النيل، وزاد اتصالها بتلك الأمم زحوف الفاتحين وجموع المهاجرين ، تارة من الشرق إلى الغرب وتارة من الغرب إلى الشرق ... فكان اليونان في آسيا الصغرى يعرفون عبادات المجوس والبابليين والمصريين واليهود وكان روادهم ورحالوهم ينتقلون بين الأقطار فيعرفون فيها ما لا يعرف في بلادهم من الخفايا والأسرار . وساعدهم الحظ فخلت بلادهم من الكهانات الراسخة التي تستأثر بالتفكير في مسائل الكون ومسائل العقيدة . لأن الكهانات الراسخة إنما تقوم على العروش العريقة على أودية الأنهار الكبار.. كمصر والعراق وبعض الأقاليم الهندية ، ولم يكن في أرض يونان كلها نهر تتأثل عليه دولة شامخة وكهانة مستقرة . فطرقوا أبواب الفكر أحراراً غير محجمين عن معضلة معقدة ولا منقادين لإمامة متحكمة . فاختاروا فيما أخذوه واختاروا فيما نبذوه ، وتزودوا من رسالة الإيمان لرسالة البحث في الحكمة والعلوم .

وهم — على إعفائهم من سلطان الهياكل العريقة — لم تخل فلسفة لهم قط من فكرة دينية في أساسها أو في مضامينها ، ولا استثناء في ذلك لأكبرهم وأقدرهم ، وهم سقراط وأفلاطون وأرسطو . فإن طلاقة أرسطو في مباحثه العلمية والفلسفية لم تخرجه من سلطان الفكرة الدينية في القول بالهيولى والحركة الأولى . فلولا الإيمان بالخالق والمخلوق والروح والجسد لما خلص أرسطو إلى الصورة والمادة والتفرقة بين العقل والهيولى .

وأول المشهورين من فلاسفة اليونان طاليس المليطي الملقب بأبي الحكماء .

كان يقول كما قالت الأديان من قبله إن الماء أصل كل شيء ، وإن الروح تحرك المادة ، فما من متحرك إلا وهو ذو روح أو منقاد لذي روح . ولا يستطيع المغناطيس مثلا أن يجذب الحديد إلا بروح فيه .

ويظن شارحوه أنه قال بأصالة الماء لأنه رأى النطفة سائلة ورأى النبات الرطب يدخل الجسم فينقلب إلى حرارة حيوانية ، ووهم أن الأرض سابحة على الماء ، وأن الشمس تخرج منه وتعود اليه . فإذا غلظ فهو أرض وإذا رق فهو بخار أو نار أو هواء .

والعالم على زعمه مملوء بالأرباب ، وهي التي تحرك فيه كل متحرك من الحي والجماد .

وجاء بعده أنكسماندر — ولعله أكبر الحكماء من هذا الطراز — فقال إن الأشياء كلها تخرج من مادة أولية ولكنها ليست المـــاء ولا النار ولا الهواء ولا التراب لأن الماء لو كان أصلاً لهذه العناصر لغلب عليهـــا وطردها ، وكذلك التراب والهواء والنار ، فهي إذن سواء كلها في الانتساب إلى أصل أقدم منها . وهي تتزاوج وتتمازج ويود كل عنصر منها أن يجور على حصة غيره في الوجود . فإذا خرج بها الشطط عن سواء الاعتدال عادت كلها إلى معدنها الأول وزالت الفوارق بين الأجسام والأحياء لتعود إلى الوجود من جديد ، وهكذا دواليك في حركة دائمة لا انقطاع لها منذ القدم إلى غير نهاية . فهي على هذا دورات كونية كالدورات التي قال بها الهنود والبابليون .

ويقول أنكسماندر بالتطهير والتكفير في دورات الخلق المتعاقبة كما يقول بهما الهنود ... « فإلى المعدن الذي خرجت منه الأشياء تعود كرة أخرى كما قضي عليها ، تكفيراً وترضية عن جور بعضها على بعض ، وفقاً لقضاء الزمن » .

وهو يقول بخروج الإنسان الأول من الماء وطين البحر ، ولكنه يستبعد خروجه دفعة واحدة لأنه في طفولته ضعيف غير مستغن عن الحضانة والكفالة ، وكان الأقدمون يزعمون أن سمك « القرش » يقذف جنينه من فيه ثم لا يزال

يبتلعه ويقذفه في كل مرة أكبر مما قبلها حتى يبلغ أشده . فيرسله في الماء ولا يعود إلى ابتلاعه ... فخطر لأنكسماندر أن الإنسان الأول ربما خرج من جوف حيوان آخر على هذه الوتيرة ، ولا يبعد أنه استعار هذا الخاطر من أساطير أهل بابل وما يروونه عن « الإنسان » المائي الذي يتألف من نصف إنسان ونصف حوت .

وظاهر من قول أنكسماندر أن مسألة الخلق عنده هي مسألة تحول من شكل إلى شكل ومن صورة إلى صورة ، وليست مسألة إنشاء أو إحداث بعد عدم . وأن المادة الأولية التي تئول إليها جميع الموجودات هي كذلك مصدر الأرباب وأنصاف الأرباب ، ومصدر المحركات والمتحركات ، ولا مهرب لرب أو مربوب من الفناء آخر الأمر في معدنها الأصيل ، وهذا بعينه هو مذهب الهنود كما قدمناه .

ولم يزد أناكسمين — تلميذ أنكسماندر — شيئاً يذكر عن أقوال أستاذه في باب المعرفة الإلهية . وإن كانت له تخمينات قيمة في الجاذبية والذرات وتعريفات الحركة ، وقد ختمت به مدرسة مليطية ، ومات في الربع الأخير من القرن السادس قبل الميلاد .

* * *

وكأنما كانت مدرسة مليطية نفخة في بوق مسموع في طليعة جند الحكمة ، ولا سيما الحكمة الإلهية . فإن آسيا الصغرى وما حولها أنجبت في الجيل التالي لجيل طاليس وزملائه طائفة من أعظم الفلاسفة أثراً في مذاهب الحكمة الإلهية ، ومن هذه الطائفة أكسينوفان وهيرقليطس وفيثاغورث وديمقريطس وأنكسغوراس .

ورسالة أكسينوفان الكبرى تنحصر في إنحائه الشديد على كل تشبيه أو تمثيل توصف به الأرباب . لأن حقيقة الإله عنده من وراء خيال الإنسان ، وإنما يتخيل الإنسان أربابه على هيئته ويعزو إليها أخلاقاً كأخلاقه وأعمالاً كأعماله . ولو كان للحصان يد تحسن التصوير وسئل أن يصور إلهه لصوره

حصاناً مثله ، ولو تخيل الأثيوبي ربه لتخيله أسود أفطس على مثله، وهيهات للعقل البشري أن ينفذ إلى الحقيقة الإلهية أو يقاربها بعض المقاربة . فكل ما قيل عنها وما سيقال قد يكون فيه الصواب أو بعض الصواب . ولكنها مصادفة يجهلها القائل ولا يقيسها السامع بقياس معلوم .

اما هيرقليطس فلعله أعظم هؤلاء الأربعة أو أعظم فلاسفة آسيا الصغرى على الإطلاق .

ويرجح أن هيرقليطس اتصل ببعض الآراميين أو ببعض اليهود . لأن الآراميين الذين تهودوا كان من عادتهم – كما يتبين من ترجمتهم للتوراة المعروفة بالترجوميم – أن يذكروا كلمة الله « ممرا » « Memra » والحضور « شكينة » من السكن أو مكان الحضور .. وينسبون اليها أعمال الله في مقام الإشارة والتعظيم . فيقولون حضرة الله كما يقولون كلمة الله وهم يعنون الإله ويؤثرون الإشارة إليه تعظيماً له عن الذكر الصريح . ومثل هذا شائع إلى اليوم في اللغات الشرقية التي تذكر الحضرة وتعني صاحب الحضرة وتذكر الأمر والكلمة وتعني صاحب الأمر والكلمة ... فكلمة الله على هذا المعنى ترادف أمر الله أو مشيئة الله عند الآراميين واليهود .

وكان هيرقليطس يقول إن الكلمة «Logos» هي مساك الوجود كله ، وإنها هي النظام الذي يحيط به ويتغلغل فيه ، وإنها لا تصنع إلا الصالح من الأمور « فعند الله كل شيء جميل وخير ، ولكن الناس هم الذين يعتبرون بعض الأمور من الخير وبعضها من الشر » .

وتكاد الكلمة عنده أن تكون مرادفة لمعنى الله . فهي النظام الذي يضع كل شيء في موضعه . وكذلك الله : « هو النهار والليل والشتاء والصيف ، والحرب والسلم ، والشبع والجوع ، ويتخذ الأشكال والمظاهر على اختلاف . كالنار وهي تمتزج بالأبازير فيسمى كل منها باسمه لا باسم النار » .

والاختلاف هو أساس الانسجام والنظام . فلولا النقائض لما كان النغم المنسجم ولولا التعدد لما كانت الوحدة : « فكل شيء يأتي من الأحد ، والأحد

يأتي من كل شيء ... ولكن الكثرة دون الوحدة في الوجود الحقيقي ، وذلك هو الله » .

لكن هيرقليطس لا يقول بالخالق ولا بحاجة الموجودات إلى موجد . « فهذه الدنيا التي هي سواء للجميع لم يخلقها أحد من الآلهة ولا من الناس ، ولكنها كانت منذ الأزل وتكون الآن وتظل كائنة في كل زمان . ناراً خالدة تتقد بحساب وتنطفي بحساب . »

فالنار هي أصل العناصر وهي المصدر الأول لجميع الكائنات ، وهي حركة دائمة لا انقطاع لها في لحظة من اللحظات . فأنت لا ترى الشيء الواحد غير مرة واحدة ولا ترى شمساً واحدة كل صباح ... أو أنت على تعبيره لا تنزل النهر مرتين لأن أمواجه تطرد ولا تبقى كما لمستها في المرة الأولى . وهذا الجيشان الدائم يستخرج من كل شيء ضده وتتم الألفة بين الأضداد المتقابلة بميزان العدل الذي لا يغفل ولا يني عن تسوية المقادير وزيادة الناقص ونقص الزائد . ولهذا الرأي في الأضداد وتناسقها شأنه في مذاهب الفلسفة الحديثة ، لإنه رائد الثنائية التي قال بها « هيجل » واشتق منها كارل ماركس مذهبه المشهور في الثنائية المادية .

وهيرقليطس كما تقدم يقول باستغناء الموجودات عن الموجود ولكنه يقول بحاجتها إلى العدل الإلهي الذي لا قوام لها بغيره ، ويتكلم عن الله كلامه عن «ذات» مدبرة مريدة ومن ذاك قوله : « إن الله لا شك مساك العدل في الكون كله » و « إن أعمال الإنسان خلو من العقل ولكن أعمال الله لا تخلو منه ... وما الإنسان إلا كالطفل بالقياس إلى الله ... وأعقل الناس كالنسناس بالنسبة إلى الإله ، وهو إذا قورن بالإله كان دميماً شائهاً كما يشوه أجمل القردة إذا قرن بالإنسان ... »

وقد ولد فيثاغوراس في جزيرة « ساموس » على مقربة من آسيا الصغرى ، وكان مذهبه نسخة يونانية من الديانة الهندية . فهو يقول بتناسخ الأرواح وبطلان المادة وتجدد الدورات الكونية ، ولا يرى حقيقة غير الحقيقة الإلهية المنبثة في الكون كله ، ويفهم من كلامه أنه يقول بوحدة الوجود كما يقول

بالحلول أي حلول الروح الإلهية في الإنسان حتى يصبح أكثر من إنسان وأقل من إله . كما قال : « هناك أرباب وأناسي ، وكائنات مثل فيثاغوراس » وأقدم الكائنات عنده أربعة هي : الأب والصمت والعقل والحق ، ومن الأولين صدر الاثنان الآخران .

وهو يوصي بالحيوان ويحرم أكل لحمه . ويعتقد أن جسد الحيوان قد يشتمل على روح إنسان يتطهر بالتناسخ حتى يكفر عن آثامه فيلحق بالرفيق الأعلى ، وتعفى روحه من عقوبة الرجعة إلى الأجساد .

وليست النار ولا عنصر من العناصر التي حصرها القدماء في النار والتراب والهواء والماء أصلاً للموجودات . ولكن العدد هو أصل كل موجود لأنه يلازم الوجود ولا ينفصل عنه كما قد ينفصل عنه اللون أو الثقل أو الحجم أو الكثافة المحسوسة . فالنسب العددية هي مناط الاختلاف بين جميع الأشياء ، وهذا الرأي — على ما يبدو من سخفه — هو أقرب إلى الصواب من آراء الفلاسفة الآخرين ... لأنه يتعزز بالكشوف العلمية عن المادة وسبب الاختلاف بين عناصرها وردها جميعاً إلى حركات تتمايز بالنسب العددية في الخلايا والذرات ، وكان ديمقريطس يقول مثل قوله في تركيب الأشياء من العدد، ولكنه يخالفه في المادية ويعني بالعدد عدد الذرات الصغيرة التي تتركب منها جميع الموجودات ومنها الأرباب .

ويأتي أنكسغوراس بعد فيثاغوراس في الزمن والمكانة بين حكماء آسيا الصغرى ... وهو الذي عمم كلام هيرقليطس عن الكلمة «Logos» وسماها «Nous» أي العقل ووصفه بأنه جوهر مجرد خالد واحد لا يتعدد ، وأنه هو مصدر حركة دوارة تدفع ما خف إلى أعلى الكون وتهبط بما سفل إلى مركزه . وما من شيء إلا وفيه أضداد حتى أصغر الذرات التي لا ترى بالعين. إلا العقل فإنه منزه عن التعدد والتناقض وهو الله أو هو الصلة بين الله والعالم . ولا فرق بين العقل في الإنسان وفي الحيوان وفي الجماد إلا الأداة التي يستخدمها ولولا تفاوت الأجساد في إتقان الأداة لما اختلفت عقول البشر وعقول الحيوانات وعقول الحجارة الصماء .

والأثر الأكبر الذي يذكر لهذا الفيلسوف أنه كان أول من نقل الفلسفة من آسيا الصغرى إلى أثينا في أيام بركليس . وكانت أثينا قبل ذلك تتنكر للمباحث الفلسفية وتتهم من يبحثون فيها وينقطعون عن الشعائر الدينية ، ولم يسلم أنكسغوراس من تعصب أهلها لأنهم سنوا قانوناً يعاقب كل من يتعرض للأشياء « التي في العلا » ويهجر عبادة الأرباب الأولمبية وما جرى مجراها ، واتهموه بالكفر لأنه كان يقول بأن الشمس صخر محمى وأن القمر كالأرض من تراب، ولولا بركليس لما نجا من مصير كمصير سقراط بعده بقليل .

وقبل أن ننتقل إلى المدرسة الأثينية الكبرى — وهي مدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو — نلم بمدارس ثلاث من مدارس الفلسفة التي كانت لها عناية خاصة ، أو كان لها شأن خاص — بمسائل العقيدة الدينية ، وهي مدرسة إيطاليا الجنوبية ومدرسة الرواقيين ومدرسة أبيقور ، وبعض فلاسفة هذه المدارس لاحقٌ للمدرسة الأثينية في الزمان .

ويرجع نشاط المدرسة الإيطالية أيضاً إلى مدارس آسيا الصغرى ، لأن فيثاغوراس وأكسينوفان هما صاحبا الفضل الأكبر في تنبيه الأذهـــان إلى مباحث الفلسفة في إيليا وصقلية بعد هجرتهما من وطنهما الأول . وقد نبغ هنالك كثير من أصحاب الآراء الفلسفية أجدرهم بالذكر في هذا المقام ثلاثة : هم بارمنيد وزينون وأمبدوقليس ، لأنهم يمثلون كل ناحية من نواحي التفكير في مدارس إيطاليا الجنوبية .

ولباب مذهب بارمنيد أنه لا وجود لغير الواحد ، وأن كل وجود غيره وكل ما نراه من التعدد والتغير إنما هو وهم الحس وخداع الظواهر ... فلا تغيير ولا أضداد كما يقول هيرقليطس . وإنما هي حالة واحدة نراها على درجات ونحسبها لذلك من قبيل الأضداد . فالبرد قلة في درجة الحرارة والظلام قلة في درجة الإضاءة والمرض قلة في درجة الصحة ، وقس على ذلك جميع الأضداد من هذا القبيل .

قال مدللاً على بطلان التغيير : «كيف يتأتى أن الشيء الذي هو كائن يفقد

الكينونة ؟ وكيف يتأتى أن يكون بعد أن لم يكن ؟ فإذا حدث هذا الشيء فلا بد قبل حدوثه من زمن لم يكن فيه . وكذلك يقال إذا كان حدوثه سيبدأ في المستقبل ... وأين تبحث عن أصل الشيء الذي هو كائن ؟ وكيف ومتى يحدث نماؤه ؟ لا أرى لك أن تقول إنه يأتي من لا شيء فإن اللاشيء لا يقبل التعبير ولا يقبل التفكير .

وما هي يا ترى تلك الضرورة التي توجده في زمن من الأزمان دون سائر الأزمان ؟ كذلك يمنعك النظر الثاقب أن تصدق أن الشيء الذي هو كائن يموت إلى جانبه كائن أخر » .

ومعنى هذا أنه لا شيء يأتي من لا شيء . فالعالم قديم لم يحدث ، والواحد الذي يؤمن به بارمنيد ليس خالقاً للكون بل هو حقيقة الكون. ويقول فيوصفه إنه كرة محيطة لا تقبل التجزئة، لأن كلها حاضر في كل جزء منها .

ويعتبر زينون الإيلي أبرع المدافعين عن مذهب أستاذه بارمنيد ، فإنه أبدع تلك النقائض التي رد بها على أنصار هيرقليطس وفيثاغوراس حين أنكروا الوحدة وسخروا من مذهب بارمنيد بتلفيق الأحاجي والأماثيل . فأبدع لهم تلك النقائض البارعة التي تثبت بها الإحالة والخلف على القائلين بالتغير والكثرة . ونجتزىء منها ببعض الأمثلة للدلالة على طريقة هذه المدرسة في إثبات الوحدة الكونية ونفي التعديد والتغيير .

قال ما فحواه : ن الشيء الكثير إذا كانت كثرته بالامتداد فهو قابل للقسمة إلى شطرين ، وكل شطر منهما قابل للقسمة إلى شطرين . وهكذا إلى غير نهاية . وهو مستحيل . لأن المحدود لا يقبل القسمة بغير حدود . أما إذا قلنا إن الجزء الذي تنتهي إليه لا يقبل القسمة فهو مستحيل أيضاً . لأنه ذو امتداد ، وكل ذي امتداد ينقسم إلى نصفين .

ويقال في الكثرة بالعدد ما يقال في الكثرة بالامتداد . فإن الأعداد منفصل بعضها عن بعض ، وبين كل منفصلين تقبل القسمة ، ولا تزال تقبلها على النحو الذي تقدم في كثرة الامتداد .

وهو يبطل الحركة لأن التغيير إنما يقوم عليها ، ويبدع لذلك نقيضة من قبيل نقائض الكثرة فيقول : إن الحركة لا تنتهي إلى غايتها إلا إذا قطعت نصف المسافة ثم نصف النصف إلى غير نهاية. ومن التناقض أن يقال إن حركة تنتهي بلا نهاية ... ويضرب مثلاً آخر بالمسابقة بين عداء وسلحفاة فيقول : إذا سبقت السلحفاة العداء بأقصر مسافة فإن العدّاء لا يلحق بالسلحفاة إلا إذا عبر المسافة التي بينهما . وفي هذه الأثناء تكون السلحفاة قد سبقته إلى مسافة أخرى لا بد له من عبورها ، وهكذا إلى غير انتهاء ، وهو محال .

وأكثر هذه النقائض من قبيل المغالطات ، لأنه يعتبر فيها الزمان ولا يعتبر المكان أو يعتبر فيها المكان ولا يعتبر الزمان . ولكن كلامه عن الجزء الذي لا يتجزأ ينطوي على معنى صحيح يدل على ضلال الحس في تصور المادة والفضاء ، ولعل أفضل الحلول لهذه المناقضة هو حل الأفلاطونيين الذين قالوا إن الجسم يتجزأ إلى أن ينمحق فيصير هيولى ... أي مادة أولية ، والمادة الأولية هي الذرة المنحلة .

ولم يأت زينون الإيلي في باب الإلهيات برأي يزيد على رأي أستاذه ، فهو يؤمن بالواحد الذي لا يتعدد ، ولا يجعله إلهاً خالقاً منشئاً للعالم من العدم ، لأنه لا يؤمن بالتغيير ولا بحدوث شيء من لا شيء ! .

أما أمبدوقليس فهو أقرب الفلاسفة إلى زمرة الشعراء ، وكان ينظم فلسفته ويعتمد فيها على الخيال . فقد تخيل العالم كرة وقال إن الحب هو إله العالم والنزاع عدوه الراصد له على الدوام . وكان الحب بداءةً في داخل الكرة والنزاع خارجها فكان الناس يعبدون أفروديت ربة الحب وحدها ويتجنبون التقرب إليها بالذبائح وسفك الدماء ، ثم تطرق النزاع إلى داخل الكرة وخرج الحب منها ولا يزالان كذلك حتى يتغلب النزاع على الحب فتتمزق أوصال الوجود وتنتهي دورة من دورات الأبد ويبدأ الخلق من جديد .

وكان أمبدوقليس يدّعي الحلول ويزعم أنه مشتمل على روح إله ،

ويروي تلاميذه معجزات له تحسب من خوارق العادات ، ويلتمسون منه البركة والرضوان كأنه من القديسين .

وأبقى ما بقي من آرائه في الإلهيات والطبيعيات أن الله « حب » وأن العناصر أربعة : وهي النار والتراب والهواء والماء ، وكان السابقون له يذكرونها عرضاً ولكنهم لا يعتبرونها مبادىء المادة على سبيل التحديد .

* * *

أما المدرسة الرواقية فقد أوشكت أن تكون نحلة دينية ، لأنها امتازت بعلم كعلم اللاهوت في المسيحية أو علم الكلام في الإسلام ، وهي لاحقة لمدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو في تاريخ الظهور ، ولكننا نفردها على حدة قبل الكتابة عن المدرسة الأثينية ، لأنها نمط مستقل في مباحث الفلسفة على الإجمال ، وبينها وبين المدرسة الأثينية فرق واضح في الطبيعة والموضوع .

وأشهر فلاسفتها المستجمعين لنواحي التفكير فيها ثلاثة : هم زينون وكليانتاس وشريسبس ، وكلهم متقاربون في تاريخ الميلاد .

فزينون ولد سنة ٣٣٦ قبل الميلاد في قبرص وعاش وعلم في أثينا ، وخلاصة رأيه أن الموجود هو الفاعل أو المنفعل ، وأن أصل الموجودات كلها النار وأصل النار الهيولى ... والله هو العقل الفاعل والهيولى هي المادة المنفعلة ، ولكنه لا يؤمن بوجود لشيء غير مادي . فالله عنـــده « أثير » لطيف ، وروى عنه جالينوس أنه يعارض أفلاطون لأن أفلاطون كان يرى أن الله جوهر منزه عن المادة الجسدية ، وزينون يقول إنه جوهر ذو مادة Soma وأن الكون كله هو قوام جوهر الإله ، وإن الإله يتخلل أجزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا ، وأن الناموس Nomos وهو بعبارة أخرى مرادف للعقل الحق Orthos logos أو الكلمة الحقة — هو والإله زيوس شيء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون ، وكان زينون يرى الكواكب والأيام صفة إلهية ويعتقد أن الفلك ينتهي بالحريق وتستكن في ناره جميع خصائص الموجودات المقبلة وأسبابها ومقاديرها ، فتعود كرة بعد كرة بفعل العقل

وتقديره ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم. كأنها مدينة يسهر عليها حراس الشريعة والنظام .

ويترادف عنده معنى الله والعقل والقدر وزيوس ، فكلهما وما شابههما من الأسماء تدل على وجود واحد ، وقد كان هذا الوجود الواحد منفرداً لا شريك له فشاء أن يخلق الدنيا فاصبح هواء ، وأصبح الهواء ماء ، وجرت في الماء مادة الخلق أو كلمة الخلق Spermatikos logos كما تجري مـــادة التوليد من الأحياء ، فبرزت منها مبادىء الأشياء وهي النـــار والماء والهواء والتراب ، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبادىء على التدريج .

وتعريف القدر عند زينون أنه القوة التي تحرك الهيولى ، وهي قوة عاقلة .؟ لأن ما يتصف بالعقل أعظم مما يتجرد منه ،ولا شيء أعظم من الكون cosmos... فهو عاقل لأنه عظيم .

ويفسر زينون تعدد الآلهة في معتقدات العامة بأنهم بحثوا عن الله في مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال، ولكن هذه التشبيهات إن هي إلا رموز مجازية على حقيقة واقعية . فلما قال الأقدمون إن أورانوس إله السماء خصاه ابنه كرونوس إله زحل — كانوا يفهمون من ذلك أن كوكب زحل هو مناط النظام في السيارات وأنه قادر بذلك على تقسيم دورات الفلك وتقسيم الفصول والسنين . ومن هنا التشابه بين كلمة Kronos كرونوس إله زحل وكلمة كرونوس Chronos أي إله الزمان ، كأنهم يقولون إن الزمن قد حد من حركات الأفلاك والسيارات .

ولكن زينون على بلوغه هذه المنزلة من التوحيد وإنكار التشبيهات لم يخلص من اللوثة المادية في تصور الله ولا في تصور الروح . فالروح عنده هي جوهر غازي حار ، وهي مركبة من النفس (سيكي Psyche) بمعنى التنفس ومن العقل Varros وهو من عنصر الأثير . ومن نقائض المذهب الرواقي أنه يأبى إقامة الهياكل لله مع هذه المادية فيه ، لأنها أقل من أن تبلغ مرتقاه .

ولا ينكر زينون كهانة الكهان . بل يقول إنها لازمة عقلاً . لأنه لا غنى عن الكهانة مع وجود العناية التي تتكفل بالسبق إلى التقدير والهداية .

وقد ولد كليانتس Cleanthes بعد زينون بسنوات . لأنه ولد على الأرجح سنة ٣٣١ ق.م. وكان مولده بآسيا الصغرى .

ورأيه أن الله روح يسري في جميع أجزاء الكون، وأن الروح الإنسانية قبس من ذلك الروح وأن الشمس هي مناط النظام في الكون ، لأنها تنشىء الليل والنهار وتقلب الفصول والسنين .

وهو يقول بالدورات الكونية كما يقول زينون . فمن النار تبدأ جميع الأشياء وإلى النار تعود .

وقد كان إمام اللاهوتيين بين فلاسفة الرواقيين، لأنه أول من أسهب في إقامة الأدلة على وجود الله، ومن براهينه اللاهوتية أن اختلاف المزايا والطبائع يستدعي تمييز بعضها على بعض ، وأن يكون بعضها أفضل من الجميع .. فالحصان مثلاً أفضل من السلحفاة ، والثور أفضل من الحمار ، والأسد أفضل من الثور ، وليس على الأرض ما هو أفضل من الإنسان . ولكنه مع ذلك لا يرتقي إلى المنزلة الفضلى ولا يسلم من الضعف والشر والحماقة. فليس هو مثال الكمال بين الموجودات ، ولا بد أن يكون الموجود الحي الكامل شيئاً غير الإنسان ، وأن يكون موجوداً مستكملاً للفضائل منزهاً عن كل سوء . ومثل هذا الموجود يطابق صفات الإله . فالإله إذن موجود .

ومن أسباب الإيمان بالله عند كليانتس أربعة أسباب يخصها بالتنويه : وهي الوحي الذي يكشف الغيب ، وعظمة الخيرات التي تجود بها الأرض والسماء، ورهبة النفس أمام أسرار الوجود وظواهره الرائعة كالبروق والرعود والعواصف والأهوال والأوبئة والصواعق والبراكين، وهذا النظام المحكم الذي يبدو للنظر في حركات الأجرام السماوية ومواعيد الأفلاك والبروج ، مما يرفض العقل حدوثه بالمصادفة والاتفاق .

وكانت لهذا الفيلسوف صلوات يخاطب بها الله كأحسن ما تكون الصلاة ،

ولكنه يذكر الله باسم زيوس كما كان معروفاً بين الإغريق .

وولد شريسبس Chrisppus ثالث هؤلاء الفلاسفة بعد كليانتس بنحو خمسين سنة ، وكان مولده في قليقية ومقر تعليمه في أثينا ، وهو أوفرهم محصولاً وإن لم يحفظ من كتبه غير شذرات .

وقد شغل باللاهوت الرواقي كما شغل به كليانتس ، ولا سيما براهين وجود الله وبراهين عدله وحكمته في قضائه .

فمن براهينه على وجود الله أن الكون أكبر من أن يخلق للإنسان وحده . فوجوده عبث إن لم يكن هناك إله أكبر من الإنسان .

ومن تلك البراهين أنه « إذا كان هناك شيءيعجز الإنسان عن صنعه فالذي يصنع ذلك الشيء أعظم من الإنسان . وإن الإنسان يعجز عن خلق الكون فلا بد أن يكون القادر على خلقه أعظم منه . وأي موجود أعظم من الإنسان غير الله ؟ » .

ويرد على من يتخذون الشر دليلاً على بطلان العناية الإلهية بأدلة كثيرة يقول منها في كتابه عن العناية « إنه ليس أضل من أولئك الذين يتخيلون أن الخير قابل للوجود بغير وجود الشر معه . لأن الخير والشر ضدان يستلزم وجود أحدهما وجود الآخر ... فكيف يتأتى للعدل معنى من المعاني بغير الأخطاء والإساءات ؟ وما هو العدل إن لم يكن هو منع الظلم ؟ وماذا يفهم إنسانٌ من معنى الشجاعة الا إنها نقيض الجبن ؟ أو من معنى العفة إلا أنها نقيض الشراهة ؟ وأين محل الحكمة إن لم تكن هناك حماقة ؟ وما بال هؤلاء القوم في حماقتهم يطلبون أن يكون هناك حق ولا يكون هناك باطل ؟ وقل مثل ذلك في الخير والشر والراحة والتعب والسرور والألم . فإن هذه الأشياء آخذٌ بعضها برقاب بعض كما قال أفلاطون . فإن نزعت إحداها نزع معها قرينه لا محالة » .

ويعلل الفيلسوف بعض الآلام بأنها عقوبة من الله ، أو أخذٌ من الجزء لإعطاء الكل ، وحرمان للفرد لإغداق الخير على المجموع ، ويقول إن زيوس المخلّص المنعم مصدر العدل والنظام والسلام يتنزه عن فعل ما لا يحسن ولا

يجوز ، ولكنه يصنع في الكون كما تصنع الدولة التي تضيق بسكانها .. فتبعث بفريق منهم إلى المستعمرات النائية أو إلى ميادين القتال .

ويجيز شريسبس وجود آلهة تتمثل في القوى الكونية دون الإله الأعظم زيوس . ولكنه يعتبرها من أهل الفناء ولا يعفيها من قضاء القيامة التي تشمل الموجودات في نهاية كل دورة كونية ، فإن هذه الدورات تأتي على كل موجود غير الإله الباقي وهو مصدر النار ومعيدها إلى التركيب ليستخرج منها أجزاء كون جديد .

* * *

وتأتي مدرسة ابيقور (٣٤٢ — ٢٧٠) في الموضع الوسط بين مدرسة الرواقيين ومدرسة أثينا الكبرى : ونعني على الخصوص مذهب أرسطو الذي اشتهر بمذهب المشائين .

فكان أبيقور وتلاميذه يعظمون الآلهة كتعظيم الرواقيين ، وينسبون الإله والروح إلى مادة لطيفة كالأثير أو أرق من الأثير ،ولكنهم يخالفون الرواقيين في الإيمان بالقيامـــة الإلهية ويقولون إن الآلهة في رفيقها الأعلى سعيدة خالدة ، وإن السعيد الخالد لا يكرس نفسه بأمره ولا بأمر غيره ، ولكنهم يقيمون فوق الكون metakosmia في نعيم وفرح صافٍ مقيم ، لا يعرفون تعباً ولا يتعبون أحداً ، وإنما تجري الأمور عفو السجية بغير تقدير ولا حاجة إلى التقدير .

وهناك مدرسة أخرى غير مدرسة أبيقور ومدرسة زينون لها شأنها في التفكير ولكن لا شأن لها في العقيدة..لأنها لا تنقض فيها ولا تبرم،وهي مدرسة الشكوكيين أو اللا أدريين ، فلا موضع لها في هذا المقام .

* * *

هذه المذاهب كلها كان لها تأثير ملحوظ في تفكير المفكرين بعدها في

المسائل الإلهية ، فما من مذهب منها إلا وقد أعقب فكرة قام عليها رأي فيلسوف متأخر أو دخلت في رأيه على نحو من الأنحاء .

إلا أن الإجماع متفق على أن المدرسة الأثينية – مدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو – هي أعظم مدارس الفلسفة بين الإغريق على التعميم . سواء منها ما نشأ قبل الميلاد وما نشأ بعده ، وسواء منها ما نشأ في آسيا الصغرى أو إيطاليا الجنوبية أو مدينة الإسكندرية .

وليس هذا التمييز مرتبطاً بضخامة الأثر في المسائل الإلهية ، لأن فلسفة الرواقيين وفلسفة فيثاغوراس لا تقل أثراً في هذه المسائل عن مذاهب الفلسفة الأثينية . ولكنما ارتبط هذا التمييز « أولا » بعظمة الفلاسفة أنفسهم لأنهم كانوا على اليقين أعظم فلاسفة اليونان قدراً وأرجحهم عقلاً وأبرزهم عبقرية في شئون البحث والدراسة والحكمة على تعدد جوانبها ، وارتبط هذا التمييز «ثانياً» بمقياس المنطق الذي خلفوه واصطلح المفكرون بعدهم على الاحتكام إليه في إقامة الحجة وفصل الحدود وتمحيص التعريفات . فاعتمد عليه أقطاب اللاهوت كما اعتمد عليه أقطاب العلم والفلسفة ، ولم يزل إلى هذه الأيام مرجعاً معولاً عليه لمن يقبله على علاته ومن يتناوله ببعض التنقيح والتعقيب .

ورأس هذه المدرسة هو سقراط (٤٦٩ – ٣٩٩ ق.م) أستاذ أفلاطون ، وأسبق القائلين في القدم برد العقيدة والعبادة إلى الضمير .

وقد كان سقراط من أصحاب الهواتف الخفية ، وكان يستمع إلى هاتف يخيل إليه أنه يلازمه ويوحي إليه وينفخ في روعه بما يلهمه الرشد والصواب .

ولكنه لم ينصرف إلى مباحث ما وراء الطبيعة كانصرافه إلى مباحث الأخلاق والسياسة وقواعد المعرفة والثقافة النفسية . فكان قصارى ما أثر عنه من الآراء في مسائل العقيدة أنه يؤمن بخلود الروح وسلامتها من الفساد مع الجسد بعد الموت ، وأنها ترجع إلى معدنها الأول من الصفاء المنزه عن التجسيد والتركيب ، وكان يتكلم عن الآلهة تارة وعن الإله تارة أخرى . إلا أنه ينزهها جميعاً عن تلك الخلائق البشرية التي تعزى اليها في قصص الرواة

وأساطير الشعراء ، ويؤمن برعايتها للبشر وعكوفها على الخير والسعادة ، وينعى على الذين يحسبون العبادة قائمة على القرابين والضحايا وذبائح الماشية ، ولا يرى لإنسان عبادة مقبولة إذا خلا من خلوص النية وصفاء الضمير .

ولعله قد أسس قواعد البحث والمنطق بتعويده تلاميذه أن يستخلصوا الحدود والتعريفات من المشاهدات والمحسوسات ، وأن يجعلوا هذه الحدود أساساً للقياس وترتيب النتائج من المقدمات .

ولا شك أن هذه الحدود قد وجهت المفكرين بعده إلى الفصل بين خصائص الأشياء ومقوماتها ،وكان أرسطو يتوخاها في تقسيماته المنطقية وتطبيقاته الفلسفية ، وبها أقام السد الحائل بين جميع خصائص العقل وجميع خصائص المادة الأولية أو الهيولى . فكان وضع الحد عنده أهم من تقرير الجوامع والمقاربات .

* * *

وخلفه تلميذه أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق.م) فتبعه في مباحث الأخلاق والسياسة والثقافة النفسية ، وتبع فيثاغوراس في العقائد الروحية ومزج الفلسفة بالرياضة والدين .

ولو لم يكن أفلاطون وثنيّ البيئة لكان أرفع الإلهيين تنزيهاً للوحدانية . ولكن البيئة الوثنية غلبته على تفكيره بحكم العادة وتواتر المحسوسات ، فأدخل في عقيدته أرباباً وأنصاف أرباب لا محل لها في ديانات التوحيد، ولا سيما عند الفلاسفة الموحدين .

فالوجود في مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان : طبقة العقل المطلق وطبقة المادة الأولية أو الهيولى «Hyle»

والقدرة كلها من العقل المطلق ، والعجز كله من الهيولى .

وبين ذلك كائنات على درجات تعلو بمقدار ما تأخذ من العقل ، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهيولى .

وهذه الكائنات المتوسطة بعضها أرباب وبعضها أنصاف أرباب وبعضها

نفوس بشرية . وقد ارتضى أفلاطون وجود تلك الأرباب المتوسطة ليعلل بها ما في العالم من شر ونقص وألم . فإن العقل المطلق كمالٌ لا يحده الزمان والمكان ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة. فهذه الأرباب الوسطى التي تولت الخلق لتوسطها بين الإله القادر والهيولى العاجزة ... فجاء النقص والشر والألم من هذا التوسط بين الطرفين .

وكل هذه المظاهر المادية بطلان وخداع . لأنها تتغير وتتلون وتتراءى للحس على أشكال وأوضاع لا تصمد على حال .

وإنما الصمود والدوام للعقل المجرد دون غيره . وفي العقل المجرد تستقر الموجودات « الصحائح » أو المُثل كما سميت في الكتب العربية ، وهي كالعقل المجرد خالدة دائمة لا تقبل النقص ولا يعرض لها الفساد .

هذه الصحائح هي المثل العليا لكل موجود يتلبس بالمادة أو الهيولى . فكل شجرة — مثلاً — فيها صفة أو صفات ناقصة من نعوت الشجرية. فأين هي الشجرة التي لا نقص فيها ؟ هي في عقل الله منذ القدم . وكل ما تلبس بالمادة من خصائص الشجرية فهو محاكاة لذلك المثل الأعلى .

وبقاء هذه الموجودات هو أيضاً محاكاة لبقاء الله .

فبقاء الله بقاء أبدي لا أول له ولا آخر ولا تحول ولا تقلب ، ولا تعرض له الزيادة ولا النقصان .

أما بقاء هذه الموجودات فهو بقاء في الزمان ، والزمان مخلوق من حركة الأفلاك ، فهو مقياس لبقاء المخلوقات وليس بمقياس لبقاء الخالق . وإنما شاء الله بجوده ورحمته أن يعطي الموجودات نصيبها من البقاء فأعطاها الزمان ، وهو محاكاة الأبد السرمدي الذي لا ابتداء له ولا انتهاء، كما أن الموجودات المحسوسة محاكاة للموجودات المثالية التي يعقلها الله وتخرجها أنصاف الأرباب إلى حيز الوجود ، فتنقص لأن أنصاف الأرباب لا تعقلها كما يعقلها الله ، ولأن التلبس بالمادة يحيطها بالحدود وينضح عليها من عوامل الفساد .

والعقل البشري يعلو فيدرك الحقائق المجردة ، ويهبط فيدرك المحسوسات

بالتجربة والمشاهدة ، ومن أمثلة الحقائق التي تدرك بغير تجربة حسية حقائق الرياضة العليا. فإن الله مهندس، وأحكامه هي الهندسة القائمة على نسب الأعداد المجردة ، ومعرفتها معرفة عقلية يدركها الإنسان بصفاء القريحة ، وربما كانت هذه النسب أو الأعداد مرادفة للمثل العليا أو للصحائح في فلسفة أفلاطون، ولا سيما ما ذكره عنها في أيامه الأخيرة ، ورجع به إلى فيثاغوراس .

وقد رجع أفلاطون إلى فيثاغوراس في القول بتناسخ الأرواح وتجدد الآجال على حسب الحسنات والسيئات .

فالنفس البشرية إذا استلهمت القدرة من العقل الإلهي تغلبت على عجز المادة والجسد وصعدت إلى معدنها الأول ، فخلصت إلى عالم البقاء الذي لا يشوبه فساد ... ولكنها إذا رزحت بثقل المادة واستسلمت لعجزها ونسيت قدرتها على مكافحتها هبطت من جسد إلى جسد أحقر منه وأدنى . فكانت في جسم حيوان بعد أن كانت في جسم إنسان ، وانحدرت من حيوان كريم إلى حشرة لئيمة ، حتى تفيق من غشيتها وتستأنف في عالم العقل المجرد سيرتها الأولى .

فالهيولى مقاومة للعقل المجرد وليست موجدة بمشيئته من العدم . ولعل أفلاطون لم يحاول أن يردها إلى العدم ، أو يقول بوجودها من العدم ، لأنها كانت حقيقة واقعة في رأي سابقيه من فلاسفة اليونان ولأنها ساعدته على تعليل النقص والشر والألم ... فوقف بها بين الكمال المطلق الذي ينبغي للإله الأعظم، وبين عوارض القصور التي تقترن بغيره من الموجودات .

* * *

وقام بعد أفلاطون تلميذه العظيم « أرسطو » فتوسع فيما بعد الطبيعة توسعاً لم يسبق إليه بين فلاسفة الأوائل ، ووضع للجدل معياره الذي سمي بعد ذلك بعلم المنطق ، وفصل بين الحدود فبالغ أحياناً في الفصل بينها ، ولكنه اقام القواعد الأولى على أساس صحيح .

والله عند أرسطو هو العلة الأولى أو المحرك الأول .

فلا بد لهذه المتحركات من محرك، ولا بد للمحرك من محرك آخر متقدم عليه ، وهكذا حتى ينتهي العقل إلى محرك بذاته ، أو محرك لا يتحرك، لأن العقل لا يقبل التسلسل في الماضي إلى غير نهاية .

وهذا المحرك الذي لا يتحرك لا بد أن يكون سرمداً لا أول له ولا آخر ، وأن يكون كاملاً منزهاً عن النقص والتركيب والتعدد ، وأن يكون مستغنياً بوجوده عن كل موجود .

وهذا المحرك الأول سابق للعالم في وجوده سَبْقَ العلة لا سبق الزمان، كما تسبق المقدمات نتائجها في العقل ولكنها لا تسبقها في الترتيب الزمني .. لأن الزمان حركة العالم ، فهو لا يسبقه ، أو كما قال « لا يخلق العالم في زمان » .

وعلى هذا يقول أرسطو بقدم العالم على سبيل الترجيح الذي يقارب اليقين . إلا أنه يقرر في كتاب « الجدل » أن قدم العالم مسألة لا تثبت بالبرهان .

وإجمال براهينه في هذه القضية أن احداث العالم يستلزم تغييراً في إرادة الله والله منزه عن الغير. فهو إذا أحدث العالم فإنما يحدثه ليبقى جل جلاله كما كان ، أو يحدثه لما هو أفضل ، أو لما هو مفضول ، وكل هذه الفروض بعيدة عما يتصوره أرسطو في حق الله . فإذا حدث العالم وبقي الله كما كان فذلك عبث والله منزه عن العبث، وإذا أحدثه ليصبح أفضل مما كان فلا محل للزيادة على كماله ، وإذا أحدثه ليصبح مفضولاً فذلك نقص يتنزه عنه الكمال .

وإذا كانت إرادة الله قديمة لا تتغير — فوجود العالم ينبغي أن يكون قديماً كإرادة الله، لأن إرادة الله هي علة وجود العالم. وليست هذه العلة مفتقرة إلى سبب خارج عنها، فلا موجب إذن لتأخر المعلول عن علته ، أو لتأخر الموجودات عن سببها الذي لا سبب لها غيره .

فالإنسان يجوز أن يريد اليوم شيئاً ثم يتأخر إنجازه ، لنقص الوسيلة أو لعارض طارىء أو لعدول عن الإرادة . وكل ذلك ممتنع في حق الله .

وقد أفرط أرسطو في هذا القياس حتى قال إن الله جل وعلا لا يعلم الموجودات لأنها أقل من أن يعلمها .

وإنما يعقل الله أفضل المعقولات ، وليس أفضل من ذاته. فهو يعقل ذاته ، وهو هو العاقل والعقل والمعقول . وذلك أفضل ما يكون .

والعقل بالنسبة إلى الله يخالف العقـــل بالنسبة إلى غيره من الموجودات الفانية ، فإن الإنسان يعقل الجزئيات بعد وقوعها ثم يعقل الكليات بعد استقصاء الجزئيات ، ويلزمه ذلك لأنه يعلم بعد جهل ويتوقف علمه على المعلوم . وليس علم الله متوقفاً على ما عداه .

وكل صفة من صفات الله فهي تتعلق به ولا تتعلق بغيره ، وهي قائمة به ولا تقوم على غيره ، ومن هذه الصفات الإرادة والعلم كما تقدم ، ومنها الكرم والرحمة والخير والعدل والحكمة وسائر صفات الكمال .

فالله لا يريد العالم لأنه لا يحتاج إليه .

ولكن العالم يريد الله ، لأنه متوقف عليه .

ويسأل السائل : إذن كيف يكون هذا التوقف إن لم يكن بعمل من أعمال المشيئة الإلهية في الجملة والتفصيل ؟

وجواب أرسطو عن هذا السؤال أنه يكون بسعي الناقص إلى طلب الكمال ، أو بسعي الموجودات إلى التشبه بعلتها الأولى . فالله أعطاها العقل ، والعقل يبعث فيها الشوق إلى مصدرها الأول . فتتحرك وتعلو بالحركة ، أو تكسب في كل حركة صورة أرفع من صورتها ، وحظاً من الكمال أرفع من حظها ، تقرباً إلى الصورة التي لا تشوبها شائبة من عجز المادة أو الهيولى ... وهي الصورة السرمدية الكاملة : صورة الله .

* * *

ولا يُفهم معنى هذا الارتفاع إلا إذا فُهِمَ معنى الصورة في مذهب أرسطو .

فالصورة في مذهبه هي حقيقة الشيء وماهيته التي يقوم بها وجوده ، وليست هي شكله البادي للعين أو تمثاله الملموس باليدين .

فصورة العصفور هي حقيقته التي يكون بها عصفوراً ، ولا يكون غير ذلك من الطيور ، أو الأحياء على العموم .

وصورة الدرهم هي جوهره الذي يميزه من سائر قطع الفضة وسائر قطع النقد ويجعله درهماً وتزول عنه « الدرهمية » إذا زال .

ولا يخلو موجود في العالم من الصورة .

فكل موجود فهو صورة ومادة أو « هيولى » .

وتترقى الموجودات في شرف الوجود كلما عظم نصيبها من الصورة وقل نصيبها من الهيولى .

فالموجودات الخسيسة يوشك أن تكون هيولى محضاً خالية من كل صورة . فلا فرق بين جزء وجزء ولا بين فرد وآخر من الجنس نفسه .

وكلما ارتقت في سلم الوجود زاد نصيبها من الصورة المميزة وقل نصيبها من الهيولى المتشابهة . وربما أصبحت صورة جسمٍ مادة لجسم آخر . كالورق الذي هو صورة مميزة لبعض الموجودات وهو في الوقت نفسه مادة للكتاب .

وأعلى الموجودات على هذا القياس هو الله ، لأنه صورة محض لا تشوبه المادة ، ومعنى مجرد لا يقوم في جسد .

وأخس الموجودات جميعاً هو الهيولى ، وهي لم توجد قط منعزلة عن صورة من الصور ، وإذا وجدت منعزلة عن الصورة فهي وجود بالقوة أي وجود لم يتحقق بالفعل ولا يزال في انتظار التحقيق .

والحركة هي التي تحققه .

والحركة هي التي ترتقي به من صورة إلى صورة .

ولما كان الله هو المحرك الأول كما تقدم فهو موجد العالم على هذا الاعتبار ، وهو قبلته التي يرتقي اليها ... شوقاً إلى مصدره منها .

وهذه هي الصلة كلها بين الله والعالم : فما يُنسب إلى الله في مذهب أرسطو أنه يهتم بالعالم أو يفكر فيه ، لأنه تفكير فيما دونه أو تفكير لا يليق بكماله . ولا يعقل الله جل وعلا إلا أشرف معقول ، وهو ذاته دون سواها .

وهذا هو الخطأ الذي جاء من الغلو في مذهب أرسطو : تناوله الحكماء الدينيون فلم ينكروا المقدمات ولكنهم أنكروا النتيجة التي تأدى إليها أرسطو من مقدماته . فقالوا : إن الله لا يعقل إلا أشرف معقول . نعم لا جدال في ذلك ... ولكن أشرف معقول هو المعقول الذي يتحقق به كمال صفاته من القدرة والعلم والرحمة والجود . وإنما يتحقق جوده بإيجاد المخلوقات ، ويتحقق علمه بنفي الجهل بها ، وتتحقق رحمته برعايتها وتهذيبها . أما كيف يكون ذلك فالبحث فيه هو علة الخطأ في جميع تلك الفروض والأقيسة . لأنه سبحانه وتعالى جل عن الشبيه ، فليس كمثله شيء ، وليست أعمالنا كأعماله على فرض من الفروض .

ويقول أرسطو بوجود الروح ولكنه لا يقول ببقاء الروح الفردية بعد المـوت ، فالروح من عالم العقل ، والعقل واحد في جميع الأفراد ، وهم إذا اختلفوا بالأذواق الجسدية لم يختلفوا بالمدركات العقلية . فلا اختلاف بين إنسانين في إدراك الحقائق المجردة كالرياضة والمنطق وما جرى مجراها ، ومؤدّى هذا عند أرسطو أن العقل المجرد لا فردية فيه ، وأن الروح تعود إلى العقل العام بعد فراقها للجسد . فلا فردية لها بعد الموت ، ولكنها لا تفنى ولا تقبل الفناء .

* * *

ذلك أوجز تلخيص مستطاع لمذاهب المدرسة الأثينية في الحكمة الإلهية . وقد توخينا فيه ما يكفي لتقدير خطوتها في هذه المرحلة الإنسانية الخالدة ، فليس يدخل في موضوع هذا الكتاب تلخيص آرائها في غير فكرة الإيمان بالله .

ولعلنا نقدر هذه الخطوة حق قدرها إذا قلنا إن المدرسة الأثينية عرضت على الفهم ما أخذته من إيمان الأولين . فنقلت البناء من أساس الإيمان إلى البحث والقياس ، وإن موقفها من المادة كان كموقف التسليم « بالأمر الواقع » كما يقولون في لغة السياسة . لأنها لم تقل بقدم العالم إنكاراً لوجود العقل المستقل كما أنكره الماديون في العصور التالية ، ولكنها قالت بقدم العالم رأياً لأنها وجدته ماثلا أمامها حسّاً ، فلم تستطع أن تقاوم الحس في الماضي كما لم تستطع أن تقاومه في الحال .

المسيحية

لما ولد السيد المسيح عليه السلام — والأرجح أنه ولد قبل التاريخ المشهور بأربع سنوات — كان كل ما في الشرق ينبىء برسالة مرتقبة واعتقاد جديد .

كان اليهود يترقبون المسيح المنتظر على رأس الألف الخامسة للخليقة ، وهي عندهم مبدأ التقويم . لأن الاعتقاد العام كما قدمنا في تاريخ فارس وما بين النهرين كان يتجه إلى انتظار الخلاص في مطلع كل ألف سنة على يد رسول من السماء .

فجاش الأردن وما حوله بدعوة يحيى بن زكريا أو يوحنا المغتسل المشهور بالمعمدان . وراح هذا النبي يدعوهم إلى التوبة والاغتسال من الذنوب ، ويرمز إلى التطهر من الدنس بالتطهر في بحر الأردن على يديه ، ويبشرهم أو ينذرهم بقرب « ملكوت الله » أو ملكوت السماء . وهو الملكوت الموعود منذ قرون .

وكان اليهود قد فهموا « ملكوت الله » على معنى غير الذي فهموه وتوارثوه من أيام السبي وزوال مملكة داود وسليمان .

فقد كانوا ينتظرون ملكاً « مسيحاً » من قبيل ملوكهم الذين كانوا يمسحونهم بالزيت المقدس ويسمونهم من أجل ذلك بمسحاء الرب أو المسحاء .

وكانوا يترقبون رجعة الدولة على يد فاتح ظافر من أبناء داود يجرد الكتائب ويجتاح القلاع والدساكر ، ويقمع أعداءهم بالنار والحديد .

وتجدد رجاؤهم في مسيح من هذا القبيل بعد سقوط أعدائهم الأقوياء

وذهاب دولة البابليين والمصريين . فلما تطاول الزمن ووقعت بلادهم في قبضة الدولة الرومانية – وهي في قوتها وعجز اليهود عن مقاومتها لا تقل عن الدولتين الذاهبتين – يئسوا من الخلاص على أيدي الفاتحين الظافرين وتحولوا إلى الرجاء في قيام مسيح غير مسحاء العروش والتيجان . فترقبوه مسيحاً في عالم الروح ، وعلم الصالحون منهم أن الخلاص المنتظر إنما هو خلاص النفوس والضمائر بالتوبة والتطهير .

وكان أنبياؤهم قد بشروا بذلك المسيح قبل عصر الميلاد ببضعة قرون ، فإذا هم يتدرجون من وصفه بالقوة والبأس إلى وصفه بالرحمة والحنان ، ويتمثلونه وديعاً رضياً يتجافى صهوات الخيل ويمتطي في موكبه حماراً ابن أتان.

هذا في نطاق الديانة الإسرائيلية .

أما في نطاق البحث والحكمة فإن الفلسفة كانت في ذلك العصر قد أوفت على غايتها ، وأطلعت أعظم أعلامها وأكبر مدارسها ، وشاعت في البلاد الفينيقية على الخصوص ... لأن هذه البلاد كانت منشأ الرواقيين السابقين وكانت على اتصال دائم بآسيا الصغرى من جهة وبالإسكندرية من جهة أخرى ، وهي يومئذ قبلة الفلاسفة والحكماء .

ومن هؤلاء الفلاسفة من بشر بالكلمة الإلهية وقال إن هذه الكلمة – ويعني بها العقل الإلهي – هي مبعث كل حركة ومصدر كل وجود .

ومنهم من قال إن الحب هو أصل جميع الموجودات ومساك جميع الأكوان ، ومنهم من وعظ بالنسك والعفة وأوصى بالشفقة على الإنسان والحيوان وحرم ذبحه وزعم له روحاً كانت تعقل في حين مضى وستعود إلى العقل بعد حين .

وليس أدل على تهيؤ الجو للرسالة الجديدة من التمهيد لها في نطاق الفلسفة ونطاق الديانة في وقت واحد .

فكانت دعوة « يوحنا المعمدان » تقابلها دعوة فيلون الفيلسوف الإلهي الذي ولد بالإسكندرية قبل مولد السيد المسيح بنحو عشرين سنة ، وكان

فيلون يجمع حكمة العصر من جميع أطرافها ، لأنه كان يهودياً محيطاً بثقافة قومه وفيلسوفاً محيطاً بمذاهب الفلسفة اليونانية ، ووطنياً مصرياً محيطاً بالحكمة الدينية التي نبعت من معين التاريخ المصري القديم وامتزجت بالعقائد السرية الأخرى في بلاد الرومان واليونان وآسيا الصغرى ، وأهمهـا عقيدة إيزيس وعقيدة أوزيريس سرابيس التي تأسست بالإسكندرية وتفرعت في أثينا وبومبي وروما وبعض الموانىء الآسيوية ، وكانت لهذه الديانة مراسم خفية يترقى فيها المريد على أيدي الكهان والرؤساء في المحاريب السرية ، وأول هذه المراسم صلاة القبول — التطهير — أو هي صلاة البعث التي يتقدم إليها المريد كأنه ميت بالروح يطلب الحياة بالروح أو يطلب الخلاص من إرهاق الجسد وخبائث الشهوات ، ويعتبر بعدها من الواصلين إلى حظيرة الرضوان .

وكان لتفسير هذه الرموز أثر في تفسير فيلون لرموز الديانة الإسرائيلية ، فتجاوز النصوص والمراسم إلى ما وراءها من الدلالات الروحية كما تكشفت له على أضواء الفلسفة اليونانية ، ووصل من ثم إلى الإيمان بالعقل الإلهي أو الكلمة Logos كأنها « ذات » لها صفات الذات الإلهية .

بل وُجد من وعاظ بني إسرائيل أنفسهم قبيل عصر المسيح من مزج الأقاويل اليونانية بالعقيدة الإسرائيلية . فكان أصحاب الرؤى في كتب أخنوخ يعلمون تلاميذهم أن الحكمة خلقت الإنسان من سبعة عناصر ، فخلقت اللحم من التراب والدم من الندى والبصر من نور الشمس والعظام من الحجارة والذكاء من السحب والملائكة، والعروق من العشب والروح من أنفاس الله ، وأن خلق الأرواح سابق لخلق الدنيا بأرضها وسمائها ، لأنها عنصر خالد لا يزول .

* * *

في هذا الجو المتطلع إلى الرسالة الروحية ولد السيد المسيح صلوات الله عليه.

وكان يستمع العظات من يوحنا المعمدان ويتقبل « العمادة » من يديه . فلما قتل يوحنا لم يرهبه مصرعه الأليم ، ونهض بأمانة الدعوة بعده في بلاد

الجليل ثم في بيت المقدس ، وفي الهيكل الأكبر معقل الأحبار والكهان وعاصمة « الدولة الدينية » في بني إسرائيل .

وكانت بشارته أعظم فتح في عالم الروح . لأنها نقلت العبادة من المظاهر والمراسم إلى الحقائق الأبدية ، أو نقلتها من عالم الحس إلى عالم الضمير .

فلم ينتظر ملكوت الله في حادث من الحوادث الدنيوية الكبرى أو الصغرى بل علم الناس أن ملكوت الله قائم في ضمائرهم وموجود في كل حقبة وكل مكان : « ولا يأتي على موعد مرتقب . ولا يقولون هو ذا هنا أو هو ذا هناك . لأن ملكوت الله فيكم » .

ولم يشهد التاريخ قبل السيد المسيح رسولاً رفع الضمير الإنساني كما رفعه ، ورد إليه العقيدة كلها كما ردها إليه .

فقد جعله كفؤاً للعالم بأسره بل يزيد عليه . لأن من ربح العالم وفقد ضميره فهو مغبون في هذه الصفقة الخاسرة . « وماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ، وماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه ؟ » .

والطهر كل الطهر في نقاء الضمير . فمناط الخير كله فيه ومرجع اليقين كله إليه : « فليس شيء من خارج الإنسان يدنسه بل ما يخرج من الإنسان هو الذي يدنس الإنسان » .

وهناك حياته وبقاؤه : « فليس حياته من أمواله .. »

وهناك قوامه وطعامه : « فليس بالخبز وحده يحيا ... بل بكل كلمة من كلمات الله ... » ... و « الحياة أفضل من الطعام ».

وكان ينعى على القراء والعاكفين على التلاوات ومراسم العبادة فرط الولع بظواهر الأفعال دون حقائق الإيمان ، ويقول لهم : « نقوا الكأس من داخلها » فظاهرها لا يضير مافيها .

وكان ينكر كل ما يراد به الظاهر ولا ينبعث من أعماق الوجدان . فلا إحسان عنده لمن يتراءى بالإحسان ، لأنه تاجر أخذ ربحه فلا حق له عند الله :

« احترزوا من صدقة تصنعونها أمام الناس . وإلا فلا أجر لكم عند أبيكم الذي في السموات . وإذا بذلت الصدقة فلا تنفخ أمامك بالأبواق كما يفعل المراءون تفاخراً بين الناس . فالحق أقول لكم قد استوفوا أجرهم ... فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك ... فأبوك الذي يراك في الخفاء يجزيك في العلانية » .

وكل شيء في عالم الحس ينقاد لقوة الضمير : «فلو كان لكم إيمان كحبة خردل لأمرتم هذه الشجرة أن تخرج من منبتها وتنغرس في ماء البحر فتطيع ».

وعلى تبشيره بالرحمة والمحبة لم يكن ينكص عن الثورة في عالم الروح . لأنها هي الثورة التي تستحق أن تثار : « جئت لألقي ناراً ، فماذا عليّ لو اضطرمت النار ؟ »

فجانب الضمير هو الجانب الذي توجهت إليه رسالة السيد المسيح . ورعاية الله لروح الإنسان هي الملاذ الذي رأى الناس منصرفين عنه فعاد بهم إليه .

وكانوا يؤمنون بالله الخالق وبالله الذي ينزل عليهم الشرائع ويحاسبهم على الطاعة والعصيان ، ولكنهم نسوا رعاية الله ولم يريدوا أن يحبوه كما أرادوا أن يطيعوه . فعلمهم أن الله محبة وأن أقرب الناس إلى الله من أحب الله وأحب خلق الله ، ومنهم المطرودون والعصاة ، ولا يستحق غفرانه من لم يتعلم كيف يغفر للمسيئين إليه : « ... إن أخطأ إليك أخوك فوبخه ، و ن تاب فاغفر له ، وإن أخطأ إليك سبعاً في اليوم وتاب إليك سبعاً في اليوم ، فاقبل توبته واغفر له ».

وقد وجد عند بني إسرائيل كفاية وفوق الكفاية من كلامهم عن إله الشرائع وإله الخلق وإله هذا الشعب من الشعوب دون سائر بني الإنسان . فذكرهم بالله الذي يرعاهم فوق رعاية الأب الرحيم ، وعليهم أن يثقوا به فوق الثقة بسعيهم في طلب المال والحيلة في تحصيل المعاش : « أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس؟ انظروا إلى طيور السماء ، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن ، وأبوكم السماوي يقوتها ... ألستم أنتم أحرى بالتفضيل عليها ؟ من منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة ؟ ... تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو وهي لا تتعب ولا تغزل وسليمان في كل مجده لم

يلبس كواحدة فيها ، فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غداً في التنور يلبسه الله ذلك اللباس أفليس أحرى أن يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان ؟ ! »

وعلى هذا الوجه ينبغي أن يفهم قول السيد المسيح حين قال : « ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله » وحين جاءوه بالزانية فقال لهم : « من لم يخطىء منكم فليرمها بحجر » . فإنه لم يأت بإلغاء الشريعة ولا بإسقاط الجزاء . ولكنه نقل الإيمان بالله من الحرف إلى المعنى ، ومن القشور إلى اللباب ، ومن ظواهر الرياء إلى حقائق الخير الذي لا رقابة عليه لغير الضمير . ورأى عند اليهود ما هو حسبهم من شرائع الأنبياء وشرائع الرومان فقال لهم أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وذكرهم بجانب الرحمة والإحسان وقد نسوه ، ولم يذكروا غير جانب الغضب والقصاص

* * *

وقد أشار السيد المسيح إلى نفسه بتعريفات كثيرة رواها عنه كتاب الأناجيل فكان إذا تكلم عن نفسه قال : « أنا ابن الإنسان » أو « أنا نور العالم » أو « أنا خبز الحياة » أو « أنا الطريق والحق والحياة » أو « أنا القيامة والحياة » أو « أنا الراعي الصالح وأنا المعلم والسيد ، أو أنا الكرمة الحقيقية ... ولم يذكر نفسه باسم المسيح ولكنه بارك الحواري بطرس حين سماه به ، وقال له إنه اهتدى إلى حقيقته بنفحة من نفحات الروح

ولم تكتب هذه الأناجيل في عصر السيد المسيح بل بعد عصره بجيلين ، ولكن مواضع الاتفاق فيها تدل على رساله واحدة صدرت من وحي واحد ، ويؤكد لنا وحدةَ هذه الرساله أن فكرة الله فيها لا تشبهها فكرة أخرى في ديانات ذلك العصر الكتابية أو غير الكتابية . فقد كانت هناك ديانات طافحة بالشعائر الخفية والمراسم التقليدية ، وكانت هناك ديانات تفهم العلاقة بين الله والإنسان كأنها ضرب من علاقة الحاكم بالمحكوم أو الصانع بالمصنوع أو العلة بالمعلول ، ولكن الفكرة المسيحية التي قررتها الأقوال المتفقة في الأناجيل تتميز كل التمييز عن مجمل الأفكار الإسرائيلية أو الأفكار الهندية والمجوسية أو أفكار المؤمنين بعقائد الفلسفة أو العقائد السرية . فالعلاقة بين الإنسان وخالقه في بشارة السيد المسيح هي العلاقة بين الروح ومصدرها وبين

الحياة وينبوعها ، بين المكفول وكافله ، وبين الرعية وراعيها ، ولم تتفق هذه الصفة في ديانة واحدة من ديانات ذلك العصر كما اتفقت في الديانة المسيحية ، وهي في رأينا علامة جوهرية لا تقل في قوتها عن أسانيد التاريخ التي تبطل شكوك المترددين في وجود السيد المسيح .

وإنما طرأت الشبهة على أذهان أولئك المترددين من تماثل بعض الشعائر على النحو الذي أجملناه في نقدنا لكتاب إميل لدفج عن السيد المسيح حيث نقول : « إن الذي يرددونه أكثر من سواه أن كل شعيرة في المسيحية قد كانت معروفة في ديانات كثيرة سبقتها ، حتى تاريخ الميلاد وتاريخ الآلام قبل الصليب .. فاليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر الذي يحتفل فيه بمولد المسيح كان هو يوم الاحتفال بمولد الشمس في العبادة المثرية . إذ كان الأقدمون يخطئون في الحساب الفلكي إلى عهد جوليان ، فيعتبرون هذا اليوم مبدأ الانقلاب الشمسي بدلاً من اليوم الحادي والعشرين في الحساب الحديث ، وقد اعترضت الكنيسة الشرقية على اختيار اليوم الخامس والعشرين لهذا السبب وفضلت أن تختار لعيد الميلاد اليوم السادس من شهر يناير الذي « تعمد » فيه السيد المسيح . على أن هذا اليوم أيضاً كان عيد الإله ديونيسيس عند اليونان وبعض سكان آسيا الصغرى ، وكان قبل ذلك عيد أوزيريس عند المصريين ، ولا يزال متخلفاً في العادات المصرية إلى اليوم . ففي اليوم الحادي عشر من شهر طوبة — وكان يوافق السادس من شهر يناير في التاريخ القديم — كان المصريون يحتفلون بعيد إلههم القديم ولا يزالون يحتفلون به في عصرنا هذا باسم عيد الغطاس . وقد اتخذت المسيحية اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس تذكاراً لآلام السيد المسيح قبل الصلب . وهذا هو الموعد نفسه الذي اتخذه الرومان قبل المسيح لتذكار آلام الإله أتيس إله الرعاة المولود من نانا العذراء بغير ملامسة بشرية ، والذي جب نفسه في هذا الموعد ونزف دمه في جذور شجرة الصنوبر المقدسة .

« وقد كان اسم العذراء مريم بصيغه المختلفة اسماً مختاراً لأمهات كثير من الآلهة والقديسين مثل أدونيس ابن ميرة وهرمز ابن مايا وفيروش ابن

مريانا وموسى ابن مريم وبوذا ابن مايا وكرشنا ابن مارتالا ، وهكذا بحيث يظن أن هذا الاسم شائع لا يدل على ذات معينة .

« ومما يجري في هذا المجرى أن تماثيل إيزيس وهي تحمل ابنها حوريس كانت رمزاً في الكنائس الأولى للعذراء مريم وابنها المسيح . ولما كانت إيزيس إلهة البحر وكان اسمها عند الرومـــان كوكب البحر أي ستيلا ماريس Stella Maris فليس يبعد أن يكون لهذا الشبه علاقة بالتشابه في الأسماء. وقد رويت روايات كثيرة عن الآلهة والأبطال المولودين من الأمهات العذراوات قبل المسيح . فكان بعض الفرس يعتقدون أن زراذشت ولد من أم عذراء ، وكذلك كان الرومان يعتقدون في أتيس والمصريون يعتقدون في رع والصينيون يعتقدون في فوهي ولاو . وقال فلوطرخس في رسالته عن إيزيس وأوزيريس إن الحمل يحصل في هذه الأحوال من الأذن وهو ما يفسر صورة العذراء في القرون الوسطى . إذ كانوا يرسمونها وشعاع من النور يتجه إلى إحدى أذنيها . وقال ترتوليان إن شعاعاً سماوياً هبط على العذراء فحملت بالسيد المسيح . أما التكفير بالموت فكثير في قصص الديانات القديمة ، وأقربه إلى مواطن المسيحية عبادة تموز الذي كانوا يحتفلون بموته وبعثه في أنطاكية ، وسرت عادة البكاء عليه إلى النساء اليهوديات فكن يندبنه على باب الهيكل وأنبهن على ذلك النبي حزقيال ... وجاء في التلمود أن رجلاً يسمى يسوع قتل وعلق على شجرة قبل الميلاد بمائة سنة .

« والعشاء الرباني كان معروفاً في عبادة مترا على الطريقة التي عرف بها في المسيحية ، بل كان الخبز الذي يتناوله عباد مترا في ذلك العشاء يصنع على شكل الصليب ... وقد أسف جوستن مارتر في سنة ١٤٠ لهذه المشابهة وعدها مكيدة شيطانية لتضليل المومنين .

« والمعجزة الأولى للمسيح وهي تحويل الماء خمراً معروفة في عبادة ديونيسيس إله الخمر وإله الشمس . ومن حيواناته المقدسة الحمل والحمار ، وعلى الحمار كان ركوبه حتى قيل إنه كان له حماران فجعلهما نجمين في السماء . وبهذا الرمز يرمز البابليون إلى مدار السرطان ... فالخلط بين المسيح

وذيونيسيس في ركوب الأتان وتحويل الماء موضع نظر . ومثله الخلط بينهما في المذود الذي وضعا فيه عند الولاة كما جاء في إنجيل لوقا حيث قال : « وفي تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة . وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والي سورية فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد إلى مدينته فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينته الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى . وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته في المذود . إذ لم يكن لها موضع في المنزل » . أما الإحصاء في هذا التاريخ فلم يرد له أي ذكر في تراجم أوغسطس ولم تجر العادة قط في دولة الرومان أن يكلف الناس السفر من بلادهم إلى البلاد التي عاش فيها أجدادهم الأسبقون ليكتبوا أسماءهم هناك . فالرواية مستهدفة للملاحظة من عدة جهات .

« ولم يتفق على المكان الذي ولد فيه المسيح كما لم يتفق على الزمان الذي ولد فيه . فمن قائل إنه ولد في الناصرة ، ومن قائل إنه ولد في بيت لحم ؛ والذين يقولون إنه ولد في بيت لحم يذهبون إلى هذا القول لتأييد النبوءة التي تنبىء بظهور المسيح من نسل داود : وهو بيت لحم لا في الناصرة . وجاء في إنجيل متى أن يوسف النجار رأى في المنام أن هيرود الطاغية سيقتل كل طفل يولد في بيت لحم لذلك العام . مع أن هيرود مات في السنة الرابعة قبل الميلاد ، ومع أن يوسفيوس المؤرخ لم يذكر خبر هذه المذبحة فيما أحصاه لهيرود من الآثام . وقد سبقت روايات كهذه عن النمروذ وفرعون مصر وغيرهما من الأمراء الذين أنذرتهم النبوءات بظهور أعدائهم قبل مولدهم . فهي روايات لا تدل على شيء يعتمد على التاريخ ولم تكتب هي ولا كتب غيرها مما ورد في الأناجيل إلا بعد عهد المسيح بعشرات السنين . أما الذين عاصروه أو قاربوه غير التلاميذ فلم يذكروا عنه شيئاً ولم يدونوا له خبراً .. حتى عجب فوتيوس بطريق القسطنطينية حين قرأ في القرن التاسع تاريخ جستس الطبري المكتوب بعد المسيح ببضع سنوات فوجده غفلاً من ذكره ،

وهو مولود حيث ولد المسيح في الجليل .. ولم يشر بليني الأكبر بكلمة واحدة إلى الخوارق التي نسبت إليه ، وهو كثير العناية بجمع الخوارق في تاريخه الطبيعي المؤلف بعد المسيح بثلاثين أو أربعين سنة . وثبت أن النسخ الصحيحة من تاريخ يوسفيوس المنتهي بالسنة الثالثة والتسعين بعد الميلاد خلو من الفقرتين المشار فيهما إلى المسيح على عجل واقتضاب . وأن هاتين الفقرتين مدسوستان على بعض النسخ في القرون الوسطى ، ويقال مثل ذلك في كتب أخرى وردت فيها مثل هذه الإشارات المبهمة بصيغة لا تثبت على المضاهاة والتمحيص » .

وقد جمعنا فيما تقدم جميع الملاحظات التي اوردها المشككون في وجود السيد المسيح ، وهي جديرة بالتمحيص لأنها وثيقة الصلة بأسانيد المقارنة بين الأديان ، ويتوقف على تقرير قيمتها تقويم الكثرة الغالبة من تلك المقارنات.

وأول ما نرى أن أصحاب هذه الملاحظات قد نسوه وأغفلوه ولم يقدروا قيمته لأن السيد المسيح هو صاحب الدين الذي كان أكثر الأديان نعياً على ظواهر المراسم والشعائر والنصوص . فمن الغريب أن يجعلوا تشابه المراسم والشعائر والنصوص مبطلاً لوجود من أنكرها وأقام دعوته الكبرى على إنكارها .

وأغرب من هذا أن يتخذوا تشابه المراسم والأخبار دليلاً على تلفيق تاريخ السيد المسيح .. مع أن التواريخ جميعاً حافلة بأسماء الأبطال المحققين الذين نسب اليهم كل عمل من نوع أعمالهم وكل خليقة من نوع خلائقهم . فإذا اشتهروا بالشجاعة رويت عنهم كل أخبار الشجعان ما ثبت منها لهم وما لم يثبت منها إلا لغيرهم ، وإذا اشتهروا بالفكاهة نسبت إليهم فكاهات المعروفين والمجهولين ولا تزال تنسب إليهم على ممر السنين ، وهكذا يصنع الرواة بأخبار كل مشهور سواء كانت شهرته بالمحمود أو بالمذموم من الصفات.

فإذا اختلطت الروايات في أخبار المسيح فليس في هذا الاختلاط بدع ولا دليل قاطع على الإنكار . وقد قلنا في تعليقنا على تلك الملاحظات إنه « لو كان اختلاط الرموز والشعائر من موجبات الشك في ظهور الرسل لوجب أن نشك في وجود النبي عليه السلام لما في الإسلام من شعائر الحج التي أحياها

على سنن العرب قبله ، ولوجب أن نشك في وجود علي بن أبي طالب لما أحاط به من أساطير بعض المذاهب الغالية .. وفي مقدمتها انتظار الإمام أو المهدي أو المسيح . وهي عقيدة تتشابه فيها تلك المذاهب المسيحية والإسرائيلية ووثنية المجوس ».

ومما فات أصحاب الملاحظات المتقدمة أن آباء الكنائس الأولى لم يحتفلوا بتلك الأعياد وهم يجهلون تواريخها . ولكنهم بدأوا بالاحتفال بها لاعتبارهم أن إكرام السيد المسيح فيها أجدر بالمسيحيين من إكرام الشمس والكواكب وسائر الأرباب الوثنية.. وكانوا يرون أتباع الكنيسة يندفعون إلى محافل الوثنيين في تلك الأيام فيصرفونهم عنها باحياء المحافل التي تقابلها وتمجيد السيد المسيح فيها بديلاً من تمجيد الأوثان . وعلى هذه السنة خصصوا يوم الأحد للعبادة لأنه كان يوم الشمس في ديانة عبادها الأقدمين. واسم هذا اليوم بالإنجليزية Sunday يدل على بقايا ذلك الدين المهجور .

وأقطع من هذا في استضعاف تلك الملاحظات — أن روح المسيحية في إدراك فكرة الله — هي روح متناسقة تشف عن جوهر واحد لا يشبهه إدراك فكرة الله في عبادة من تلك العبادات .

فالإيمان بالله على تلك الصفة فتح جديد لرسالة السيد المسيح لم يسبقه إليها في اجتماع مقوماتها رسول من الكتابيين ولا غير الكتابيين ، ولم تكن أجزاء مقتبسة من هنا وهناك. بل كانت كلاً متجانساً من وحي واحد وطبيعة واحدة، وإن وجدت هذه الأجزاء متفرقة هنا وهناك قبل ذاك .

الإسلام

مضى على مولد السيد المسيح نحو ستة قرون قبل ظهور الإسلام . تشعبت في خلالها المذاهب المسيحية بين قائل بطبيعة واحدة للسيد المسيح وقائل بطبيعتين اثنتين : هما الإنسانية والإلهية ، وبين مؤلّه للسيدة مريم ومنكر لهذا التأليه ، وبين مفسر لبنوة السيد المسيح بأنه ابن الله ولكنها بنوة على المجاز بمعنى القرب والإيثار على سائر المخلوقات ، وقائل بأن السيد المسيح هو ابن الله على الحقيقة التي يفهمها المؤمن على نحو يليق بالذات الإلهية .

وتسربت هذه المذاهب جميعاً إلى الجزيرة العربية مقرونة بالبراهين الجدلية التي يستدل بها كل فريق على صحة تفسيره وبطلان تفسير معارضيه ، وكان كثير من تلك البراهين مستمداً من المنطق ومذاهب حكماء اليونان ، فإن أوريجين ونسطور وآريوس أصحاب الآراء الفلسفية واللاهوتية التي جاءت بها الفرق المختلفة كانوا من المطلعين على الفلسفة الإغريقية والملمين على التخصيص بآراء هيرقليطس وأفلاطون وأرسطو وزينون.

وقد عرف العرب أطرافاً من هذه المذاهب بعد هجرة المهاجرين منهم إلى العراق وسورية وفلسطين ، كما عرفوها بعد هجرة المهاجرين إلى بلادهم من رهبان تلك الأمم وتجارها وسائحيها ، وهم غير قليلين .

وتسربت مذاهب اليهودية قبل ذلك إلى أنحاء الجزيرة العربية ، ولم تزل تتسرب إليها بعد ظهور المسيحية واحتكاك اليهود بالنصارى في جوانب الدولة الرومانية ، وكانت لليهود مذاهب في الدين تمتزج بالفلسفة حيناً وبالتأويلات

اللاهوتية حيناً آخر ، على مثال الامتزاج بين مذاهب المسيحية وأقوال الفلاسفة واللاهوتيين .

وكانت جزيرة العرب على اتصال لا ينقطع بالفرس ومن جاورهم من أمم المشرق ولا سيما في بلاد البحرين وبلاد اليمن على الشواطىء وفي داخل الصحراء العامرة ، فنقل الفرس إلى تلك الأصقاع هياكل النار وعبادة الكواكب وغيرها من بقايا الديانة المجوسية .

ولم يتلق العرب النصرانية من مصدر واحد أو من مصدر الشمال دون غيره . فقد كانت للحبشة نصرانية ممزوجة بالوثنية التي تخلفت من عقائدها الأولى ، وكان يهود الحبشة على شيء من الوثنية يختلط بعقائد المجوس وعقائد الأحباش والعرب الأقدمين .

ودان قليل من العرب بهذه الديانات على أوضاعها الكثيرة التي يندر فيها الإيمان بالوحدانية الخالصة وعقيدة التنزيه والتجريد . أما الأكثرون منهم فكانوا يعبدون الأسلاف في صور الأصنام أو الحجـــارة المقدسة ، وكانوا يحافظون على هذه العبادة السلفية كدأب القبائل جميعاً في المحافظة على كل تراث من الأسلاف ولكنهم كانوا يعرفون « الله » ويقولون إنهم يعبدون الأصنام ليتقربوا بها إلى الله .

فلما ظهر الإسلام في الجزيرة العربية كان عليه أن يصحح أفكاراً كثيرة لا فكرة واحدة عن الذات الإلهية ، وكان عليه أن يجرد الفكرة الإلهية من أخلاط شتى من بقايا العبادات الأولى وزيادات المتنازعين على تأويـــل الديانات الكتابية .

فإذا كانت رسالة المسيحية أنها أول دين أقام العبادة على « الضمير الإنساني» وبشر الناس برحمة السماء ــ فرسالة الإسلام التي لا التباس فيها أنها أول دين تمم الفكرة الإلهية وصححها مما عرض لها في أطوار الديانات الغابرة .

فالفكرة الإلهية في الإسلام « فكرة تامة » لا يتغلب فيها جانب على جانب ، ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل لله مثيلاً في الحس

ولا في الضمير ، بل له « المثل الأعلى » وليس كمثله شيء .

فالله وحده « لا شريك له » ... « ولم يكن له شركاء في الملك » ... فتعالى الله عما يشركون » ... « وسبحانه عما يشركون » .

والمسلمون هم الذين يقولون : « ماكان لنا أن نشرك بالله » ... « ولن نشرك بربنا أحداً » .

ويرفض الإسلام الأصنام على كل وضع من أوضاع التمثيل أو الرمز أو التقريب .

ولله المثل الأعلى من صفات الكمال جمعاء ، وله الأسماء الحسنى . فلا تغلب فيه صفات القوة والقدرة على صفات الرحمة والمحبة ، ولا تغلب فيه صفات الرحمة والمحبة على صفات القوة والقدرة . فهو قادر على كل شيء وهو عزيز ذو انتقام ، وهو كذلك رحمان رحيم وغفور كريم .. قد وسعت رحمته كل شيء ، و « يختص برحمته من يشاء » .

وهو الخلاق دون غيره و « هل من خالق غير الله ؟ »

فليس الإله في الإسلام مصدر النظام وكفى، ولا مصدر الحركة الاولى وكفى ، ولكن « الله خالق كل شيء » ... و « خلق كل شيء فقدره » و « أنه يبدأ الخلق ثم يعيده » ... و « هو بكل خلق عليم » .

ومن صفات الله في الإسلام ما يعتبر رداً على « فكرة الله » في الفلسفة الأرسطية ، كما يعتبر رداً على أصحاب التأويل في الأديان الكتابية وغير الكتابية.

فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ، ويتنزه عن الإرادة لأن الإرادة طلبٌ في رأيه والله كمال لا يطلب شيئاً غير ذاته ، ويجل عن علم الكليات والجزئيات لأنه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة ... لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعي إليه .

ولكن الله في الإسلام « عالم الغيب والشهادة » ... و « لا يعزب عنه مثقال ذرة » ... « وهو بكل خلق عليم » ... « وما كنا عن الخلق غافلين » ...... « وسع كل شيء علماً » ... « ألا له الخلق والأمر »...«عليم بما في الصدور ».

وهو كذلك مريد وفعال لما يريد . « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان » . وفي هذه الآية رد على يهود العرب بمناسبة خاصة تتعلق بالزكاة والصدقات كما جاء في أقوال بعض المفسرين ، ولكنها ترد على كل من يغلون إرادة الله على وجه من الوجوه ، ولا يبعد أن يكون في يهود الجزيرة من يشير إلى رواية من روايات الفلسفة الأرسطية بذلك المقال .

وقد أشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين الأديان المتعددة ، فجاء فيه من سورة الحج : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد» وأشار إلى الدهريين فجاء فيه من سورة الأنعام : « وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » وجاء فيه من سورة الجاثية : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ،وما لهم بذلك من علم إنهم إلا يظنون».

فكانت فكرة الله في الإسلام هي الفكرة المتممة لأفكار كثيرة موزعة في هذه العقائد الدينية وفي المذاهب الفلسفية التي تدور عليها . ولهذا بلغت المثل الأعلى في صفات الذات الإلهية ، وتضمنت تصحيحاً للضمائر وتصحيحاً للعقول في تقرير ما ينبغي لكمال الله ، بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس .

ومن ثم كان الفكر الإنساني من وسائل الوصول إلى معرفة الله في الإسلام ، وإن كانت الهداية كلها من الله : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » .. « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ».

ومجمل ما يقال في عقيدة الذات الإلهية التي جاء بها الإسلام أن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال في أشرف الصفات .

فالله هو « المثل الأعلى »

وهو الواحد الصمد الذي لا يحيط به الزمان والمكان وهو محيط بالزمان والمكان و « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » ... « وسع كرسيه السموات والأرض » ... « ألا إنه بكل شيء محيط » .

وقد جاء الإسلام بالقول الفصل في مسألة البقاء والفناء . فالعقل لا يتصور للوجود الدائم والوجود الفاني صورة أقرب إلى الفهم من صورتهما في العقيدة الإسلامية ، لأن العقل لا يتصور وجودين سرمديين، كلاهما غير مخلوق ، أحدهما مجرد والآخر مادة، وهذا وذاك ليس لهما ابتداء وليس لهما انتهاء.

ولكنه يتصور وجوداً أبدياً يخلق وجوداً زمانياً ، أو يتصور وجوداً يدوم ووجوداً يبتدىء وينتهي في الزمان .

وقديماً قال أفلاطون — وأصاب فيما قال — إن الزمان محاكاة للأبد ... لأنه مخلوق والأبد غير مخلوق .

فبقاء المخلوقات بقاء في الزمن ، وبقاء الخالق أبدي سرمدي لا يحده الماضي والحاضر والمستقبل ، لأنها كلها من حدود الحركة والانتقال في تصور أبناء الفناء ، ولا تجوز في حق الخالق السرمدي حركة ولا انتقال .

فالله « هو الحي الذي لا يموت» ... « وهو الذي يحيي ويميت » و « كل شيء هالك إلا وجهه » .

ولا بقاء على الدوام إلا لمن له الدوام ومنه الابتداء وإليه الانتهاء .

وقد تخيل بعض المتكلمين في الأديان أن هذا التنزيه البالغ يعزل الخالق عن المخلوقات ، ويبعد المسافة بين الله والإنسان .

وإنه لوهم في الشعور وخطأ في التفكير .

لأن الكمال ليست له حدود ، وكل ماليست له حدود فلا عازل بينه وبين موجود.. وفي القرآن الكريم «ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله»... « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

ولا شك أن العالم كان في حاجة إلى هذه العقيدة كما كان في حاجة إلى العقيدة المسيحية من قبلها ، وتلقى كلتيهما في أوانه المقدور .

فجاءه السيد المسيح بصورة جميلة للذات الإلهية .

وجاءه محمد عليه السلام بصورة « تامة » في العقل والشعور .

وربما تلخصت المسيحية كلها في كلمة واحدة هي الحب .

وربما تلخص الإسلام في كلمة واحدة هي « الحق » .

« ذلك بأن الله هو الحق » ... « إنا أرسلناك بالحق بشيراً » ... « فتعالى الله الملك الحق » ... « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ».

ومن ملاحظة الأوان في دعوات الأديان أن المسيحية دين « الحب » لم تأت بتشريع جديد ، وأن الإسلام دين « الحق » لم يكن له منـــاص من التشريع.

فما كان الناس عند ظهور السيد المسيح بحاجة إلى الشرائع والقوانين ، لأن شرائع اليهود وقوانين الرومان كانت حسبهم في أمور المعاش كما يتطلبها ذلك الزمان، وإنما كانت آفتهم فرط الجمود على النصوص والمراءاة بالمظاهر والأشكال . فكانت حاجتهم إلى دين سماحة ودين إخلاص ومحبة ، فبشرهم السيد المسيح بذلك الدين .

ولكن الإسلام ظهر وقد تداعى ملك الرومـــان وزال سلطـــان الشرائع الإسرائيلية ، وكان ظهوره بين قبائل على الفطرة لا تترك بغير تشريع في أمور الدنيا والدين يزعها بأحكامه في ظل الحكومة الجديدة ويوافق أطوارها كلمـــا تغيرت مواطنها ومواطن الداخلين في الدين الجديد . والعبرة بتأسيس المبدأ في حينه ، ولم يكن عن تأسيس المبدأ في ذلك الحين من محيد .

وإذا بقي الإيمان بالحق فقد بقي أساس الشريعة لكل جيل ، وفي كل حال .

الأديان بعد الفلسفة

«١» اليهودية بعد الفلسفة

تقدم اليهود في الزمن وتقدموا في دراسة الفلسفة اليونانية، وبلغ اختلاطهم بمذاهب الفلسفة أتمه في مدينة الإسكندرية قبيل الميلاد لأنها أصبحت مركز الثقافة في العالم المتحضر، بعد انتهاء عصر الفلسفة من أثينا وسائر بلاد الإغريق.

واليهود كما هو معلوم لا يتحولون عن عقائد آبائهم وأجدادهم وإن خالفت كل ما تعلموه ودرسوه ودرجوا على التفكير فيه، لأن عقيدتهم بالنسبة إليهم أكثر من عقيدة دينية: هي جنس ومعقل دفاع في وجه الأمم التي يعادونها وتعاديهم. فهم أحوج الناس إلى التوفيق بين العقيدة والفكرة لفهم الدين على النحو الذي يستبقي الصلة بينهم وبين اسلافهم ولا يقطع الصلة بينهم وبين الزمن الذي يعيشون فيه، فإن استبقاء هذه الصلة بينهم وبين الزمن لازم لهم مفروض عليهم، اذ هم لا يتسلطون على العالم بقوة الحكم والغلبة. ولكنهم يستفيدون منه بالتطور والمجاراة وملابسة المطالب الدنيوية. فاستبقاء الصلة بينهم وبين أسلافهم واستبقاء الصلة بينهم وبين العالم ضرورتان تتساويان وتصبحان ضرورة واحدة: هي ضرورة الحياة.

فالمفكرون اليهود لا ينقطعون عن أصولهم كل الانقطاع ولا ينقطعون عن ثقافة العالم كل الانقطاع، ولا سيما الثقافة التي تدخل في اعتقاد الجماعات وتتأثر بها حركات الأمم ونزعات المسيطرين عليها.

وأقدم فلاسفة اليهود الذين أسسوا قنطرة الاتصال بين الدين والفلسفة هو ولا شك فيلون الإسكندري الذي ولد في السنة العشرين قبل الميلاد وتوفي بعد

ذلك بنحو سبعين سنة، فإن بناء هذه القنطرة بالنسبة إليه ضرورة روحية لا فكاك منها، فضلاً عن ضرورة الزمن الذي عاش فيــه وضرورة البيئة التي اشتجرت فيها عقائد مصر وعقائد أبناء جنسه وفلسفة اليونان، بعد امتزاجها بالديانات السرية في مصر وسائر الأقطار الرومانية.

وقد تعلم فيلون من دينه أن الله ذات ، وتعلم من الفلسفة اليونانية أن الله عقل مطلق مجرد من ملابسات المادة.

فلم يستطع أن يقبل الصفات والأنباء التي أسندت إلى الله في كتب اليهود بدلالتها الحرفية ونصوصها الظاهرة ، ولم يستطع أن يجاري الفلاسفة في عزلهم بين الله ومخلوقاته ورفعهم عناية الله عن الاشتغال بأحوال هذه المخلوقات.

إلا أنه كان على اقتناع مكين بتنزيه الله عن صفات التشبيه والتجسيم ، وكان يرى أن عقل الإنسان لن يستثبت من صفات الله شيئاً غير أنه موجود ، ولكنه في وجوده الكامل المطلق أعلى من أن تحده صفة تدركها العقول.

فكيف يتأتى الاتصال بين هذا الخالق وبين مخلوقاته في هذه الصور المادية؟ وكيف يفهم الصفات والأنباء التي أسندت إليه في كتب أنبياء اليهود؟

أما كتب الأنبياء فهو لا يرفضها ولكنه يقبلها على الرمز والمجاز ، ويقول إنها تنطوي على حقيقة أعمق من الحروف والنصوص يفهمها المستعدون لها على درجات.

وأما الاتصال بين الخالق والمادة فإنما يكون بوسيلة العقل أو الكلمة ، وهي عنده تارة تقابل كلمة لوجوس Logos وتارة تقابل كلمة نوس Nous اليونانيتين.

فالعقل يصدر عن الله ، والمادة تنقاد للعقل فتتحرك وتنتظم وتتعدد فيها طبقات المخلوقات.

وكان فيلون يرفض أقوال الرواقيين التي تشبه القول بوحدة الوجود ، وتجعل الله من العالم والعالم من الله.

ولكنه كذلك كان يرفض مذهب أرسطو في تجريده الله عن العمل للمخلوقات وزعمه أن كمال الله يقتضي هذا التجريد .

قال : « إن بعضهم ممن فاق إعجابهم بالعالم إعجابهم بصانعه يقولون إن العالم أبدي بغير بداية ، وينسبون إلى الله نسبة خلت من التقوى والحق إذ يجردونه من العمل وكان أحرى بهم أن يقفوا موقف الروعة أمام قدرته : قدرة الصانع والأب ولا يتجاوزوا الحد في تعظيم العالم وتمجيده . وقد كان موسى الذي بلغ الذروة في الفلسفة واهتدى بوحي الله إلى أعمق أسرار الطبيعة يعلم أن الضرورة أوجبت أن يوجد في الكون سبب محرك ومادة لا حراك بها ، وأن السبب المحرك هو العقل Nous أو هو عقل الكون الطهور الذي يعلو على الفضيلة والعلم ، ويعلو على الخير نفسه وعلى الجمال نفسه ... أما المادة التي لا حراك بها فليست لها روح حياة ولا طاقة لها بالحركة من عند ذاتها . ولكنها متى تحركت بالعقل واستمدت منه روح الحياة صارت إلى هذا الصنع المحكم العجيب المتجلي لنا في هذا العالم ، وإن أولئك الذين يحسبون العالم بلا بداية لا يبصرون أنهم يقطعون بذلك الحسبان ألزم عنصر من مقومات الدين وهو الإيمان بالعناية الإلهية . لأن العقل ينبئنا أن الأب الخالق يعنى بما خلق ... »

وغني عن القول كذلك إن فيلون يرفض زعم الزاعمين أن الله يحتويه مكان أو زمان لأنه محيط بكل مكان وكل زمان ، ويرفض زعم الزاعمين أن الله لا يستجيب للصلاة لأن الصلاة أصل من أصول العلاقة بين الإنسان والله . وعنده أن الله يستجيب دعاء « الكلمة » أو اللوجوس لهذه الموجودات الأرضية ، وأن موسى عليه السلام هو اللوجوس الذي استجاب الله دعاءه في سيناء ، وهو الذي خلص من شوائب المادة فلحق بالطبيعة الإلهية Transmutatur in divinus [1] .

قال : « إن الله أحد . ولكنه بقدرته خيّر وحاكم . فبالخير صنع العالم . وبالحكم يديره . وثمة شيء ثالث يجمع بين القدرتين وهو اللوجوس أو

---

(١) هذه العبارة هي الأصل اللاتيني الذي ترجمت عنه العبارة الانجليزية Changed into divinity

الكلمة . لأن الله — بالكلمة — يجود ويحكم ... والكلمة كانت في عقل الله قبل جميع الأشياء ... وهي متجلية في جميع الأشياء . »

* * *

وقد كان مذهب فيلون مبدأ ثورة دينية في بني إسرائيل . فتابعه أناس في التأويل والتفسير ، وأحجم أناس عن كل تأويل وتفسير مشفقين على التراث القديم . وانتهى الخلاف إلى انشقاق حاسم بين القرائين وهم الملتزمون للنصوص وبين الربانيين الذين يجيزون تفسيرها والتوفيق بينها وبين مقررات العلم ومذاهب الحكمة . ولم يحدث ذلك إلا بعد تسعة قرون من عصر فيلون . اي بعد شيوع الفلسفة الإسلامية واستفاضة البحث في مسألة القضاء والقدر على الخصوص . لأنها هي المسألة التي استحكم عليها الخلاف بين القرائين القائلين بالقضاء والربانيين القائلين بالاختيار .

* * *

وقد نبغ بعد فيلون فلاسفة من اليهود يدخلون في أغراض الفلسفة العامة ولا يدخلون في أغراض هذا الفصل ، لأنهم لم يشتغلوا بالتوفيق بين أحكام النصوص الكتابية وأحكام الفلسفة الإلهية . وليس بين فلاسفتهم الذين اشتغلوا بالتوفيق بين النص والعقل من هو أولى بالذكر في هذا المقام من موسى بن ميمون .

وكان مولد ابن ميمون في قرطبة (١١٣٥ — ١٢٠٤) ، وصناعته الطب والتجارة ، وقضى أيام نضجه وبحثه بين مصر وفلسطين في أشد أوقات الخلاف بين القرائين والربانيين على تأويل نصوص التوراة والتلمود . فأوشك أن ينصرف بجملته إلى شروح الفقه والعبادة ، ولكنه قرأ علوم الكلام وبحوث التوحيد الإسلامية واطلع على فلسفة اليونان باللغة العربية ، فألف كتابه دلالة الحائرين وتناول فيه مسائل الفلسفة ببعض التفصيل ، ولا سيما مسألة الذات والصفات ومسألة المعاني والنصوص .

فقال عما جاء في سفر التكوين : إننا نصنع إنساناً على صورتنا وشبهنا

« إن الناس قد ظنوا لفظ صورة في اللسان العبري يدل على شكل الشيء وتخطيطه فيؤدي ذلك إلى التجسيم المحض ورأوا أنهم إن فارقوا هذا الاعتقاد كذبوا النص.. وأما صورة فتقع على الصورة الطبيعية أعني على المعنى الذي يجوهر الشيء بما هو، وهو حقيقته من حيث هو ذلك الوجود والمعنوي الذي عنه يكون الإدراك الإنساني .. فيكون المراد من الصورة الصورة النوعية التي هي الإدراك العقلي لا الشكل والتخطيط » ففسر الصورة في سفر التكوين بالصورة المقصودة في مذهب أرسطو. وهذا وأمثاله قد أثار عليه المحافظين فسموا كتابه بضلالة الحائرين .

وقال عن الألواح وكلام الله الذي كتب عليها بأصبع الله إنها موجودة وجوداً طبيعياً لا صناعياً ، وإن كلام الله هو علمه الذي يدركه النبيون وليس كلاما كالذي يصدر عن الإنسان أو كالذي نفهمه من لفظ الكلام ، وقال عن صفات الله كلها إنها وضعت بحسب الأفعال الموجودة في العالم . أما إذا اعتبرنا ذاته مجرداً عن كل فعل فلا يكون له اسم مشتق بوجه . بل اسم واحد مرتجل للدلالة على ذاته ...

وليس أسلم عنده من وصف الله بالسوالب أي بنفي كل صفة من صفات النقص عنه جل وعلا فقد « تبرهن أن الله عز وجل واجب الوجود لا تركيب فيه ولسنا ندرك إلا أنيته لا ماهيته . فيستحيل أن تكون له صفة إيجابية لأنه لا أنية له خارجة عن ماهيته فتدل الصفة على إحداها . فإما أن تكون ماهيته مركبة فتدل الصفة على جزئيها وإما أن تكون لها أعراض فتدل الصفة أيضاً عليها . فلا صفة إيجاب بوجه من الوجوه ... فسبحان من إذا لاحظت العقول ذاته عاد إدراكها تقصيراً ، وإذا لاحظت صدور أفعاله عن إرادته عاد علمها جهلاً ، وإذا رامت الألسن تعظيمه بأوصاف عادت كل بلاغة عياً وتقصيراً ... »

وهو يقول إن الله صورة العالم وسبب وجوده « لأن وجود الباري هو سبب لكل موجود وهو يمد بقاءه بالمعنى الذي يكنى عنه بالفيض . فلو قدر عدم الباري لقدر عدم الوجود كله وبطلت ماهية الأسباب البعيدة منه والمسببات الأخيرة وما بينها . فهو له إذن بمنزلة الصورة للشيء الذي له صورة والذي بها

هو ما هو . وبالصورة تثبت حقيقته وماهيته . فكذلك نسبة الإله للعالم : وبهذه الجهة قيل فيه إنه الصورة الأخيرة وإنه صورة الصور . أي أنه سبب وجود كل صورة في العالم وقوامها مستند أخيراً إليه وبه قوامها » .

وهو يقول بحدوث العالم ولكنه يرى أن إثبات الحدوث بالبرهان عسير « وغاية قدرة المحقق عندي من المتشرعين أن يبطل أدلة الفلاسفة على القدم . وما أجل هذا إذا قُدر عليه » .

وعلى هذا الاعتبار يقول : « أما أنا فأقول إن العالم لا يخلو من أن يكون قديماً أو محدثاً . فإن كان محدثاً فله محدث بلا شك ... وإن كان العالم قديماً فيلزم ضرورةً أن ثم موجوداً غير أجسام العالم كلها ليس هو جسماً ولا قوة في جسم وهو واحد دائم سرمدي لا علة له ولا يمكن تغيره فهو الإله...».

أما الملائكة فهو يرى أنهم موجودون بدليل النص ، وأن وجودهم لا يمنعه العقل لأنه يسلم وجود العقول المفارقة أي العقول المجردة عن الأجسام .

وجائز أن يوجد الله شيئاً من لا شيء ...وإنا كما جهلنا حكمته التي أوجبت أن تكون الأفلاك تسعة لا أكثر ولا أقل ، وعدد الكواكب ما هي عليه لا أكثر ولا أقل ولا أكبر ولا أصغر ، كذلك نجهل حكمته في كونه أوجد الكل بعد أن لم يكن ...

* * *

وقد سبق ابن ميمون في الأندلس فيلسوفٌ يهودي بحث في الحكمة الإلهية وقال بضرورة الوساطة بين الله والعالم وأسند هذه الوساطة إلى المشيئة الإلهية ، ولكنه لم يتوسع كما توسع ابن ميمون في تأويل النصوص والتوفيق بين الفلسفة واللاهوت ، وأهم مساهمة له في الفلسفة عامة هي قوله بامتناع التناقض بين الروح والمادة ، لوحدة العلة والمعلول في الطبيعة .. وإلا انتفى تأثير العقل في الجسد أو تأثير الروح في المادة .

هذا الفيلسوف هو سليمان بن جبيرول الذي ولد في مالقة سنة ١٠٢٠

وألف كتاب ينبوع الحياة ، وربما كان له أثر في توجيه سبينوزا أكبر فلاسفة اليهود ومن أكبر فلاسفة الغرب على العموم .

* * *

ولا تزال المحافظة على أقدم النصوص الإسرائيلية شغلاً شاغلاً للمفكرين من اليهود حتى في هذه الأيام ... ففي سنة ١٩٣٧ ظهر لمردخاي كبلان كتاب بالإنجليزية عنوانه « معنى الله في الديانة اليهودية الحديثة » يفسر فيه نصوص الأسفار الإسرائيلية ويستمسك بكل نص من تلك النصوص مع تفسير جديد يلائم الحياة العصرية . ومن ذاك عهد الله لبني إسرائيل ليجعلنهم شعبه المختار بين الشعوب . فهو يقول إن هذا العهد لا يناقض وحدة الإنسانية ولا وحدة الحضارة الإنسانية . بل يؤيد هذه الوحدة ويؤكدها . لأن العهد يبشر بإنجازه بين الله وإسرائيل يوم تستقر مملكة الله على لأرض ويبطل فيها البغي والعدوان ويتفق بنو الإنسان جميعاً على عبادة الله بالحق والإخلاص. ولكن الله لم يخلق الإنسانية آحاداً بل خلقها شعوباً وجماعات ووكل سعيها في سبيل الوحدة إلى جهود هذه الشعوب والجماعات : كل منها بما هو أهله وكل منها بما هو مقيض له ومعهود إليه .

والمحافظة هي المسحة الغالبة على التفسيرات العصرية للعقائد الإسرائيلية الأولى ، ولا استثناء في ذلك لما يكتبه الأدباء الطلقاء من قيود الكهانة الدينية كالقصاص المعروف شولم آش Sholem Asch وبعض الشعراء والكتاب المحدثين . فيقول شولم في كتابه « ما أعتقد » :

« إن جميع الديانات غير ديانة التوحيد كما أدركها إبراهيم يصح أن تشبه بآبار ملأها الإنسان بيديه . وإنما تجد الروح الخالقة في الإنسان تعبيرها الصحيح في الصور المجسمة . وقد يتلقى الإنسان الوحي من المعاني المجردة ولكنه لا يصنع ولا يعمل إلا بالتجسيم . وكل ما ادخرته روح الإنسان في المجسمات فذاك الذي أسميه بالدين .

« خلق الله الإنسان على صورته . وعاد الإنسان فخلق الله على صورته وتمثله في طبيعته . ودرج من أقدم الأزمان على أن يزدلف إلى الله بأن يصفه بما

هو أجمل الصفات وأفضلها في نظره ... وكل جيل من أجيال البشر يرفع إلى الله خلاصة ثمرات عصره ... وكل جيل من أجيال البشر قد صور الله على الصورة المثلى التي يستمدها من خلائقه ومزاياه . ومن هنـــا أصبحت الربوبية أوجاً تلتقي فيه أفضل الفضائل التي تتخيلها الشعوب » .

فلا ضير على هذا أن يظل التجسيم ملازماً للديانة كما يراها شولم آش . ولكنه يفرق بين الديانة والعقيدة. لأن الديانة تتكون في باطن الإنسان فلا تعلو عليه. أما العقيدة فهي ثقة يتلقاها من فوقه ومن أمامه ولا يتمثلها في مثال .

* * *

وعلى الجملة يلاحظ أن الديانة اليهودية على قدمها هي أقل الديانات الكتابية تأثراً بشروح الفلسفة وعوارض التجديد الأخرى . ويرجع ذلك إلى أسباب عدة : منها أن اليهودية عند نشأتها لم تنهض لها ضرورة قاضية بالتعجيل في التفسير والتأويل . لأن اليهودية نفسها كانت بمثابة فلسفة تجريدية بالقياس إلى العقائد الوثنية والأديان المجسمة التي نشأت بينها ، وكان أنبياء اليهود يتلاحقون واحداً بعد واحد فيشغل النبي الأمة بأقواله عن أقوال الذين سبقوه إلى استنزال الوحي من الله . وينبغي أن نذكر في هذا الصدد أن الدينين الكتابيين العظيمين اللذين ظهرا بعد اليهودية إنما كانا تعديلين في نصوص الدين اليهودي ومعانيه . فهما خليقان أن يشغلا كل فراغ كان متسعاً لتفسير النصوص ومحاولة التوفيق بين المنقول والمعقول .

وقد تلاحقت الهجرة والتشتيت على الأمة اليهودية منذ أيامها الأولى وأصابتها المحن من ذوي قرباها ، ونزل بها الحيف من الدول القوية المسلطة عليها . فاشتدت في نفوسها العصبية القومية . ونفرت كل النفور من البدع الأجنبية ، وتحصنت دونها بحصن منيع من العزلة الروحية والفكرية ، فأحجمت عن الفلسفة التي تطرقت إليها من جانب الإغريق وجانب المشارقة الفارسيين والهنديين ، ولم تكن هذه الفلسفة على هذا قد تكاملت في بلاد الإغريق أو تفرقت منها بين الأقطار الشرقية . لأنهـــا لبثت في دور التكوين والتكامل والتعليق إلى ما بعد ميلاد المسيح .

«٢» المسيحيّة بعد الفلسفة

أما المسيحية فقد تأخر تدوين كتبها وكان معظمها مسطوراً باللغة الإغريقية، فلا يطلع عليها سواد المسيحيين . وقد كانت جمهرة المسيحيين في أوائل الأمر من عامة الناس الذين يقنعون بالإيمان اليسير ولا يتعمقون في النصوص ولا في التأويلات . فلما آمن المتعلمون بالدين الجديد كان اختلافهم مقصوراً على بيئات الدرس والثقافة ... إلى أن قام في العالم المسيحي ملوك يجلسون على العروش فخرج الخلاف المدرسي إلى معترك السياسة الزبون ، ونجمت الفرق والمذاهب ، وهي في أحضان الدولة تعتمد على بأس الملوك والأمراء من أحد الطرفين أو من كلا الطرفين أو من جميع الأطراف في بعض الأحوال .

ومع هذا كتب إنجيل يوحنا في أواخر القرن الأول للميلاد وفي صدره هذا التمهيد الذي يعتبره بعض الشراح توطئة للكتاب ويعتبره بعضهم الآخر جملة أصيلة في الكتاب . وهو : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . هذا كان في البدء عند الله . كل شيء به كان . فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس ، والنور يضيء في الظلمة ، والظلمة لم تدركه » .

وكتب بولس الرسول رسائله بعد ذلك . وهي شاهد على امتزاج الأمثلة الدينية بصور الفلسفة ولا سيما فلسفة الحلول ، وكان يقول إن المسيح جالس على يمين الله ، ويدعو لمن يطلب لهم الخير « أن تسكن فيهم كلمته » ويسأل لهم الغفران منه ويبشرهم بأنهم سيبلغون المجد متى عاد إلى الأرض . ويبدو من جملة كلامه أنه كان ينتظر معاده في زمن قريب ، وكثيراً ما أشار إليه

صلوات الله عليه « باسم ربنا يسوع المسيح » وسمى نفسه باسم « رسول يسوع المسيح بحسب أمر الله مخلصنا وربنا يسوع المسيح » .

وكانت تعبيرات بولس الرسول وتعبيرات إنجيل يوحنا معاً هي مثار البحث بين جماعة التفسير وجماعة النصوص حين بدأ الخلاف بينهم في أواخر القرن الثاني للميلاد .

وأقوى هؤلاء المفسرين وأبعدهم أثراً في تطور المسيحية الأولى هو أوريجين Origen ابن الشهيد ليونيداس الذي ولد بالإسكندرية سنة ١٨٥ للميلاد وتعلم على الفيلسوف آمون ساكاس – معلم أفلوطين – إمام الأفلاطونية الحديثة المشهورة .

وكان أوريجين من الغلاة في النسك والعبادة . ولكنه تعلم الفلسفة وأدرك البدائه العقلية فاضطره فرط الإيمان إلى التوفيق بينها وبين نصوص الكتب الدينية ولا سيما النصوص التي تشير إلى بنوة السيد المسيح ودلالة الثالوث والتوحيد . فقال إن البنوة كناية عن القربى ، وفهم معنى الكلمة التي كانت في البدء فهم الرجل الذي اطلع على مذهب هيرقليطس ومذهب أفلاطون . لأن الأول يقول إن الدنيا تتغير أبداً فليس لها وجود حقيقي وراء هذه الظواهر غير وجود الكلمة المجردة أو العقل المجرد الذي لا ينقطع عن تدبيرها ، ولأن أفلاطون يقول بسبق الصور المعقولة على الأجسام المحسوسة ، فجاء أوريجين بعدهما ليقول إن السيد المسيح هو مظهر العقل الخالد تجسم بالناسوت ، وإن ظهوره في الدنيا حادث طبيعي من الحوادث التي يتجلى بها الإله في خلقه . واجتهد في تأويل النصوص فجعل للكتب الدينية تفسيرين أحدهما صوفي للخاصة والآخر حرفي لسائر الناس . وبشر بخلاص خلق الله جميعاً في نهاية الأمر حتى الشياطين . ولم يكن ينكر الشياطين أو ينكر قدرة السحرة على تسخيرها ، ولكنه – من عجب التناقض في الطبع الإنساني – كان يرى وهو منكر الحروف وداعية التفسير والتأويل أن الأسماء العبرية دون غيرها هي الأسماء التي تجدي في الاستدعاء والتسخير ! وينسى أنه جعل هنا للأسماء والحروف سلطاناً على الكون يقصر عنه سلطان المعاني والمسميات .

وخلف أوريجين تلميذان قويان : هما آريوس في الإسكندرية ونسطور في سورية ، فمضيا في التأويل والتوفيق بين النصوص والمعاني ولكنهما اختلفا بينهما أشد اختلاف يخلقه اللدد والشحناء ، وتراميا كما ترامى أتباعهما زمناً بتهمة الكفر والجحود ، لأن آريوس كان يقول بأن المسيح إنسان حادث ، ونسطور كان يؤمن بالطبيعة الإلهية في المسيح ويأبى التسوية بينه وبين الله في الدرجة والقدم . ودخلت السياسة في هذا الخلاف فدفعت به إلى أقصى مداه .

هذه كلها كما رأينا مذاهب في الدين تصطبغ بالصبغة الفكرية ويمتزج فيها الإيمان بالتفكير . أما مذاهب الفلسفة المسيحية فلم تظهر في العالم المسيحي قبل انقضاء عدة قرون ، وتأخر ظهورها — إذا استثنينا فلسفة القديس أغسطين — إلى ما بعد ظهور الفلسفة الإسلامية في أوربا الغربية .

على أن القرون الخمسة الأولى بعد المسيح لم تخل قط من خلاف محتدم بين المجامع والكنائس على تفسير المقصود من كلمات الأب والابن والروح القدس والكلمة وغيرها من الأوصاف الإلهية التي وردت في الأناجيل . فاتفقوا جميعاً على الوحدانية ولكنهم اختلفوا في أقانيم الثالوث : هل الابن مساو للأب ؟ وهل هو ذو طبيعة واحدة أو ذو طبيعتين إلهية وإنسانية ؟! وهل هو إله أو إنسان مفضل على سائر البشر ؟ وهل يصدر الروح القدس من الأب وحده أو من الأب والابن معاً ؟ وهل المسيح هو الكلمة أو هو الابن فقط أو أن الكلمة والابن مترادفان ؟ أو أن الكلمة هي الأب والإله ؟

وليس من موضوعنا هنا أن نبسط أوجه الخلاف وأسانيد المختلفين وقد كتبت فيها مئات المجلدات . ولكننا نلخص الرأي الغالب في تفسير الأقانيم : وهو أن الأقانيم جوهر واحد ، وأن الكلمة والأب وجود واحد ، وأنك حين تقول الأب لا تدل على ذات منفصلة عن الابن أو عن الروح القدس ؛ لأنه لا انفصال ولا تركيب في الذات الإلهية ، ولكنها تتجلى بالأبوة في معرض الإنعام وبالبنوة في معرض التلقي والقبول ... ويوشك أن يكون الشأن في تعدد الأقانيم كالشأن في تعدد الصفات عند بعض المفسرين .

وقد استقر الرأي على ذلك مع خلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية في موضوع الروح القدس وعلاقته بالأب والابن . فإن الكنيسة الشرقية تقول إنه يصدر من الأب وحده والكنيسة الغربية تقول إنه يصدر من الأب والابن على السواء .

ولم تفصل المجامع – كمجمع نيقية ومجمع أفسس ومجمع خلقدونية – كل الفصل في موضوع هذه التفسيرات ... فإن دعاة الإصلاح قد أعادوا البحث فيها خلال القرن السادس عشر فوقف الأكثرون منهم عند التعبيرات القديمة وخالفهم سوسينس Socinus في مسألة الطبيعة الإلهية ... فنفى عن المسيح كل إلهية وتفرع على مذهبه مذهب الموحدين Unitarians الذي نشأ في بولونية وقرر أن الإله لا يحل في البشر وأن السيد المسيح إنسان كسائر الناس .

ومما لا خفاء به أن آباء الكنيسة الأولين ما كانوا لينظروا إلى مسألة الثالوث كأنها مشكلة تتطلب الحل لو لم يكن عصرهم كله عصر فلسفة وعصر اتجاه إلى التوحيد ... لأن هذه المسألة بعينها لو عرضت للمتدينين قبل المسيح ببضعة قرون لقبلوا حرفها على ظاهره في جميع نصوصه ، ولم يجدوا في معاني الثالوث بالنسبة إلى الآلهة حاجة إلى التأويل .

على أن الفكرة الإلهية – بمعزل عن مسألة الثالوث – قد لقيت من آباء الكنيسة المفكرين أوفى نصيب من الدراسة الفلسفية التي تتلمذوا فيها على حكماء اليونان أو على حكماء المسلمين ، وكان للفيلسوف الإسرائيلي فيلون أثر في توجيه هذه الدراسة غير قليل .

فالقديس أوغسطين – الذي ولد في منتصف القرن الرابع – كان أسبق هؤلاء المفكرين اللاهوتيين إلى البحث عن حقيقة الله وحقيقة النفس وحقيقة العبادة . قرأ شيشرون وأفلاطون وبعض المذاهب اليونانية ، ودان في شبابه بالمانوية فلم يعجبه منها تسليمها بقوة الشر ... ونفر منها إلى القول بأن الله لا يصنع الشر لأن الشر ليس بشيء يصنع ولكنه هو بطلان الخير ، واحتكم إلى العقل في فهم المسائل الدينية ولكنه قرر أن العقل وحده لا يهدي إلى الله . وأنه لا بد من الإيمان ولا بد للمؤمن من تصديق ما لا يراه . فالعقل يعلمنا

أن الأجسام المتغيرة لا تخلق نفسها وأن العقل لا يخلق حقائقها بل قصاراه أن يفهمها . ولكن هذه الحقائق لها عقل خالق هو عقل الله . وهو جوهر مجرد لا تركيب فيه ولا تعديد . وإنما صفاته هي ذاته لا فرق فيها بين صفة وصفة على الإطلاق . فالقادر على كل شيء هو العالم بكل شيء .والقدرة المطلقة هي العلم المطلق . ومحل الإيمان ــ بعد محل العقل في الاهتداء إلى الله ــ هو تكملة العجز الذي يعتري العقل إذ يحاول أن يتصور ما لا قبل له بتصوره من عظمة الله وحكمته في خلقه . فليس للعقل من مخرج من هذه المآزق غير التسليم .

ولا يتردد أغسطين في الجزم بأن العالم مخلوق وأنه لم يوجد هكذا من أزل الآزال ... فلا تناقض بين قدم الإرادة الإلهية وحدوث المخلوقات . ولا يفهم خلق الله للعالم في ستة أيام على ظاهره بل على معناه . لأن اليوم من أيام الخلق غير اليوم الذي نحسبه من تقلب الليل والنهار . فلم يكن ليل ولا نهار قبل خلق الكواكب ، وهي كما جاء في سفر التكوين قد خلقت في اليوم الرابع . فلا مناص من تقدير تلك الأيام بغير المقدار الذي نجريه في حساب الأفلاك ، ولا محل للاعتراض على خلق العالم في هذا الزمان دون ذاك ... لأن الزمان لم يكن قبل العالم حتى يقال إنه خلق فيه فإذا خلق من العدم فليس هناك مفاضلة بين زمانين ولا موجب للسؤال عن تفضيل زمان على زمان .

ولا اعتراض بوجود الشر على وجود الله في مذهب أغسطين كما تقدم . لأن الشر ليس بموجود فيخلق وينسب خلقه إلى الله . ولكنه هو عدم الخير ولا بد من عدم بعض الخير في المخلوق المحدود. لأن المحدود لا يمكن عقلاً أن يكون خيراً محضاً أو يكون هو كل الخير . ولكن الله يتدارك هذا النقص بحكمته ويمنح الإنسان إرادة تعينه على الاختيار وشوقاً إلى الكمال يهديه إلى حسن الاختيار . ولا يفوت أغسطين أن القول بهذا يستلزم القول بحرية الإنسان . فهو في اعتقاده حر الإرادة ولولا ذلك لبطل التكليف .

وقد عرض القديس أغسطين لمسألة الثالوث فقال : « إن للأب والابن وروح القدس جوهراً واحداً ليس الآب فيه شيئاً والابن شيئاً آخر وروح

القدس شيئاً غيره. وإن كان الأب ذاتاً والابن ذاتاً وروح القدس ذاتاً كذلك» ومثّل هذا الاتحاد باتحاد نور النار ولهيبها ، وهما جوهر واحد .

ويعتبر القديس أغسطين أوفى آباء الكنيسة الاسبقين بحثاً في معضلات الفكر من وجهتي النظر الدينية والعقلية . ولكنه كان ينتهي منها أحياناً إلى حلول يراها فصل الخطاب ، وهي في رأي غيره مثار بحث لا تقف العقول لديه .

ثم أخرجت الكنيسة بعده بأجيال مفكراً يعتبر تلميذه في كثير من تحقيقاته ويعتبر في طليعة المفكرين الإلهيين في العالم كله . لأنه – على استقلال فكره – قد وعى حكمة اليونان وحكمة المسلمين وحكمة الآباء الأسبقين ، ونظر فيها جميعاً نظر المتصرف في الفهم والانتقاد ، وهو القديس توما الأكويني المولود في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد .

وهو يعتمد على أرسطو كثيراً كما يعتمد على ابن سينا في الفكرة الإلهية ، ويقول إن حدوث العالم مسألة يفصل فيها الوحي ولا يتأتى إثباتها بالبرهان ، ويصف الله بجميع صفات الكمال ومنها العلم بكل شيء من الكليات والجزئيات ، مخالفاً بذلك أرسطو الذي يقول إن الله يعقل ذاته وحدها لأنها أشرف المعقولات . ودليل القديس توما على ذلك « أن الله يعلم ضرورة ما هو خلاف ذاته . لأنه يعقل ذاته عقلاً تاماً كما هو جلي ظاهر ، وإلا كان وجوده ناقصاً لأن وجوده هو عقله . ومتى كان الشيء معروفاً معرفة تامة لزم من ذلك أن تكون قدرته أيضاً معروفة معرفة تامة . ولكن هذه القدرة لا تعرف تماماً إلا بمعرفة المدى الذي تمتد إليه . ومتى كانت قدرة الله تمتد إلى الأشياء بمقتضى أنها هي علتها الأولى فمن اللازم أن يعلم الله جميع الأشياء ... »

ويقول القديس توما كما قال بعض فلاسفة الشرق من قبله إن صفات الله السلبية أيسر فهماً من صفات الله الثبوتية . فالله غير مركب وغير متعدد وغير فان وغير ناقص ، ويلزم من ذلك أنه كامل كل الكمال ، وأن صفات العلم والخير والجمال هي من معاني هذا الكمال ولا تدل على التعدد والتركيب .

وقد عرض القديس توما لمسألة الثالوث فلم يخرج فيها عن مقررات الكنيسة ، ولكنه رأى أن الصدور بالنسبة إلى الأقانيم لا يمكن تمثيله إلا بالصدورات العقلية لأنها أقرب الموجودات إلى الصفات الإلهية . فالروح القدس تصدر من الأب مثلاً كصدور المعقول من العقل دون أن يقتضي ذلك فصلاً أو تفرقة بين الصادر ومصدره ، أو كصدور الكلمة من الإنسان وهي بصدورها لا تفارقه ولا تنفصل عنه .

وقد بلغ القديس توما الذروة في موضوعات الفلسفة المسيحية فلا حاجة إلى سرد الآراء الأخرى التي أثرت عن بعض الآباء ، وهي لا تزيد شيئاً على فحواه .

إلا أن الكلام على الفكرة الإلهية في المسيحية لا يتم بغير الإشارة إلى عقيدة الخطيئة وعقيدة التكفير .

فالأديان القديمة قد عرفت الخطيئة من عهود الإنسانية الأولى، لأنها عرفت المحرم Taboo وهو المحظور في العلاقات الجنسية أو في بعض المأكولات .

وقد عرف التكفير بعد ارتقاء الأديان . فقال الهنود والأورفيون وأتباع فيثاغورس بتناسخ الأرواح للتكفير والتطهير . وقال اليهود بالتكفير عن خطايا الشعب فسموه الخلاص ... وهم يقصدون به خلاص الشعب من ربقة البابليين أو المصريين .

ولكن المسيحية جعلت للخطيئة معنى آخر وسمتها الخطيئة الأصلية ، وهي مخالفة آدم أمر ربه بالأكل من الشجرة المنهي عنها وجعلت آلام السيد المسيح كفارة عن الجنس البشري كله لوقوع آدم في تلك الخطيئة . وازداد القول بذلك تواتراً بعد عهد الإصلاح .

«٣» الإسلام بعد الفلسفة

وكان الاستعداد لظهور الفرق والمذاهب في الإسلام على غير ما رأينا في اليهودية والمسيحية من جميع الوجوه . إذ كانت الأسباب مهيأة لظهورها منذ الجيل الأول ... سواء من جانب الفلسفة أو من جانب المشكلات اللاهوتية التي شغلت عقول الباحثين بين اليهود والمسيحيين .

كان الإسلام خلواً من الكهانة التي تستأثر بالدرس والتأويل ، وكان القرآن صريحاً في الأمر المتكرر بالنظر والتفكير ، وكان القرآن كتاباً محفوظاً في حياة النبي عليه السلام ، فلم يطل العهد بالمسلمين في انتظار التدوين والاتفاق على نصوص الكتاب ، وكان المسلمون يؤمنون بأن محمداً عليه السلام خاتم النبيين . فلا ينتظرون نبيّاً آخر يتمم الرسالة أو يغنيهم عن الاجتهاد في معاني الكتاب أو معاني الأحاديث النبوية .

ولم يجهر محمد عليه السلام بالدعوة الإسلامية حتى كانت مشكلات المذاهب المتقدمة قد ملأت آفاق الشرق العربي وانعقدت عليها الأقوال من طوائف المختلفين هنا وهناك ،وتسرب الكثير منها لى الجزيرة العربية قبل الدعوة الإسلامية سواء منها أقوال الفلاسفة وأقوال رجال الدين من جميع النحل والأجناس . وكان بعض المسلمين يسمعون بالتوراة ولم يطلعوا عليها ، ولكنهم سمعوا أنها أنبأت بظهور النبي وبغير ذلك من أحداث آخر الزمان ، وأن الأحبار يخفون هذه النبوءات إمعاناً منهم في الكفر والضلالة وحب الرئاسة في الدنيا ، وقال لهم كعب الأحبار : « ما من الأرض شبر إلا مكتوب في التوراة التي أنزل الله على موسى ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة » .

وفهم المسلمون أن هذه الأسرار لا يعقل أن تودع في التوراة ولا تودع في القرآن ، لأن الله لم يفرط في الكتاب من شيء ، وإنما تبذل هذه الأسرار لأهلها ، وإنما سبيلهم في معرفتها أن يتوسلوا بالتقوى ويستعينوا بمن سبقهم من أخبار الأمم الأولى ، ويستدرجوهم بالمحاسنة والنصيحة إلى الكشف عنها . فلم يكن لطلاب المعرفة بدٌّ من الدخول في معترك الفرق الدينية بين من يزعم أنه على الحق ومن يقال إنه على الضلال .

ولما انتشر الإسلام كان انتشاره في الرقعة التي جمعت كل هذه الفرق والمذاهب وشهدت بينها مجالس المناظرة ومصارع النزاع والقتال ، وكانت الفلسفة الإغريقية قد بلغت أوجها في آسيا الغربية ومدرسة الإسكندرية ، وترددت أقاويلها ومناقضاتها ما بين مصر وسورية والعراق وأطراف البلاد الفارسية ؛ حيث يتصدى للتعليم أطباء النساطرة ومعهم كتب الإغريق في الحكمة والتصوف والمنطق والجدل وأشباه هذه الموضوعات ، فلم يبق سبب من الأسباب التي تنشىء الفرق والمذاهب إلا وقد تهيأ للظهور من جميع نواحيه عند قيام الإسلام .

على أن السبب الذي طوى هذه الأسباب جميعاً هو قيام الدولة مع قيام الدين الإسلامي في وقت واحد ، وهو ما لم يحدث في بني إسرائيل ولا في عالم المسيحية ، وعليه تدور الخلافات بين الفرق جميعاً من قريب أو بعيد .

فالنزاع على الدولة بين علي ومعاوية مرتبط بنشوء الخوارج ونشوء الشيعة ، ومرتبط كذلك بنشوء القدرية والمرجئة . والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح ، ومذهب أهل الحقيقة ومذهب أهل الشريعة ، وما استتبعه من فرق الباطنية وأصحاب الرموز والأسرار ، على تفاوت نصيبهم من الحكمة الدينية والحكمة الفلسفية .

ويستطاع رد الخلاف هنا إلى محور واحد : وهو الخلاف بين أنصار الواقع وأنصار التغيير . أو بين أنصار المحافظة وأنصار التجديد حيث كان .

روي عن يزيد بن معاوية وقد حُمل إليه رأس الحسين أنه سأل من حوله

وهو يشير إلى الرأس الشريف : « أتدرون من أين أُتي هذا ؟ إنه قال : أبي عليٌّ خير من أبيه ، وأمي فاطمة خير من أمه ، وجدي رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر . فأما أبوه فقد تحاجّ أبي وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي ، وأما جده فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا نداً . ولكنه أُتي من قبل فقهه ولم يقرأ : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » .

فمن خدمه الواقع هذه الخدمة الجلى لا جرم يؤمن بأن الواقع هو قدر الله وقضاؤه الذي يدان به العباد ، ومن خالفه في ذلك لا جرم يعتصم بالرأي والتفسير ليفهم القدر الإلهي على الوجه الذي ينهض به دليله ويسقط به دليل خصمه .

ومن ثمّ تنفرج الطريق بين طلاب الواقع وطلاب التغيير في كل مجال .

فطلاب الواقع يقولون بطاعة السلطان القائم ، وطلاب التغيير يقولون بطاعة الإمام المستتر ، ويقولون بعلم الظاهر وعلم الباطن ، أو بعلم الحقيقة وعلم الشريعة ، أو بالفرق بين الكلام الواضح الذي يفهمه الدهماء والكلام الخفي الذي يفطن له ذوو البصر والاطلاع .

يروى عن الإمام الباقر أنه قال : « إن اسم الله الأعظم ثلاثة وسبعون حرفاً ، يعرف منها سليمان حرفاً واحداً تكلم به فأتى إليه بعرش مملكة ، ونحن عندنا منها اثنان وسبعون حرفاً ، وحرف عند الله استأثر به في عالم الغيب وحده » .

ويدور على هذا المحور في جانب آخر خلاف القائلين بإسلام بني أمية والقائلين بتكفيرهم والقائلين بإرجاء الحكم عليهم إلى يوم القيامة ، وهم أصحاب الفرقة التي اشتهرت باسم المرجئة من أوائل فرق الإسلام .

ويغلو من هنا فريق كالخوارج فيكفرون علياً ومن والاه ، ومن هنا فريق كالسبئية فيؤلهون علياً وينكرون القول بموته ، وإنما شبه للناس فقتل

ابن ملجم شيطاناً تصور بصورته وصعد عليّ إلى السحاب ... فالرعد صوته ، والبرق سوطه ، وموعده يومٌ يرجع فيه إلى الأرض فيملؤها عدلاً ويقضي على الظالمين . أو يقولون كما قال البنانية أتباع بنان بن سمعان : إن روح الله حلت في عليّ ثم في ابنه محمد بن الحنفية ثم في ابنه أبي هاشم ثم في بنان ، أو يقولون بتناسخ الأرواح من آدم إلى علي وأولاده الثلاثة ، أو يقولون كما قالت الزرامية إن الله قد حل في إمام بعد إمام إلى أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية ، وإنه لم يقتل ولا يجوز عليه الموت وفيه روح الله .

ويكثر الكلام بين هذه الفروض والظنون على ماهية الروح وماهية الحقيقة الإلهية وما ينبغي لله جل وعلا من التنزيه وما يمتنع في حقه من التجسيم والتشبيه ، وتمتزج النوازع الذهنية بنوازع المصلحة والسياسة والعواطف المكبوتة ، فيستمد كل منها عونه من الآخر على الإقناع واستجلاب الأنصار والأشياع .

ومن البديه أن دعاة التغيير يتقون جهدهم سلطان الواقع حيث هو قائم عزيز الجانب مبثوث العيون ، فابتعدوا من دمشق الشام واتخذوا لهم ملاذاً مأموناً عند أطراف الدولة الشرقية فيما وراء النهر خاصة ، كما كانت تسمى في تلك الأيام

* * *

وأهم ما يتصل بالفكرة الإلهية من هذه البحوث هو البحث في القضاء والقدر والبحث في ذات الله وصفاته .

فالله عادل حكيم ، وهو خالق كل حي وكل موجود ، وهو يأمر وينهى ويعاقب على الطاعة والعصيان .

فكيف يكون التكليف ؟ وكيف يكون الثواب والعقاب ؟

إن الإنسان مخلوق مسخر لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فكيف يحاسب على ما قضاه الله عليه ؟

هل هو حر مريد قادر على الخروج من مشيئة القدر إن أراد ؟ فكيف يكون

حراً مريداً من هو مخلوق بأفعاله وبإرادته وبكل ما يحيك بنفسه ويوسوس في ضميره ؟

وإذا كان مقيداً مكرهاً على فعله ونيته فكيف نفهم ما جاء في القرآن الكريم من الآيات التي تسند إليه الفعل وتنذره بالعقاب : « اليوم تجزى كل نفس ما كسبت » ... « اليوم تجزون بما كنتم تعملون » ... « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى » . . « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ... « فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » ... « سيقول الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا » ... « بل سولت لكم أنفسكم » ... « وما ربك بظلام للعبيد ».

وتساءل المختلفون في هذا الأمر : هل يخلق الله الكفر ؟ بل كان منهم من يسأل : هل يخلق الله الكافر ، وكيف خلقه والله « أحسن كل شيء خلقه » وهو القائل : « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق » فهل الكفر حسن؟ وهل الكفر حق ؟

واختلفوا في الجواب كما اختلف جميع الباحثين في مسألة القضاء والقدر من جميع النحل الدينية والمذاهب الفلسفية .

فالمعتزلة يقولون إن الإنسان حرّ مريد وإلا سقط عنه التكليف ، ويقولون إن الله لم يكره الناس على الذنب ولكنه علم ما يكون من ذنبهم وعلم أنهم يسيئون الاختيار فرتب العقاب على هذا العلم : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين »

والأشعرية يقولون إن المخلوقات تريد كما تريد المخلوقات ، ولكن الله يخلقها ويخلق أفعالها ، وعلينا أن نؤمن بعدله وإن غابت عنا حكمته ، لأن الوحي والعقل كليهما يمنعان نسبة الظلم لى الله . فهو عادل عد لاً شاملاً لا تحيط به عقول البشر ، ولا ينتهون من البحث فيه إلى غير التسليم .

والمتشددون في التزام النصوص ينفرون من التعليل والتأويل ويقولون إن الله يفعل ما يريد بالعباد ، وإنه لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون .

قال الفخر الرازي في رده على من يقولون : لو أراد الله كفر الكافر لكان الكافر مطيعاً بكفره : « إن الطاعة موافقة الأمر لا موافقة الإرادة ، وإن الكفر ليس نفس القضاء بل متعلق القضاء »

* * *

وتعد مسألة القضاء والقدر — أو مسألة العدل الإلهي — تابعة في الواقع لمسألة الصفات في جملتها ،ولكنها سبقتها لأن مسألة القضاء والقدر من المسائل الدينية البحت التي تعرض للمؤمن بمعزل عن الفلسفة ولا تعرض للفيلسوف إلا إذا اعتقد الحساب والعقاب في عالم آخر كما يعتقدهما أصحاب الأديان .

أما الصفات الإلهية فليس في تعددها ما يناقض عقيدة المؤمن بعظمة الله وتفرده بالكمال . ولكنه يفتح باب البحث فيها متى عرف — من الفلسفة — أن الله هو المحرك الذي لا يتحرك ، وهو العلة الأولى للوجود ، وهو العقل المحض أو الصورة المنزهة عن الهيولى وما يجري عليها من قوانين التركيب والانحلال . فيخطر له التساؤل عن كنه الوجود وكنه الذات وما قد تدل عليه الصفات من التوحد أو التعدد ، ومن البساطة أو التركيب .

وقد وصف « الإله » جل وعلا في الإسلام بالصفات التي تعرف بالأسماء الحسنى ، ومنها : الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، الغفار ، القهار ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل، الخبير ، الصمد، القادر ، الظاهر ، الباطن ، الرزاق ، النافع ، الضار ، المتكلم ، الحسيب — وهي تدل على أفعال واقعة متجددة لا تقف عند الحركة الأولى ولا عند العلة الأولى كما يقول أرسطو وأتباعه . فحاول العلماء أن يوفقوا بين ما ينبغي لله في الدين وما ينبغي لله في المنطق والفلسفة ، وتساءلوا : هل هذه الصفات متعددة أو هي أسماء مختلفة لحقيقة واحدة ؟ وإذا كانت متعددة فهل في تعددها تركيب يمتنع في حق الله المنزه عن التركيب ، أو هو تعدد لا يستلزم التركيب ؟ وإذا كانت مفردة فهل يعلم الله بقادريته ويقدر بعلمه ؟ وهل هـذه الصفات جميعها هي عين الذات أو هي زائدة على الذات ؟ وكيف تكون زائدة على الذات والله « أحد » لا زيادة على ذاته ؟

واشتد الجدل في هذه المسألة حين ظهرت بدعة القول بخلق القرآن . فقال أناس بأن لفظ القرآن حديث ومعناه قديم ، وقال غيرهم إن كلام الله قديم بلفظه ومعناه . واحتج الأولون سائلين : كيف يقول الله في الأزل : « إنا أرسلنا نوحاً » ونوح لم يرسل بعد ؟ وكيف يكون له لفظ واللفظ صوت في الهواء من مخارج الأعضاء ؟

وعادوا إلى مسألة العلم والإرادة فقال أنصار أرسطو : إن العلم بالجزئيات يقتضي التغير ولا تغير في ذات الله ، وإن الإرادة تقتضي الطلب والاختيار ، والله لا يطلب ... ولا شيء بالنسبة إليه أفضل من شيء ، فيقع الاختيار بين الشيئين .

وتبلغ الفرق الإسلامية التي خاضت في هذه البحوث عشرات معروفة بأسماء أصحابها أو بأسماء موضوعاتها . ولكننا نستطيع أن نجملها في ثلاث فرق جامعة وهي : أصحاب العقل ؛ وأصحاب النقل ؛ وأصحاب النقل مع اتخاذ الحجة والبرهان من المعقول .

فأصحاب العقل يقولون في مسألة الصفات إنها تدل كلها على صفة واحدة هي الكمال ، وإن كمال الله هو عين ذاته . لأن قولنا « الذات الكاملة » لا يقتضي ذاتاً وكمالاً بل يدل على معنى واحد . وإن ماهية الله هي عين وجوده إذ لم يكن له مشارك في الماهية . ويتلخص مذهبهم في أن طريق السلب أقرب من طريق الإيجاب في فهم صفات الله . فأنت لا تجد صعوبة في الفهم حين تقول إن الله غير جاهل ، وإنه غير عاجز ، وإنه غير متعدد ، وإنه غير مركب وإنه غير ظالم . ولكنك تجد الصعوبة حين تتفهم كنه العلم وكنه القدرة وكنه الوحدانية وغيرها من معاني الأسماء الحسنى . وأجمل ابن مسكويه ذلك في كتاب الفوز الأصغر فقال : « إن البراهين المستقيمة الموجبة يحتاج فيها إلى إثبات مقدمات موجبة للمبرهن عليه ذاتية له أولية ، وهي التي يوجد الشيء بوجودها ويرتفع بارتفاعها . والله تعالى أول الموجودات كما بيناه وبرهنا عليه وهو فاعلها ومبدعها . فإذن ليس له أول يوجد في المقدمات ... فلا يمكن إذن أن يبرهن عليه بطريق الإيجاب بالبرهان المستقيم . فأما برهان الخلف

على طريق السلب فإنما يحتاج فيه إلى ازالة الأسباب والمعاني عنه . كما نقول : إنه ليس بجسم ولا بمتحرك وليس بمحدث ولا بمتكثر ، كما قلنا إنه ليس يمكن أن يكون للعالم أسباب لا ترتقي إلى واحد . فقد تبين أن برهان السلب أليق الأشياء بالأمور الإلهية وأشبهها بأن تستعمل فيها » .

ويرى الفلاسفة المسلمون أنه لا تعارض بين كمال الله وعلمه بالجزئيات ، لأن علم الله لا يتوقف على الجزئيات ، بل الجزئيات هي التي تتوقف على علمه ، أو كما قال ابن سينا : إن الأشياء حصلت لأن الله قد علم بها ، وليس علم الله بها تابعاً لحصولها في حينها . وكذلك لا تعارض بين القول بخلق العالم وقدمه . لأن العالم لم يسبقه زمان وإنما سبقته ذات الله التي لا زمان لها ولا أول لوجودها . فقدم العالم معناه أن أوله كأول الزمان ، وليس معناه أنه مستغن عن الإيجاد .

وقال ابن سينا : « إنه ليس يجوز أن يكون واجب الوجود يعقل الأشياء من الأشياء ... لأنه من ذاته يبدأ كل وجود فيعقل من ذاته ما هو مبدأ له وهو مبدأ للموجودات التامة بأعيانها وللكائنة الفاسدة بأنواعها أولاً وبتوسط ذلك بأشخاصها ... »

وقال الغزالي في مناقشة ابن رشد إن تجريد الله من العلم بالجزئيات ومن التأثير في الموجودات ، ومن صفات العقل والإرادة — هو تنزيه يشبه العدم ، وإنه لا برهان على أن « الواحد » لا يعقل غير الواحد ولا يصدر عنه غير الواحد . فإن دعوى الفلاسفة في ذلك دعوى لا يثبتها العقل ولا يعتمدون فيها على المشاهدة . ومتى سلموا أن عقل الله أشرف العقول فأشرف العقول لا محالة يتنزه عن الجهل بما تعلمه العقول المخلوقة ، وإن اختلف علم الخالق عن علم المخلوق .

أما أصحاب النقل والوقوف عند الحروف فقد سخفوا في فهم الصفات سخفاً ينكره كل عقل سليم . فأثبتوا له أعضاء مجسمة وقالوا بتحيزه في المكان ، وأجازوا رؤيته بالعين كما نرى المحسوسات ، وبلغ بعضهم من

السخف أنه سئل : ألله يد ؟ فقال : نعم كيدي هذه ! وليس لهم شأن عند جمهرة المسلمين .

وقد توسط أصحاب النقل مع اتخاذ الحجة والبرهان من المعقول فقالوا إن الصفات متعددة وإن العلم غير القدرة والرحمة غير الجبروت ، وإن اليد هي القدرة ، والوجه هو الوجود ، وليست هي بأعضاء يجوز فيها التجسيم ، ولكن الصفات موجودة والكيفيات مجهولة . فهم يمسكون عن البحث في ذات الله لأنه جل وعلا بغير شبيه وليس كمثله شيء . واحتجوا لذلك بسببين : أحدهما أن الدين ينهى عن الخوض في ذلك لما ورد في التنزيل من قوله تعالى : « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله،والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا» ، والسبب الثاني أن التأويل أمر مظنون بالاتفاق والخوض في صفات الباري بالظن لا يجوز .

وقد أجاز هؤلاء رؤية الله بمعنى العلم الذي يحصل من النظر لا بمعنى الحس الذي يقع على المجسمات .

وإجماع المسلمين على أن هؤلاء هم أهل السنة ، وأن معرفتهم بالله هي أسلم المعرفة التي يطالب بها المؤمنون .

والواقع أن التسليم في المسائل الإلهية أمر يقتضيه العقل ولا يأباه . لأن القياس إنما يكون فيما يقاس عليه ، وما ليس له شبيه ولا مثيل لا يقاس عليه إلا كان القياس عرضة للخطأ والوهم والقصور ... ونحن نعيش في الزمان الذي له ماض وحاضر وغيب مجهول.فكيف نقيس أعمالنا على الموجود الأبدي وليس في الأبد ماض ولا حاضر ولا نقطة يجوز منها الابتداء أو يصير إليها الانتهاء ؟ فكيف نمنع أن يتكلم الله مثلاً عن المستقبل كأنه واقع أو عن الماضي كأنه حاضر ؟ أو يتكلم عن الأمور باعتبار جملتها في الأبد الأبيد ونحن لا نرى منها إلا الجزء بعد الجزء والحال بعد الحال ؟ .

* * *

ومن الأمثلة العالية للفكرة الإلهية في الإسلام خطبة وردت في نهج البلاغة ذكرت فيها الصفة بمعنى التمثيل لذات الله لا بمعنى الأسماء الحسنى .فإن الأسماء الحسنى ثابتة في القرآن الكريم لا ينكرها مسلم . وهذا بعض ما جاء في تلك الخطبة المنسوبة إلى الإمام علي رضى الله عنه :

« الحمد لله الذي لا يبلغ من حقه القائلون ، ولا يحصي نعماه العادّون ، ولا يؤدي حقه المجتهدون ، الذي لا يدركه بعد الهمم ، ولا يناله غوص الفطن ، الذي ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود ، فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووتد بالصخور ميدان أرضه . أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة . فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثنّاه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن أشار إليه فقد حده ، ومن حده فقد عده ، ومن قال فيم فقد ضمنه ، ومن قال علام فقد أخلى عنه . كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزايلة ، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة ، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه ، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده . أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء ، بلا روية أجالها ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها ، ولا همامة نفس اضطرب فيها . أجال الأشياء لأوقاتها ، ولاءم بين مختلفاتها ، وغرّز غرائزها ، وألزمها أشباحها ، عالماً بها قبل ابتدائها ، محيطاً بحدودها وانتهائها ، عارفاً بقرائنها وأحنائها » .

ولنا أن نقول على الجملة إن هذه الفكرة الإلهية هي فكرة الإجماع في الإسلام . أما الفرق التي تنتمي إلى الإسلام وتقول بالحلول أو بتناسخ الأرواح أو بالوساطة بين الخلق والخالق – فالرأي المتفق عليه أن اعتقادها مخالف للكتاب والسنة وإجماع المسلمين .

الفلسفة بعد الأديان الكتابية

نشأت المذاهب الفلسفية بعد الأديان الكتابية متأثرة بها على نحو من الأنحاء: فإما للموافقة وإما للمخالفة وإما للمناقشة والتفسير .

فقد كان الفلاسفة يولدون هوداً أو مسيحيين أو مسلمين ، فيأخذون في التوفيق بين أديانهم وبين الفلسفة التي تعلموها أو علموها . ومن ألحد منهم فإلحاده في معظم الأحيان إنما هو إنكار لعقائد الأديان ، وليس بالمذهب القائم على حدة بمعزل عنها ، وعلى غير علم أو مبالاة بوجودها .

وكان أقدم النحل الفلسفية التي شاعت بعد اليهودية والمسيحية مذهب المعرفيين أو الجنوسيين Gnostics الذي تقدم ميلاد السيد المسيح بزمن قصير .

وكان الغرض منه استخلاص المعرفة من جميع العقائد التي كانت يومئذ معتقدة مرعية بين أمم الحضارة . فأخذ من المجوسية والفرعونية واليهودية والوثنية الإغريقية ، كما أخذ من فلاسفة اليونان ولا سيما فيثاغوراس .

ولما شاعت المسيحية آمن بها أكثر المعرفيين وأدخلوا في مذهبهم عقيدة البنوة الإلهية وعقيدة الخلاص على نحو يوفق بين الفلسفة والدين ، وكان إمامهم الأكبر بعد المسيحية فالنتينوس Valentinus من الإغريق المتمصرين . فافتتح في رومة (سنة ١٤٠ م) مدرسة لتعليم مذهبه وأضاف إليها كثيراً من الشعائر والرموز والتأويلات .

وخلاصة « الفلسفة المعرفية » أن عالم الغيب — أو العالم غير المرئي — وجد

فيه منذ الأزل « الأب السرمدي » ومعه الصمت المطلق والحقيقة الأبدية ، وأن الأب السرمدي أودع العقل في الصمت ، فالعقل ولده ونده لأنه عقله ، ومن ثم كانت أصول القدم أربعة كما في مذهب فيثاغوراس ، وهي : الأب والصمت والحقيقة والعقل أو « الكلمة » كما كانوا يسمونه في بعض الأحيان.

ويأخذ المعرفيون من المجوسية إيمانها بعنصري النور والظلام ، ويزيدون عليها أن حجب الظلام تحول بين الإنسان وبين رؤية الله ، ويقولون إنها سبعة آلاف حجاب تمر بها الروح الإنسانية في هبوطها من العالم الأعلى إلى عالم الفساد وعملها — وهي في ثوب الجسد — أن تشق هذه الحجب وترتفع إلى نور الله من جديد .

وقد نشأ الشر بخروج روح من الأرواح العلوية من عالم النور إلى عـــالم الظلام . فكل ما في عالم الأجساد هو صنع ذلك الروح ، وهذه هي الخطيئة الأصلية في رأي المعرفيين .

وهم يعتقدون أن « المعرفة » هي سبيل الخلاص والرجعة إلى الله ، لأن المعرفة تبدد حجب الظلام حجاباً بعد حجاب ، فلا يبقى في النهاية غير النور المطلق ، وهو الله .

والمعرفيون لا ينكرون تعـــدد الأرباب دون الإله الأكبر وهو « الأب السرمدي » ... بل يؤمنون بوجود آلهة أخرى بمثابة أرواح نورانية أو ارواح ظلامية ، ويحسبون إله العهد القديم في عداد هذه الأرواح .

ولولا أن المعرفية هي أول محاولة عقلية لاستخلاص العقائد من الأديان والفلسفات لما اتصلت لها بالفلسفة علاقة تذكر في معرض الكلام على المباحث العقلية ، لأنها أشبه بنحل العبّاد منها ببحوث المفكرين .

* * *

وأول مفكر تقدم المفكرين بعد الميلاد وتخلص من هذه التلفيقات الوثنية وواجه الحكمة والدين بعقل الفيلسوف وسليقة المؤمن — هو أفلوطين إمام

الأفلاطونية الحديثة ، الذي ولد بإقليم أسيوط في السنوات الأولى من القرن الثالث للميلاد .

وهو أجدر فيلسوف أن يحسب من صميم المتصوفة ، أو يقال عنه بغير جدال إنه إمام التصوف الذي امتزجت آراؤه بالطرق الصوفية ولا تزال تمتزج بها إلى هذا الزمان .

وقد بلغ أفلوطين غاية المدى في تنزيه الله . فالله عنده فوق الأشباه وفوق الصفات ولا يمكن الإخبار عنه بمحمول يطابق ذلك الموضوع .

بل هو عنده فوق الوجود .

وليس معنى ذلك أنه غير موجود أو أنه عدم . لأن العدم دون الوجود وليس فوق الوجود . وإنما معناه أن حقيقة وجوده لا تقاس إلى الجواهر الموجودة ولا تدخل معها في جنس واحد ولا تعريف واحد . فهو « أحد » بغير نظير في وجوده ولا في صفاته ولا في كل منسوب إليه .

ويغلو أفلوطين أحياناً فيقول : إن الله لا يشعر بذاته . لأنه لا يميز ذاته من ذاته فيعرفها . ولكنه لصفاء وجوده يتنزه عن ذلك التمييز ويتنزه عن ذلك الشعور .

وبديهٌ أن هذا المذهب يقتضي وسائط متعددة لربط الصلة بين هذا الإله « الأحد » المطلق الصفاء ، وبين المخلوقات العلوية وهذه المخلوقات السفلية — ولا سيما خلائق الحيوان المركب في الأجساد .

وهكذا لزم أفلوطين أن يقول إن الواحد خلق العقل وإن العقل خلق الروح وإن الروح خلقت ما دونها من الموجودات على الترتيب الذي ينحدر طوراً دون طور إلى عالم الهيولى أو عالم المادة والفساد .

وليست مسألة الخلق مسألة مشيئة في مذهب أفلوطين . بل هي مسألة ضرورة لازمة من طبيعة الخير الذي هو الله . فالخير يُعطي ضرورة وينشأ من عطائه ضرورة شيء من الأشياء ، ولن يكون هذا الشيء إلا أقرب الأشياء

إليه ، وإن لم يبلغ مبلغه من الكمال . وهذا ما يسميه بضرورة الفيض أو الصدور . غير أن الإعطاء لا ينقص المعطي في عالم التجريد والصفاء . لأن الفكرة لا تنقص بالإعطاء .. بل تزيد من أخذ ولا تنقص شيئاً ممن أعطاه ، وأقرب مثال للفيض والصدور في المحسوسات صدور النور من الشمس ، أو صدور الطيف في المرآة من صاحب الطيف . فلا نقص على الإطلاق في مثل هذا الصدور .

ولا تزال الروح تخلق ما دونها ثم يصدرعنه ما دونه حتى تتلبس الروح الإنسانية بالجسد أو الهيولى ... ويتناقض أفلوطين في وصف الشر فيحسبه تارة من الروح التي تخلق الهيولى ويحسبه تارة من الهيولى التي تهبط بالروح إلى دركها الأسفل ، لأنها سلب محض يهبط بالروح فتجاهده وتبلغ الخلاص بهذا الجهاد .

ومن ها هنا لزم أفلوطين أن يقول بتناسخ الأرواح وبالثواب والعقاب في أدوار التجسيم . فزعم أن الولد إذا قتل أمه عاد امرأة ليقتلها ابنها فتكفر بذلك عن ذنبها ، وأن الظالم يعود ليظلمه غيره ، وأن الضارب في عمر من الأعمار يقتص منه ضارب في عمر جديد .

ولا تذكر الروح ما مر بها في أعمارها الأولى . لأن الذاكرة عرض من عوارض التلبس بالأجسام الفانية وما يجري منها أو عليها . أما الروح المجردة فهي أبدية لا تتغير باختلاف الأعمار عليها ، فلا تستبقي بعد مفارقة الجسد أثراً مما طرأ عليها فيه .

ويرى أفلوطين أن الله لا يعرف بالعقل وهو في الجسد . بل تراه الروح وهي في حالة الغيبوبة لأنها حالة تجاوزت فيها جسدها فتصعد إلى مقام الإلهام . وهي لا تبصر في تلك الحالة شيئاً يدخل في نطاق المعقولات ، ولكنها تترجم عنه إذا هبطت من مقام « الأحد » إلى مقام العقل والتفكير .

ويخالف أفلوطين سابقيه من جماعة المعرفيين في إنكارهم كل جمال وكل خير في هذه المخلوقات التي ابتدعها الروح الهابط بالخطيئة من سماء عليين

فإنهم يقولون إن المحسوسات كلها — حتى الشموس والكواكب — شرور ونحوس . ويقول هو إن جمالها هو الدليل على مصدرها الأول ، وإنها تستمد الكمال طبقة بعد طبقة من كمال الله .

* * *

ولم يظهر بعد أفلوطين فلاسفة لهم خطر في التفكير الإلهي غير فلاسفة الإسلام في الشرق والأندلس وفلاسفة الكنيسة المسيحية . وقد تقدمت خلاصة أقوالهم في الفكرة الإلهية ، عند الكلام على الأديان الكتابية بعد الفلسفة الإغريقية.

ثم انطوت القرون في ظلمات العصور الوسطى إلى القرن السابع عشر الذي اشتهر فيه ديكارت الفرنسي (١٥٩٦ — ١٦٥٠) ثم القرن الثامن عشر الذي اشتهر فيه بركلي الإيرلندي (١٦٨٥ — ١٧٥٣) وهما بحق مجددا حياة الفلسفة في العالم الحديث .

فأما ديكارت فهو يرى أن إثبات وجود العالم يتوقف على ثبوت وجود الله ، فهو لا يتخذ من العالم دليلاً على وجود صانعه — بل يتخذ من وجود الصانع الكامل الأبدي دليلاً على أن العالم حقيقة وليس بالوهم الباطل .

ويرى ديكارت أن وجود النفس ووجود الله حقيقتان ثابتتان بغير برهان ؛ فهو يقول : « أنا أفكر أنا موجود » فيعلم أن النفس موجودة لا شك فيها ، ولا يسوق هذا العلم مساق القضية المنطقية التي لها مقدمة ونتيجة ، بل يسوقه مساق المعرفة اللدنية التي يتلقاها مباشرة من الوجود الثابت ، وإن كانت الكلمة التي قرر بها وجود النفس صالحة لأن تتخذ قضية ذات دليل .

وفكرة الكمال المطلق كفكرة « الأنية » حقيقة مباشرة يتلقاها العقل من مصدرها ، ويستلزمها كذلك بالبرهان الصحيح .

فلو لم يكن الكائن الكامل موجوداً لما خطرت فكرته على بال ، ولو لم تخطر على بال لكان الكائن الذي لا حدود له ضرورة عقلية . لأن وضع هذه الحدود تعسف لا يقوم عليه دليل .

والله كامل مطلق الكمال ، سرمدي مطلق الدوام . خلق الأرواح والأجساد ، أو خلق الروح والمادة جوهرين مختلفين . وزود المادة بمقدار من الحركة لا يزيد ولا ينقص ، وجعل لها قوانين أو نواميس لا تخرج منها إلا بإذنه وتقديره . وقد يشاء الله خرق العادات بل يشاء تغيير الحقائق الرياضية والبراهين البديهية ، لأنه هو خالق كل شيء ، وقدرته تحيط بكل شيء ، وكل ما أراده فهو ممكن وهو معقول لصدوره منه ورجوعه إليه . ولا يزال الخلق متجدداً بلا انقطاع . لأن الخلق إنما يقوم بالخالق الدائم ولا يفرغ علمه في وقت محدود .

وقد حاول ديكارت أن يقيم بين العقل والمادة قنطرة تنتقل بها المؤثرات بين هذين الجوهرين المختلفين . فقال إن الغدة الصنوبرية في الدماغ هي الحلقة المتوسطة بين روح الإنسان وجسده . وقد رأينا مما تقدم أن بعض العلماء المعاصرين يؤيدون هذا القول ويدعمونه بالمشاهدة والاستقراء . ولكن ديكارت لم يعن بإيجاد مثل هذه القنطرة بين الله والعالم ، لأنه كما يفهم من مجمل آرائه يرى أن قدرة الله في غنى عن ذلك الوسيط . وقد قال تلميذه لويس دي لافورج إن تأثير الأجسام في الأجسام واقع مفروغ منه ، ولكننا إذا حاولنا فهم الحقيقة التي يقع بها التأثير لم تكن أيسر فهماً من تأثير الأرواح في الأجسام. ولولا الواسطة الإلهية لما وصلت الأفكار نفسها إلى العقول والأرواح .

* * *

أما جورج بركلي فلا وجود في رأيه لغير العقل أو الروح ، ولا وجود للمادة في الخارج إلا من عمل العقل الباطن . لأن الصفات التي تنسب إلى الأشياء ليست في الأشياء بل في العقل الذي يدركها . فالامتداد والشكل والحركة وهي الصفات الأولية المنسوبة إلى المادة هي عوارض فكرية لا توجد في خارج العقول . واللون والطعم والصوت هي كذلك إحساس عقلي وليست صفات عالقة بالأشياء. وإذا قيل له إن الصوت حركة نراها في الهواء قال : ولكن الحركة ترى ولا تسمع . فالصوت إذن من عمل السامع على كل حال .

وسخر بعضهم من هذا الإنكار فنظم أبياتاً فكاهية يقول فيها ما فحواه :

« إنك أيتها الشجرة لا توجدين إذا أغمضت عيني ولم أنظر إليك » . فأجابه بركلي قائلاً : « كلا . بل توجد إذا أغمضت عينك لأن الله لا يغمض عينه ».

وهذا هو البرهان الأكبر على وجود الله في مذهب بركلي . وهو توقف الموجودات كلها على عقل شامل الإدراك يحتويها . ومن هذا العقل يصل إلى عقولنا علمنا بالموجودات . لأن العقل لا يفهم إلا عن عقل يلقي إليه بالمعرفة . إذ لا معرفة في غير العقول .

قال في أصول المعرفة الإنسانية : « إن التحقق من إدراك وجود الله لأكثر جداً من تحقق وجود الإنسان . لأن مؤثرات الطبيعة تزيد زيادة لا نهاية لها على جميع المؤثرات المعزوة إلى الناس » .

وقد نظر بركلي في هذا إلى رأي لوك Locke سلفه في الفلسفة الإنجليزية حيث يقول : « إن لنا من المعرفة اليقينية بوجود الله ما يزيد على كل معرفة لم تكشفها لنا الحواس . لا بل يسعني أن أقول إن يقيننا بوجود إله أقوى من اليقين بوجود أي شيء خارج عنا » .

ولكن بركلي كما رأينا قد جاوز رأي لوك في إثبات الوجود للعقل وحده ، وكان أثره في إنشاء الفلسفة المثالية Idealism أعظم من آثار جميع سابقيه.

* * *

وخلف ديكارت وبركلي في القارة الأوربية والجزر البريطانية فلاسفة كثيرون من ذوي الآراء المعدودة في الحكمة الإلهية . أشهرهم سبنوزا وليبنتز في أوربة وهيوم ومل وهاملنون وريد في الجزر البريطانية . عدا فلاسفة ألمانيا الذين ظهروا في القرن التاسع عشر قبل الفلسفة المعاصرة ، وأشهرهم : كانت وهيجل وشوبنهور .

ومذهب سبنوزا (١٦٣٤ — ١٦٧٧) أن الله والكون والطبيعة جوهر واحد ، لأن الجوهر ما قام بنفسه ، أو هو واجب الوجود ، وهو لا يتعدد .

ولهذا الجوهر فكر وامتداد . وكل ما في الوجود من المعقولات

والمحسوسات فهو مظاهر للفكر أو للامتداد . فالفكر تبدو مظاهره في عقل الإنسان ، والامتداد تبدو مظاهره في هذه الأجسام .

والله علة الأشياء كلها بالمعنى الذي نفهمه من أنه هو علة نفسه . فليس خارج اللانهاية شيء ، والله هو اللانهاية . وإنما الفرق بين الله ومجموعة الظواهر المتفرقة أن مجموعة الظواهر المتفرقة تمثل الجانب المخلوق Natura Naturata وأن الله يمثل الجانب الخلاق Natura Naturans .

فإذا قال قائل : إن هذا الإنسان يفكر يفهم سبنوزا أن الله هو الذي يفكر بمقدار ما يتجلى في ذلك المظهر ، وكذلك إذا قلنا إن تلك الشجرة تنمو أو ذلك الكوكب يتألق . فكل ذلك هو مظاهر إلهية تتراءى لنا في صورة الأعراض لأننا نحن أنفسنا من الأعراض .

وسبنوزا لا يصف الله بالإرادة والسمع والبصر والرضا والغضب والحكمة . لأن الله لا يمكن أن يتحول إلى حالة أكبر أو حالة أقل من وجوده فيرضى أو لا يرضى ويريد أو لا يريد . وهو — لأنه جوهر قائم بذاته — ليس وراءه شيء يحتاج إليه . فإذا أسندت هذه الصفات إلى الله وجب أن نقصي من أذهاننا كل مشابهة في الحقيقة أو المجاز بينها وبين الصفات التي نسندها إلى المخلوقات . وإنما هي أوهامنا نحن تمثل لنا هذه المشابهات . ولو أن المثلث عقل نفسه لحظة لخيل إليه أن الله مثلث الأركان .

والله لا يعمل الشر ولا يعلمه . لأنه ليس هنا شر بالقياس إلى اللانهاية . ولكنه يأتي من اكتفاء كل جزء من هذه الأعراض المحسوسة بنفسه كأنه جزء منفصل عما حوله ، أو هو نفي وليس بثبوت . وليس في حق الله نفي بل كله ثبوت . ولا يعرض النفي إلا للمحدود الذي ينقص ويزيد .

والخلق لا يفيد معنى الإنشاء من العدم في مذهب الفيلسوف . بل هو لازم لزوم الأعراض أو المظاهر للجوهر الإلهي القائم بغير ابتداء . « وكل ما جرى فهو يجري بقوانين سرمدية في الجوهر الإلهي مستمدة من ضرورة وجوده على الوجوب ، إذ ليس في الكون ممكن على الإطلاق . ولكن الأشياء محتومة

الوجود والعمل على نحو تستلزمه ضرورة الطبيعة الإلهية . ولا سبيل إلى نشوء هذه الأشياء على أي نحو أو أي نظام يخالف ما وقع . ولهذا لزم أنها وجدت على أكمل الأنحاء والنظم إذ هي نشأت ضرورة من طبيعة على أتم كمال » .

وواضحٌ من هذا أنه لا محل للحرية الإنسانية ولا للثواب والعقاب في هذا المذهب . ولكن الإنسان يترقى فيتحد بالجوهر الإلهي بقدر مقدور أو بالمعرفة و«الحب العقلي» كما سماه.أي حب العارفين الذين استحقوا أن يتجاوزوا مرتبة الأعراض إلى الجوهر الأبدي المطلق الذي يتجردون فيه من التجزؤ والانفراد .

وقد نفى سبنوزا في بعض رسائله أنه يقول بوحدة الله والطبيعة ، وفسر كلامه بأن الله « حاضر » في الطبيعة لا ينفصل عنها ولا تنفصل عنه ، لأنه لا انفصال عن اللانهاية ، وهي الله .

وعقدة الإشكال كلها — على ما رأينا — هي أن سبنوزا لم يرد أن يفرق بين وجود الأبد ووجود المكان والزمان . فالمكان يأخذ من المكان ، والزمان يلحق بما له حركة تبتدىء وتنتهي في أمد محدود . وليس للانهاية حيز يجوز عليه مكان ولا زمان . فلا تناقض بين كمال الله ووجود الكائنات التي تتحيز في فضاء محدود أو تجري إلى أمد محدود .

* * *

ويعد جوتفريد ويلهم ليبنتز (١٦٤٦ — ١٧٢٦) أكبر الكارتيين بحق بين فلاسفة الألمان وفلاسفة القارة الأوربية على التعميم .

وشعار ليبنتز في مسألة الخلق « أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان » وأن هذا العالم ليس بالعالم الوحيد الممكن في قدرة الله . فإن قدرة الله لا تنحصر في ممكن واحد بل تتناول جميع الممكنات . ولكن هذا العالم أحسن العوالم الممكنة التي تقبل الوجود ، وكان في قدرة الله أن يخلقه بغير شر ولا قبح فيه ، ولكنه يكون إذن بغير خير ولا جمال . إذ الخير مرتبط بالشر والجمال مرتبط بأضداده . ومن تمثيله لذلك أن الظمآن إذا نقع غليله بالماء البارد القراح شعر بلذة جديرة باحتمال الظمأ في سبيلها ويطيب له تكرارها وتكرار ألم الظمأ الذي يشوقه إليها .

وفي الوجود على مذهب ليبنتز جواهر لا عداد لها يسميها الوحدات أو الأحاديات وهي باليونانية موناد Monads : كل منها بمثابة مرآة للوجود كله يختلف نصيبها من تمثيله باختلاف نصيبها من الصفاءوالجلاء . وهي لا تتطلب أن يؤثر بعضها في بعض لأنها تعمل جميعاً بقانون واحد منذكانت كلها منطوية على مثال الوجود كله ، وهي كالساعات التي تدق دقاتها معاً بغير تأثير من إحداها على الأخرى ، لأنها متفقة التركيب والحركات .

وإذا اجتمعت هذه الوحدات في بنية واحدة كانت لتلك البنية « أميرة » ممتازة من تلك الوحدات . وهذه الأميرة لا تحركها ولا تؤثر فيها ولكنها إذ تحركت كانت أصدق الوحدات تمثيلاً لنظام الوجود ، كما تكون الساعة المجلوة المتقنة أوضح في رصد الوقت وضبط الحركات من سائر الساعات .

وكل هذه الوحدات جواهر بسيطة لا امتداد لها ولا مقياس لها إلا مقياس الحركة المجردة . والله أعلى هذه الوحدات جميعاً ، ومنه تصدر القدرة التي تنتقل إليها على سبيل المحاكاة ، وهي قدرة لا تنقطع عن الخلق ولا يزال صدور الوحدات منها في اطراد .

ولو لم تكن وحدات الوجود « بسائط » لكانت المركبات كلها أعراضاً وهو محال . فلا يكون جوهراً إلا ما هو بسيط ، ولا يكون المركب موجوداً وجوداً صحيحاً إلا باشتماله على هذه البسائط أو الوحدات .

وقد امتاز ليبنتز بحسن تلخيصه للبراهن المثبتة لوجود الله . فمن تلخيصاته أنه قسم المقررات إلى وقائع زائلة وحقائق أبدية كالحقائق الرياضية ، فاستدل من دوام الحقيقة على حق دائم هو الله . ومن التلخيصات أن وجود الممكنات لا يشتمل على سبب كاف لتعليل وجودها . فنحن نسأل لماذا وجد العالم ؟ فلا نفهم لذلك علة كافية إلا إذا تعلق الأمر بخالق واجب الوجود ، شاء له أن يوجده لحكمة تحسن بواجب الوجود .

* * *

وأكبر الفلاسفة الذين ظهروا في الجزر البريطانية بعد بركلي هو دافيد

هيوم (١٧١١ – ١٧٧٦) ولعله أكبر الفلاسفة المحدثين في القارة الأوربية .

والشك في الحواس وفي طاقة العقل الإنساني هو سمة هيوم في كل ما كتب من المباحث الفكرية . ورأيه في وجود الله يوافق هذه السمة الغالبة عليه . فهو يرى أن إثبات وجود الله لم يكن رغبة من رغبات العقل ولكنه رغبة كبرى من رغبات الضمير والشعور . فالأسباب التي تشككك الفيلسوف في الإيمان هي بعينها أسباب المتدين التي تبعثه إلى الإيمان ، وهي الشكايات والآلام والشرور . وقد تعلق البشر بالله لأنهم يعتصمون بالرجاء وينشدون السعادة ، وكلاهما باعث أصيل في النفس الإنسانية . فليكن هذان الباعثان مناط الإيمان بوجود إله قادر على الإسعاد وتلبية الرجاء .

وقد عرضنا لرأي جون ستيوارت مل في موضع آخر من هذا الكتاب ، فلم يبق في الفترة التي بين فلسفة هيوم وفلسفة المعاصرين من هو أولى بتلخيص رأيه من ريد الذي ولد في أوائل القرن الثامن عشر (١٧١٠ م) ، وهاملتون الذي ولد في أواخره (١٧٨٨) .

ويبني ريد فلسفته على الحقائق اللدنية التي يقرها الإدراك السليم Common Sense ولا تحتاج إلى برهان ، ومنها وجود المدركات وهي العالم الخارجي، ووجود القوة المدركة وهي النفس الإنسانية . فلا يمكن عقلاً أن يكون أساس الوجود أكذوبة أو أن يكون « الوجود » غير موجود وإن أدركناه على غير حقيقته الخفية ،ووجود العالم ووجود النفس هما الدليل على وجود الله . بل وجود الله حقيقة من حقائق الإدراك السليم .. وليست بساطة الاستدلال على الصانع من صنعه مضعفة من قوة الدليل ، لأن الحقائق لا تكتسب القوة بالتنويع والتركيب ، بل أبسطها هو في الواقع أقدمها وأغناها عن الزخرفة والاختراع .

وهاملتون يبني فلسفته في الدين على فلسفته في أصول المعرفة ، وخلاصتها أن الإدراك موقوف على الكيفية . فلا يقبل الإدراك ما ليست له كيفية Unconditioned وقولك إنك تفكر مرادف لقولك إنك تضع حدوداً

وشروطاً لما تفكر فيه . فالوجود المطلق لا يدخل في حيز التفكير ولا تدركه العقول . وليست نتيجة ذلك أننا ننكر الوجود المطلق . لأن معرفتنا بقصور معرفتنا لا ينتج منه أن نجعلها حكماً في الإثبات والإنكار . وإنما تستلزم هذه الحقيقة نتيجة أخرى وهي ضرورة الاعتقاد ، وأنه لازم لإتمام عمل العقل في الإنسان ، ولا يحب هاملتون أن يخلي ضرورة الاعتقاد من أسبابها الفكرية الراجحة . بل يجعلها قضية معقولة قائمة على أن الفرضين المتعارضين أحدهما صحيح لا محالة ... فنحن إذا أردنا أن نعرف الوجود المطلق — أو نعرف الله — فإما أن يتمثل لنا كأنه « لا نهاية » مكيفة ، أو يتمثل لنا بلا كيفية من الزمان والمكان والصفات . ونحن لا ندرك اللانهاية بحال لأنها غير قابلة للإدراك . فليس أمام العقل إلا أن يدركها كما تتصل بالكون . فنتمثل بذلك نوعاً من « الكيفية » لا سبيل إلى غيره ... فهو دون غيره ما يسلمه العقل ويتممه الإيمان .

وتعد الفترة التي بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر عصر كانت (١٧٢٤ — ١٨٠٤) وهيجل (١٧٧٠ — ١٨٣٠) في الفلسفة الأوربية . لأنهما قد هيمنا بمذهبهما على مسالك التفكير التي شاعت بعدهما في أوربة ... ولا يزالان يهيمنان عليها إلى العصر الحاضر .

كان « كانت » من المؤمنين بالله . إلا أنه يكل الإيمان إلى الضمير ولا يعتمد فيه على البراهين العقلية التي تستمد من ظواهر الطبيعة .

فالعقل في مذهب كانت لا يعرف إلا الظواهر الطبيعية Phenomena ولا ينفذ إلى حقائق الأشياء في ذواتها Noumena .

والروح فاعلة أبداً وليست مفعولاً أو موضوعاً للمعرفة . فهي عارفة غير معروفة .

وليست مسألة الإيمان من ثمة مسألة علاقة بين الله والطبيعة ، أو بين الله وهذه الأكوان المادية . ولكنها مسألة علاقة بين الله وضمير الإنسان . فمن ضمير الإنسان إذن نستمد الدليل على وجود الله .

وفي ضمير الإنسان شعور أصيل بالواجب الأدبي ، وقسطاس مستقيم يوحي إليه أن يعامل الناس كما يحب أن يعاملوه .

وهذا الوحي الذي أودعه الله النفس الإنسانية ضمين بإسعاد من يطيعونه وحسن الجزاء لهم من الله .

ولكنهم لا يسعدون في كثير من الأحيان . وقد يسعد الآثمون ويشقى العاملون بالواجب في هذه الحياة .

فلا بد من عالم آخر يتكافأ فيه واجب الإنسان وجزاؤه . وهذا هو البرهان الأدبي على خلود الروح وحرية الإنسان .

وهيجل يؤمن بالله كذلك ولكن على نحو يشبه الإيمان بوحدة الوجود . فليس في الكون غير العقل ، والعقل هو الكون — وهو العقل المطلق — يتجلى في الموجودات على سنة مطردة : وهي السنة الثنائية Dialectic .

وخلاصة هذه السنة أن كل موجود في هذا الكون ينشىء نقيضه ، ثم يجتمعان في موجود أكمل من الموجود الأول . ويعود هذا الموجود الأكمل فينشىء نقيضه ... ويكون هذا التطور سبيلاً إلى استيفاء الحقيقة من وجوه عدة ، بدلاً من حصرها في وجه واحد .

فهناك التقرير Thesis ثم النقيض Antithesis ثم التركيب Synthesis . وهو يجمع التقرير والنقيض .

وإذا طبقت هذه السنة على مسألة الوجود الكبرى بدأنا بالوجود المطلق ، وهو التقرير ، ونقيض الوجود المطلق هو العدم ، والتركيب الجامع للوجود المطلق والعدم هو الصيرورة . لأن الشيء في حالة الصيرورة يكون موجوداً وغير موجود .. ولا يأخذ في الوجود من ناحية حتى يأخذ في الزوال من ناحية أخرى .

ومن الضروري لفهم هيجل في هذه المسألة أن نفهم ما يعنيه بالعدم الذي يقابل الوجود المطلق .

فالوجود المطلق هو الوجود الكامل الذي لا تقيده صفة من الصفات ولا حالة من الحالات ،وخلو الوجود من كل صفة وكل حالة يقابله العدم الذي يعنيه الفيلسوف.

ومتى حدثت الصيرورة في الوجود المطلق كان منه الوجود الذي له صفات وأحوال ، وهو يتطور على السنة المتقدمة من تقرير ، إلى نقيض ، إلى تركيب .

وقد تجلى الوجود المطلق في هذه التطورات حتى بلغ طور الإنسان، وهو طور الوعي أو إدراك الوجود لنفسه . ولا يزال الوجود المطلق متجلياً حتى يشمل الوعي كل موجود .

فالصيرورة قنطرة بين الكمال المطلق ، والعدم المطلق ، لا بد منها لإخراج هذه الموجودات المحدودة التي ليست بكاملة ولا معدومة .

والله هو كل الوجود سواء في كماله المطلق أو في تجليه في كل محدود من هذه الكائنات .

* * *

ومن البديه أننا لا نستقصي بهذه العجالة كل رأي لكل فيلسوف ظهر في العصور الحديثة . فذلك شرح يطول ولا تدعو إليه الحاجة فيما نحن فيه . ولكننا توخينا أن نكتفي بالفلاسفة الذين فصلوا آراءهم ومذاهبهم في المسألة الإلهية ، وأن نكتفي من هؤلاء بمن يعبرون عن جوانب النظر المتعددة ، ولا نحصيهم جميعاً على سبيل الاستقصاء .

وقد عُرِفت لغير هؤلاء الفلاسفة آراء تستحق الإلمام بها لأنها تعبر عن وجهات نظر لم تذكر كلها فيما أسلفناه .

وأحقها بالذكر هنا رأي نيوتن الإنجليزي وكونت الفرنسي ، وأولهما مؤمن وثانيهما لا يثبت الله ولا ينفيه .

أما رأي نيوتن فهو أننا لا نصف العالم بالإحكام والإتقان لنستدل بإحكامه

وإتقانه على وجود صانعه وهو الله . فإن هذا الدليل ينطوي على تناقض في رأي الفيلسوف ، لأن العالم المحكم المتقن يستغني بقوانينه ونواميسه عن العناية الإلهية بعد خلقه ... والإيمان بالله قائم على الإيمان بالعناية التي تحيط بالخلق في كل حين . فوجود النقص في العالم لا ينفي وجود الصانع الحكيم . بل وجود هذا الصانع الحكيم يقتضي أن يكون العالم مخلوقاً لا يبلغ الكمال كله ، ويفتقر إلى موجده على الدوام .

ويسخر ليبنتز بعالم نيوتن . لأن ليبنتز كما تقدم يرى « أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان » ... ويقول إن عالم نيوتن كالساعة التي تحتاج إلى إدارة اللوالب وإصلاحها من حين إلى حين . وجلت صنعة الله عن مثل هذا الصنيع .

وخير ما يستفاد من هذه المقابلة بين العقلين الكبيرين أن المسألة أكبر من أن يحاط بها في تفكير واحد . وأنها قابلة للرأيين معاً بعد التدبر والإنعام .

فمذهب ليبنتز لا ينفي أن العالم ناقص كما تكون جميع « الممكنات » . فكون العالم « أحسن عالم ممكن » لا يخرجه من عداد الممكنات التي لا تبلغ في الكمال مبلغ واجب الوجود .

وكون العالم محكماً متقناً على أي معنى من معاني الإحكام والإتقان لا يسوغ الاعتراض من جانب نيوتن . بل يحتاج إلى تكملة من رأي الفلاسفة الآخرين الذين يقولون إن الخلق عمل مستمر وليس بعمل منقطع في وقت ينتهي إليه . فلا يزال الوجود قائماً بقدرة الله لأنه لا يستقل بكيانه أبداً ولا ينحصر كيانه في وقت من الأوقات .

* * *

وأوجست كونت إمام الفلسفة الوضعية يقول إن البشر يتقدمون من طور الدين إلى طور الفلسفة إلى طور العلم الوضعي ... ثم يعتمدون على هذا العلم وحده في كل معرفة يدركونها ، ولا وسيلة إلى الإدراك غير التجربة والمقابلة والاستقراء .

ومهما يجهد العقل فلن يصل إلى حقيقة بغير هذه الوسيلة . فإدراك المسائل الغيبية من وراء أمد العقول . وقد تستغني العقول عن إدراكها لأنها لا تغير حياتها على هذه الأرض ... وهي حياة قائمة على التجارب في حدود المعلوم من القوانين والنواميس .

وليس أمامنا غاية مثالية نتجه إليها بالإيمان ونثبتها بوسائل المعرفة الميسورة غير « سعادة الإنسانية » وتقديس أمثلتها العليا في الخير والحق والجمال .

ومن الجديرين بالتقديس أنبياء الماضي وأئمة الإصلاح في كل جيل . لأنهم خدموا الإنسانية وزودوها بالأمل والعزاء وفتحوا لها طريق الاستقامة والعمل المشكور ، وقد جعل لكل نبي من هؤلاء الأنبياء ، موعداً يذكر فيه وشعائر مرعية لعبادة الإنسانية في ذكراه .

وخير ما يستفاد من مذهب كونت أن الدين حاجة إنسانية لا غنى عنها ، وأن الله كما قال فولتير لو لم يكن موجوداً لوجب إيجاده في العقل والضمير . ويبقى أن كونت يتخطى الركن الأكبر من أركان الإيمان وهو الصلة بين النوع البشري وعالم اللانهاية ... فإذا كانت الصلة بين الإنسان واللانهاية تنقطع لأن اللانهاية لا يحاط بها في العقول فمعنى ذلك أن « اللانهاية » لن يؤمن بها لأنها لا نهاية . وأن الكمال المطلق لن يؤمن به لأنه كمال مطلق . وأن يكون السبب المستحق للإيمان هو السبب المبطل للإيمان في رأي فيلسوف العقل والتجربة . وما كان العقل والتجربة لينكرا قولاً هو أحق بالإنكار من هذا الرأي العجيب . وأصح من هذا أن يقال : إن الكمال المطلق لا يحاط به . ولكن هناك وسيلة للإيمان به غير تجارب العلوم وحدود المنطق ، وقد وجدت هذه الوسيلة فعلاً ولم يقتصر القوم فيها على أنها فرض من الفروض .

التصوّف

لا بد من فصل خاص عن التصوف بين فصول الكلام على الفكرة الإلهية ، لأنه ينفرد بتفسيرات في هذا الموضوع لا تتواتر في العقائد العامة ولا تشبه المذاهب العقلية التي يذهب إليها الفلاسفة .

وهو ملكة فردية يستعد لها بعض الآحاد ولا تشيع في الجماعات ، وقد توصف « بالعبقرية الدينية » إذا بلغت مرتبة التأصل والابتكار .

ومن لغو القول أن يقال إن هذه العبقرية هي نوع من التسامي بالغريزة النوعية أو الجنسية ، لكثرة ما يرد في أقوال المتصوفة من عبارات الغزل وكنايات الوجد والشوق والهيام .

فهم في الواقع يكثرون من هذه العبارات والكنايات ، ويتكلمون عن الوصل والهجر والشوق والدلال كما يتكلم العشاق في قصائد الغزل والمناجاة :

فيقول الحلاج مثلاً : « يا أهل الإسلام ! أغيثوني . فليس يتركني ونفسي فآنس بها وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها . وهذا دلال لا أطيقه » .

وتقول رابعة العدوية :

أحبك حبين حب الهوى ... وحب لأنك أهل لذاكا

ويبرز هذا المعنى كل البروز حيث يقول ابن عربي في حلم رآه :

« رأيت ليلة أني نكحت نجوم السماء كلها فما بقي منها نجم إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية ، ثم لما أكملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها ،

وعرضت رؤياي هذه على من عرضها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها ... فقال : صاحب هذه الرؤيا يفتح له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب ما لا يكون لأحد من أهل زمانه » .

فهذا وأشباهه كثير في أقوال أهل التصوف الذين امتازوا بالعبقرية الدينية هذا الامتياز .

ولكنهم لا ينفردون بهذه الحالة بين أصحاب العبقريات . فإن ما يصدق عليهم يصدق على عباقرة الفن وعباقرة الحرب وعباقرة المعرفة على التعميم . فما من أحد من أصحاب هذه العبقريات إلا لوحظ في تكوين مزاجه اختلاف قوي يمس الغريزة النوعية أقوى مساس . فمنهم من يفرط فيها ومنهم من يهملها ، ومنهم من يصاب بالعقم ومن يولد له أولاد يموتون في الطفولة أو يولد له الإناث دون الذكور ، ومنهم من يرتبط وحيه الفني بعاطفة من عواطف الحب تشغله في الحقيقة والخيال. فإذا قلنا إن العبقرية كلها نوع من التسامي بالغريزة النوعية بقي أن نعرف دواعي التمييز بين عبقرية المتصوف وعبقرية الفنان وعبقرية العالم وعبقرية القائد الفاتح والسياسي القدير . وإنما نذكر الواقع فنفهم الحقيقة في هذا الأمر على وجهه المستقيم . والواقع من جهة هو أن العبقرية « يقظة وتنبه » وأن الغريزة النوعية عميقة القرار في تركيب كل بنية حية . فلا تتيقظ النفس في أعماقها إلا تنبهت معها تلك الغريزة فبرزت بتعبيراتها على نحو من الأنحاء . والواقع من جهة أخرى أن العبقرية خدمة للنوع كله من جانب الخلق العقلي أو الروحاني لا من جانب الخلق الحيواني أو جانب التوليد . فلا عجب أن تنازع الغريزة النوعية مكانها وأن تنمو واحدة منهما « على حساب » الأخرى ... ولا عجب أن تتلاقيا على حال من الأحوال وكلتاهما مرهونة بطلب التجديد والدوام في نوع الإنسان .

فالتسامي بالغريزة النوعية لا يفسر لنا التصوف أو العبقرية الدينية ولا يفسر لنا البراعة الحربية أو القدرة على نظم الشعر ونحت التماثيل وتنسيق الألحان وكشف القوانين العلمية أو الرياضية . وإلا لكانت كل هذه العبقريات سواء في المعدن والقدرة ، ولم يكن هنالك فرق بين الشاعر الفاتح والرياضي

والموسيقار . وليس ذلك بتفسير وتوضيح . بل هو الإبهام كل الإبهام .

إنما التصوف — أو العبقرية الدينية — قدرة على الشعور بحقائق الدين والعبادة ، وهو كجميع العبقريات قلق يتطلب الراحة بالتعبير عن نفسه ، والتوفيق بين النقائض التي تعتريه والشكوك التي تساور الضمير فيما يجب عليه .

وقد أصاب الغزالي حين سمى هذه العبقرية بالذوق والسلوك ، ولا نحسب أننا نختار في وصف قلق النفس ونوازعها إلى التصوف كلاماً هو أصدق من كلامه في التعبير عن هذه الحالة، حيث قال في كتابه المنقذ من الضلال :

« ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أني على شفا جرف هار وأني قد اشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال . فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار : أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً وأحل العزم يوماً وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ومنادي الإيمان ينادي : الرحيل الرحيل ! فلم يبق من العمر إلا قليل وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل .. ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ... فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر .. وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار . إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفين إليّ فكان لا ينطق لساني بكلمة ولا أستطيعها البتة . ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطل معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب فكان لا ينساغ لي شربة ولا يهضم لي لقمة . وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم ... فلا سبيل إلى

العلاج إلا بأن يتروح السر من الهم الملم . ثم لما أحسست بعجزي وسقط اختياري التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجـاه والمال والأهل والولد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أوري في نفسي سفر الشام ... ففارقت بغداد وفرقت ما كان معي من مال ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال » .

* * *

ويختلف المخرج من هذه الحيرة باختلاف مزاج الصوفي وتكوينه . فإذا غلب عليه الشعور طلب سلام النفس بالزهد والتخلي عن العلاقات واستراح إلى سكينة التسليم ، وإذا غلب عليه العقل والبحث طلب سلام النفس من طريق المعرفة التي ترفع النقائض ، وتجمع الخواطر إلى وحدة يطيب للعقل أن يستقر عليها .

وهؤلاء هم الذين يقولون مع معروف الكرخي إن التصوف هو معرفة الحقائق الإلهية . ويكثر فيهم الاشتغال بالفلسفة وتأويل مذاهبها ، ولكنهم ينقلونها من الفكر إلى الشعور ويحاولون أن « يحسوها » كإحساس المرء بالكائنات التي يتعلق بها الحب ويشهد عليها الجمال .

وكل فكرة يؤمن بها الصوفية تنطوي في فكرة واحدة أصيلة شاملة لكل ما عداها : وتلك هي بطلان الظواهر وقيام الحقيقة فيما وراءها .

فمن قديم الزمن قال الفلاسفة إن هذه المادة المتغيرة خداع من الحس وإن جوهر الوجود الصادق إنما هو العقل السرمدي الذي لا تغير فيه ، أو هو الروح السرمدي كما يرى بعض الفلاسفة الذين يوحدون العقل والروح .

ولكن التصوف هو الشعور بهذه الحقيقة لا مجرد التفكير فيها . وسبيل المتصوف إلى ذلك هو الإعراض عن هذه الظواهر بالزهد فيها والتنصل منها . فهي الحجب التي تستر الحقيقة الإلهية عن النفس البشرية . وكلها باطل تتكشف عن وهم زائل . إذ لا موجود كما قال ابن عربي « إلا الله » . « ولا يعرف الله إلا الله » .

ومنهم من يغلو فيقول بوحدة الوجود ويقول إن الله هو جميع هذه الموجودات ، وإنها ليست فيه على سبيل التجزئة والتفرقة ولكنها تكمن فيه كما يكمن الربع والنصف في الواحد . فليس هو كله وليس هو منفصلاً عنه وليس هو موجوداً على التحقيق ، ولكنه موجود بالإضافة إلى وجود الله ، أو أن وجوده كوجود الفرد بالنسبة إلى حقيقة النوع . فهو ليس بمعدوم ولكنه لا يزيد تلك الحقيقة ولا ينفصل عنها .

وليس في الكون قبح أو شر عند هؤلاء المتصوفة إلا بالمقابلة بين بعض الموجودات وبعضها دون الوجود المطلق الذي لا يقبل التعيين والمقابلة ، ولا توجد الأشياء بالنسبة إليه وجود الانفصال والتخصص والموافقة والنفور . كما قال بهاء الدين العاملي : « إن نجاسة الأشياء وتقذرها ليست وصفاً ثابتاً لها في أنفسها ، فإن كل طبيعة متعينة لها ملاءمة بالنسبة إلى البعض ومنافرة بالنسبة إلى البعض الآخر . وذلك من آثار ما به الاشتراك وما به الاختلاف الواقع من التعيين . فأيهما غلب ظهر حكمه من الملاءمة والمنافرة . والنجاسة الواقعة في بعض الأشياء إنما هي بالنسبة إلى ما يقابلها من الطبائع التي وقعت بينها أسباب المخالفة . فهي لا تثبت لشيء إلا بالنسبة إلى ما يقابلها ، لا بالنسبة إلى الإطلاق والمطلق . فهي وما يقابلها مما سمي نظافة على السوية بالنسبة للمطلق...»

والمتصوفة في النظر إلى هذه الأشياء فريقان : فريق يرى أن « الكشف » حاضر يتحقق باحتجاب هذه الموجودات الباطلة ، ومنها معالم الشخصية الإنسانية . فإذا غاب الإنسان عن حسه وعن محسوساته فهو في حضرة الله ، وإذا استولى الحق على قلب أخلاه من غيره كما قال الحلاج « وإذا لازم أحداً أفناه عمن سواه » وذاك هو الفناء في الله بلغة أبي يزيد البسطامي ، أو حب الذات للذات كما يقول ابن الفارض :

وما زلت إياها وإياي لم تزل   ولا فرق . بل ذاتي لذاتي أحبت

ويستوي في هذا الشعور متصوفة الشرق والغرب من جميع الأديان : فانتفاء الشعور بالموجودات الباطلة هو الشعور بالله عندهم ، لأن الشعور

بالبطلان هو الذي يحجب الشعور بالحقيقة . قالت القديسة تريزا St. Teresa :
« في الفترة التي تتحد فيها الروح تتجرد الروح من كل شعور . وإذا استطاعت أن تشعر فهي لا تشعر بشيء معين . فلا حاجة بها إلى حيلة لحجز العقل عن التفكير ، لأنها تظل مأخوذة في سكينتها حتى لتجهل ما تحب وما تريد . أو هي بالإيجاز في حكم الميتة ، بالنظر إلى أشياء هذه الدنيا ، ولا تعيش إلا في الله » .

وكان إكهارت Eckhart يسمي الله الذي يشعر به في هذه الحالة :
« باللاشيء الذي لا يسمى » ... ولا يقصد باللاشيء نفي الوجود . بل يقصد به نفي الأشياء المعينة التي تحمل الأعيان والأسماء .

قالت كرستيان شلدرب Schilderups في وصف هـذه الحالة :
« هي السعادة بغير شاغل ولا علاقة . في انسجام مطلق ، لا تفكير فيه ، ولست فيه نفساً فردية .. بل أنا إذا مشيت مشيت ولا شيء غير مجرد المشي هناك . لا رغبة ، لا حاجة في كل ما هناك . وإنما هو شعور واضح بأنك أنت شيء واحد مع كل شيء . « فأنا » في تلك الحالة ليست إلا كل شيء آخر . أنا النور ، أنا الثلج ، أنا ما أسمع وما أرى » .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنـا بـدنا

وليس جميع المتصوفة من هذا الفريق ، أي من الفريق الذي يغيب عن الموجودات لينفذ إلى حقيقة الوجود . فإن فريقاً غيرهم من كبار المتصوفة يرى أن نفي الحس لا يكفي للوصول إلى الله ، وأن الله ظاهر في موجوداته فالوصول إليه عمل وعلم بتلك الموجودات .

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه الواحـــد

وهناك طريقة إلى الحقيقة الإلهية من داخل النفس وطريقة إليها من داخل العالم ، ولا تغني واحدة منهما عن الأخرى كل الغناء .

ولكن الفريقين يتفقان في طريقة واحدة هي طريقة « الحب الإلهي » الذي يشمل العقل والشعور . فكلهم يلتمس في الحب شفاءً من الحيرة وحلا

للنقائض واقتراباً من الحقيقة التي تحول دونها نوازع البغضاء ومطامع العيش وانحصار النفس في النفس انحصاراً يسد عليها منافذ الوجود المطلق العظيم .

كانت لقلبي أهواء مفرقـــة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي

والمعول في جميع العبقريات — لا في العبقرية الدينية وحدها — على المعنى المعبر عنه لا على التعبيرات اللفظية التي ترد على لسان هذا العبقري أو ذاك.

فالشاعر الذي يستهويه صفاء الماء فيقول لنا إن في جوف البحر عرائس تغويه باللمح وتغريه بالوثوب إليه — يعبر لنا عن حقيقة نحسها وإن كذبنا ألفاظه وحروفه .

والموسيقي الذي تستهويه بهجة الربيع ينقلها إلينا بألحانه وأصواته ، وإن كانت الرياحين والنسمات والأمواه شيئاً غير الأصداء والأصوات .

والعبقرية الدينية ظاهرة في الآحاد — مع ظهور الأديان في الجماعات — فلا شك في دلالتها الجوهرية وإن كانت عباراتها اللفظية محلاً للخلاف بل للإنكار في كثير من الأغراض . لأننا لم نعرف في نفس الإنسان عبقرية قائمة على العدم ، خلواً من المعاني والقيم ، فلا يسعنا أن نصرف العبقرية الدينية من عالم الحقيقة أو نصرف دلالتها التي تلح بها على عقولنا وضمائرنا ، لأن بعض أصحابها تعوزه سلامة البنية أو دقة التعبير أو يشذ بأعماله وأقواله عن عادات الجماعات والأمم . فكل العبقريات — وليست العبقرية الدينية وحدها — سواء في هذه الخصلة . وتبقى دلالة العبقرية في النهاية بعد كل تعقيب وتعليل . ودلالتها التي تلزم من وجودها : أنها تعبر عن حقيقة إلهية من وراء المجاز والرمز والكناية وتعدد الصور والأساليب في التصوير والتعبير .

براهين وجود الله

في رأينا أن مسألة وجود الله مسألة « وعي » قبل كل شيء .

فالإنسان له «وعي» يقيني بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية، ولا يخلو من « وعي » يقيني بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية ، لأنه متصل بهذا الوجود ، بل قائم عليه .

والوعي والعقل لا يتناقضان ، وإن كان الوعي أعم من العقل في إدراكه ، لأنه مستمد من كيان الإنسان كله ، ومن ظاهره وباطنه ، وما يعيه هو وما لا يعيه ، ولكنه يقوم به قياماً مجملاً محتاجاً إلى التفصيل والتفسير .

ونحن نخطىء فهم العقل نفسه حين نفهم أنه مقصور على ملكة التحليل والتجزئة والتفتيت ، وأنه لا يعمل عمله الشامل إلا على طريقة التقسيم المنطقي وتركيب القضايا من المقدمات والنتائج وإثباتها بالبراهين على النحو المعروف.

فالعقل موجود بغير تجزئة وتقسيم .

وهو في وجوده ملكة حية تعمل عملاً حياً ولا يتوقف عملها على صناعة المنطق وضوابطه في عرف المنطقيين .

وهو في وجوده هذا يقول «نعم» ويقول « لا » ويحق له أن يقولهما مجملتين في المسائل المجملة على الخصوص .

وقد يخطىء القول في بعض الأشياء ولا يضمن الإصابة في كل شيء ، ولكن الخطأ ينفي العصمة الكاملة ولا ينفي الوجود . فقد يكون العقل المجمل موجوداً عاملاً وهو غير معصوم عن الخطأ الكثير أو القليل ، ولن يقدح

ذلك لا في وجوده ولا في صلاحه للتفكير . لأن « التقسيم المنطقي » يخطىء أيضاً كما يخطىء العقل المجمل في أحكامه المجملة ، ولا يقال من أجل ذلك إن التقسيم المنطقي غير موجود أو غير صالح للتفكير .

فإذا قالت البداهة العقلية : « نعم . هناك إله » فهذا القول له قيمة في النظر الإنساني لا تقل عن قيمة المنطق والقياس ، لأنها قيمة العقل الحي الذي لا يرجع المنطق والقياس إلى مصدر غير مصدره أو سند أقوى من سنده . وقد كان العقل المجمل أبداً أقرب إلى الإيمـــان أو أقرب إلى قولة « نعم » في البحث عن الله ، ولم يستطع التقسيم المنطقي أن يقول « لا » قاطعة مانعة في هذا الموضوع .

ويبقى بعد ذلك أن « الوعي » أعم من العقل المجمل وأعمق منه وأعرق في أصالة وجوده مع الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى ، ونعتقد أن الوعي الكوني المركب في طبيعة الإنسان هو مصدر الإيمان بوجود الحقيقة الكبرى التي تحيط بكل موجود .

وللإنسان وعي بما في الكون من جمال ، وله وعي بما فيه من نظام ، وله وعي بما فيه من أسرار وألغاز وغيوب . فإذا احتجب الجمال عن أناس وأسفر لأناس آخرين فليس ذلك بقـــادح في وجوده أو صدق الإحساس بمعانيه ، وإذا تناسقت البدائه « الرياضية » والنظم الكونية في بعض العقول فليس يقدح في هذا النسق أنه مضطرب أو مفقود في غيرها من العقول ، وإذا خيل إلى فريق من البشر أن هذا الكون السرمدي خلو من الأسرار والغيوب فليس لهذا الفريق حق الاستئثار بالتصديق دون الفريق الذي يستشعر تلك الأسرار والغيوب ويبادلها المكاشفة والمناجاة ، وليست « لا » أحق بالتصديق من « نعم » لأنها إنكار . إذ أن الإنكار في المسائل السرمدية هو الادعاء الذي يطالب صاحبه بالدليل . وما زالت صورة الكمال المطلق مقترنة بصورة الحقائق السرمدية في بدائه العقول . فالذي يقول إن الحقيقة السرمدية الكبرى يمكن أن تكون قاصرة في هذه الصفة أو يمكن أن يتخيلها العقل بغير كمال وإطلاق فهو الذي يدعي ما يناقض البدائه ولا يقوم عليه دليل .

ونحن إذا رجعنا إلى تاريخ الإيمان في بني الإنسان وجدنا أن اعتماده على « الوعي » الكوني أعظم جداً من اعتماده على القضايا المنطقية والبراهين العقلية ، وأنه أقوى جداً من كل يقين يتأتى من جانب التحليل والتقسيم ، ولم تكن الفلسفة نفسها في عصورها القديمة معنية بإقامة البراهين على وجود الله للإقناع بعقيدة والتوسل إلى إيمان . وإنما كان الكلام في وجود الله عند الفلاسفة الأقدمين من قبيل الكلام على مباحث العلوم وتفسير الظواهر الطبيعية . فأرسطو مثلاً لم يثبت وجود الله ليقنع به منكراً يدين بالكفر والإلحاد ، ولكنه أثبته لأن تفسيره لظواهر الكون لا يتم بغير هذا الإثبات ، ولم يحاول أن يقنع به أحداً في زمانه على طريق التدين والإيمان .

فليس وجود الله عند أرسطو وأمثاله مسألة دينية أو مسألة غيبية يختلف الأمر فيها بين الإثبات والنفي كاختلاف الهدى والضلال ، ولكنها حقيقة عقلية كالحقائق الهندسية يتم بها تصور الحركات والأشكال في الأفلاك والسماوات.

ولما ظهرت الأديان الموحدة كان الجدل في صفات الله أكثر وأعنف من الجدل في وجوده . فقضى اللاهوتيون زمناً وهم لا يشعرون بالحاجة إلى إقناع أحد بوجود خالق لهذه المخلوقات ، ولم يشعروا بهذه الحاجة إلا بعد اختلاط العقائد الدينية بالآراء الفلسفية ، ومناظرتهم للمناطقة والمتفلسفين في صناعة الجدل والبرهان .

وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين عن براهين مختلفة لإثبات وجود الله بالحجة والدليل ، ونحسب أننا نضعها في موضعها حين نقرر في شأنها هذه الحقيقة التي يقل فيها التشكك والخلاف : وهي أن البراهين جميعاً لا تغني عن الوعي الكوني في مقاربة الإيمان بالله والشعور بالعقيدة الدينية ، وأن الإحاطة بالحقيقة الإلهية شيء لا ينحصر في عقل إنسان ولا في دليل يتمخض عنه عقل الإنسان ، وإنما الترجيح هنا بين نوعين من الأدلة والبراهين ، وهما نوع الأدلة والبراهين التي يعتمد عليها المؤمنون ، ونوع الأدلة والبراهين التي يعتمد عليها المنكرون ، فإذا كانت أدلة المؤمنين أرجح من أدلة المنكرين فقد أغنى الدليل غناءه وأدى القياس رسالته التي يستطيعها في هذا المجال ، وهي في

الواقع أرجح وأصلح للإقناع بالفكر — فضلاً عن الإقناع بالبداهة — كما يبدو من كل موازنة منصفة بين الكفتين .

ولا يخفى أن قاعدة الإثبات والنفي في مناقشات الخصوم لا تنطبق على هذا الموضوع الجليل . فليس للعقل البشري خصومة في الإثبات ولا خصومة في الإنكار ... وليس على أحد عبء الدليل كله ولا على أحد عبء الإنكار كله في البحث عن حقيقة الوجود ، وليس للمنكر أن يستريح في مرقده ليقول للمؤمن : إنها قضيتك فابحث عنها وحدك واجهد لها جهدك ثم أيقظني لتسمع مني ما أراه فيما تراه ... فربما كان المنكر هنا هو صاحب الادعاء وهو أحق الخصمين بالجهد في طلب الدليل . لأنه إذا قال إن المادة قادرة على كل تدبير نراه في هذا الكون فليس كلامه هنا مجرد إنكار لوجود الله أو التزام للخطة الوسطى بين الإثبات والإنكار .

* * *

ونحن لا نحصي هنا جميع البراهين التي استدل بها الفلاسفة على وجود الله فإنها كثيرة يشابه بعضها بعضاً في القواعد وإن اختلفت قليلاً في التفصيلات والفروع ، ولكننا نكتفي منها بأشيعها وأجمعها وأقربها إلى التواتر والقبول ، وهي : برهان الخلق ، وبرهان الغاية ، وبرهان الاستكمال أو الاستقصاء ، وبرهان الأخلاق أو وازع الضمير .

أما برهان الخلق — ويعرف في اللغات الأوربية باسم البرهان الكوني أو The cosmological argument — فهو أقدم هذه البراهين وأبسطها وأقواها في اعتقادنا على الإقناع . وخلاصته أن الموجودات لا بد لها من موجد، لأننا نرى كل موجود منها يتوقف على غيره ونرى غيره هذا يتوقف على موجود آخر دون أن نعرف ضرورة توجب وجوده لذاته ، ولا يمكن أن يقال إن الموجودات كلها ناقصة وإن الكمال يتحقق في الكون كله ، لأن هذا كالقول بأن مجموع النقص كمال ، ومجموع المتناهيات شيء ليس له انتهاء ، ومجموع القصور قدرة لا يعتريها القصور . فإذا كانت الموجودات غير

واجبة لذاتها فلا بد لها من سبب يوجبها ولا يتوقف وجوده على وجود سبب سواه .

ويسمى هذا البرهان في أسلوب من أساليبه المتعددة ببرهان المحرك الذي لا يتحرك ، أو المحرك الذي أنشأ جميع الحركات الكونية على اختلاف معانيها ، ومنها الحركة بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان ، والحركة بمعنى الانتقال من حال إلى حال ، والحركة بمعنى الانتقال من حيز الإمكان إلى حيز الوجود ، أو من حيز القوة إلى حيز الفعل ، وفحوى البرهان أن المتحرك لا بد له من محرك ، وأن هذا المحرك لا بد أن يستمد الحركة من غيره ... وهكذا إلى أن يقف العقل عند محرك واحد لا تجوز عليه الحركة لأنه قائم بغير حدود من المكان أو الزمان ، وهذا هو « الله » .

وجواب الماديين على هذا البرهان أنه لا مانع أن يكون المحرك الأول مادياً أو كونياً وأن يكون وجوده أبدياً أزلياً بغير ابتداء ، ولا انتهاء . لأن قدم العالم أمر لا يأباه العقل ولا يستحيل في التصور ، وحدوثه مشكلة تستدعي أن نسأل : ولم كان بعد أن لم يكن ؟ وكيف طرأت المشيئة الإلهية بإحداثه وليست مشيئة الله قابلة للطروء ولا لتغير الأسباب والموجبات ؟

ومن هؤلاء الماديين من يجزم بأن هذا الكون كله لا يحتوي شيئاً واحداً يلجئنا إلى تفسيره بموجود غيره ، ولا استثناء عندهم في ذلك للنظام ولا للعقل ولا للحياة .

فمن أقوالهم إن المصادفة وحدها كافية لتفسير كل نظام ملحوظ في الكائنات الأرضية ، وضربوا لذلك مثلاً صندوقاً من الحروف الأبجدية يعاد تنضيده مئات المرات وألوف المرات وملايين المرات على امتداد الزمان الذي لا تحصره السنون ولا القرون ، فلا مانع أن هذه التنضيدات تسفر في مرة من المرات عن إلياذة هوميروس أو قصيدة من الشعر المنظوم والكلم المفهوم ، ولا عمل في اتفاق حروفها على هذه الصورة لغير المصادفة الواحدة التي تعرض بين ملايين الملايين من المصادفات .

وهكذا الكون المادي في اضطرابه المشتت الذي تعرض له جميع المصادفات الممكنة في العقول ، فلامانع في العقل أن تسفر مصادفة منها عن نظام كهذا النظام وتكوين كهذا التكوين في عالم الجماد أو في عالم الحياة .

وهذا المثل نفسه ينقض دعوى قائليه ويستلزم فرضاً غير فروض المصادفات التي تتكرر على جميع الأشكال والأحوال .

فقد فاتهم أنهم قدموا الفرض بوجود الحروف المتناسبة التي ترتبط بعلاقة اللفظ وينشأ منها الكلام المفهوم ، فإن وجود الفاء والياء واللام والسين والواو مثلاً لا يكون قبل وجود كلمة أو كلمات تشتمل على هذه الحروف . فمن أين لهم أن أجزاء المادة المتماثلة ترتبط بينها علاقة التشاكل أو التشكيل على منوال العلاقة التي بين الحروف الأبجدية ؟ ومن أين للمادة هذا التنويع في الأجزاء ؟ ومن أين لهذا التنويع أن تكون فيه قابلية الاتحاد على وجه مفهوم ؟
وفاتهم كذلك أنهم قدموا الفرض بوجود القوة التي تتولى التنسيق والتنضيد وليس من اللازم عقلاً أن توجد هذه القوة بين الحروف ، وأن يكون وجودها موافقاً للجمع والتنضيد وليس موافقاً للبعثرة والتفريق .

وفاتهم مع هذا وذاك أنهم فرضوا في هذه القوة الجامعة أنها تعيد تنسيق الحروف على كل احتمال كأنها تعرف بداءة كيف تكون جميع الاحتمالات . فلم تستنفد هذه القوة جميع الاحتمالات إلى آخرها ولا تتخبط في بعضها قبل انتهائها ثم تعيدها وتعيدها أو تكررها بشيء من الاستئناف وشيء من التجديد في جميع المرات إلى غير انتهاء ؟

وفاتهم عدا ما تقدم أن الوصول إلى « تنضيدة » مفهومة منظومة لا يستلزم الوقوف عندها وتماسك الأجزاء عليها . فلماذا تماسك النظام في الكون بعد أن وُجد مصادفة واتفاقاً ولم يسرع إليه الخلل وتنجم فيه الفوضى قبل أن ينتظم على نحو من الأنحاء ؟ وما الذي قرره وأمضاه وجعله مفضلاً على الخلل والفوضى وهما مثله ونظيره في كل احتمال ؟

والعجب في تفكير الماديين أنهم يستجيزون الكمال المطلق في كل عنصر

من عناصر الوجود إلا عنصر « العقل » وحده فإنهم يحدونه بالعقل الذي يتراءى في تكوين الإنسان دون سواه . فــلا حدود عندهم لمــادة الأكوان ولا لاستمرارها في الزمان والمكان ، ولا لما اشتملت عليه من القوة والحركة والتكرار ، ولكنهم إذا تكلموا عن أشرف هذه العناصر — وهو العقل — أجازوا حصره في البنية الإنسانية ولم يطلقوه من الحدود التي أطلقوا منها جميع عناصر الوجود .

فكيف جاز عندهم أن تكون المادة قادرة على خلق العقل ثم جردوها منه ملايين الملايين من السنين قبل ظهور الإنسان بين هذه الكائنات ؟

وهل هي ملايين الملايين من السنين وكفى ؟

كلا . فإن الكون الذي لا أول له قد انقضت عليه آماد وآماد لا تحسب بالملايين ولا بأضعاف أضعاف الملايين . فلماذا طبعت المادة على تكوين العقل ثم تجردت منه إلى ما قبل ظهور العقل الإنساني ... وهو تاريخ قريب — بل جد قريب — بالقياس إلى تلك الأوائل التي لا يحيط بها الحساب ؟

إن بعضهم يفسرون ذلك بتسلسل الدورات في المادة منذ الأزل الذي لا أول له إلى الأبد الذي لا تعرف له نهاية في الزمان ، ويعنون بتسلسل الدورات أن الكون ينتظم ثم ينحل في كل دورة من دوراته التي تمتد ربوات بعد ربوات من الدهور فتنشأ المنظومات السماوية ويتهيأ كوكب من كواكبها لظهور الحياة عليه ، وترتقي أطوار هذه الحياة حتى تبلغ مرتبة الحياة الإنسانية بما يقارنها من العقل والتمييز ، ثم تنتهي بعد ذلك إلى تمامها فتؤذن بالدثور والانحلال ، ثم تعود كرة أخرى دواليك من بداية السديم المنتشر في الفضاء إلى نهاية تلك الدرجة المقدورة من عنصر العقل : وهي درجة العقل الإنساني أو ما يشبه عقل الإنسان .

ويحسب هؤلاء الماديون أنهم أبطلوا بتفسيرهم هذا غرابة الظاهرة العقلية التي تختفي من الأزل ولا تبرز في الكون إلا قبل آلاف محدودة من السنين ، أو قبل الملايين وهي في حكم الآلاف . فلا غرابة إذن في دعواهم لأن العقل قديم يتجدد من أزل الآزال إلى أبد الآباد .

فهل زالت الغرابة بهذا الفرض العجيب ؟ وهل يجيز العقل أن يكون العقل وحده هو العنصر المحدود بأرقى ما يرتقي إليه الإنسان ؟ وأنه هو العنصر الطارىء العرضي في كائن واحد من الكائنات وهو الإنسان ... ؟ لماذا لا يكون العقل أزلياً في الوجود فيكون عقل إله لأن الأزل أليق الصفات بصفات الله ؟ لماذا نقبل « الدورات الأزلية » ولا نقبل العقل الأزلي وهو أولى بالقبول؟ لماذا نتحكم في تقرير حدود العقل ونتحكم في اختلاق تلك الدورات الأبدية وليس شيء من ذلك بعيان شهود ، ولا بمنطق صحيح ولا بعلم من علوم التجربة والاستقراء ؟

إن قبول فكرة الله أيسر من قبول هذه الأوهام ومن التعسف في إقامة هذه الحدود ، وآخر من يجوز لهم هذا التطوح في تلك الأوهام والفروض هم أولئك الماديون الذين يبطلون كل شيء غير الحس والتجربة والاستقراء . فإنهم إذا دخلوا في عالم الغيب والإيمان سقط مذهبهم كله من تحتهم وهم لا يشعرون .

* * *

ومن المذاهب الفلسفية الحديثة التي نشأت في القرن العشرين لتعليل ظهور الحياة في المادة مذهبان متقاربان في الأسس مع تباعد النتائج بينهما في الشرح والتفصيل ، وهما مذهب الحيوية المنبثقة الذي يقول به الفيلسوف الإنجليزي صمويل إسكندر ويعرف في الإنجليزية باسم Emergent Vitalism ... ومذهب التركيبة الكاملة الذي يقول به المارشال سمطس زعيم إفريقية الجنوبية المشهور ، ويعرف في الإنجليزية بالهولزم Holism من كلمة إغريقية بمعنى « الكل الكامل . »

وخلاصة الفكرة الأساسية في هذين المذهبين أن المادة تتجه إلى التركيب أو تكوين المركبات الكاملة ، وأن الحياة تظهر فيها عند التركيب كما تظهر الخصائص الكيمية من بعض العناصر عند امتزاجها ، ولم تكن قبل ذلك ظاهرة في هذه العناصر على انفراد . ومذهب صمويل إسكندر أعم من مذهب

المارشال سمطس في هذه الفكرة ، لأنه يقول بأن العقل الإلهي نفسه قد نشأ في الكون على هذا المنوال ، فكانت المادة من أزل الآزال ثم بزغ منها العقل الإلهي في طور من أطوار التفاعل والتآلف بين الذرات والأجزاء .

والمسألة هنا كما نرى مسألة اعتقاد وتقدير . ومتى كانت كذلك فلا ندري لماذا يسهل على العقل البشري أن يتصور الله مخلوقاً من المادة ولا يتصور المادة مخلوقة بقدرة الله ؟ ولماذا يرجح ذلك الاعتقاد على هذا الاعتقاد ؟

أما القول بأن المادة تتجه إلى التركيب فتنبثق الحياة منها ضرورة في بعض الأطوار فليس فيه تفسير لظهور الحياة ، بل كل ما فيه أنه وصف للظواهر الحية التي يقع عليها الحس ونعرفها بالاختبار . فقد شوهدت الأجسام الحية فقيل إن المادة تميل إلى تكوين الأجسام الحية ووقف التفسير عند تسجيل الظواهر المحسوسة واعتبار وجودها تفسيراً لأسباب هذا الوجود .

لكن هذا القول لا يفسر لنا اختصاص بعض الأجزاء بظهور الحياة فيها دون جميع الأجزاء التي تشتمل عليها الأكوان في الأرض والسماء؛ فإن أجزاء المادة قد بدأت معاً ولم تبدأ بفروق بينها تستلزم أن يتركب بعضها ويبقى سائرها بغير تركيب ... فلماذا وقع فيها هذا الاختلاف؟ بل لماذا كان هذا الاختلاف مقصوداً لتدبير البيئة التي تعيش فيها الحياة، وموافقة هذه البيئة لمطالب الأحياء من غذاء وحركة وامتياز عما حولهم من الجماد .

وإذا فرضنا أننا استطعنا في يوم من الأيام أن نركب عناصر المادة كما تتركب في جسم الكائن الحي المريد فهل تبرز فيها الحياة على المنوال الذي وصفوه؟ وإذا أتينا إلى رجل بعينه فاتخذناه مثالاً للتركيب ووضعنا في المخلوق المركب نموذجاً لكل خلية من خلايا جسمه بمادتها الطبيعية فهل تظهر في هذا المخلوق المركب أعراض الأخلاق الموروثة والملكات العقلية والخصائص التناسلية التي ينقلها الآباء إلى الأبناء ؟ ترى لو أننا ركبنا أسداً بخلايا جسمه كلها هل ينجم هذا الأسد مفترساً محبّاً لأكل اللحوم صالحاً لتوليد الأشبال من اللبؤات ؟ ترى لو أننا ركبنا بلبلاً بخلايا جسمه كلها هل ينجم هذا البلبل مغرداً يتعشق الورود ويألف الغناء بالليل ويخشى الصقور والنسور كما تخشاها

هذه البلابل المتوالدة من الذكور والإناث ؟ ترى لو ركبنا رجلاً على مثال أهل الصين ورجلاً على مثال الزنوج ورجلاً على مثال الهنود الحمر ورجلاً على مثال الأمريكيين البيض هل تكفي محاكاة الخلايا المادية لإبراز ما بين هذه الأجناس من الفروق والمزايا ومن العداوة والصداقة ومن الأذواق والشهوات ؟ وهل يسعى هذا الرجل إلى الزوجة أو المعشوقة كأنه الرجل الأصيل ؟ وهل يحنو على الوليد كأنه أبوه ؟ وهل يتكلم اللغة التي يتكلمها صاحب النموذج المحكي في تركيب الخلايا والأعضاء ؟

الواقع أن خلايا الحياة تحمل في تركيبها من الخصائص ما لا تحمله خلية أخرى في عالم المادة جمعاء . وأول هذه الخصائص قابلية التكرار والتنويع وتعويض النقص وحفظ النوع وتجديده على النحو الذي ينفرد به كل نوع من الأنواع . فكل خلية في الجسم تعمل ما ينبغي على النحو الذي ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي أن تعمل فيه ، وأعجب العجب في توزيع أعمالها إنما هو ذلك التنويع المعجز الذي يظهر من خلية واحدة يضعها الذكر وخلية واحدة تضعها الأنثى فتنقسم بالمقدار اللازم لتكوين الجسم كله وتذهب كل خلية إلى موضعها في القلب أو الرئة أو الكبد أو الدماغ ... فيتسق منها الجسم وتجري فيها وظائف الحياة . وليس يقتصر عملها بعد ذلك على الانتظام في بنية واحدة بل تنحل وتندفع الأجزاء المنحلة إلى حيث ينبغي أن تندفع وتتلقى البنية العوض الذي يعيدها إلى الانتظام من جديد . حتى الخلايا التي تتجه إلى تكوين الاسنان مثلاً تتجه بالمقدار الذي يحفظ لكل سن مادتها وحجمها وعملها في مضغ الطعام ، وتتجه في وقتها وأوانها وعلى حسب الحاجة إليها ، وتتجه في كل نوع على حسب المعهود في ذلك النوع مع وحدة المادة التي تتألف منها في جميع الأنواع . ومن اللغو الهازل أن يقاس هذا التقسيم العجيب إلى تقسيم البلورات التي تتكرر على نحو واحـــد في بعض المواد . فإن العوامل الآلية تحدث هذا التكرار ولا يمكن أن تحدث سواه . ولكن الأمر يحتاج إلى عوامل غير العوامل الآلية العمياء لتفسير هذا القصد المحكم في وضع كل خلية تتركب منها أجسام الأحياء .

والحكم العقلي المستقيم إذا رأينا عملاً يحقق قصداً أن نفهم أن القصد له قاصدٌ مريد . إلا إذا كان واجب العقل أن ينكر كل قصد ولا يقبل تفسيراً غير تفسير المصادفة والاتفاق . وهل للعقل أن يفترض المصادفة إلا إذا استحال عليه أن يفترض القصد والإرادة ؟ أو كان التفسير بالمصادفة والاتفاق أيسر وأوضح من التفسير بعمل القاصد المريد ؟

إن بعض العلماء البيولوجيين يزعمون أن قوانين المادة وحدها كافية لتفسير ظواهر الحياة في الأجساد ، ويخيل إلى بعض الناس أن « البيولوجيين » أحق العلماء بالحكم الفصل في هذا الموضوع ، لأن علمهم يسمى على الألسنة بعلم الحياة .

أما الحقيقة فهي أن البيولوجيين يعرفون أعضاء الأجسام الحية ولكنهم في أمر الحياة نفسها لا يمتازون على أحد من العلماء ،وليس من اللازم أن يكون النبوغ في التشريح ودراسة الوظائف العضوية مقارناً للنبوغ في الفلسفة والبحث عن الأصول الكونية الكبرى وأولها أصل الحياة ... وعلى هذا المثال لا يجوز للكيماوي أن يستأثر بالقول في أصل المادة وقدم الزمان والمكان لأنه يعرف تراكيب الأجسام ويعرف النسب التي تختلف بها هذه التراكيب. ولا يجوز لمهندس الطباعة أن يستأثر بالحكم في معاني الحروف وأسرار الكلمات لأنه يصب الحروف ويدير الآلات ويخرج من بين يديه كل نسخة من الكتاب ، ولا يجوز للنجار الذي يصنع الشطرنج أن يزعم أنه أقدر اللاعبين على تحريك هذه القطع في الرقعة وفقاً للحساب وطبقاً للقصد الذي يتوخاه اللاعب الماهر ، وإن كان هذا اللاعب الماهر أعجز الناس عن صنع قطعة أو إصلاح رقعة أو التفرقة بين خشب وخشب في صنع القطع والرقاع .

على أن الماديين لا يعرفون من قوانين المادة وخصائص الأجسام المادية ما يسوّغ لهم الجزم بامتناع المؤثرات الأخرى في حركاتها . لأن المطابقة التامة في التجارب المادية لم تتقرر بعد بتجربة واحدة . فكل تجربة تعاد لا تأتي بالنتيجة نفسها على وجه الدقة الكاملة بالغاً ما بلغ الإحكام في تركيب الآلات ويقظة المجربين ... وتعرف هذه الملاحظة بملاحظة هيزنبرج

Heisenberg الذي ضبط مقدار الخلل في هذه الاختلافات على وجه التقريب ، وهو مقدار — مهما يبلغ من صغره — كاف لفتح الباب وبقائه مفتوحاً لاحتمال المداخلة الروحية في بعض الحالات .

وخلاصة الرأي في برهان الخلق أن القول بأن الحياة والعقل من عمل حي عاقل قضية عقلية لا غبار عليها ، وأن القول بأن المادة هي مصدر كل شيء في الكون يلجئنا إلى فروض لا يقرها الحس ولا المنطق ، ولا توافق القسطاس الذي جعله الماديون مرجعاً لجميع الآراء والأحكام ، وهو قسطاس المشاهدة والدليل المحسوس .

* * *

أما برهان الغاية Teleological Argument فهو في لبابه نمط موسع من برهان الخلق مع تصرف فيه زيادة عليه .

لأنه يتخذ من المخلوقات دليلاً على وجود الخالق ويزيد على ذلك أن هذه المخلوقات تدل على قصد في تكوينها وحكمة في تسييرها وتدبيرها . فالكواكب في السماء تجري على نظام وتدور بحساب وتسكن بحساب ،وعناصر المادة تتألف وتفترق وتصلح في ائتلافها وافتراقها لنشوء الحياة ودوام الأحياء ، وأعضاء الأجسام الحية تتكفل بأداء وظائفها المختلفة التي تتحقق الحياة بمجموعها وتكملة عضو منها لعضو ووظيفة لوظيفة . ومن عرف التركيب المحكم الذي يلزم لأداء وظيفة البصر في العين تعذر عليه أن يعزو ذلك كله إلى مجرد المصادفة والاتفاق ، ويقال في كل حاسة من الحواس ما يقال في العين أو العيون التي تتعدد بتعدد الأحياء .

وقد توجهت لهذا البرهان ضروب شتى من النقد لم تصدر كلها من جانب الماديين أو القاطعين بالإلحاد .

فقد أنكر بعض الإلهيين أن يحيط العقل البشري بحكمة الله وأن تكون لله جل وعلا غايات تناط بالأحياء والمخلوقات ، وفهموا الغاية على أنها نوع من الحاجة التي يتنزه عنها الواحد الأحد المستغني عن كل ما عداه .

وليس أضعف من هذا الاعتراض سواء عممناه على الخلق كله أو فصلناه بالنظر إلى جميع الخلائق من الأحياء وغير الأحياء .

فإذا كان الله غنيّاً عن الحاجة فالمخلوقات لا تستغني عنها ، وإذا كانت حكمة الله أجل وأسمى من طاقة العقل البشري فالعقل البشري يستطيع أن يميز بين الأعمال المقصودة والأعمال المرسلة سدى بغير قصد وعلى غير هدى ، وإذا كانت القدرة السرمدية لا تحدها الغايات فالكائن المحدود لا بد له من غاية ولا بد لتلك الغاية من تقدير وتدبير . ومن أين يكون التقدير والتدبير في نظر الإلهيين إن لم يكن من الله ؟

وليس اعتراض الماديين على هذا البرهان بأقوى من اعتراض هؤلاء الإلهيين لأنهم يقولون إن نظام الكواكب لا يحتاج إلى تنظيم ، وإن كيان العناصر لا يحتاج إلى تكوين ، وإن طبائع المادة وحدها كافية لفهم هذا النظام وتفسير ذلك الكيان .

فالمادة الحامية تتحرك ، والحركة تشع الحرارة ، ومتى حدث الإشعاع قلت الحرارة في بعض الأجزاء واختلفت بينها درجة البرودة ، فانشق بعضها عن بعض ووجب بقانون الحركة المركزية أن يدور الصغير حول الكبير ويصمد على الدوران ؛ وهكذا تحدث المنظومات الشمسية وتثبت الثوابت وتدور السيارات حولها بحساب يوافق اختلافها في الحجم والسرعة والمسافة ودرجة الإشعاع .

ويقولون إن العناصر تتركب من نواة وكهارب ، ولا يعقل العقل إلا أن تكون نواة وكهرباً واحداً أو نواة وكهربين أو نواة وثلاثة كهارب أو أربعة أو خمسة إلى آخر ما تحتمله قوة النواة على التماسك والاجتذاب . وكلما اختلف العدد ظهر في المادة عنصر جديد بالضرورة التي لا محيص عنها ، وليس هنالك سبب غير هذا السبب لتعدد العناصر والأجسام .

وكل هذا صحيح من وجهة الواقع الذي نراه .

ولكن من أين لنا أن الواقع الذي نراه هو كل ما يحتمله العقل من فروض ووجوه ؟

ألازمٌ هذا بحكم البداهة ؟ أم هو لازم لغير شيء إلا أنه كان على هذا النحو وشهدناه ؟

فالبداهة لا تستلزم أن تكون الحركة ملازمة للحرارة وأن تكون الحرارة ملازمة للإشعاع .

والبداهة لا تستلزم أن يكون الصغير منجذباً إلى الكبير ،وأن تقضي الحركة المركزية بالدوران في فلك لا تتعداه .

وجائز في رأي العقل كل الجواز أن تكون حرارة ولا إشعاع ، وأن يكون انشقاق ولا انجذاب .

وجائز في حكم العقل ألا تكون نواة ولا تكون كهارب ، أو أن تكون حرارة ولا برودة ، وأن يكون تركيب من أجزاء متشابهة لا يتولد منها اختلاف.

فلماذا حدث هذا ولم يحدث غير هذا ؟

ولماذا كان حدوث هذا موافقاً لاختلاف الكواكب ، وكان اختلاف الكواكب موافقاً لاختلاف العناصر ، وكان اختلاف العناصر موافقاً لاختلاف الفصول والمواسم ، وكان اختلاف الفصول والمواسم موافقاً لقبول الحياة وتدبير ما يلزمها من نسب الحرارة وما يلزمها من قوام وغذاء ؟

إن العقل البشري هنا بين فرضين يختار منهما ما يشاء ، ولا محيص له من الاعتماد على سبب مفهوم لهذا الاختيار .

فإما أن يفرض أن القصد مستحيل وأن الجائز دون غيره هو أن يحدث النظام لامتناع الفوضى ، وتحدث الحياة لامتناع الموت ، ويحدث الإبصار لامتناع العمى ، ويحدث كل شيء سلباً بغير إيجاب .

وإما أن يفرض أن القصد يدل على القاصد المريد ، وأن الحقيقة الإيجابية شيء له وجود وليس الوجود كله للحقيقة السلبية في هذا الكون « الموجود » .

ولكنه لا يستطع أن يفرض الفرض الأول لغير سبب ، فما هو هذا السبب ؟ وما هو الموجب لهذا الأدعاء ؟

بل نحن لو فرضنا أن العلل السلبية هي التي تؤدي إلى هذه النتائج الإيجابية لما أعفانا ذلك من الحكم بأن العلل السلبية هي التدبير الذي يؤدي إلى تحقيق الغاية المقصودة .

فلك أن تقول إن الأحياء قد عاشت لأنها لم تنقرض كما انقرضت الأحياء الأخرى التي أعوزتها وسائل المعيشة وأسباب البقاء ، ولكن ليس لك أن تقول إن هذا التفاضل بين الأحياء لم يكن هو الطريق الذي اختاره الخالق المريد لاستبقاء الحياة المثلى والترقي بها في معارج الكمال ، ولا أن تقول إن المصادفة أقرب إلى التصور من هذا التفسير ، ولا سيما إذا رأيت أمامك أمثلة الترقي بالحياة من الخلية المفردة إلى عقل الإنسان .

ويبدو لنا أن الاعتراض الذي يقام له وزن بين جميع الاعتراضات المتجهة إلى هذا البرهان هو الاعتراض بوجود الشر والألم في الحياة . فكيف يقال إن القصد ظاهر في هذا العالم ثم يجتمع القصد مع وجود الشر والنقص والظلم فيه ؟ هل يقال إذن إن الشر مقصود ؟ وهل يقال إن الظلم مما يليق بحكمة الحكيم ؟

وليس جوابنا على هذا الاعتراض أن نعزو إلى الله دواعي مقدرة لخلق هذه الأمور ؛ فإن الدواعي التي نقدرها لن تبلغ بنا إلى نهايات الأشياء ، ولن تزال واقفة بنا عند بدايات مفروضة لا تغني عن تلك النهايات .

ولكننا نرجع إلى المقابلة بين هذا العالم وبين العالم الذي يتخيله أولئك المعترضون وافياً بالقصد أو جديراً بحكمة الله . فإن كان هو أقرب إلى التصور فقد صدقوا واصابوا ، وإن كان العالم الذي نحن فيه هو الأقرب إلى التصور فقد سقط الاعتراض .

فما العالم الذي يتخيل المعترضون أنه أجدر من عالمنا هذا بحكمة الله وقصد المدبر المريد ؟

هو عالم لا نقص فيه فلا نمو فيه، ولا آباء ولا أبناء، ولا تفاوت في السن والتهيؤ والاستعداد ، ولا تقابل في الجنس بين الذكور والإناث ، بل جيل واحد خالد على المدى لا يموت ولا يتطلب الغذاء ولا الدواء .

عالم لا نقص فيه فلا حدود فيه ، وكيف يوجد الناس بلا حدود بين واحد منهم وأخيه ؟ بل لماذا يوجد الألوف ومئات الألوف نسخةً واحدة لا فرق فيها بين أحد وأحد ، ولا محل فيها للاختلاف ... إذ كان الاختلاف يستدعي نقص صفة هنا ووجودها هناك ؟

إذن يخلق إنسان واحد يحقق معنى الإنسانية كلها ولا يكون فيه نقص ولا تعدد ولا تكون له بداية ولا نهاية ... فذلك إذن إله آخر مستمتع بكل صفات الكمال والدوام !

عالمهم المتخيل هو عالم لا حرمان فيه ، فلا ينتظر فيه الحي شيئاً يجيء به الغد ولا يشتاق اليوم إلى مجهول .

بل ماذا نقول ؟ أنقول الغد واليوم ؟ ومن أين يأتي الغد واليوم في عالم لا تغاير فيه ولا تنوع في التراكيب والحركات؟ إنما يأتي اليوم والغد من تغاير الكواكب بالحركة والضخامة والدوران . فإذا بطل التغاير والتركيب فلا شمس ولا أرض ولا قمر ولا أيام ولا أعوام .

هو عالم لا ألم فيه ولا اجتهاد فيه ، ولا اتقاء لمحذور ولا اغتباط بمنشود .

هو عالم لا أمل فيه ولا محبة ولا حنان ولا صبر ولا جزع ولا رهبة ولا اتصال بين مخلوق ومخلوق . لأن الاتصال تكملة ولا حاجة إلى التكملة بأرباب الكمال .

هو عالم لا ظلم فيه . فلا فضيلة ولا رذيلة . لأن الفاضل هو الإنسان الذي يعمل الخير ولو شقي به ويجتنب الشر ولو طاب له مثواه . فإذا ضمن الجزاء العاجل على أعماله أولاً فأولاً فلا فضل له على الشرير. وإذا وجد العالم وفيه أشرار يجزون أبداً بالعقاب وأخيار يجزون أبداً بالثواب فذلك ظلم أكبر من هذا الظلم الذي يأباه المنكرون للقصد والتدبير .

هو عالم لا فرق فيه بين الأبد الأبيد واللحظة العابرة ، لأنك تريد في كل لحظة عابرة من لحظاته أن تجمع حكمة الآباد، وأن تكون مقاصدها هي مقاصد الكون الذي لا تعرف نهاية طرفيه . فلا انتظار لبقية الزمن ولا موجب للانتظار ولن يحيا المخلوق المحدود بغير انتظار إلا كانت في حسه لوناً آخر من ألوان الفناء .

وقد يتم هذا المعنى حوار كتبته في موضوعه : وهو موضوع وجود الله من كتابي « في بيتي » حيث أقول على لسان سائل ومسؤول :

« قال صاحبي : وهل وصلت قط من فلسفة حياتك إلى شيء ؟

قلت : نعم . إن الله موجود .

قال : باسم الفلسفة تتكلم أو باسم الدين ؟

قلت : باسم الفلسفة أتكلم الآن . والفلسفة تعلمنا أن العدم معدوم فالوجود موجود . موجود بلا أول ولا آخر ، لأنك لا تستطيع أن تقول : كان العدم قبله أو يكون العدم بعده : وموجود بلا نقص لأن النقص يعتري الوجود من جانب عدم ولا عدم هناك .·. موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص ولا قصور ، والوجود الكامل الأمثل هو الله .

قال : وكيف توفق بين الوجود الأمثل وبين الشرور والآلام في هذه الحياة ؟

قلت : هذا سؤال غير يسير ، لأننا نحن الفانين لن نرى إلا جانباً واحداً من الصورة الخالدة في فترة واحدة من الزمان ، ومن يدرينا أن هذا السواد الذي يصادفنا هنا وهناك هو جزء لازم للصورة كلزوم النقوش الزاهية والخطوط البيضاء ؟ وماذا تستطيع أن تصنع لو ملكت الأمر وتأتّى لك أن تقذف بالشرور من الحياة ؟ بغير الألم والخسارة ما الفرق بين الشجاع والجبان وبين الصبور والجزوع ؟ وبغير الشر والسوء ما الفرق بين الهدى والضلالة وبين النبل والنذالة ؟ وبغير الموت كيف تتفاضل النفوس وكيف تتعاقب الأجيال ؟ وبغير المخالفة بينك وبين عناصر الطبيعة من حولك كيف يكون

لك وجود مستقل عنها منفصل عن موافقاتها ومخالفاتها ؟ وبغير الثمن كيف تغلو النفائس والأعلاق ؟

قال صاحبي : أليس عجزاً أن نشقى وفي الوسع ألا نشقى ؟ أليس عيباً أن نقصر عن الكمال وفي الوسع أن نبلغ الكمال ؟

قلت : وكيف يكون في الوسع أن يكمل المتعددون ؟ إنما يكون الكمال للواحد الدائم الذي لا يزول .

قال صاحبي : قل ما شئت فليس الألم مما يطاق ، وليس الألم من دلائل الخلود الرحيم .

قلت : على معنى واحد إن هذا لصحيح !

إنه لصحيح إذا كانت حياة الفرد هي نهاية النهايات وهي المقياس كل المقياس لما كان وما يكون . ولكن إذا كانت حياة الفرد عرضاً من الأعراض في طويل الأزمان والآباد — فما قولك في بكاء الأطفال ؟ إن الأطفال أول من يضحك لبكائهم حين يعبرون الطفولة ، وإنهم أول من يمزح في أمر ذلك الشقاء ، وليس أسعد الرجال أقلهم بكاء في بواكير الأيام .

يا صاحبي ! هذا كون عظيم . هذا كل ما نعرف من العظم ، وبالبصر أو بالبصيرة إن نظرنا حولنا لا نعرف العظم إلا من هذا الكون . ماذا وراء الكون العظيم مما نقيسه به أو نقيسه عليه ؟ فإن لم نسعد به فالعيب في السعادة التي ننشدها ، ولك أن تجزم بهذا قبل أن تجزم بأن العيب عيب الكون وعيب تدبيره وتصريفه وما يبديه وما يخفيه . ولك أن تنكر منه ما لا تعرف ، ولكن ليس لك أن تزعم أنه منكر لأنه مجهول لديك .. »

ونحسب أننا نقابل الاعتراض على دلائل الحكمة المقصودة بما يرجح عليه إذا قابلناه بمثل هذا التذكير والتعقيب ، ويكفي عندنا أن يكون برهان الإثبات أقوى من برهان الإنكار ... فلسنا نغتر ببرهان من براهين العقل الإنساني حتى نزعم له أنه يستوعب الوجود الإلهي كل الاستيعاب ، أو أننا نبلغ به مبلغ البراهين التي نقيمها على كل محدود في عالم المحسوس والمعقول ، لأن

وجود الله أكبر من ذرع العقول ، وإنما نعطي العقل حقه حين نضع له البرهانين وندع له أن يوازن بينهما ، وأن يطالب نفسه بدليل على الترجيح .

* * *

ويعتبر البرهان الثالث من براهين أهل الصناعة . لأنه مما يتداول بين الباحثين في المنطق والفلسفة الدينية ولا نسمع به كثيراً بين جمهرة المؤمنين الذين لا يطرقون أبواب هذه البحوث ، وذلك هو برهان الاستعلاء والاستكمال أو برهان المثل الأعلى ، ويسمى عندهم The Ontological Argument

وقد صاغه القديس أنسلم Anselm في صورته الأولى ، وزاد اللاحقون به ونقحوه حتى بلغ كماله في فلسفة ديكارت ، وأوشك أن ينسب إليه .

وفحواه في صيغته الجامعة أن العقل الإنساني كلما تصور شيئاً عظيماً تصور ما هو أعظم منه . لأن الوقوف بالعظمة عند مرتبة قاصرة يحتاج إلى سبب ، وهو — أي العقل الأنساني — لا يعرف سبب القصور .

فما من شيء كامل إلا والعقل الإنساني متطلع إلى أكمل منه ، ثم أكمل منه ، إلى نهاية النهايات ، وهي غاية الكمال المطلق التي لا مزيد عليها ولا نقص فيها .

وهذا الموجود الكامل الذي لا مزيد على كماله موجود لا محالة. لأن وجوده في التصور أقل من وجوده في الحقيقة ، فهو في الحقيقة موجود . لأن الكمال المطلق ينتفي عنه بسبب عدم وجوده ، ولا يبقى له شيء من الكمال ، بل نقص مطلق هو عدم الوجود .

فمجرد تصور هذا الكمال مثبت لوجوده .

والله ثابت الوجود لأنه هو غاية الكمال ، وكل نقص عن هذه المرتبة القصوى لا يتصوره العقل ولا يقبله ولا يستريح إليه ، لأن تصور الكمال الأسمى مرادف لتصور الكمال الموجود .

فالعقل الإنساني لا يتصور إلا أن الله موجود .

وقد سخر من هذا البرهان رجال الدين أنفسهم من معاصري القديس أنسلم في القرن الحادي عشر ، وعلى رأسهم الراهب جونلو Gaunilo ... وجاراه في معنى هذه السخرية عمانويل كانت من كبار الفلاسفة المحدثين ، وخلاصة انتقادهم أنك إذا تصورت جزيرة بالغة الكمال في مجاهل البحار لم يلزم من ذلك أن الجزيرة قائمة هناك ، وإذا تصورت عشرة دنانير لم يلزم من ذلك أن تنطبق كفك على تلك الدنانير ، وأن وجود الشيء المتصور غير محتوم .

والبرهان في الواقع أقوى وأمتن من أن ينال بمثل هذا الانتقاد . لأننا نستطيع أن نتصور عشرة دنانير دون أن نستلزم وجودها في الحقيقة ، ولكننا لا نستطيع أن نتصور كمالاً لا مزيد عليه ، ثم نتصوره في الوقت نفسه نقصاً لا مزيد عليه ، لأنه معدوم ... وإذا قلنا إن الديشليون لا يمكن أن يكون أكبر عدد فالديشليون كالواحد موجود بغير كلام ، وإن لم نستخدمه في عد شيء من الأشياء .

وليس ديكارت بالمغالي حين يتوسع في هذا البرهان فيرى أن وجود الله هو الثابت المحقق ومنه يستدل على وجود العالم وما فيه من المحسوسات. لأن المحسوسات متغيرة متقلبة والحس قاصر مضلل ، والوهم غالب عليه ما لم يثبت وجوده من طريق الحقيقة المطلقة ، وهي الله .

فالعقل يستلزم وجود كائن كامل حق منزه عن العيوب، ولا حقيقة ما لم تكن هذه الحقيقة المطلقة ثابتة في العقول ، ومن إيمان العقول بها يعلم أن هذا العالم موجود وليس بوهم ولا خداع . إذ كان الله خالقه منزهاً عن الوهم والخداع .

ونحن على دأبنا في تلخيص هذه البراهين نكتفي بالموازنة بينها وبين براهين الإنكار أو بينها وبين الردود عليها . ونعلم أنها براهين تستحق الاعتبار إذا رجحت في كفة الميزان على ما يقابلها ويناقضها .

وهذا هو قول المثبتين في تصور الكمال .

فأمـــا المنكرون فيقولون إنهم يستطيعون أن يتصوروا الكون ناقصاً في عنصر العقل مع أنه سرمد لا أول له ولا آخر ولا حـــدود لمقداره في المادة والقوة ، أو يقولون إنهم يستطيعون أن يتصوروا الكون كاملاً في كل شيء إلا في عنصر العقل ... فإن محتواه منه لم يتجاوز حدود عقل الإنسان .

ولمن شاء أن يختار من القولين ما يشاء .

* * *

ويعتمد عمانويل كانت — الذي يستضعف هذا البرهان — على برهان أقوى منه وأصح في الدلالة على « الله » كما ينبغي له من الصفات .

فعنده أن برهان الخلق وبرهان القصد يثبتان وجود الصانع القادر ولكنه لا يلزم من قدرته وصنعته أنه « الإله » الذي يصدر منه الخير والرحمة ويعبده الناس عبادة الحب والإيمان .

وإنما يثبت وجود هذا الإله بعلامة في النفس الإنسانية لا يتأتى وجودها فيها بغير وجود إله ، وتلك هي علامة الوازع الأخلاقي أو علامة الواجب أو علامة الضمير .

فمن أين استوجب الإنسان أن يدين نفسه بالحق كما نعرفه إن لم يكن في الكون قسطاس للحق يغرس في نفسه هذا الوجوب ؟ ومن أين نقرر في طبع الإنسان أن الواجب الكريه لديه أولى به من إطاعة الهوى المحبب إليه ، وإن لم يطلع أحد على دخيلة سره ؟

المستضعفون لهذا البرهان يقولون إنها العادة الاجتماعية رسخت في النفس حتى استحالت إلى رغبة مقبولة أو مطلب محبوب .

ولكنهم ينسون أن معرفة السبب لا تقضي بإبطال الغاية أو بفقدان الحكمة .

فنحن نعلم أن القطار يتحرك بغليان المرجل فيه ، ونعلم أن المهندس قد مد قضبانه لأنه يكافأ على مدها بأجر يحتاج إليه ، وأن نظار المحطات ييسرون حركة القطار لأنهم مجزيون على ذلك أو معاقبون على إهماله ، ولكن ذلك

كله لا يبطل الغاية ولا يقضي بمسير القطار لغير حكمة وقيام العمل كله بغير تدبير .

ثم ينسى المستضعفون لبرهان الضمير أن « العادة الاجتماعية » ليست بالتفسير الذي يعلل نشأتها وإنما هي تكرير للمشاهدة كما رأيناها . فإذا سألهم سائل : لماذا نشأت العادة الاجتماعية ؟ قالوا للمصلحة الاجتماعية .... ! ولكنهم لا يسألون أنفسهم : لماذا كانت المصلحة الاجتماعية أمراً مفروغاً منه مقضياً بوقوعه . ولماذا تعلل المصلحة الاجتماعية نشوء العادة ولا تحتاج هي إلى تعليل ؟ . . .

ولم يكن « عمانويل كانت » أول من قال بهذا البرهان بين الغربيين ، لأن برهانه هذا صورة مختصرة من برهان القديس توما الأكويني الذي يستدل به على وجود الله من آيات الخير ومحاسن الجمال في نفس الإنسان وفي مشاهد الطبيعة .

فنحن نفضل جميلاً على جميل ومأثرة على مأثرة ، ولا تتأتى لنا المفاضلة بينها بغير قسطاس شامل نرجع إليه في فهم الخير والجمال . وهذا القسطاس الشامل لا يكون فيما دون تلك الخيرات والمحاسن ، بل فيما فوقها إلى مصدرها الأصيل . وهو الله .

ولا يتعين أن يكون كل شيء جميلاً وكل شيء خيراً لنبحث عن ذلك القسطاس في العالم كله . بل يكفي أن يكون في العالم خير وجمال ليبحث الذهن عن ذلك القسطاس ويقتضيه .

* * *

هذه هي زبدة البراهين الفلسفية العامة على وجود الله . ومن الحق أن نعيد هنا أن الإيمان الإلهي لا يقوم عليها وحدها في البصيرة الإنسانية ، وأن قصاراها من الإقناع أنها أرجح وزناً من ردود المنكرين ، ولا سيما المنكرين الذين في إنكارهم ادعاء وهجوم على الفروض بغير دليل ، وبغير إيمان .

ولقائل أن يقول في هذا الصدد : ولماذا يحوجنا الله إلى البراهين لإثبات وجوده ؟ لماذا لا يتجلى للعيان فيعرفه كل إنسان !

ونقول نحن : إننا لا ندري ... ولكننا إذا طلبنا أن تتجلى الحقيقة الإلهية لكل مخلوق ،وأن تتساوى العقول جميعاً في استكناه جميع الحقائق بغير خفاء، عدنا إلى المخلوقات المتشابهة في الكمال بغير اختلاف قط وبغير حدود في المعرفة والخليقة ، وليس تخيلنا لذلك العالم المطلوب بأيسر من تخيلنا للعالم المشهود كما عهدناه . فإن العالم الذي يوجد فيه الإيمان وجوداً آلياً أقل حكمة من العالم الذي يجاهد فيه الضمير جهاده للوصول إلى الإيمان .

البراهين القرآنية

لم تتكرر البراهين على إثبات وجود الله في كتاب من كتب الأديان المنزلة كما تكررت في القرآن الكريم .

فليس في التوراة ولا في الإنجيل أكثر من إشارات عارضة إلى الملحدين الذين ينكرون وجود الله .

لأن أنبياء التوراة كانوا يخاطبون أناساً يؤمنون بإله إسرائيل ولا يشكون في وجوده . فلم يكن همهم أن يقنعوا أحداً من المرتابين أو المنكرين ، وإنما كان همهم تحذير القوم من غضبه وتخويفهم من عاقبة الإيمان بغيره ، وتذكيرهم بوعده ووعيده كلما نسوا هذا أو ذاك،في هجرتهم بين الغرباء الذين يعبدون إلهاً غير « يا هواه » إله إسرائيل دون غيرهم من الشعوب !

نعم دون غيرهم من الشعوب . لأن أبناء إسرائيل كانوا يحسبونه لهمولا يحبون أن يشركهم فيه غيرهم . فلا هم يشركون معه غيره من الآلهة ولا هو يشرك معهم غيرهم من الشعوب . وهكذا كانوا يفهمون التأليه في تاريخهم القديم ، قبل خلوص الإيمان بالتوحيد من شوائب الشرك والتعديد.

فعبّاد « يا هواه » لم يكونوا ينكرون وجوده ولا ينكرون وجود غيره . وإنما كان هو إلههم المفضل على غيره من الآلهة ، كما كانوا هم الشعب المفضل على الشعوب .

فالأرباب الأخرى عندهم موجودة كما يوجد إلههم « يا هواه » ... ولكنها لا تستحق منهم العبادة لأنها أرباب الغرباء والأعداء . وكل عبادة لها

فهي من قبيل الخيانة العظمى وليست من قبيل الكفر كما فهمه الناس بعد ذلك، وغاية ما في الأمر أن طاعة الآلهة الغريبة هي كخدمة الملك الغريب... نوع من العصيان والخيانة .

لهذا لم يشغل أنبياء التوراة السابقون بإثبات وجود يا هواه أو بإثبات وجود الأرباب على الإجمال ، وإنما كان شغلهم الأكبر أن يتجنبوا غيرة يا هواه وغضبه وأن يدفعوا عن الشعب نقمته وعقابه . ولم يكن له عقاب أشد وأقسى من عقابه لأبناء إسرائيل كلما انحرفوا إلى عبادة إله آخر ، من آلهة مصر أو بابل أو كنعان .

ولما ظهرت المسيحية لم يكن بينها وبين المذاهب الإسرائيلية خلاف على وجود الله ولا على أنبياء التوراة ، وإنما كان الخلاف الأكبر على نفاق الرؤساء والكهان في مظاهر العبادة واستغلالهم الشعائر المقدسة في كسب المال وجلب السلطان ، وتغليبهم مطامع الدنيا على فرائض الإيمان .

ولم يشعر الدعاة المسيحيون بالحاجة إلى تمحيص القول في الربوبية إلا بعد عموم الدعوة في بلاد اليونان والرومان وغيرهم من أمم الحضارة في ذلك الحين ، أي بعد كتابة الأناجيل بعهد غير قصير .

فلم تتكرر البراهين على إثبات وجود الله في أسفار التوراة والإنجيل لذلك السبب الذي أجملناه . أما القرآن فقد كان يخاطب أقواماً ينكرون وأقواماً يشركون وأقواماً يدينون بالتوراة والإنجيل ويختلفون في مذاهب الربوبية والعبادة ، وكانت دعوته للناس كافةً من أبناء العصر الذي نزل فيه وأبناء سائر العصور، ومن أمة العرب وسائر الأمم، فلزم فيه تمحيص القول في الربوبية عند كل خطاب ، وقامت دعوته كلها على تحكيم العقل في التفرقة بين عبادة وعبادة وبين الإله « الأحد » وتلك الآلهة التي كانت تعبد يومئذ بغير برهان .

كان فيمن خاطبهم القرآن أناس ينكرون وجود الله « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » .

وكان فيهم من يدينون للأوثان ولا يقبلون عبادة غير العبادة الوثنية كما توارثوها عن الأجداد والآباء .

وكان فيهم من يشوبون الوحدانية بالوثنية ومن يختصمون على تأويل الكتب المنزلة كما اختصمت طوائف اليهود وطوائف المسيحيين .

وكان يخاطب العقل ليقنع المخالفين بالحجة التي تقبلها العقول الإنسانية ، فجاء بكل برهان من البراهين التي لخصناها في الفصل السابق ، وجعل الهدى من الله ولكنه من طريق العقل والإلهام بالصواب .

« قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء » .

« قل إن الهدى هدى الله » ... « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » .

« فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام » .

وآيات الله مكشوفة لمن يريدها ويستقيم إلى مغزاها ، ولكنها هي وحدها لا تقنع من لا يريد ولا يستقيم : « لو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

فحتى العيان لا يكفي لإقناع من صرف عقله عن سبيل الإقناع ، لأنه يتهم بصره وسمعه فيما رأى بعينيه وسمع بأذنيه ، وكل شيء في الأرض والسماء كاف لمن جرد عقله من أسباب الإنكار والإصرار .

* * *

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين » .

* * *

« ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا

سراجاً وهاجاً وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً لنخرج به حبّاً ونباتاً وجنات ألفافاً »

* * *

« وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون »

* * *

« وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج »

* * *

« وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ... »

* * *

« وما خلق الذكر والأنثى ... »

* * *

« فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً . ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »

* * *

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون »

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

* * *

« قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن

يخرج الحي من الميت ومن يخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله .. »

* * *

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »

* * *

« قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم »

* * *

« ليس كمثله شيء »

* * *

« ولله المثل الأعلى »

* * *

« وفوق كل ذي علم عليم »

* * *

« يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً »

* * *

وليست هذه جميع الآيات التي وردت في القرآن الكريم بإقامة البرهان على وجود الله ، ولكنها أمثلة منها تجمع أنواعها ونرى منها أنها قد أحاطت بأهم البراهين التي استدل بها الحكماء على وجوده : وهي براهين الخلق والإبداع وبراهين القصد والنظام ، وبراهين الكمال والاستعلاء والمثل الأعلى .

ومما يستوقف النظر أن البراهين التي جاء بها القرآن الكريم وخصها بالتوكيد والتقرير هي أقوى البراهين إقناعاً وأحراها أن تبطل القول بقيام الكون على

المادة العمياء دون غيرها ، ونعني بها « أولاً » برهان ظهور الحياة في المـــادة « يخرج الحي من الميت » ... « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ... » وثانياً برهان التناسل بين الأحياء لدوام بقاء الحياة « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً » ... « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .

فلم يحاول الماديون قط أن يفسروا ظهور الحياة في المادة الصماء إلا وقفوا عند تفسير الحاصل بالحاصل ، أو تخبطوا في ضروب من الرجم بالغيب لا يقوم عليها دليل ، وهم إنما يهربون من الإيمان بوجود الله لأنهم لا يصدقون بالغيب ولا يعتمدون غير المشاهدة وما هو في حكمها من دليل ملموس .

فمنهم من يفسر ظهور الحياة في المادة بأن المادة فيها طبيعة الحياة بعـــد التركيب والتناسق ، وليس في هذا القول تفسير ... بل هو بمثابة تفسير الواقع المحسوس بالواقع المحسوس .

وبعض العلماء كاللورد كلفن يرجح أن جراثيم الحياة قد انتقلت إلى الكرة الأرضية على نيزك من تلك النيازك الهائمة في الفضاء ، ولكنه لا يستغني بهـــذا التفسير عن تعليل ظهور الحياة حيث انتقلت من موضعها إلى الكرة الأرضية ، ولا يرى أن الحياة من نتاج المادة الصماء .

ولا يسع العقل في أمر ظهور الحياة إلا أن يأخذ بأحد قولين . فإما أنها خاصة من خواص المادة ملازمة لها فلا حاجة بها إلى خالق مريد ، وإنما أنها من صنع خالق مريد يعلم ما أراد .

فإذا كان هذا العالم كله مادة ولا شيء غير المادة ، لزم من ذلك أن المادة أزلية أبدية لا أول لها ولا آخر ، وأنها موجودة منذ الأزل بكامل قواها وجملة خصائصها ، وأن خصائصها ملازمة لها حيث كانت بغير تفرقة بين المادة في هذا المكان من الفضاء ، والمادة في غير ذلك المكان .

ولا معنى إذن لظهور الحياة في كوكب دون كوكب ، وفي زمان دون زمان، ولا معنى لأن تظل خصائص الحياة بلا عمل ملايين الملايين من السنين، بل فوق ملايين الملايين من حساب السنين ، ثم تظهر بعد ذلك في زمـــان

يحسب تاريخه بالآلاف ، ولا يقاس إلى الأزل الذي لا يدخل في حساب .

والمسألة هنا مسألة اضطرار لا اختيار فيه ، فلو كانت إرادة مريد لجاز تقدير زمن دون زمن وكوكب دون كوكب ، لأن التقدير طبيعة الاختيار والإرادة ، ولكنها خصائص ضرورية لا تملك الاحتجاب من أزل الآزال قبل أن تظهر على الكرة الأرضية أو غيرها من الكواكب في هذا الأمد المحصور من الدهور . فأين كانت خصائص التركيب منذ أزل الآزال ؟ ولماذا يكون التركيب محتاجاً إلى زمان إذا كان من طبيعة المادة وكانت طبيعة المادة ملازمة لها منذ وجد لها وجود ؟ ولماذا يحتاج التركيب إلى هذا المقدار من الزمان بعينه ولا يتم في غير جزء من المادة وفي غير مكان محدود من الفضاء ؟ إن المسألة ليست مسألة ألف سنة ولا عشرة آلاف سنة ولا مليون ولا عشرة ملايين ولا ألف مليون ولا ملايين الملايين من السنين ، ولكنها مسألة « أبد » لا يحصى من بداية العالم وليست له بداية تقف عندها العقول . فلماذا تأجلت خصائص الحياة كل هذا الزمان الذي لا يدخل في حصر ولا إحصاء ؟ ولماذا اختلف التوزيع والتركيب في أجزاء الفضاء وآماد الزمان ؟ ولماذا جاءت الحياة مصادفة ثم دامت هذه المصادفة بكل ما يلزم لدوامها من تدبير ، وليس للمادة الصماء تدبير ؟

على العقل أن يبدي أسبابه لترجيح القول بهذه الفروض على القول بظهور الحياة من صنع خالق مريد ، ولا نعرف أسباباً لترجيح الفرض العسير على الفرض اليسير .

والفرض اليسير هو الفرض الآخر : وهو أن الحياة قد ظهرت من صنع خالق مريد . وإننا إذا فاتنا أن نعلم مقاصده كلها أو بعضها — فليس في ذلك ما يأباه العقل أو ينفيه. لأن الخالق المريد هو الذي يعلم مراده كله ولا يلزم من ذلك أن يعلمه كل عقل ويحيط به كل عاقل . فنحن لا نستطيع أن نقول إن قوانين المادة العمياء قد اختارت لظهور الحياة هذا الزمان وهذا المكان ، ولا نستطيع أن نقول إن قوانين المادة في شأن الحياة لا تسري إلا بعد ملايين الملايين من الدهور منذ أزل الآزلين . ولكننا نستطيع أن نقول إن اختيار الزمان والمكان من فعل مختار مريد ، وإنه هو الذي يعلم ما قد اختار وما قد أراد . ولسنا بعد

هذا محتاجين إلى التساؤل عن اختيار الزمان والمكان لظهور الحياة . لأنه — مع وجود الخالق المريد — لا تكون الحياة الحيوانية أو الحياة الإنسانية هي أول نشأة للحياة الكونية في الزمان كله والمكان كله ، وإنما هي ظاهرة من ظواهر الحياة الكونية لا عجب أن يكون لها وقت محدود وحيز محدود .

فإخراج الحياة من المادة الصماء — أو إخراج الحي من الميت — معجزة حقيقة بتوكيد القرآن الكريم وتقريره وتعجيب العقول من خفاء دلالتها على من تخفى عليه فإن المادة قد تنتظم في أفلاك ومدارات وبروج ، لأن الانتظام حالةٌ من الحالات التي تقع للمادة ولا تضطر العقل إلى افتراض قوة من خارجها. أما أن تنشىء المادة لنفسها أسماعاً وأبصاراً وأفئدة فليست هذه من حالاتها التي يقبلها العقل بغير تفسير . وكل ما قيل في نفي العجب عن تركيب الجسم الحي — أنه لا عجب فيه لأننا نرى الآلات المادية تعمل بنظام وتوزع العمل فيها لمقصد معلوم. ولكن العجب كل العجب في هذا التشابه بين الآلات والأجسام الحية ، لأن الآلات لا تنشأ بغير صانع مريد، ولا يغنينا تعليل أعمالها بقوانين الحرارة والحركة عن تجاوز القوانين إلى إرادة المهندس المسخر لهذه القوانين .

وقد كان الناس ينظرون بالعين المجردة إلى أعضاء الجسم الحي فيعجبون وسعهم من العجب لدقتها وتساند أجزائها وتعاون وظائفها وسريان عوامل النمو فيها بمقاديره الضرورية على حسب السن والنوع والفصيلة ، سواء في جسم الانسان أو جسم الحيوان أو جسم الحشرة أو جسم النبات ... فأحرى بهم أن يعجبوا أضعاف ذلك العجب بعد أن عرفوا بالمجاهر والتحليلات مم تتألف تلك الأعضاء ، وعلى أي نحو تتساند تلك الوظائف ، وتبين لهم أن هذه الأعضاء البارزة للعيان مجموعة من ذرات لا ترى الألوف منها بالعين المجردة ، وأن كل ذرة منها تقع في موقعها من الجسم وتعاون بقية الذرات فيه كأنها على علم بها وبما تطلبه منها ، ولا تضل واحدة منها عن طريقها لمرض أو عجز طرأ عليها إلا تكفل سائرها بإصلاح خطئها وتقويم ضلالها .

قال الأستاذ ليثز Leathes في خطاب الرئاسة السنوي بقسم الفزيولوجي من جامعة أكسفورد عام ١٩٣٦ ما فحواه : أن كل خلية من البروتين تتألف من

سلسلة فيها بضع مئات من الحلقات ، وأن كل حلقة منها هي تركيبة من ذرات قوامها حمض من الأحماض النوشادرية ، وهي أحماض يبلغ المعروف منها نحو العشرين ، ويجوز أن يقع كل منها موقعه على اختلاف في النسبة والترتيب ، ولكننا لا نراها في بعض الأنسجة إلا على ترتيب واحد ونسبة واحدة بغير شذوذ ولا اختلاف .

فهل نستطيع أن نتخيل مبلغ الدقة في هذه الإصابة بين احتمالات الخطأ التي لا تحصيها أرقامنا المألوفة ؟

يكفي لتقريب هذه الدقة من الخيال أن نذكر أن الحروف الأبجدية في لغات البشر كافة لا تتجاوز الثلاثين ، ويتألف من تراكيبها المتغيرة كل ما تلفظ به الأمم من الكلمات والعبارات . فإذا كانت خلية البروتين في حجمها الخفي قابلة لأضعاف ذلك التكرار ثم لا نشاهد فيها إلا كلمة واحدة في ترتيب واحد لا يتغير فقد عرفنا على التقريب معنى تلك الإصابة في التوفيق والتركيب .

يقول الأستاذ ليثز لتقريب هذا الخيال : إن الضوء يصل من طرف المجرة إلى الطرف الآخر في ثلثمائة ألف سنة . فإذا أردنا أن نشبه إصابة الخلية في تركيبها بمثل مفهوم — فهذه الإصابة تضارع إصابة الرصاصة التي تنطلق من الأرض فتصيب هدفاً في نهر المجرة بحجم عين الثور ولا تخطئه مرة من المرات ، وهذا على فرض أن حلقات الخلية خمسون فقط وليست بضع مئات !

لقد بطل معنى القصد في لغة العقل إن كان هذا كله مصادفة لا تستلزم الخلق والتدبير .

ونحن مع هذا لا نبلغ غاية العجب من هذا التركيب المحكم المصيب ... لأن الجسم الحي الذي تتكرر فيه هذه المعجزات كل لحظة من لحظاته لا تزال فيه بقية للعجب لعلها أعجب من كل ما تخيلناه ، وهي أن هذه الذرات الخفية تتجمع وتتفرق وتلتئم وتنفصل على نحو يضمن لها التجدد أو يضمن الدوام للحياة ، فيتألف كل حي من جنسين وتخرج من كل منهما خلية واحدة يتكون منهما حي جديد ، وتنقسم هاتان الخليتان تارة أزواجاً وتارة فرادى على الوضع المطلوب في المرحلة المطلوبة ، ويتفق عددها في كل نوع من الأنواع

الحية بغير زيادة ولا نقصان ، وينطبع كل حيوان على عادات وغرائز تسوقه إلى التناسل في موعده المقدور ، فيبني العش قبل أن ينسل إن كان من الطيور ، ويفارق الماء الملح إلى مداخل الأنهار أو الخلجان قبل أن ينسل إن كان من سمك البحار ، ويمتلىء بالشوق إلى شريكه في التوليد قبل موعد التوليد على اختلاف الأنواع والأجناس .

ونعود فنقول مرة أخرى : إن معنى القصد قد بطل في عقل الإنسان إن كان القول بالمصادفة هنا أيسر من القول بالخلق والتدبير .

فالقرآن الكريم قد خاطب الأحياء بلغة الحياة ، وخاطب العقلاء بلغة العقل ، حين كرر برهان الحياة وبرهان النسل في إثبات وجود الخالق الحكيم .

وبرهانه على وحدة هذا الخالق يضارع برهان الحياة وبرهان النسل على وجوده وحكمته وتدبيره .

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » .

ولن يقوم على ثبوت الوحدانية برهان أقوى من هذا البرهان ، وهو برهان التمانع كما يسميه المتكلمون والباحثون في التوحيد .

وقد اختلفوا فيه ولكنه اختلاف لا موجب له مع فهم البرهان على معناه الصحيح الذي لا ينبغي أن يطول الجدل عليه .

فالإمام التفتازاني يقول إنه برهان إقناعي أو برهان خطابي ، لجواز الاتفاق بين الإلهين أو بين الآلهة ، وإن العقل لا يستلزم الخلاف .

والإمامان أبو المعين النسفي وعبد اللطيف الكرماني ينحيان عليه أشد الإنحاء ويقذفانه بالكفر لأن الاستدلال ببرهان إقناعي « يستلزم أن يعلم الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم ما لا يتم الاستدلال به على المشركين ، فيلزم أحد الأمرين إما الجهل وإما السفه ، وتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً » .

والإمام محمد البخاري تلميذ التفتازاني يدفع التهمة عن أستاذه بأن الأدلة على وجود الصانع تختلف بحسب إدراك العقول ، والتكليف بالتوحيد يشمل

العامة وهم قاصرون على إدراك الأدلة القطعية البرهانية ولا يجدي معهم إلا الأدلة الخطابية العادية .

وقال الرازي إن الفساد ممكن إذا تعددت الآلهة ، وقد أجرى الله الممكن مجرى الواقع بناء على الظاهر .

وقال الإمام نور الدين الصابوني فيما رواه عنه صاحب سفينة الراغب : « لو ثبتت الموافقة بينهما — بين الإلهين — فهي إما ضرورية فيلزم عجزهما واضطرارهما أو اختيارية ويمكن تقدير الخلاف بينهما فيتحقق الإلزام » .

وأحسن الإمام إسماعيل الكلنبوي حيث قال في حاشيته على شرح الجلال : « لا يخلو إما أن يكون قدرة كل واحد منهما وإرادته كافية في وجود العالم أو لا شيء منهما كاف أو أحدهما كاف فقط . وعلى الأول يلزم اجتماع المؤثرين التامين على معلول واحد وهو محال ، وعلى الثاني يلزم عجزهما لأنهما لا يمكن لهما التأثير إلا باشتراك الآخر ، وعلى الثالث لا يكون الآخر خالقاً فلا يكون إلهاً » .

وصواب الأمر أن وجود إلهين سرمديين مستحيل ، وأن بلوغ الكمال المطلق في صفة من الصفات يمنع بلوغ كمال مطلق آخر في تلك الصفة ، وأن الاثنينية لا تتحقق في موجودين كلاهما يطابق الآخر ولا يتمايز منه في شيء من الأشياء ، وكلاهما بلا بداية ولا نهاية ولا حدود ولا فروق ، وكلاهما يريد ما يريده الآخر ويقدر ما يقدره ويعمل ما يعمله في كل حال وفي كل صغير وكبير ، فهذان وجود واحد وليسا بوجودين ، فإذا كانا اثنين لم يكونا إلا متمايزين متغايرين ... فلا ينتظم على هذا التمايز والتغاير نظام واحد ، وإذا كانا هما كاملين فالمخلوقات ناقصة ولا يكون تدبير المخلوق الناقص على وجه واحد بل على وجوه .

وعلى هذا فبرهان القرآن الكريم على الوحدانية برهان قاطع وليس ببرهان خطاب أو إقناع .

وشأن القرآن في عالم الدين والعقيدة معروف ، وهذا شأنه في عالم الحكمة الإلهية إذ يتناول وجود الله ووحدانية الله .

آراء الفلاسفة المعاصرين
في الحقيقة الالهية

كان الأقدمون يقولون بالإله « المقيد » لأنهم يؤمنون بتعدد الآلهة أو بوجود إلهين اثنين يتناظران ويتغالبان ، وهما إله الخير وإله الشر ، أو إله النور وإله الظلام .

ولما شاع الإيمان بالتوحيد بطل القول بالإله المقيد لأن الإله الواحد لا يحدّه شيء ولا تحيط به القيود والنهايات ، وكل ما قبلته العقول الفلسفية في حقه أن قدرته جل وعلا لا تتعلق بالمستحيل ، ولم يقبل بعض المتكلمين حتى هذا القول ...لأنهم رأوا أن الاستحالة نوع من التقييد الذي تتنزه عنه قدرة الله.

ثم عرف الناس أن الأرض كرة سيارة تدور في الفضاء كما يدور غيرها من السيارات .

وعرفوا مذهب النشوء والتطور ، فقال لهم دعاته إن الإنسان حي كسائر الأحياء التي نشأت على الأرض وتحولت بها أحوال البيئة من طور إلى طور ومن طبقة إلى طبقة في مراتب المخلوقات .

فتواتر القول بما كان لهذين الكشفين من الأثر الخطير في نظرة الإنسان إلى الكون ، ونظرته إلى نفسه ، ونظرته إلى حقيقة الحياة .

كان يحسب أن الأرض مركز الوجود، وأنه هو مركز الأرض أو غاية الخلق كله في الأرضين والسماوات .

وكان يحسب أنه شيء علوي تسخر له الأحياء الأرضية ، ولا يحسب أنه فرع من فروع الشجرة التي نبتت منها سائر الفروع .

فتغير نظره إلى الكون ونظره إلى نفسه .

ولكن هل تغير نظره إلى الله ؟

لم يكن ذلك حتماً لزاماً من نتائج العلم بدوران الأرض أو العلم بمذهب النشوء والارتقاء ، لأنهما خليقان أن يحدّا من قدر الإنسان ولكنهما لا يحدان من قدرة الله .

وغاية ما هنالك أن هذين الكشفين قد زعزعا عقائد أناس من المتدينين الذين أخطأوا فهم الدين ، فحسبوا أن الدين يفرض عليهم الإيمان بدوران الشمس حول الأرض وانقطاع العلاقة الجسدية بين الإنسان وسائر المخلوقات . أما الذين تعقلوا هذين الكشفين فلم يغيروا إيمانهم بالله . بل وجدوا فيهما دليلاً جديداً على اتساع الكون وانتظام قدرة الله في خلقه من أهون الأشياء إلى أرفع الأحياء .

فمن أين إذن جاءت هذه النزعة الحديثة في بعض الفلسفات العصرية التي تؤمن بوجود الله ولكنها تقيده بقوانينه أو تقيده بنواميس المادة والقوة ؟ أو تفرط في هذه الوجهة فتزعم أنه من ثمرات التطور في الكون الشامل .. أو أنه عنصر من عناصره التي تضبطه أحياناً وتنضبط به في كل حين ؟

ليس ذلك من إيحاء مذهب النشوء والارتقاء ولا هو من إيحاء القول بدوران الأرض في الفضاء كما جاء في بعض الآراء ، ولكنه من نتائج الأطوار الاجتماعية وليس من نتائج الكشوف الفلكية أو العلمية ... وأشبه الأطوار الاجتماعية بإيحاء هذا المعنى هو طور « الحكومة المقيدة » في السياسة الأرضية . فإن الملك المقيد بقوانينه ومشيئة شعبه ومقتضيات ملكه هو أحدث الأفكار العصرية في أطوار الاجتماع ، وليست النقلة بعيدة بين تقييد الحاكم في الأرض وتقييد الحاكم في جميع الأكوان .

وربما كانت هذه النقلة غريبة في بعض الأمم الشرقية التي تعودت أن تدين ملوكها بكتابها السماوي في شئون المعاش وشئون المعاد على السواء ، ولكن الكتب الدينية التي آمن بها الملوك الغربيون لم تتعرض للشئون المعاشية

وتركتهم مطلقين في وضع الشرائع لهذه الشئون . فلما سهل على الأذهان عندهم أن تتصور الحاكم المطلق مقيداً بعد انطلاقه الطويل في سياسةالشعوب لم يصعب عليها أن تقبل القيود لكل حكم مطلق لم تكن له قيود .

لقد كان الإنسان يؤمن بأنه مركز الوجود ، ولكنه كان يخضع للملوك المطلقين فلم يكن في وسعه أن يتخيل كيف يجوز الحساب أو التقييد على ملك الملوك في جميع الأرضين والسماوات .

ثم عرف أن الأرض ليست بمركز الوجود ، وأنه هو فرع من فروع شجرة الحياة ، فكان خليقاً بهذه المعرفة أن تزيده خضوعاً على خضوع وأن ترضيه من الأقدار الإلهية بكل ما تفرضه عليه . ولكنه صغر من جانب وكبر من جانب : صغر في الكون وكبر في حياته السياسية ، وراح يحاسب الحاكمين الذين كانوا مطلقين ، وتعود أن يشاركهم في القوانين وقد كانوا وحدهم مصدر القوانين . فليس بالمستغرب في هذه البيئة الاجتماعية أن تنشأ بينها عقول تسيغ السلطان المقيد في الكون كله ، وحيثما قام قائم بالتصريف والتدبير ، وقد ساغ لها فهم « التقييد » حيث لم يكن قبل ذلك سائغاً في الواقع ولا في التفكير .

وليس في محض المصادفات فيما نعتقد أن تبدأ هذه النزعة الفلسفية في البلاد الإنجليزية التي يقال عنها إن وظيفة الملك فيها وظيفة اسمية ، وإن حامل التاج هناك لا يتعرض لسياسة حكومته إلا بمقدار ما يدعوه رعاياه .

وليس من محض المصادفات كذلك أن يكون البادىء بها هو جون ستيوارت ميل صاحب المراجع المعتمدة في مباحث الحكومة النيابية ومباحث الحرية والدستور ، وصاحب الوظيفة التي تخلى عنها في شركة الهند الشرقية ، حين آلت إدارتها إلى سيطرة الحكومة البريطانية .

وقد ولد جون ستيوارت ميل في أوائل القرن التاسع عشر (١٨٠٦ — ١٨٧٣) واقترنت حياته كلها بأنشط الأطوار في الرقابة البرلمانية وحركات التوسع في حقوق الانتخاب . فنظر في حكومة الكون وعينه لا تتحول عن حكومة الأرض وعلاقة المحكومين فيها بالحاكمين .

ولم يكن جون ستيوارت ميل من الفلاسفة الإلهيين ولا من المعنيين كثيراً بما وراء الطبيعة أو حقائق الأديان ، وقد أنكر أبوه جميع عقائده الدينية في أخريات حياته ولم يكن في مبدأ حياته من ذوي التدين والاعتقاد ... فلا جرم ينظر ابنه إلى إله الكون ومدبر العالم فلا يستكبر عليه قيود المادة والنواميس .

وإنما عرفت فلسفة ميل في الدين من رسائله الثلاث التي كتبها عن « الديانة » ولم ينشرها في حياته ، ولكنه أودعها صفوة آرائه في هذا الموضوع . ولعله قد أودعها كلمته الأخيرة فيه .

فالرسالة الأولى عنوانها « الطبيعة » . وخلاصتها أن سلوك الطبيعة ؛ ليس بالسلوك الذي يجتذبه الإنسان في طلب الكمال ، وأن الإنسان خليق أن يروضها ويقودها لا أن يتخذها قدوة له في آدابه ومعاملاته ، ومن ثم لا يرى أنها من خلق إله رحيم قادر على كل شيء ، لأنها قد أنعمت بالقسوة والألم والعذاب ، وقلما يظفر الإنسان منها بخير أو بركة غير ما يحصله هو بالسعي الحثيث والجهد الشديد .

والرسالة الثانية عنوانها « فائدة الديانة » . وخلاصتها أن الديانات قد أفادت قديماً في تعليم الإنسان مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، وكانت هي المرجع الوحيد الذي كان يرجع إليه في التفرقة بين الحسن والقبيح والمباح والمحظور ، ولكنها قيدت عقله بأحكامها وفروضها فأعجزته عن التفكير في مضامينها والتخلص من عيوبها ، وعنده أن العقائد الإنسانية كافية في تهذيب الناس وقيادتهم بعد زوال العقائد التي تقوم على ما وراء الطبيعة ، لولا مزية لهذه العقائد لا توجد في العقائد الإنسانية ، وهي تعزية النفس برحمة الله ودوام الحياة في العالم الآخر ، ولا مانع عقلاً ولا علماً في رأي ميل أن يصح وعد الديانات بالحياة بعد الموت » .

والرسالة الثالثة عن « الربوبية » وفيها يعترف الفيلسوف بنظام الكون ولا يستريح إلى تفسير ظواهر الحياة بمذهب النشوء والارتقاء ... إلا أنه يعود فيقول إن هذا النظام لا يثبت وجود الإله القادر على كل شيء ، ولا يلزم

منه أن مدبر الكون إله مطلق القوة والكمال . لأن الدنيا على ما فيها من النظام لا تخلو من الآفات والشرور التي لا يرتضيها إله قادر على تبديلها. فالله موجود مريد لخير المخلوقات وسعادتها ولكنه محدود القدرة والإرادة ، منصرف العناية إلى أمور كثيرة غير أمور الناس ودائب على تذليل المادة والقوة وتطويعها لما يرتضيه .

* * *

كانت هذه الآراء مقدمة لظهور القول بالإلهية المقيدة في العصر الحديث .. وكانت في آراء جون ستيوارت ميل نواة أخرى لظهور هذا المذهب على اختلاف شروحه ، لأنه كان يقول بالكيمياء العقلية ويعني بها أن امتزاج الأفكار تنشأ عنه أطوار فكرية جديدة لم تكن بينة في الأفكار المتعددة قبل امتزاجها ، كأنها العناصر المادية التي يمتزج بعضها ببعض فتنبثق منها مادة جديدة لم تكن بينة في عناصرها الأولى — وأشهر الأمثلة على ذلك توليد الماء من الهيدروجين والأكسوجين ، وكلاهما مخالف للماء في خصائصه ومزاياه .

وشاعت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين صيغ القول بالنشوء والارتقاء، ثم شاعت على أثره فلسفة النسبية التي قررها أينشتين وقرر فيها أن الفضاء رباعي الأبعاد وأن البعد الرابع هو الزمان . فلا يتأتى قياس حركة من الحركات بالطول والعرض والعمق وحدها دون أن نضيف إليها الزمان وهو البعد الرابع المتمم لهذه الأبعاد .

فآراء جون ستيوارت ميل كانت نواة للفلسفة الإلهية الحديثة في البلاد الإنجليزية وساعدتها الآراء التي تتابعت على أثرها واحدة بعد الأخرى ، فلم يكد يظهر من الفلاسفة الإنجليز في القرن العشرين فيلسوف واحد يخلو مذهبه من آثار هذه الآراء متجمعات أو متفرقات .

وفي وسعنا أن نطلق عنواناً واحداً على هذه المذاهب في جملتها ، لأنها تقوم على أساس واحد وإن تنوعت في التخريج والاتجاه . فهي كلها صالحة

لأن تسمى باسم « التطور الانبثاقي » و « والتركيب المنتخب » على حد سواء ، ويتضح معنى هذه التسمية من تلخيص المذهب كله فيما يتصل بموضوع هذا الكتاب .

ومن المتعذر مع هذا أن نلخص المذهب كله كما شرحه جميع الكاتبين فيه ، فقد خاض في شرحه وتخريجه طائفة من الفلاسفة يتجاوزون العشرين ، ونحا كل منهم منحى يعارض به زميله في لباب المذهب أو قشوره ، فليس من المفيد في مقصدنا هذا أن نحيط بجميع هذه الفوارق والمعارضات ... ولكننا نجتزىء بأكبر هذه الشروح وأبرزها وأدلها على الغاية من جملة تلك الأقوال ، ولعلنا نخرج منها بالخلاصة الكافية إذا اقتصرنا على شروح ثلاثة من أساطينه وهم مورجان والإسكندر وسمطس ، وهم نخبة القائلين بالتركيب والانبثاق .

* * *

ولد لويد مورجان Lloyd Morgan في سنة ١٨٥٢ وتعلم هندسة المناجم وعلم طبقات الأرض ثم حضر دروس البيولوجية على العلامة توماس هكسلي ووعى في صباه مختارات جيدة من الشعراء المحدثين والأقدمين ، وحثه أستاذه وهو في أثناء فترة التمرين على مطالعة الفيلسوفين بركلي وهيوم ، فقرأهما كما قرأ فلسفة ديكارت وسبنوزا وليبنتز ، وزاول التدريس في شعاب شتى من الثقافة العصرية بينها من التفاوت ما يدل على سعة الأفق وغزارة الاطلاع ، ومنها العلوم الطبيعية والتاريخ الدستوري وآداب اللغة الإنجليزية وعلم طبقات الأرض وعلم الحيوان ، وكان أول تدريسه في أفريقية الجنوبية . ثم عاد إلى إنجلترا فأسندت إليه مهمة التدريس في كلية بريستول فترقى فيها إلى منصب العمادة خلال سنوات معدودات .

وكان مذهبه في مبدأ الأمر تعديلاً لمذهب هربرت سبنسر الذي يقول بأن الارتقاء في عالم المادة العضوية وغير العضوية على السواء — هو انتقال من البساطة إلى التركيب ومن التشاكل إلى التنويع . فكان من رأي مورجان أن

الانتقال من البساطة إلى التركيب لا يكفي لتفسير ظهور الحياة ما لم يكن في التركيب شيء جديد ، وقال بأن التركيب يخلق الشيء الجديد على النحو الذي قدمناه في تولد الماء من الهيدروجين والأكسيجين ، وقال كذلك باستقرار الخصائص النفسية أو الحيوية في المادة من أقدم الزمان ، وإنما يتوالى التركيب فتبرز الخصائص النفسية بعد أن كانت مكنونة في حالة التفرد والبساطة ، ومثل الأشياء في ذلك كمثل الهرم الذي يتسع من أسفله ويتحدد في أعلاه . فالمادة هي قاعدته السفلى والعقل هو قمته العليا ، وكل طبقة فيه تعلو على طبقة تحتها فإنما تعلو ببروز الخصائص النفسية بعد الخفاء .

ودرجات الارتقاء عنده هي المادة في صورتها البسيطة المفردة ، ثم المادة في أخلاطها الطبيعية الكيمية ، ثم الحياة ، ثم العقل ، وهو أرقى ما وصلت إليه الموجودات ، ولكنه طبقة جديدة من خاصة قديمة مستكنة في أبسط الموجودات. ففي وسعك أن تقول عقل الذرة وعقل الجماد وعقل الشجرة ، لأنها جميعاً لا تخلو من عنصر العقل إما على حالة النزارة التي تكفيها في كيانها ، وإما على حالة الاستقرار والاستكنان إلى أن تبرز البروز المعهود في عقل الإنسان .

ومجمل القول في الاتصال بين العقل والمادة أنهما يتطوران معاً ولا يتطور أحدهما من الآخر ، ولكنهما متلازمان لا ينفصلان فلا عقل بلا مادة ولا مادة بلا عقل في شيء من الأشياء .

وكان مورجان يسمى مذهبه هذا « بمذهب التركيب المنتخب » أي التركيب الذي ينتقي من المركبات صفوة بعد صفوة من خصائص الوجود Synthesis Selective ثم قبل اسم « التطور الانبثاقي » Emergent evolution لأنه أيسر على الأفواه وأقرب إلى الأذهان .

ولا فرق بين مورجان وزملائه « الانبثاقيين » في اعتبار العقل والحياة من خصائص المادة المستكنة فيها من أزل الآزال ، ولكنه يخالف أكثرهم في إثبات الإرادة الإلهية مع إثبات الخصائص المادية ، فيسأل غير مرة : وما

الذي يخرج هذا الأطوار بعضها من بعض على هذا الترتيب العجيب ؟ ويجيب غير مرة : إنه تدبير الإله أو توجيه الإله . فليست قوانين التركيب والانتقاء عنده بمغنية عن العناية الإلهية في نهاية المطاف .

* * *

أما ثاني الفلاسفة الثلاثة الذين يجمعون شتات المذهب فهو الأستاذ صمويل الإسكندر ، وقد أصبح اسم الإسكندر وحده علماً عليه .

وهو من أبناء أستراليا . ولد في مدينة سدني (١٨٥٥) وتخرج من جامعة ملبورن ثم من جامعة أكسفورد حيث اشتهر بالألمعية والذكاء وأحرز كثيراً من الجوائز والمكافآت ، وكانت الدعوة الفلسفية الغالبة في عهد دراسته هي دعوة هيجل يتممها مذهب دارون وتفسيرات هكسلي وسبنسر ، فهي بهذه المثابة أقرب إلى الواقعية منها إلى المثالية التي اشتهر بها هيجل في عصره ، ولهذا يعتبر الإسكندر من أساطين الواقعيين .

وهذا الفيلسوف هو أوسع أنصار الفلسفة « الانبثاقية » نطاقاً في شروحه وتعليقاته وأبعدهم أمداً في نتائجه وأشدهم تطوحاً في مزاعمه ، لأنه يشمل الإله بأحكام مذهب التطور المنبثق ... ويقول إنه ثمرة من ثمراته هي الثمرة التالية لظهور « العقل » في الوجود ، أو هي الثمرة التالية أبداً لأرفع الثمرات التي يترقى إليها التطور والانبثاق . فكل ما وصلت المادة إلى طبقة من طبقات الارتفاع كانت الفكرة الإلهية هي الفكرة التالية لها أبداً بغير انتهاء .

فالإسكندر يجمع بين مذهب التطور ومذهب « هيجل » إذ يقول هيجل بأن الله هو « الوجود المطلق » الذي يتمثل في حدود الوجود المشهود ، وأن العقل الإنساني هو آخر مثال وصل إليه الوجود في هذا التجلي الإلهي ، فهو أرفع مثال .

وعند الإسكندر أن المادة ومظاهرها جميعاً قد صدرت من مصدر واحد وهو الكون المؤلف من المكان والزمان ، فليس المكان فراغاً إلا إذا انعزل من الزمان ، وليس الزمان عدماً إلا إذا انعزل من المكان ، ولكنهما إذا اجتمعا —

وهما مجتمعان أبداً — نجمت الحركة . وهي أصل المادة وأصل جميع الموجودات .

ولا شك أن مذهب أينشتين عن الزمان والمكان كان له أثر كبير في وقوع هذا الخاطر في روع الفيلسوف ، ولكن الأثر الأكبر ولا شك يرجع إلى مباحث العلوم الطبيعية في الحرارة والكهرباء ، ولا سيما المباحث التي قررت أن ذرات المادة تتحول إلى إشعاع ، فإذا كان الإشعاع هو أصل المادة وكان الإشعاع مجرد حركة فلا جرم يخطر للفيلسوف أن حدوث الحركة في الفضاء هو أصل المادة في صورتها الأولى ، وأن حدوث الحركة في الفضاء هو بعبارة أخرى اتصال الزمان والمكان،لأن الزمان هو الحركة ووقوع الحركة هو اتصالها بالمكان .

فإذا حدثت الحركة فذلك هو اتصال الزمان والمكان ، وإذا وجدت الحركة وجد الإشعاع وتسلسلت الأشياء المادية من هذا الإشعاع .

وهي تبدو على درجات . فأدنى طبقات المادة — بعد صدورها من الفضاء والزمان — هي المادة ذات الخصائص الأولية وهي الحجم والشكل والعدد والحركة ثم تعلوها طبقة الخصائص التي تترقى إلى اللون والصوت والرائحة ودرجة الحرارة . أو بعبارة أخرى إن الخصائص الأولية تدرك بجميع الحواس ، وإن الخصائص التالية لها تحتاج إلى التخصيص فتدرك منها بإحدى الحواس ، ولا تتم الخاصة للشيء إلا مع اتصاله بشيء آخر ، كما يتم اللون مع اتصال الشيء بالنور ، ويتم الصوت مع اتصال الشيء بالهواء ... فلا بد له في هذه الحالة من بعض التركيب .

قال في كتابه المفصل « المكان والزمان والإله » :

« ومن الناحية الأخرى إذا نحن استبدلنا كلمة النظام بكلمة المنظم لم نعد بذلك أن نسمي هذه الحقيقة الواقعة : وهي أن العالم يجري على نسق يخرج منه النظام ، وفي وسعنا أن نسمي العالم الذي ندركه على هذا النحو « إلهاً » ... وننسى — أو لعلنا بذلك نفسر — ذلك السرف أو ذلك التلف المنطويين في ذلك الإجراء ... ولكن بأي معنى من المعاني يصلح إله كذلك الإله للعبادة ؟

إنما يصلح للعبادة على معنى واحد ، وهو أن نعود فندخل على فكرة النظام التي هي وصف لبعض الوقائع المقررة فكرة المنظم المدبر ، وهو الرأي الذي سبقنا فادحضناه .

« والذي نرجو أن نصنعه هنا هو شيء أقرب إلى التواضع والاعتدال من ذاك وأدنى إلى السياق العلمي المطرد في بعض المسائل الأخرى . فلا نحاول تعريف الله مباشرة بل نسأل أنفسنا : هل هناك محل في العالم للصفة الإلهية ؟ ثم نمحص حقيقة ذلك الكائن الذي يتصف بتلك الصفة ، ونرجع إلى الحاسة الدينية لكي يطابق ذلك الكائن صفات الإله الذي هو أهل للعبادة ، فأين إذن محل الإله في مجرى الأشياء إن كان له محل على الإطلاق ؟

« في هذه المادة التي تتولد من الفضاء والزمان لا يزال الكون يعرض انبثاقاً بعد انبثاق لسلسلة من الكائنات المحدودة يتسم كل منها بخصائصه وصفاته ، وأرفع هذه الكائنات المعروفة لدينا هو العقل أو الواعية ، فالإله هو الكائن الذي يعلو على أعلى ما عرفناه .

« ... ولما كان الزمان أبدياً بغير انتهاء ، وكان هو مصدر النماء والارتقاء ... فليس في استطاعتنا أن نتخيله واقفاً عند إخراج تلك الكائنات المحدودة التي تتسم بسمة العقل أو الواعية ، ولا بد لنا من أن نرسل الفكر على الاتجاه الذي ترسمناه من تجارب الانبثاق السابقة التي تمخضت عن الصفات الرفيعة . فإن في الزمان والفضاء باعثاً يدفع مخلوقاتهما إلى طبقة أرفع فأرفع كما دفع بها إلى الطبقة العاقلة أو الواعية . وليس في العقل ما يدعونا إلى الوقوف عند حد من الحدود لنقول إنه هو الحد الأقصى لما يبثقه الزمان من الآن إلى أبد الآباد ... بل يكرهنا الزمان نفسه على انتظار مولود آخر من مواليده ، ومن ثم يسوغ لنا أن نتتبع سلسلة الصفات ونتخيل تلك الكائنات المحدودة التي سميناها بالملائكة وهي كائنات تستمتع بوجودها الملائكي ولكنها تتأمل العقل على نحو يعجز العقل عنه كما نرى العقل يتأمل ما دونه من مراتب الحياة والموجودات السفلى ... وعلينا أن نسأل : كيف تكون العلاقة بين هذه الآلهة المحدودة المسماة بالملائكة وبين الإله الذي ليست له حدود ...

« ... فالإله إذن هو الطبقة المثالية التي تعلو على طبقة العقل والواعية والتي يتمخض الكون الآن ليخرجها من أطوائه ، ونحن من وجهة الاستطراد الفكري على يقين من استجنان هذه الصفة في الكون وتهيئة لولادتها . ولكن ما هي يا ترى تلك الصفة الموعودة ؟ إننا لا ندري . لأننا لا نقدر على التحلي بها ولا على تأملها ولا تزال محاريبنا الإنسانية معدة لاستقبال ذلك الإله المجهول ، ولا سبيل لنا أن نعرف ما هو ولا كيف تكون الإلهية وكيف يشعر الإله بوجوده إلا إذا نعمنا بصفة الآلهة قبل ذلك .. »

إلى أن قال : « فالإلهية صفة تتولى الصفات التي دونها من طبقة العقل الذي يقوم هو أيضاً على ما دونه من صفات وينبثق عندما تبلغ الكائنات مبلغاً مقدوراً من التركيب والتنسيق » .

ويمضي الفيلسوف في التقدير والتخمين فيقدر أن الإله الأعلى الذي ينبثق عنه العالم هو من معدن الروح والعقل لأنهما الطريق التي تأدينا منها إليه ، ولكنه يشارك الموجودات في خصائصها الكونية كما يشترك الإنسان العاقل في خصائص المادة وخصائص سائر الأحياء على نحو من الأنحاء .

* * *

فالوجود على رأي هذا الفيلسوف درجات هي : «أولا» وجود الزمان والمكان و« ثانياً » وجود المادة التي لا كيفية لها غير الشكل والحجم والعدد وما لا يحتاج إلى علاقة بغيره ولا حاسة مميزة لإدراكه ... و « ثالثاً » وجود المادة التي تتكيف باللون والرائحة والصوت ويبلغ بها التركيب مبلغ التميز بالحاسة التي تناسبها و « رابعاً » وجود الحياة وتبدأ بالاستجابة الحسية التي تشبه في ظاهرها استجابة بعض المواد — غير العضوية — لبعض المؤثرات ، و « خامساً » وجود الحياة العاقلة الواعية ، و « سادساً » وجود الإله الذي يعلو ويعلو مع الزمان الأبدي السرمدي بغير انتهاء .

* * *

والرأي الذي يقول به المارشال كرستيان سمطس لا يطابق رأي الإسكندر في نتائجه القصوى ولا في مبادئه الأولى.ولكنه يلتقي به في عقيدة الانبثاق والتركيب ، بل يجعل الكون كله « تركيبات كاملة » تترقى في مراتب التركيب وتستجد لها صفة لم تكن معهودة فيها قبل ارتقائها من مرتبتها إلى المرتبة التي تعلوها .

فليست مادة الكون شيئاً واحداً متشابهاً متكرراً على النحو الذي تخيله معظم الفلاسفة والعلماء ، وليست عناصرها فتاتاً متماثلاً يتأتى عزل كل فتاتة منه كأنها جزء لا فرق بينه وبين سائر الاجزاء ، ولكنه مجموعة من التراكيب التي تتماسك كل تركيبة منها كما تتماسك بنية الاحياء ، ولا انعزال بينها وبين ما حولها بل هي متأثرة به مؤثرة فيه ، وكل جزء في التركيبة يأخذ من الكل ويأخذ الكل منه ، ويجري في ذلك على سنة الأعضاء في الأجسام . ومن هنا جاء اسم « الهولزم » Holism الذي يطلق على هذا المذهب لأنه تشتق منه كلمة Holo اليونانية بمعنى « الكل » أو المجموع .

فالذرة تركيبة ، والعناصر الأولية تركيبة ، والأخلاط الكيمية تركيبة ، وكل جماد أو نبات أو ذي حياة تركيبة كاملة تلازمها صفات تناسب ذلك التركيب .

والحياة هي الصفة التي تناسب التركيبة العضوية ، والعقل هو الصفة التي تناسب التركيبة الإنسانية ، وكلما ارتقت التركيبة نجمت فيها خاصة جديدة لم تكن في أجزائها المتفرقة ، أو في التركيبات التي هي أقل منها في طبقات الوجود .

يقول سمطس : « إن من طبيعة الكون أن يسعى إلى تحصيل « الكلية » والكمال والبركة . والهزيمة الحقة للإنسان – وللطبقات الأخرى من الموجودات – هي في تلطيف الألم بالكف عن الجهاد ، أو الكف عن السعي في سبيل الخير والصلاح ، وإن النزعة التركيبية التي تنبثق من أعمق أعماق الكون كالفوارة الحية هي الضمان لنا بأننا لا نواجه الإخفاق والحبوط ، وإن آمال الاستقامة

والحق والجمال والخير مستكنة في طبائع الأشياء ولن تنتزع أو تضيع . وقد اتفقت كلمات الكلية والشفاء والقداسة Wholeness, healing, holiness في مصدرها من اللغة وفي مصدرها من الواقع والتجربة ... وهي قائمة في المرتقى الوعر من الكون تنال حيناً بعد حين وستنال مع الزمن منالاً أصدق وأوفى ، وهذا الارتقاء والاكتمال في الكليات داخل الكل الأكبر هو السعي المطرد — وإن كان بطيئاً — إلى هدف الكون الكلي في النهاية » .

أي أن الموجودات تستمد طبيعة التركيبة الكاملة من وجودها في الكون ثم يصبح الكون نفسه مفتقراً إلى التركيب الكامل فلا يبلغه إلا من طريق التكامل والتراكب في تلك الموجودات .

وقدشهد سمطمس الحرب العالمية الأولى وهو يشتغل بإنضاج هذا المذهب في نفسه وفي ذهنه ، فلم توئسه الحرب من طموحه إلى « الكون الكلي » بل رأى في محاولات عصبة الأمم عند إنشائها بشيراً بتحقيق الطموح إلى التركيبة الإنسانية الكلية ، وما هي إلا خطوة في مرتقى « الكون الكلي » الذي تتآخى فيه التراكيب كما تتآخى الأعضاء في الجسم الواحد ، فترتفع أجزاؤه عن مرتبة التنافر والعداء ، إلى مرتبة التآلف والصفاء .

وهذه الشعبة من مذهب الانبثاق لا تستلزم الإلحاد ولا القول بانبثاق الإله من مادة الزمان والفضاء ، بل يسأل أناس من أساطينها : من أين تأتي الخاصة الجديدة كلما ارتقت التركيبات أو المجاميع الكاملة ؟ فبعضهم يقول : لعلها من منقولات كون آخر غير هذه الكون ، وبعضهم يقول : لعلها من الله .

وقد نشأت في البلاد الإنجليزية مذاهب فلسفية أخرى غير مذاهب الانبثاق واشتهر فلاسفتها في أوربة وأمريكا شهرة تضارع شهرة الانبثاقيين ، وعلى رأس هؤلاء الفلاسفة هويتهيد (١٨٦١) ، الفيلسوف الرياضي الواقعي الذي يعرف مذهبه بمذهب الكيان العضوي Organism لأنه يقول بأن الكون كله « كيان عضوي » كالبنية الحية في تركيب أجزائه ، وإن كل ما فيه من

كيانات عضوية لها طبيعة الأجسام الحية في تجمع الأعضاء ، وتساند الوظائف العضوية ، فمذهبه من ثم أولى المذاهب أن يذكر مع مذاهب « البنية الحية » وإن لم يؤسس مذهبه على فكرة الانبثاق .

وعند هويتهيد أن الكون يشتمل على حوادث لا على أشياء ، وكل حادث من هذه الحوادث يتجدد على الدوام ولكنه يحتفظ بالقدم كله من أقدم الأزمان ، ولا يتأتى فصل حادث منه عن الكون بحذافيره لأنه مشتبك بكل ما في الكون من زمان ومكان .

وما الزمان ؟

إن الزمان هو هذا التجدد نفسه وليس بوجود مستقل عنه أو بظرف له يحتويه ويسبقه أو يليه .

وما المكان ؟

ليس هناك مكان معزول عن الحوادث التي تقع فيه ، ولكنه هو الصورة التي ندرك بها الامتداد .

وفيما عدا هذه السلسلة الواقعية من الحوادث المتجددة لا يشتمل الكون على وجود آخر غير وجود « الكليات الممكنة » فإن الحادثة يمكن أن تقع على صور متعددة ولكنها متى وقعت فهي صورة واحدة . فتلك الصور المتعددة هي الكليات الممكنة ، وهذه الصورة الواحدة هي الحادثة الواقعية ، غير أن الكليات الممكنة ليست لها صفة في الوجود إلا بما يتحقق من الواقع في عالم الحدوث .

وعند هويتهيد أن الحادثة التي تبدو لنا شيئاً من الأشياء هي بنية عضوية كاملة التركيب . فالذرة نفسها بنية عضوية لأنها تختل وتفقد مشخصاتها أو « شخصيتها » إذا اختلف تركيبها ، كما تختل بنية الحيوان إذا اختلف فيها تماسك الأعضاء .

وليس في الموجودات عقل وجسم منفصلان ، وإنما العقل والجسم قطبان

ملازمان لكل موجود ، والترقي في التركيب هو الذي يرجح موجوداً على موجود بصفات الحياة والإدراك .

وهذا الترقي هو تكوين بنية حية جديدة ... فمليون ذرة من الهيدروجين هي مليون بنية حية متشابهة ولا زيادة . ولكن إذا اجتمعت مليون ذرة مختلفة وكملت باجتماعها بنية جديدة فهنا يظهر الرجحان في بنية على بنية ، وهنا تنشأ في العالم حياة تساوي جملة أجزائها وزيادة ، على خلاف المفهوم في الحساب ... وهذه الزيادة هي تطور الفكر والحياة .

فليس الكل مجموع أجزائه في كيمياء الحياة . ذلك في الحساب صحيح . أما في كيمياء الحياة فكلما اختلفت الأجزاء وتكاملت بها تركيبة جديدة ظهرت فيها زيادة على تلك الأجزاء لم تكن ملحوظة فيها وهي متفرقة ... ولكنه ظهور بعد كمون ، وليس بوجود بعد عدم ، ولا بارتفاع على غير أساس .

ويكمن في الحوادث مستقبلها كما يكمن فيها ماضيها . لأن المستقبل لن يخرج عن تجدد الحادثة بعد التوفيق بينها وبين الكليات الممكنة ، فإذا اتفق الحادث الواقع و « الكلي » الممكن فتلك طريق المستقبل التي لا يعدوها .

ولولا « الكليات » الممكنة لكانت الحادثة الجديدة تكراراً للحادثة السابقة بغير اختلاف ، ولجاء التكرار آلياً لا يوافق طبائع الأحياء .

تلك هي حقيقة الكون في مذهب هويتهيد وأساطين مدرسته التي تسمى تارة بمدرسة الكيان العضوي وتارة بمدرسة الواقعية الحديثة . فأين مكان الله من هذا الكون الذي يتخيله الفيلسوف ؟ هل له مكان لازم فيه ؟

نعم . له مكان لا تتم للكون حقيقة بغيره .

فتلك الكليات الممكنة ما الذي يقرر الخيرة بينها حين تصبح حادثة واقعة ؟ تلك الكثرة المتعددة ما الذي يستخرج منها واقعة واحدة ؟

هو الله .

وتلك الكيانات العضوية ما الذي يعادل بينها ويصاحب مرتقاها من تركيبة كاملة إلى تركيبة أكمل منها ؟

هو الله .

ولكن الله في هذا الكيان العضوي الأعظم إنما يتولى التعديل والموازنة فيه على النحو الذي يتولاه دماغ البنية الحية ... فهو يريد ويفعل ، ولكنه لا يريد كل ما يشاء ولا يفعل كل ما يشاء ، بل تأتيه دواعي الإرادة أحياناً من تلك البنية ، كما تأتيه منها دواعي العمل وميسرات التدبير والتصريف .

واذا التفتنا من البلاد الإنجليزية إلى البلاد الأمريكية قابلتنا هناك مذاهب فلسفية تلاقي المذاهب البريطانية في جانب وتفارقها في جانب آخر .

تلاقيها في فكرة الإلهية المقيدة وفي العجز عن التوفيق بين وجود الإله القادر على كل شيء ووجود الشر والألم في العالم ، وتفارقها في تعليل المشكلة والتماس المخرج منها .

وأشهر المذاهب الأمريكية وأجمعها لوجهات النظر المختلفة عندهم ثلاثة ، وهي :

مذهب وليام جيمس (١٨٤٢ — ١٩١٠)

ومذهب جوسيا رويس (١٨٥٥ — ١٩١٦)

ومذهب جورج سانتيانا (١٨٦٣ — ١٩٤٨)

فوليام جيمس William James هو صاحب البراجمية أو مذهب الذرائع كما عرف في اللغة العربية ، والواقع في رأي وليام جيمس هو مقياس الصحة في كل شيء؛ فمقياس الصحة في المسائل العلمية هو تكرار التطبيق وتكرار النتيجة ، ومقياس الصحة في مسائل الأخلاق والآداب هو تكرار التطبيق وتكرار المنفعة الكبرى منه لأكبر عدد من الناس . وقياساً على ذلك يحق لنا أن نؤمن بالله في المسائل التي لا تثبت بالتجربة العلمية ولا بالبراهين المنطقية ، إذ كان الإيمان يريح ضمائرنا ويطابق أشواقنا النفسية وعواطفنا الحيوية . وما دامت طبائعنا قد أشرجت على وفاق تركيب الكون فإن العقيدة التي تستمد من تلك الطبائع لن تخلو من حقيقة كونية . فما من حقيقة حسية

لها عندنا دليل غير الانفعال بها على نحو من أنحاء الحس والتعقل . وما من حقيقة روحية تحتاج إلى أكثر من هذا الانفعال الذي يتم به التجاوب بيننا وبين حقائق الكون . وقد خطب وليام جيمس جماعة من العلماء المثقفين فقال لهم إن الإيمان من أمثالهم يحتاج إلى شجاعة خلقية يحسن بهم أن يروضوا عليها العقول والضمائر . وقال لهم في مقدمة خطابه: إنه لو كان يتحدث في العقائد إلى جماعة من عامة الجند لنصحلهم بالتشجيع على قبول النقد والأدلة العقلية في دراسة الأديان ، لأنهم أحوج ما يكونون إلى الحرية الفكرية في شئون العقيدة . ولكنه إذا خطب العلماء والفلاسفة فأحوج ما يراهم محتاجين إليه هو الشجاعة على احتمال تبعة الاعتقاد ، وإن لم تؤيده التجربة العلمية والبراهين المنطقية . فإنهم يخسرون إذا كانت العقيدة صحيحة وجبنوا عنها في انتظار تجربة أو برهان .

إلا أن المقدمات التي يستند إليها وليام جيمس لم تمنع عنده أن يكون في الوجود أكثر من إله واحد ، أو أن يكون قصارى الإله الواحد أنه أكبر من الإنسان وأقدر على معونته من سائر الموجودات . فهو يقول في كلامه على صحائح الدين : « ويبدو لي أن معالجة الديانة ومطالبها العملية تجد كفايتها في الاعتقاد بوجود قوة أكبر من الإنسان تصادقه وتعطف على آماله، وكل ما تستلزمه الوقائع التي بين أيدينا أن تكون تلك القوة غير أنفسنا الواعية وأكبر منها وأوسع وأقوى . فكل قوة بهذه الصفة تغني إذا كانت فيها الكفاية للاعتماد عليها في الخطوة التالية . ولا يلزم من ذلك أن تكون قوة غير متناهية أو قوة منفردة . فقد يكون قصاراها أنها نفس أكبر وأقدس من نفس الإنسان تمثلها نفس الإنسان هذه تمثيلاً ناقصاً ، ولا يكون الكون كله إلا مجموعة من تلك الأنفس الكبرى القدسية على درجات وأقدار مختلفة لم يجمع بينها كيان لانهائي على الإطلاق . ويعرض لنا هنا تعدد الآلهة على نوع من التعدد لا أدافع عنه في هذه الآونة لأنني أحصر مقصدي الآن في إقرار التجربة الدينية في حدودها الصحيحة ... »

* * *

فمسألة الاعتقاد في رأي جيمس مسألة « بخت » قد يعبر عنها البيتان المشهوران للمعري أحسن تعبير حيث يقول :

قال المنجم والطبيب كلاهما   لا بعث بعد الموت . قلت : إليكما
إن صح قولكما فلست بنادم   أو صح قولي فالخسار عليكما

* * *

أما جوسيا رويس فمذهبه أقرب المذاهب الحديثة إلى « وحدة الوجود » لأنه يقول بأن الله ذات تتصل بكل ذات من هذه الموجودات .

فالعلوم لا تعرفنا بحقائق الكون الكبرى ولا تكشف لنا عن كنه المادة والحركة ولا عن كنه الزمان والمكان ، وغاية ما نعلمه أن نرجع إلى معرفتنا بذاتنا فنستمد منها معرفتنا بالذات العظمى ، وهي الله .

فما هي الذات الإنسانية ؟ ما هي هذه « الشخصية المستقلة » التي نسميها « نفسنا » ونتميز بها مما حولنا ؟

هبنا منفردين وحدنا في عالم لا نشعر فيه بحي ولا جماد ولا بأرض ولا سماء ولا يكون فيه ما يدخل في الوعي ويتعلق بالشعور . فهل يكون لنا يومئذ وعي أو شعور ؟ وهل تكون لنا يومئذ نفس أو ذات ؟ هل يكون لك وعي وليس هناك ما تعيه ؟ وهل تكون لك ذات وليس هناك خلاف الذات ؟

يقول رويس : كلا . إن الذات موقوفة على ما عداها ، وإن وجودها هو وجود غيرها ، وعلى هذا يصح أن يقال إن الذات لا تستقل بالوجود عن الأشياء وإن الأشياء لا تستقل بالوجود عن الذات ..

فما نراه وما نذكر أننا رأيناه وما نتخيله أنه كائن أو يكون هو قوام « ذاتنا » وهو مساك وعينا وشعورنا . وعلى قدر اتصال الإنسان بالموجودات تكون غزارة وعيه وسعة شعوره وعظمة ذاته . فالاتصال بالكون — أو الاتصال بالله — هو أكبر تحقيق للذات وأثبت إقرار للوجود .

والذات العظمي – وهي الله – هي التي تتصل بكل شيء وتحيط بكل شيء وتطلع على كل شيء. وهي كلية الوجود لأنها واعية لكل موجود، وقوام وعيها هو هذا الاتصال الذي يشبه اتصال الواعية الإنسانية بما حولها، ولكنه أوسع نطاقاً وأبعد أمداً وأحرى بالخلود والدوام .

وهذه العقيدة الدينية هي عقيدة خلقية في صميمها ، لأنها تجعل الإيثار وملابسة الأغيار معيار الحياة الواسعة و « الذات » المستفيضة والوجود الكامل والمناقب المأثورة . فمن فني في الذوات الأخرى فذلك هو الموجود حق الوجود ، ومن فني في الله فذلك أعظم الأحياء .

* * *

وتكملة الثلاثة بجميع معاني التكملة – هو جورج سانتيانا الذي لا يحسب فيلسوفا في غير القارة الأمريكية ، وفي غير الفترة الأخيرة من القرن الأخير .

فوليام جيمس يمثل الواقعية الفكرية في القارة الأمريكية ، وجوسيا رويس يمثل المثالية الفكرية في تلك القارة ، ويبقى بعدهما مكان فارغ لمن يمثل الواقعية الشعبية كما يفهمها جمهور كل يوم وكل مكان ، بغير تفكير وبغير بحث طويل أو قصير .

ويعتبر سانتيانا تكملة للفيلسوفين بمعنى آخر يتعلق بالجنس الذي ينتمي إليه . فوليام جيمس أعرق في الأمريكية ورويس بريطاني حديث العهد بالقارة . أما سانتيانا فهو إسباني ولد في مدريد وعاش في جزر الفيلبين وحضر العلم في لندن وحمل الجنسية الأمريكية مع غيره من المهاجرين . فهم في جملتهم يمثلون الخليط الأمريكي من عدة أطراف .

ونقول إن سانتيانا لا يحسب فيلسوفاً في غير القارة الأمريكية لأن الأمريكيين الشماليين على التخصيص قد جعلوا لهم طابعاً معروفاً في كل مطلب من مطالب الحياة يتميز بالسرعة والاقتضاب والمساهمة في جميع تلك المطالب بمقدار . ومنها الفلسفة والفن والعلم والتاريخ . فللشعب هناك فيلسوف وفلسفة كما للشعب لاعب وملعب وصحفي وصحيفة ونصيب مقسوم من كل موضوع .

وسانتيانا هو فيلسوف « الشعب » غير مراء . لأن فلسفته لا تتطلب ملكة واحدة غير موفورة لجمهرة الشعب وأوساط القراء .

فالحس هو الحكم الأعلى في مسائل الفلسفة ومسائل العقيدة . وكل ما هو محسوس فهو حق أو فيه من الحق الكفاية لحياتنا في هذه الدنيا . وحسبنا « العقيدة الحيوانية » التي تفعم شعورنا بالثقة من حصول الحاصل كما نتناوله بحواسنا . وليس بالضروري لنا أن نمحص العقائد الدينية تمحيصنا للتجارب العلمية ، ولا بالضروري أن نجحد الغريزة في سبيل العقل والمعرفة . لأن العقل ينسق الغريزة ولا يناقضها ؛ فهذه العقائد الغرزية — ويسميها أحياناً بالأساطير — هي أخيلة شعرية جميلة نتقبلها كما نتقبل الشعر المعجب والصورة المنمقة ، ومن ضيق الصدر أن نتعصب عليها أو نلح في تفنيدها . فهي إن لم تكن قيمة علمية أو قيمة فلسفية فلا شك أنها قيمة فنية وقيمة شعورية ، ولها الحق في الوجود بشفاعة الحس الذي تثيره والذوق الذي توافقه والأمل الذي ترضيه .

وهذه المادة التي يختلف الفلاسفة في صحتها لا ندري ما هي ولا يضيرنا أن ندعها للعلماء يكشفون لنا عن كنهها ويردونها إلى أجزائها أو إلى أصولها . ولكننا خلقاء أن ندعوها بالمادة ونكتفي بما نعرفه من اسمها ومسماها ، كما تسمي صديقك « سميث » و « جورج » وغير ذلك من الأسماء وأنت لا تكشف عن شيء من أسراره وخباياه ، ولا تحلل أجزاءه تحليل المعامل ولا تحليل القضايا المنطقية .

ولا ينكر سانتيانا نظام الكون ولا تناسق قوانينه ، ولكنه يقول إننا نحسب الكون منتظماً لأنه الكون الذي وجدنا فيه وأخذنا منه العقول التي نفهم بها النظام . وهكذا كنا نحسب كل كون نوجد فيه ونقتبس منه عقولنا ومادة حياتنا ، لأننا لا نستطيع الخروج منه لنقيسه على غيره . ومع هذا نرقب كل حركة منتظمة في دنيانا فهل نرى أنها تستوحي نظامها من حكم عقلية أو حكم أدبية ؟ يسأل سانتيانا هذا السؤال ويقول في جوابه : كلا . بل هي الحكمة المادية التي نقابلها بالعقيدة الحيوانية ونستوفي حقها بالأخيلة والخوالج المشربة

بروح التدين والإيمان. وأول ما يفهم من ذلك أن الإرادة الإلهية – إن وُجدت – لا تريد أن تتراءى لنا على غير هذا المثال .

* * *

وبعد فهذه خلاصات موجزة لمدارس الفلسفة البريطانية والأمريكية في العصر الحاضر ، لم نؤثرها بالتلخيص لأنها أهم المدارس ولا أرجحها في ميزان الفلسفة ، ولكننا آثرناها بالتلخيص لأنها تجمع الفكرة الغالبة من شتى أطرافها ، وهي كما رأى القراء فكرة تقوم على قطبين أو تتسم بسمتين :

« الأولى » عجز الفلاسفة المحدثين عن التوفيق بين قدرة الله على كل شيء ووجود الشر والألم في خليقته كما يوجدان في هذا العالم .

و « الثانية » محاولة الخروج من هذه المشكلة بتعميم قوانين التطور وإدخال الحقيقة الإلهية في نطاقها .

وليس في وسع أحد أن ينكر وجود الشر والألم في هذا العالم بأسره . لأن الأديان والفلسفات وشرائع الإنسان جميعاً تتلاقى في تحريم الشرور والمعاقبة عليها ومعالجة الخلاص منها . ولكن المطلوب من الفيلسوف – إذا تعذر عليه فهم العالم مع اعتقاد القدرة الإلهية – أن يمثله لنا في صورة أقرب إلى العقل وأصح في النظر وأثبت في البرهان ، وأن يكون إلهه معقولا إذا زعم أن الإله القادر على كل شيء غير معقول.

وذلك ما لم يصنعه واحد من أولئك الفلاسفة ولا اقترب من صنيعه ، بل لعلهم قد عرضوا على العقل الإنساني حلولاً لا يقبلها ببرهان ولا يقبلها باعتقاد ، ولا يقبلها بتخمين .

ونحن لا نزعم أننا نحيط بحكمة الله فيما يلقاه الأحياء من العذاب والبلاء ، وفيما يقع منهم أو يقع عليهم من الإيلام والإيذاء. ولكننا نبحث عن صورة للعالم أقرب إلى العقل من صورته هذه فلا تكمل له هذه الصورة عندنا ، ولا نرى فيما افترضه الفلاسفة إلا إشكالا يضاف إلى إشكال .

فعلى أي حال كانوا يفهمون وجود الله القادر على كل شيء إن لم يكن في مقدورهم أن يفهموه على هذه الحال ؟

إما أن يكون ولا خلق معه على الإطلاق .

وإما أن يكون ومعه خلق كامل لا ينقص ولا يولد ولا يموت ، ولا يشتهي ولا يحرم من باب أولى ما يشتهيه .

فإما أن يكون الله القادر على كل شيء ولا خلق معه على الإطلاق — فليس ذلك بأدل على القدرة ولا بأدل على الرحمة ، ولا بالأمنية التي يرتضيها سائر الناس إذا ارتضاها الفلاسفة المتعللون على قدرة الله .

وإما أن يكون ومعه خلق كامل فليس له معنى إلا أنهم يطلبون من الله أن يخلق إلهاً آخر يماثله في الكمال والسرمدية والاستغناء . وكل فرض من فروض العقل البشري أقرب من هذا الفرض المستحيل .

وليس بالمعقول أن يكون خلق كامل لا يشكو ولا يتألم ولا يتحول ولا يتبدل إلا أن يكون إلهاً آخر يخلقه الله القادر على كل شيء قادراً مثله على كل شيء . فإننا إذا تخيلنا ألف إنسان أو مليون إنسان أو ما شئنا من ملايين الإنسان مخلوقين جميعاً على قدرة الإله وكماله لم يكن هذا التخيل أسلم ولا أقرب إلى الصدق مما نراه في العالم على نظامه المعهود .. ولماذا يستأثر هؤلاء بالحياة والدوام ونسمي ذلك عدلاً من الله بينهم وبين من هو قادر على خلقهم بغير انتهاء ؟ وكيف يخلقون بهذه العدة وهم كاملون سرمديون وكل منهم في استغناء الله ودوامه بغير اختلاف ؟

فإذا كان العقل لا يستريح إلى صورة الإله القادر على كل شيء وليس معه خلق كثير ولا قليل ولا سعيد ولا شقي على الإطلاق ، وكان العقل لا يستريح إلى صورة الإله القادر على كل شيء يخلق إلهاً آخر قادراً على كل شيء مثله بغير فارق بين الخالق والمخلوق — فماذا بقي للعقل من صورة يستريح إليها بين هذه الصور غير صورة العالم كما عهدناه ؟ وكيف يكون خلق محدود ولا يكون لتلك الحدود مظهر من النقص والألم والحرمان ؟

إن هذه الصورة لهي أقرب صورة يقبلها العقل مع وجود الله القادر على كل شيء وليست هي بالصورة التي تناقض وجوده وتعضل على العقل في التخيل أو في التأمل أو في الاعتقاد .

إما إله ولا شيء .

وإما إله خالق وإله مخلوق بغير فارق بين الإلهين .

وإما هذا العالم كما عهدناه ، ونحن نجهل عقباه أو لا نملك أن نقيس العقبى السرمدية على ما شهدناه .

ومع اقتراب هذه الصورة من المعقول لم تُترك للعقل البشري يبتلعها بغير مسوغ من تجاربه المحدودة في حياته الفكرية أو حياته العاطفية أو حياته الاجتماعية على تعاقب الأجيال .

فقد يفصل بين الطفل وأبيه فارق عشرين سنة أو دون العشرين . وهذا الفارق الصغير هو الذي يسمح للأب في دخيلة قلبه أن يبتسم وهو ينظر إلى دموع ولده الذي يتولاه بالتربية والتأديب . ولا يعلم الأب من نفسه أنه قاس غليظ . ولا الناس يعلمون فيه القسوة والغلظة من أجل هـذا التباين في الشعور ، ويكبر الابن نفسه فلا يتهم أباه . لأنـه يبتسم لتلك القسوة المزعومة كما ابتسم أبوه وهو دامع العينين .

فإذا كان هذا ما نسمح به لفارق عشرين سنة ، فبماذا نسمح لفارق الآباد والآزال ؟ وما أجدّ بكاء الطفل إلى جانب ذلك البكاء الهازل قياساً على فارق العلم وفارق الزمان ؟

وقد يحب الإنسان إنساناً فيلتذ الألم والعذاب في حبه ويتخذ من ألمه وعذابه غذاء لتلك المتعة النفسية وعلامة على الوفاء والإيثار . ويجوز أضعاف ذلك في شريعة الحب الإلهي إذا جاز ذلك وأمثاله في حب الإنسان للإنسان. فمن حق الوجود الإلهي أن يكون له في قلوب عارفيه حب لا يضارعه حب فانٍ محدود ، نهواه لما نتخيله من صفات قلما تصدق في غير الخيال .

ونحن ننظر إلى حيز واحد من التحفة الفنية الخالدة فلا نرى فيها إلا بقعة تقبح في النظر أو قطعة من الحجر والطين ،ولا نقيس التحفة الفنية مع ذلك على البقعة الشائهة في الحيز المحدود . ولو طال أجل هذا النوع الإنساني أضعاف

مطاله لما كان في تلك البقعة الشائهة غير ذرة هباء ، لأنه بقعة ضئيلة في صورة تتناول الدهور التي لا نحصيها والمكان الذي لا نستقصيه . فمن أين لنا أن نقيس جمال الصورة الأبدية على بقعة الحاضر كما تمثلناه ؟ وكيف نحصر الآزال والآباد في لمحة من حاضر عابر ؟ وكيف نستوعب بالحواس ما تضيق به الحواس بل تضيق به العقول ؟

ولقد كانت هذه « الفترة » الخاطفة في سعة الأبد الأبيد دليلاً حسناً على ما سيكون أو يرجى أن يكون . لأننا أيقنا بما أحصيناه فيها أن آلام الأحياء ليست بالآلام الجزاف على غير طائل ، فهي وسيلة الارتقاء والانتقاء ، وهي التفرقة التي لا تفرقة غيرها بين الفاضل والمفضول وبين المحمود والمذموم ، وهي مزيج يذاق به طعم الحياة وبغيره لا يعرف لها طعم ولا مذاق .

فهذه المؤلمات في دنيانا لا تعوق العقل عن إدراك الإله القادر على كل شيء ، لأننا لن ندرك صورة أخرى هي أقرب إلى عقولنا من هذه الصورة التي لا تناقض فيها ، وقد تنفي التناقض الذي يواجه عقولنا من غيرها : تنفي تناقض القول بأن الله قادر على كل شيء ولا يخلق شيئاً ، وتنفي تناقض القول بأن الله لا مثيل له ويخلق إلهاً آخر يماثله بغير خلاف .

* * *

ومهما يبق من مشكلة الشر — مع هذا التفسير أو بغير هذا التفسير — فالكون الذي يخلقه إله قادر على كل شيء وتديره حكمة تتعالى على العقول — أقرب إلى القبول من الإله المتطور عن المادة العمياء ... لأنها موجودة منذ القدم على النحو الذي يُخرج منها الآلهة . فلماذا تخرج منها الآلهة بعد دهور متتابعة ؟ وكيف نقدر لزومها لإخراج الآلهة ومن هم دون الآلهة من الأحياء !

فهذه الآلهة المتطورة لن تثبت لنا بالبرهان المنطقي القاطع ولن تثبت لنا بالتجربة العلمية ، ولن تثبت لنا بالإيمان ... لأنها لا توافق طبيعة الإيمان .

وكل ما فيها أنها تخمين يلفقه الخيال ويلتمس له القرائن والشبهات من بعض الظواهر العلمية التي لا تستقر في تفسيراتها وتأويلاتها على حال .

ونحن نحاول أن نفهم«التطور»في كون غير محدود فلا نستطيع أن نفهمه ولا أن نقربه إلى المفهوم . لأن الكون « غير المحدود » لم يبدأ في زمن معلوم فيقال إنه يحتاج في تطوره إلى زمن معلوم ، ولم يبدأ منقوصاً من بعض صفاته وقواه فيقال إنه قد استتم هذه الصفات والقوى في طريق التطور والارتقاء،ولم يبدأ حركته في خط مستقيم فيتحرك من نقطة إلى ما بعدها في الزمان أو المكان . فكل تطور فيه فهو قول يحتاج إلى تصديق لا يحتاج إليه دين من الأديان .

وإذا تجاوزنا عن هذا فنحن لا نفهم التطور في الكون المادي إلا بالقياس إلى مخلوق ذي حياة ، ثم بالقياس إلى حادث مقصود قبل وقوعه بأزمان .

فلماذا يكون الماء أرقى من الهيدروجين والأكسوجين؟ لا يكون كذلك إلا إذا قدرنا أنه أنسب لتقويم بعض الأحياء . لأن السيولة ليست أرقى من «الغازية» وليست ممتنعة على الغازات . وإذا قيل إنها أجمل في منظرها فهو قول مشكوك فيه ، ولن يكون الحكم فيه إلا لحي من الأحياء .

ولماذا تكون المشمومات والمنظورات والمسموعات أرقى من ذوات الحجوم والأشكال بلا رائحة ولا لون ولا صوت ؟ لا تكون كذلك إلا إذا كانت الحياة هي معيار التطور والارتقاء بين جميع الموجودات ، وكانت مقدورة على نوع من التقدير قبل ظهورها بأزمان .

ولماذا تكون الكواكب الدوارة أجمل من السديم المتوهج الهائم في أجواز الفضاء ؟ إنها لا تكون كذلك إلا لأنها أصلح لمعيشة الحي في بعض أدوارها ، وأجمل في النفوس والعيون .

بل لماذا يُحسب التحول من دور الاشتعال السديمي إلى دور « التكوكب » ضرباً من التطور والارتقاء ؟

انه في وضعه « العلمي » نوع من الدثور والهمود ، لأنه علامة على تسرب الحرارة وتفرق الطاقة ونزوع المادة إلى الجمود . فإذا كانت هذه الخطوة مقدمة لظهور الحياة لانحلال القوى — فتلك علامة القصد والتدبير وليست علامة « القانون الآلي » المطرد في مجاهل الضرورة العمياء .

وغاية ما أثبته هؤلاء الفلاسفة « التطوريون » أن العقل أرقى من الحياة وأن الحياة أرقى من المادة ، وأن العالم يستقيم في طريق الارتقاء .

فلماذا يكون نصيب الكون من العقل هو النصيب المحدود ، ويكون نصيبه من المادة منذ القدم الذي لا أول له نصيباً غير محدود ؟

إن هؤلاء «الفلاسفة» كثيراً ما يعيبون على المعتقدين بالأديان أنهم يخلعون التصورات الإنسانية على حقيقة الله وعلى حقيقة الوجود ، وأنهم يتصورون الله خالقاً كما يتصورون الإنسان في خلقه لبعض المصنوعات .

وواقع الأمر أن هذه « العادة الذهنية » تلازم أولئك الفلاسفة وهم يهربون منها ... لأنهم يتصورون الكون كما يتصورون الإنسان في مراحل حياته : يتصورونه طفلاً فصبياً فيافعاً فشاباً فرجلاً فكهلاً يترقى في ملكات الجسم والعقل يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام . يتصورونه كذلك وينسون أنهم فرضوه كوناً غير محدود في قوة ولا أجل ولا اتساع . فكيف ينمو نمو الأحياء المنظورة إلى آجال ؟ وإلى أي غاية يترقى وليست هناك غايات ولا بدايات ؟ وإذا بلغ غاية « العقل » في الزمان الذي لا نهاية له فهل يصبح العقل بعد ذلك مقيداً بأحكام المادة كأنه لا يزال ذلك الوليد المتعثر في عجز الطفولة ؟ أو يصبح قادراً على كل شيء بعد فوات الفرصة السانحة للقدرة على كل شيء ؟ أي يصبح قادراً على كل شيء لكيلا يقدر على شيء من الأشياء ، ولا يجد أمامه ما يعمله غير النظر إلى ما كان كما ينظر إليه العاجز من جميع الأشياء ! .. فينشأ العقل الإلهي عبثاً بعد الاستغناء عنه وتمام كل شيء بغير حاجة إليه .

* * *

وحال الفلسفة الفرنسية الحديثة كحال زميلتها الفلسفة البريطانية والفلسفة الأمريكية . مع فارق في المعنى دون الاتجاه .

فأكبر الفلاسفة المحدثين في فرنسا هو هنري برجسون صاحب مذهب التطور الخالق ، ولعله قد سبق الفلاسفة البريطان والأمريكان إلى التنويه بشأن التطور في الحكمة الإلهية ، ولكنه يخالفهم في رأيين جوهريين : وهما التفرقة بين الزمان والمكان ، والتفرقة بين المادة والروح .

فعندهم كما رأينا أن الزمان والمكان وحدة لا انفصال فيها ، وأن الروح خاصة من خواص المادة أو طور من أطوارها المكنونة .

أما برجسون فيرى أن الزمان غير المكان ، وأن الروح غير المادة ، بل إنهما متعارضتان متناقضتان . والحياة في رأيه أقرب إلى عنصر الزمان منها إلى عنصر المكان ، لأنها حركة لا استقرار فيها ، وأمكن ملكاتها — وهي الذاكرة — إن هي إلا زمن مخزون ، وكذلك الغرائز الحيوية في بعض الأحوال.

ومعدن المادة في رأيه غير معدن الروح لأن الروح صاعدة حرة ، والمادة هابطة مقيدة ، وليس أدل على تناقض الطبيعتين من تعليل الضحك في رأيه ، فنحن نضحك إذا رأينا إنساناً يتصرف تصرف الآلة المادية ... لأنه تصرف لا يحس بالحياة ، ونحن لا نضحك من مادة ولا من حشرة مسلوبة الحرية ، ولكننا نضحك من « ذي روح » يتصرف تصرف الجماد .

والعقل الإنساني أعرف بالحقائق المكانية ، ولكنه لا ينفذ إلى بواطن الحركة « الزمانية » في صميمها ، وإنما تنفذ إليها « البداهة » وهي أرقى ما ترتقي إليه الغرائز الحيوية ... إلا أن برجسون لا يقيد العقل بالدماغ كما يفعل بعض الفلاسفة الماديين أو الفلاسفة الآليين : بل يقول إن العقل قد يفكر بغير دماغ ، كما يهضم بعض الأحياء بغير معدة . فليست مادة الدماغ هي مصدر العقل الأصيل ، وما هي إلا أداة تتهيأ لتوجيهات العقل بعد استعداد طويل .

واعتماداً على تعليق الحياة بعنصر الزمان يبسط الفيلسوف أوسع الآمال على مستقبل الحياة في الزمان الباقي إلى أبد الأبيد . فقد تعلو الحياة حتى تتغلب على الموت ، وقد يسمو العقل حتى يحطم قيود المكان أو قيود المادة التي هي عنده ألصق بعنصر المكان .

أما « الخالق » في مذهب برجسون فليس كما صوره أصحاب العقيدة الدينية ولا كما صوره أصحاب الفلسفة الآلية .

أولئك قد شبه لهم عمل الخالق بعمل الإنسان فحسبوا الكون مصنوعاً من مصنوعات إنسان كبير ليس له انتهاء .

وهؤلاء رانت على أفكارهم غاشية الصناعة فحسبوا الكون على مثال الآلات الضخام التي تدار بالبخار أو الكهرباء في دقة وإحكام .

ومفصل القول بين الفريقين على مذهب برجسون أن القوة الخالقة — أو التطور الخالق — موجودة « في الكون » وليست موجودة خارج الكون ، وأنها حركة دائمة تلقى العنت من مقاومة الجمود الدائم ، وهو وجود المادة الصماء .

على أن المشكلة الكبرى كما قدمنا هي اعتقادهم أن القوة الخالقة هي « في الكون » وأنها مقيدة به ثم يأتي منها الخلق على أطوار .

فلماذا يأتي خلقها على أطوار مع الزمان ؟ لماذا لا يحدث دفعة واحدة من أزل الآزال .

أهي تزداد وتنتصر ؟ أم أن المادة تنقص وتنهزم؟ إن المعسكرين والسلاحين والجيشين والقيادتين كلها قائمة من عهد ليس له ابتداء . فلم التطور ؟ ولم التغير في الزمن ؟ وما هي العقبى بعد النصر المبين من هنا والخذلان المبين هناك ...

* * *

وننتقل من الفلسفة الإنجليزية والفلسفة الفرنسية إلى فلسفة الجرمان، فلا نرى هنالك مذهباً أفضل من هذه المذاهب في إدراك الحقيقة الإلهية وتفسير الطبيعة وما بعد الطبيعة على وجه يرضي العقل ويريح الضمير .

والمعروف عن البلاد الجرمانية أنها بلاد مخصبة بالفلسفة الإلهية — ونريد بها الفلسفة التي تعنى بما وراء الطبيعة ، ولكنها في النصف الأخير من القرن التاسع عشر لم تخرج في هذا المجال مذهباً جديداً يضارع مذاهب الفلاسفة الجرمان المتقدمين على ذلك الجيل ، وازداد فلاسفتها بعداً عن هذا المجال في الزمن الأخير فكان أشهر المذاهب التي شرحوها كالظاهرية Phenomenology أو الوجودية Existentialism منصرفة إلى وضع المقاييس لتمحيص الحقائق والتفرقة بين نطاق العلم ونطاق الفلسفة ونطاق التجارب النفسية ، وربما اتفق للمذهب الواحد داعية من الملحدين وداعية من المؤمنين ، وربما أعرضوا

كل الإعراض عن مسائل ما بعد الطبيعة كأنها موضوع ميؤوس منه ... ومن تناولها منهم لم يتوسع فيها توسع الفلاسفة الذين اعتبروها موضوع الفلسفة قبل كل موضوع .

وقد تلخص الفكرة الإلهية بينهم بتلخيص الآراء التي رددها أشهر مفكريهم إلى مطالع القرن العشرين. ويكفينا منهم ثلاثة هم نيتشه وهارتمان وشبنجلر . وهم الذين قرروا في مسائل ما بعد الطبيعة رأياً مستقلاً لا يحسب شرحاً من شروح الكثلكة أو البروتستانية ، ولا يحسب حاشية على مقاييس المنطق ومعايير العلوم .

فعند نيتشه (١٨٤٤ — ١٩٠٠) أن الله « قد مات » وأن الشجاعة هي الدين الذي ينبغي أن يتدين به كل إنسان جدير بالحياة . لأن الشجاعة ألزم ما يلزم النفس من خليقة — أو عقيدة — في عالم خلا من الله. ويرى نيتشه أن العالم — كقوة — لا يتأتى أن يتخيل بلا حدود . لأن فكرة القوة التي لا حدود لها تناقض فكرة القوة ذاتها في الصميم . ومن هنا تعدم الدنيا وسائل التجديد الأبدية ، وتتكرر فيها الكائنات ولا يزالون متكررين بغير انتهاء ، وهذا التكرار هو عوض نيتشه عن البعث في نعيم السماء . لأن الأمل في ذلك النعيم هو عزاء الضعفاء الذين تنكرت لهم حياتهم الدنيا. ففيه إلغاء للحياة وليس فيه كذلك التكرار إثبات للحياة .

وعند إدوارد فون هارتمان أن الله ليس بذات وأنه غير شاعر بنفسه أو صاحب «أنا» تتشخص في كيان... لأن الذاتية والأنانية أبعد شيء في رأي هارتمان عن القداسة الإلهية ، ولكن الكون فكرة وإرادة، وهما يقابلان عنده إله النور وإله الظلام عند المجوس . فالشر كله من عالم الإرادة وهو عالمنا الذي نعاني فيه الآلام والآثام، وإنما تمتحن الفكرة بالإرادة لتعود إلى صفائها مجردة عن الوعي ومنزهة عن الذات . وليس بالمستغرب في مذهب هارتمان أن يكون للإرادة قصد دون أن يكون لها وعي وشعور بما تقصد إليه . لأن الغريزة الحيوانية — وهي وليدتها البارزة لنا — تقصد إلى غاية ولا تعي ما تقصد إليه .

وليس الله في رأي شبنجلر (١٨٨٠ – ١٩٣٦) إلا « إرادة » على عادة الألمان المحدثين في ترجيح الإرادة على الفكرة . ففي كلامه عن كيان الروح من كتابه « انحدار الغرب » يقول : « إن الله بالنسبة إلينا – الله الذي هو سعة العالم والذي هو القوة الكونية ، والذي هو الفعال الوهاب على الدوام ، والذي ينعكس من فضاء العالم إلى فضاء الروح القائم بالخيال فلا تحسه بالضرورة إلا حضوراً واقعياً – هو ولا مشاحة إرادة ويقترن بالثنائية المجوسية في العالم الأصغر وثنائية الروح والنفس وثنائية فوماوسيكي اليونانيتين– ثنائية لازمة من الله والشيطان ، أو من أرمزد وأهريمان عند الفرس ، ويهوا وبعلزبوب عند اليهود ، والله وإبليس عند المسلمين ، أو ثنائية الخير المطلق والشر المطلق بالإيجاز . ولتلاحظ فوق هذا كيف يبهت هذان الضدان معاً في إحساس الغرب بالوجود . وعلى قدر ما تتراءى الإرادة في الصراع القوطي على السيادة بين الذهن والعزيمة لتقرير مركز للوحدانية الروحية – تضمحل صورة الشيطان من الدنيا الواقعية . أما في طراز القرن الثامن عشر فوحدة الوجود التي انعكست على العالم الخارجي من عالم النفس أسفرت عن التقابل بين كلمة « الله » وكلمة « الدنيا » ودلت تمام الدلالة على ما يراد بالتقابل بين الروح والإرادة ، وهي القوة التي تحرك كل ما يقع تحت سلطانها .. ولا استثناء للإلحاد من هذا الشعور . فإن الملحد أو الدارويني الذي يتكلم عن الطبيعة التي تنظّم كل شيء وتنتخب ما تشاء وتوجد وتفنى ما تشاء لا يخالف المؤمن بالله من أبناء القرن الثامن عشر إلا بمقدار لفظة واحدة . لأن الشعور بالدنيا لم يطرأ عليه تغيير . وما هو إلا أن يتحول العقل من الدين إلى العلم حتى تبدو لنا الأسطورة المزدوجة في اصطلاح الطبيعيات والنفسيات . فالقوة حين تقابلها المادة والإرادة حين تقابلها الرغبة أو الشهوة لا تستند إلى تجربة خارجية وإنما تستند إلى شعور حيوي كمين . وما الداروينية إلا صيغة سطحية لهذا الشعور . ولن تتخيل إغريقياً يستخدم كلمة الطبيعة بالمعنى الذي يستخدمه البيولوجيون كأنها نشاط مطلق منظوم. وما قولنا إرادة الله إلا من قبيل الحشو والتكرار لأن الله – أو الطبيعة كما يقول بعضهم – ليس إلا إرادة. وقد نفضت فكرة الله بعد عهد الإصلاح ملامح الشخصية والحسية وأوشكت أن تتمثل كأنها اتساع الفضاء

الذي ليس له انتهاء . فأصبحت بمثابة الإرادة الكونية المتعالية على الكون. ولهذا وجب أن يتنحى فن التصوير منذ حوالي سنة ١٣٠٠ لفن الموسيقى. إذهو الفن الوحيد القادر في النهاية على التعبير الواضح عما نشعر به من فكرة الله...»

* * *

وكذلك يتلاقى هؤلاء الفلاسفة المتفرقون عند توكيد الإرادة في الحقائق الكونية والصفات الإلهية... فالإرادة — أو « السلطة » بعبارة أخرى — هي الحقيقة الكبرى في أصول الوجود .

وذلك هو موضع العبرة التي تنطوي على عظات كثيرة للعقول . فإن توكيد السلطة في المذاهب الجرمانية ، وتوكيد الإلهية « الدستورية » في البلاد الإنجليزية لم يأت من مجرد اتفاق .

وموضع العبرة هنا أن الفلاسفة المحدثين يأخذون على المتدينين أنهم يدخلون المشابه الآدمية في فهم الحقائق المجردة فينسبون إلى الله صفات وأعمالاً لا تصدر إلا من الإنسان ويتخذون ملك الأرض نموذجاً يقيسون عليه ملك الوجود ، ويفخر أولئك الفلاسفة بالترفع عن هذه «العادة الذهنية» والتخلص من هذا الخلط بين المحسوس والمفهوم ، أو بين المجسمات والمجردات ولكنهم كما رأينا لا يخلصون من أسر المتشابه ولا يسلمون من الخلط بين « الحكم الأرضي » كما يحسونه « والتدبير الكوني » كما يتخيلونه وهم يحاولون التجرد عن ضلالات الحس والخيال . فالإرادة في المذاهب الألمانية هي كل شيء بين الأرض والسماء ! وهي الله أو هي القوة المسيطرة على الوجود ، وهي أحياناً قوة عمياء غير واعية ولا شاعرة بما تعمل وما تريد ، لأن السلطة الغاشمة قوة عمياء .

أما هذه « الإرادة » فلا إطلاق لها في المذاهب الإنجليزية الحديثة ، لأن إرادة الحاكم لا تنطلق من جميع القيود في الحكومة الدستورية. فهي عند فلاسفتهم مشمولة بنظام واحد يسري على سائر الموجودات .

فالمشابه الأدمية لا تفارق هؤلاء الفلاسفة الذين يفخرون بالتجريد والتنزيه..

ولا نظن أن الإرادة العمياء تظفر بكل هذا التوكيد في المذاهب الجرمانية وتلقى كل ذلك التقييد في المذاهب الإنجليزية والفرنسية لو كان فلاسفة الفريقين قد تجردوا حقاً من وحي المشابهات والملابسات .

* * *

وبين العدوتين مع ذلك برزخ التقاء تتماثل فيه مذاهب الفريقين . فإن النزعة الغالبة في الدراسات النفسية بين الألمان والإنجليز هي نزعة القول « بالتركيب » أو بالتركيبة الكاملة التي تتقدم في الاعتبار على الأجزاء والمفردات.

ومدرسة الجشتالت Gestlat الألمانية، أو مدرسة الشكل المركب ، أروج المدارس العصرية بين النفسانيين في القارة الأوربية، وهي معنية بعلم النفس في المنزلة الأولى ، ثم يشتق منها المشتقون ما يخطر لهم من التطبيقات في باب الحكمة الإلهية وفي مباحث الطبيعة وما بعد الطبيعة .

وخلاصة هذا المذهب أن « الكل » سابق على الأجزاء في تلقي المحسوسات وأن علم الإنسان بالكون لا يأتي من جمع المفردات بل من وعي المركبات... ما من مركب في قولهم إلا وهو مجموعة من مركبات أخرى يقسمونها إلى خمسة أقسام تختلف في الدقة والإحكام .

فمنها المركبات المادية « غير العضوية » كالحجارة وفقاقيع الصابون ، ومنها المركبات الصناعية كالآلات وقطع الأثاث وأعشاش الطيور ، ومنها المركبات العضوية وتشمل كل بنية ذات حياة ، ومنها المركبات المتداخلة كاللحن الموسيقي الذي يتألف من نغمات أو كالعبارة المفهومة التي تتألف من كلمات ، ومنها المركبات الجماعية كالأمم والقطعان والأسراب .

والعقل قد خلق ليدرك الأشياء مركبة ثم يحللها متى سنحت له حاجة إلى تحليلها ، فهو يعول في إدراكه على ما يسمونه البصيرة أو الفطنة النافذة، وليس تعويله الأكبر – كما وقر في الأذهان قبل ذلك – على أشتات الإحساس وأجزاء المفردات .

فإن لم تكن ثمة فطنة نافذة تبادر بإدراك « الكل » فلا إدراك ولا تذكر ولا

خيال ... والحيوان الأعجم – كالقطة مثلا – نعلمها أن تحل الشبكة بيديها فتحلها بأسنانها إذا عاق يديها عائق. ولولا أنها نفذت إلى « الشيء » جملة واحدة لما اهتدت إلى هذا الابتكار . فليست العقيدة في كمين إدراكها حركة يد تلامس خيطاً ولا تعدو هذه الحركة ، ولكنها شيء تنفذ إليه جملة بإدراكها جملة فلا يتوقف على الإحساس بالمفردات .

ومن العبث أن تقصر الالتفات إلى جزء واحد وتضم إليه جزءاً من هنا وجزءاً من هناك وتزعم أنك قد أحطت « بالكل » من طريق الأجزاء . وإنما الطريق المستقيم أن تنفذ إلى الكل وتعرف موضع الأجزاء منه ومرجعها إليه. إذ لا يقف جزء قط على انفراد ، ولا يخلو جزء قط من علاقة يؤثر بها في غيره ويتأثر بها من غيره وتتجاوب فيها جميع الأجزاء كما تؤلف بينها التركيبة الكاملة أو البنية المتماسكة .

وارتباط هذا المذهب بالحكمة الإلهية أنه مرتبط بكنه العقل وكنه الجسد، وأنه يضع العقل في الموضع الوسط بين جماعة الآليين وجماعة القصديين أو القائلين بإمكان عزل العقل عن العوارض الجسدية .

فالآليون –وعلى رأسهم العالمان الروسيان بافلوف وبختر و **Bechterow** يردون كل فكرة إلى الفواعل الجسدية حاضرة وماضية، ومعلومة لنا أو مجهولة لدينا يدل عليها المعلوم، ويكررون تجاربهم في الحيوان لإثبات العلاقة بين التصورات والحركات العضوية والإفرازات الجسدية. وتعرف المدرسة المعتدلة من دعاة هذا المذهب بالمدرسة السلوكية **Behaviourism** لأنها تفسر السلوك بضرورات التجاوب بين المؤثرات والأعضاء ، وليس للعقل المجرد مكان عند هذه المدرسة سواء في الإنسان أو في الطبيعة أو فيما وراءها .

والقصديون وعلى رأسهم وليم مكدوجال الأمريكي **McDougall** يثبتون العقل المجرد وينكرون على بعض البيولوجيين والفزيولوجيين دعواهم أن العقل من عمل الدماغ والأعصاب، لأن ظواهر الحياة غير ظواهر المادة ، وظواهر العقل غير ظواهر الغريزة في الأحياء السفلى، ولم يقرر العلم قط ما ينفي أن

الدماغ آلة العقل التي يعمل بها في الجسد، ولم يثبت العلم قط أنه مصدر العقل دون سواه .

فجماعة الشكل المركب أو جماعة « الجشتالت » وسط بين فريق الآليين وفريق القصديين ، لأنهم يثبتون للعقل وجوداً لا يتوقف على الإحساس ، ويتشعبون بعد ذلك شعبتين متقابلتين . فمن فهم أن العقل كنه مجرد قد يستقل عن الحواس كما يستقل عن الإحساس قال بالقصد وتأثيره في أعمال الإنسان وقال فوق ذلك بالعقل المطلق وتأثيره في حركات الكون وعوارض الأجسام والنفوس . ومن فهم أن الفرق كله فرق بين تلقي المركبات وتلقي الأجزاء، وأن الفواعل الجسدية كافية لتفسير الإدراك العقلي على اختلاف مصادره ، فهو ينكر محل العقل المجرد ويحسب في مسألة الخلق والخالق من زمرة الآليين والماديين .

* * *

ولم تخل القارة الأوربية من مذاهب أخرى غير هذه المذاهب ظهرت في البلاد السلافية كالروسيا وبولونيا ، أو في البلاد التيوتونية كالدنمرك والسويد والنرويج ، أو في البلاد اللاتينية كإيطاليا وإسبانيا وبعض بلاد البلجيك . ولكنها على الأكثر بين مذاهب مادية بحتة تقف عند حد الإنكار ولا تتعداه ، وبين نظرات خاصة في الديانة المسيحية تنضوي تارة إلى كنيسة من الكنائس المعروفة ، أو تنفصل عن الكنائس جميعاً وتكتفي من الديانة بالعقيدة الفردية دون شعائرها الاجتماعية .

فلا نحسبنا بحاجة في هذا السياق إلى تخصيص مذهب منها بالذكر غير مذهب واحد لا يدخل في الإنكار البحت ولا في التفسيرات الدينية البحتة ، وهو مذهب «بنديتو كروشي »الإيطالي الذي يلقب بهيجل الحديث ، لأنه يدين بالفكرة مثله ويخالفه في شرح أطوارها التي تتجلى بها في العالم .

وخلاصة مذهب كروشي — فيما نحن بصدده — أن الفكر هو الوجود المحقق الذي لا شك فيه، وأن الفكر الأبدي يتجلى في حلقات متوالية ينسخ

بعضها بعضاً وتتجه جميعاً إلى مجاهدة الشر والغلبة عليه ، وأن هذا الأضداد المتناسخة بعضها ضدٌّ لبعض ، ولكنها ليست بضد «للوحدة» الكاملة التي تنطوي فيها جميع الأضداد، وأن الأديان طور من أطوار الفكر ولكنها خطوة مترقية من خطوات الأساطير الأولى في تقدم الإنسانية إلى الفكر الصحيح ، ولا محل للأديان في رأيه بعد ارتقاء الفلسفة وتجردها من بقايا الأساطير . قال في الفصل الأخير من كتابه أدب الحياة أو مسالك الحياة : «إن العصر الذي نعيش فيه يتهم بهدم الديانات التي أصابت فيها الحياة الإنسانية منطقها وآداب سلوكها ومواطن استقرارها وأمانها . إلا أنها تهمة لاثبات لها . لأن عصرنا بهذا الذي صنعه قد صنع شيئاً لا قبل له باجتنابه . إذ لم يكن هنالك بد من تساقط بعض الجوانب القيمة من البنية القديمة في خلال تعرية الديانات من جلابيب الأساطير . وفي هذه الجوانب أفكار نفيسة وفضائل لا يسهل تقويمها مما كان متصلاً بالقضايا الأسطورية . ولكن عصرنا قد بادر إلى استخلاص هذه الأفكار والفضائل ووضعها في المكان اللائق بها بعد صقلها وتنظيفها وإثباتها في أركان صرح جديد هو أرسخ وأنبل وأوسع وأقوى من صرحها المهدوم . وإنه لفخر عظيم لجيلنا هذا ان يفلح في تأسيس ديانة إنسانية ، وعقيدة مصفاة تبزغ من محض الفكر الصراح . ولكنه فكر تتجسم فيه الحياة أو يسخو بالجديد من الحياة » .

* * *

ومواضع الملاحظة على هذا المذهب هي « أولا » أن الإيمان بأن « الفكر » هو الحقيقة المطلقة عجيب جد العجب مع القول بأن المادة تقف في طريق الفكر وهي وجود « غير صحيح » وهو هو وحده الوجود الصحيح ... فالذين يقولون إن المادة متلبسة بالفكر مشتملة عليه يقولون شيئاً مفهوماً حين يتخيلون أن الفكر متوقف على أطوار المادة وإن كانت هذه الأطوار زعماً غير مفهوم . أما الذين يعرفون للفكر حقيقة مطلقة فلا يقولون شيئاً مفهوماً حين يتخيلون أن الفكر يزداد أو يترقى من مغالبة « وجود » غير صحيح .

و « ثانياً » أن الأبدية أو « اللانهائيه » ليست مجموعة الحلقات المحدودة ،

لأن مجموع المحدود محدود . وليس امتداد فترة من الفترات بجاعلها في النهاية أو البداية شيئاً بلا انتهاء ولا ابتداء . وإنما الأبد فوق « المحدودات » وليس بمجموعة المحدودات بالغه ما بلغت من التعدد والاستطالة والاتساع ، وما كان الأبد شيئاً يسبق هذه المسافة من الزمان أو يلحق بتلك المسافة من الزمان . ولكنه شيء يحتوي الزمان والزمان لا يحتويه ، أو شيء لا يعد الزمان قطعة منه ، لأننا إذا أخرجنا هذه القطعة من حسابه لم يخرج منه شيء ولم يكن في موضعها فراغ .

و « ثالثاً » أن عنصر الأسطورة غير عنصر العقيدة وعنصر العقيدة غير عنصر الفلسفة أو المعرفة العقلية على العموم . فإن الأسطورة – إذا انعزلت عن العقيدة – لم تكن إلا تشبيهاً فنياً يعوزه الرخام أو ريشة التصوير . أما الفلسفة فهي معرفة بالكون وليست كالعقيدة إحساساً بالكون . فقصارى الفلسفة أن يعلم الإنسان أن الله موجود وليس هذا قصارى التدين أو الاعتقاد . ولو كان هذا قصارى الإنسان من الاعتقاد لأغناه وجود الكون الأعظم وهو موجود لا شك فيه . ولكنه يعتقد بالله ليشعر بالصلة بين نفسه وبين الله وبين الله وبين نفسه ، أو ليشعر بأن الله يعطيه الحياة لا بأن الله يأخذ حياته الأبدية منه ومن سائر الكائنات .

فالأسطورة والديانة والفلسفة ليست حلقات متوالية في سلسلة واحدة ، لأن الأسطورة لا تزال باقية في تعبيرات الشعر والفنون وفي كل تشبيه يراه الخيال في اليقظة أو في المنام ، ولأن الفلسفة قد تقول كل ما عندها ولا تستأصل بذلك عنصر العقيدة من الوجدان . وقد تمحو العقيدة أو تفسدها ولا يلزم من ذلك أن تكون بديلاً منها أو خطوة تالية لخطوتها . فليست قدرة الفلسفة على تفنيد بعض العقائد دليلاً على أنها عقيدة من عنصرها . بل هي دليل على أنها تفسح المكان لعقيدة أخرى لا تبطلها الفلسفة ولا يكون بينها وبين الفلسفة علاقة النقيض بالنقيض .

وفحوى ذلك كله بكلمة موجزة أن الفلسفة والديانة ليستا بالنقيضين ، ولكنهما ليستا بشيء واحد . فقد يوجد الشيئان المنفصلان ولا يتناقضان .

على أننا نحاول أن نستخلص من هذه المذاهب جميعاً زبدتها التي تستمد من كل واحد منها . فيبدو لنا أنها تفضي بنا إلى نتيجتين واضحتين :

فالنتيجة الأولى أنها « تدين » كلها بالتطور أو بالتغير من بساطة إلى تركيب ومن وضيع إلى رفيع .

ولكن لا سبيل إلى التطور ولا التغير إذا كان الكون كله مادة سرمدية لا مصدر لها ولا غاية . إذ كل ما فيه اليوم قد كان فيه كل يوم ، فإذا لم يكن وراءه عقل يصرفه ويملك مقاديره فلا معنى للتطور فيه . أما تصريف العقل له فلا ينقضه أن تغيب عنا علل التصريف والتقدير . إذ اللازم منطقياً أن المادة الأبدية لا تزيد ولا يجد عليها جديد . ولكن ليس من اللازم منطقياً أن نحيط بكل ما يحيط به العقل المدبر لجميع الوجود .

والنتيجة الثانية أن العلوم التجريبية كانت ثورة على العرفان من طريق الفلسفة القديمة وعلى العرفان من طريق المنطق والقياس بغير تجريب . وأن هذه الفلسفات الحديثة جاءت ثورة على العلوم التجريبية وعلى دعوى هذه العلوم أنها دون غيرها مصدر المعرفة الصحيحة بالكون وبالحياة .

والثورة على الثورة أقرب إلى الإقرار منها إلى الإنكار .

فإذا لاح للوهلة الأولى أن هذه المذاهب الفلسفية إمعان في إنكار العقيدة والإيمان فالنظرة التالية قد ترينا فيها مغزى غير ذلك المغزى واتجاهاً غير ذلك الاتجاه .

إذ هي إقرار لوسائل المعرفة التي تأتي من غير طريق التحليل والمشاهدة الحسية ، واعتراف للنفس بحق في الحكم على الوجود والموجودات لا يتوقف على المعمل والمشرط والمنظار .

وذلك عود إلى حق النفس في الإيمان ، وفتح لباب الإلهام والبديهة ، بعد أن أوشك الحس أن يغلقه ويقيم عليه الأرصاد .

ولن تفتح باب الإلهام طويلاً دون أن يطرقه الطارق المأمول .

العلوم الطبيعية والمباحث الإلهية

بقي رأي العلم الحديث في المسألة الإلهية .

ويحق للعالم الطبيعي أن يبدي رأياً يُحتج به في المباحث الإلهية بمقدار نصيبه من صحة العلم وسعة الأفق وقوة العارضة وصدق العبارة . وهو يستفيد هذه الخصال من طول البحث وتعود التمحيص والتجربة ووفرة المعلومات في موضوع واحد أو موضوعات متعددة . ويستطيع — إذا كان ممن يستدلون بنظام الكون على قدرة صانعه — أن يتوسع في تفصيل الشواهد على دقة النظام واطراده في ظواهر المادة وخفاياها التي تحتجب عن غير العلماء المتفرغين لهذه العلوم .

أما العلوم الطبيعية نفسها فليس من شأنها أن تخول أصحابها حق القول الفصل في المباحث الإلهية والمسائل الأبدية ، لأنها من جهة مقصورة على ما يقبل المشاهدة والتجربة والتسجيل ، ومن جهة أخرى مقصورة على نوع واحد من الموجودات ، وهي بعد هذا وذاك تتناول عوارض الموجودات ولا تتناول جوهر الوجود ، وهو لا يدخل في تجارب علم من تلك العلوم .

فالبيولوجي يدرس أعضاء الجسم الحي ولكنه لا يستطيع بعلمه أن يبين أسباب الاختلاف بين الخلية الحية والخلية الميتة أو الخلية الجامدة. ولا يستطيع أن يقرر ماهية الحياة ، لأن أعمال الأعضاء شيء والقوة التي تعمل بها تلك الأعضاء شيء آخر لا يدخل في نطاق البيولوجية التي يتعلمها أقدر المشرحين أو العارفين بتركيب الأجسام الحية .

وإذا قرر العالم البيولوجي أن المادة قابلة لتوليد الحياة فهو لا يقرر ذلك في

حدود علمه . بل يقرره في حدود ظنه وتقديره . ويجوز لعالم المعادن — بمثل هذا الحق — أن يقرر أن المادة لا تملك خاصة الحياة ، لأنه درس ذرة المادة في صورها المعدنية دراسة العلماء .

فالعلم الطبيعي لا يحق له الفصل في المسألة الإلهية .

ولكن العالم الطبيعي يحق له إبداء الرأي في هذه المسألة بحق العقل والدليل والبديهة الواعية ، لأنه إنسان يمتاز حقه في الإيمان بمقدار امتيازه في صفات الإنسان . أما العلم نفسه فلا غنى له عن البديهة الإنسانية في تلمس الحق بين مجاهل الكون وخوافيه .

وبعض العلماء ينكرون ثقة البديهة ويزعمون أنها تناقض أصول البحث والدراسة .. فيغفلون عن عمل هذه الثقة في سريان العلوم وتعميم نفعها بين من يعرفونها ومن لا يعرفونها على السواء .

فكيف تسري المقررات العلمية بين العلماء — فضلاً عن الجهلاء — لولا ثقة البديهة ؟

كيف يعرف المهندس صدق الطبيب في مباحثه العلمية ولا نقول كيف يعرفها الجاهل بالطب والهندسة ؟

كيف تصبح المقررة العلمية حقيقة يعتمد عليها العارف والجاهل في إنفاق المال على بناء العمائر وتصحيح الأجسام ومد السكك وصناعات الحديد والخشب والحجارة وما إليها ؟

ما من حقيقة من هذه الحقائق تسري بين الناس بغير ثقة البديهة وثقة الإيما ن .

ما من حقيقة من هذه الحقائق يعرفها جميع المنتفعين بها معرفة العلماء ، أو يمكن أن يعرفها جميع الناس كما يعرفها بعض الناس .

وهي مع ذلك مسائل محدودة يتاح العلم بها لمن يشاء .

فلماذا يخطر على البال أن حقيقة الحقائق الكبرى تستغني عن ثقة البديهة الإنسانية ولا يتأتى أن تقوم في روع إنسان إلا بتجارب المعامل التي يباشرها كل إنسان ؟

نعم إن الحقيقة العلمية يعرفها كل من اختبرها ويتبين صدقها بالامتحان إذا تيسرت موازينه ومعاييره . وهي عند الطلب ميسورة لأكثر الناس .

ولكنك تستطيع أن تجزم كل الجزم أن الأمر كذلك في العقيدة والإيمان . فإن الذين يختبرون شعور الرسل والقديسين بإيمانهم لا بد أن يشعروا بذلك الإيمان كما شعر به الرسل والقديسون . وقد يعبرون عنه بأسلوب غير أسلوب العلماء في صوغ النظريات وتركيب المعادلات. فلا يدل ذلك على عجب. بل يدل على أمر مألوف معهود : وهو أن التعبير عن الوجدانيات غير التعبير عن المعقولات . وآية ذلك في مبتكرات الفنون ، وفيما نراه كل يوم من أساليب الناس في التعبير عما يحسون .

فبهجة الربيع ينعم بها الطائر والجواد والإنسان فيرسلها الطائر تغريداً ويطلقها الجواد صهيلاً وينظمها الإنسان قصيداً إن كان من الشعراء، وينحتها تمثالاً إن كان من المثالين ، ويرددها ألحاناً إن كان من الموسيقيين ، وينقلها إلى شخوص قصة إن كان من كتاب القصص والروايات ، ويؤلف منها أسطورة إن كان ممن يتخيلون الأساطير . ولا نشك في وجود الشعور لاختلاف العبارات . لأن الشعور موجود لا شك فيه .

ويبلغ إنساناً ما يسره فيترجم عن سروره بتوزيع الصدقات وإطعام المساكين، ويبلغ غيره ذلك النبأ بعينه فيترجم عنه بوليمة يدعو إليها الأحباب والأصدقاء، ويبلغ آخرين فيعبرون عنه بالقصف واللهو أو بالراحة وإعفاء النفس من الأعمال أو بالصلاة والدعاء ، وقد يتهلل الوجه وقد تسيل الدموع من العيون . ولا شك فيما يترجمون عنه ، وإن كان لكل سرور ترجمان يوافق الإنسان .

فثقة البديهة لازمة في مقررات العلم فضلاً عن مقررات الإيمان بالغيوب.

ولزومها يقتضيه العقل ولا يعتمد على وحي البديهة وحده ، أو على مجرد التسليم .

إن الكائن الذي يستحق الإيمان به هو الكائن المطلق الكمال . كما أسلفنا في ختام الكلام على خلاصة الفلسفة الوضعية ، أي فلسفة أوجست كونت.

والكائن المطلق الكمال هو الكائن الذي لا يدخل في حدود العقول ولا يخضع لتجارب العلماء .

فما الذي يقضي به العقل في هذه المناقضة ؟

أنه لا يقضي بأن يكون سبب الإيمان هو مبطل الإيمان . لأنه كلام لا يسيغه عقل ولا علم. ولكنه يقضي بما قضى به الواقع أيضاً واتفق عليه المفهوم والمحسوس . وهو ألا نكتفي بالعقل وحده ولا بالعلم وحده في الإيمان بالكائن الذي يستحق الإيمان . وأن نعلم أن ثقة البديهة متمم لا غنى عنه لوظيفة العقل والعلم في معرفة الله ، ولا عجب في ذلك وهي مسألة أكبر من المسائل العقلية والمسائل العلمية... لأنها مسألة الوجود كله في جوهره وعرضه وفي ظاهره وخافيه ، ومسألة العالم والمعلوم والعقل والمعقول .

وقد اختارت طائفة من العلماء المعاصرين موقفاً غير هذا الموقف في مواجهة الغيب وتفسير العقيدة الإلهية، وكان أكثرهم من البيولوجيين الذين يقررون أن المادة تشتمل على خواص الحياة ، وأنه لا حاجة إلى فرض قوة غير القوى المادية لتفسير نشأة الأحياء على الكرة الأرضية .

وكلامهم هذا لا قيمة له من العلم نفسه إلا في اليوم الذي يروننا فيه مكاناً تنشأ فيه الحياة من الجماد كما نشأت في زعمهم قبل التطور الأخير ، أو في اليوم الذي يروننا فيه مادة مخلوقة بأعين العلم تتحول إلى حياة ، أو في اليوم الذي يحللون فيه خلية تلد إنساناً سوياً فيصنعون خلية مثلها في مقاديرها تلد إنساناً يرث ما ينمو في الخلية الحية من خلائق الآباء والأجداد منذ آلاف السنين .

والكيميون الذين يقولون كما يقول هؤلاء إن الإشعاع كاف لتفسير

المادة وتراكيبها العضوية وغير العضوية مطالبون بمثل ما يطالب به أولئك البيولوجيون .

فالإشعاع يملأ الفضاء .

فليركبوه كما حللوه ، أو يرونا مكاناً يتحول فيه الشعاع إلى ذرة وتتحول فيه الذرة إلى خلية ، ولا يكونون بعد ذلك قد أبطلوا قولا من أقوال المؤمنين بالله . لأن عمل الصانع لا يثبت عمل المصادفة ، بل يرده إلى صانع ألهمه وجعله في حكم الطبيعة التي تتخلق كما أراد

* * *

ويعزز القول بأن إنكار الحقيقة الإلهية هو مسألة العالم لا مسألة العلم — أن كثيراً من العلماء الممتازين ينكرون هذا الإنكار ويؤمنون «بالعقل» في هذا الوجود ، ويعتبرون تفسير الكون بالإرادة الإلهية أقرب تفسير إلى العقل وإلى الضمير . وبين هؤلاء أفذاذ من علماء الطبيعة وعلماء الرياضة أو من العلماء الذين جمعوا بين الطبيعة والرياضة واستقرت لهم في هذه العلوم مكانة أعلى وأثبت من مكانة المنكرين . وإذا جازت المفاضلة بين حقوق العلماء في بحث المسألة الإلهية فأرجح العلماء حقّاً في هذه المباحث هم علماء الطبيعة الفلكيون . لأن الفلكي يعتمد على بديهة العقل الرياضية ، والطبيعي يعتمد على تجارب الحس الخارجية ، والذي يجمع بينهما يجمع بين دلائل العقل والمشاهدة ويبني حكمه على نظام السماوات ونظام هذه الأشياء التي نلابسها في حياتنا الأرضية . فهو يتلقى الفكرة الإلهية في أوسع نطاق .

وقد يرجح حق العالم الرياضي في هذه المباحث اعتبار آخر تبرزه لنا الكشوف الحديثة في مختلف العلوم الطبيعية ، ونعني به أن الكون كله يوشك أن يتراءى لنا في نسيج من النسب الرياضية التي تسوغ قول الفلكيين الأقدمين « إن الله يهندس » وإن الهندسة تترجم لنا حكمة الله في مخلوقاته العلوية والسفلية على السواء .

ومن أكبر هؤلاء العلماء سير أرثر إدنجتون Eddington الذي يقول إن

تفسير الكون بالحركة الآلية أمر لا يسيغه العلم الحديث ، وإن الكون أحرى أن يفسر بالنسب الرياضية في عقل عاقل،ولكن الإنسان هو سر الكون الأكبر، وهو الذي يدرك هذه النسب ويدرك ما بين عقله وعقــل الكون من علاقة وثيقة . وأنه إذا جاز للحركة الآلية أن تخلق في المستقبل « إنساناً آليّاً » فليس مما يجوز في العقول أن تتخيل ذلك الإنسان سائلاً عن الحقيقة أو مبالياً بأسباب الحق والباطل. ولكن هذا الشوق إلىالحقيقة هو هو لب لباب الحياة وهو هو محور الوجود الإنساني منذ نجم من صلب هذه الطبيعة : هذا هو الذي يجعل الإنسان شيئاً مغايراً كل المغايرة لما حوله من الظواهر الطبيعية ويجعله قوة روحانية ... ومتى ارتفعت الصيحة من قلب الإنسان : فيم كل هذا ؟ لم يكن جواباً صالحاً لتلك الصيحة أن ننظر إلى هذه التجارب التي نتلقاها من حسنا ونقول : كل هذا هو ذرات وفوضى ، وهو كرات نارية تحوم وتحوم إلى القضاء المحتوم ... كلا . بل الأحرى أن نفهم أن كل هذا وراءه روح يستوي الحق في محرابها ، وتكمن فيها قوابل لتنمية الذات بمقدار ما فيها من النزوع إلى تلبية عناصر الخير والجمال ...

* * *

ومن كبار العلماء الفلكيين الطبيعيين الذين ينظرون إلى الحقيقةالإلهية هذه النظرة جينز Jeans صاحب المباحث المعدودة في الإشعاع والذرات الغازية . وهو ينبذ التفسير الآلي كما ينبذه إدنجتون ، ويستدل بالنسب الرياضية على وجود الله . لأننا لم نستخرج هذه النسب من الكون بل استخرجناها من عقولنا ، فلما عرفناها وطبقناها على ما حولنا عرفنا أنها كانت موجودة عاملة قبل أن نهتدي إليها ونترقى إلى مراقبة عملها في نواميس الكون ونواميس الحياة . فحق لنا أن نفهم أن هذه الحقائق الرياضية هي حقائق عقل إلهي أودعها أفكارنا كما أودعها هذه العوالم من حولنا.قال: « إن العقل لا يعد بعد طفيلياً على عالم المادة كما بدا لبعضهم من قبل . بل نحن آخذون أن نراه ونرفع إليه التمجيد لأنه هو خالق عالم المادة والمهيمن عليه . وليس المقصود بالبداهة عقولنا الإنسانية . ولكنما المقصود هو العقل الذي نحسب من أفكاره تلك

الذرات التي تنمي لنا العقول .. » فالكون أحرى أن يسمى « فكرة عظيمة » لا آلة عظيمة . وإنه لأهول خطراً من الأفكار في رأس إنسان .

* * *

والعلامة ألبرت أينشتين صاحب النسبية حجة في الرياضيات وفي الطبيعيات وله مشاركة في فن الموسيقى ومقاصد الفلسفة ، وهو قوي الإيمان بوجود الله ، ويقول : « إن أصحاب العبقريات الدينية من جميع العصور قد عُرفوا بهذا النوع من الشعور الديني الذي لا ينتمي إلى نحلة ولا يتمثل الله في أمثلة بشرية ... فكيف يتأتى أن ينتقل هذا الشعور الديني الكوني من إنسان إلى إنسان إذا لم يبرز في صورة معينة أو مراسم معلومة ؟ إنني لأرى أن أهم وظيفة من وظائف الفن والعلم هي أن يوقظا هذا الشعور وأن يستبقياه حياً في الذين تهيأوا له ... »

ومن طبقة هؤلاء العلماء الكبار من يتدين ويقرر فائدة الصلاة ولا يكتفي بإيمان العقل أو الضمير بوجود الله . فالسير أوليفر لودج الرياضي الطبيعي المشهور يؤمن بالله وبالروح وبفائدة الصلاة ويرد على الذين يزعمون التناقض بينها وبين القوانين الأبدية بأنهم يخطئون التصور ؛ إذ « يتصورون أنفسهم كأنهم شيء منعزل عن الكون وخارج منه يعمل فيه من ظاهره ويحاول أن يبدل مظاهره بالابتهال إلى نظام في القوى المسيّرة »... و« لكننا إذا استطعنا أن نتفطن إلى أنفسنا وأننا نحن جزء صميم من النظام بأسره ، وأن رغباتنا ومطالبنا هي نفحة من الإرادة المسيطرة الهادية لم يمتنع على حركات عقولنا أن يكون لها أثر فاعل إذا سرنا بها وفاقاً لأصدق ما في الكون من القوانين وأعلاها » .

ويضرب السير أوليفر مثلاً لذلك بالدولة العادلة التي تكون خلجات الآحاد فيها جزءاً من التشريع والإدارة إذا هي سلكت سبيلها الحق إلى التعبير السليم والتوفيق بينها وبين أصول النظام .

ولا تزال كتب العلماء المؤمنين تطالع القراء في الغرب بآرائهم في وجود الله وأسبابهم التي تبعث فيهم الإيمان به والثقة بتدبيره . ومن أحدثها كتيب الأستاذ كريسي موريسون Cressy Morrisson الذي كان رئيساً لمجمع

العلوم في نيويورك .. وقد سماه « ليس الإنسان بوحيد » ولخص فيه سبعة أسباب للإيمان بالحقيقة الإلهية يعرفها الطبيعيون والرياضيون وتأبى عليهم أن يردوها إلى المصادفة ، لأنها لا تختل أبداً مع أن التوافق بينها بالمصادفة لا يتجاوز نسبة الواحد إلى ألوف الملايين . ومن أقوى هذه الأسباب السبعة قوله عن الناسلات Genes وفحواه « أنها تبلغ من الدقة أن جميع الناسلات التي يتولد منها سكان الكرة الأرضية جميعاً لو وضعت في حيز واحد لما زادت على قمع الخياطة . ولكنها كانت في كل خلية حية وفي طواياها أسرار الخصائص التي يتصف بها جميع الآدميين » قال : « وإن قمع خياطة لحيز صغير إذ يحتوي فيه جميع خصائص الأفراد الموزعة بين ألفي مليون من البشر . ولكنه واقع لا ترقى إليه الشكوك . فكيف إذن تنطوي في هذه الناسلات جميع عوامل الوراثة المتخلفة من حشود الأسلاف وتستبقى لكل فرد مقوماته النفسية في مثل هذا الحيز الذي بلغ الغاية من الدقة والصغر » .

ونحن نرى من هذا المثال ما يستطيعه العالم من تفصيل الأدلة التي يتناقلها من لا يدرسون العلوم الطبيعية . فإن خلق الذكر والأنثى معجزة كافية لإثبات القصد والتدبير في خلق الحياة واستدامة أسباب البقاء للأحياء ، وإن الغرائز النوعية التي تؤدي هذه المعجزة لأبرز من أن تخفى على عالم أو غير عالم . ولكن العالم الطبيعي وحده هو الذي يستطيع أن يضاعف هذه الدلالة أضعافاً فوق أضعاف . لأنه يرينا بمثل الدليل المتقدم أعجب أعاجيب هذه الغريزة التي تخفى على سواه ، ويبين لنا أن الحياة قوة من عالم المكان والزمان . لأن الحيز الذي يحتوي الناسلة هو الحيز الذي يحتوي كل ذرة في حجمها من الذرات المادية . ولكنه يتسع لآفاق من القوى لا أثر لها في ذرات الأجساد . وقد قيل على سبيل التعجيب والإغراب إن « لو » تضع باريس في علبة صغيرة وظن القائل أنه بالغ أقصى المبالغة في تصوير الاستحالة والإعجاز الذي تستطيعه الفروض أو الأماني المشتهاة . ولسنا هنا بصدد فرض باطل أو أمنية خيالية ، ولكننا في صدد حقيقة أعجب من جميع الفروض والأخيلة . لأنها لا تضع باريس وحدها في علبة صغيرة . بل تضع النوع الإنساني كله في أقل من العلبة

الصغيرة : في قمع لا يتسع لأكثر من أنملة . وهو يتسع مع ذلك لكل ما في النفوس من الأحاسيس والحوافز والأسرار . ولكل ما في العقول من الأفكار والفلسفات والمبتكرات ، ولكل ما في الضمائر من العقائد والأخلاق والأشواق ، ولكل ما في الأجسام من الوظائف والمحاسن والأشباه ، ولكل ما بين هؤلاء من الأواصر والوشائج والعلاقات .

فإن كان العلم هو الذي يعوق هذه الآية عن الوصول إلى العقول فما هو بواصل إلى شيء وما من شيء هو واصل إليه .

لكن العلم براء من هذا التعطيل الذي يشل العقول ويفقدها شجاعة الاعتقاد . فإذا جاز له أن ينكر فإنما يجوز له ذلك بحجة واحدة : وهي أنه يجهل وليس أنه يعلم. ومن الجهل لا من العلم أن نجعل الجهل مرجعاً للوجود من أعلاه إلى أدناه . فليقل « العالم » إنه يجهل لأن الأمر أكبر من أن يعرفه ويحيط بحدوده . ولكن الأمر الذي لا يعرفه ولا يحيط بحدوده موجود لا شك فيه .

خاتمة المطاف

مهما يكن من تشعب الرحلة التي قضيناها على صفحات هذا الكتاب — فهي نقلة يسيرة بالقياس إلى الرحلة الإنسانية الكبرى في هذا السبيل . ولعل ما بقي منها أضعاف ما سلف ، لأن السعي إلى الحقيقة الأبدية لن يزال سعياً موصولاً من كل جيل .

وقد أوجزنا وكان لا بد لنا من أن نوجز . ولكننا توخينا في الإيجاز ألا يتخطى حد الضرورة . وحد الضرورة هو أن يكون البيان كافياً للإشارة إلى الوجهة العامة وأن يكون كافياً لتقرير النتائج التي يرتضيها العقل ويتطلبها الضمير ، سواء من جانب العقائد الدينية أو من جانب المباحث الفكرية .

وخاتمة المطاف قد تنتهي بنا إلى النتائج الآتية . وهي :

« أولا » أن التوحيد هو أشرف العقائد الإلهية وأجدرها بالإنسان في أرفع حالاته العقلية والخلقية . ولكن الإنسان لم يصل إلى التوحيد دفعة واحدة ، ولم يفهمه على وجهه الأقوم عندما وصل إليه . بل تعثر في سعيه ، وأخطأ في وعيه ، ولم يزل مقيداً بأطوار الاجتماع وحدود المعرفة عصراً بعد عصر وحالاً بعد حال . فلم يلهم من هذه العقيدة إلا بمقدار ما يفهم ، ولم يهتد إلى خطوة جديدة فيها إلا بعد تمهيد أسبابها وتثبيت مقدماتها . فكان الإيمان مساوقاً للخلق والعرفان .

وليس في ذلك كله ما يقدح في الغاية البعيدة التي يؤمها من وراء هذه الخطوات ، وليس في جميع هذه الأخطاء ما يقدح في الحقيقة الكبرى .

لأن معرفة الإنسان بالحقيقة الكبرى دفعة واحدة هو المحال الذي لا يجوز ، وترقيه إليها خطوة بعد خطوة هو السنة التي اتبعها في كل مطلب يعنيه .

فلم يكن من الجائز أن يتعرف الصناعات والعلوم جزءاً جزءاً في هذه الآماد الطوال ، وأن يتلقى حقيقة الوجود الكبرى كاملة مستوفاة منذ نشأته على هذه الأرض أول نشأة . ولقد مضى عليه عشرات الألوف من السنين وهو يخلط في طهو غذائه . وحاجته إلى الطعام لا شك فيها ، ومادة الطعام بين يديه ، وعلم الطعام ليس بالعلم المغيب وراء الحجب والأستار . فإذا فاته أن يدرك « الوجود المطلق » قبل أن يتقن غذاءه فليس من الجائز أن نعجب لذلك ، أو أن نستفتح به أبواب التشكك في كنه العقيدة أو في لباب الحقيقة . وإنما العجب ألا يكون الأمر كما كان .

والنتيجة الثانية التي يرتضيها العقل ويتطلبها الضمير في خاتمة المطاف أن الإله الأحد « ذات » ولا يسوغ في العقل أن يراه غير ذلك .

فقد مرت بنا أقوال تضاربت فيها الآراء ، وأحكام تنوعت فيها المقاييس ، ولكننا وجدنا بينها إجماعاً على شيء واحد مع صعوبة الإجماع في هذه الأمور . وهو أن « الذاتية » أعلى ما نتصوره من مراتب الكائنات على الإطلاق .

فالأقدمون الذين قالوا بالعقل والهيولى ، والمحدثون الذين قالوا بالنشوء والارتقاء ، والنشوئيون الذين قالوا ببقاء الأنسب أو قالوا بالانبثاق ، وغير هؤلاء وهؤلاء مجمعون على قول واحد . وهو أن الترقي إنما هو الانتقال من وجود بغير ذات إلى وجود له ذات : إلى وجود يعلم ذاته ويشعر بوجوده .

فالجماد المبهم الذي لا تعيين فيه أقل من الجماد الذي تعين بعضه من بعض وتميزت له أشكال وصفات .

وهذا الجماد أقل من النبات .

وكلما ارتقى النبات ظهر فيه التعيين بين شجرة وشجرة ، وبين ثمرة وثمرة ، واتجه إلى التخصيص بعد التعميم .

وهكذا آحاد الحيوان .

وهكذا آحاد الإنسان .

حتى إذا بلغ غاية مرتقاه أصبح «ذاتاً» لا تلتبس بذات أخرى من نوعه؛ وكان هذا هو المقياس الصادق لترتيب درجات الكمال في جميع الكائنات .

فالكائن الأكمل لن يكون مجرداً من الذات ، ولن يتخيله العقل عقلاً مجرداً من الذاتية كما وهم بعض أصحاب الديانات ،وناقضوا أنفسهم فيما وهموه.

فالعقل يعقل وجوده لا محالة .

ومتى عقل وجوده فهو « ذات » .

أما العقل الذي لا يعقل وجوده فتسميته بالعقل ضرب من العي والإحالة. وتسميته بغير هذا الاسم تلفيق يحار فيه التعبير ... فإذا كان قوة مادية فلا معنى لفرضها بمعزل عن قوى الكون ، وإذا كان قوة عقلية فلن تكون القوة العاقلة في غير ذات .

* * *

ونأتي بعد ذلك إلى النتيجة الثالثة وهي إدراك هذه الذات .

فكل شرط يذهب إليه الذاهبون لتقييد « الذات» الإلهية بصفة من الصفات المعهودة لدينا فهو شرط قائم على غير أساس .

فلا أساس للقول بأن « الله » لا تكون له صفات متعددة ، لأنه جوهر بسيط .

ولا أساس للقول بأن الله لا يريد لأن الإرادة اختيار بين أحوال ، والله منزه عن أحوال .

ولا أساس للقول بأن الله لا يعلم الجزئيات لأنه يعلم أشرف المعقولات ، وهو ذات الله .

فنحن قد جهلنا البساطة في المادة وأحكامها ونحن نلمس الأجسام ونعيش في الأجسام .

جهلنا البساطة المادية فقال الأقدمون إن المادة كلها من النار والتراب والهواء والماء ، ثم عللنا التركيب بتعدد العناصر واختلاف توليف الذرات ، ثم علمنا أن الذرات كلها تنتهي إلى إشعاع وهو أبسط ما تراه العين ويلم به الخيال . وقد كانوا قديماً يقولون إن الأجرام العلوية خالدة أبدية لا يعرض لها الفساد والتغير لأنها نور بسيط... فكل الأجسام إذن نور بسيط لا نعلم منه إلا أنه حركة في فضاء !.. ونحن قد جهلنا أحكام البساطة وصفاتها في المادة المحسوسة قروناً بعد قرون ، ولا نزال نعلم أننا واهمون فيما تتصف به من الحركة والسكون. فمن أين لنا أن ندرك أحكام البساطة الإلهية قياساً على وصف لا تحيط به العقول ؟

من أين لنا أن إرادة الله من قبيل إرادتنا ؟ وأن علم الله من قبيل علمنا ؟ وكيف يكون الوجود إن لم يكن وجوداً يفعل ويخالف العدم ؟ وكيف يخالف العدم إذا كان سلباً لا أثر له على سبيل الثبوت ؟

هنا نعلم أن الدين لم يكن أصدق عقيدة وكفى . بل كان كذلك أصدق فلسفة حين علمنا أن الله جل وعلا « ليس ــ كمثله شيء » .

فكل ما نعلمه أنه جل وعلا « كمال مطلق » وأن العقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق الذي ليست له حدود . وليس لهذا العقل أن يقول للكمال المطلق كيف يكون وكيف يفعل وكيف يريد .

* * *

ويفضي بنا الكلام في طاقة العقل إلى نتيجة رابعة ، وهي الصلة بين العقل والإيمان .

فكيف نؤمن إذا كان العقل الإنساني قاصراً عن إدراك الذات الإلهية ؟ وكيف تأتي الصلة بين الكمال المطلق وبين الإنسان ؟

وقد نمهد للجواب على هذا السؤال بسؤال آخر يرد البحث إلى نصابه . فنسأل : أيراد بالعقل إذن أن يكف عن الإيمان حتى يكون عقلاً كاملاً مطلق الكمال ؟ أم يراد بالعقل أن يؤمن بإله دون مرتبة الكمال ؟

لا هذا ولا ذاك مما يراد أو يقع في حسبان . فالكائن الذي يستحق الإيمان به هو الكائن الذي يتصف بالكمال المطلق في جميع الصفات . وغير معقول أن يكون سبب الإيمان هو السبب المبطل للإيمان ، وغير معقول أن يستحيل الإيمان مع وجود الإله الذي يتصف بأكمل الصفات . فالمخرج الوحيد من هذا التناقض أن الصلة بين الخالق وخلقه لا تتوقف على العقل وحده ... وأي عجب في ذاك ؟ إن الإنسان كله لفي الوجود ، وليس العقل وحده هو قوام وجود الإنسان . فلماذا تنقطع الصلة بين الخلق والخالق إذا حسرت العقول دون ذلك المقام .

أفمعنى هذا أن العقل الإنساني لا عمل له في مسألة الإيمان ؟

كلا . بل له عمل كبير ، ولكنه ليس بالعمل الوحيد .

وفرقٌ بين أن يعرف العقل حدوده وبين أن يبطل عمله . فإن العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد ويستطيع التفرقة بين أدلة الإيمان وأدلة التعطيل ، ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن وضمير عطل من الإيمان. ويستطيع أن يبلغ غاية حدوده ثم لا ينكر ما وراءها لأنه وراء تلك الحدود . ويستطيع أن يسأل نفسه : أممكن أن يمتنع عليّ الإيمان بالله لا لشيء إلا لأنه متصف بأكمل الصفات التي يتعلق بها إيمان المؤمنين ؟ فإن لم يكن ذلك ممكناً فليعترف « بالوعي الديني » لأنه ضرورة لا محيص عنها ، ولأنه واقع ملازم للإنسان في محاولاته الأولى، ولن يزال ملازماً له في مقبل عصوره أبد الأبيد .

* * *

وهنا يعرض السؤال عن مشكلة الخير والشر التي برزت بعد الأديان الكتابية إلى الصف الأول بين مشكلات علم الكلام وعلم اللاهوت ، وكانت

قبل الأديان الكتابية سبباً للقول بالتثنية وتعدد الوساطات بين الله وعالم المادة أو عالم الهيولى .

ففي سياق الكلام على كمال الذات الإلهية يسألون : كيف يتفق هذا الكمال وما نحسه في هذا العالم من النقص والشر والعذاب ؟

والسؤال متواتر ولكنه عجيب ، لأن الكمال المطلق صفة الخالق وليس صفة المخلوقات . وكل مخلوق محدود ، وكل محدود فلا بد فيه من نقص يحس على صورة من الصور : صورة قبح أو صورة شر أو صورة عذاب .

ولو جاز أن يخلق الله إلهاً آخر لوجب أن يكون هذا الإله محدوداً وأن يكون حده نقصاً على صورة من تلك الصور أو على صورة غيرها لا نعرفها .

ونحن لا نعالج أن نحل المشكلة كما يحلها القائلون بأن الألم والشر والرذيلة أوهام زائلة ليست لها حقيقة باقية . فإن كانت أوهاماً فهذا لا يحل المشكلة ولا يصرفها . إذ لا شك أن وهم السرور أطيب من وهم الألم ، وأن وهم الخير أفضل من وهم الشر ، وأن وهم الفضيلة أكرم من وهم الرذيلة .

ولكننا نرى أن المشكلة كلها مشكلة اقتراح بعد التسليم بوجوب النقص في المخلوقات . وأن المراد بالاقتراح أن يكون النقص مرضياً للناقصين ، أو أن يكون خلواً من الألم والعذاب .

إلا أن اقتراح الإنسان على الكون كاقتراح كل جزء صغير على مجموعه الكبير . ولا فرق بينه وبين اقتراح الحجر الذي يريد أن يدخل الجدار في الوسط أو في الزاوية ، وكاملاً أو مكسوراً من بعض الأطراف دون الأطراف الأخرى ، وعالياً على المشارف أو مدفوناً في جوف الأساس .

ومن لنا أن النقص الذي لا يرضينا هو أقرب إلى الكمال من النقص الذي نرضاه ؟ أليس حافز الألم هو وسيلة الشوق إلى الكمال والتفرقة بينه وبين النقص في شعور الضمير ؟

بل الواقع أننا نرى هذه الآلام وسيلة الارتقاء بتنازع الأحياء ، وأنها

وسيلة التهذيب والازدياد في نمو فضائل الإنسان . ولو أننا سألنا رجلاً ناضجاً أن يسقط من حياته آثار آلامه أو آثار مسراته لتردد كثيراً بين الآلام والمسرات، ولعله في النهاية يسقط آثار المسرات ولا يسقط آثار الآلام .

ونحن نحكم على غايات الأبد بتجارب العمر القصير . فلا فرق في ذلك بيننا وبين من يحكم على الرواية المعروضة أمامه بكلمة في خطاب أو كلمة في جواب ، ثم يحكم على التأليف والمؤلف كأنه شهد جميع الفصول وقابل بينها وبين شتى الفصول والروايات .

والأمر كما أسلفنا في هذا الكتاب فرض من ثلاثة فروض : فإما إله قادر على كل شيء ولا يخلق شيئاً . وإما إله يخلق إلهاً مثله في جميع صفات الكمال. وإما إله يخلق كوناً محدوداً يلم به النقص الذي يلم بكل محدود .

وهذا هو الفرض الوحيد المعقول. وإذا اقترح مقترح أن يكون النقص على صورة لا نحسها فليس اقتراحه هذا بمقبول عند جميع العقول الآدمية فضلاً عن العقل الإلهي المحيط بما كان وما يكون . لأن الإحساس بالنقص أقرب إلى الكمال عند الكثيرين من نقص لا نحسه ولا يفرق في شعورنا بين الحسن الشهي وما هو أحسن منه وأشهى .

والإنسان بعدُ قرين الزمن وليس بقرين الآزال والآباد.ولا بد لقرين الزمن من عوارض ومن غير ، ولا بد في هذه العوارض والغير من فوارق بين الأحوال وفوارق بين الآحاد وفوارق بين الجماعات . وإلا كانت أبدية إلهية لا يطرأ عليها اختلاف .

وهذه الفوارق هي ما نشكوه ونقترح غيره ، فغاية ما يقال في هذا الاقتراح أنه يقبل المراجعة والمناقضة وليس بالحكم الأخير في أسرار هـــذه الأكوان .

ونحسب أننا نظلم نصيب الحس إذا قلنا إن مسألة الإيمان مسألة عقل ومسألة « وعي » ليس للحس فيها من نصيب .

فنحن نستطيع أن نرى بأعيننا أن الإيمان ظاهرة طبيعية في هذه الحياة. لأن الإنسان غير المؤمن إنسان « غير طبيعي » فيما نحسه من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون الذي يعيش فيه ، فهو الشذوذ وليس هو القاعدة في الحياة الإنسانية وفي الظواهر الطبيعية . ومن أعجب العجب أن يقال إن الإنسان خلق في هذا الكون ليستقر على إيمان من الوهم المحض ، أو يسلب القرار .

وليست حجة للمنكر أن يقول إن الإنكار ممكن في العقول . بل حجة للمؤمن أن يقول إن حال المنكر ليست بأحسن الأحوال ، وإنه إذا أنكر عن اضطرار تبين لنا على الفور أنه في حال « غير الحال الطبيعي » الذي يستقيم عليه وجود الأحياء .

وخاتمة المطاف أن الحس والعقل والوعي والبديهة جميعاً تستقيم على سواء الخلق حين تستقيم على الإيمان بالذات الإلهية ، وأن هذا الإيمان الرشيد هو خير تفسير لسر الخليقة يعقله المؤمن ويدين به المفكر ويتطلبه الطبع السليم .

عباس محمود العقاد

عباس محمود العقاد





خليل الرحمن وخليل الانسان

في العالم اليوم أكثر من ألف مليون انسان يدينون بالموسوية والمسيحية والاسلام ، وهي الأديان التي جاء بها موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وهم الأنبياء الثلاثة الكبار الذين ينتمون جميعاً الى الخليل ابراهيم ..

لا جرم يسمى خليل الرحمن ..

ولا جرم تتجمع الجهود كلها للبحث عن تاريخه المجهول في أغوار الأرض ، فإن علم الأحافير لم ينحصر في البحث عن تاريخ أحد قط كما انحصر في البحث عن تاريخ أبي الأنبياء ، وما تجردت البعوث الى العراق وفلسطين ومصر لسؤال الأرض عن مكنون من أسرارها كذلك السر المكنون ، الذي ينطوي على أعمق أسرار الروح والضمير ..

قال منقّب من أولئك المنقبين الذين عرفوا باسم الحفريين : ان الناس قد بدأوا بالحفر في الآثار طلباً للذهب ولقايا الحلى والجوهر ، ثم عرف النـــاس شيئاً أنفس من تلك المعادن يبحثون عنه ويتهافتون على استخراجه وتحصيله : وهو التاريخ المقدس ، أو تاريخ المعاني العليا التي ترتفع به إلى السماء ، ولهـــا مستودع في جوف الرغام .

وكل شيء يغليه الانسان يحفزه الى ذلك السر الذي تقسمته الأرض والسماء..

فالى جانب البحث عن أصول العقائد يبحث المنقبون في تاريخ الخليل عن فتوح لا نظير لها في تاريخ الانسان ..

وقد أكثر المؤرخون من القول في أنباء الفتوح التي غيّرت مجرى التاريخ

أو غيرت علاقة الانسان كله بالعالم الذي يحيط به ويحتويه ..

ولكن المؤرخين لا يستطيعون أن يذكروا فتحاً من تلك الفتوح أعظم عملا وأبقى أثرا في تاريخ الانسان من تلك الفتوح التي اقترنت بدعوة الخليل ..

ان دعوة الخليل قد اقترنت بالتوحيد ، واقترنت بميزان العدل الالهي ، واقترنت باعلاء العبادة الى ما فوق الطبيعة والجثمان .

وهذه هي الفتوح التي لا نظير لها فيما تحدث عنه المؤرخون من فتوح الحياة الانسانية ، منذ أقدم عصورها الى العصر الحديث .

لا نظير لها فيما فتحه الانسان من هذا العالم حين سخر النار أو سخر الحيوان أو سخر الكهرباء ، أو سخر الذرة على جلالة فعلها وضآلة قدرها ، وهي أقوى المسخرات فيما عرفه الى اليوم .

هذه فتوح فيما يملكه الانسان ..

أما تلك الفتوح ففيها ملاك الانسان كله ، فيما يعلمه وما لا يعلمه ، وفيما يبديه وفيما يخفيه .

تلك فتوح غيرت عالم الانسان الظاهر وعالمه الباطن ، وليس قصارى الأمر فيها أنها عبادة جديدة أفضل من عبادات سبقتها ، وان كانت العبادة الفضلى غنماً يغليه من يقتنيه ، ويفديه بكل ما يعيه وما لايعيه .

كلا .. بل هي عبادة فضلى وفكر فاضل ونظر جديد الى الكون والى الانسان وبني نوعه في وحدته وفي اجتماعه .

هي فتوح تصحح مقاييس الفكر وتبدل علاقة الانسان بنفسه وبدنياه . وتحسب من أجل ذلك في سجلات العلم ورياضات الخلق وقوانين الاجتماع .

ان حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر الى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بإرادة ، ويتسلط عليها غيره بإرادة تنقضها وتمضي بها الى وجهة غير وجهتها ، فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من

عبادات الشرك وكفى . بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدق واوفى ، ومن هنا صدرت كل فكرة عظيمة عن الكون من عقل فيلسوف مؤمن بالوحدانية ، وان لم تبلغه دعوة الأنبياء ..

أما ميزان العدل الالهي فهو الذي أقام المساواة بين النـــاس على دعامتها الراسخة . وكل ما عداها من دعامة فانما هي دعائم القوة ممن يقدر عليها ، سواء اقتدر عليها بسطوته الباطشة أو بتأليب الطوائف والجماعات .

وما كان للعدل بين الناس من سبيـــل وهم يقيسون بعضهم الى بعض ، ويطلبون المساواة بين أقوى الأقوياء منهم وأضعف الضعفاء ..

فاذا ارتفع الميزان الى اليد الالهية فهذا القوي مهما يبلغ من القوة ، وذلك الضعيف مهما يبلغ من الضعف ، ندّان متساويان، ومخلوقان أمام خالق واحد . ما زاد من قوة أحدهما فهو من عطاء ذلك الخالق ، وما نقص من قوة الآخر فهو من قضائه ومن دواعي رحمته وبلائه ، وإليه المرجع في حسابه أو جزائه ، فلا يدخله أحد في حساب غير ذلك الحساب ، ولا يعرضه أحد على ميزان غير ذلك الميزان .

وقد ارتفع الانسان كله حين رفع عبادته من الطبيعة الى ما فوق الطبيعة ، وحين أصبحت حاجته الى المعبود شيئاً أرفع عن مطالب الابدان وضرورات الغرائز والطباع ..

كان أقل من الطبيعة فأصبح أعظم منها ..

كان مسلوب الحيلة أمامها ، فأصبح له من فوقها مرجع لا يعنيه غضبها ورضاها ..

ولم يكن له الا أن يخضع لها أو يحتال عليها ..

فأصبح له أن يواجهها ويقف أمامها ، بل على أكتافها ..

أصبح له كيانه الأدبي في وجهها ..

وليس الفتح المبين في هذا أنه يسخرها ويستفيد منها، بل الفتح المبين آنه

يدينها ويدين سلطانها ، وأنه يرى فيها ما يحسن وما لا يحسن ، ومـــا يرضاه ضميره وما لا يرضاه .

وان الوقع الذي لا مرية فيه أن الانسان قد ملك الذرة الصغرى فملك من الطبيعة قوتها الكبرى ، وانه خليق بهذه القوة أن يضل ويطغى ولكن اليقين الحق أنه لن يكبح ذلك الطغيان من نفسه بقوة الطبيعة صغراها وكبراها ، وانما يكبحه – اذا قدر له أن يكبحه – بسلطان من ذلك الفتح المبين ، ما بقي له وما زاد عليه بعد آلاف السنين .

هذه الفتوح قد عرفت جميعاً قبل عصر الخليل ، ولكنها لم تقترن بدعوة قط في عالم النبوة قبل دعوته عليه السلام ».

وهذا هو الفارق المهم في العواقب وفي مراحل التاريخ .

أو هو الفارق بين دعوة النبي وبين غيرها من الدعوات .

فالتوحيد لم يكن مجهولا قبل عصر ابراهيم ، وكذلك ميزان العدل الالهي ، وكذلك عبادة « الحق » فوق الطبيعة وفوق مطالب الأبدان .

كان المصريون الأقدمون يؤمنون بالاله الواحد ، وكان من معتقداتهم ان للروح في العالم الآخر ميزاناً يقدر لها الحسنات والسيئات ، وكانت كلمة الله هي القوة التي تفعل ما تريد .

ولكنها لم تكن دعوة نبوة ورسالة ، ولعلهـــا جاءت في زمن لم تتهيأ فيه النفوس للعلم بالوحدانية ونبذ الشرك وتعدد الأرباب .

وكانت في جملتها دعوة كهان يسترون ما يعلمون ولا يبوحون للناس بأسرار الديانة الا بمقدار .

وكان ميزان السماء يزن لكل روح حسناتها وسيئاتها، ويحسب الملوك من الأرباب الذين يتصرفون في الأرواح خلال الحياة وبعد الممات ..

ولما جهر « اخناتون » بدعوة التوحيد والمساواة بين عبـــاد الله صدرت دعوته من قصر الدولة كأنها مراسيم الملك وقوانين الحكومة ، ولم تلبث آن

بطلت في قصر الدولة نفسه بمراسيم من قبيل تلك المراسيم ، وقوانين يطيعها الناس أشد من طاعتهم لتلك القوانين ، لأنها تستعين بدهاء الكهان وسلطان العرف والعادة .

وكان أناس من الحكماء يعرفون الله كأنهم يعرفون حلا مقنعـاً لمسألة الوجود ، أو كأنهم يعرفونه خالقاً للكون ، ولا يزيدون .

ومما لا ريب فيه أن عقيدة التوحيد قد سرت من مصر في صورة من الصور الى بلاد المشرق ، ومنها بلاد البحر الأبيض ووادي النهرين .

ومما لا ريب فيه أنهـا كانت سر الخاصة وذوي الرئاسة في المحاريب والقصور ، وان تعدد الأرباب قد سرى منها كذلك الى الشعوب سريان العرف والمحاكاة .

أما الاله الواحد الذي اقترن بدعوة ابراهيم فلم يكن حل مسألة ، ولم يكن سر أحبار وحكماء ، ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد .

بل كان خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، وكان منه الأمر والنهي ، واليه المرجع والمآب .

كانت عبادته « مسألة حية » تمتزج بسرائر النفس وتنبعث منها فضائل الخير ، ولا تنزوي عنها زاوية في الكون ولا في ضمير الانسان .

كانت دعوته صرخة تسمع وتتجاوب بها الآفاق ، ولم تكن لغزاً يخفى وتتحاجى به العقول .

كانت صحبة البيت والطريق ، وصحبة اليقظة والمنام ، وصحبة العزلة والجماعة ، وصحبة الحياة قبل الميلاد وبعد الموت ، ولم تزل حتى أصبحت وهي صحبة الخلود الذي لا يعرف الفناء .

ولم تصبح كذلك قبل رسالة النبوة حين انبعث بها النبي أبو الأنبياء .. حين بشر بها ابراهيم ..

وما كان لنبوة واحدة أن تؤدي رسالة التوحيد وتفرغ منها في عمر رجل أو عمر جيل .. وانما هي نبوة بعدها نبوات ..

ولو كانت دون ذلك خطراً لكفى أن تقوم بها دعوة واحدة ، وأن تتكفل لها ببقائها ، ولكان بها الغنى عن التعقيب والتذكير ..

ولكنها على خطرها هذا لا تتم في رسالة واحدة ، ولا تستغني عن مرتقى بعد مرتقى ، ثم عن قرار بعد قرار .

وعاش الخليل ما عاش والتوحيد في قومه مشوب بالشرك والضلال . وفارق الدنيا والخلفاء من بعده يتقدمون وينكسون ، ويستقيمون وينحرفون ، ولم ينقض من بعده عهد الا وهو ينبيء الناس أنها نبوة تتلوها نبوات ، وأنها أمانة موروثة في أعقابه لا تنقطع في جيل ، ولا بد لها من ورثة أبرار ..

ومن شك في ذلك فانما هو شاك في بداهة العقل وضرورة الزمن وحكم التاريخ ، فوق الشك في الكتب والانبياء ..

وانما المستحيل في العقول ان تنفرد رسالة ابراهيم في أعقابه فلا تأتي بعدها رسالة في أولئك الأعقاب .

ولا دليل في العقول على نسب الأعقاب أقرب من هذا الدليل ، ولا دليل على المرسلين منهم أثبت منه عند النظر القويم .

فلو مضت رسالة ابراهيم بغير رسالة بعدها لكان هذا هو العجب المردود ، ولو قام بتلك الرسالات التالية فرع من غير أصله ، ونبت من غير معدنه لكان هذا أعجب وأولى بالرد والارتياب .

ولا يعقل العقل الا أنه نبي أبو أنبيـــاء ، كما كان وكما ينبغي لا محالة أن يكون .. وكم بين توحيد الأعقاب وبين التوحيد كما تلقاه عصر الخليـــل من بون بعيد .انه لأبعد من مسافة الزمن بينهما ، وليست مسافـــة الزمن بينهما بالشوط القريب .. ولكن الذي يبدأ لا بد ان يبدأ ، ولا بد ان يبدأ من خطوته الأولى ولا يبدأ من منتهاه ..

والى ذلك المبدأ يرجع اليوم الف مليون من بني الانسان أو يزيدون ، لا أول لهم في قداسة الحياة غير ذلك الأول ، ولا رائد لهم في موازين العـدل والصلاح قبل ذلك الرائد ، ومن خلف على أعقابه من الرواد .

ومن ذلك المبدأ شخص ذلك الركب الحاشد في طريقه الى الله ، وتقدم من اسم الله ذي العرش الى اسم الله الرحمن الرحيم .

انه لا جرم خليل الرحمن .. وانه لا جرم خليل الانسان ..

وسيرته في الصفحات التالية هي سيرة الخليلين ، على هدى الأسلاف ، وعلى هدى الأعقاب ..

وعلى هدى الأسلاف والأعقاب ينبغي أن تكتب كل دعوة عامة ، وأن توصف كل بعثة نبوية خوطب بها الناس على اختلاف المدارك والمعـارف والطباع ..

فنحن لا نتصور الدعوة في صورتها الحقيقية الشاملة الا اذا عرفنا صورتها في نفوس المخاطبين بهـا ، سواء منهم من فهم أو من لم يفهم ، ومن أحسن الاعتقاد أو اساء .

وعلى قدر العلم بالضلالة نفهم عمل الهداية التي أزالتها أو عالجت أن تزيلها بما كان لها من الجهد والوسيلة .

فلا غنى في دراسة تاريخ الخليل عن الاحاطة بما ورد عنه وقيل فيه من شتى المصادر في مختلف البيئات والعصور .

وينفعنا الخطأ هنا كما ينفعنا الصواب .

بل الخطأ هنا من الصواب أنفع ، لأن رسالة النبي قائمة على ازالة خطأ وتبيين الضلالة فيه ، فعلى قدر ما نعلمه من جوانب الخطأ وخباياه نعلم القوة التي تتصدى له وتصلح لعلاجه والغلبة عليه .

ولهذا نود أن نلم في كتابة هذه السيرة بكل طرف ، وأن نذهب فيها إلى كل وجهة ، ولا نقتصر على المعتمد منها في مذهب واحد أو نحلة واحدة ،

سواء عرضنا لها من ناحية الأديان أو من ناحية المباحث والآراء التي رددتها التواريخ وكشفت عنها البعوث الحفرية من القرن الثامن عشر إلى الآن .

ان منهج البحث تمليه علينا طبيعة البحث نفسه في الزمن الذي نكتبه فيه . ونحن ندرس سيرة الخليل كما وضحت لنا منذ فاتحة القرن العشرين .

ولقد أثار القرن العشرون في هذه السيرة مشكلات لم يعرفها الأقدمون وأتى فيها بمعلومات من بطون الحفائر وخفايا الآثار ، لم تكن في حساب أحد ممن عرضوا لهذه السيرة ، قبل مائة سنة .

من هذه المشكلات التي أثارها هذا القرن العشرون وجود ابراهيم في التاريخ .. هل هو شخصية تاريخية ، أو هو صورة من صور الخيال تجمعت حولها متفرقات العقائد من هنا وهناك ؟ ..

ومن المشكلات التي أثارها هذا القرن علاقة ابراهيم بمكة وبيت الله الحرام : هل ذهب ابراهيم الى مكة . وهل كانت له علاقة ببيت الله الحرام فيها أو تلك علاقة لم تُفهم على سند صحيح من الواقع ، ولم تنجل الدراسات العصرية عما يؤيدها بالدليل المقبول ..

ونحن نكتب هذه السيرة وأمامنا هذه المشكلات من مصادرها القوية ، وامامنا كذلك اسبابها وأسباب الاعراض عنها والرد عليها .

ونجملها بداءة فنقول انها لا تقوم على سند من العلم سواء كان الباحث الحديث ينفي وجود ابراهيم جزماً ويقيناً أو يشك في وجوده ولا يقطع باليقين إلى جانب النفي أو جانب الاثبات ..

فالذي ينفي وجود ابراهيم جزماً ويقيناً لا يستند إلى حجة واحدة من حجج العلم ولا يزيد على مجرد الانكار . والذي يشك يبني شكه على اسباب لا يعتبرها العلم ولا العقل من أسباب الشك في وجود شيء ..

لأنه يستند في شكه إلى كثرة الأعاجيب والخوارق والاساطير التي تخللت سيرة ابراهيم كما رواها الأقدمون .

ومثل هذا السبب لم يبطل وجود شيءقط وان كانت أعاجيبه وخوارقه وأساطيره مما ترفضه جميع العقول في العصر الحديث .

فهذه الشمس يضرب بها المثل في الظهور والثبوت ، وليس أكثر من الخرافات التي رويت عن مشرقها ومغربها وعن نشأتها وحركتها ، وعن الديانات التي تقدسها وتفرض عبادتها، وليس أكثر في العصر الحاضر من الخلاف على عمرها وحقيقة تكوينها وأسباب حرارتها وطبيعة مادتها، لأنها هي طبيعة المادة على العموم .

والهرم الأكبر لا يمتري في وجوده أحد ، ولم يُذكر عن ابراهيم بعض ما ذكر عنه من الأسرار .

ومن الزراية بالعلم أن يقوم الشك على غير أساس ..

فليست الحقيقة خصماً لنا في محكمة نقول له: تقدم أنت بجميع أسانيدك والا أنكرنا عليك دعواك ..

وانما الحقيقة قضيتنا نحن وليست بدعوى خصم يلزمه الدليل ولا يلزمنا.. فما لم يكن للشك سبب فهو زراية بالعلم وزراية بالعقل وزراية بأمانة التفكير ..

ومن السخف أن نلزم الأقدمين بالبرهان على سيرة ابراهيم ولا نلزم به أنفسنا ، كأنهم أصحاب الشأن كله ونحن ثمة غرباء متفرجون .

فلا موجب للجزم بانكار وجود ابراهيم ولا للشك في وجوده ، اعتماداً على كشف جديد من كشوف العلم في القرن العشرين .

أما علاقته بمكة والبيت الحرام فالأمر فيها أعجب من أمر المختلفين على « شخصيته التاريخية » .

لأن الذين ينكرون تلك العلاقة لم يدعوا لها سنداً من العلم ولا من الكشوف العصرية ، بل هم يعتمدون على بعض المصادر الدينية للجزم ببطلان المصادر الأخرى .

أو هم يعتمدون على المصادر الاسرائيلية للجزم ببطلان المصادر الاسلامية ولا شأن للعلم الحديث هنا .. بل هو تمييز رواية دينية على رواية دينية تخالفها، ولا محل لاقحام العلم العصري بين الروايتين .

بل هناك محل للتحفظ الشديد في قبول الرواية الإسرائيلية، لأنها امتزجت بسياسة الملك والتنازع عليه ، وكل دعوى المملكة الاسرائيلية في الزمن القديم قائمة على الأسلوب الذي كتبت به سيرة الخليل في أيامه الأخيرة على التخصيص.

هذه نظرتنا إلى المشكلات التي طرأت على سيرة ابراهيم في القرن العشرين ، وهذه نظرتنا إلى المعلومات التي أتي بها من كشوفه وأحافيره وتعليقاته ، ومبلغ حقها في تمحيص السيرة انها تفسر بعض الغوامض ولكنها لا تنفي « الشخصية التاريخية » ولا توجب الشك فيها بحجة علمية ، وسنرى ان المقابلة بين المعلومات الحديثة وروايات الكتب الدينية وروايات الأقدمين تؤدي لنـــا عملاً غير النفي والانكار والتردد بين الشك واليقين : تؤدي لنا عمل الغربال والمصفاة ، ولا تنفي غير الحثالات والقشور .

ولهذا سنرجع في سيرة الخليل إلى جميع مراجعها .

سنرجع إلى كتب الأديان التي لها علاقة بسيرة الخليل ، وإلى كتب التواريخ وروايات الأقدمين ، وإلى كتب الباحثين في الحفائر والآثار ، ولا سيما الكتب التي تعمد مؤلفوها أن يبحثوا في مواطن السيرة ومظانها من الالف الثالثة قبل الميلاد ، بين آثار العراق وفلسطين ومصر والجزيرة العربية وغيرها من مظان السيرة التي تتاخم تلك الأقطار .

والأديان التي نرجع إلى كتبها ومصادرها هي الاسرائيلية والمسيحية والاسلام والصابئة ، وهذه الديانة الأخيرة أقل الديانات ذكراً للخليل في كتبها ، ولكنها احتفظت ببقايا كثيرة من عقائد البابليين وأخذت من الديانات الوثنية والكتابية في فارس والعراق وفلسطين وجزيرة العرب ، فهي مرجع لا يُهمل عند الكلام على دعوة تتصل بجميع هذه الديانات ..

ومنهجنا في الأخذ من المراجع أن نقتبس ما جاء في كتب الدين ثم

نردفه بتفسيره من كلام أهله وكلام الثقات عند أصحابها، حتّى نستخلص منها جميعاً لباب السيرة فيها ، ونستوفي منها ما تعطيه في موضوعها .

وننتقل من كتب الأديان إلى التواريخ التي تعتمد عليها وعلى المأثورات المروية ، ثم نشفع ذلك بمحصول التاريخ الحديث الذي استنبطه الحفريون وعلماء الآثار من البحث في المراجع الأثرية .

ولا ننوي أن نقحم على هذه المراجع تعليقاً لا يستلزمه سياقها، بل نمشي مع كل مرجع مقبول أو غير مقبول حتى يقيم لنا معلماً هادياً من معالم الطريق، وقد يجيء المعلم الهادي من طريق الرفض كما يجيء من طريق القبول ، فان الذي يقول لنا : لا تسيروا من هنا ، كالذي يقول لنا سيروا من هناك ، وكلها صالح للهداية واجتناب الضلال .

فاذا أوضحت هذه المعالم آخر الأمر لم تبق الا الخلاصة التي يصح التعويل عليها ، وعلى قدر طول الطريق يكون القصد في ختامه ، لأنه الختام الذي تعددت من أجله المعالم والأعلام .

ونحن على رجاء مع القارىء أن تأتي هذه الخلاصة مصفاة من الشوائب والدخائل ، وان نستخرج منها صفة الخليل كما صحت في النظر بعد المقابلة بين مصادرها وأجزائها ، ونترك منها مالا سبيل إلى القول فيه على بينة وعلى ضوء هذه المعلومات مجتمعات .

ونحن مبتدئون بالباب الأول فيما يؤخذ من كتب العهد القديم ، ثم تابعوه بما يؤخذ من كتب الأديان على الترتيب ..

المراجع الاسرائيلية

أفاض سفر التكوين في سيرة ابراهيم عليه السلام ، وأثبت مولده في « أور » الكلدانيين ، ورفع نسبه إلى سام بن نوح ، فهو ابراهيم بن تارح ابن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح ..

وذكر أبناء تارح فقال انه ولد ابرام وناحور وحاران ، وان حاران ولد لوطاً ومات قبل أبيه في أرض ميلاده « أور الكلدانيين » .

وان ابرام وناحور اتخذا لهما زوجتين اسمهما ساراي وملكة بنت حاران.. اما ساراي بنت تارح من زوجة أخرى كما جاء في الاصحاح العشرين على لسان ابراهيم: « وبالحقيقة أيضاً هي أختي أبنة أبي غير أنها ليست ابنة أمي فصارت لي زوجة » ..

وجاء في الإصحاح الحادي عشر أن « تارح أخذ ابرام ابنه ولوطاً ابن حاران ، وساراي ، فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان، فأتوا إلى أرض حاران [1] وأقاموا هناك ، وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين ، ومات في حاران » .

وجاء بعد هذا في الاصحاح الثاني عشر أن الرب قال لابرام « اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت ابيك إلى الأرض التي اريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك ، وتكون بركة ، وأبارك من يباركك ومن يلعنك ألعنه ، وفيك تتبارك جميع قبائل الأرض ..

---

(١) موقعها الآن بين حابور ونهر الفرات في شمال العراق .

« فذهب أبرام كما قال له الرب ، وذهب معه لوط .

« وكان ابرام ابن خمسة وسبعين سنة حين خرج من حاران فأتوا إلى أرض كتمان ومعهم ذخائر وعبيد وماشية ، واختار ابرام سكنه من شكيم [1] إلى بلوطة مورة ، وفيها الكنعانيون .

« وظهر الرب لابرام وقال : لنسلك أعطي هذه الأرض ، فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له ، ثم انتقل من هناك إلى الجبل ونصب خيمته شرقاً من بيت ايل بين بيت ايل من المغرب ولماي من الشرق ، ثم والى رحلته إلى الجنوب ..

« وحدثت مجاعة في الأرض ، فانحدر ابرام إلى مصر ، وقال لساراي امرأته وهو على مقربة من مصر : اني علمت أنك امرأة حسنة المنظر فاذا رآك المصريون قالوا هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك. قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك .

« فلما دخل ابرام مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جداً ، ومدحها رؤساء فرعون لديه ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى ابرام خيراً بسببها وصار له بقر وغنم وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال .

« فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة .. ودعا فرعون ابرام وقال له : ما هذا الذي صنعت بي ؟ ولماذا لم تخبرني أنها امرأتك ؟ لماذا قلت لي هي أختي حتى أخذتها لتكون زوجتي .. خذها واذهب ، ووكل به أناساً شيّعوه إلى خارج الديار ..

« وعاد ابرام إلى بيت ايل حيث كانت خيمته قبل انحداره إلى مصر ، ولم تحتمل الأرض ابرام ولوطاً ومن معهما من حاشية وماشية ، واشتجر رعاتهما وحولهم الكنعانيون والفرزيون [2] .

---

(١) في موقع نابلس الآن على الأرجح .
(٢) لعلهم قبيلة من الكنعانيين كانت تسكن العراء في قرى مسورة .

فقال ابرام لابن أخيه : « لا تكن مخاصمة بيني وبينك ، وبين رعاتي ورعاتك . اننا اخوان . أليست الأرض أمامك ؟ فاذهب حيث شئت . ان ذهبت شمالا ذهبت أنا إلى اليمين وان ذهبت يميناً ذهبت أنا إلى الشمال.

ونظر لوط فرأى أمامه أرضاً مخصبة كأرض مصر ، فاختار دائرة الأردن وارتحل مشرقاً ونقل خيامه إلى سدوم ، وأهلها جد أشرار .

وبقي ابرام في كنعان فقال له الرب « ارفع عينيك وانظر في الموضع الذي أنت فيه من مشرقه إلى مغربه ومن شماله إلى جنوبه ، فإنني معطيك جميع الأرض التي تراها ولنسلك من بعدك ، وأجعل لك نسلاً كتراب الارض لا يحصيه الا من استطاع أن يحصي ترابها ، فاضرب في الارض طولا وعرضاً كما تشاء .

« فنقل ابرام خيامه وأقام عند بلوطات ممرا التي هي جبرون [١] وبنى فيها مذبحاً للرب ..

ونشب قتال بين أمراء البادية والحضر في تلك البقاع « فخرج ملك سدوم وملك عمورة وملك أدمة وملك صبويم وملك بالع التي هي صوغر ، ونظموا حرباً معهم في عمق السديم [٢] مع كدر لعومر ملك عيلام ، وتدعال ملك جوييم ، وأمرافل ملك شنعار ، وأريوك ملك الأسار ، أربعة ملوك من خمسة ..

« وعمق السديم كان في آبار حمر كثيرة ..

« فهرب ملكا سدوم وعمورة وسقطا هناك ، والباقون هربوا إلى الجبل ، فأخذوا جميع أملاك سدوم وعمورة ، وجميع أطعمتهم ومضوا .

« واخذوا لوطاً ابن أخي ابرام ومضوا ، اذ كان ساكناً في سدوم .

« فأتى من نجا وأخبر ابرام العبراني ، وكان ساكناً عند بلوطات ممرا الاموري ، أخي أشكول وأخي عانر ، وكانوا أصحاب عهد مع ابرام .

---

(١) هي اليوم الخليل .
(٢) هي بحر الملح .

« فلما سمع ابرام أن أخاه سبي جرّ غلمانه المتمرنين ولدان بيته ، وعدتهم ثلثمائة وثمانية عشر ، وتبعهم دان ، ودهمهم ليلاً هو وعبده فكسرهم ، وتبعهم إلى حوبة إلى الشمال من دمشق واسترجع ما أخذوه ، واسترجع لوطاً أخاه أيضاً وسبي النساء والرجال ..

« فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه ، وأخرج (ملكي صادق) ملك شاليم خبزاً وخمراً ، وكان كاهناً لله العلي ، فبارك ابرام وقال : مبارك ابرام من الله العلي مالك السماوات والأرض ، ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك إلى يديك . فأعطاه ابرام عشراً من كل شيء وقال ملك سدوم : أعطني النفوس . أما الأملاك فخذها لنفسك .

« فقال ابرام لملك سدوم : رفعت يدي إلى الرب الأله العلي ، مالك السماء والارض ، لا آخذن خيطاً ولا شراك نعل ولا شيئاً مما هو لك ، فلا تقول اني أغنيت ابرام . ليس لي الا ما أكله الغلمان . وأما نصيب الرجال الذين ذهبوا معي : عانر وأشكول وممرا ، فلهم نصيبهم يأخذونه .

ثم خاطب الرب ابرام في الرؤيا قائلاً : لا تخف يا ابرام . أنا ترس لك، وأجرك عظيم .

قال ابرام : أيها السيد الرب ، ماذا تعطيني وأنا ماض عقيماً ، ومالك بيتي هو اليعزر الدمشقي [١]

وقال ابرام ايضاً : « انك لم تعطني نسلاً ، وها هوذا ابن بيتي وارث لي ...

« فكان كلام الرب له : لا يرثك هذا . بل الذي يخرج من احشائك هو وارثك .

« ثم قاده إلى خارج وقال : « أنظر إلى السماء وعد النجوم ان استطعت .. هكذا يكون نسلك .

---

(١) هو بمثابة أمين الدار الموكل بشؤونه ويلاحظ ان جملة حروف الاسم ـ وهو يكتب بالعربية بغير ألف بعد العين ـ تساوي ٣١٨ عدد الغلمان ، ولهذا يقول بعض المفسرين ان الاسم كناية عن العدد .

فآمن بالرب ، فحسبه له حسنة ، وقال له : أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض ترثها .

فقال : « أيها السيد الرب ! بماذا أعلم أنني أرثها .

قال : « خذ عجلة ثلاثية ، وعنزة ثلاثية ، وكبشا ثلاثياً ، ويمامة وحمامة » .

فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل كل شق مقابل صاحبه ، وأما الطير فلم يشقه . وجعل ابرام يزجر الجوارح التي تهبط عليها .

ولما صارت الشمس إلى المغيب وقع على ابرام سبات ونزلت عليه رعبة عظيمة ، فقال لابرام : أعلم يقيناً ان نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم يستعبدون فيها ويستذلون أربعمائة سنة ، ثم أدين الأمة التي تستعبدهم ، فيخرجون بأملاك جزيلة ، وتمضي أنت إلى آبائك بسلام ، وتدفن بشيبة صالحة . ثم يرجع نسلك في الجيل الرابع إلى هاهنا ، إذ لم يتم بعد ذنب الاموريين .

« ثم غابت الشمس ورانت العتمة على الأفق ، واذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك الشطور .

« وفي ذلك اليوم قطع الرب [1] مع ابرام ميثاقه قائلاً : لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات : القينيين والقنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والاموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين » .

* * *

ورجع الاصحاح السادس عشر الى ساراي فجاء فيه انها لما لم تلد دفعت جاريتها المصرية « هاجر » إلى ابرام وقالت له : هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة .. فادخل إلى جاريتي لعلي ارزق منها بنين ..

---

(١) من العادات المرعية في كثير من أمم الرعاة ان يمر المتعاهدون بين شقين من ذبيحة . ويرد بعضهم قولهم « قطع عهدا » الى هذه العادة .

فلما رأت هاجر انها حبلت « صغرت مولاتها في عينيها ، فقالت ساراي لابراهيم : ظلمي عليك ! دفعت جاريتي إلى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرت في عينيها . يقضي الرب بيني وبينك .

« فقال ابرام لساراي : « هوذا جاريتك في يدك . افعلي بها ما يحسن في عينيك ، فأذلتها ساراي ، فهربت من وجهها .

« فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية ، على العين التي في طريق شور [1] وقال : يا هاجر جارية ساراي ! من أين أتيت ؟ وإلى أين تذهبين ؟ فقالت : أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي . فقال لها ملاك الرب : ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها . وقال لها ملاك الرب : تكثيراً أكثر نسلك فلا يحصى ، وقال لها ملاك الرب : ها أنت حبلى وتلدين ابناً وتدعينه اسماعيل. لأن الرب قد سمع لضراعتك . وانه يكون انساناً وحشياً [2] . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه ، وامام جميع اخوته يسكن ..

وكان ابرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر اسماعيل ..

ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة (الاصحاح السابع عشر) ظهر الرب لابرام وقال له : أنا الله القدير . سر أمامي وكن كاملا . فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيرا جدا . فخر ابرام ساجدا ، وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدي معك ، وتكون أبا لجمهور من الامم ، فلا يدعى اسمك بعد اليوم ابرام ، بل يكون اسمك ابراهيم . لأني اجعلك أبا لجمهور من الأمم ، وأثمرك كثيرا جدا واجعلك أمما ، ومنك ملوك يخرجون ، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا ، لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك ، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون الههم . وقال الله لابراهيم :

---

(١) كانت في الجنوب الغربي من فلسطين بين مصر وكنعان .

(٢) الكلمة العبرية تفيد معنى الشدة والخشونة « فرأ ادم » وقد تفيد في معناها كلمة متأبد العربية .

وأما أنت فتحفظ عهدي . أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم . هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر .. فيكون علامة عهد بيني وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم . وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك .. فيكون عهدي في لحمكم عهدا أبديا . وأما الذكر الأغلف .. فتقطع تلك النفس من شعبها . انه نكث عهدي ..

وقال الله لابراهيم : ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي ، بل سمها سارة ، وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا .. فخر ابراهيم ساجدا وضحك ، وقال في قلبه : هل يولد لابن مائة سنة ! وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة ؟ .

وقال ابراهيم لله : ليت اسماعيل يعيش امامك . فقال الله : بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحاق ، وأقيم عهدي له عهداً أبدياً لنسله من بعد ..

وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً . اثني عشر رئيساً يلد . وأجعله أمة كبيرة ، ولكن عهدي اقيمه لاسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت من السنة الآتية فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن ابراهيم .

« فأخذ ابراهيم اسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته ، وجميع المبتاعين بفضة وختنهم .. وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن ، واسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة ..

« وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار ، فرفع عينيه ونظر ، واذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض ، وقال : يا سيد ! ان كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عهدك ، ليؤخذ قليل ماء . واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت شجرة ، فآخذ كسرة خبز فتسندون

قلوبكم ثم تجتازون . لأنكم قد مررتم على عبدكم . فقالوا هكذا نفعل كما تكلمت ..

« فأسرع ابراهيم إلى الخيمة ، إلى سارة ، وقال : اسرعي بثلاث كيلات دقيقا سميذا . اعجني واصنعي خبز ملة ، ثم ركض ابراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصا جيداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ، ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم ، واذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا ..

« وقالوا له : أين سارة امرأتك ؟ فقال : ها هي في الخيمة . فقال : اني أرجع اليك نحو زمان الحياة — اي الربيع — ويكون لسارة امرأتك ابن ..

« وكانت سارة سامعة في باب الخيمة ، وهو وراءه . وكان ابراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام . وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء . فضحكت سارة في باطنها قائلة : ابعد فنائي يكون له متعة وسيدي قد شاخ ؟ فقال الرب لابراهيم : لماذا ضحكت سارة ؟ انها قائلة بالحقيقة : أتراني ألد وأنا قد شخت ؟ فهل يستحيل على الرب بشيء ؟ في الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن ! .

« فأنكرت سارة قائلة : لم أضحك ! لأنها خافت . فقال : لا بل ضحكت ..

« ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم ، وكان ابراهيم ماشياً معهم ليشيعهم ، فقال الرب : هل أخفي عن ابراهيم ما أنا فاعله ، وابراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض ! اني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب وليعملوا برا وعدلا ويوفي الرب ابراهيم ما وعد .

« وقال الرب ان صراخ سدوم وعمورة قد كثر ، وخطيئتهم قد عظمت جداً . اني نازل أرى هل فعلوا حقاً حسب صراخها الآتي إليّ . والا فاعلم .

« وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم ..

« واما ابراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب ..

« فتقدم ابراهيم وقال : أفتهلك البار مع الأثيم ؟ عسى أن يكون خمسون بارّاً في المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين .. ؟ حاشا لك أن تفعل هذا الأمر .. أديّان كل الأرض لا يصنع عدلاً ؟ .

« فقال الرب : ان وجدت في المكان خمسين باراً فاني أصفح عن المكان كله من أجلهم ..

فاجاب ابراهيم وقال : اني قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد ، ربما نقص الخمسون باراً خمسة . أتهلك كل المدينة بالخمسة ؟ فقال : لا أهلك ان وجدت هناك خمسة وأربعين .

فعاد يكلمه أيضاً وقال : عسى أن يوجد هناك أربعون فقال : لا أفعل من أجل الأربعين . فقال : لا يسخط المولى ، فأتكلم . عسى أن يوجد هناك عشرون . فقال لا أهلك من أجل العشرين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط : عسى ان يوجد هناك عشرة فقال : لا أهلك من أجل العشرة ..

« وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع ابراهيم ، ورجع ابراهيم إلى مكانه ..

« فجاء الملاكان إلى سدوم مساء ، وكان لوط جالساً في باب سدوم ، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وخر ساجداً ، وقال : يا سيديَّ . ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما ، ثم تبكران وتذهبان في طريقكما ، فقالا : لا . بل بالساحة نبيت »

وتم الاصحاح التاسع عشر بقصة هلاك سدوم ، ثم عاد الاصحاح العشرون إلى قصة ابراهيم فجاء فيه أنه انتقل من هناك إلى ارض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار .

« وقال ابراهيم عن سارة امرأته هي أختي ، فأرسل (ابيمالك) ملك

جرار وأخذ سارة . فجاء الله الى أبيمالك في الحلم وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها ، فانها ذات بعل ، ولم يكن ابيمالك قد اقترب منها ، فقال : يا سيد ! أتقتل أمة بارة ؟ ألم يقل لي هو انها أختي؟ ألم تقل هي نفسها انه هو أخي ؟ بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا . فقال له الله في الحلم : أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا ،وأنا أيضاً أمسكتك أن تخطىء الي . لذلك لم أدعك تمسها . فالآن رد امرأة الرجل فانه نبي ، وسيصلي لأجلك فتحيا ، وان كنت لا تردها فانك ومن لك ميتون ..

«.. وأخذ ابيمالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وأعطاها لابراهيم ،ورد اليه سارة امرأته ، فقال ابيمالك : هوذا أرضي قدامك ، تسكن منها ما حسن في عينيك . وقال لسارة : اني قد أعطيت أخاك ألفاً من الفضة . ها هو لك غطاء عيني .

« .. وصلى ابراهيم الى الله فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن. لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبيمالك بسبب سارة امرأة ابراهيم » ..

ثم جاء في الاصحاح الحادي والعشرين ، ان سارة ولدت اسحاق وختنه ابراهيم وهوابن ثمانية أيام ، وكان ابراهيم قد أوفى على المائة ، وقالت سارة : قد جعل الله لي ضحكاً وجعل كل من يسمع بأمري يضحك .

« .. ورأت ابن هاجر المصرية يمزح .. فقالت لابراهيم : أطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحاق. فقبح الكلام جداً في عيني ابراهيم ..

« قال الله لابراهيم : لا يقبح في عينيك من أجل الغلام، ومن أجل جاريتك ، واسمع كل ما تقوله سارة ، لأنه باسحاق يدعى لك نسل ، وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك .

« فبكر ابراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة مـــاء ، وأعطاهما لهاجر واضعاً اياهما على كتفها وصرفها .

« فمضت وتاهت في برية بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت احدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابله بعيداً على مرمى القوس . لأنها قالت لا أنظر موت الولد.. فسمع الله صوت الغلام ،ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : ما لك يا هاجر ! لا تخافي .لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومي احملي الغلام وشدي يدك به . لأني سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام فكبر ، وسكن في البرية ، وكان ينمو رامي قوس ، وسكن في برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر .

« وحدث في ذلك الزمان أن أبيمالك وفيكول رئيس جيشه كلما ابراهيم قائلين :« الله معك في كل ما أنت صانع . فالآن أحلف لي بالله ها هنا انك لا تغدر بي ولا بنسلي وذريتي ، وكالمعروف الذي صنعت اليك تصنع الي والى الأرض التي تغربت فيها .

« فقال ابراهيم : أنا أحلف ، وعاتب أبيمالك في بئر الماء التي اغتصبها عبيده . فقال أبيمالك : لم أعلم من فعل هذا الأمر . أنت لم تخبرني وأنا ما سمعت سوى اليوم .

« فأخذ ابراهيم غنماً وبقراً وأعطى أبيمالك ، فقطعا كلاهما ميثاقاً..

« وأقام ابراهيم سبع نعاج وحدها فقال أبيمالك لابراهيم : ما هي هذه النعاج التي أقمتها وحدها ؟ فقال : انك تأخذ من يدي سبع نعاج لكي تكون لي شهادة بأني حفرت هذه البئر . لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع . لأنهما هناك حلفا كلاهما .

« فقطعا ميثاقاً في بئر سبع ، ثم قام أبيمالك وفيكول رئيس جيشه،ورجعا الى أرض الفلسطينيين ، وغرس ابراهيم أثلا في بئر سبع ، ودعا هناك باسم الرب الاله السرمدي . وتغرب ابراهيم في ارض الفلسطينيين أياماً كثيرة »..

* * *

وتأتي بعد ذلك قصة الفداء باسحاق ..

« وان الله قد امتحن ابراهيم ..

« فقال له خذ ابنك وحيدك الذي تحبه — اسحـــاق — واذهب الى أرض المريا وأصعده هناك... فبكر ابراهيم صباحاً وشدّ على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه ، واسحاق ابنه ، وشقق حطباً لمحرقة ، وقام وذهب الى الموضع الذي قال له الله .

« وفي اليوم الثالث رفع ابراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد . فقـــال لغلاميه : اجلسا أنتما ها هنا مع الحمار. وأما أنا والغـــلام فنذهب الى هناك ونسجد ثم نرجع اليكما .

« فأخذ ابراهيم حطب المحرقة ووضعه على اسحاق ابنه ، وأخذ بيده النار والسكين . فذهبا كلاهما معاً .

« وكلم اسحاق ابراهيم أباه وقال : يا أبي . فقال: ها أنا ذا يا بني .

فقال : هو ذا النار والحطب ، ولكن أين الخروف للمحرقة . فقـــال ابراهيم : الله يرى له خروف المحرقة يا بني . فذهبا كلاهما معاً .

« فلما أتيا الى الموضع الذي قال له الله، بنى ابراهيم هناك المذبح ورتّب الحطب وربط اسحاق ابنه،ووضعه على المذبح فوق الحطب،ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه ، فناداه ملاك الرب من السماء . وقال : ابراهيم ! ابراهيم ! فقال : ها أنذا . فقال : لا تمد يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئاً ، لأني الآن علمت أنك خائف الله ، فلم تمسك ابنك وحيدك عني ..

« ورفع ابراهيم عينيه ، ونظر واذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه، فذهب ابراهيم وأخذ الكبش وأصعده المحرقة عوضاً عن ابنه. فدعا ابراهيم اسم ذلك الموضع (يهوه يراه) حتى انه يقال اليوم في جبل الرب يرى ..

« ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية على السماء ، وقال : بذاتي أقسمت. اني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء ، وكالرمل الذي على شاطىء البحر ،

ويرث نسلك باب أعدائه ، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض ، من أجل أنك سمعت لقولي .

ثم رجع ابراهيم الى غلاميه فقاموا وذهبوا جميعاً الى بئر سبع .

« وحدث بعد هذه الأمور ان ابراهيم أخبر وقيل له : هوذا ملكة قدولدت هي أيضاً بنين لناحور أخيك : عوصا بكره ، وتوزا أخاه ، وفموئيل أبا أرام ، وكاسدو وحزوا وفلداش ويدلاف وبتوئيل ، وولد بتوئيل رفقته.. هؤلاء الثمانية ولدتهم ملكة لناحور أخي ابراهيم . وأما سريته — واسمها زومة — فولدت هي أيضاً طابح وجاحم وتاحش ومعكة » ..

وأنبأ الاصحاح الثالث والعشرون بموت سارة وهي في السابعة والعشرين بعد المائة . ماتت في قرية أوبع التي هي جبرون في أرض كنعان . فأتى ابراهيم ليندب سارة ويبكي عليها ، وقام ابراهيم من أمام ميته وكلم بني حث قائلا : أنا غريب ونزيل عندكم ، اعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي . فأجاب بنو حث ابراهيم قائلين له : سمعنا يا سيدي . أنت رئيس من الله بيننا . في أفضل قبورنا أدفن ميتك . لا يمنع أحد منا قبره عنك .. فقام ابراهيم وسجد لشعب الأرض ، لبني حث ، وكلمهم قائلا : ان كان في نفوسكم أن أدفن ميتي من أمامي فاسمعوني والتمسوا لي من عفرون ابن صوحر أن يعطيني مغارة المكفيلة التي له في طرف حقله ، وبثمن كامل يعطيني إياها ، وكان عفرون جالساً بين بني حث ، فأجابه على مسمع من قومه لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلا : لا يا سيدي .. اسمعني .. الحقل وهبتك اياه ، والمغارة التي فيه لك وهبتها .. فسجد ابراهيم أمام شعب الأرض وكلم عفرون في مسامع شعب الأرض قائلا : بل ان كنت أنت اياه فليتك تسمعني . أعطيك ثمن الحقل فأدفن ميتي هناك . فأجاب عفرون ابراهيم قائلا له : يا سيدي ! اسمعني . أرض بأربعمائة شاقل فضة ، ما هي بيني وبينك ؟ فادفن ميتك . فسمع ابراهيم لعفرون ووزن ابراهيم لعفرون الفضة التي ذكرها في مسامع بني حث : أربعماية شاقل فضة جائزة عند التجار » .

* * *

وشاخ ابراهيم وتقدم في الأيام [1] وباركه الرب في كل شيء وقال ابراهيم لعبده كبير بيته المستولي على كل ما كان له : ضع يدك تحت فخذي ، فأستحلفك بالرب اله السماء ، واله الأرض ، الا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم . بل الى أرضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني اسحاق . فقال له العبد : ربما لا تشاء المرأة أن تتبعني الى هذه الأرض . هل أرجع بابنك الى الأرض التي خرجت منها ؟ فقال ابراهيم : احترز من أن ترجع بابني الى هناك : الرب اله السماء الذي أخذني من بيت أبي ، ومن أرض ميلادي ، والذي كلمني ، وأقسم لي قائلا لنسلك أعطي هذه الأرض ، هو يرسل ملائكة أمامك فتأخذ زوجة لابني من هناك ، وان لم تشأ المرأة ان تتبعك تبرأت من حلفي هذا . أما ابني فلا ترجع به الى هناك . فوضع العبد يده تحت فخذ ابراهيم مولاه ، وحلف له على هذا الأمر .

« ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ، ومضى وجميع خيرات مولاه في يده ، فقام وذهب الى أرام النهرين ، الى مدينة ناحور ، وأناخ الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء ، وقت خروج المستقيات ، وقال : أيها الرب إله سيدي ابراهيم ! يسّر لي اليوم واصنع لطفاً الى سيدي ابراهيم . ها أنا واقف على عين الماء وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء ، فليكن أن الفتاة التي أقول لها أميلي جرتك لأشرب فتقول اشرب ، وأنا أسقي جمالك ، هي التي عينتها لعبدك اسحاق ، وبها أعلم أنك صنعت لطفاً الى سيدي .

« واذ كان لم يفرغ بعد من الكلام ، اذا رفقة التي ولدت لبتوئيل ابن ملكة امرأة ناحور أخي ابراهيم خارجة وجرتها على كتفها ، وكانت الفتاة حسنة المنظر جداً وعذراء لم يعرفها رجل ، فنزلت الى العين وملأت جرتها وطلعت ، فركض العبد للقائها وقال : اسقيني قليل ماء من جرّتك . فقالت اشرب يا سيدي ! وأسرعت وأنزلت جرتها على يدها وسقته ، ولما فرغت من سقيه قالت : استقي لجمالك أيضاً حتى تفرغ من الشرب ، فأسرعت وأفرغت جرّتها في المسقاة وركضت أيضاً الى البئر لتستقي ، فاستقت لكل جماله ،

(١) الاصحاح الرابع والعشرون .

والرجل يتفرس فيها صامتاً ليعلم أأنجح الرب طريقه أم لا. وحدث عندما فرغت الجمال من الشرب أن الرجل أخذ خزانة ذهب وزنها نصف شاقل وسوارين على يديها وزنهما عشرة شواقل ذهب ، وقال : بنت من أنت ؟ أخبريني . هل في بيت أبيك مكان لنبيت ؟ فقالت : أنا بنت بتوئيل بن ملكة الذي ولدته لناحور ، وقالت له . عندنا تبن وعلف كثير ، ومكان لتبيتوا أيضاً . فخر الرجل وسجد للرب وقال : مبارك إله الرب سيدي ابراهيم الذي لم يمنع لطفه وحقه عن سيدي . اذ كنت أنا في الطريق هداني الرب الى اخوة سيدي ، فركضت الفتاة وأخبرت بيت أمها بحسب هذه الأمور .

« وكان لرفقة أخ اسمه لابان ، فخرج لابان الى الرجل خارجاً الى العين . »

* * *

ويلي هذا (في الاصحاح الرابع والعشرين) وصف العبد ما حدث له حتى التقى بالفتاة « فأجاب لابان وبتوئيل وقالا : من عند الرب خرج الأمر . لا نقدر أن نكلمك بشر أو خير . هوذا رفقة قدامك . خذها واذهب ، فلتكن زوجة لابن سيدك كما تكلم الرب ، وكان عندما سمع عبد ابراهيم كلامهم انه سجد للرب الى الأرض ، وأخرج آنية فضة وآنية ذهب وثياباً وأعطاها لرفقة ، وأعطى تحفاً لأخيها ولأمها ، فأكل وشرب هو والرجال الذين معه وباتوا ، ثم قاموا صباحاً فقال : اصرفوني الى سيدي ، فقال أخوها وأمها : لتمكث الفتاة عندنا أياماً أو عشرة ، وبعد ذلك تمضي » .

واستشيرت الفتاة فقبلت أن تذهب مع العبد ، فصرفوا رفقة أختهم ومرضعتها وعبد ابراهيم ورجاله ، وباركوا رفقة ، وقالوا لها : أنت أختنا . صيري ألوف ربوات ، وليرث نسلك باب مبغضيه ..

« فقامت رفقة وفتياتها وركبن على الجمال وتبعن الرجل ، فأخذ العبد رفقة ومضى ..

« وكان اسحاق قد أتى من ورود بئر لحي رئي . اذ كان ساكناً في أرض الجنوب ، وخرج ليتأمل في الحقل عند اقبال المساء ، فرفع عينيه ونظر واذا

جمال مقبلة ، ورفعت رفقة عينيها فرأت اسحاق فنزلت عن الجمل ، وقالت للعبد : من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائنا ؟ فقال العبـــد : هو سيدي ! فأخذت البرقع وتغطت ، ثم حدث العبد اسحاق بكل ما جرى ، فأدخلها اسحاق الى خباء سارة أمه ، وأخذ رفقة فصارت له زوجة وأحبها ، فتعزى اسحاق بعد موت أمه .

« وعاد ابراهيم — الاصحاح الخامس والعشرون — فأخذ زوجة اسمها قطورة ، فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا ، وولد يقشان شباوددان ، وكان بنو ددان اشوريم ولطوشيم ولأميم ، وبنو مديان عيفة وعفر وحنوك وأبيداع وألدعة : جميع هؤلاء بنو قطورة ..

« وأعطى ابراهيم اسحاق كل ما كان له ، وأما بنو السراري اللواتي كانت لابراهيم فأعطاهم ابراهيم عطايا وصرفهم عن اسحاق ابنه شرقاً ، الى أرض المشرق ، وهو بعد بقيد الحياة ..

« وهذه أيام سني حياة ابراهيم التي عاشها : مائة وخمس وسبعون سنة ، وأسلم ابراهيم روحه ومات بشيبة صالحة ، شيخاً شبعان أياماً ، وانضم الى قومه ، ودفنه اسحاق واسماعيل ابناه في مغارة المكفيلة في حقل عفرون بن صوحر الحثي الذي أمام ممرا .

« .. وهذه مواليد اسماعيل بن ابراهيم الذين ولدت هاجر المصرية جارية سارة لابراهيم .. ! نبايوث بكر اسماعيل ، وقيدار ، وادبئيل ، ومشماع ، ودرمة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، ونافيش ، وقدمة .. هؤلاء هم بنو اسماعيل وهذه اسماؤهم بديارهم وحصونهم : اثني عشر رئيساً حسب قبائلهم وهذه سنو حياة اسماعيل : مائة وسبع وثلاثون سنة ..

« وأسلم روحه ومات وانضم الى قومه ، وسكنوا من حويلة الى شور التي أمام مصر .

« .. وهذه مواليد اسحاق بن ابراهيم .. ولد ابراهيم اسحاق ، وكان

اسحاق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجته رفقة بنت بتوئيل الأرامي، أخت لابان الأرامي ، من فدان أرام .

« وصلى اسحاق الى الرب لأجل امرأته ، لأنها كانت عاقراً ، فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته ، وتزاحم الولدان في بطنها ، فقالت : ان كان هكذا ففيم أنا عائشة ؟ .. ومضت لتسأل الرب ،فقال لها الرب : في بطنك امتان ، ومن احشائك يفترق شعبان ، شعب يقوى على شعب ، وكبير يُستعبد لصغير ..

« فلما أكملت أيامها لتلد اذا في بطنها توأمان ، فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر ، فدعوا اسمه عيسو ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو ، فدعي اسمه يعقوب ، وكان اسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما ..

« فكبر الغلامان ، وكان عيسو انساناً يعرف الصيد : انسان البرية ، ويعقوب انساناً كاملا يسكن الخيام ..

« فأحب اسحاق عيسو لأن في فمه صيداً .

« وأما رفقة فكانت تحب يعقوب .

« وطبخ يعقوب طبيخاً فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا ، فقال عيسو ليعقوب : اطعمني من هذا الأحمر ، لأني قد أعييت . لذلك دعي اسمه أدوم ..

« فقال يعقوب بعني اليوم بكوريتك . فقال عيسو : ها أنا ماض الى الموت .. فما جدوى البكورية ؟ فقال يعقوب : احلف لي اليوم ، فحلف له . فباع بكوريته ليعقوب ، فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس ، فأكل وشرب وقام ومضى .

وتكرر في الاصحاح السادس والعشرين وصف الحادث الذي جرى لابراهيم مع أبيمالك ، فجاء فيه انه حدث « جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام ابراهيم فذهب اسحاق الى ابيمالك ملك الفلسطينيين .

« .. وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هي اختي ، لأنه خاف أن يقول

امرأتي لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة ، لأنها كانت حسنة المنظر ، وحدث اذ طالت الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر ، واذا اسحاق يلاعب رفقة امرأته ، فدعا أبيمالك اسحاق وقال : انما هي امرأتك . فكيف قلت هي أختي . فقال له اسحاق : لأني قلت لعلي أموت بسببها ، فقال أبيمالك : ما هذا الذي صنعت بنا ؟ لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً . فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلا : الذي يمس هذا الرجل وامرأته موتاً يموت».

وفي الاصحاح التاسع والعشرين أن يعقوب تزوج راحيل بنت خاله لابان، وكانت عاقراً كما جاء في الاصحاح الثلاثين ، فقالت : هوذا جاريتي بلهة . ادخل عليها فتلد على ركبتي وأرزق أنا ايضاً منها بنين ، فأعطته بلهة جاريتها زوجة ، فدخل عليها يعقوب .

« .. وذكر الله راحيل وسمع لها الله وفتح رحمها، فحبلت وولدت ابناً، فقالت قد نزع الله عاري ودعت اسمه يوسف .»

* * *

وفي الاصحاح الثاني والثلاثين يسمى يعقوب اسرائيل ، وذاك انه بعد أن عاد من رحلته الى العراق « بقي وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى انه لا يقـــدر عليه ضرب حق فخذه ، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه ، وقال : اطلقني لأنه قد طلع الفجر ، فقال ، لا أطلقك ان لم تباركني . فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب ! فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل . لأنك جاهدت مـــع الله والناس وقدرت ، وسأل يعقوب وقال : اخبرني باسمك فقال له : لماذا تسأل عن اسمي ، وباركه هناك، فدعا يعقوب اسم المكان فينئيل قائلا : لأني نظرت الله وجهاً لوجه .

* * *

وتذكر الاصحاحات التالية خبر المجاعة التي عمّت الأرض ، وتروي هجرة يعقوب وأبنائه الى مصر ، حيث بيـــع يوسف وتولى عملا من أعمال

الدولة في الجيل التالي لجيل ابراهيم كما يؤخذ من هذا السياق ، وقد انقسمت ذريته الى أدوميين واسرائيليين .

* * *

وفي العهد القديم عدا هذه السيرة المفصلة ، اشارات كثيرة الى ابراهيم عليه السلام ، منها ما يذكره ليذكر عهد الرب له ، ومنها ما يصفه ويصف بعض أخباره ..

فمن الاشارات التي لها شأن في سيرته ما جاء في كتاب يشوع أول الرسل بعد موسى عليه السلام ، ففي الاصحاح الرابع والعشرين من هذا الكتاب يقول اصاحبه عن ديانة الآباء :

« وقال يشوع لجميع الشعب : هكذا قال الرب اله اسرائيل : آباؤكم سكنوا في عبر النهر منذ الدهر . تارح أبو ابراهيم وابو ناحور ، وعبدوا آلهة أخرى ، فأخذت ابراهيم أباكم من عبر النهر وسرت به في كل أرض كنعان».

ووصف ابراهيم بخليل الله في كتاب الأيام الثاني – وهو على الأرجح من جمع النبي غزرا – حيث يقول في الاصحاح العشرين : « ألست انت إلهنا الذي طردت سكان هذه الأرض أمام شعبك اسرائيل وأعطيتها لنسل براهيم خليلك إلى الابد » .

ووصف بهذه الصفة في الإصحاح الحادي والأربعين من كتاب اشعيا حيث يقول : « وأما أنت يا اسرائيل عبدي ، يا يعقوب الذي اخترته ، نسل ابراهيم خليلي » ..

* * *

وتلك هي جملة العبارات التي تدخل في سيرة الخليل من كتب العهد القديم ، وأكثرها تفصيلا ما ورد في سفر التكوين من الكتب الخمسة التي يطلق عليها في الغالب اسم التوراة .

وقبل الانتقال إلى ما ورد عن الخليل في المراجع الاسرائيلية الأخرى ،

كالتلمود والمدراش وما اليهما ، نشفع ما تقدم بكلمة لازمة عن تعليقات الشراح على سفر التكوين والكتب الخمسة ، فان هذه التعليقات لا غنى عنها للباحث المستقصي عند مراجعة الاسانيد المتعددة ، ولها علاقة وثيقة بفهم السيرة كلها فيما تستمده من تلك الأسانيد .

تعقيب على مراجع العهد القديم

اتفق شراح العهد القديم على تعدد النسخ التي جمعت منها كتبه الخمسة ، بصفة خاصة .

وأهم هذه النسخ هي نسخة الوهيم ونسخة يهوا ونسخة الكهنة أو المسجلين ، ولا داعي في هذه الصدد لاضافة النسخة المسماة بنسخة التثنية ، لأنها تتناول الأسلوب اللغوي الذي لا يسهل التبسط في خصائصه عند الكتابة عنه بلغتنا العربية .

سميت نسخة « الوهيم » بهذا الاسم لأن « الوهيم » هي الكلمة التي تُطلق فيها على الاله ..

وسميت النسخة الأخرى باسم « يهوا » لأنه اسم الاله فيها .

وتسمى النسخة الثالثة باسم الكهنة أو المسجلين ، لأنهم جمعوا كتب الشريعة وعنوا فيها عناية خاصة بالشعائر والمراسم وأخبار الهيكل والعبادة .

ومن هذه النسخ ما كتب على أيام المملكة الاسرائيلية ، ومنها ما كتب في المنفى بين النهرين ، ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، وأقدمها عهداً بينها وبين عصر الخليل ما يبلغ ألف سنة .

وقد اجتهد الكهنة في تكملة الاجزاء التي بين أيديهم ، فقابلوا بين الأخبار المتعددة وتمموا بعضها ببعض ، وبقيت آثار المراجع المتعددة في مواضع نشير إلى بعضها بما فيه الكفاية للمقابلة بين أخبار السيرة في جملتها ..

ففي الاصحاح الحادي والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم بئرسبع بما دار من الحديث بين الخليل وأبيمالك .

سأل أبيمالك : ما هي هذه السبع النعاج التي أقمتها وحدها ؟

قال الخليل : انك تأخذ من يدي سبع نعاج لكي تكون شهادة لي بحفر البئر ... لذلك دُعي ذلك الموضع بئر سبع ..

وفي الاصحاح السادس والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم المكان بما يلي :

« وحدث في ذلك اليوم أن عبيد اسحاق جاءوا وأخبروه عن البئر التي حفروا وقالوا له : قد وجدنا ماء . فدعاها شبعة لذلك اسم المدينة بئر سبع الى اليوم » .

وفي الإصحاح الأول عن خلق الحيوان والانسان : « فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ، ورأى الله ذلك أنه حسن،وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا ، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب عليها » .

وفي الإصحاح الثاني : « وجبل الاله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية ، وغرس الاله جنة في عدن شرقاً ، ووضع هناك آدم الذي جبله ، وأنبت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر جيدة للأكل ، وشجرة الحياة في وسط الجنة .. »

ونصّ الاصحاح الثامن عشر من سفر اللاويين على تحريم الزواج بالأخت من الأب أو من الأم « المولودة في البيت أو المولودة خارجاً .. »

وفي الاصحاح الثالث عشر من سفر صموئيل الثاني تقول تامار لأخيها أمنون « والآن كلم الملك لأنه لا يمنعني منك » ..

* * *

وقد أطال الشراح مقابلة المراجع ولا سيما المراجع التي تذكر الأماكن والاعلام والاعمار وما يعنينا في هذا السياق هو ملاحظتهم التي خرجوا بها من المقابلة والموازنة فيما يتعلق بسيرة الخليل .

فمنها ان اسم البلد الذي ولد فيه الخليل قد ورد في بعض النسخ ولم يكن موجوداً في نسخ أخرى فأضيف اليها للمضاهاة بينها ..

ومن النسخ ما ورد فيه عهد الميراث لابراهيم ، ومنها ما لم يرد فيه هذا العهد قبل مولد اسماعيل .

ويرى كثيرون من الشراح ان الاعلام قد تطلق على القبائل كما تطلق على رؤوسها وآبائها ، ومن هنا ينعت ابراهيم بالعبراني وينعت ابن أخيه بالآرامي ، أو يختلف الفرعان من أصل واحد ، فتعمل احدى القبائل في الصيد بالبادية ، وتعمل أختها في الزرع والمدن حول الحاضرة .

وقد بين الشراح على العموم ان الاعمار تناقصت في الكتب الأخيرة ، وان الوحي بالرؤيا في هذه الكتب أعم من الوحي بالمشاهدة والمخاطبة .

وسنعود إلى استخلاص الفائدة من هذه المقابلات والتعليقات عند الكلام على تفصيلات السيرة ، بعد استيفاء مراجعها من الكتب الدينية والمصادر التاريخية وغيرها .

المشنا :

أهم المراجع الاسرائيلية بعد التوراة هو كتب المشنا القديمة « فالمقرأ » هو ما يحفظ بالقراءة في الكتب ، وهو نصوص التوراة المعتمدة .

و « المشنا » هو ما يحفظ بالذكر والاستظهار ، ومنه التلمود على نشأته الاولى ..

وأصل مادة الكلمة من شنا أي كرر ، وهي تقابل في العربية مادة ثنَّى بمعنى أعاد ثانية ، واستعيرت للاعادة التي يراد بها حفظ الكلام المعاد .

وترجع مأثورات « المشنا » إلى أيام النفي في بابل ، حيث اقامت عشائر من اليهود منفية عن فلسطين . وكان الغرض من « المشنا » تفسير التوراة والتعليق عليها ، وتشتمل هذه التفسيرات على عظات المعابد ، وتأويلات الفقهاء ، وشروح المفسّرين ممن بلغوا مرتبة الرئاسة في التعليم .

وقد حصرت المشنا في القرن الثاني للميلاد ، ودونت بعد الاعتماد على الرواية أو التعليقات المتفرقة ، ومعظمها محفوظ بالعبرية العامية التي يفهمها المستمعون إلى مواعظ البيع وأحاديث الفقهاء .

واشتملت عند جمعها على ستة أقسام ، واشتملت هذه الأقسام على ثلاثة وستين فصلا ، واشتملت الفصول على نبذ تبلغ خمسمائة وثلاثاً وعشرين ، أضيفت اليها نبذة بعد ذلك فبلغت خمسمائة وأربعا وعشرين .

أما الأقسام الستة فهي قسم الزرع وهو خاص بالمزروعات والمحصولات ومعاملاتها ، وقسم الموعد وهو خاص بأوقات المواسم والأعياد ، وقسم النساء وهو خاص بالزواج والطلاق وما يتصل بهما من الأحوال الشخصية ، وقسم العروض والتعويضات وهو خاص بسائر المعاملات والمحاكمات ، وقسم المقدسات وهو خاص بشعائر العبادة ، وقسم الطهارة وهو خاص بالغسل والتطهير من النجاسات التي حرم معها القيام بالفرائض الدينية ..

وزيدت على المشنا في العصور الحديثة كتب من قبيلها تسمى با «لتصافوت» من مادة يصاف أي يضاف ، ومعناها الاضافات ، وأكثر هذه الاضافات من وضع الكهان الاوربيين إلى القرن الثاني عشر للميلاد .

ولم تشتمل المشنا على جميع المأثورات ، بل بقيت خارجاً منها احكام تنقل بالرواية ، وتعرف « بالبرايتا » أي البرانية .

وانتهى تمحيص المشنا القديمة إلى اختيار طائفة من الاحكام المتفق عليها تسمى الجمارة أي التكملة .

ومن مرويات المشنا والجمارة تجتمع كتب التلمود ، وهي قسمان :

تلمود بابل ، وتلمود فلسطين ، ولكن التلمود لا يحتوي كل ما في المشنا والجمارة ..

ويعرف بعض المأثورات الاسرائيلية باسم « المدراش » أو الدراسات ، وتلك تتضمن أقوال الفقهاء وحواشيهم على النصوص والمحفوظات وأشهرها مدراش رباه التي تدور كل دراسة منها على كتاب من كتب التوراة الخمسة ، وقد تمّت عند القرن السادس للميلاد ، وترجع في أسانيدها كما جاء فيها إلى أيام ابراهيم ، ولكنها عند اليهود على درجات فمنها ما يعول عليه ومنها ما هو من قبيل القصص التعليمية والأمثال الوعظية ، تساق للاعتبار ولا يقصد بها التاريخ أو الاعتقاد .

ويظن بعض شراح الألمان مثل جرنبوم Grunbaum ان من المدراش نبذا منقولة عن اللغة العربية ، ولكن المقابلة بين رواياتها والروايات الاسرائيلية الأخرى تدل على مشابهة قريبة ، وانها على كل حال من مصادر غـــير اسلامية ..

بل يظن جرنبوم ان بعض العبارات ترجمة حرفية من القرآن الكريم ، كما جاء في كتاب من المدراش ان الله قال : ليوهب البرد والعراء لخادمي ابراهيم ، والكلمة فيها معنى العزاء والراحة والسلا م .

وسنشير إلى هذه الملاحظات في مواضعها ، ونكتفي فيما يلي بالمراجع الضرورية على سبيل التمثيل لكل أسلوب من أساليب الرواية والتدوين في المصادر الاسرائيلية ، ونبدأ بما له علاقة بسيرة الخليل من عهد الطوفان .

* * *

يطلق اسم خليل الله وحبيب الله في الكتب الاسرائيلية على أنبياء غير ابراهيم ، أشهرهم موسى ويعقوب وسليمان ، ويغلب على الكتب المتأخرة وصفه بالحبيب ، ويعتقدون انه هو المقصود بقول أرميا في الاصحاح الحادي عشر « حبيبي في بيتي » .

وفي كثير من كتب المدراش والتعليم يقال إن الدنيا خلقت من أجله ،

وان أبناء نوح ضلوا عن سواء السبيل وعبدوا الأصنام وكان جد ابراهيم يدعى (رو) فسمى ابنه (سيروج) أي ذهبوا بعيداً ، وصدق في هذه التسمية ، لأن سيروج حين كبر وولد له ابن سماه ناحور وعلمه السحر والتنجيم وعبادة الأصنام ، وكان الشيطان (مسطبما) يرسل أعوانه لكيد البشر ويطلقهم على البذور وهي على وجه الأرض كأنهم الغربان لتلتقطها وتفسدها . لهذا سمى ناحور ابنه تيرح أو تارح . ويقول شراح كتاب « اليوبيل » أحد هذه الكتب التعليمية أن الاسم بهذا المعنى غامض ، ولكنه قد يرجع إلى كلمة آرامية بمعنى المحو والشحوب .

وتزوج تارح من ايمتالي بنت كرناب ، فرزقا ابراهيم . وكان مولده مرصوداً في الكواكب فاطلع عليه النمروذ واستشار الملأ من قومه فأشاروا عليه بقتل كل طفل ذكر واستحياء البنات واغداق العطايا والجوائز على أهليهن ، ليفرحوا بمولد البنات .

وأحس تارح ان امرأته حامل ، فلما أراد أن يتحقق ذلك صعد الجنين إلى صدر أمه فخوى بطنها ولم يظهر فيه حمل ، وهربت أمه حين جاءها المخاض فأوت إلى كهف ولدته فيه ، وتركته ثمة وهي تدعو له ، فبقي ثلاث عشرة سنة لا يرى الشمس على رواية بعض الكتب ، ومكث في الكهف أقل من ذلك على روايات أخرى ، وأرسل الله جبريل يرعاه فجعل الطفل يمتص أصابعه فيرضع منها ويكبر قبل الأوان .

وخرج من الكهف ليلاً وهو في الثالثة فرأى النجوم فقال : هذه هي الأرباب . فلما أشرقت الشمس قال : كلا .. بل هذه هي الرب . فلما أفلت وظهر القمر قال : بل هو هذا .. فلما أفل قال : ما هذه بأرباب ، انما الرب المعبود هو الذي يديرها ويسيرها ويبديها ويخفيها .

وفي بعض الكتب أن أمه خرجت تتفقده بعد عشرين يوماً حيث تركته فوجدت في طريقها صبياً نامياً فسألها :

ـ ماذا جاء بك إلى الصحراء ؟ .

فأنبأته بقصتها ، وعرفها بنفسه فدهشت وعجبت لطفل يكبر ويتكلم ولما يمض على مولده شهر واحد ..

قال لها : إنها قدرة الله الذي يَرى ولا يُرى ..

ويظن جامعو الأساطير اليهودية ان وصف الله بهذه الصفة منقول من أصل عربي اطلع عليه يهود الاندلس ، ثم اختلفت تفصيلاته عند نقلها إلى العبرية ..

قالت أمه وقد ازداد عجبها : أإله غير النمروذ ؟ .

قال : نعم يا أماه .. رب السماوات والأرض ، ورب النمروذ ابن كنعان . فاذهبي وبلغي النمروذ ما سمعت .

وأنبأت زوجها تارح وكان أميراً من أمراء الملك ، فذهب اليه يطلب لقاءه ، فأذن له باللقاء فسجد بين يديه ، ولم يكن من عادتهم اذا سجد أحدهم بين يدي الملك أن يرفع رأسه بغير أمره ، فلما أمره الملك أن ينهض ويتكلم روى له القصة ففزع وفزع أعوانه ووزراؤه ، ثم ملكوا جأشهم وقالوا له : علام هذا الفزع من صبي لا حول له ولا قوة ومن أمثاله في المملكة ألوف وألوف.

قال لهم النمروذ : وهل رأيتم صبياً في العشرين يتكلم وينطق بمثل هذا البيان ؟ ..

وخشي الشيطان أن يسبق الايمان إلى قلب الملك فبرز لهم وأزال ما بهم من الروع ، وحرض الملك على قتل الصبي ، فحشد له جنداً من القادة والفرسان وخرجوا إلى الكهف الذي قيل لهم إن الصبي مختبيء فيه ، فإذا بينه وبينهم سحب لا ينفذ النظر إلى ما وراءها ، واذا بهم مجفلون لا يقدرون على الثبات .

فلما عادوا إلى النمروذ وشرحوا له ما عاينوه قال لهم : لا مقام لنا بهذه الديار ! وخرج من بلده إلى أرض بابل فلحق به ابراهيم على جناح جبريل ، ولقي هناك أبويه ، ثم بدأ بالدعوة إلى الله :

الاله الأحد الذي لا اله غيره : رب السماوات ورب الأرباب ، ورب النمروذ . وأنذرهم أن يتركوا عبادة الصنم الذي صنعوه على مثال النمروذ . فان له فماً ولكنه لا ينطق ، وعيناً ولكنه لا يبصر ، وأذناً ولكنه لا يسمع ، وقدماً ولكنه لا يسعى ولا ينفع نفسه ولا يغني عن غيره شيئا .

وأسرع أبوه إلى الملك يبلغه ان ابنه ابراهيم طوى مسيرة أربعين يوماً في أقل من يوم ، ثم لحق به ابراهيم إلى قصر الملك فهز عرشه بيديه وصاح به : « أيها الشقي ! انك تنكر الحق ، وتنكر الله الحي الصمد . وتنكر عبده ابراهيم خادم بيته الأمين » .

ويخاف النمروذ فيأمر تارح أن يعود بابنه إلى موطنه ، ثم تتكاثر الروايات في عشرات من المصادر من كتب المدراش والتفسيرات حول ما حدث بعد ذلك بين ابراهيم وقومه وبينه وبين الملأ والملك وكهنة الأرباب ، مما تغني هذه الامثلة عن تفصيله واستقصائه ، وبعضه كما تقدم معول عليه عند اليهود ، وبعضه من قبيل ضرب الأمثال بالنوادر والأعاجيب ..

وليس من المطلوب أن نتتبّع هذه القصص والنوادر لأنها تستوعب ألوف الصفحات ، ولكننا نأخذ منها ما ينتظم في أغراض هذا الكتاب ، ومنها ما يدل على تفكير واضعيه ، أو يفيد عند المقابلة بين المصادر المتعارضة ، أو يلاحظ فيه الوضع لطرافته الأدبية والفنية ، أو يتمّم صورة أخرى ناقصة في خبر من الأخبار .

فمما ورد في « مدراش رباه » أن أباه حنق عليه حين كسر الاصنام فخاصمه إلى النمروذ ، فسأله النمروذ : ان كنت لا تعبد الصور والمشبهات فلماذا لا تعبد النار ؟ .

قال ابراهيم : أولى من عبادة النار أن أعبد الماء الذي يطفئها .

قال النمروذ : فاعبد الماء اذن . .

قال ابراهيم : بل أولى من عبادة الماء أن أعبد السحاب الذي يحمله .

قال النمروذ : اذن تعبد السحاب ..

قال ابراهيم : وأولى من السحاب بالعبادة ريح تبدده وتسير من فضاء إلى فضاء .

قال النمروذ : فما لك لا تعبد الريح ؟

قال ابراهيم : ان الانسان يحتويها بأنفاسه فهو أذن أحق منها بالعبادة .

ومغزى الحوار ان عقل الانسان قادر بالنظر في خلق الله أن يصل إلى معرفة الخالق وينكر عبادة الأوثان .

فلما أعيا النمروذ أن يخضعه سجنه ومنع عنه الطعام والماء ، ومضى عليه عام في غيابته فأيقن الحارس انه قد مات ، ولكنه ناداه : يا ابراهيم ! أأنت بقيد الحياة ؟ فسمع جوابه : نعم أنا بقيد الحياة .

فأمر الملك بضرب عنقه ، فلم يعمل فيه السيف .. فأوقد له ناراً ودفع به إلى أحد أعوانه ليقذف به فيها ، فلما قاربها خرج من الأتون لسان من النار والتهم الجلاد ولم يقترب من ابراهيم .

فتشاور الملأ عند الملك في أمره ، فاتفقوا على احراقه وإلقائه في النار من منجنيق بعيد ، مخافة من ألسنة النار . وضرع الملائكة إلى الله أن ينجيه فأذن لهم أن يعملوا لنجاته ما يستطيعون ، ولكنه أبى أن يعتمد في نجاته على أحد غير الله ، واذا بالجمر من حوله كأنه فراش من الورد والريحان ..

ولم يصدق النمروذ انها معجزة من الله ، بل قال لابراهيم انها من سحرك وحيلتك .. أما الأمراء والوزراء فخذلوا الملك وآمنوا برب ابراهيم ..

ولم تذكر التوراة ان ابراهيم ألقي في النار ، وأنما ورد في سفر دانيال من أخبار بابل ان نبوخذنصر غضب على ثلاثة من الفتية الصالحين لأنهم لم يسجدوا لصنم من الذهب .. « حينئذ امتلأ نبوخذنصر غيظاً وتغير منظر وجهه على شدرخ ، وميشخ وعبد نغو . وأمر بأن يحمى الأتون سبعة أضعاف وأمر جبابرة القوة في جيشه بأن يوثقوا شدرخ ، وميشخ ، وعبد نغو ،

ويلقوهم في أتون النار المتقدة ، ثم أوثق هؤلاء الرجال في سراويلهم وأقمصتهم وأرديتهم ولباسهم وألقوا في وسط أتون النار المتقدة . والأتون قد حمي جداً فقتل لهيب النار الرجال الذين رفعوا شدرخ ، وميشخ ، وعبد نغو .. وهؤلاء الثلاثة سقطوا موثقين في وسط الأتون .. حينئذ تحير (نبوخذنصر) الملك وقام مسرعاً وسأل مشيريه : ألم نلق ثلاثة رجال موثقين في وسط النار ؟ فأجابوا وقالوا : نعم أيها الملك ! . قال : ها انا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشون في وسط النار وما بهم ضرر ، ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة . ثم اقترب نبوخذنصر الى باب أتون النار المتقدة ونادى فقال : يا شدرخ وميشخ وعبدنغو ، يا عبيد الله العلي .. اخرجوا وتعالوا ! .. فخرجوا ، واجتمعت المرازبة والشحن والولادة ومشيرو الملك ورأوا هؤلاء الرجال الذين لم تكن للنار قوة على أجسامهم ولم تحترق شعرة من رؤوسهم ولم تتغير سراويلهم ورائحة النار لم تأت عليهم، فأجاب نبوخذنصر وقال: تبارك اله شدرخ وميشخ وعبدنغو الذي أرسل ملاكه وأنقذ عبيده الذين اتكلوا عليه » .

والشبه بين هذه القصة وقصة ابراهيم ظاهر ، وسماع دانيال بها في بابل له دلالته في هذا الصدد ، ولكن بعض الشراح يزعم ان القصة لم تكن معروفة قبل يوناثان بن عزييل الذي كان يجهل البابلية فالتبس عليه معنى (أور) لأنها بالكلدانية تعني النار وبالعبرية تعني النور ، وظن أن نجاة ابراهيم من « أور الكلدانيين » يعني نجاته من نار الكلدانيين .

ولكن هؤلاء الشراح ينسون أن القصة قديمة وردت في باب الفصحيات من القسم الثاني من المشنا ، وهو قسم المواعيد والمواقيت [1] ، وأنها أطول أصولاً وفروعاً من أن تبنى على خطأ في ترجمة كلمة، ولا سيما الكلمة التي يعرفها كل يهودي يذكر « أورشليم » ويفهم معنى أور ومعنى شليم ، وهما معروفان لأجهل القوم بالعبرية ، ومن معانيها الشعبية الشائعة دار السلام ، على صواب أو على خطأ .

---

(١) صحيفة ٢١٢ من المجلد الخامس من أساطير اليهود المتقدم ذكره .

وزعم شابيرا Shapira أن القصة من وضع كعب الأحبار ، ولا تعويل على أقوال شابيرا هذا لأنه زور بعض الوثائق على المتحف البريطاني ، وانكشف تزويره فبخع نفسه في روتردام (١٨٨٤) .

ومن المعلوم أن ترجوم يوناثان — أي ترجمته — كان المعتمد الأكبر فيها على شروح الربانيين ولم تكن نقلاً مباشراً من نصوص التوراة .

ولا بد أن يلاحظ هنا أن الكنيسة السريانية التي يعيش أتباعها في بلاد الكلدان القديمة بين سورية والعراق ، والتي اشتهر آباؤها بدراسة السريانية — وهي الأرامية بعينها — لا تعتبر أن القصة ناشئة من غلطة في الترجمة وتقيم لنجاة الخليل من النار حفلا سنوياً في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني .

على أنه من الراجح جداً أن اليهود رجعوا إلى المصادر العربية في رواية قصص المدراش وما اليها ، لأنهم كادوا أن ينحصروا في بلاد الدولة العربية من صدر الاسلام إلى القرن الثالث للهجرة وكادت بحوثهم الفقهية في ديانتهم أن تكون اقتباساً من بحوث علماء الكلام المسلمين ، وكادت اللغة العربية أن تكون معتمدهم الوحيد في الثقافة العليا والثقافة العامة ، حتى كانوا يكتبون العربية أحياناً بحروف عبرية ، ولكن الاحتراس واجب على أية حال من تلك العلل التي يستند اليها بعض المستشرقين في نسبة الأخبار إلى المصادر العربية الاسلامية ، ومن أمثلة هذه العلل أن بعضهم يردّ إلى المصادر الاسلامية قصص المدراش التي تقول ان جبريل هدى ابراهيم إلى عين ماء يغتسل فيها قبل العبادة ، فان التطهير بالاغتسال قبل العبادة شعيرة قديمة في الأديان وليست مقصورة على الوضوء في الاسلام ، وقد قيل ان الصابئة محرّفة من السابحة لأنها تفرض الاغتسال في شعائرها قبل كثير من العبادات .. ولا بد من التفرقة بين المصادر العربية والمصادر الاسلامية في كثير من الروايات ، فقد يكون المصدر عربياً اسرائيلياً لا علاقة له بتاريخ الاسلام ..

* * *

ومن اشهر الروايـــات في النمروذ والخليل تلك القصة التي يعللون بها اختلاف الألسن بين الأمم، وخلاصتها ان النمروذ هذا أراد أن يتحدى اله ابراهيم فبنى له برجاً عالياً وصعد عليه ليناجز الله في سمائه ، ثم طفق يرمي السماء بالسهام حتى عاد اليه سهم منها وقد اصطبغ بالنجيع الأحمر ، فخيل اليه أنه أصاب مرماه ، ولكنه لم يلبث أن سقط على الأرض وسقط معه قومه، ونهضوا من سقطتهم وهم يتصايحون بكلام لا يفهمونه لأن السماء أرسلت عليهم سهاماً من الصواعق زلزلت البرج اوقوضت أركانه وتركتهم في بلبال حائرين لا يدرون ما يفعلون وما يقولون، ولا يفقه السامع منهم ما يقال له او يفعله في حيرته . قال الرواة : ولهذا سميت المدينة في موضع البرج « بابل » من تبلبل الألسنة والأفكار .

* * *

ويندر الاتفاق على أصل قصة واحدة من القصص التي تفيض بها كتب المدراش وحواشيها ، بل تروى الأسماء والأعلام أحياناً على روايات متعددة ، ومن ذلك أنهم يذكرون سارة باسم اسكاح Iscah ويقولون إنها مأخوذة من النظر ، ويوحدون بين اسم ابراهيم واسم ايثان الازراحي في المزمور التاسع والثمانين ، ويقولون ان داود كتبه بمشاركة الخليل .

وللتوحيد بين الاسمين هنا دلالة خاصة ، فان ايثان الأزراحي منسوب إلى زارح وينطق بهمزة في أوله على العادة في النطق بالساكن ، وقد تكون الحاء والياء للنسبة كما يقولون في (مزراحي) بمعنى مصري ، ويكون ايثان منسوباً إلى آزر ، وهو الاسم الذي ذكر في القرآن كما سيأتي بيانه في المصادر الاسلامية .

ومن الواجب أن يلتفت هنا إلى المقاربة بين زارح وزارع وتارح ، وقد تقدم ان لاسم تارح علاقة بحبوب الزرع التي تلتقط قبل تمكنها من التربة ..

فلا محل اذن لنقد الاسم كما جاء في القرآن الكريم ، اعتماداً على ذلك

الاختلاف اليسير في اللفظ القديم ، وقد ذكر يوسبيوس Eusobius المؤرخ المسيحي اليوناني أن أبا ابراهيم الخليل يدعى آثر ،وزعم بعضهم—ومنهم سنكلر تسديل ، صاحب كتاب مصادر الاسلام ، وهو من اشد المتعصبين قدحاً في الاسلام — ان للاسم أصلاً في الفارسية القديمة بمعنى النار ..

* * *

ومن الاختلاف في الأخبار المدراشية التي اتصلت بالتاريخ أن بعضها أنكر أن يقال عن الخليل انه عالم بالنجوم وردّ على الربيين الأقدمين الذين زعموا أنه كان يحمل في قلبه زيجاً فلكياً يكشف به الغيب لمن يسألونه من ملوك الشرق والغرب ، فقال صاحب مدراش رباه انه نبي وليس بمنجم ، واتصلت هذه الروايات المدراشية بالتاريخ فقال يوسيفوس المؤرخ الاسرائيلي المشهور إن الخليل درس علم النجوم ولكن في مصر لا في بابل واستند في ذلك إلى رواية ارتبانوس Artapanus الذي زعم أنه أقام بمصر عشرين سنة واطلع على أسرار الكهانة وعلم الفلك وطوالع النجوم ، وفي قصة أخرى لم يذكرها يوسيفوس يقال ان ابراهيم هو الذي علم المصريين الفلك والتنجيم .

ولكن كتب المدراش تتفق على وصف الخليل بالسماحة والكرم والعطف على خلق الله من الانسان والحيوان ، ومن أحاديثها في ذلك أن ابراهيم سأل ملكي صادق : كيف خرجت سالماً من سفينة نوح؟ فقال له: بالخير الذي فعلناه .

قال ابراهيم: وما الخير الذي تفعله في سفينته ؟ هل كان في السفينة من فقير تسدي اليه المعروف ؟ ان نوحاً قد حمل معه بنيه فهل كان فيهم فقير ؟

قال ملكي صادق : بل كان معنا الحيوان والطير وكنا لا ننام حتى نطعمها ونسقيها .

وقد عاش ابراهيم حياته يطعم الفقير ويحسن إلى الانسان والحيوان ، ويفتح بابه للضيفان ولا يجلس إلى الطعام إلا إذا نادى على الرائح والغادي في الطريق ليجلس معه إلى طعامه .

وما من علامة أدل على صدق النسب إلى ابراهيم من نظرة سليمة (لا تحسد) ونفس مطمئنة وقلب وديع .

وتذكر « مدراش رباه » فيما تذكر أن ابراهيم شفيع أمته يوم القيامة ، وأنه يقف على باب جهنم فلا يدع اسرائيلياً مختونا يدخلها . ومن عظمت سيئاته منهم وحرم التوبة في آخرته فلن يدخل النار مختوناً ، بل توضع له جلدة من جلود الأطفال الذين ماتوا قبل الختان ، وصحت لهم نعمة الغفران ..

* * *

أما (سارة) فقد خصتها (المشنا) بقسط كبير من الأخبار والنوادر ، ولم يخل منها خبر أو نادرة من خلاف كثير ..

فهي تارة أخت غير شقيقة لابراهيم ، وهي تارة بنت أخيه الذي مات قبل الهجرة إلى كنعان ..

وهي المرأة الوحيدة التي خاطبها الله ، وهي نبية تنظر إلى الغيب وتدعو الله أن ينقذ ذرية ابراهيم مما سيلقون من المحن والشدائد ، ولكنها في مواطن كثيرة تعاقب لمخالفة السنن وضعف اليقين .

ولم تخلق امرأة قط بجمال سارة . فأجمل النساء بالقياس اليها كالقرد الممسوخ .. وقد بلغ من فتنة جمالها أن ابراهيم لم يملأ منها عينيه ، وانما لمح خيالها في الماء وهم يعبرون بعض الجداول إلى مصر ، فخاف على فرعون وقومه فتنتها ، وحملها في تابوت وهم يعبرون تخوم الديار .

وسأله عمال المكوس عما في التابوت فأنبأهم أنه شعير .. قالوا بل نأخذ المكوس على قمح قال : خذوا ما تشاءون ، فعادوا يطلبون الضريبة على بهار ، فأجابهم إلى ما طلبوه ، فارتابوا فيما يخفيه وأمروه أن يؤدي الضريبة على وسق التابوت ذهباً فقبل وأعطاهم سؤالهم . فحيرهم قبوله كل ما يسومونه أن يبذله وخامرهم شك عظيم ، ففتحوا التابوت عنوة فاذا بالنور يفيض من وجه سارة حتى يعم الديار ويعشي عين فرعون .

ولما حاول فرعون أن يقترب منها رصد له حارسها من الملائكة فجعل يضربه على يده كلما بسطها ، وعلى قدمه كلما سعى اليها ، وأصبح فاذا هو مصاب بالجذام وبالعنة ، واذا بنذير من الله ليرسلن الوباء على فرعون وقومه ان لم يُرجع سارة إلى ابراهيم ..

ويفسر بعض المدراش عقمها بأن الله أحب أن يسمع صلواتها ، ويفسر عقمها في مدراش آخر بأنها قد نزهت عن خلقة الرحم ويروى في كثير من الحواشي أنها أرضعت مائة طفل يوم ختان اسحاق .

وبعض الحواشي يتكلم عن فرعون ابراهيم وفرعون يوسف كأنهما ملك واحد ..

فلما شكا فوطيفار إلى فرعون لأنه أقام عبده الذي اشتراه بعشرين ديناراً حاكماً على مصر – يعني يوسف الصديق – قال يوسف : بل أنت اقترفت خطيئة عظمى يوم اشتريت أميراً من نسل سام بالثمن كما يشترى العبيد ، وانما يُشترى بالثمن أبناء كنعان ، وإن أردت برهاناً على نسبي فدونك التمثال الذي صنعه فرعون لجدتي سارة ، فهو ينبئك بالشبه الذي بيني وبينها ، ثم جاءوا بالتمثال فاذا بالشبه بينه وبين يوسف جد قريب ..

والكلام على أبي سارة يدور تارة على حاران وتارة على تارح فمن أقوال الحواشي عن حاران أنه احترق بالنار حين اقترب منها ، لأنه قاربها ممتحناً لقدرة الله ، ومن أقوالها عن تارح انه عاش حتى رأى اسحق في الخامسة والثلاثين من عمره .

وأشهر الروايات عن تارح أنه كان مثالاً يصنع الأصنام ، وان ابراهيم اهتدى إلى ضلال هذه العبادة لأنه رأى أباه يصنعها ويصلحها ، وكان يبيعها لأبيه ، فعجب للذين يشترونها كيف يعبدون صنماً مصنوعاً بالامس ومنهم من جاوز الخمسين .

وكان لناحور – أخي ابراهيم – صنم يسمى زيوكس Zucheus وإلى جانبه صنم يسمى جوآف ، وأولهما مصنوع من الذهب والثاني مصنوع من

الفضة ، وأما الأصنام الأخرى فمن الخشب أو الطين .

وحاور ابراهيم أباه — وقد رأى الأصنام تحترق ذات يوم — فقال له : يا أبت ! ان النار أحق بعبادتك من أصنامك ، لأنها تحرقها ، ثم قال : « بيد أني لا أحسب النار إلهاً لأن الماء يخمدها ، ولا أحسب الماء إلهاً لان الأرض تبتلعه ، ولا أحسب الأرض إلهاً لأن الشمس تجففها وتنشر على الكون كله أشعتها ، ولا أحسب الشمس إلهاً لان الظلام يحجبها ، ولا أحسب القمر والنجوم التي تظهر في الظلام آلهة لأنها تحتجب عند طلوع النهار ، وانما الاله القدير على كل شيء هو خالق الشمس والقمر والكواكب والأرض وما عليها ، وخالقي وهاديني إلى الحق المبين . »

ولم يستمع اليه أبوه فذهب إلى أمه وسألها أن تعد طعاماً للاصنام ، ثم أهوى على الأصنام يحطمها ووضع القدوم في يد كبيرها ، وأسرع أبوه على صوت الحطام فسأله : ماذا دهاها ؟ قال : هذا أنحى عليها فكسرها ولا يزال القدوم في يديه ، فصاح به أبوه : انك لتكذب فما في وسع هذا الصنم أن يفعل ما زعمت ، قال ابراهيم : عجباً لك يا أبتاه ! تعبد هذه العجزة التي لا تقدر على ضرر ولا نفع ، ثم وثب على الصنم الكبير فأخذ القدوم من يده وضربه فألقاه ، وهرب من وجه أبيه .

ونختم الاقتباس من المرويات الاسرائيلية برواية الكتاب الذي يسمونه سفر التكوين الصغير ، وينسبون اليه الدقة في ايراد التواريخ بأرقام السنين والاعتدال في أسلوب الكلام على المبالغات والتشبيهات الوثنية ، ونعني به كتاب اليوبيل.

فهذا الكتاب يقول إن نوحاً عليه السلام توفي بأرض الكلدانيين سنة ١٦٥٠ قبل الميلاد ، وأن تيرحا أو تارحا أبا ابراهيم ولد سنة ١٨٠٦ وولدت زوجته « ادنا » ابنه ابراهيم سنة ١٨٧٦ وسماه « ابرام » على اسم أبي جدته لأمه واسمها ملكة ، وهذا بحساب السنين من تاريخ الخليقة .

* * *

وهذه الأخبار والنوادر تزدحم بها مئات الحواشي والتفاسير ، ومعظمها

مسطور في المجلدات السبعة التي جمعت أساطير اليهود وسبقت الاشارة اليها ، وكل ما عداها فهو من قبيلها .

وحقيقتها التي نخرج بها منها جميعاً أنها مرويات متواترة بالسماع ، يتناقلها الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ، ولا يظهر فيها الاعتماد على النصوص المكتوبة ولا سيما نصوص التوراة ، لأنها تخالف هذه النصوص وتناقضها أحياناً ، وبينها ولا شك روايات متأخرة في تصورها وروايتها ، ولكنها تبنى على قديم ثابت ولا تخلق شيئاً من لا شيء ، فلا بُد وراءها من أصل منقول غير الأصل المكتوب ، وليست نصوص العهد القديم هي الأصل الوحيد الذي تدور عليه هذه الحواشي والتعليقات .

المراجع المسيحية

المصادر المسيحية المتفق عليها بين الكنائس هي الأناجيل الأربعة وما يلحق بها من أقوال الرسل والحواريين ، وهي المعروفة بالعهد الجديد ..

وهذه الكتب لم تزد شيئاً على سيرة الخليل كما جاءت في سفر التكوين وبعض كتب العهد القديم ، ولكنها جاءت بتطور هام في دعوته كما تلقاها اليهود في عصر الميلاد ، ويبدو هذا التطور الهام في مسائل ثلاث من كبريات المسائل الدينية ، وهي مسألة الحياة بعد الموت ، ومسألة الوعد الالهي للشعب المختار وعلاقته بالقومية أو الانسانية ، ومسألة الشعائر وعلاقتها بالروحانيات والجسديات .

ففي عصر الميلاد كانت طائفة كبيرة من اليهود وهي طائفة الصدوقيين تنكر القيامة بعد الموت ولا ترى في الكتب الخمسة دليلاً واضحاً عليها ، وكانت الطوائف الأخرى تؤمن بالثواب والعقاب على الجملة ولكنها لا تتوسع في وصفهما ولا ترجع في هذا الوصف إلى سند متفق عليه .

وكانوا اذا وصفوا سوء المصير عبروا عنه بالذهاب إلى الهاوية(شيول) واذا وصفوا الرضوان قالوا عن الميت انه انضم إلى قومه ، أو اجتمع بقومه ، وفي أذهانهم صورة غامضة عن وجود هؤلاء القوم في عالم غير عالم الحياة الدنيا ..

وانتشرت بين أهل فلسطين من اليهود وغيرهم عقائد المصريين في اليوم الآخر ، لأنهم كانوا يترددون على الاسكندرية ، كما كان أهل الاسكندرية يترددون عليهم ، ولم تكن في العالم معاهد للثقافة والبحث أكبر من معاهدها ،

غير مستثنى من ذلك رومه ولا أثينا ولا المدن الشرقية التي كان لها قبل ذلك شأن مذكور في العلم والفن والحكمة .

وانتشرت بينهم كذلك عقائد الفلاسفة اليونانيين في خلود الروح والتمييز بينها وبين الأجساد التي يعرض لها الفناء .

فلما ظهرت الدعوة المسيحية جاءت بوصف للعالم الآخر لم يكن معهوداً في كتب اليهود ، ولكنه وصف لا سبيل لهم إلى الاعتراض عليه ، لأنه قائم على قاعدة من دعوة ابراهيم .. ففي مسألة الحياة بعد الموت ضرب لهم السيد المسيح مثل ابراهيم والعازر والرجل الغني في العالم الآخر فقال :

« كان انسان غني يلبس الارجوان والبز وينعم كل يوم في رفاهة ، وكان عند بابه رجل مسكين مطروح مضروب بالقروح يشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدته ، بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه ، فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن ابراهيم ، ومات الغني ودفن فرفع عينيه في الهاوية وهو يتعذب ، ورأى ابراهيم من بعيد والعازر في حضنه ، فنادى وقال : يا ابراهيم ! ارحمني ، وارسل العازر ليبل طرف اصبعه بماء ويبرد لساني ، لأني معذب في هذا اللهب .

« فقال ابراهيم : يا ابني ! اذكر انه استوفيت خيراتك في حياتك واستوفي لعازر بلاياه ، والآن هو يتعزى وأنت تتعذب ، وفوق هذا بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت ، حتى ان الذين يريدون العبور من هاهنا اليكم لا يقدرون ، ولا الذين من هناك يجتازون الينا ، فقال : أسألك اذن يا أبت ان ترسله إلى بيت أبي ، لأن لي خمسة اخوة يشهد لهم لكيلا يأتوا هم ايضاً الى موضع العذاب هذا .

« قال له ابراهيم : عندهم موسى والأنبياء ليسمعوا منهم ، فقال : لا يا أبي ابراهيم ، بل اذا مضى اليهم واحد من الاموات يتوبون . فقال له : ان كانوا لا يسمعون من موسى والانبياء فمن قام لهم من الاموات فما هم بمصدقيه [1] » .

---

(١) انجيل لوقا الاصحاح السادس عشر .

والشراح يقولون ان هذه العظة يجوز أن تكون خبراً ويجوز أن تكون مثلاً ضربه لهم السيد المسيح من قصة معروفة لديهم ، ويقول لوثر كلارك Lowther Clark شارح التوراة والانجيل ان اسم العازر « اليعازر » معناه « ايل آزر » أو الله أعان ، وأنه من الأسماء التي قد تطلق على المجهولين عند ضرب الأمثال (كما نقول في اللغة العربية زيد وعمرو وبكر وخالد) وقد سبق مثاه في كلام ابراهيم عن خدام داره .. قال : وان في مأثورات مصر قصة شبيهة بها عن مصير المحسن والمسيء يجوز أن تكون معروفة بين يهود فلسطين ولم يذكر اسم علم قط في مثل من أمثلة السيد المسيح غير هذا المثل .

وأيا كان المعتمد من أقوال الشراح فلا خلاف بينهم على أمر واحد ، وهو وصف الحياة الأخرى وما فيها من الثواب والعقاب بهذه الصفة ، فانه معنى جديد لم يسبق له مثيل في كتب العهد القديم ، واذا استثنينا كتاب المكابيين — وهو من الكتب المختلف عليها — فلم تأت عبارة حضن ابراهيم أو غيره من الأنبياء بهذا المعنى في كتاب من كتب التوراة .

قال « جورج ستمبسون » Stimpson في مصنّفه الذي سماه « كتاب عن الكتاب » :

« كان رجاء الحياة بعد الموت مقصورا في أيام العهد القديم على البعث الذي سيعقب ظهور المسيح ، ولكن الكلام عن السماء والجحيم وحضن ابراهيم كان شائعا على عهد عيسى (عليه السلام) بين طوائف من اليهود ، ومن ثم مثل الغني والعازر في انجيل لوقا ، وفيه يقول عيسى : فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن ابراهيم . ومن هذه العبارة أصبح حضن ابراهيم مرادفاً لمعنى النعيم أو السماء » .

وقد ورد في سفر أيوب أن نفسه سترى الله بغير الجسد حيث يقول في الاصحاح التاسع عشر « وبعد أن يفنى جلدي هذا ، وبدون جسدي ، أرى الله » . . وورد في المزمور السادس عشر « أنك لن تترك نفسي في الهاوية » . . وورد في الاصحاح الثاني عشر من سفر دانيال : « وكثيرون

من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار ... »

ولكن ورد في سفر التكوين أن الهاوية مصير جميع الموتى ، وجاء على لسان يعقوب في الاصحاح السابع والثلاثين ، وهو يبكي على يوسف : وقال : إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية » .

وهكذا جاء على لسانه في الاصحاح الثاني والأربعين : « تنزلون شيبتي بحزن إلى الهاوية » .

وجاء على لسان أيوب في الاصحاح الرابع عشر « ليتك تواريني في الهاوية وتخفيني إلى أن ينصرف غضبك وتعين لي أجلاً فتذكرني » .

وانما يأتي البعث من القبور بعد ظهور المسيح كما جاء في الاصحاح السابع من سفر دانيال : « والمملكة والسلطان ، وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قديسي العلي » .

وكل ما ورد في العهد القديم باسم جهنم فهو في الاصل العبري باسم شيول أو الهاوية .

أما عقيدة الحياة بعد الموت للأبرار والأشرار فقد وضحت في عصر المسيح على نحو لم يكن معروفا قبله ، ولم يكن المفهوم في ذلك العصر أن الأبرار يذهبون فعلا إلى صدر ابراهيم ، وانما كان المقصود أن ابراهيم يرحب بذريته في عالم الرضوان .

* * *

ومن العقائد التي ظهرت مع المسيحية أن رسالة ابراهيم روحية وليست جسدية ، وأن المقصود بذريته من يسيرون على نهجه ويعملون بوصيته ، فهي رسالة انسانية وليست عصبية مقصورة على قوم من الأقوام ..

ففي الاصحاح الثامن من انجيل متى يقول السيد المسيح :

(الحق أقول لكم لم أجد في اسرائيل ايمانا بمقدار هذا ، وأقول لكم

إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحق ويعقوب في ملكوت السماوات واما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية ..)

ومثل هذا في كلام يحيي المغتسل — أو يوحنا المعمدان — (.. اصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم : لنا ابراهيم أبا ، لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لابراهيم) .

وتكرر هذا المعنى من كلام السيد المسيح في انجيل لوقا حيث جاء في الاصحاح الثالث عشر :

« اني أقول لكم إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون من بعد أن يكون رب البيت قد قام وأغلق الباب وابتدأتم تقفون خارجاً وتقرعون الباب قائلين : يا رب ! يا رب افتح لنا .. يجيب ويقول لكم : لا أعرفكم من أين أنتم .. تباعدوا عنا يا جميع فاعلي الظلم . هناك يكون البكاء وصرير الاسنان ، متى رأيتم ابراهيم واسحاق ويعقوب وجميع الانبياء في ملكوت الله وأنتم مطروحون خارجا ، ويأتون من المشارق ومن المغارب ، ومن الشمال والجنوب ، ويتكئون في ملكوت الله ، وهو ذا آخرون يكونون أولين وأولون يكونون آخرين » .

وفي الاصحاح الثاني من انجيل يوحنا أن المسيح قال لليهود الذين آمنوا به : « انكم ان ثبتُّم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي وتعرفون الحق والحق يحرركم » فأجابوه : اننا ذرية ابراهيم ولم نستعبد لأحد قط ، فكيف تقول أنكم تصيرون أحرارا ؟ قال : الحق الحق أقول لكم : ان من يعمل الخطيئة فهو عبد للخطيئة ، والعبد لا يبقى في البيت أبدا . أما الابن فيبقى إلى الابد .

ثم قال : لو كنتم أولاد ابراهيم لكنتم تعملون أعمال ابراهيم ! ..

وقال بولس غير مرة إن الختان لا يجعل الانسان ابناً لابراهيم وانما

أبناؤه من يسلكون في خطوات الايمان ، وان ابراهيم « أب لنا جميعاً والله جعله أباً لأمم كثيرة » .

كما جاء في رسائل بولس إلى أهل رومية « لأن الكتاب يقول : ان كل من يؤمن به لا يخزى ، ولا فرق بين اليهودي واليوناني ، لأن رباً واحداً للجميع » .. « وان حكم الناموس يتم بالروح لا بالجسد » ... « وان اهتمام الجسد موت ، وأما اهتمام الروح فهو الحياة والسلام » .

* * *

وتوسع الشراح المحدثون في التعليق على أقوال بولس الرسول و أمثالها فقال الدكتور جورج دنكان Duncan في أحدث تفسيراته لرسالة بولس إلى أهل غلاطية « مما له بعض المغزى أنه في حين أن قصة ختان ابراهيم تقوم على المصدر المتأخر لكتب التوراة الخمسة الذي نسميه بنسخة الكهان ، فان معظم قصص ابراهيم .. ترجع إلى مصادر نسخة يهوا وألوهيم التي تقترن بتعاليم الأنبياء الأولى ، وهي تشف عن نزعة دينية لا تخالف الشرعيات التي برزت خلال فترة النفي وحسب ، بل تناقضها ، ولا جرم تنزل هذه القصص منزلة الرضا والاعجاب عند اليهود الذين كانوا في الأزمنة المتأخرة لا يعطفون على منهج الشرعيين ، ومن ثم كان الفيلسوف فيلون الاسكندري المشهور بالتوفيق الكبير ، ويبدو في الاصحاح الحادي عشر من الرسالة الى العبرانيين أنه كان في ذلك الحين اتجاه مستعد في بعض البيئات لاعتبار حياة ابراهيم كلها دائرة حول الثقة بالغيب » .

يريد الشارح الحديث بالتوفيق الذي اشتهر به الفيلسوف فيلون توفيقه على الخصوص بين مذهب الروحيين المتعلقين بالايمان ووجدان النفس وبين الشرعيين أو الكهان الذين كانوا يتشددون في المراسم والشعائر وكل ما يعتمد في القيام به على الكهانة والوظائف الهيكلية ومنها الختان وأعمال الطهارة والكفارة ، وهذه هي الشعائر التي كان كهان اسرائيل يحرصون عليها في منفاهم ببابل ، ابقاء على معالم العبادة الاجتماعية ، وخوفا من

نسيانها واندثارها اذا وكل الأمر كله إلى عقائد الوجدان في نفوس الآحاد متفرقين ، وقد كان فيلون مطلعاً على نسخ التوراة الأولى ، ومنها نسخة يشير فيها سفر التكوين إلى ابراهيم باسم الخليل قبل أن تعرف هذه التسمية في كتب الأنبياء .

وقد نقل بولس بعض الشعائر من المدلولات الحسية إلى المدلولات النفسية الرمزية وانفتح الباب واسعاً لهذا التحول منذ قال السيد المسيح إن أعمال الانسان هي التي تطهره أو تنجسه ، ثم مضى بولس في هذا الطريق على الرغم من معارضة بطرس وزملائه ، لأنه أدرك ان اشتراط الختان ومراسم البيع والهياكل لقبول الوثنيين في الدين الجديد عائق شديد يوشك أن يصدهم جميعا عن الاصغاء اليه ، وقد انتهى الأمر في القرون الحديثة إلى اسقاط هذه المراسم في مذهب اليهود الذين سموا أنفسهم بالأحرار أويهود الاصلاح وشاع مذهبهم منذ القرن التاسع عشر بين اليهود الغربيين .

وتتابعت تفسيرات الآباء للشعائر الجسدية بالرموز النفسية من القرن الأول للميلاد ، فأخذ بها معظم الكنائس الشرقية والغربية وفيما يلي مثال من تفسيرات هذه الرموز منقول من كتاب الدر الثمين في شرح سفر التكوين [1] .

« ان الخطيئة هي غلفة النفس ، فاذا نحن تعمدنا ختن روح القدس تلك الغلفة التي جعل الله غلفة اللحم اشارة اليها . وانما غلفة اللحم اذا اختتنت لا يمكن عودتها ، واما هذه الغلفة التي هي الخطيئة فاذا ختنها روح القدس يوم المعمودية وطهر الانسان منها فالشيطان يعود فيقاتله بها فينبغي له ان يقاتله دائما ولا يفعلها »

الى ان يقول : «أما قول الله لابراهيم ان ملوكا تخرج منك فليس بملوك ارضية يمتدح الله ويفخر ، ولو كان ذلك لكان للكفرة فخر كبير لكثرة

---

(١) طبع سنة ١٨٩٥ بمصر ونقل من نسخة خطية كتبت سنة ١٤٠٩ قبطية البطرق وتصديره .

الملوك منهم بل في الوقت الذي امره الله بالختان قال له : ان ملوكا تخرج منك، وحقق ذلك ان الذي يختتن الختانة الروحانية المتقدم ذكرها فعقله يكون ملكا وحاكما على أفكاره وعلى شهواته ولذاته ..»

* * *

وظلت أخبار التلمود والمدراش عن ابراهيم شائعة بين المسيحيين كما كانت شائعة قبل الميلاد، لأنهم يرجعون الى العهد القديم وشروحه وتفسيراته ، ولكنهم اعتبروا أن بشائر ابراهيم كلها مرهونة بظهور المسيح الذي يكون الخلاص على يديه ، ومن أجل المسيح تلقى ابراهيم تلك البشائر من الله ، فانتشرت الكرامات والمعجزات التي نسبت الى الانبياء والآباء قبل الميلاد انتشارا كبيرا في صدر المسيحية وزمنا طويلا بعد نشأتها الاولى الى ما بعد القرون الوسطى ، وجعل الرواة المسيحيون يلحقونها بمعجزات المسيح ويحسبونها مقدمة لا تتم الا بنتيجتها الموعودة ، وهي دعوة المسيح الى النجاة .

وعمد بعضهم الى تفسير كتب العهد الجديد بهذه العقيدة في أقوال غير معتمدة ولكنها سرت بين السواد والعلية كما سرت من قبل تفسيرات العهد القديم ..

فمن أمثلة ذلك عبارة وردت في رسالة بطرس الاولى حيث يقول في الاصحاح الثالث :

«ان المسيح أيضا تألم مرة واحدة من أجل الخطايا .. مماتا في الجسد محيي في الروح [1] وبالروح أيضا ذهب فوعظ الارواح التي في السجن . اذ عصت قديما حين كانت اناة الله تنتظر مرة في أيام نوح »

فبنى بعضهم على هذه العبارة قصة لا يعتمدها المفسرون الكتابيون وقالوا في تفسيرها ان السيد المسيح هبط الى الهاوية — سنة ثلاث وثلاثين للميلاد —

---

(١) يقول الدكتور وندل هاريس **Harris** ان كلمة اخنوخ حذفت من نسخة قديمة في هذا الموضع ، ويكون اخنوخ على هذا هو الذي وعظ الارواح .. تراجع ترجمة Moffat طبعة سنة ١٩٥٠ صفحة ٢٩٥ .

وأطلق منها أرواحا صالحة ذهبت اليها قبل بعثته ، ولم تكن لها جناية تعاقب عليها ولكنها كانت في حاجة الى التطهير بماء العماد لتدرك نعمة النجاة ..

وسرت هذه القصة من السواد الى العلية من أمثال الشاعر الايطالي الكبير دانتي اليجيري صاحب الكميدية الالهية ، فقال في القصيدة الرابعة من الحوار بينه وبين الشاعر الروماني القديم (فرجيل)قائده في طبقات الهاوية :

«لم تكن ثمة شكاة تسمع الا الانين الذي يهز الاجواء الابدية ، وكان ينبعث من تلك الاحزان التي لا عذاب فيها : أحزان الجموع المتكونة من الاطفال والنساء والرجال . فقال لي أستاذي : انك لم تسأل عن هذه الارواح التي تراها هنا . وأود أن أعرفك بها قبل أن نتقدم في طريقنا

«انها لم تخطىء ، وكان لها فضل ، ولكنه لا يغنيها لحاجتها الى العماد وهو الايمان الذي أنت به تدين ..

«فانها تقدمت عصر المسيح فلم تعبد الله على سواء ، ومن هذه الارواح كنت المتحدث اليك ..

«ولهذا النقص – لا لنقص غيره – ضاعت أرواحنا ، وكل ما نقاسيه من الجزاء ضيق الحاجة بغير رجاء ..

«فغشي قلبي حزن عظيم عند سماعه ، لانني أعرف اناسا ذوي فضل كبير معلقين في تلك الطبقة ..

«وقلت له : أخبرني يا أستاذي . أخبرني . وأردت اليقين من هـذا الايمان الذي يغلب كل خطأ : ألم يخرج من هذا المكان أحد خرج منه بفضله أو بفضل غيره وأدركته النجاة بعد خروجه ؟

«وفهم طوية كلامي فأجابني قائلا : «لقد كنت هنا حين لمحت قادما جليلا عليه أكليل النصر ، فاذا هو قد بدا فأخذ في الظل أبانا الاقدم – آدم – وابنه قابيل ونوحا وموسى المشترع المطيع ،ثم ابراهيم الاب وداود الملك، واسرائيل وأباه وبنيه ، ومنهم راحيل التي صنع من أجلها الكثير وأخرج

غيرهم ، وباركهم ونجاهم ، واعلم أن أحدا قبل هؤلاء لم يكن نبيا »

وبهذه الصبغة وما شابهها سرت أخبار العهد القديم وتفسيراته بين المسيحيين ، ثم تفرّق رأي الكنائس المسيحية في النظر الى العهد القديم ، فمنها ما يعتبره وحيا منزلا بجميع تفصيلاته ، ومنها ما يقصر الوحي على كتب الشريعة وهي الكتب الخمسة التي تعرف بكتب موسى ، ومنها ما يعتبره كله أخبارا تاريخية أو وقائع مروية في صيغة شعرية .

وعلى حسب النظر الى هــذه الكتب يختلف النظر الى ابراهيم من حيث اعتقاد العصمة أو الخطيئة .

فمن اتباع الكنيسة الانجيلية من ينقد مسلك ابراهيم حين قال ان سارة أخته ولا يبالي أن يصرح بالنقد في كتب التدريس كما فعل الأستاذ وليام نكلسون حيث قال في موسوعته الموجزة عن التوراة تحت مادة ابرام :

«إن مسلك ابرام هنا هو أحد المواقف التي تميل الى اسدال الستار عليها في سيرة هذا الرجل الجليل . لقد كان عملا لا يوائم مقام تلك الشخصية العظيمة . ولا جرم ففي وجه الشمس سفعات ، ومثل هذا دليل على صدق تاريخ الكتاب وأن مؤرخيه لم يستروا نقصا قط في أحسن الناس (١) »

ومن شراح الكنائس الأخرى من لا يلوم ابراهيم على هذا المسلك ويشيد به لأنه أسلم نفسه الى مشيئة الله وأيقن أنه لن يخذله ولن يصنع ما يعاب ، فهو آية على ايمانه وغلبة الثقة بتدبير الله على وساوس الخوف والريبة في نفسه .

ويتوسط بعضهم بين النقد والاعجاب كما فعل الدكتور جويلبود Guillebaud فيقول :

«ان هذه الخطايا سجلت بأيدي فاعليها وبرضاهم وموافقتهم ، وحفظها أبناؤهم وذراريهم من بعدهم . فلم كان ذلك ؟ إن شيئا من هذا لم يسجل على ملوك بابل ومصر ، وتكاد سيرتهم أن تبدو كاملة نقية من العيوب ، وقد

(١) Bible Student's Companion

محيت من تلك الصور كل وصمة وجليت فيها كل زينة . ولكن من يا ترى من ذوي العقل السليم بعد هذا يود أن يتبع مثال رمسيس أو نبوخذنصر كما يود المسيحيون أن يدرسوا حياة ابراهيم ويعقوب وداود ؟ إن العلة غير بعيدة المنال . فان أبطال العهد القديم اناس حقيقيون لهم حس كحسنا وشعور كشعورنا ، وسيرتهم صادقة الخبر وعيونهم سافرة للنظر ، فمن هدف السيرة الامينة يستطيع القارىء أن يبصر النذير ويتقي مثل هذه السقطة ، ويغنم مع هذا شجاعة والهاما من قدوة الايمان المنتصر في تلك السير .. »

* * *

وكذلك تبدو لنا صورة الخليل كما تمثلت في المراجع المسيحية من كتب العهد الجديد ومن المرويات الشعبية التي تناقلتها الألسنة وسرت الى كتب الأدب ذات الصبغة الشعرية الى ما بعد القرون الوسطى .

وقد عنيت المراجع المسيحية في العصر الحديث بناحية من تاريخ الخليل أهم من تلك المرويات الشعبية في نظر القارىء العصري وهي الناحية التاريخية .

فالمراجع المسيحية تشغلها هذه الناحية التاريخية في القرن الأخير بعد أن شاعت بدعة الشك في وجود أقطاب الأديان ، وفي مقدمتهم ابراهيم وسلالته الأولون ..

وليست الناحية التاريخية عامة هي التي تعنينا في هذا الباب لأننا سنفرد لها بابا خاصا يدور على الكشوف الحفرية والبحوث المتقابلة في أقوال المؤرخين المحدثين .

ولكن الناحية التاريخية التي نعنى بها في هذا الباب — باب المراجع المسيحية — هي الناحية التي تفرغ لها الدارسون ليلحقوها بالكتب الدينية وشروح العهدين القديم والجديد ، فهي مقصورة على هذه الناحية ، ومحورها الغالب عليها هو المضاهاة بين تواريخ الكتب الدينية والمواقيت التي اتصلت بها من تواريخ الأمم الغابرة .

* * *

فمن أحدث هذه المراجع كتاب «موجز التعليقات الحديثة على الكتاب » من تأليف نحو ثلاثين عالما من علماء اللاهوت في انجلترا ، وكلهم من المطلعين على كشوف الآثار التي لها علاقة بتواريخ التوراة والأناجيل .

يذكر المؤلفون في الفصل الذي عنوانه «العالم في أيام ابراهيم » أن لوحا من الألواح التي كشفت بمدينة أور قد وجد عليه نقش باسم «ابراما »يرجع على ما يظهر الى زمان سابق لزمن ابراهيم ، ومن هذه الكشوف لوح آخر منقوش عليه شريعة حمورابي وفيها أحكام مماثلة لأحكام الشريعـــة الموسوية ، ومع هذه الكشوف ألواح كتبت عليها جداول للضرب ومعجمات للمفردات اللغوية وسجلات لأنظمة الحكومة وأسانيد بما وصل الى الهياكل من حساب القرابين . فقد نشأ ابراهيم اذن في مدينة ليست بالهينة والعالم يومئذ قديم ..

ويشيرون في هذا الفصل الى نقوش كشفت على جدار قبر من القبور الأثرية بقرية بني حسن بمصر يرجع تاريخها الى سنة ٢١٠٠ قبل الميلاد أو نحوها ،وبين تلك النقوش صورة قافلة مؤلفةمن سبعةوثلاثين من الساميين بقيادة أبيشوا Abichua يحملون بضائع بلادهم ليستبدلوا بها غلة مصرية. (صفحة٨٥)

وأشاروا الى كلمة «عبري» ومعناها ، فقالوا انها وجدت في آثار « رم سن » سلف حمورابي ، كما وجدت في نص من النصوص البابلية التي كشفت في بلاد الحيثيين الأقدمين من آسيا الصغرى– وتسمى اليوم بوغاز كوي– ووجدت كذلك في نصوص حورانية عند بلدة توزي بالعراق وكان لها معنى أعم من معناها الخاص بعد ذلك بأنباء اسرائيل ، ويفهم منه أن الكلمة كانت مرادفة لكلمة الجنود الرحل الذين يستأجرهم قادة الجيوش ..

قالوا : وان عاصمة الحيثيين التي رفعت عنها الانقاض سنة ١٩٠٦ قد كشفت فيها ألواح بالخط المسماري دلت على مفتاح اللغة الحبشية ، وأن الحيثيين كانوا يتكلمون لغة هندية جرمانية على مشابهة باللاتينية ، وقد نزحوا من الشرق الى آسيا الصغرى وامتدت دولتهم شرقا الى الفرات وجنوبا الى قادش، وهم بنو«حث» الذين أشار اليهم ابراهيم في الاصحاح الثالث والعشرين

من سفر التكوين اذ يقول: « وكلم بني حث قائلا: أنا غريب ونزيل عندكم، اعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي »..

وقالوا: ان أسماء الملوك التي وردت في الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين قريبة من بعض الأسماء التاريخية، فاسم امرافل قريب من اسم حمورابي البابلي وتدعال قريب من تدخاليا الحثي والأسماء الأخرى وجدت لها مشابهات من هذا القبيل، ولكن لا يوجد الدليل القاطع على وحدة المسمى..

وكان الرعاة أو الهكسوس (هاك شاسو) يحكمون مصر من الأسرة الثالثة عشرة الى الأسرة السابعة عشرة، وفي هذه الفترة حدثت هجرة الآباء العبريين الى الديار المصرية.

ومن كتب التعليقات كتاب كالذي تقدم في موضوعه، الا أنه أوسع شرحاً وأحدث عهدا — لأنه طبع طبعته المنقحة سنة ١٩٥٢ — وعنوانه « تعليقات موجزة على الكتاب »، ومؤلفة جوزيف انجوس Angus من أكبر فقهاء اللاهوت.

يقول مؤلف هذا الكتاب « ان الآثار تحتمل أن أمرافل — الذي حارب ابراهيم — هو حمورابي الذي كان ملكا على بابل سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، والحفريات المسمارية تربط بين اسمه واسم معاصره « أري آكو » .. في حين أن كدلعومر يشابه قدار لعمار بمعنى خادم لعمار أحد الأرباب الكبار في شرق الدجلة السفلي، واسمه منقوش على حجر من ألواح حمورابي، وكان هذا قبل ارتباط أرض اسرائيل ببلاد شنعار بعدة قرون.

قال المؤلف: وكانت مصر عند هجرة ابراهيم ثم هجرة يعقوب وآله، خاضعة لحكم الرعاة المكروهين الذين تسلطوا على مصر أكثر من خمسمائة سنة، ومن ثم كان الترحيب بابراهيم ثم الترحيب بيعقوب واقطاع قومهم أرضا في البلاد ..

قال: وفي عصر ابراهيم كانت في أرض فلسطين الجنوبية جالية من الحيثيين، ولكن عاصمتهم كانت الى الشمال تمتد كما جاء في كتب العهد القديم من لبنان الى الفرات.

وقال عن « أور الكلدانيين » مدينة ابراهيم انها كانت في الموضع الذي يسمى الآن المقير على الفرات الادنى ، ولم تكن في أورفة كما خطر لبعضهم من قبل لتشابه اللفظ بين أورفة وأور .

وتقول تعليقات ابنجدون Abingdon التي اشترك في تأليفها نحو سبعين عالما من علماء التاريخ الديني والتوراتي :

« على حاشية الهلال الخصيب انتشرت خلال الفترة التاريخية جماعات من القبائل الرحل تشتغل بالصيد تارة وبالغارات تارة أخرى وبالمرعى بين هذا وذاك ، وهم الذين نسميهم في الزمن القديم بالاراميين ، ومع استحالة الحياة المستقرة على الزراعة أو التجارة أو تقسيم الحقول وسكنى المدن في ظل ذلك النظام الاجتماعي – يميل القوم إلى تجميع أنفسهم في جوار مركز من مراكز الحضارة يعاملونه ويتجرون معه وقد يتصلون معه ببعض الصلات السياسية ..

« وفي وسع أمثال هؤلاء القوم أن يعيشوا على انتاج قطعانهم وصيدهم . ولكنهم غالبا ما يعتمدون على صلتهم بالمدينة – كما يحدث اليوم في الجزيرة العربية – لتحصيل غلات الحقل ومصنوعات المعمل بالمقايضة على مقتنياتهم ..

« ان تاريخ العبريين الرسمي يبتدىء بقبيلة من هذه القبائل سكنت إلى جوارمدينة أور في جنوب العراق ، وعند نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد هاجر فريق منهم إلى الشمال بقيادة رئيس يسمى تارح ، كما جاء في الاصحاح الحادي عشر من سفر التكوين .

« وربما كان من أسباب هذه الهجرة اضطراب سياسي في جنوب العراق ، أصابت جرائره معيشة أهل أور ، ولعل هذا الاضطراب قد نشأ من تحول السيطرة السياسية من المدن العراقية إلى قبائل عيلام ، فلم تستقر عليه أحوال المعيشة والتجارة في مدينة أور ، وهذا الفرض يرجع بالحركة إلى ما بين سنة ٢٣٠٠ وسنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكيفما كانت الحقيقة ، فالهجرة قد حصلت ونزل القوم فترة بجوار حاران إلى شمال الهلال الخصيب .

« ومما يستحق الملاحظة أن كلا من أور وحاران كانت في القدم مركزا لعبادة الاله — سن — اله القمر من معبودات الساميين ، وسيلقانا اسمه مرة أُخرى في شبه جزيرة سينا .

« وظلت طوائف من القبائل تترحل غربا وجنوبا ، حيث صادف بعضها أرض المرعى والزرع وادي الفرات والاقاليم الجبلية المخصبة ، فاستقروا في مدن أشهرها دمشق ، ومضت طائفة أخرى بقيادة ابرام بن تارح (وابن قد تكون هنا بمعنى سليل) إلى ان استقر بها السير البطيء عند فلسطين وهي يومئذ في ظل حكومات المدن المتفرقة ، ولم تزل الهجرة في مجراها تارة إلى غرب الاردن وتارة إلى شرقه ، وحينا من دمشق وحينا من شرقها إلى الحدود المصرية ، وخلال ذلك تمر بنا قصة عن علاقة مباشرة بين مصر وهؤلاء البدو ، وأخبار عن العلاقات بين الاباء العبريين وسكان كنعان المستقرين » .

ثم يسترسل كاتب التعليقات فيقول ان بعض العبريين وصل في هجرته إلى أرض جاشان بمصر ، ويرجح أن دخولهم لأول مرة كان على عهد دولة الرعاة أو الهكسوس ، بين القرن الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد على وجه التقريب ..

وترجح تعليقات هـالي Halley الجيبية أن أمرافل هو حمورابي أشهر ملوك البابليين ، وأن كارثة سدوم وعمورة التي حدثت في عصر ابراهيم تقترن بالخراب الذي قضى على سكان المدن هناك حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد كما ظهر من كشوف بعثة البرايت وكيلي Albright and Kyle سنة ١٩٢٤ .

ويضع هالي للحوادث المصرية مقابلا من حوادث التوراة ، فيضع عصر ابراهيم مقابلا الأسرة الثانية عشرة سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ، وعصر يوسف مقابلا للأسرة السادسة عشر ة سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد ، على سبيل الاحتمال ، وعصر موسى مقابلا للاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بين سنتي ١٥٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميلاد ، وتظهر الغرابة في تقديرات هالي ومدرسته عند الرجوع إلى عصر ابراهيم وعصر يوسف وبينهما في تقديره نحو ألف

ومائتي سنة ، والمعلوم أن يوسف بن يعقوب وأن يعقوب ابن اسحاق ابن ابراهيم ، وهذا مع اعتماده أحيانا على نقوش الآثار وحسبانه أن وفد الساميين الموسوم على مقابر بني حسن ، قد يكون وفد ابراهيم على الفرعون سنوسرت الذي يظن أنه كان على عرش مصر في ذلك الحين .

ومن أصحاب التعليقات التوراتية المعروفين بالتحرج في التقدير لوثر كلارك Clark صاحب التعليقات التي تقع في ألف صفحة كبيرة وتجمع من أطراف المعلومات ما لم يجتمع في مرجع آخر بمثل حجمها (١) .

فهذه التعليقات تضع عصر حمورابي حوالي سنة ١٩٠٠ ق . م وعصر الآباء العبريين في كنعان بين سنتي ١٩٠٠ و ١٧٠٠ ق . م وعصر يعقوب وأبنائه في مصر حوالي سنة ١٧٠٠ ق . م . ، ونهاية عصر الهكسوس حوالي سنة ١٥٥٠ ق . م .

ويرجح كلارك — اعتمادا على الآراء الحديثة — أن عصر حمورابي متخلف عن عصر الوقائع التي تنسب إلى امرافل بمائة سنة أو أكثر ، وأن امرافل وحمورابي لا يدلان على شخص واحد ، وان الغور العميق الذي تملأه أمواه البحر الميت أقدم جدا من الوقت الذي قدر لخراب المدن المذكورة في قصة ابراهيم ، ويتساءل : ما هو الباعث الذي أتى بالملوك الخمسة إلى الأردن جنوبا قبل مواجهة أعدائهم الذين يحاربونهم ، وهو لا يستبعد أن يكون جيش من البابليين والعيلاميين معا قد زحف على جهات في ذلك الموقع لارغام القبائل على أداء الجزية أو الضريبة التي تفرض على رؤوس القبائل .

ويعتمد كلارك على الظواهر الأرضية (الجيولوجية) كثيرا فيرى أن العيون الحمر التي أشار اليها الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين هي في الغالب من النفط الذي يتكاثف بالتبخر ويطفو على الماء كما كان يحدث على سطح البحر الميت ، ولا مانع أن يشاهد على وجه الأرض قبل امتلاء الغور بالماء ، ويرتبط خراب المدن التي وردت قصتها في سيرة ابراهيم

---

(١) Concise Bible Commentary

بهذه الظواهر الأرضية التي يمكن أن تستقصى في يوم قريب ، فيبنى على استقصائها تحقيق محكم لتاريخ تلك الأحداث .

ويضارع هذا الكتاب في الصبغة العلمية الكتاب الذي ألفه جماعة « دراسة العهد القديم » واشترك في تأليفه أكثر من عشرة من علماء هذه الدراسات ، وهو كتاب العهد القديم والدراسة الحديثة [1] .

يقول الأستاذ البرايت Albright وهو أحد أصحاب البعوث للكشف عن الآثار :

« ان مسألة الهكسوس لا تزال على عسرها ، ولكنها آخذة في التكشف والابانة عن الحوادث التالية بعد البحوث التي تناولها ونلوك وستوك كاتب هذه السطور ، فنحن نعلم اليوم أنها لا بد أن ترجع إلى الفترة بين سنتي ١٧٢٠ و ١٥٥٠ قبل الميلاد وان قيادة الهكسوس في يد الساميين ولم تكن حورية او هندية آرية كما كان بعض العلماء يقدرون إلى زمن قريب .. » .

إلى أن يقول بعد استطراد وجيز عن مقبرة توت عنخ آمون :

« ولكن أهم من هذا كله – ثقافيا – تلك الأوراق البردية التي كشفها شستر بيتي Beatty من آثار عصر رمسيس بما احتوته من الدلالة على مدى النهضة الادبية في ذلك العصر الذهبي ، ونخص منها بالذكر من حيث فائدتها لدارس التوراة تلك القصائد الدرامية التي تنبيء عن نظم أناشيد سليمان ، وان خالفتها كثيرا في التفصيلات ، وتلك الترنيمة المقاربة لعقائد التوحيد التي تدل على استمرار التوحيد الشمسي من العمارنة بعد وقوف كهنة آمون له بالمرصاد » .

ويقول هذا الكاتب ومعه زميل من المشتغلين بالكشوف في فلسطين :

« ان فلسطين لم تدخل في قصص التوراة قبل هجرة ابراهيم من حاران ولا يمكن بأي تقدير من التقديرات أن توضع تلك الهجرة في تاريخ سابق

---

(١) The Old Testament of Modern

لنهاية الألف الثالثة قبل الميلاد ، وقد تأتي بعد ذلك بقرون ، ويبدو واضحا من مأثورات سفر التكوين أن هناك دورا متوسطا من العصر البرونزي بين القرن الحادي والعشرين والقرن السادس عشر قبل الميلاد » .

ويتحدث عن كشوف رأس شمرا في الشمال المقابل لجزيرة قبرص من شاطىء بحر الروم ، أنها غيرت الصورة التي كانت مرتسمة للحضارة الكنعانية في أذهاننا كل التغيير ، وأنها أثبتت أن حضارة كنعان كانت تمتد في العصر البرونزي المتأخر من غزة جنوبا إلى رأس شمرا شمالا « أغاريت القديمة » وان اللغة و الديانة والحضارة كانت واحدة في هذه البقاع ، ولم يكن اختلاف اللغة الا من قبيل اختلاف اللهجات ... واننا نرى اختلاف الصناعة الفخارية وغيرها من البقايا المادية بارزا بيِّنا عند الجانب الأسفل من نهر العاص حيث تتضح الملامح الحورية والأمورية في معالم الثقافة العليا ولا يلحظ على الساحل مثل هذا الاختلاف .

ثم يتحدث عن كشوف تل الحريري عند وادي الفرات الأوسط فيقول :

« ان الاستاذ اندري باروت وزملاءه أخرجوا من الانقاض قصرا كبيرا من العصر البرونزي الاوسط ، كان مزدهرا في أواخر القرن الثاني عشر وفاقا للتقديرات التي تتقدم بعصر حمورابي إلى ما بين سنتي ١٧٢٨ و ١٦٨٦ قبل الميلاد ..

« وقد أخرجوا في هذا الموضع نقوشا فذة على الجدران وبقايا فنية اخرى ، وفوق ذلك نحو عشرين ألف لوحة وأعشارا من اللوحات من القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، كلها باللغة الاكادية التي تأثرت أحيانا باللغة الامورية التي يتكلمها أبناء القبائل في ذلك الاقليم ... وفائدة هذه المكشوفات التي كسرت الان حواجز البحث في دراسات التوراة ستأتي في أكثر الاحوال من طريق غير مباشر ، ولكنها لا تنقص بذلك في قيمتها ، اذ كانت الثقافة العالمية في عصر الآباء العبريين وراء كل تطور في آسيا الغربية ، وسيصبح ميسورا لنا عما قريب أن نركب أجرومية اللغة الامورية ومعجماتها من تلك

الامورية الاكادية التي كان يكتب بها كتاب ماري في الوادي الاوسط من نهر الفرات ، ويظهر أن هذه اللغة التي تتخلل أسماء الاعلام هي لغة الاباء العبريين في لبابها ، وانها على التحقيق لغة الكلام الذي نتمثله في أعلام الفلسطينيين الرحل والمقيمين التي وردت في الحفريات المصرية التي ترجع إلى القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد [١] » .

ثم يعرض الكاتب لكشوف تل العطشانة على نهر العاص الأسفل وكشوف حماة على أواسط النهر فينوه منها على الخصوص بسيرة حياة الملك ادريمي المنقوشة على تمثاله الذي يمكن تاريخه أن يكون قريبا من سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد ، وفي هذه السيرة حوادث وقعت في سورية الشمالية مشابهة للحوادث في قصة يوسف ، ولعلها كانت تتجمع حوال نواة من عصر الهكسوس ، وقد أشارت سيرة ادريمي إلى غيرة اخوته الكبار وقحط السنوات السبع وضروب من الحدس لاستطلاع الغيب .

ثم يعرض للكشوف التي أبرزت المنافسة بين حضارة الحيثيين والآراميين وحضارة اسرائيل ودمشق .

وينتقل إلى كشوف الريحانية في الناحية الجنوبية من سهل انطاكية وما لها من القيمة في الاستدلال على العصر الحديدي ، وأهم ما فيها بقايا هيكل من القرن التاسع قبل الميلاد على رسم قريب من رسم هيكل سليمان الذي بني في القرن العاشر .

ويستطرد إلى كشوف قليقية على مقربة من حدود سورية الشمالية ، وأسانيدها ترجع إلى ما بين سنتي ٨٥٠ و ٦٥٠ قبل الميلاد ، ولها شأنها في دراسة تطور اللغة العبرية .

ويتناول الأستاذ هنيمان Heinneman من جامعة سانت اندروز بحثاً

---

(١) سيأتي بيان الأهمية الكبرى التي ينطوي عليها هذا الكشف الخطير لانه سيحدد العلاقة بين اللغات السامية القديمة ومنها الاكادية لغة بابل والعبرية لغة الخليل والارامية لغة العرب الشمالية واللغة العربية على العموم ، ويتبع ذلك الاستدلال على أصول المعتقدات عند أبناء هذه اللغات .

لغويا عن العبرية ، فيقرر فيه أن الارامية ـ وهي العربية الشمالية ـ كانت سابقة في سورية وفلسطين لكل من اللغتين الكنعانية والعبرية ، معتمداً على كشوف رأس شمرا ، وعلى المحسنات الكنعانية التي اشتملت عليها رسائل تل العمارنة ويردها إلى نحو ١٣٧٥ قبل الميلاد .

ونختم هذه الشواهد بمرجعين تقليديين من مراجع هذا الموضوع وهما أطلس وستمنستر التاريخي ، وموسوعة وستمنستر المنقحة طبعة سنة ١٩٤٤ ، وهما خاصان بجغرافية التوراة والعهد الجديد وتاريخهما ، وقد توفر على تأليفهما من وجهات النظر المتعددة نخبة من علماء هذه المباحث المشتغلين في الكتب الأثرية والكتب العصرية بدرسها في الآثار والحفريات وبالاطلاع على سجلاتها ومدوناتها .

هذان المرجعان متفقان مع أحدث المراجع المتقدمة على تقريب عصر الآباء العبريين ، واستضعاف الأقوال التي توغل به في القدم ، وقد وضع الأطلس التاريخي عصر ابراهيم بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ووضع عصر حمورابي في ختام هذه الفترة ، وعرض لقصة سنوحي الموظف المصري الذي غادر بـــلاده (حوالي سنة ١٩٠٠ ق . م) وعاش بين الأموريين في سورية الشرقية ، ولاحظ المشابهة بين الأمكنة التي أقام فيها سنوحي على نحو من البداوة وبين الامكنة التي عاش فيها على هذا النحو آباء العبريين ، ورجح أن وفد الساميين المرسوم على مدافن بني حسن قدم إلى مصر في عصر القصة السنوحية وأن الدولة المصرية التي كانت قائمة بمصر هي الأسرة الثانية عشرة وقد بسطت حكمها على سورية وفلسطين وأدارت حركة واسعة من التجارة البحرية بين مصر وقبرس وكريد وشواطيء البحر الأحمر ، وبلغت بحدودها الجنوبية إلى الشلال الثاني حيث أقامت حصن الحدود عند سمنه ، وكانت لها بعثات إلى سيناء للكشف عن معادن النحاس والفيروز ، وأخرى إلى أرض النوبة للكشف عن معادن الذهب .

وجاء في هذا الأطلس أن التاريخ حقق وجود بلاد في أرض حاران

تطلق عليها أسماء كأسماء آباء ابراهيم : فالج وسروج وناحور وتارح ، وان اسم حاران نفسها قريب من اسم أخ لابراهيم ، وان وحدة الاسم قد تأتي مصادفة في حالة شخص واحد ولكنها هنا متفقة في أربعة أسماء على الأقل في حيز محدود ، والمهم في هذه الملاحظة أن كتاب الأطلس يحسبون أن هذه البلاد حملت أسماء القبائل التي أنشأتها أو أن القبائل أطلقت عليها أسماءها بعد الاستيلاء عليها في القلاقل التي حدثت حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

واستطرد كتاب الأطلس من تشابه أسماء الآباء والمدن إلى الأسماء التي كانت شائعة بين الأموريين ، ومنها ابرام في صيغة أبا مرام ويعقوب في صيغة يعقوب ايل ، وذكروا أن اسم قبيلة بنيامين وجد في ألواح لحفائر بوادي الفرات الأوسط ، وأن حفائر توزي في وادي الفرات الشمالي اشتملت على وصف عادات اجتماعية تفسر عادات الارث والزواج او أصنام الأسرة (الطرافين) التي أشارت اليها كتب العهد القديم ، وأن عصر تلك الحفائر يوافق العصر الذي دون فيه الاسرائيليون كتب التوراة وما بعدها من الكتب القديمة ، وهذا عدا الآثار التي روت أخبار الطوفان وأخبار الخليقة مما لا نظير له في مأثورات مصر أو كنعان .

ومن الطبيعي أن يعنى الأطلس بالمواقع الجغرافية في سياق التاريخ ، وكذلك عني الأطلس في سيرة ابراهيم بمواقع رحلاته إلى مصر في ذهابه وعودته ، ومنها أرض الجنوب بين قادش وشور ، وتعرف الآن باسم وادي غزة ، وهو واد كان له شأن في تاريخ بني اسرائيل إلى ما بعد خروجهم من الديار المصرية ..

أما الموسوعة التي تحمل اسم وستمنستر أيضا — مع اختلاف المؤلفين — فهي توافق المراجع الحديثة كذلك في تقريب زمان الآباء ، وتقرر أن وحدة اسم حمورابي واسم أمارفيل محل مناقشة واعتراض في المباحث الأخيرة ، وأن الحاق ايل باسم أمارفيل مشكلة تستوقف أنظار الباحثين المتأخرين ..

وبعد أن ذكرت أن تاريخ حمورابي وضع في عصور مختلفة بين سنة ٢١٢٣ وسنة ١٨٣٠ قبل الميلاد عادت فقالت إن الكشوف الحديثة ترجح وضعه بين سنتي ١٧٩٢ و ١٧٥٠ أو ١٧٤٩ ، وإن شريعته المشهورة مقاربة للشريعة الموسوية في سفر الخروج من التوراة ، وان أسلوب المواد يتشابه في ابتداء الجمل كما تتشابه العقوبات ولا سيما عقوبات القصاص .. قالت : وبعيد أن تكون شريعة حمورابي أمام المشرع العبري عند تدوين أحكامه ولكن المحتمل أن الشريعتين ترجعان إلى أصل سامي قديم .

وترى الموسوعة – اعتمادا على تقدير الأسقف يوشر – أن مولد ابراهيم يوافق سنة ١٩٩٦ ق . م ، وأن طريق الجيوش التي حاربها ابراهيم كما جاء في الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين كانت إلى الجنوب على حافة جلعاد وموآب ، وتدل كشوف العالمين الأثريين البرايت وجلويك على أن هذا الطريق تخللته فيما مضى مدن هامة قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م ، وظلت عامرة نحو قرن أو قرنين لا أكثر ، وفي رواية سفر التكوين أن سدوم وعمورة دمرتا في حياة ابراهيم ، ومن كشوف جلويك يظهر ان المدن التي على هذا الطريق ظلت مقفرة إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ولكنها في القرن العشرين ق. م كان محجة دينية حافلة بجوار المكان الذي يعرف الآن باسم باب الدرعة . فمن المعقول اذن أن يكون مولد ابراهيم حوالي الزمن الذي قدره الأسقف يوشر ، وان سدوم وعمورة خربتا حوالي سنة ١٨٩٨ ق . م .

وتقول الموسوعة ان اسم مرافل – أحد الملوك الذين حاربهم ابراهيم – يصعب تعيين صاحبه كما يصعب تعيين زملائه الآخرين ، ولكن هذه الاسماء جميعا لا يبدو عليها أنها اختراع من مخترعات الخيال . اذ ليست غارة الأمراء البابليين على فلسطين وما جاورها أمرا نادراً في تلك الأيام .

ونكتفي بما تقدم من هذه المراجع التاريخية التي ألحقناها بالمصادر المسيحية ، وقد ألحقناها بها لان كتابها في جملتهم يدونون التاريخ من الجانب الذي له علاقة بكتب العهد القديم والعهد الجديد ، وتغلب عليهم

رغبة في تدوينه على النحو الذي يصحح أخبارها وينقض مآخذ الناقدين عليها ، فهو باب في التاريخ غير الباب الذي سنفرده لأقوال المؤرخين للحوادث من الوجهة العامة .

وليس أهم من تمحيص هذه الأقوال لمن يريد أن يحقق سيرة الخليل عليه السلام . اذ هي ألزم ما يلزم لمعرفة العقائد والشعوب في عصره ، ومن هنا تتجلى حقيقة الرسالة وبواعثها ومبلغ الخلاف والوفاق بينها وبين ما حولها ، وكل شيء يتوقف على تقدير أحوال الزمن بعد تعيينه ، وتقدير أحوال الشعوب في ذلك الزمن بعد التثبت من مواقعها وعلاقاتها .

وفيما أسلفناه بصيص من النور نرجو أن نضيف اليه بصيصا آخر يفيض على جوانب السيرة جميعا ، بعد الفراغ من تلخيص هذه الشواهد والمصادر ..

المراجع الاسلامية

وتأتي مصادر الاسلام في ختام مصادر الأديان الكتابية ، وسنرى أنه ما من شيء كالمصادر الاسلامية يثبت قيام دعوة ابراهيم ، بل يثبت وجود ابراهيم الذي شك فيه أصحاب بدعة الشك في كل خبر قديم من غير سند يستندون اليه ، ولا نعني هنا أدلة تاريخية تستمد من روايات الأخبار . وانما نعني دليل التسلسل المنطقي الذي يصدق حين تكذب التواريخ ، كما سيأتي بيان ذلك في موضعه ، ونكتفي هنا بايراد أخبار الخليل في المصادر الاسلامية وهي : القرآن الكريم ، والحديث النبوي والتفسير وما يلحق به على سبيل التفصيل أو الاستطراد .

وردت أخبار الخليل في سور كثيرة ، بعضها إلى الاسهاب وبعضها إلى الايجاز ، وهذه هي الآيات التي جمعت سيرته في بيان مفصل :

فمن سورة مريم :

« واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إبْرَاهِيمَ إنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً . إذْ قالَ لأبِيهِ يَا أبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً . يَا أبَتِ إنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ، فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً . يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إنَّ الشَّيْطَانَ كان لِلرَّحْمنِ عَصِيّاً . يَا أَبَتِ إنِّي أَخَافُ أنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ ولِيّاً . قَال أراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأرْجمَنَّك واهْجُرْنِي مَلِيّاً. قَال سَلامٌ عَلَيْكَ سَأسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إنَّهُ كانَ بِي حَفِيّاً . وأَعْتَزِلُكُمْ ومَا

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وأَدْعُو ربِّي ، عَسَى أَلاَّ أَكُون بِدُعَاءِ ربِّي شَقِيّاً . فلَمَّا اعْتَزلَهُمْ ومَا يَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ وهَبْنَا لَهُ إسْحق ويَعْقُوب وكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً ».

ومن سورة الأنبياء :

« ولَقَدْ آتَيْنَا إبْراهِيمَ رُشْدهُ مِنْ قَبْلُ وكنّا بِهِ عَالِمِينَ . إذْ قَال لأبِيهِ وقَوْمِهِ مَا هذهِ التّماثِيلُ الّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُون . قَالوا وجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِين . قَال لَقَدْ كنْتمْ أَنْتمْ وآبَاؤُكُمْ فِي ضَلال مبِينٍ . قَالوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِن اللاَّعِبِينَ . قَال بَلْ ربُّكُمْ ربُّ السّمَاواتِ والأَرْضِ الّذي فَطَرهُنَّ وأَنَا عَلى ذلِكمْ مِن الشّاهِدِينَ . وتَاللهِ لأكِيدنَّ أصْنَامَكُمْ بَعْد أنْ تُوَلُّوا مدْبِرِينَ . فَجَعَلَهمْ جُذاذاً إلاَّ كَبِيراً لَهمْ لَعَلّهمْ إلَيْهِ يَرْجِعون. قَالوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَا إنّهُ لَمِن الظّالِمِينَ . قَالوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكرُهمْ يُقَالُ لَهُ إبْراهِيمُ . قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النّاسِ لَعَلّهُمْ يَشهَدُون . قَالوا أَأَنْت فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنَا يَا إبْراهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْأَلُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُون . فَرجَعُوا إلى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إنّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُون . ثمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤُلاءِ يَنْطِقونَ. قَالَ أَفَتَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعكمْ شَيْئاً ولا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَكُمْ ولِمَا تَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قلْنَا يَا نَارُكونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلىَ إبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأخْسَرِينَ . وَنَجّيْنَاهُ وَلوطاً إلىَ الأرْضِ الّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ . وَوهَبْنَا لَهُ إسْحقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكلاًّ جَعَلْنَا صَالِحينَ » .

ومن سورة الصافات :

« وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ . أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ . فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ . فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ . فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ . مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ . فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ. فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّون . قَال أَتَعْبُدُون مَا تَنْحِتُون . واللهُ خَلَقَكُمْ ومَا تَعْمَلُون . قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ . وقَال إِنِّي ذاهِبٌ إلى ربِّي سَيَهْدِينِ . ربِّ هَبْ لِي مِن الصَّالِحِين . فَبَشَّرْنَاهُ بِغلامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغ مَعَهُ السَّعي قَال يَا بُنَيَّ إِنِّي أرى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذا تَرى ، قَال يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِن الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وتَلَّهُ لِلْجَبِين. ونَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِين . إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ . وفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . وتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحق نَبِيّاً مِن الصَّالِحِين. وبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعَلَى إِسْحق ومِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » .

ومن سورة البقرة :

« وإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وأَمْناً، واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً، وعَهِدْنَا إلى إبراهِيم وإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِين والْعَاكِفِين والرُّكَّعِ السُّجُودِ . وإِذْ قَال إِبْرَاهِيمُ ربِّ

اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وارْزُقْ أَهْلَهُ مِن الثَّمَرات مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ ومَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النَّارِ وبِئْسَ الْمَصِيرُ . وإذْ يَرْفَعُ إبْراهِيمُ القَواعِدَ مِن الْبَيْتِ وإسْمَاعِيلُ ربَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . ربَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ومِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . ربَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ويعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ ويُزَكِّيهِمْ إنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحكِيمُ . ومَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْراهِيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ولَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ في الدُّنْيَا وإنَّهُ فِي الآخِرةِ لَمِنَ الصَّالِحِين . إذْ قَالَ لَهُ ربُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ . ووصَّى بِهَا إبْراهِيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُون » .

ومن سورة آل عمران :

« كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حلاًّ لِبَنِي إسْرائِيلَ إلاَّ مَا حَرَّمَ إسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوهَا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَمَنِ افْتَرى عَلى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إبْراهِيمَ حَنِيفاً ومَا كَانَ مِن الْمشْرِكِين. إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِع لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وهدىً لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبْراهِيمَ ومَنْ دخَلَهُ كَانَ آمِناً ، ولله عَلى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً ، ومَنْ كَفَر فَإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

ومن سورة البقرة :

« أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِي حَاجَّ إبْراهِيمَ فِي ربِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلْكَ

إذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحيِي وأُميتُ قَالَ إبْراهِيمُ فَإنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

ومن سورة الأنعام :

« وإذْ قَالَ إبْراهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إنِّي أَرَاكَ وقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ . وكَذلِكَ نُرِي إبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ ولِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رأَى كَوْكَباً قَالَ هذا ربِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ . فَلَمَّا رأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هذا ربِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي ربِّي لأكونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رأى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَال هذا ربِّي هذا أكْبَرُ فَلَمَّا أفَلَتْ قَال يَا قَوْمِ إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُون . إنِّي وَجَّهْتُ وجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ والأرْضَ حَنِيفاً ومَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللهِ وقَدْ هَدَانِ ولا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إلاَّ أنْ يَشَاءَ ربِي شَيْئاً وَسِعَ ربِي كلَّ شَيْءٍ عِلْماً أفَلا تَتَذَكَّرُونَ . وكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ولا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأمْنِ إنْ كنْتُمْ تَعْلَمُون . أَلَّذِينَ آمَنوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وهُمْ مهْتَدُونَ . وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إنَّ ربَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » .

ومن سورة ابراهيم :

« وإذْ قَالَ إبْراهِيمُ ربِّ اجْعَلْ هذا البَلَدَ آمِناً واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أنْ نَعْبُدَ الأصْنَامَ . ربِّ إنَّهُنَّ أضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ

تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ومَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رحِيمٌ . ربَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ربَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وارْزُقْهُمْ مِن الثَّمَراتِ لَعَلَّهمْ يَشْكُرُون . ربَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي ومَا نُعْلِنُ ومَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ ولا فِي السَّمَاءِ . أَلْحَمْدُ للهِ الّذِي وهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وإِسْحقَ إِنَّ ربِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ . ربِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ ومِنْ ذُرِّيَّتِي ربَّنَا وتَقَبَّلْ دُعَاءِ . ربَّنَا اغْفِرْ لِي ولِوالِديَّ ولِلْمُؤْمِنِين يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » .

ومن سورة الحج :

« وإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْراهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ والْقَائِمِينَ والرُّكَّعِ السُّجودِ . وأَذِّنْ فِي الناسِ بِالْحَجِّ يَأْتوكَ رِجَالاً وعَلَى كلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » .

ومن سورة البقرة :

« وإِذْ قَالَ إِبْراهِيمُ ربِّ أَرنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَال أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَال بَلَى ولَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَال فَخذْ أَرْبَعَةً مِن الطَّيْرِ فَصرْهُنَّ إِلَيْكَ ثمَّ اجْعَلْ عَلَى كلِّ جَبَلٍ مِنْهنَّ جُزْءاً ثمَّ ادْعُهنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً واعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

ومن سورة الذاريات :

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دخَلوا عَلَيْهِ فَقَالوا سَلاماً قَال سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُون . فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَال أَلا تَأْكلون . فَأَوْجَسَ

مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ . فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وجْهَهَا وقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ . قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ ربُّكِ إنَّهُ هو الْحكيمُ الْعَلِيمُ . قَال فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُون . قَالُوا إنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمٍ مجْرِمِين . لِنرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارةً مِنْ طِينٍ . مُسَوَّمَةً عِنْد ربِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ».

ومن سورة هود :

« ولَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قَالُوا سَلاماً قَال سَلامٌ فَما لَبِثَ أنْ جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ . فَلَمَّا رأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إلَيْهِ نَكِرَهُمْ وأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ . وامْرأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بإسْحقَ ومِنْ وراءِ إسْحقَ يَعْقُوبُ . قَالَتْ يَا ويْلَتَا أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً إنَّ هذا لَشَيءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رحْمَةُ اللهِ وبَركَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ . فَلَمَّا ذهَبَ عَنْ إبْراهِيمَ الرَّوْعُ وجَاءَتْهُ الْبُشْرى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إنَّ إبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَا إبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ ربِّكَ وإنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ».

ومن سورة النحل عن دين ابراهيم :

« إنَّ إبْراهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ حَنِيفاً ولَمْ يَكُ مِن الْمُشْرِكِين . شَاكِراً لأنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وهَدَاهُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

ومن سورة الأنعام عن دين ابراهيم :

« قُلْ إنَّنِي هَدانِي ربِّي إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إبْراهِيمَ حَنِيفاً ومَا كَان مِن الْمُشْرِكِين » .

ومن سورة آل عمران عن دين ابراهيم والاسلام وسائر الأديان :

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ. مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » .

هذه جملة الآيات التي جاء بها القرآن الكريم مطولة في سيرة ابراهيم ، أو مشيرة إلى دعوته وما فيها من سابقة للدعوة الاسلامية، ولا حاجة بمن يكتب عن الدعوة الاسلامية إلى ابراز جانب منها لإثبات الانتقال من العقيدة المحصورة في عصبية خاصة إلى العقيدة التي تعم كل أمة وتخاطب كل ملة ، فهذه المساواة بين الامم هي صبغة الاسلام في كل جانب من جوانب دعوته من مبدئها إلى ختامها .

أما أخبار ابراهيم في القرآن فمنها ما تقدم في التوراة والمشناه ، ومنها ما انفرد به القرآن . ومداره على أمرين :

أحدهما خاص بالوقائع ، وهو قيام ابراهيم واسماعيل إلى جوار البيت الحرام ، والآخر خاص بالنظرة الدينية وهو على جانب عظيم من الدلالة في هذا المقصد ، لأنه يبين الفارق بين التجسيم والتنزيه في العبادة على مدى الزمن الذي انقضى بين كتابة أسفار العهد القديم وقيام الدعوة المحمدية .

فالضيوف الثلاثة الذين ورد ذكرهم في سفر التكوين كانوا يأكلون ويشبعون من الطعام ، وكان مفهوما من أسلوب بعض النسخ القديمة أن واحدا منهم هو الإله ، ثم أصبح مفهوما أنه ملك يتكلم باسم الإله ومعه صاحباه من السماء .

إلاّ أن القرآن الكريم يروي قصة هؤلاء الضيوف ولا يروي أنهم أكلوا وشبعوا ، بل جلسوا إلى الطعام ولم تصل أيديهم إليه ، وسألهم ابراهيم أن يأكلوا فلم يفعلوا ، فأوجس منهم خيفة وعلم من ثم أنهم من غير البشر وأن لهم شأناً غير شأن ضيوف الزاد والمقام .

ان هذه النقلة ليست بالأمر الهين في تاريخ بني الانسان . فان النوع الانساني قد انتقل من استخدام مادة الحجر إلى استخدام مادة الحديد في عشرات الألوف من السنين ، فهذا الانتقال بين العقل الذي يقصر عن ادراك مخلوق سماوي يخالف الأجساد الحية في مطالبها المادية ، وبين العقل الذي تهيأ للتمييز بين الحياة الروحية والحياة المادية ، هو الانتقال الذي يؤرخ به عصران في حياة بني الانسان ، بينهما من الفارق أبعد جداً مما بين عصر الحجر وعصر النحاس وعصر الحديد .

* * *

وأهم المصادر الاسلامية بعد القرآن الكريم أحاديث النبي عليه السلام ، ومنها طائفة عن الخليل تصفه وتصف أعماله وتلم بسيرته ، وللفقهاء فيها خلاف . اذ كان بعضها ينسب أمورا إلى الخليل لم يعهد في الأحاديث النبوية أن تنسبها إلى الانبياء .

والحكم في هذا الخلاف ان الأحاديث التي يرويها الآحاد لا يجوز أن تخالف أصول الاعتقاد لان الآحاد يجوز عليهم الخطأ والكذب ، ومثل ذلك لا يجوز في العقيدة ، ولا سيما العقيدة التي يقررها الكتاب .

وقد أخذ الامام الفخر الرازي بهذا الحكم في تفسيره ، ودارت حوله مساجلة بين الشيخ عبد الوهاب النجار ولجنة العلماء التي راجعت كتابه عن قصص الأنبياء ، فقال رحمه الله :

« نص العلماء على ان الحديث اذا كانت روايته آحادا وفيه نسبة المعاصي أو الكذب إلى الأنبياء يرد » .

« ففي شرح العصام على العقائد النسفية بعد أن ذكر وجوب اتصاف الأنبياء بالصدق ما نصه : اذا تقرر هذا فما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية ، فما كان منقولا بطريق الآحاد فمردود ، وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره ان أمكن أو محمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعث » ..

وجاء في الحاشية عليه قوله : فما كان منقولا بطريق الآحاد سواء بلغ حد الشهرة أو لا فمردود لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصي إلى الأنبياء ..

ونحن نمهد بهذه الملاحظة للأحاديث التي ننقلها ، ونختار من الأحاديث ما له علاقة بصميم السيرة وندع للقارىء أن ينظر فيها وبين يديه ما تقدم من أقوال الفقهاء ..

ففي بعض الأحاديث أن ابراهيم كان أشبه الناس بالنبي عليهما السلام ..

وعن أبي هريرة قال :

« قال النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به : لقيت موسى . قال فنعته . فاذا رجل حسبته – مضطرب – رجل [1] الرأس كأنه من رجال شنوءة [2] قال : ولقيت عيسى . فنعته النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس – يعني الحمام – ورأيت ابراهيم وانا أشبه ولده به » .

وعن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس رضي الله عنهما ، فذكروا الدجال فقال : انه مكتوب بين عينيه كافر ، وقال ابن عباس : لم أسمعه قال ذلك ولكنه قال :

« أما ابراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم جعد على جمل أحمر مخطوم بخلبة ، كأني أنظر اليه اذا انحدر في الوادي يلبي » .

---

(١) الشعر الرجل بسكون الجيم ما كان بين الجعد والمرسل .
(٢) ازد شنوءة ، وشنوءة قبيلة عربية مشهورة .

وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« عرض عليّ الأنبياء، فاذا موسى عليه السلام رجل ضرب من الرجال ، كأنه من رجال شنوءة ، فرأيت عيسى بن مريم عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود ، ورأيت ابراهيم عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم » .

وعن ابن عباس :

« دخل النبي صلى الله عليه وسلم البيت فوجد فيه صورة ابراهيم وصورة مريم ، فقال : اما هم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة ، هذا ابراهيم مصور فما له يستقسم ؟ » .

وعن ابن عباس أنه عليه السلام لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ، ورأى ابراهيم واسماعيل بأيديهما الازلام فقال : قاتلهم الله ! والله ان استقسما بالازلام قط .

وعن أبي هريرة قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اختتن ابراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم .

وقال ابن عباس في قصة هاجر : « ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم ، في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل فقالت : يا ابراهيم .. أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت : الله أمرك بهذا ؟ قال: نعم . قالت : اذن لا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي ذرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .. وجعلت أم

اسماعيل ترضع ابنها وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى .. فانطلقت كراهية أن تنظر اليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى اذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الانسان المجهود حتى جاوزت الوادي . ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ..

قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فلذلك سعى الناس بينهما ... فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا ، فقالت : صه ! تريد نفسها ، ثم تسمعت أيضا فقالت : قد أسمعت ان كان عندك غواث ، فاذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم ! وقال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم علينا معينا . قال فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فان هذا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه ، وأن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله .

« فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ، أو أهل بيت من جرهم مقبلين على طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا ، فقالوا : ان هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين ، فاذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا .. قال : وأم اسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء . قالوا نعم .

« قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فألفى ذلك أم اسماعيل وهي تحب الأنس . فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ،

حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأعجبهم حتى شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم اسماعيل فجاء ابراهيم بعدما تزوج اسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد اسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت خرج يبتغي لنا رزقا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشر . نحن في ضيق وشدة ، وشكت اليه . قال: فاذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام ، وقولي له يغيّر عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت نعم . جاءنا شيخ كذا وكذا فسأل عنك فأخبرته ، وسألني : كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك . قال اسماعيل ذلك أبي وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك ، فطلقها وتزوج من امرأة أخرى ، وغاب عنهم ابراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم فلم يجد اسماعيل فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج يبتغي لنا الرزق ، قال كيف أنتم ، وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله . فقال ما طعامكم ؟ قالت اللحم ، قال فما شرابكم ؟ قالت الماء ، قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء ، قال فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه .

فلما جاء اسماعيل ، قال هل أتاكم من أحد ؟ قالت نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت نعم ، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك .. قال ذاك أبي ، وأنت العتبة . أمرني أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك واسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام اليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا اسماعيل ! ان الله أمرني بأمر قال فاصنع ما أمرك ربك . قال وتعينني ؟ قال : أعينك ! قال : فـان الله أمرني أن أبني هنـا بيتا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفع القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني حتى

اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني واسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » .

هذه القصة التي رواها ابن عباس وتخللها بكلمات للنبي عليه السلام ، وهي أطول خبر عن ابراهيم نقله رواة الحديث .

أما الأحاديث التي أشرنا إلى الخلاف عليها بين الفقهاء ، وعلماء الاصول فمنها الحديث التالي وفيه غنية .

حدث أبو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لم يكذب ابراهيم النبي عليه السلام قط الا ثلاث كذبات : اثنتين في ذات الله قوله اني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة في شأن سارة ، فانه قدم أرض جبار ومعه سارة ، وكانت أحسن الناس ، فقال لها : ان هذا الجبار إنْ يعلم انك امرأتي يغلبني عليك ، فان سألك فاخبريه أنك أختي ، فانك أختي في الاسلام ، فاني لا أعلم في الأرض مسلما غيري وغيرك ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون الا لك ، فأرسل اليها فأتى بها ، فقام ابراهيم عليه السلام إلى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده اليها فقبضت يده قبضة شديدة . فقال لها : ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ، ففعلت . فعاد فقبضت أشد من القبضتين الاوليين ، فقال : ادعي الله أن يطلق يدي فلك عهد الله الا أضرك . ففعلت وطلقت يده ، ودعا الذي جاء بها فقال له : انك انما أتيتني بشيطان ولم تأتني بانسان . فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر .. قال : فأقبلت تمشي ، فلما رآها ابراهيم عليه السلام انصرف فقال لها : مهيم [1] . قالت خيرا . كف الله يد الفاجر وأخدم خادما » .

قال أبو هريرة : فتلك أمكم يا بني ماء السماء !

---

(١) مهيم بسكون الهاء وفتح الياء اسم فعل بمعنى ما خبرك . وهي منحوتة من « ماها يوم » العبرية بمعنى ما يومك أي ما خبرك .

وليس بعد القرآن والاحاديث النبوية من مصدر يصح أن يسمى إسلاميا غير أقوال المفسرين ..

وانما تسمى أقوال المفسرين مصدرا اسلاميا حين تكون مقصورة على تفسير معاني القرآن وألفاظه أو الاستشهاد بالأحاديث النبوية . فأما ما عدا ذلك فلا ينسب إلى الاسلام .. وانما المرجع فيه إلى الاخبار المروية عن النسابين وأصحاب الاخبار عامة ، ومنهم اليهود الذين أسلموا والنسابون الذين توارثوا تواريخ أسلافهم بالسماع .

فمن اليهود الذين أسلموا كعب بن ماتع الحميري الذي اشتهر باسم كعب الاحبار ، كان من علماء اليهود في اليمن وأسلم في زمن أبي بكر ، وعاش في المدينة زمنا ثم خرج إلى الشام بعد مقتل عمر فأقام بحمص ومات فيها . ومنهم وهب بن منبه وهو من يهود اليمن أيضا وكان من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن ثم أسلم وتوفي في عهد الدولة الأموية ، وكلاهما كثير الرواية والنقل عن الكتب الاسرائيلية ، ويظن بهما انهما وضعا كثيراً مما روياه .

والمعلوم أن المسلمين في صدر الاسلام لم يتحرجوا من النقل عن أهل الكتاب الا فيما يناقض القرآن الكريم . لأن المسلم يؤمن بالكتب التي تنزلت قبل القرآن ويؤمن بأن العقائد التي تخالف عقيدته منها تحريف من الكهان والاحبار وأنهم يجهلون بعض ما عندهم من الآيات ويخفون بعضها أو يتمحلون له التأويل .

فاذا دخل عالم من علماء اليهود في الاسلام ونفى من روايات دينه ما يخالف القرآن لم يتحرج المسلم أن يستمع اليه فيما ينقله عن كتبه ، وأمن له واعتبره من العلم الذي سبقه اليه أهل الكتاب ، وكذلك فعل كثير من المفسرين ، وبالغوا في الطمأنينة إلى أولئك الرواة وفاتهم أنهم إن سلموا من سوء النية لم يسلموا من الجهل وضعف السند وقلة التثبت والتمحيص ..

وكان الفاروق والامام علي رضي الله عنهما ينهيان كعب الأحبار عن الافاضة في رواياته وأساطيره ، وسخر الفاروق منه حين زعم له أن مقتله مكتوب في التوراة ، ولم يثبت أحد من جلة الصحابة شيئا من تلك الأساطير ، ولكن كعب الاحبار وأمثاله قد طاب لهم أن يتحدثوا بتلك الأساطير التي ينفردون بدعواها فأفرطوا فيها وجعلوا يطرقون السامعين بجديد كلما نفد قديمهم المعروض وآنسوا من السامعين اقبالا على هذه البضاعة التي لا يزاحمهم فيها أحد من المسلمين .

الا أن المصادر الاسرائيلية لا تستوعب كل ما وعاه العرب قبل الاسلام من تواريخ عقائدهم ولا سيما العقائد التي تلصق بالكعبة ونشأتها واقامة الشعائر فيها وأسباب تلك الشعائر منذ أقدم عصورها ، ومن الخطأ أن يقال ان الروايات عن بناء الكعبة تلفيق من اليهود لإرضاء العرب والتقرب اليهم بتوحيد النسب بينهم والارتفاع بنسبهم جميعا إلى جدهم ابراهيم . فان نسبة العرب إلى اسماعيل بن ابراهيم مكتوبة في سفر التكوين ، ومن العرب الذين كانوا يجهلون التوراة من كانوا ينسبون أنفسهم إلى (نبات) بن اسماعيل كما جاء في تاريخ ديودورس الصقلي المتوفى بعد منتصف القرن الأول للميلاد ، وقد كانت الروايات ترتفع ببناء الكعبة إلى آدم وإلى الملائكة ولا تقف بها عند ابراهيم وجاء فيما رواه التقي الفاسي صاحب كتاب شفاء الغرام ان الكعبة بنيت عشر مرات : بناء الملائكة وبناء آدم وبناء أولاده وبناء ابراهيم وبناء العمالقة وبناء جرهم وبناء قصي بن كلاب وبناء قريش وبناء عبد الله بن الزبير وبناء الحجاج ، ثم قال ان بناءها قبل ابراهيم لم يأت به خبر ثابت ، وقال المسعودي ان بناء الملائكة وآدم وشيث لم يصح ، وأما بناء جرهم والعمالقة وقصي فهو ترميم، وتوسع الأزرقي صاحب كتاب أخبار مكة غاية التوسع في هذه الروايات التي لم تستوعبها الاسرائيليات ولا يمكن أن تستوعبها ، لأن تبجيل العرب للكعبة أقدم من الإسرائيليات ، وقد جاوز حدود جزيرة العرب إلى الهند ومصر كما ذكر برتون في رحلته إلى الحجاز ، ولا يزال الصابئة اليوم كما كانوا قبل الاسلام يحسبونها من

البيوت السبعة التي تناظر الكواكب السبعة ويقولون انها بيت أشرفها دارا وهو زحل ، وستبقى في الأرض ما بقي زحل في السماء .

وسيأتي الكلام بشيء من التفصيل عن سلالة ابراهيم في البلاد العربية ، ولا محل هنا لنقل الروايات المختلفة التي اقتبسها المفسرون أو المؤرخون التفسيريون ، سواء منها ما أخذوه من الإسرائيليات وما أخذوه من حفظة الأنساب وبناء الاسلاف ، فانها جميعا على نحو ما تقدم . ولكننا ننقل هنا ما فيه اجتهاد للمفسرين أو ما فيه خبر يضاف إلى أخبار السيرة ويعولون على روايته .

فالمفسرون الأوائل يقولون ان النار لم تحرق ابراهيم لأن الله سلبها خاصة الاحتراق ، والألوسي صاحب روح المعاني من المفسرين المتأخرين يقول : « وأيا ما كان فهو آية عظيمة ، وقد يقع نظيرها لبعض صلحاء الأمة المحمدية كرامة لهم لمتابعتهم النبي الحبيب صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما يشاهد من وقوعه لبعض المنتسبين إلى حضرة الولي الكامل الشيخ أحمد الرفاعي قدس سره من الفسقة الذين كادوا يكونون لكثرة فسقهم كفارا فقيل انه باب من السحر المختلف في كفر فاعله وقتله ، فان لهم أسماء مجهولة المعنى يتلونها عند دخول النار والضرب بالسلاح ، ولا يبعد أن تكون كفرا وان كان معها ما لا كفر فيه ... ولم يكن ذلك في زمن الشيخ الرفاعي قدس سره العزيز فقد كان أكثر الناس اتباعا للسنة وأشدهم تجنباً عن مظان البدعة ، وكان أصحابه سالكين مسلكه متشبثين بذيل اتباعه قدس سره ، ثم طرأ على بعض المنتسبين اليه ما طرأ .. قال في العبر : قد كثر الزغل في أصحاب الشيخ قدس سره وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التاتار العراق — من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات ، وهذا لا يعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه ، فنعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ... والحق أن قراءة شيء ما عندهم ليست شرطا لعدم التأثر بالدخول في النار ونحوه ، فكثير منهم من ينادي اذا أوقدت له النار وضربت الدفوف : يا شيخ أحمد يا رفاعي أو يا شيخ فلان لشيخ أخذ منه الطريق ويدخل النار

ولا يتأثر منها دون تلاوة شيء أصلا ، والأكثر منهم اذا قرأ الأسماء على النار ولم تضرب له الدفوف ولم يحصل له تغير حال لم يقدر على مس جمرة ، وقد يتفق أن يقرأ أحدهم الأسماء وتضرب له الدفوف وينادي من ينادي من المشايخ فيدخل ويتأثر . والحاصل أنا لم نر لهم قاعدة مضبوطة . بيد أن الأغلب أنهم اذا ضربت لهم الدفوف واستغاثوا بمشايخهم وعربدوا يفعلون ما يفعلون ولا يتأثرون ، وقد رأيت منهم من يأخذ زق الخمر ويستغيث بمن يستغيث ويدخل تنوراً كبيراً يضطرم فيه النار فيقعد في النار ويشرب الخمر ويبقى حتى تخمد النار فيخرج ولم يحترق من ثيابه أو جسده شيء . وأقرب ما يقال في مثل ذلك أنه استدراج وابتلاء . وأما أن يقال ان الله عز وجل أكرم حضرة الشيخ أحمد الرفاعي قدس سره بعدم تأثر المنتسبين اليه كيفما كانوا بالنار ونحوها من السلاح وغيره اذا هتفوا باسمه أو اسم منتسب اليه في بعض الأحوال ، فبعيد بل كأني بلك تقول بعدم جوازه ، وقد يتفق ذلك لبعض المؤمنين في بعض الاحوال اعانة له ، وقد يأخذ بعض الناس بيده ولا يتأثر لأجزاء يطلي بها يده من خاصيتها عدم اضرار النار للجسد اذا طلي بها ، فيوهم فاعل ذلك أنه كرامة .. » .

والشيخ محيي الدين بن العربي يفسر الآية على أسلوب المتصوفة الذين يرمزون بالكلمات إلى الاسرار فيقول : حرّقوه أي اتركوه يحترق بنار العشق التي أنتم أوقدتموها أولا بإلقاء الحقائق والمعارف اليه التي هي حطب تلك النار عند رؤيته ملكوت السماوات والأرض بارادة الله ايـــاه كما قـــال : وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض .. واشراق الانوار الصفاتية والاسمائية عند تجليات الجمال والجلال عليه من وراء أستار أعيانكم التي هي منشأ اتقاء النار ، وانصروا آلهتكم أي معشوقاتكم ومعبوداتكم في الامداد بتلك الأنوار وايقاد تلك النار . ان كنتم فاعلين . بأمر الحق « يا نار كوني بردا وسلاما بالوصول حال الفناء . فإن لذة الوصول تفيد الروح الكامل والسلامة عن نقص الحدثان وآفة النقصان والامكان .. — وأرادوا به كيدا — بافنائه واحراقه .. »

ومن المفسرين المحدثين محمد علي الهندي الذي ترجم القرآن الكريم الى الانجليزية واجتهد في تفسير آياته ، فقال ان الحادث ـ حادث الأصنام المحطمة ـ قد هاج ثائر القوم وأوقد نيران ضغنهم ، وان الآية التالية تدل على أن النار نار كيد ـ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين .

ولعلهم أرادوا احراقه فنجاه الله من تدبيرهم ، ثم فسر الآية في سورة العنكبوت : فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار . فقال في تفسيرها : ان أعداءه عجزوا عن احراقه وكانوا يدبرون له القتل والاحراق فلم يستطيعوا .

والامام البيضاوي يفسر : فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم فيفهم من الآية أنه ربما رأى مواقع النجوم واتصالاتها أو نظر في علمها أو في كتابها ثم يقول : ولا منع منه مع أن قصده ايهامهم ، وقد سألوه أن يخرج معهم إلى عيدهم الذي يعيدونه لأربابهم ، فأراهم انه استدل بالنجوم ـ لأنهم كانوا منجمين ـ على أنه مشارف للسقم ، وكان أغلب أسقامهم الطاعون ، ويخافون عدواه .. قال : ربما أراد انه سقيم القلب لكفرهم ، أو خارج المزاج عن الاعتدال ..

ومن الجديد في المصادر الاسلامية أن ابراهيم ولد على مقربة من دمشق وان آزر عم ابراهيم ولم يكن أباه .قال صاحب بدائع الزهور في وقائع الدهور :« روى وهب بن منبه أن ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم بن تاريخ بن ناخور. وقال الحافظ السهلي انه كان مولوداً ببلاد حوران ، وقيل بقرية تسمى برزة من قرى دمشق في مغارة هناك معروفة ، وفيها الدعاء مستجاب .. قال الرواة : ان ساما وحاما ويافثا اولاد نوح عليه السلام كانوا ثلاثة أقسام فكانت النبوة في أولاد سام ومساكنهم الحجاز وما يليها ، والقوة في أولاد حام ومساكنهم المغرب ، والتجبر في أولاد يافث ومساكنها المشرق .. »

ومن المختلف عليه بين المفسرين والمؤرخين التفسيريين قرابة سارة وابراهيم .. فالحافظ ابن كثير يروي أن المشهور أنها ابنة عم لابراهيم يسمى

هاران ، ويقول ابن اسحاق الثعلبي صاحب قصص الأنبياء نقلاً عن أهل العلم بسير الماضين انها ابنة عمه ولا يذكر اسمه ..

ويختلفون كذلك في ولد ابراهيم الذي أمر بذبحه ، فمنهم من يرى انه اسحاق ومنهم من يرى أنه اسماعيل ، وجاء في قصص الأنبياء : أن محمد ابن اسحق روى عن محمد بن كعب القرظي أنـــه كان يقول ان الذي أمر الله تعالى ابراهيم بذبحه من ابنيه اسماعيل .. ولم يكن يأمره بذبح اسحاق وله فيه من الله تعالى من الوعود ما وعده ، وما الذي أمر بذبحه الا اسماعيل . قال محمد بن كعب القرظي فذكرت ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، اذ كنت معه بالشام . فقال لي عمر : ان هذا الشيء ما كنت أنظر فيه ، واني لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده من الشام وكان يهودياً فأسلم وحسن اسلامه ، وكان يرى أنه من علماء اليهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده ، فقال له : أي ابني ابراهيم الذي كان أمر بذبحه ؟ فقال اسماعيل ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ان اليهود لتعلم ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذي أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذي ذكر انه كان منه بصبره على ما أمر به ، فهم يزعمون انه اسحاق لأن اسحاق أبوهم » .

وسنرى فيما يلي أن هذا الاختلاف له جانب هام يفوق في أهميته جانب البحث التاريخي الذي يراد به مجرد العلم باسم الذبيح من ابني ابراهيم ، فانه اختلاف يتعلق به اختيار الشعب الموعود ويتعلق به الحذف والاثبات في سيرة ابراهيم ليتصل بذرية اسحاق وينقطع عن ذرية اسماعيل أو ليثبت من سيرته كل ما يتعلق باسرائيل وينقطع منها كلما يتعلق بالعرب ، وان هذا النزاع قد بدأ قديماً قبل تدوين نسخ التوراة التي كتبت في بابل ، أي قبل الميلاد بعدة قرون ..

وواضح أن النزاع في أوله لم يكن نزاعاً على العقيدة ، فان العهد القديم يروي عن ابراهيم أنه قدم العشر لملكي صادق كاهن الله « العلي » أو عليون الذي كان معبوداً لسكان فلسطين وما جاورها إلى الجنوب وقد زار هيرودوت

بلاد العرب الشمالية عند مدخل مصر وروى عنهم انهم كانوا يعبدون الله تعالى Arotal واللات أو ايليلات Alilat منذ قرون سابقة للقرن الخامس قبل الميلاد ، وهو القرن الذي عاش فيه هيرودوت . فلم يكن النزاع على العقيدة في نشأته الا فرعاً من فروع التنازع على الميراث ، ولم يكن شأن الذرية الموعودة أو المختارة الا أنها تعزز دعواها في ذلك النزاع ، وتنفي عنه من ينازعها عليه .

وهذه المشكلة التي عرضت لمحمد بن اسحاق القرظي قد صادفت فقهاء المسيحية من قبل كما صادفت فقهاء الاسلام ، اذ كيف يؤمر ابراهيم بذبح اسحاق وهو ابنه الموعود الذي يخرج منه شعب الله المختار ؟ ان كاتب الرسالة إلى العبرانيين يقول في الاصحاح الحادي عشر حلا لهذه المشكلة«ان ابراهيم بالايمان قدم اسحاق .. وحيده .. الذي قيل له انه باسحاق يدعى لك نسل اذ حسب ان الله قادر على الاقامة من الاموات » .

وحل المشكلة على هذا الوجه جديد في المسيحية لم ينظر اليه أحبار اليهود الذين اعتبروا أن التضحية قائمة على تسليم ابراهيم بموت اسحاق ، وانه أطاع الله ولم يقطع قلبه ولم يحفل بحنانه على ابنه الموعود ، ويبقى من المشكلة جانب آخر وهو وصف الابن بالوحيد ، فلم يكن اسحاق وحيداً مع وجوداسماعيل أما اسماعيل فكان وحيداً ، قبل مولد اسحاق .

إن فهم السيرة كما جاءت في الكتب الدينية أو في كتب الشروح والتعليقات لا يتهيأ للباحث ما لم يضع أمامه سر الاختلاف على اسحاق واسماعيل ، وما نقلناه هنا من المصادر الاسلامية يوضح هذا السر بعض الايضاح ، وربما تم ايضاحه بما يلي من مصادر التاريخ .

مراجع الصابئة

تدين بعقائد الصابئة ملة يبلغ عدد أبنائها ستة آلاف بين رجل وامرأة وطفل ، ولا يجاوز بها المبالغ في عددها عشرة آلاف .

وهي على قلة عددها تستقل بلغة « مقدسة » خاصة ، ولها كتابة أبجدية خاصة ، وأحكام دينية في معيشتها لا تشبه في جملتها دينا واحداً ولكنها تشبه في بعض أجزائها كل دين .

ومن ثم كان لها شأنها في الدراسات الدينية .

ففيها ولا شك عقائد سابقة لجميع الاديان الكتابية ، وعقائد سابقة لدين الخليل ..

بل فيها ، على رأي بعض الباحثين ، بقية من الديانتين المختلفتين في عصر الخليل ، لان الصائبة يدينون بمذاهب مختلفة يرد بعضها على بعض ، ولا سيما مذاهب الكواكب والاصنام ؛ مما تواترت الاخبار بالاختلاف عليه بين قوم ابراهيم ومن حاربوهم واضطروهم إلى الهجرة من بلادهم ..

ويقول رايت Wright صاحب كتاب المطالعة العربية ان حروفهم الابجدية تشبه الحروف النبطية ، وأن لغتهم تشبه لغة التلمود الذي كتب في بابل ، ويقولون هم ان لغتهم الاولى سريانية وانهم كانوا بمصر من عهد الفراعنة الاول وتلقوا ديانتهم الاولى عن أحبارها ثم هجروها حين تحول أهلها عن الدين القويم .

والمحقق من أمرهم أنهم يرجعون إلى أصل قديم ، لان استقلالهم باللغة

الدينية والكتابة الابجدية ، لم ينشأ في عصر حديث ولهذا يفهم الدارسون للأديان أن تحقيق لغتهم وكتابتهم يؤدي إلى جلاء الغوامض عن كثير من تاريخ الكلدان في الزمن الذي قام فيه الخليل بدعوته ، ويؤكد هذا الفهم ان هؤلاء الصابئة يقيمون في الاقاليم الجنوبية من العراق حيث أقام الخليل في رواية العهد القديم ، ومنهم فئة تحج إلى حاران التي هاجر اليها ، وينسب اليها الصابئة الحرانيون ..

ومع استقلال الصابئة باللغة الدينية والكتابة الأبجدية ، يشتركون مع أصحاب الاديان في شعائر كثيرة ، ولا يعرف دين من الاديان تخلو الصابئة من مشابهة له في احدى الشعائر ... فهم يشبهون البراهمة والمجوس والاورفيين أصحاب النحل السرية كما يشبهون اليهود والنصارى والمسلمين ، أو كما يشبهون الفلاسفة وأصحاب المذاهب العقلية في تفسير الوجود والموجودات .

وهم كما يشبهون الجميع يخالفون الجميع .

وتعليل هذه المخالفة أنهم تشبثوا بأصل قديم لا يفارقونه.أما تعليل المشابهة فليس بالعسير ، فان مقام الصابئة عند خليج فارس يجعلهم في طريق كل ملة يتردد أبناؤها على ذلك الاقليم أو يقيمون فيه ، وقد تردد عليه من قديم الزمن هنود وفرس وطورانيون وعرب وسريان وفينيقيون ، واتصل به أبناء البحار كما اتصل به أبناء الصحراء ، فليس بالعجيب أن تعلق بعقيدة الصابئة الاقدمين مسحة من كل ملة على طول الزمن وتتابع العهود ..

فمن مشابهتهم للبراهمة انهم يتحرجون من ملامسة غيرهم ويتطهرون اذا لمسوا غريباً في حالة من حالات العبادة .

ومن مشابهتهم لاصحاب العقائد الاورفية — أو السرية — أنهم يكتمون كتبهم أشد الكتمان ، ولا يباشرون شعائرهم مع الغرباء ، ويتقاسمون الخبز المقدس علامة على الاخوة الروحية ، ويعتقدون أن الكون كونان وان الخلق خلقان. فالكون الظاهر غير الكون الباطن ، ولكل مخلوق في العلانية صورة محجوبة في عالم الغيب .. حتى آدم وبنوه منهم أهل ظاهر وأهل باطن لا يراهم من يعيشون في العلانية .

ومن مشابهتهم للمجوس أنهم يتوجهون إلى قطب الشمال وإلى الكواكب عامة ولكنهم لا يعبدونها، بل يحسبونها من مظاهر الروحانية التي لا تبرز للعيان ..

ومن مشابهتهم للمسيحيين أنهم يدينون بالعماد ويبجلون يوحنا المعمدان أو يحيى المغتسل . ولكن التعميد أعم عندهم من التعميد في المسيحية ، ويندر منهم من يسكن بعيداً من الانهار لحاجتهم كل يوم إلى العماد ، وإلى التطهر بالماء ..

ومن مشابهتهم للمسلمين أنهم يقيمون الصلاة مرات في اليوم ، ويقولون انها فرضت عليهم سبعاً ثم أسقطها يوحنا عنهم وأدخل بعضها في بعض واكتفى منها بثلاث ، ولكنهم لا يسجدون في صلاتهم بل يكتفون بالقيام والركوع ، وهم يتوضأون قبل الصلاة ويغتسلون من الجنابة ويعرفون نواقض الوضوء ولكنهم يغالون فيها ..

وعندهم ذبائح كذبائح اليهود ويوم في ختام السنة كيوم اليهود. ولكنهم يحرمون الختان ولا يبنون لهم هيكلاً قائماً ، بل يبنون الهيكل من القصب كما تبنى الخيام ، موقوتاً عند الحاجة اليه في الاعياد . فكأنها بقية أو أصل لعيد الظلال وللهيكل المنقول .

ومنهم من ينتمي إلى كاظم بن تارح ، وقد ذكرهم المقريزي بين الفرق المختلفة ، وكأنهم يقابلون دين ابراهيم بدين أخ له ينتمي إلى تارح ، أبي ابراهيم في رواية العهد القديم .

وهم ينكرون الانبياء ، ويقولون ان الله لا يخاطب أحداً من البشر وانما خلق الله الروحانيات ، أي الملائكة ، ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية ، ولما احتاج الأمر إلى أمثلة لهذه الكواكب يراها العباد حين يشاءون ، صنعوا لها صوراً من الأوثان ،وجعلوا اتجاههم إلى نجم القطب لأنه ثابت في مكانه ، لا يختلف له فلك باختلاف الأزمان .

ولهم أقوال في تنزيه العقل الالهي تشبه أقوال الفلاسفة ، ومنهم مَنْ

يحرم الطعام الذي حرمه أتباع فيثاغورس كالبصل ويضيفون اليه أنواعاً من الخضر كالكرنب ولحوم الحيوان ذي الذنب ، لأنهم يستوحون الغيب في الرؤيا ، وهذه الأطعمة تمنع الرؤيا الصادقة .

والغالب أنهم عرفوا شيئاً من أقوال حكماء اليونان من طريق القساوسة النسطوريين الذين هاجروا إلى جنوب العراق في صدر المسيحية هرباً من الاضطهاد ، وكان أكثرهم يعرفون اليونانية ويقرأون الفلسفة ولا سيما الرواقية والفيثاغورية ، ولكن اتصال اليونان ببلاد الكلدان أقدم من المسيحية ومن اليهودية ، ومن الكلدانيين أخذ اليونانيون خصائص الكواكب المعبودة وحرمات المعابد التي تقام لها ، وشعائر الطواف بها وحماية الضحايا التي ترسل في حرم المعبد وما إلى ذلك من العادات والعبادات التي اندثرت بين الصابئة المحدثين ضرورة لا حيلة لهم فيها ، لأن اقامة الحرم في مكان مطروق انما يقوم بقوة الحاكم ، وبناء المعابد انما يقوم بوفرة المال وكثرة العدد ، وهم قلائل متفرقون لا يملكون الثروة ولا السلطان .

* * *

والمشهور عن الصابئة انهم يوقرون الكعبة في مكة ، ويعتقدون انها من بناء هرمس أو ادريس عليه السلام وانها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة ، وينقل عنهم عارفوهم أنهم قرأوا صفة محمد عليه الصلاة والسلام في كتبهم ، ويسمونه عندهم ملك العرب ، لأن الشائع فيهم أنهم لا يؤمنون بالأنبياء الا فرقة واحدة تذكر شيئاً وادريس وابراهيم ويحيي المغتسل ويحسبونهم تارة من الانبياء وتارة من عباد الله الخلص الذين وصلوا بالرياضة والعبادة إلى مقام الزلفى والالهام .

وقد كان الباحثون يعجبون لتنويه القرآن الكريم بهذه الملة مع قلة عددها وخفاء امرها ، ولكن الدراسات الحديثة بينت للباحثين العصريين شأن هذه الملة في دراسات الأديان كافة ، فعادوا يبحثون عن عقائدها الآن وعقائدها في عصر الدعوة الإسلامية ، وثبت لهم أنها تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتؤمن

بالحساب والعقاب وأن الأبرار يذهبون بعد الموت إلى عالم النور « آلمي دنهورو » وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلام « آلمي دهشوخا » ويلبثون فيه زمناً على حسب ذنوبهم ، ثم ينقلون منه إلى عالم النور ..

ولهم كتاب يسمونه (كنزة) ولعله من مادة الكنز التي تفيد معنى النفاسة والكتمان ، لأنهم يقدسونه ويخفونه فلا يطلعون أحداً على أسراره ..

الا أن المتفق عليه أن اللغة التي كتب بها كتاب الكنزة وغيره من الكتب المقدسة عندهم هي لغة سامية الاصل قريبة من السريانية ، وتكفي نظرة في مصطلحاتها للجزم بهذه الصلة الوثيقة بين لغتهم واللغة العربية الحديثة فضلا عن القديمة المهجورة .

* * *

فمن كلماتهم ومصطلحاتهم « آلمي » بمعنى عالم ، و « شماس » بمعنى شمس و « هي » بمعنى حي ، و « روحايا » بمعنى روح و « موشيهه » بمعنى المسيح ، و « بهيه » بمعنى يحيى ، و « قدموي » بمعنى القديم ، و « حران سفلايي » بمعنى السفلي و « ترميد » بمعنى تلميذ ، و « أسفر » بمعنى سفر ، « تنيائي» بمعنى الثاني ،و « تليثائي» بمعنى الثالث، واسم الصابئة نفسه على ما يقول بعضهم مأخوذ من السابحة ، سموا به لكثرة الاغتسال في شعائرهم وملازمتهم شواطىء الانهار من أجل ذلك ، ولكنهم هم يطلقون على ملتهم اسم « منداني » ولا يعرف من أين مأخذه القديم ، واشتقاق اسمهم من السبح أرجح من نسبة الاسم إلى السبأوث العبرية بمعنى الجنود — جنود السماء — أي الكواكب ، التي اشتهروا بعبادتها ..

والأبجدية عندهم قريبة من أبجدية حساب الجمل على حسب ترتيبها في أبجد هوز حطي كلمن ألخ وهي « آ.با.كا.دا.ها.وا.زا.ها.طا.ها.يا.كا.لا. ما .نا.سا.أي.يا.صا.قا.را.شا.تا » .

ومن هذه الحروف ما يقارب مخارج الحروف التي تقابله في اللغة الفارسية لأنهم تعودوا نطقها منذ زمن قديم .

ولم يتيسر حتى اليوم كشف الستار عن بواطن معتقداتهم وشعائرهم ، لأنهم يصطنعون التقية ويوجبونها ، ومن ذاك أنهم يحرمون الصيام باطناً كما اشتهر عنهم ، ولكنهم يصومون جهراً ، ويروي ابن النديم في الفهرست انهم يصومون ثلاثين يوماً مفرقة على أشهر السنة ، وقد يتنفلون بصيام أيام النسيء الخمسة ، ويروى عنهم أيضاً أنهم يصومون خمسة أسابيع يأكلون فيها الطعام نهاراً وليلاً ويجتنبون أكل اللحوم المباحة لهم وهي غير ذات الذنب ، ويقال ان الصيام بنوعيه قديم عندهم يرجع إلى أيام البابليين .

وقد ذكرهم القرآن الكريم غير مرة وجاء في سورة البقرة : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

* * *

ولا نعلم اليوم على التحقيق تفصيل عبادتهم في أيام الدعوة الاسلامية ولكنهم كانوا ولا يزالون ينزهون الله غاية التنزيه ويقولون ان الكواكب ملائكة نورانية ، ولم تكن لهم هياكل ولا أصنام عند ظهور الاسلام ، ولا بد عندهم من مخلوق متوسط بين الروحانية والمادية يهدي الناس إلى الحق لأن الروحانيات مخلوقة من كلام الله جل وعلا ، دعاها بأسمائها فوجدت ، ولا يصل كلام الله إلى الناس الا بوساطة مخلوق بين النور والتراب ترفعه الرياضة والهداية وتؤثره نعمة الله .

وأقرب ما نشبه به هذه العقيدة انها كالحوض الذي تصب فيه مسارب الماء من كل مورد ، فاذا أخذت ماءه فحللته وجدت فيه أثراً من كل مسرب ، ولكنها توجد فيه على امتزاج ولا بد من الجهد لتصفيته والرجوع بكل جزء من أجزائها إلى ينبوعه الذي صدر منه في أصله البعيد ..

وهكذا العقيدة الصابئية في امتزاج عناصرها وعلاقة كل عنصر منها بالعناصر الاخرى ، ولكنها على هذا الامتزاج مهمة جداً في البحث عن تلك العقائد ، وبخاصة عقيدة الخليل .

فهي مهمة من وجهة المكان، لأنها قديمة العلاقة بكل مكان تعلقت به سيرته عليه السلام ، من جنوب الفرات إلى شماله، إلى بلاد السريان، إلى البلاد النبطية من شمال الحجاز .

وهي مهمة من وجهة زمانها، لأن لغتها المقدسة تشير إلى زمان متوسط بين اللغات القديمة المهجورة واللغة السريانية الحديثة ولم تكن لغة ابراهيم سريانية حديثة كالتي بقيت إلى الزمن الأخير ، ولم تكن احدى اللغات المهجورة التي يجمع المؤرخون موادها مبعثرة متفرقة ولا يفهمون مفرداتها وتراكيبها وقواعدها، فان تلك اللغات المهجورة قد انقطعت صلتها بمن بعدها على خلاف لغة الخليل . فاذا أشارت لغة الصابئة إلى زمن متوسط بين اللغات المهجورة واللغات السامية المتأخرة فهي احدى القرائن التي يستعان بها على تعيين زمان الخليل .

* * *

وهي مهمة من جهة موضوعها ، لأنها ترينا ملتقى التوحيد القديم والوثنية القديمة ، وفيها بقايا الاصطدام بين العقيدتين ، وقد يكون مدار الاختلاف بين عقيدة الخليل ومخالفيه حول هذا المصطدم ، فان بقايا التنازع بين المعتقدات ظاهرة في العقائد الصابئية يكاد بعضها أن يكون ردا على البعض الآخر ، فلا وثنية ولا ايمان بالكواكب من جهة ، ولا خلاص في الوقت نفسه من الوثنية والايمان بالكواكب على صورة من الصور ، ولعل العقيدة الصابئية كما بقيت خليط مجتمع من الجانبين بعد هجرة ابراهيم وشيعته من وطنهم القديم .

ومن هنا كانت نحلة الصابئة مهمة في دراسة الأديان على العموم ودراسة دين ابراهيم على الخصوص ، وكان لها في ذلك شأن لا يناسب عددها القليل وعزلتها التي فرضتها على نفسها وفرضتها عليها أحداث الأيام ..



مصادر التاريخ القديم

لم يبق من المراجع القديمة ما يضاف إلى الأبواب السابقة غير أقوال المؤرخين الأقدمين ..

وهؤلاء المؤرخون الأقدمون ينتمون إلى الأديان الكتابية الثلاثة ، ويعول كل منهم على كتب دينه ، فلا يناقضها وقد يزيد عليها ما ينطوي فيها ولا ينفيها ، وقد يأتي في أخبارهم ما يخالف كتب الأديان الأخرى ويزيد عليها شيئا لا يسلمه من يعتقدونها ، ولكن التواريخ القديمة على العموم لم تعتمد على مصدر غير كتب الدين وتفسيراتها في كل ملة .

وليس المقام هنا متسعا للافاضة في النقل من كتب المؤرخين الأقدمين فنحن نختار مؤرخا من كل ملة يقتدي به المقتدون في بابه ، ونكتفي بيوسيفوس من مؤرخي اليهود ، وأبي الفرج ابن العبري من مؤرخي المسيحيين وأبي الفداء من مؤرخي المسلمين :

(١) تاريخ يوسيفوس

« سأتكلم الآن عن العبرانيين .

« فالج بن عابر ولد له رعوس ، وولد لرعوس سيروج ، وولد لسيروج ناخور ، وولد لناخور ثيروس [١] Therrus وهو أبو ابراهيم العاشر من سلالة نوح ، ومولده في سنة ٩٩٢ بعد الطوفان .

---

(١) هكذا ينطق بالاغريقية وهو تارح في كتب اليهود .

« .. وكان لابراهيم اخوان : ناخور وآران .

« وولد لآران (حاران) لوط وبنتان هما سارة وملكة ، ومات في بلاد الكلدان في بلدة تسمى أور الكلدانيين ، وقبره هناك يرى إلى اليوم ..

وتزوج ناخور بنت أخيه ملكة ، وتزوج ابراهيم بنت أخيه سارة ، وكره ثيروس المقام بأور حيث فقد ابنه المحزون عليه حاران فهاجر منها إلى شاران (حران) بالعراق حيث مات ثيروس وله من العمر مائتا سنة وخمس سنوات ، اذ كان عمر الانسان قد قصر ولم يزل يقصر إلى عهد موسى فأصبحت غايته مائة وعشرين سنة وهو عمر موسى .

« وولد لناخور ثمانية من زوجته ملكة ، وهم عز وبوغر وبثوئيل وخزام وعنرو وآدلفاس وثبوئيل ، وهؤلاء هم أبناؤهالشرعيون من زوجته ملكة . أما أبناؤه الآخرون فهم طباي وجدام وطاو وماخاس من جاريته روما .

« وولد لبثوئيل بنت اسمها رفقة وولد اسمه لابان ..

« ولما لم يكن لابراهيم ولد شرعي تبنى لوطاً ابن أخيه حاران وأخا زوجته سارة ، وترك بلاد الكلدانيين وهو في الخامسة والسبعين ليذهب إلى كنعان حيث أمره الله وحيث ترك ذريته من بعده .

« وكان ابراهيم رجلا متيقظ الذهن في جميع الأمور ، مقنعا لمن يسمعه غير مخطىء في فهمه واستدلاله . فأدرك من حقائق الفضائل ما لم يدركه سائر البشر ، واعتزم أن يصحح الأفكار التي شاعت بينهم عن الله ويغيرها ، فكان من ثم أول من اجترأ على المناداة بأن الله خالق الكون واحد ، وأنه اذا وجد كائن آخر ينفع الناس فانما يفعل ذلك باذنه ولا يفعله بقدرة من عنده ، وقد انتهى إلى ذلك من مراقبته لما يطرأ على الأرض والماء والشمس والقمر وسائر الاجرام السماوية من عوارض التغير والتقلب ، أو لاح له أن هذه الاجرام لو كانت لها مشيئة لحكمت على نفسها ، فأما وهي لا تملك نفسها فكل ما تصنعه ، وكل ما ينفعنا من صنيعها ، فليس من عندها بل

من عند من يحكمها وهو الجدير دون سواه بالشكر والطاعة منا ..

« والواقع أن هذه الأفكار هي التي أثارت عليه الكلدانيين والعراقيين فرأى من الخير بمشيئة الله ومعونته أن يرحل إلى أرض كنعان ، وهناك استقر وبنى لله مذبحا وقدم عليه القربان .

« ويذكر المؤرخ برسوس أبانا ابراهيم ولا يسميه حيث يقول انه في الجيل العاشر بعد الطوفان عاش بين الكلدانيين رجل صدق متبحر في العلوم السماوية .. وزاد المؤرخ هكتاتوس [١] على ذلك انه ألـّف كتابا عنه ، وقال نقولا الدمشقي في الكتاب الرابع من تاريخه أن ابراميس [٢] حكم في دمشق وكان مغيرا قدم من أرض بابل من البلاد التي تسمى بلاد الكلدانيين ، ولم يمض عليه زمن طويل حتى هجرها وقومه إلى أرض كنعان – وتسمى اليوم يهودا – وفيها ذريته الذين سأكتب عنهم في كتاب آخر ، ولا يزال اسم ابرام مشهورا في اقليم دمشق حيث تسمى احدى القرى بمسكن ابرام .

« ثم مضى زمن وأصاب كنعان القحط وسمع ابراهيم برخاء المصريين ، فاعتزم الهجرة إلى مصر ليصيب من خيراتها ويسمع ما يقوله أحبارها في أمر الله ، وفي نفسه اذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده أن يتقبله ، أو يرى أن عقيدته خير مما عندهم فيدعوهم اليها .

« وأخذ سارة معه، وخاف ولع المصريين بالنساء وأن يغصبه عليها الملك ويقتله من أجلها لجمالها فأوصاها أن تقول انها أخته ، وحدث بعد وصوله إلى مصر كل ما توقعه فتسامع الناس بجمال زوجته ولم يقنع فرواثيس[٣] ملك المصريين بالسماع فهمّ بأخذها لولا أن الله أحبط جريمته بما فشا في مصر من الوباء والقلاقل ، ثم قرب الملك قرابينه ليعلم حقيقة

---

(١) عاش هكتاتوس في مصر في القرن الثالث قبل الميلاد .
(٢) حسب الكتابة الاغريقية .
(٣) يقصد فرعون .

البلاء فقال له الأحبار ان البلاء من غضب الله لأنه نوى في نفسه أن يغتصب امرأة رجل غريب ..

« ولما بلغ منه الرعب سأل سارة من هي ومن هو الرجل الذي جاءت به معها ، فاعتذر لإبراهيم حين علم جلية الخبر وقال له انه لم يتعلق بها إلا لظنه أنها أخته لا زوجته ، وانما أراد أن يبني بها ولم يرد أن يغتصبها في نزوة من نزوات هواه ، ثم أغدق على ابراهيم ثروة جزيلة [1] ، وطفق ابراهيم يباحث علماء مصر وتزداد شهرته بالعلم والفضيلة ..

« ولما رأى ابراهيم أن المصريين متشبثون بعادات شتى يخالف بعضهم بعضا من جرائها ويعادي بعضهم بعضا لأجلها جعل يناقشهم فيها كل فريق على حدة ويبدي لهم جميعا أنها ليست على شيء من الحق ، ويحل بذلك منهم محل الاعجاب فيعلمون أنه لم يكن على نصيب وافر من الفطنة وحسب ، بل كان كذلك عظيم القدرة على اقناع سامعيه في كل موضوع تناوله ببحثه ، وقد أطلعهم على علم الحساب وقوانين الفلك ، ولم يكن أحد من المصريين على علم بها قبل مقدم ابراهيم ، وانما جاءت من الكلدان إلى مصر ثم من مصر إلى الاغريق .

« ثم قسم الأرض بينه وبين لوط بعد عودته إلى أرض كنعان ، وكان رعاتهم يتنازعون المرعى في مكان واحد ، فجعل لوط يختار ما يشاء ورضي هو بما تركه له من منخفض الأرض في تابرو — حبرون — وهي أقدم من مدينة تانيس بسبع سنوات [2] .

« أما لوط فاختار السهل إلى ناحية نهر الأردن غير بعيد من مدينة سدوم ، وكانت مدينة عامرة قضى الله عليها بالخراب لما سنبينه في موضعه .

---

(١) في موضع آخر من تاريخ يوسيفوس يذكر ان حاكما أغار على فلسطين واقتاد سارة مع السبايا .

(٢) يرجع تاريخ تانيس الى أكثر من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكان الشائع في القرن الاول للميلاد على غير ثقة أن حبرون بنيت سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد .

« وكانت سدوم مزدهرة في العصر الذي سيطر فيه الأشوريون على آسيا ، وغزرت ثروتها وتكاثر عدد شبابها وحكم أرضها خمسة ملوك هم بالاس وبالياس وسينابان وسنفبر وملك البالان — كل منهم في اقليمه ، وزحف الأشوريون على هؤلاء الملوك الخمسة بعد أن قسموا جيوشهم إلى أربعة أقسام يقود كل جيش منها قائد غير قواد الجيوش الأخرى ، ثم ضربوا عليهم الحصار ودارت المعركة بينهم وفرض الأشوريون جزية على الملوك السدوميين ، وخضع هؤلاء الملوك اثنتي عشرة سنة يؤدون الجزية التي فرضت عليهم ، ولكنهم ثاروا في السنة الثالثة عشرة فجرد عليهم الأشوريون جيشا بقيادة أمرا بسيدس واريوخ وقدر لعومر وثدال ، وعاث هؤلاء في سورية جميعا وأخضعوا سلالة الجبارين ثم بلغوا سدوم وعسكروا في الوادي المعروف بحفرة القار ، اذ كان الوادي كثير الحفر حين كانت سدوم عامرة ، ثم امتلأت الحفر بالماء بعد تدميرها وأصبحت بحيرة تسمى بالاسفلتية ، وسأعود إلى خبر هذه البحيرة قريبا .

« واشتبك السدوميون والأشوريون في قتال عنيف هلك فيه كثيرون ووقع الباقون من السدوميين في الأسر ، وكان بين الأسرى لوط وقومه لأنهم حالفوا السدوميين .

« وسمع ابراهيم بالنكبة فداخله الخوف على قريبه لوط والاشفاق على أصحابه وجيرانه السدوميين ، واعتزم التعجيل بانقاذهم وخرج في الليلة الخامسة فانقض على الأشوريين بالقرب من مدينة دان على احدى شعبتي نهر الأردن وفاجأهم قبل أن يستعدوا بالسلاح ، وذبح بعضهم وهم على فراشهم جاهلين بمصيرهم ، وهرب الآخرون الذين استلقوا على الفراش سكارى ولما يستغرقوا في الرقاد ، فجد ابراهيم في اقتفاء أثرهم حتى بلغ (أوبه) بأرض الدمشقيين ودل بذلك على أن النصر لا يتوقف على كثرة الأيدي وان الغيرة والصلابة تغلبان العدد الكثير ، لأنه انتصر بثلثمائة وثمانية عشر من عبيده وثلاثة من أصحابه على ذلك الجمع الكبير ، وأرسل بقيتهم ناجين بالخزي إلى ديارهم .

« ولما خلص ابراهيم السدوميين ومعهم قريبه لوط عاد في سلام ، ولقيه ملك سدوم في المكان المسمى بالوادي الملكي واستقبله هناك ملك سليمي ملكي صادق ، ومعنى هذا الاسم الملك الصديق وهو اسم اشتهر به بين الجميع فاختاروه كاهنا لله ، وأصبحت سليمي هذه المكان الذي عرف بعد ذلك باسم أورسليمي (أورشليم) .

« ورحب ملكي صادق بابراهيم ووسعه ومن معه في ضيافته وجعل في أثناء الضيافة يثني على ابراهيم ويحمد الله الذي أسلم أعداءه إلى يديه ، فقدم له ابراهيم عندئذ عشر الغنائم فقبل الهدية ، أما ملك سدوم فقد رجا ابراهيم أن يستبقي له كل الغنائم ولم يطلب غير رعيته التي أسرها الأشوريون ، فأبى إبراهيم أن يأخذ شيئا غير طعام عبيده ، ووهب بعض الغنائم لشركائه في القتال ، وأولهم اسخون والآخران عنر ومامبر .

« ورضي الله عن هذه المأثرة منه وقال له : انه لن يضيع جزاءه على هذا العمل الطيب ، فأجاب ابراهيم : وأي شيء يسرني من هذا الجزاء إن لم يكن لي وريث بعدي ؟ فأنبأه الله أنــه سيعقب ولداً تبلــغ ذريته عــدد النجوم في كثرتهــا . فقرب ابراهيم إلى الله قربانــا حسب أمره عند سماعه بهذه البشرى ، وكان القربان على هذا النحو ، إذ أخذ عجــلا ابن ثلاث سنوات وحملا ابن ثلاث سنوات كذلك ويمامة وحمامة ، وذبحها وشطر كلا منها شطرين ما عدا الطير ، وقبل أن يقام المذبح ، ولما تزل جوارح الطير تحوم على الذبائح ، متعطشة للدم ، سُمع صوت الهي يقول له ان ذريته ستلقى الشر من جيرة مصر أربعمائة سنة ولكنهم بعد العذاب يغلبون عدوهم ويقهرون الكنعانيين في القتال ويملكون أرضهم ومدائنهم ..

« وكان ابراهيم يعيش على مقربة من بلوطة عجيج ، غير بعيد في أرض كنعان من مدينة الحبرونيين ، حيث أحزنه عقم زوجته فصلى لله كي يرزقه ولداً ذكراً وأمره الله أن يوقن من ذلك كما أيقن بالخير من طاعته لأمر الله الذي أمره بالهجرة من العراق .

« وأحضرت سارة بأمر الله إلى فراشه احدى جواريها المصريات المسماة هاجر عسى أن يرزق منها ذرية ، فلما حملت اجترأت على اهانة سارة واتخذت سمة الملكات كأنما تصير حوزة ابراهيم كلها إلى ابنها الذي لم يولد ، فأسلمها ابراهيم إلى سارة تؤدبها ، ولم تصبر هاجر على مذلتها فهربت ودعت إلى الله أن يتولاها برحمته ، وبينما هي في البرية ظهر لها ملك من عند الله وأمرها أن تعود إلى سيدها وسيدتها ووعدها أن ترضى عن عيشها اذا هي غضت من كبريائها لأنها لقيت ما لقيته من جراء الاستطالة على مولاتها ، وانها اذا عصت أمر ربها هلكت ولكنها اذا عادت إلى البيت صارت أما لولد يملك تلك الأرض ، فأطاعت وعادت إلى سيدها وسيدتها فسامحاها ووضعت بعد قليل ولدا سمته اسماعيل أي المسموع من الله ، لأن الله استمع لصلاتها .

« وكان ابراهيم قد بلغ السادسة والثمانين حين ولد له هذا الولد ، وبلغ التسعة والتسعين حين تراءى له الرب وبشره بولد يرزقه من سارة ، آمرا له أن يسميه اسحاق وموحيا اليه أن أمما عظيمة وملوكا سيخرجون من نسله وأنهم يستولون بالحرب على أرض كنعان كلها من صيدا إلى مصر ، وعليهم أن يختتنوا لكيلا يختلطوا بالأمم الأخرى ، وأن يكون الختان في اليوم الثاني بعد الولادة ، وسأبين فيما بعد أسباب عادة الختان عندنا ..

« وسأل ابراهيم عن اسماعيل هل يعيش ؟ فأنبأه الله أنه سيعيش ويعمر ويصبح أبا لأمم عظيمة ، فشكر ابراهيم لربه هذه النعم ، واختتن هو وآل بيته جميعا واسماعيل الذي كان يومئذ في الثالثة عشرة ، وكان أبوه في التاسعة والتسعين .. » .

ثم مضى يوسيفوس يروي قصة سدوم ، ونجاة لوط إلى صغير التي سميت بذلك لصغرها ، وان بنتي لوط أشفقتا من هلاك الجنس البشري فولدتا لأبيهما موآب ومعناها من الأب ، وعمان ومعناه ابن السلالة ، ومن ذريتهما أبناء سورية الشرقية والجنوبية .

ثم روى يوسيفوس مولد اسحاق وختانه في اليوم الثامن ، وأن العرب

يؤجلون الختان إلى السنة الثالثة عشرة كما اختتن أبوهم اسماعيل ، وان سارة عادت فأصرت على اقصاء هاجر وابنها ، فخرجا إلى البرية وكاد الغلام أن يموت عطشا تحت شجرة من أشجار التنوب لولا أن هدى الملك من الرب هاجر أمه إلى ينبوع ماء قريب .

قال يوسيفوس : ولما بلغ الصبي مبلغ الرجال زوجته أمه مصرية من قومها فولدت له اثني عشر ولدا هم نبايوث ، وقدار ، وعبدئيل ، ومبسام ، ومشمع ، وادوم ، وماسم ، وقدوم ، وتيمان ، وجثور ، ونافش ، وقدماس ، واستولى هؤلاء على الأرض كلها من العراق إلى البحر الأحمر وسموا بالنباتيين (النبطيين) وهم الذين سمي باسمهم جميع أمة العرب وقبائلها اكراما لشأنهم ولشهرة ابراهيم .

ثم بنى ابراهيم بعد ذلك بقطورة وولد له منها ستة أبناء أقوياء على العمل سرعاء في الفهم ، وهم زمبران وجزار ومدان ومديان ولوشباق وسوس .. فأرسلهم ابراهيم وأبناءهم يلتمسون لهم منازل على التروجلوديتس[1] Troglodytis وفي بلاد العربية السعيدة التي تمتد إلى البحر الأحمر ، ويقال إن أفرون بن مدان جرد حملة على لوبيا واحتلها وان أبناء أبنائه أقاموا هناك وسموا الأرض باسم افريقيا .

ثم ختم يوسيفوس قصة ابراهيم بنبأ وفاته .

وقال : ان اسحاق واسماعيل دفناه إلى جوار سارة في مقبرة حبرون ، وكان قد روى في ختام قصة سارة ان الكنعانيين تبرعوا بدفنها على النفقة العامة ، ولكن ابراهيم اشترى المدفن من اخرايم بأربعمائة مثقال .

(٢) ابن العبري

واذا كان يوسيفوس مثلا للمؤرخ القديم من الوجهة الاسرائيلية فابن العبري أبو الفرج بن هرون صاحب مختصر الدول المتوفى سنة ١٢٨٦ قد يكون المثال الوحيد للمؤرخ القديم من الوجهة المسيحية في هذا الموضوع

(١) شاطىء البحر الاحمر الشرقي وقد يطلق على الشاطىء المقابل .

لأنه إمام من أئمة الكنيسة السريانية التي ينتشر أتباعها في مواطن ابراهيم ويحفظون أخباره التقليدية منذ القرن الأول للميلاد .

قال في كلامه عن دولة الأولياء — أي الآباء — في بني اسرائيل :

« ومن أئمتنا باسليوس وأفريم يزعمان أن من آدم إلى عابر هذا كانت لغة الناس واحدة وهي السريانية ، وبها كلم الله آدم .

« وتنقسم إلى ثلاث لغات : أفصحها الآرامية وهي لغة أهل الرها وحران والشام الخارجة وبعدها الفلسطينية وهي لغة دمشق وجبل لبنان وباقي الشام الداخلة ، واسمجها الكلدانية النبطية وهي لغة أهل جبال أثور (أشور) وسواد العراق . ويعقوب الرهاوي يقول ان اللغة لم تزل عبرية إلى أن تبلبلت الألسن ببابل .

« وفالغ بن عامر ولد له أرعو وعمره على الرأي السبعيني [1] مائة وثلاثون سنة وعلى رأي اليهود ثلاثون سنة ، وجميع أيامه ثلثمائة وثلاث وأربعون سنة ..

« في سنة مائة وأربعين لفالغ فلغت الأرض أي قسمت قسمة ثانية بين ولد نوح . فصار لبني سام وسط المعمورة فلسطين والشام أشور وسامرة وبابل وفارس والحجاز ، ولبني حام التيمن كله أي الجنوب : أفريقية والزنج ومصر والنوبة والحبشة والسند والهند ، ولبني يافث الجربيا أي الشمال : الأندلس والأفرنجة وبلاد اليونانيين والصقالبة والبلغار والترك والأرمن . وبعد وفاة فالغ ثارت الفتن بين بنيه وبين بني يقطان أخيه ، وشرع الناس في تشييد الحصون .

« وأرعو بن فالغ ولد له ساروغ وعمره على الرأي السبعيني مائة واثنان وثلاثون ، وعلى رأي اليهود اثنتان وثلاثون سنة ، وجميع أيامه ثلثمائة وتسع وثلاثون سنة .

---

(١) ترجمة التوراة المعروفة بالترجمة السبعينية في اشتراك اثنين وسبعين مترجما في نقلها الى اليونانية .

« وفي سبعين سنة لأرعو قال الناس بعضهم لبعض هلموا نضرب لبنا ونحرق آجرا ونبني صرحا شامخا في علو السماء ، ويكون لنا ذكر كي لا نتبدد على وجه الأرض ، فلما جدوا في ذلك بأرض شنعار وهي السامرة ونمرود بن كوش قات رافعي الصرح بصيده — أي جلب لهم القوت — وهو أول ملك قام بأرض بابل ، وهو الذي رأى شبه اكليل في السماء واتخذ مثله ووضعه على رأسه فقيل ان اكليله نزل من السماء .. قال الله تعالى : هذا ابتداء عملهم ولا يعجزون عن شيء يهتمون به ، سوف أفرق لغاتهم لئلا يعرف أحدهم ما يقول الآخر . فبدد الله شملهم على وجه الأرض ، وأرسل رياحاً عاصفة فهدمت الصرح ومات فيه نمرود الجبار وتبلبلت لغات الآدميين ، ولذلك دعي اسم ذلك الموضع بابل .. وبنى نمرود ثلاث مدن : ارخ وخيليا — أي الرها ونصيبين — والمدائن .

« وساروغ بن أرعو ولد له ناحور وعمره على الرأي السبعيني تسع وسبعون سنة وعلى رأي اليهود تسع وعشرون سنة ، وجميع أيامه مائتان وسنة واحدة ، وفي خمس وعشرين سنة من عمره كان جهاد أيوب الصديق على رأي أروذ الكنعاني ، وبنى أرمونيس ملك كنعان سدوم وعامورا على اسم ولديه ، ومدينة صاعر على اسم أمهما .

« وترح بن ناحور ولد له ابراهيم وعمره على الرأيين جميعا سبعون سنة ، وجميع أيامه مائتان وخمس وسبعون سنة ، ومات بمدينة حران ، وبنى مورفوس ملك فلسطين مدينة دمشق قبل ميلاد ابراهيم بعشرين سنة ، ويوسيفوس يقول ان عوص بن أرام بناها ، ومن ها هنا يتفق التاريخان السبعيني والعبراني .

« وابراهيم بن ترح ولد له اسحاق وعمره مائة سنة ، وجميع أيامه مائة وخمس وسبعون سنة ، ولما أتت عليه خمس عشرة سنة استجابه الله في العقاعق — أي الطيور — التي كانت تفسد في أرض الكلدانيين وتسحق زروعهم .. وأحرق ابراهيم هيكل الأصنام بقرية الكلدانيين ودخل هاران أخوه ليطفىء النار فاحترق ، ولذلك فر ابراهيم وعمره ستون سنة مع أبيه

ترح ، وناحور أخيه ، ولوط بن هاران أخيه المحترق ، إلى مدينة حران وسكنها أربع عشرة سنة .

« ثم خاطبه الله قائلا : انتقل عن هذه الديار التي هي ديار آبائك إلى حيث آمرك . فأخذ سارة امرأته ولوط ابن أخيه وصعد إلى أرض كنعان وحارب ملوك كدر لعمر وقهرهم . وفي عوده من المحاربة اجتمع بملكيزدق الكاهن الأعظم وخر لوجهه بين يديه وأعطاه عشرا من السلب وباركه ملكيزدق ..

« وفي سنة خمس وثمانين من عمره وعده الله أن يجعل نسله كعدد الكواكب في السماء ، وذريته كرمل البحار ، فوثق ابراهيم بالله حق الثقة . وفي هذه السنة دخل إلى مصر ووُشي بحسن سارة امرأته إلى فرعون فسأل ابراهيم عنها فقال : هي أختي من أبي لا من أمي . ولم يكذب بقوله هذا لأنها كانت ابنة عمه ، فأقام جدهما مقام أبيهما .

« فاحتازها فرعون إلى نفسه مختليا حتى تحقق انها زوجته فردّها اليه مع هدايا جزيلة ، من جملتها هاجر المصرية أمة سارا ، وتقدم اليه بالانتزاح من بلده خوفا من أن يهجس في صدره هاجس سوء ثانيا .

« ولأنه لم يكن لابراهيم ولد من امرأته سارا سمحت بجاريتها هاجر فوطئها ابراهيم وولدت له اسماعيل، واستهانت هاجر بسارا مولاتها شامخة عليها بسبب ولدها فأزاحتها سارا من عندها إلى القفر بغيظة منها . فتراءى ملك الرب لهاجر قائلا لا تيأسي من رحمة ربك ، فان الله بارك على الصبي حين خاطب أباه ابراهيم ، وكان خاتمة البركة باللغة السريانية هكذا : وأكبرته طب طب وأعظمته جدا جدا .

« أقول قد اتفق في هذه الألفاظ سر عجيب لاح في عصرنا وهو أنا إذا جمعنا حروفها بحساب الجمل كان الحاصل ستمائة وستا وخمسين سنة ، وهي المدة من الهجرة إلى السنة التي قتل فيها آخر الخلفاء العباسيين وزوال الملك المعظم جدا عن آل اسماعيل .

« وبعد مائة سنة مضت من عمر ابراهيم ولد له اسحق من سارا ، لما حصل لاسحاق تسع عشرة سنة أصعده ابراهيم لجبل نابو ليضحي به ضحية لله تعالى ، ففداه الله بحمل مأخوذ من الشجرة وأنقذه ..

« والحمل مثال لسيدنا يسوع المسيح له المجد الذي فدى العالم بنفسه ، ولذلك قال في انجيله المقدس : ان ابراهيم كان يرجو أن يشاهد يومي ، فشاهد وسر . وقيل في تلك السنة أتم ملكيزدق بناء أورشليم .

« وفي ثماني وثلاثين سنة من عمر اسحاق درجت سارا أمه وعمرها مائة وسبع وعشرون سنة ، وتزوج ابراهيم قنطورا ابنة ملك الترك .

ولما بلغ اسحاق أربعين سنة نزل اليعازر — وليد بيت ابراهيم — إلى حران وجاء برفقا زوجة اسحاق ، ولما توفي ابراهيم دفن إلى جانب قبر سارا زوجته في المغارة المضاعفة التي ابتاعها من عفرون الحيثاني خوفاً من عودا الطوفان ..

(٣) ابو الفداء

ونختار أبا الفداء من المؤرخين الاسلاميين ، لأنه كتب في القرن الثامن واعتمد على كبار المؤرخين الموسوعيين من قبله ، وقضى أيامه على صلة بأقطار العراق العليا و « أشور » القديمة وعلى علم بمراجع أصحاب السير فيها ، فليس أقدر منه على تلخيص ابراهيم والتعقيب عليه من مصادره في زمنه ..

قال عن ابراهيم عليه السلام :

« هو ابراهيم بن تارح ، وهو آزر بن ناحور بن ساروغ بن رعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وقد اسقط ذكر قينان ابن أرفخشذ من عمود النسب ، قيل بسبب أنه كان ساحراً فأسقطوه من الذكر ، وقالوا شالح بن أرفخشذ وهو بالحقيقة شالح بن قينان بن أرفخشذ فاعلم ذلك .

« وولد ابراهيم بالاهواز ، وقيل ببابل . وهي العراق . وكان آزر أبو ابراهيم يصنع الأصنام ويعطيها ابراهيم ليبيعها . فكان ابراهيم يقول: من يشتري ما يضره ولا ينفعه! ثم لما أمر الله ابراهيم أن يدعو قومه إلى التوحيد دعا أباه فلم يجبه ، ودعا قومه فلما فشا أمره واتصل بنمرود بن كوش — وهو ملك تلك البلاد . وكان نمرود عاملاً على سواد العراق وما اتصل به للضحاك . وقيل بل كان نمرود ملكاً مستقلاً برأسه — فأخذ نمرود ابراهيم الخليل ورماه في نار عظيمة فكانت النار عليه برداً وسلاماً وخرج ابراهيم من النار بعد أيام ، ثم آمن به رجال من قومه على خوف من نمرود ، وآمنت به سارة وهي ابنة عمه هاران .

ثم ان ابراهيم ومَن آمن معه وأباه على كفره فارقوا قومهم وهاجروا إلى حران وأقاموا بها مدة ، ثم سار ابراهيم إلى مصر وصاحبها فرعون ، قيل كان اسمه سنان بن علوان ، وقيل طوليس فذُكر جمال سارة لفرعون — وهو طوليس المذكور — فأحضر سارة اليه وسأل ابراهيم عنها فقال : هذه أختي ، يعني في الاسلام . فهمّ فرعون المذكور بها فأيبس الله يديه ورجليه ، فلما تخلى عنها أطلقه الله تعالى ، ثم هم بها فجرى له كذلك ، فأطلق سارة وقال لا ينبغي لهذه ان تخدم نفسها ، ووهبها هاجر جارية لها ، فأخذتها وجاءت إلى ابراهيم ، ثم سار ابراهيم من مصر إلى الشام ، فأقام بين الرملة وايليا ، وكانت سارة لا تلد ، فوهبت ابراهيم هاجر ، وواقعها ابراهيم فولدت اسماعيل ، ومعنى ابراهيم بالعبراني مطيع الله .

« وكانت ولادة اسماعيل لمضي ست وثمانين سنة من عمر ابراهيم ، فحزنت سارة لذلك فوهبها الله اسحاق ، وولدته سارة ولها تسعون سنة .

« ثم غارت سارة من هاجر و ابنها اسماعيل ، وقالت: ابن الامة لا يرث مع ابني ، وطلبت من ابراهيم أن يخرجهما عنها ، فأخذ ابراهيم هاجر وابنها وسار بهما إلى الحجاز ، وتركهما بمكة : وبقي اسماعيل بها وتزوج من جرهم امرأة .

« وماتت هاجر بمكة ، وقدم اليه أبوه ابراهيم وبنيا الكعبة، وهي بيت الله الحرام ، ثم أمر الله ابراهيم ان يذبح ولده ، وقد اختلف في الذبيح هل هو اسحاق ام اسماعيل ، وفداه الله بكبش .

« وكان ابراهيم في أواخر أيام بيوراسب المسمى بالضحاك ، وفي اوائل ملك افريدون . وكان النمرود عاملاً له حسب ما ذكرناه .

« وكان لابراهيم اخوان وهما هاران وناحور ، ولدا آزر .

« فهاران أولد لوطا،وأما ناحور فأولدبتويل،وبتويل أولدلا بان ولابان أولد ليا وراحيل زوجتي يعقوب. ومن يزعم أن الذبيح اسحاق يقول كان موضوع الذبح بالشام على ميلين من ايليا، وهي بيت المقدس . ومن يقول إنه اسماعيل يقول ان ذلك كان بمكة .

« وقد اختلف في الأمور التي ابتلى الله ابراهيم بها، فقيل هي هجرته عن وطنه والختان ، وذبح ابنه ، وقيل غير ذلك .

« وفي أيام ابراهيم توفيت زوجته سارة بعد وفاة هاجر ، وفي ذلك خلاف ، وتزوج ابراهيم بعد موت سارة امرأة من الكنعانيين، وولدت من ابراهيم ستة نفر ، وكان جملة أولاد ابراهيم ثمانية : اسماعيل واسحاق، وستة من الكنعانية على خلاف في ذلك .. »

* * *

ثم انتقل المؤرخ إلى سيرة اسماعيل واسحاق ، فقال عن اسماعيل ..
« انه ولد لابراهيم لما كان لابراهيم من العمر ست وثلاثون سنة، ولما صار لاسماعيل ثلاث عشرة سنة تطهر هو وابراهيم، ولما صار لابراهيم مائة سنة وولد له اسحاق أخرج اسماعيل وأمه هاجر إلى مكة بسبب غيرة سارة منها، وقولها : أخرج اسماعيل وأمه . لأن ابن الأمة لا يرث مع ابني . وسكن مكة مع اسماعيل من العرب قبائل جرهم ، وكانوا قبله بالقرب من مكة ، فلما سكنها اسماعيل اختلطوا به، وتزوج اسماعيل امرأة من جرهم ورزق

منها اثني عشر ولداً. ولما أمر الله تعالى ابراهيم عليه السلام ببناء الكعبة — وهو البيت الحرام — سار من الشام وقدم على ابنه اسماعيل مكة ، وقال : يا اسماعيل ! ان الله تعالى أمرني أن ابني له بيتاً ، فقال اسماعيل : أطع ربك. فقال ابراهيم : وقد أمرك أن تعينني عليه. قال : اذن أفعل ...فقام اسماعيل معه وجعل ابراهيم يبنيه واسماعيل يناوله الحجارة ،وكانا كلما بنيا دعوا فقالا : ربنا تقبل منا . إنك أنت السميع العليم . وكان وقوف ابراهيم على حجر وهو يبني ، وذلك الموضع هو مقام ابراهيم ، واستمر البيت على ما بناه ابراهيم إلى أن هدمته قريش سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان بناء الكعبة بعد مضي مائة سنة من عمر ابراهيم بمدة ، فيكون بالتقريب بين ذلك وبين الهجرة ألفان وسبعمائة ونحو ثلاث وتسعين سنة » .

وأرسل الله اسماعيل إلى قبائل اليمن ، وإلى العماليق ، وزوج اسماعيل ابنته من ابن اخيه العيص [1] بن اسحاق ، وعاش اسماعيل مائة وسبعاً وثلاثين سنة ومات بمكة ودفن عند قبر أمه هاجر بالحجر ، وكانت وفاة اسماعيل بعد وفاة ابيه ابراهيم بثمان وأربعين سنة .. »

ثم قال المؤرخ بعد أن استطرد إلى سيرة موسى الكليم : « وكان مولد موسى لمضي اربعمائة وخمس وعشرين سنة .. إلى أن قال عن خراب بيت المقدس سنة عشرين من ولاية بختنصر تقريباً ، وهي السنة التاسعة والتسعون بعد التسعمائة لوفاة موسى .. »

---

(١) هو عيسو في لغة التوراة .

تذييل

إلى هنا انتهت المصادر الدينية ومراجع التاريخ القديم التي رويت فيها سيرة الخليل ابراهيم .

وهذه المراجع هي الاساس الذي يقوم عليه كل ما تجده في العصر الحديث من اخبار الحفريات الاثرية وتعليقات المؤرخين عليها .

ومن الواجب ان نعرف مبلغ قوة هذا الاساس قبل ان ننتقل منه إلى البناء الذي يرتفع عليه .

ففي تقديرنا ان هذا الاساس اليوم أقوى مما كان عليه عند المؤرخين العلميين قبل القرن العشرين .

فقد كانت البدعة الشائعة في القرن الماضي ان التواريخ الدينية لا تصلح ان تكون أساساً للتواريخ العلمية .

وكان يكفي أن تروى الحادثة وتنسب إلى سبب خارق للطبيعة ليقول المؤرخون العلميون انها لم تحدث ولا يعقل ان تحدث ، ولا يقنعوا بالشك في السبب ومحاولة البحث عن سبب آخر داخل في التعليلات الطبيعية .

وكان يكفي ان يقال ان نبياً من الأنبياء عاش ثلثمائة سنة او نحوها ليقال إنه لم يوجد قط فضلاً عن ان يكون قد وجد وقد عاش أقل من عمره المذكور ..

كل هذا قد تغير في معيار البحث الحديث أو وجب ان يتغير ، لأنه مناقض للعلم نفسه ، عدا ما هو ظاهر من مناقضته للدين .

فقد ثبت اليوم ان الاخبار الدينية سبقت المباحث الحفرية والمقارنات العلمية إلى تقرير أحكام التاريخ التي صحت في رأي المتأخرين بالبراهين الحديثة ..

ومن أمثلة ذلك وحدة الاجناس السامية في نشأتها ، فان العلماءالعصريين قد عرفوا هذه الوحدة من المقارنة بين اللغات ، ومن الدراسات الاخيرة في علم السلالات البشرية ، ومن تفسير الكتابة على الآثار المطمورة والهياكل المهجورة .

وهذه الدراسات جميعاً من مستحدثات الزمن الاخير ، لم يستخرج منها العلماء دليلاً موثوقاً به قبل مائة سنة .

فاذا احترم العالم حكمه وتقديره وجب ان يفهم ان كلام الأمم السامية عن وحدة اصولها يستند ولا شك إلى أصل عريق وسند وثيق، لأنها تكلمت عن هذه الوحدة وهي لا تعرف شيئاً من مقارنات اللغات والاحافير ولم يكن في وسعها ان تعرف شيئاً عنها قبل ألوف السنين .

فمن أين جاء لتلك الأمم انها سلالة أصل واحد ان لم يكن لها مرجع تعول عليه ولا يجوز للعلم رفضه واسقاطه من الحساب ؟

كذلك شاعت في القرن الماضي بدعة العلم — أو أدعياء العلم — الذين رفضوا كل خبر له علاقة بالمعجزات وخوارق الطبيعة .

فاذا قال قائل: ان هذه المدينة دمرها الله لفسادها وعدوانها على أنبيائه أسرع أولئك الأدعياء فأبطلوا القصة كلها وقالوا انه لا مدينة ولا فساد ولا أنبياء ، وان الأمر كله حديث خرافة أو تلفيق خيال ..

فاليوم قد ثبتت وقائع لا شك فيها من تواريخ تلك المدن التي تواترت الأنباء الدينية بتدميرها في الزمن القديم .

وقد تتابع التنقيب في وادي الأردن وشواطىء البحر الاحمر ورمال الاحقاف من جنوب بلاد العرب ، فظهر من الاحافير انها كانت بلاد

زلازل وأغوار وعوارض جوية تطابق ما وصفته الكتب الدينية من أحوال عمارها وأحوال خرابها، وان الزمن الذي وقعت فيه نكباتها قريب من الزمن المقدور لقيام الانبياء فيها، ولم ينحصر الأمر في دلالات الكوارث الطبيعية كالزلازل والأعاصير ، بل جاءت الدلالات الاجتماعية مصححة موضحة تعلم الباحثين الأناة والرصانة قبل التعجل بالرفض والانكار .

فلم يكن أبناء الشواطىء على البحر الاحمر يعلمون شيئاً عن التواريخ التي كتبت بالاغريقية واللاتينية ثم اندثرت في القرون الوسطى وظلت مندثرة إلى أن تجددت وانتشرت بين الاوربيين والمطلعين على اللغات الاوربية في العصر الحديث .

ولكن القدماء على شواطىء البحر الاحمر تحدثوا عن المدن التي كانت تحتكر التجارة وتماكس وتبالغ في اضافة الارباح والأتاوات ، ولم تأتها هذه الاخبار من المراجع الاغريقية او اللاتينية بطبيعة الحال، فلا بد من الاعتراف لها بمرجع معول عليه ، وليس من الجائز ان يتعجل العالم الامين بالشك فيه ..

ومن أمثلة هذه الأخبار مثل الهزيمة التي حلت بأبرهة الاشرم صاحب الفيل الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، وان جيشه هلك بالطير الابابيل، ترميهم بحجارة من سجيل ، وقال أبو عبدالله عكرمة مولى عبدالله بن عباس انهم أُصيبوا بالجدري (وان من أصابته الحجر ، جدرته) .

فهذا الخبر عن الجدري قد أيده من لم يرد تأييده من مؤرخي اليونان والرومان ، فقد ذكر الوزير بركوب Procobe من أبناء القسطنطينية ان مرض الجدري ظهر في مصر عند منتصف القرن السادس قل الميلاد ، وروى بروس Bruce الذي زار بلاد الحبشة في القرن الثامن عشر أن الاحباش يذكرون في تواريخهم كيف ارتد ابرهة وانه رجع عن مكة لما اصاب جيشه من المرض الذي يصفونه بصفة الجدري ، وكتب غير واحد من مؤرخي اليونان ان ابرهة زحف على مكة في مركبة يجرها اربعة من الفيلة وان جيشه لم يعد منه الا القليل لكثرة من مات منه بالوباء .

فأيسر ما يفهمه العالم الامين من هذا وأشباهه ان المصادر القديمة قائمة على أساس لا يجوز اهماله، وان المستقبل خليق أن يفسر منه أكثر مما فسرناه حتى اليوم .

وقد تمحصت مسألة الأعمار الطوال ووضعت في مواضعها من الدراسة التاريخية فليس فيها ما يعترض الباحث في تاريخ قديم او تاريخ حديث .

وهذه المسألة — أي مسألة الأعمار — قد نوقشت كثيراً قبل القرن العشرين ، وتساءل المتناقشون فيها : هل حساب السنين واحد بين الأوائل والأواخر : أو هما حسابان مختلفان ؟

وضربوا لذلك مثلاً بأيام الخليقة، فان خلق العالم في ستة أيام يعني أياماً غير الأيام التي تحسب بطلوع الشمس وغروبها ، لأن الشمس خلقت في اليوم الرابع ، فلا بد أن يكون معنى الأيام انها أدوار لا تحسب بالشروق والغروب .

وتقرر ان الأوائل كانوا يحسبون للسنة رأسين : رأس السنة الزراعية ورأس السنة الديوانية ، فربما اجتمع في العام الواحد رأسان للسنة على هذا الحساب ..

وظن بعضهم ان حساب السنين كحساب الأهلة عند الأوائل ، ومن هؤلاء أبو العلاء المعري حيث يقول :

ورأيت الحمام يأتي على العا … لم من قاهر ومن مقهور
وادّعوا للمعمرين أموراً … لست أدري ما هن في المشهور
اتراهم فيما تقضي من الأيا … م عدّوا سنيهم بالشهور
كلما لاح للعيون هلال … كان حولا لديهم في الدهور

وليس هذا الظن بالصواب ، لأن الأوائل كانوا يعرفون حساب الأهلة وحساب الشمس منذ عهد بعيد يرجع إلى ما قبل التاريخ .

واجتهد بعضهم فقال ان الأعمار المقدرة هنا هي أعمار العشائر والدعوات

النبوية ، وكثيراً ما يجري الحديث حتّى اليوم باسم رأس العشيرة ويكون المقصود هو العشيرة كلها ، أو يقال ابن الشرق وابن الغرب وابن أوربة وابن أمريكا ، والمقصود هنا هو العشائر بأجمعها .

وتوافق على هذه المذاهب من التأويل اناس من كل ديانة كتابية ، فليست هي مقصورة على المسلمين ولا على المسيحيين ولا على اليهود، بل يشترك فيها أصحاب الفقه من جميع الأديان .

ونحن هنا لا حاجة بنا إلى الفصل في هذه التأويلات ، وانما أردنا بتمحيصها ووضعها في مواضعها ان الاتفاق تام بين أصحابها جميعاً على أمرين :

« أولا » ان تقدير الأعمار في كتب العهد القديم يزداد كلما تباعد الزمن بين رواة الخبر وبين عصور المعمرين الذين تحسب أعمارهم ، فكلما صغرت المسافة بين الزمنين كان التقدير أقرب إلى العمر المألوف .

فعند كتابة العهد القديم كان قد انقضى على عهد موسى عليه السلام نحو سبعة قرون ، وانقضى على عهد ابراهيم عليه السلام نحو احد عشر قرناً ، فحسب عمر موسى مائة وعشرين سنة ، وعمر ابراهيم مائة وخمس وسبعين سنة ، ويزداد التقدير إلى أكثر من ذلك كلما أوغل الزمن في القدم إلى ما قبل التاريخ .

فبهذه القاعدة أصبح تقدير الأعمار مساعداً على تقرير وقت الكتابة وتقرير الفترات بين العهود ، فلم يبطل حساب المراجع القديمة بهذا الاختلاف بين الأوائل و الأواخر في حساب الأعمار الطوال ، بل جاء فيه ما يساعد على الموازنة والقياس .

و « ثانياً » يلاحظ ان حساب العهود بيننا وبين الأوائل لا يختلف كما يختلف حساب الأعمار ، فابن الاثير مثلاً يقول اعتماداً على مصادره جميعاً ان عهد ابراهيم مضى عليه ألفان وسبعمائة ونحو ثلاث وتسعين سنة قبل الهجرة المحمدية ، وهذه التقديرات لا تطيل العهود والفترات بينها بنسبة الطول في أعمار الأفراد المعمرين ، فان هذا الحساب قريب من حساب علماء الأحافير

وطبقات الأرض الذين يقيسون الفترات بمقياس تكوين الطبقات وتتابع الظواهر الجيولوجية ، وسيأتي فيما بعد ان التفاوت بين تقديرات علماء الاحافير أنفسهم لا يقل عن التفاوت بين تقدير ابن الاثير على حسب مصادره وبين تقديرات هؤلاء العلماء مجتمعين .

وأيا كان مقطع الرأي في هذه المسائل جميعاً فليس من امانة التاريخ ان يستند اليها أحد في نفي الأخبار المتواترة ، ولا سيما أخبار العهود والدعوات ، ولاتزال الأسانيد الأولى أساساً قوياً لتواريخ الأمم ، ترجح فيه دلائل الثبوت على دلائل البطلان .

وبهذا الوزن ننتقل من المصادر الأثرية إلى ما بعدها ، ونعتمد على هذا الأساس ثم لا يمنعنا هذا الاعتماد ان نفرق بين الأسانيد في درجة القبول وميزان الترجيح ..

ولا ننتقل من الكلام عن المصادر الاثرية في جملتها حتى نضيف اليها مصدراً يستمد قوته من السكوت ولا يستمدها من البيان والايضاح .

فلا يخفى ان السكوت المتعمد يدل على كثير ، وربما كان في ميزان الصدق أدل من الكلام الذي يتعرض للتورية والمحال .

فاذا علمنا من بعض التواريخ انها تسكت عمداً عن بعض الأمور فقد علمنا شيئاً صحيحاً يبين لنا تلك الامور المسكوت عنها ، وبخاصة حين نعلم سبب السكوت .

لقد سكتت مصادر اليهود عن حالة العرب الدينية كل السكوت ، وترجع هذه المصادر إلى القرن السابع قبل الميلاد .

وقد تعمدت هذه المصادر أن تخرج أبناء اسماعيل من حقوق الوعد الذي تلقاه ابراهيم من الله ، وقالت ان هذا الوعد انما هو حق لأبناء ابراهيم من سلالة اسحاق ..

ان انتساب العرب اذن إلى اسماعيل قد كان تاريخاً مقرراً لا سبيل إلى

انكاره عند كتابة المصادر اليهودية التي حصرت النعمة الموعودة في أبناء اسحاق .

ولو لم يكن انتساب العرب إلى اسماعيل بن ابراهيم تاريخاً مقرراً في ذلك العصر – عصر كتابة المصادر اليهودية الاولى – لما كانت بهم حاجة إلى التمييز بين أبناء اسحاق وأبناء اسماعيل . اذ كان يكفي ان يقال ان النعمة الموعودة من نصيب أبناء ابراهيم عامة ليخرج من هذا الوعد من لم يكن من اليهود الذين لا ينازعهم أحد في الانتساب إلى ابراهيم .

لكن انتساب العرب إلى ابراهيم كان تاريخاً مقرراً كما هو واضح مما تقدم ، فلم يكن في الوسع انكاره، ولم يكن ثمة مناص من التفرقة بين أبناء ابراهيم من سلالة اسماعيل وأبناء ابراهيم من سلالة اسحاق .

وأكثر من ذلك ان كهان اليهود كانوا يحسون من العرب منافسة دينية فضلاً عن المنافسة الدنيوية ، فلو لم يكن للعرب حياة دينية يخشى الكهان منافستها لكان يكفيهم ان يحصروا وعد ابراهيم في أبنائه المؤمنين دون أبنائه الوثنيين الذين لا يعرفون الله الواحد الأحد ، فيخرج العرب بهذا الاستثناء من وراثة ابراهيم الروحية ، ولا تدعو الحاجة إلى اكثر من ذلك الاستثناء .

ولا شيء غير خطر المنافسة في النسب وخطر المنافسة في العقيدة الدينية يلجىء الكهان إلى حصر النعمة الموعودة في أبناء اسحاق دون ابراهيم .

وقد لوحظ ان الكهان يحصرون النسب شيئاً فشيئاً كلما احسوا بخطر المنافسة على سلطانهم وسلطان هيكلهم على الخصوص .

فخصصوا أبناء يعقوب بعد أن كان الوعد عاماً شاملاً لأبناء اسحاق اجمعين ، وقالوا ان الاسرائيليين هم أبناء يعقوب دون غيره، واسرائيل هو لقب يعقوب .

ثم انقسمت دولة اليهود إلى دولة في الشمال تسمى مملكة اسرائيل ودولة في الجنوب تسمى مملكة يهودا ، فقال كهان الهيكل ان النعمة الموعودة محصورة في أبناء داود .

وقبل ذلك بزمن طويل كان اللاويون يحصرون الرياسة الدينية فيهم دون غيرهم ، لأنهم يقولون ان اللاويين قبيلة موسى الكليم .

فاستثناء أبناء اسماعيل لم يحصل عبثا منذ القرن السابع قبل الميلاد على الأقل ، ولا بد من منافسة دينية ودنيوية دعت إلى هذا الاستثناء ، وإلى السكوت عن الحالة الدينية التي تخشى منها المنافسة ويشعر بها الكهان .

ولعل المنافسة في الحقيقة كانت بين الايمان بـ « يهوا » والايمان بالايل أو الاله ، فان العرب الاقدمين لم يذكروا « يهوا » قط بين اربابهم، وانما ذكروا الايل والاله والله تعالى ، وكان اليهود يعبدون الايل كما يعبده العرب، ومن ذلك تسمية اسماعيل واسرائيل وبتوئيل. فلما تشابه النسب بالانتماء إلى ابراهيم ، وتشابهت العبادة بالاتفاق على اسم الاله، جدت الرغبة بالكهان في الاستئثار من جهة والاستثناء من جهة اخرى، فحصروا النعمة الموعودة في أبناء اسحاق ثم في أبناء يعقوب ، ثم في أبناء داود، جريا على عاداتهم المطردة في امثال هذه الاحوال .

ومهما يكن من أمر هذا التاريخ المسكوت عنه فوجود النسبة إلى اسماعيل قديم لم يكن فيه حيلة لليهود ولا للعرب .

فلو أراد العرب أن يخترعوا لما اخترعوا نسبة ينتمون بها إلى جارية، وتخص غيرهم بالانتماء إلى السيدة المختارة .

ولو كان في وسع اليهود ان يحتكروا النسب إلى ابراهيم لما ذكروا شيئاً عن نسبة غيرهم اليه ..

فالانتساب إلى ابراهيم لم يكن مسألة اختراع واختيار ، ولكنه كان مسألة تاريخ مقرر لا بد من البحث فيه على هذا الاساس ، ومن هنا قيمته التاريخية التي نضيفها إلى الاسانيد القوية في سيرة الخليل .

ويقضي استيفاء البحث في الاخبار المسكوت عنها أن نشير هنا إلى المراجع التي ذكرتها كتب العهد القديم ولم يبق لها أثر بين هذه الكتب ولا بين غيرها من المراجع الاسرائيلية .

فليست الكتب التي ضمت إلي العهد القديم هي كل كتب التوراة المعترف بها ، لأن الكتب التي جرى الاستشهاد بها على ألسنة الأنبياء من بني اسرائيل لم توجد كلها بين أسفار التوراة، كما هو واضح من الشواهد الكثيرة التي نلم ببعضها في هذا السياق .

ففي ختام كتاب الأيام الأول يقول الكاتب : « وأمور داود الملك الأولى والأخيرة هي مكتوبة في سفر اخبار صموئيل الرائي واخبار ناثان النبي وأخبار اسرائيل وأخبار جاد الرائي ، مع كل ملكه وجبروته والاوقات التي عبرت عليه وعلى اسرائيل وعلى كل ممالك الأرض » .

فهناك على هذا كتب تاريخية لم توضع بين كتب العهد القديم ، لأن كتاب صموئيل موجود بينها، ولا يوجد بينها كتاب للنبي ناثان ولا للرائي جاد ..

وفي الاصحاح التاسع من كتاب أخبار الأيام الثاني ان «بقية أمور سليمان الأولى والأخيرة اما هيمكتوبة في أخبارناثان النبي ، وفي نبوة اخيا الشيلوني وفي رؤى يعدو الرثائي على يربعام بن نباط » .

وقد تقدم ان كتاب ناثان غير موجود ، وكذلك نبوءة اخيا الشيلوني ورؤى يعدو الرائي ، فانهما غير موجودين على انفراد أو على اتصال بغيرهما من الكتب المعروفة .

وفي الاصحاح الرابع عشر من كتاب الملوك الأول ·« واما بقية امور يربعام كيف حارب وكيف ملك فانها مكتوبة في سفر أخبار الأيام لملوك اسرائيل » .. وجاء في الاصحاح السادس عشر من كتاب الملوك الأول: « ان بقية أمور يعشا وما عمل وجبروته، أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام لملوك اسرائيل ! » ..

وليس في كتاب الملوك شيء عن هذه الأمور ، ولا عن أمور تاريخية أخرى وردت الاشارة اليها مردودة إلى نحو ثلاثين كتاباً لم يبق منها اثر محفوظ ..

ومن هذه الأمور ما هو منسوب إلى الاله كما جاء في الاصحاح الحادي والعشرين من كتاب العدد حيث يقول الكاتب : « لذلك يقال في كتاب حروب الرب واهب في سوفة وأودية ارنون ومصب الاودية ».. أو كما جاء في الاصحاح العاشر من كتاب يشوع :« حينئذ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الاموريين امام بني اسرائيل وقال امام عيون اسرائيل يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي ايلون. فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من اعدائه . أليس هذا مكتوباً في سفر ياشر ؟ »..

وليس بين المراجع المحفوظة كتاب ياشر الذي اشير اليه في هذين الموضعين، وقد اشير اليه في موضع آخر من كتاب صموئيل الثاني حيث يقول :« ورثى داود بهذه المرثاة شاؤل ويغرباثان ابنه، وقال ان يتعلم بنو يهوذا نشيد القدس، هو ذا مكتوب في سفر ياشر » .

ويؤخذ من مراجع كثيرة كالكتاب الرابع لعزرا وكتب الحكيم فيلون وكتب آباء الكنيسة الأولين ان أسفارا غير الاسفار الخمسة كانت تنسب إلى موسى عليه السلام .

وصفوة القول في هذا الصدد ان المراجع الاسرائيلية قد سكتت عن بعض الامور ولم تستوعب اموراً أخرى في سجلاتها المحفوظة فليس من الجائز أن يعترض المعترضون على أمر من الأمور التاريخية لأنه غير مذكور في تلك المراجع ، واذا جاز أن يذهب بعض السجلات من تاريخ سليمان وأبنائه فمن الجائز ان تذهب سجلات أقدم منها في التاريخ ، كالسجلات التي حفظت عن عهد ابراهيم ، وهي أقدم منها بعدة قرون .

واذا صرفنا النظر عن هذا كله ، ولم نقدر ان هناك أخباراً مسكوتاً عنها، وأخباراً ضائعة، فالمسألة التي لا يصح الخلاف عليها عند المقابلة بين المصادر القديمة ، هي نقص المصادر اليهودية حتى في أخبار البلاد المجاورة لمملكة اسرائيل ، فان المصادر الاسلامية أوفى بأخبار هذه البلاد من مصادر اليهود، ويكفي لتقرير ذلك ان كتب اليهود لم تذكر قط أخبار عاد وثمود وانفرد

القرآن الكريم بذكرها مع ما جاء عنها في المأثورات العربية، ولولا ان اسم عاد واسم ثمود قد وردا في جغرافية بطليموس لكان من اليسير على الذين يحملون اسم الخرافة على أطراف ألسنتهم أن يزعموا أنها احدى الخرافات ولكن اسم عاد Oadita واسم ثمود Thamudita قد وردا في جغرافية بطليموس، وليس موقعهما كما وصفه الجغرافي الكبير بعيداً عن مملكة اسرائيل، فاذا كان بطليموس قد سمع بها فلا يعقل أن يكون أمرهما مجهولاً عند كتاب العهد القديم ، وانما المعقول ان السكوت عن كل رسالة في أبناء اسماعيل هو المقصود .

ومن الواجب تقرير هذه الملاحظات قبل الانتقال إلى مصادر الاحافير وتعليقات المؤرخين المحدثين .

الأحافير والتعليقات

البلاد والسكان :

بلاد الشعوب التي تعرف بالسامية — أو على الاصح بالعربية — هي شبه جزيرة العرب ، ومن شبه جزيرة العرب هاجرت بعض القبائل إلى بلاد الهلال الخصيب بين وادي الفرات والبحر الابيض المتوسط وهاجرت قبائل أخرى من جنوب شبه الجزيرة إلى الحبشة في أفريقية .

والرأي الغالب ان الهجرة تتبع طريقها من جنوب الجزيرة إلى شرقها في محاذاة البحر الهندي فالخليج الفارسي فنهر الفرات إلى أقصاه شمالاً ، ويرتفع بعض المؤرخين بأول فوج من أفواج الهجرة العربية إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد ، ثم تتابعت الافواج من هذا الطريق إلى ما بعد التاريخ .

فالاشوريون والاكاديون والبابليون والكلدانيون هم أفواج متلاحقة على فترات متباعدة تتراوح الفترة منها بين ستمائة سنة وألف سنة ، واقدمها ما اقام في الشمال ، لأن الاقاليم الشمالية في وادي النهرين كانت اخصب الاقاليم وأصلحها للزراعة والمرعى خلافاً لاقاليم الجنوب التي كانت مغمورة بماء البحر الملح وظلت كذلك زمناً طويلاً قبل ان ينحسر عنها الماء وتصلح فيها الأرض للسكن والزراعة . فلما انحسر عنها الماء اصبحت أعمر الجهات في وادي النهرين ، لقيام المدن على شواطئها ووفرة الموارد فيها من التجارة والزراعة .

ومن شمال العراق ، كانت قبائل المهاجرين الأوائل تنحدر إلى بادية الشام وإلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط على مقربة من صحراء سيناء .

فالقبائل العربية التي أقامت في فلسطين من شمالها إلى جنوبها انما قدمت اليها على الأكثر من الشرق لا من الجنوب ، ولم يظهر لنا من الآثار ما يدل على هجرة كبيرة من طريق الحجاز وشواطىء البحر الأحمر قبل الدعوة الاسلامية .

وسبب ذلك ان الحجاز – كما هو معلوم – واد غير ذي زرع ، فلم يكن فيه من السكان من يزحفون في حشد كبير لغزو البلاد الشمالية ، وكان معظم الرحلة فيه للتجارة مع القوافل التي تذهب وتعود ، ولا يبقى منها في الشمال الا العدد القليل ، ولكنه مع هذا كان طريقاً غير منقطع من طرق التجارة القديمة . لأن سلوك القوافل بين اليمن والعقبة على طريق البر أيسر من سلوكها بحراً مع قلة السفن واعتماد العرب في أسفارهم على الجمل الذي سموه بحق سفينة الصحراء .

وربما حدث مرات أن يوغل العرب الشماليون جنوباً كلما ضاقت بهم مساكنهم أمام المغيرين عليهم أو حاقت بهم نكبة من الزلازل والصواعق وهي كثيرة في تلك البقاع ، كما ظهر من آثارها الباقية إلى هذه الأيام ..

ولهذا يعتقد المؤرخون ان اليمن هي مصدر العربية الأول ، ويتلاقى هنا رأي المؤرخين المحدثين ورأي المؤرخين الأقدمين من أهل الحجاز ، اذ كانوا يقولون ان العرب العاربة هم أهل اليمن ، ثم يليهم العرب المستعربون.

ولكن هذا الترتيب اذا صح من حيث النسب لا يصح من حيث الارتقاء باللغة العربية ، فان اللغة العربية الأولى في اليمن لم تبلغ من الصقل والفصاحة وانتظام القواعد ما بلغته لغة الحجاز ، فهي نهاية الدورة بعد مطاف اللغة العربية من أقصى الجنوب في شبه الجزيرة الى أقصى الشمال في العراق ، الى الرقعة الوسطى بين العراق والبحر المتوسط ، وهي لا تزال تنتفع وتتهذّب في كل مرحلة من مراحل المطاف ..

على ان البقايا التي تخلفت منذ عشرات القرون قبل الميلاد لا تدع مجالا للشك في وحدة اللغة بين الأقوام العربية في شبه الجزيرة العربية وفي ارض الهلال

الخصيب ، ويقول البرايت Albright في كتابه عن أحافير فلسطين [١] .

«ان اللغات السامية المشهورة في القدم هي الاكادية — الاشورية — البابلية — والسامية الشرقية والسامية الغربية، وتنقسم هذه الى العربية الشمالية والعربية الجنوبية أي المعينية والسبئية والأثيوبية ومعها لهجات شتى بعضها قديم وبعضها حديث ، وكل تقسيم من هذه التقسيمات فانما هو مسألة اصطلاح ، والتفرقة فيه أقل جداً من التفرقة بين اللغات الهندية الجرمانية التي درسها الباحثون خلال القرن أو القرن والنصف الاخير . اذ ان اللغات السامية القديمة — عدا الاكادية — تتقارب في الاجرومية والنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ولا يلحظ الانتقال من لهجة الى لهجة إلا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية .. ولما بدأ عصر الآباء العبريين عند مطلع الألف الثانية قبل الميلاد لم يكد الفرق بين اللغات يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصيلة في هذه الأيام ، ولم تكن الاكادية نفسها منفصلة عن سائر اللغات السامية الغربية أكثر من الانفصال بين المالطية والعراقية الحديثتين ».

ويقرر علماء المقارنة الدينية مثل هذا عن التقارب بين عبادات العرب الأولين. فيقول الاستاذ اندرسون في مجموعة العهد القديم والدراسات العصرية : [٢]
«ان اله الكنعانيين الأعلى — ايل — يعبد بأسماء متعددة بين الساميين الغربيين ، ويعرف باسم شداي ، وأيل عليون ، وسالم ، وصادق ، وحداد ، ويرى انجنل Engnell ان اسم يهوا واحد من هذه الأسماء كان مهملا على عهد موسى فأحياه موسى بدعوته ، ثم امتزج اسم يهوا بالصيغ الاخرى ولا سيما صيغة أيل عليون في اورشليم وتم هذا الامتزاج بسهولة لأنها عنوان على اله واحد » . .

ثم قال ان الوحدانية التي كانوا يدركونها في ذلك الزمن لم تكن وحدانية تفكير ولكنها كانت وحدانية تغليب لرب من الأرباب على سائر الأرباب..

ويقول وولي Woolley صاحب أهم المباحث في تاريخ ابراهيم : «انه من

---

(١) Archeology of Palestine by Albright

(٢) The old Testament & Modern Study

المحتمل جدا، وان لم يكن ثابتا ثبوت اليقين —ان اسم يهوا كان معروفا عند بعض قبائل سورية الشمالية قبل زمان موسى بعهد طويل »[1].

والظاهر انهم كانوا الى الزمن الذي كتب فيه المزمور الخامس والثلاثون بعد المائة من المزامير المنسوبة الى داود، يصفون يهوا بأنه «مفرق جميع الآلهة»..

والظاهر كذلك انهم كانوا الى ما بعد خروجهم من مصر لا يزعمون انهم مميزون على القبائل الأخرى، بل يخطر لهم كما جاء في الاصحاح الأول من سفر التثنية ان الرب «لبغضه لهم قد أخرجهم من أرض مصر ليدفعهم الى أيدي العموريين ويهلكهم على أيديهم »

وظاهر كذلك ان وحدة الأصل واللغة كانت توقع اللبس في تسمية القبيلة الواحدة أو الشعب الواحد، فنسخة يهوا من العهد القديم تسمي سكان غرب الأردن بالكنعانيين، ونسخة ألُوهيم كانت تسميهم بالعموريين كما يرى من مراجعة الاصحاح الأول من سفر القضاة.

ويعنينا في هذا الفصل أن نبرز هذا التشابه في السلالة العربية منذ أقدم العصور التاريخية، فلم نعثر في مصدر واحد على خبر يفهم منه أن ابراهيم التقى بمن يعارض عقيدته الالهية بعد خروجه من موطنه الأول، وقد كانت في طريقه عبادات محلية مختلفة وأرباب محليون مختلفون، وشأن هؤلاء كشأن الأولياء والقديسين الذين يتشفع بهم أبناء كل جهة في الأمم التي تؤمن بالوحدانية، فأبناء الجهة يفضلون أولياءهم وقديسيهم وقد يتحولون من جهتهم الى جهة أخرى فلا ينكرون التشفع بالأولياء والقديسين في الجهة التي تحولوا اليها، لأنهم أصحاب الحق فيها. أما العقيدة الالهية فهي واحدة أو متقاربة، ولولا ذلك لما كان الخليل عليه السلام يوقر ملكي صادق ويقدم قربانه للاله عليون كما روى سفر التكوين ..

انما اشتد الخلاف الديني وخلاف العصبية بين أبناء هذه الشعوب عندما وقر في أذهان طائفة من العبريين انهم هم وحدهم ذرية ابراهيم المختارة،

---

(١) Abraham : by Woolley .

وكانت دعواهم هذه طارئة لم يسمع بها الا بعد أيام موسى بمئات السنين ، وفي هذا يقول سفر التثنية: «أنتم مارون بتخم اخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير ، فيخافون منكم فاحترزوا جدا . لا تهجموا عليهم لأني لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم. ولعيسو قد أعطيت جبل سعير ميراثا.. طعاما تشترون منهم بالفضة لتأكلوا وماء تبتاعون منهم بالفضة لتشربوا.. ومتى قربت الى تجاه بني عمون لا تعادهم ولا تهجموا عليهم لأني لا أعطيك من أرض بني عمون ميراثا ، ولبني لوط قد أعطيتها وهي أيضا تحسب أرض رفائيين ، سكنوها قبلا .. لكن العمونيين يدعونهم زمزميين: شعب كبير وكثير وطويل كالعناقيين أبادهم الرب من قدامهم فطردوهم وسكنوا مكانهم الى هذا اليوم .. »

وهكذا كانت حال الشعوب المتفرعة على الأصول العربية، ولكنها لم تكن وحدها في بقاع الهلال الخصيب أو بين النهرين، اذ كانت هذه البقاع مفتوحة للواردين من الشرق والغرب والشمال، وما حدث في عهود التاريخ المعلومة قد حدث مثله في العهود التي لم يدركها التاريخ ، فقد نزح قوم من الشرق يدعون بالسومريين ، وأناس من الغرب يدعون بالحيثيين، وأناس من الشمال مجهولون يحسبهم المؤرخون تارة من السومريين وتارة من الحيثيين..

فالسومريون في الغالب من أصل مغولي ، وسواء ثبت انهم من المغول أو ثبت غير ذلك، فالأمر الذي لا شك فيه انهم من غير الساميين أو السلالة العربية، لأنهم كانوا يتكلمون لغة غروية Agglutinatine بعيدة جدا في أصولها وقواعدها من اللغات السامية الاشتقاقية ومنها العربية Inflectiona ... ومن المقابلة بين صورهم وتماثيلهم وبين الصور والتماثيل العربية في أرض بابل وغيرها يبدو الفرق واضحا بين الملامح والقسمات، فضلا عن الفروق البعيدة في الطبائع والعادات، ولكنهم لم يعرفوا باسم غير الاسم الذي أطلقه عليهم العرب الأقدمون، وهو اسم السومريين أي سمر الرؤوس كما جاء في وصفهم على الآثار .

والحيثيون على الأغلب آريون قدموا من الشرق الى آسيا الصغرى قبل فجر

التاريخ ، ولا بد أن يكون مقدمهم الى آسيا الصغرى بعد احتلال الساميين للهلال الخصيب بقوة لم يستطع الحيثيون أن يتغلبوا عليها ، والا لما تجاوزوا هذه البقاع المخصبة الى ما وراءها .

ويذهب أناس من المؤرخين المحدثين الى أن العموريين أيضا من الأقوام التي لا تنتمي الى سلالة سامية عربية ، ومن هؤلاء المؤرخين العلامة سايس Sayce المشهور.. وحجته في ذلك أن صورهم على معبد رمسيس تخالف في اللون والقامة صور الأقوام الأخرى من أبناء آسيا الغربية ، وهي حجة لا تنهض وحدها أمام اللغة وانقطاع الصلة بينهم وبين كل قطر من الأقطار التي يفرض الفارضون انهم قدموا منها ، ولا يعقل انهم قدموا من أوربة عن طريق افريقية وهي خالية ثم اختاروا بقاع فلسطين وسورية دون غيرها ، ولا يعقل كذلك انهم حاربوا أبناء البلاد التي وقعت في طريقهم وتغلبوا عليهم واجتازوهم دون أن يسلبوهم أرضهم ويستقروا فيها ، وليس أقرب الى التقدير الصحيح من مجيئهم في زمن قديم من الشرق عند وادي الفرات ، ولعلهم ينتمون الى الأرض المعروفة باسم (امرو) هناك ، ولا اعتداد بلون البشرة أو طول القامة ، فلم يثبت قط أن الجو العربي منذ الأزمنة الخالية كان يستلزم السمرة والقصر ، ولم يزل بين أجناس الجنوب عمالقة غير العموريين .

ذلك مجمل الحال من حيث السكان في بلاد النهرين والهلال الخصيب ، فمن شرق الدجلة الى شاطيء البحر الأبيض المتوسط عشائر عربية تقيم وترحل وينافس بعضها بعضا على المرعى والمورد كلما ضاقت بها البقاع أو جاءها من الجنوب وارد جديد .

وكان السلطان الأكبر على هذه العشائر للدولة التي تقوم في العراق ، سواء كانت دولة الأشوريين أو الأكاديين أو البابليين ، أو كانت دولة السومريين قبل هؤلاء أجمعين .. لأن هذه العشائر تقيم وترحل في بقاع لا تنفصل عن بقاع النهرين ، وربما دخل بعض البقاع في حوزة مصر وتولاها حكام من قبل فرعون ، وربما اقتدى بعض العشائر بالمصريين في العادات والعبادات ، وربما انتقل بعضهم الى مصر مرتادين أو متجرين فاقتبسوا كذلك من عاداتها وعباداتها ،

ولكن وحدة اللغة ووحدة المكان ووحدة العادات كانت هي الغالبة على طول الزمن، ولهذا كان الولاة المصريون على آسيا الغربية يكتبون الى فرعون بالخط المسماري وعلى ألواح الطين المطبوخ ، كما كان يكتب البابليون والأشوريون..

وحدث غير مرة أيام ضعف الدول أن تجترىء العشائر القوية عليها فتهزمها وتنشيء فيها دولتها : حدث هذا من العموريين والعيلاميين في وادي الفرات ، وحدث من الرعاة الذين اشتهروا باسم الهيكسوس في وادي النيل، ويرتبط تاريخ الخليل كما يلي بقيام هذه الدول وانتقال هـــذه العشائر من أماكنها كلما قامت لإحداها دولة مستقرة في الحواضر والعواصم ، وهجرة ابراهيم على اتصال وثيق بالزعازع التي تنشأ حتما من تبدل النظم وتبدل العادات والكهانات وخلول الجديد منها محل القديم ، مع المساومة والمصالحة بين النظام المقبل المعمول به والنظام المدبر المهجور ..

ولكننا على كثرة الأحافير لا نجد بينها خبرا يعين لنا التاريخ فيحادث من الحوادث تعيين الجزم واليقين . ولم يهتد المنقبون الى تاريخ منها الا على وجه التقريب ، وبعد الموازنة والترجيح .

وعلة ذلك أن الدول الكبرى في تلك العهود لم تكن موحدة الحكومات ، بل كانت منقسمة موزعة يتولاها في الوقت الواحد ثلاثة أمراء أو أربعة أو أكثر من ذلك، فاذا حاول المنقب ان يضع لهم ترتيبا متعاقبا لم يلبث أن ينكشف له من محفورات جديدة انهم كانوا في عصر واحد ، ومن الأمثلة الكثيرة على هذا أن المنقبين كانوا يعينون سنة ١٩٤٠ قبل الميلاد لحكم حمورابي ثم انكشفت أحافير (ماري) للأستاذ أندريه باروت André Parrot فقدموها قرنا كاملا الى نحو سنة ١٨٤٠ لأنهم وجدوا ملوكا معاصرين له وكانوا يحسبونهم سابقين له في موطنه .

وفي مصر كان المظنون أن ترتيب الأسر متعاقب ، ثم ظهر من النقوش المتوافقة في الزمن أن الأسر الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة حكمت في عصر واحد بين أقاليم الوجه البحري والصعيد ، وأن الاصلاحات التي تمت

في اقليم الشلال لم تكن من عمل الهكسوس المعاصرين ، وان من هؤلاء الهكسوس من كان يرسل الهدايا والاتاوات إلى ملوك الصعيد .. ويقول المؤرخ بتري Petrie إن الصورة التي على معبد بني حسن هي صورة رئيس من الهكسوس ، وان الكلمة مركبة من هيك بمعنى أمير ومن شو اسم القبيلة ، وانه يضاهي اسم (خيان أو شر) المنقوش بين أسماء الملوك الشماليين على معبد تحوتمس الثالث بالكرنك . واسم خيان هذا خليق أن يقف عنده القارىء ، لأنه قريب من اسم ريان الذي حسبه مؤرخو العرب الاقدمين بين أسماء ملوك الرعاة ، ونتيجة هذا التداخل في أزمنة الأسر الحاكمة أن يلتبس الأمر على المؤرخ عند تعيين أوقات الحوادث وتعيين اسم الأمير الذي تنسب اليه ، وقد مضى زمن على الهكسوس في الوجه البحري وهم رواد يطلبون المرعى والضيافة ولا يجسرون على المنازعة في الملك ، فاذا وجدت لهم آثار سابقة لعصر دولتهم فلا يلزم من ذلك تعديل تاريخ الدولة ، لأن دخول الهكسوس إلى مصر للمرعى والرحلة من مكان إلى مكان غير دخولهم بجموعهم وجنودهم للسيطرة واقامة الملك بأسمائهم ، وكل ما يدل عليه السماح لهم بالدخول واهمال الحيطة في أمرهم ان فراعنة الصعيد كانوا يومئذ في شاغل بالنزاع عن الحيطة والتحصين .

ولا داعي كذلك لتخطئة المؤرخين الذين نقبوا في فلسطين ، فعينوا للهكسوس تاريخا غير تاريخ دولتهم بالديار المصرية ، فان زحف الهكسوس على جنوب فلسطين سابق بالبداهة لقيام دولتهم بالوجه البحري من أرض مصر . فالمنقبون في مدينة أريحا علموا من بقاياها أنها خربت بالزلازل وقذائف البراكين ثلاث مرات ، وعلموا من أساليب البناء ونقش الفخار وأثر التحلل على المنسوجات في طبقات الأرض متى كان الموعد المقارب لكل كارثة من هذه الكوارث . وفي الدور الثالث وجدوا مقابر للهكسوس واستطاعوا أن يعينوا وقتا لوجودهم بأرض كنعان حوالي سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وعلموا أن أمير (اريحا) تواطأ مع الهكسوس على غزو مصر ، وان هؤلاء أقاموا معه موظفا يسمونه كاتب الوزير للرقابة على البيادر وخزائن الغلال ،

وان الفترة كانت فترة اضمحلال وهزال أصاب الدول في مصر والعراق وشجع الرعاة والقبائل الرحل على غزوها وتوطيد أقدامهم فيها فكان هجوم الهكسوس على مصر معاصرا لهجوم قبائل البدو من عيلام وعمور على بابل، وكانت الأرض التي في طريق مصر موزعة بين العمالقة والحيثيين واليبوسيين والعموريين ، وليس بينهم ذكر للعبرانيين ..

الا أن المنقبين الذين عينوا زمنا للهكسوس حوالي سنة ١٧٥٠ لم يعرفوا من هم هؤلاء الهكسوس[1] على وجه التحقيق ولكنهم استخلصوا من « خط السير » الذي اتبعوه بعد خروجهم من مصر منهزمين أنهم عادوا إلى مواطنهم في شمال سوريا ، وانهم على الأرجح مزيج قديم من الأراميين والحيثيين، ولم يطل مقامهم بمصر أكثر من قرن ونصف قرن ، ثم تعقبهم المصريون ودمروا المدن التي تواطأت معهم على غزو الديار المصرية ، ومنها أريحا ، وقد وجد المنقبون فيها بين الفصوص الكثيرة فص خاتم باسم خاميس أو أحمس قاهر الهكسوس .

إلى هذا التاريخ لم يكن للعبريين الذين يسمون أنفسهم بأبناء اسرائيل أي أثر بين القبائل التي في طريق مصر ، ولم يذكر لهم اسم في أثر من الآثار التاريخية قبل سنة ١٢٢٠ قبل الميلاد .

في هذا الاثر يروي الفرعون مر نفتاح خبر حملته التأديبية على عسقلان وجزير ويوانام واسرائيل ، ويقول انه محا اسرائيل فلم تبق منها باقية ، ويؤيد خبره هذا ان النصب الذي أقيم بعد ذلك مسجلا لانتصار رمسيس الثالث على العموريين والفلسطينيين والحيثيين سنة ١١٩٠ قبل الميلاد، لم يرد فيه ذكر لاسرائيل .

وعصر ابراهيم قبل هذه الفترة على التحقيق ، فمن القرن الثاني عشر إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد لم يكن لابراهيم وذريته مقام في غير الجنوب عند جيرار أو وراءها جنوبا ، ولم يكن لابراهيم مقام في حبرون ، ولهذا

---

(١) كتاب قصة اريحا للاستاذ جارستانج وابنه Garstang .

يرجح الدكتور (كامبيل) ان ابراهيم لم يدفن في مغارة مكفيل بحبرون على مقربة من اورشليم، ولكن الذين انتسبوا اليه تعلقوا بذكرى هذا المدفن لتسويغ دعواهم في مملكتهم، ولا بد هنا من ابراهيمين أحدهما جاء بعد الآخر بزمن طويل .

* * *

ويذهب الدكتور كامبيل بعيدا جدا في هذا الفرض . فيشير إلى ورود اسم ابراما في الآثار البابلية. وقد ورد في خلال قصة زراعية حيث قيل ان ابراما استأجر ثورا للزرع من أحد الفلاحين، ولا شأن لابراما هذا بسيرة الخليل .. ولكن الدكتور كامبيل يسرد أسماء أخرى في الاحافير قريبة من هذا الاشتقاق ، ومنهــا « ابرمراما » ، وهو على رأي الدكتور قد يكون أمرمرابي الذي هو أمورابي بعينه. وهو ولا شك جد من جدود العموريين الذين ملكوا بابل ، وكانت منهم شعبة تملك بيت المقدس وحبرون بجوارها ، فلما امتزج العموريون والعبريون ، واشتركوا في العبادة وفي السيادة صعد العبريون بنسبهم إلى جد مدفون في حبرون يسمى ابرام وذكروا أن قبره مشترى بالمال من ملوك الأرض [١] الأصلاء، فليس في دفنه ثمة عدوان ولا ادعاء .

وقصة الابراهيمين قد لجأ اليها كاتب منقب لا يغلو في فروضه على هذا المثال ، وهو السير ليونار صاحب كتاب ابراهام والكشوف الأخيرة، فقد رجح ان ابراهام غير ابرام ، وقال ان تسمية الحفيد باسم الجد كانت مألوفة جدا في البلاد البابلية كما يظهر من مقابلة أسماء الملوك من اسرة واحدة، فاذا كان لابراهيم جد باسم ابرام كما جاء في كثير من الروايات فالأقرب إلى المألوف ان المتأخرين بعد عصره جمعوا بين أخبار الاثنين ، ووصلوا عمر أحدهما بعمر الآخر فبلغوا بهما مائة وخمسا وسبعين سنة ..

وغير بعيد أن يكون العبريون المتأخرون قد تكلموا عن ابراهيمين

---

(١) Race & Religion by : C. G. Campbell

لا عن ابراهيم واحد . فهذا التاريخ الغامض قد زاده اختلاطا على اختلاط دعوى الطائفة العبرية التي تنتسب إلى ابراهيم انها ذريته التي ترثه في الأرض والسماء ، وانها ورثت أرض فلسطين من أيام ابراهيم مع انهم كانوا إلى أيام موسى يشترون المرعى والمورد فيها بالفضة، ولم يستطيعوا أن يدخلوا فلسطين إلا بعد ضعف العموريين والحيثيين والهكسوس .

* * *

ومن حقائق التاريخ المطردة انالملك هو بلاء القبائل الرحل فلما ملك الحيثيون والهكسوس ضاعوا واندحروا ، ولما هجم العموريون على بابل فملكوها ضاعوا واندحروا في بابل وفي بيت المقدس ، ولما دخل العبريون أنفسهم بيت المقدس وملكوا فيها ضاعوا واندحروا وحاق بهم ما حاق القبائل الأولى ..

فالملك هو نهاية كل قبيلة من تلك القبائل، وقد ظلت كلها قبائل نامية إلى ان ملكت ، فانتهت بذلك إلى دورها الأخير .

وعلى هذه السنّة عاش العموريون والكنعانيون والحيثيون، وعاش معهم العبريون قلة ضعيفة إلى أقصى الجنوب من تلك البقاع ، فكان وطن ابراهيم عند سيناء وشمال الحجاز ، وكان الجنوب مفتوحاً له وأيسر له من الشمال ، حيث تجول القبائل التي بلغ من قوتها أن تغير احداها على بابل وتغير الأخرى على مصر، فأيسر من اجلائها عن أرضها أن يبقى حيث هو أو يمعن في الجنوب ويستقبل الحجاز، وعبرة التاريخ هنا ان المتحذلقين الذين خطر لهم ان ذهاب ابراهيم إلى الحجاز اعجوبة ملفقة يرونبالنظر الصادق انها هي التقدير الصحيح ، وان الاعجوبة هي اتجاهه من الجنوب إلى الشمال.

* * *

اللغة

ربما كان من المفاجآت عند بعض الناس إن يقال لهم إن ابراهيم عليه السلام كان عربيا ، وانه كان يتكلم اللغة العربية .

ولكنها الحقيقة التاريخية التي لا تحتاج إلى فرض غريب أو تفسير نادر غير ترجمة الواقع بما يعنيه ، وانما الفرض الغريب أن يحيد المؤرخ عن هذه الحقيقة لينسب ابراهيم إلى قوم غير قومه الذين هو منهم في الصميم ..

وليس معنى هذا بالبداهة انه كان يتكلم العربية التي نكتبها اليوم أو نقرأها في كلام الشعراء الجاهليين ومن عاصرهم من العرب الأقدمين ، فلم يكن في العالم احد يتكلم هذه اللغة في عصر ابراهيم ولا في العصور اللاحقة به إلى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد ..

وانما اللغة العربية المقصودة هي لغة الاقوام التي كانت تعيش في شبه الجزيرة العربية وتهاجر منها وإليها في تلك الحقبة ، وقد كانت لغة واحدة من اليمن إلى مشارف العراق والشام وتخوم فلسطين وسيناء .

ولقد عرفت تلك اللغة حينا باسم اللغة السريانية غلطا من اليونان في التسمية ، لأنهم أطلقوا اسم أشورية أو أسورية على الشام الشمالية ، فشاعت تسمية العربية باسم السوريانية والسريانية من المكان الذي أقامت فيه بعض قبائل العرب الوافدة من شبه الجزيرة منذ أقدم العصور ، قبل عصر ابراهيم بزمن طويل ..

واشتملت هذه اللغة السريانية في بعض الأزمنة على عدة لغات لا تختلف فيما بينها الا كما اختلفت لهجات القبائل العربية قبل الدعوة الاسلامية ،

ومن هذه اللغات لغة ارام وكنعان وادوم ومواب ومديان وما جاورها في الأقاليم الممتدة بين العراق وسيناء .

وربما كانت المفاجأة أشد على من يسمع ان الخليل لم يكن عبريا من العبريين ..

فقد مضى زمن طويل والناس يفهمون ان العبرية واليهودية كلمتان بمعنى واحد ، ولم تكن اليهودية قط مرادفة للعبرية في معنى صحيح .

فالعبرية في نحو القرن العشرين قبل الميلاد كانت كلمة عامة تطلق على طائفة كبيرة من القبائل الرحل في صحراء الشام ، وكان من أبناء هذه القبائل من يعمل كالجنود المرتزقة هنا وهناك حسب المواقع والمناسبات ، وبهذا المعنى وردت كلمة العبري والابري والهبيري وما قاربها لفظا في أحافير « تل العمارنة وفلسطين وآسيا الصغرى والعراق ، وجاءت بهذا المعنى في الكتابات المسمارية والفرعونية » ولم يكن لليهود وجود في ذلك الحين ..

ولما وجد اليهود وانتسبوا إلى اسرائيل كانوا هم أنفسهم يقولون عن العبرية انها لغة كنعان ، ثم انطوت العبرية في الارامية التي غلبت على القبائل جميعا بين فلسطين والعراق مع اختلاف يسير بين الارامية الشرقية والارامية الغربية ..

وأصبحت العبرية لهجة تختلف بنطق بعض الحروف كما تختلف القبائل بنطق الشين والكاف أو نطق الميم واللام إلى هذه الأيام .

ففي الاصحاح الثاني عشر من سفر القضاة يقول : « كان رجال جلعاد يقولون له : أأنت من افرايم ؟ فان قال لا ، كانوا يقولون له : قل شبولث . فيقول سبولث . فكانوا يأخذونه ويذبحونه » .

ولما كشف حجر موآب المشهور[1] وجدت الكتابة عليه قريبة جدا من العبرية ، وهو يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد .

---

(١) كشفه « كلين » الالماني سنة ١٨٦٨ .

وقد أقام هذا الحجر ملك موآب ميسا بن شموس، وقال فيه ان الاله شموس (أي الشمس) نصره على إله إسرائيل وانه بنى هيكل بعل معون ، وذكر (اشتار شموس) في موضع آخر كما قال انه جر محاريب (يهوا) أمام ربه المعبود ، وكان هذا الرب راضيا عنه بعد جفاء وعقاب .

وظهر من أحافير اليمن والعراق والشام وفلسطين أن أسماء الاله واحدة في جميع هذه البلاد ، ففي كلامها اسم بعل والرب وايل وصادق بمعنى المعطي الوهاب ، ومن هذا التشابه اسم ملكي صادق في فلسطين واسم ايل صادق في معين وحضرموت .

ومن أقوى الأشياء دلالة على العلاقة بين ابراهيم والحجاز أن اسم بعل يطلق كثيرا على الاله في ديانات جميع القبائل ما عدا القبائل التي دانت بدعوة ابراهيم وخلفائه، فان اطلاق اسم البعل على الاله مكروه فيها لا يذكرونه الا عرضا في تركيب الأسماء التي يتوارثها الناس بغير نظر إلى معناها ، وقد ورد اسم البعل في ديانات الجزيرة العربية ما عدا ديانة الكعبة أو ديانة الحجاز ، ومن قال ان اسم (هبل) تصحيف لاسم (يهو بعل) لم يستند إلى دليل ولا قرينة معقولة . اذ لا معنى لتصحيف الكلمة في اسم الصنم مع وجودها في اللغة بمعنى السيد أو الزوج إلى اليوم ، ولو كانت الكلمة منسية لما كان بالتصحيف من غرابة، وأما وهي مفهومة معروفة فتصحيفها في اسم صنم معبود غير معقول، وأبعد من هذا القول أن يقال إن (هبل) منحوت من كلمة يهوا وكلمة بعل فان الدعوة إلى يهوا تناقض الدعوة إلى بعل ، ومن آمن بهذا لم يؤمن بذاك .. الا أن يقال ان اسم يهوا مأخوذ من لغة العربية الحجازية أو الجنوبية ، وينبغي لمن يقول هذا أن يستشهد بأمثلة لوجود الكلمة مفردة ومقترنة ببعل في أثر ثابت ، وليس لهذا الأثر وجود ..

ويرجح بعضهم ان اسم ابرام يتألف من أب ورام،وان رام هنا بمعنى احب ، فاسم ابرام اذن يعني محبوب الله، وهو وصف يوافق تلقيبه بخليل الله ، ويستبعد مرجليوت[1] أن تكون (رام) من مادة الرفعة كالرامة التي

---

(١) رسالته في مطبوعات الاكاديمية البريطانية سنة ١٩٢٤ .

تطلق على القرية في البناء العالي ، وتجمع على رام كما تجمع ساعة على ساع وحالة على حال وحانة على حان .

وينقل مرجليوث عن جليزر Claser أن الملك الحميري شرحبيل يعفور ذكر اسم الله في الحجر المنقوش على سد مأرب فسماه «بعل السمائين والأرضين » وأنهم عرفوا التوحيد في منتصف القرن الخامس للميلاد ، وينقل عن دسو Dussaud أن الأحافير النبطية التي ترجع إلى القرن الثالث قبل الهجرة تدل على تقارب شديد بين الارامية والعربية الفصحى ..

وقد لوحظ التقارب بين اللغات أو اللهجات العربية، فيما هو أقدم من ذلك كثيرا بحيث لا يحسب تاريخه بأقل من ألفي سنة قبل الميلاد. فان أداة التعريف وضمير المتكلم والغائب وكلمة النفي والنهي وتصريف الأفعال مشتركة في اللغة العربية واللغة الأشورية التي تنسب اليها السريانية كما تقدّم..

وهذا التقارب هو الذي أوحى إلى الأستاذ دويرتي أن يترجم اسم (دمقي اليشو) بحبيب الله من المقة بمعنى الحب والايل بمعنى الله وضمير الاضافة ، وجاء فلبي فظن أن هذا الاسم يطابق في الزمن والصفة اسم الخليل ابراهيم، وأن الخليل كان ملكا من الملوك الذين حكموا جنوب العراق عند الخليج الفارسي لأن الأقوال متواترة بمقام الخليل هناك في أور الكلدانيين، ولأن اسم (دمقي اليشو) ورد في الآثار البابلية بين عدة ملوك يسمون بملوك الشاطىء أو ملوك الأرض البحرية[1] وهو اصطلاح لهم يطلقونه على العرب من سكان تلك الجهات .

وهذا التقارب في اللغة والكتابة يفض لنا – فيما نعتقد – خلافا شديدا دخل فيه المهاجمون للاسلام والمدافعون عنه حول نسب الخليل ابراهيم واسم أبيه ..

فقد جاء في القرآن الكريم « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر.. » فاتخذ المهاجمون

(١) The back Ground of Islam by Philby .

للاسلام من ذلك دليلا على الخطأ في تسمية أبي الخليل، وقالوا ان اسمه تارح كما ورد في العهد القديم .

وجاء بعض المفسرين من المسلمين فحاولوا طويلا أن يجعلوا لكلمة (آزر) موضعاً من الأعراب أو مدلولا يبطل ذلك الانتقاد ويردون به تخطئة المهاجمين..

والواقع أن هذه التخطئة لا محل لها عند النظر في أصول الأسماء ، فان ابراهيم قد انحدر إلى أرض كنعان من أرض أشور ، واعتقد شراح الكتب الاسرائيلية في غير موضع أن الآباء الأولين كانوا ينسبون إلى بلادهم أو اممهم كما يقال عن ابن مصر وابن أوربة وأبناء الشرق وأبناء الغرب وأبناء النيل .

فاذا نسب ابراهيم إلى أشور فمن الجائز جداً أن يكون تارح وآزر لفظين مختلفين لاسم واحد ، سواء كان هذا الاسم علماً على رجل أو على الجد القديم الذي تنسب اليه أمة أشور، وكثيراً ما انتسب القوم إلى اسم جد قديم كما يقال في النسبة إلى عدنان وقحطان .

ونظرة واحدة في كتابة اسم أشور ونطقها إلى اليوم في العراق وسورية تقرب لنا هذا الاحتمال الذي يبدو بعيداً لأول وهلة .

فقد كتبت أشور تارة أزور وتارة أثور وتارة أتور بالتاء وتارة أسور بالسين ..

ولا يخفى أن اللغة السامية لم تكن تكتب لها حروف علة إلى زمن قريب ، وأن الاغريق الذين أطلقوا اسم (أسورية) على وطن ابراهيم من نهر العراب إلى فلسطين ينطقون الياء الاغريقية بين الواو والياء، ولهذا تكتب لوبيا بالواو كما تكتب بالياء ، وتُنطق سيريه بالياء في اللغات الأوربية وتنطق سورية بالواو في اللغات الشرقية .

ولا يخفى كذلك أن كلمة تارح تنطق تيرح على لسان الكثيرين من الناطقين باللغات السامية ، وتنطق تيرا وتيره عند الذين لا يستطيعون النطق بالحاء ..

فاذا لاحظنا ذلك كله فليس أقرب من تحويل أتور واتير إلى ثيره وثيرح، وقد وردت في تاريخ يوسيفوس بغير الحاء ووردت في تاريخ يوسبيوس أثور ، وهو مكتوب باليونانية ، وقد ورد في التوراة اسمان بمعنى الأميرة أحدهما بالحاء وهو سارح (٤٦ تكوين) والآخر بغير الحاء وهو سار أو ساره ..

ومؤدى هذا أن (آزر) هي النطق الصحيح الذي عرف به اسم أسور القديم ، وان تيره وتيرح هي نطق الذين يكتبونها اتيره واتيرح ، وينطقون بكلمة أتور بين الواو والياء .

وروى صاحب (المزهر) عن الاصمعي ان رجلين « اختلفا في الصقر فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسين، فتراضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ما هما فيه ، فقال : لا أقول كما قلتما انها هو الزقر ، وعلى هذا يتخرج جميع ما رد من التداخل نحو قلى يقلي وسلى يسلي » .

واذا اختلفت الحروف في اللهجة العربية الواحدة هذا الاختلاف فلا محل للجزم بالتخطئة حين تختلف السين والزاي أو التاء والثاء في لغات تباعدت بينها الآماد ..

وأيا كان القول في نسبة ابراهيم إلى آزر بمعنى اسور فهو أقرب من القول بأن أباه سمي تارحاً من الحزن أو من الكسل، وليس عليه دليل من وقائع التاريخ والجغرافية ولا من الاشتقاق .

وتفيد هذه الملاحظة فائدة جلى في معرض آخر من معارض سيرة الخليل، فلم يكن تاريخ ابراهيم في الاسلام مستمداً من المصادر اليهودية كما زعم بعض المتسرعين من رواة الأخبار الدينية غير الاسلامية، وإلا لما كان أيسر من تسمية أبيه تارحاً أو تيرحا أو تيره وما شابه هذه التصحيفات، ولما كان هناك سبب قط لتسميته بآزر على أي توجيه .

وانما هذا بينة من بينات شتى على أن دعوة ابراهيم لم تصل إلى الحجاز من مصادر اليهود ..

والبينة الكبرى التي تأتي من مباحث اللغة هي التقارب الشديد بين لغة الحجاز ولغة النبط أو النباتيين الذين ينتمون إلى نبات من أبناء اسماعيل..

فقد عقد اللغويون مقارنات كثيرة بين لهجات العربية القديمة التي بقيت إلى ما قبل الاسلام، فظهر من هذه المقارنات أن التقارب بينها يقاس بالزمان ولا يقاس بالمكان ، فقد يكون الجاران مختلفين غاية الاختلاف ، وقد يكون التشابه قريباً جداً بين طائفتين تسكن احداهما إلى أقصى الجنوب وتسكن الأخرى إلى أقصى الشمال .

فالحميريون كانوا يقيمون بأقصى الجنوب من الجزيرة العربية ، والأشوريون كانوا يقيمون بأقصى الشمال من العراق ، ولكن التشابه بين لهجة حمير ولهجة أشور أقرب جداً مما بين اللهجة الحميرية واللهجة القرشية بمكة ، والمسافة بين اليمن والحجاز أقرب المسافات .

فاللغة الحجازية لم تتطور من اللغة اليمانية مباشرة ، وانما جاء التطور من العربية القديمة إلى الاشورية إلى الارامية إلى النبطية إلى القرشية ، فتقاربت لغة النبط ولغة قريش من هذا السبيل ، وكان التقارب بينهما في الزمان ، أو في درجات التطور ولم يكن تقارباً يقاس بالفراسخ والأميال .

هذه هي البينة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة أهل الحجاز من النبطيين أو النباتيين أبناء اسماعيل ، ولم تكن هذه القرابة من اختراع النسابين أو فقهاء الاسلام ، ولكنها كانت قرابة الواقع التي حفظتها أسانيد اللغة والثقافة واستخرجتها من حجارة الأحافير والكشوف الحديثة .

ومما يدعو إلى احترام روايات النسابين في هذا الباب أنهم عرفوا الحقيقة التي كشفها علماء الأحافير في الزمن الأخير ، فقال ابن عباس : « نحن معاشر قريش من النبط » .

هذا من جهة الأصل واللغة ، ومن جهة الكتابة يقول الشاعر المنتصر ابن المنذر المديني :

ملوك بين حطي وسعفص في الندى وهــوز أربــاب الثنية والحجر

وربما اختلفوا في مسألة الكتابة لأنها طارئة لم يتعلمها منهم غير القليلين . أما النسب ومرجعه إلى نبات النباتيين ، فالتوافق فيه واضح بين رواية النسابين وتحقيق الأحافير .

* * *

مدن القوافل

أكثر غوامض التاريخ يخلقها المؤرخون ، لأنهم ينظرون إلى التاريخ كأنه حسبة أرقام لإحصاء السنين والأيام ، أو كأنه أطلس مواقع ومعالم ، أو كأنه سجل حوادث وأنباء .. ولو أنهم واجهوه على قاعدة واحدة ، وهي أنه وصف نفوس انسانية وان حوادثه وأنباءه ومعالمه ومواقعه وكل ما يحسب فيه من السنين والأيام انما هو تبع لوصف النفوس الانسانية لما بقي فيه غموض أو بقي فيه الغموض الذي يغمض علينا لسبب مجهول ..

وقد غمض على المؤرخين شيء كثير من أحوال الرسالات النبوية ، لأنهم لم يرقبوا حالة مشتركة في جميع هذه الرسالات ، وهي الحالة النفسية التي تكون عليها الأمم في طور واحد ، وذلك هو طورها حيث تتصل البداوة والحضارة ،فلم تتهيأ النفوس للرسالة النبوية في حالة قط كما تهيأت لها وهي قائمة بين البداوة والحضارة ، ولم يعرف التاريخ رسالة نبوية في الحضارة دون غيرها ، أو في الصحراء المنعزلة دون غيرها ، وانما عرفت هذه الرسالات على الدوام في مدينة حولها صحراء ، أو في صحراء على مقربة من مدينة ، ولهذا كانت مدن القوافل وما في حكمها أحق الأماكن بالدراسة من جانبها هذا الذي يرشحها لقيام الدعوات الدينية .

لِمَ اختص الله الأمم الساميّة بالرسالات النبوية؟لِمَ لم تظهر هذه الرسالات في الهند أو في الصين أو في القارة الأوربية ؟ لم كانت هذه الرسالات هي الدور الذي تهيأت له أمة واحدة في وسط العالم: «أمة وسطاً» كما نعتها القرآن الكريم ؟ .

تلك أسئلة غامضة تظل على غموضها ، حتى ننظر في الأحوال النفسية التي يكون عليها الانسان بين الحضارة والبداوة ، ولا تهيئه لها الحضارة على انفراد ، ولا البداوة على انفراد ، بل لا بد فيها من التقاء الشعورين وامتزاج المجتمعين ، ولم يحدث قط انهما التقيا وامتزجا على هذا النحو في غير البلاد التي قامت عليها الحضارات الأولى ، وظلت زمناً طويلاً جامعة بين الصحراء والمدنية والأقطار المتحضرة ، كأنها خلقت للنهوض بهذه الأمانة ، ثم نهضت بها ونشرتها في جميع أنحاء العالم ، فهي دورها الأكبر بين سائر الأدوار التي توزعتها الأمم والعصور .

لماذا كانت مدن القوافل أو المدن القريبة من الصحراء ، أصلح البلاد للرسالة النبوية ؟ .

انها صلحت لذلك لأن الأحوال النفسية التي تتوافر فيها لا تتوافر في حضارة العمران المتصل ولا تتوافر في الصحراء المنعزلة ولا تتم أسبابها الحسنة ولا أسبابها السيئة في بيئة أخرى كما تتم في المدينة حولها الصحراء . فأما القطر الذي يتصل عليه العمران فهو مختلف من هذه الناحية ، وأما الصحراء التي تنعزل عن العمران فهي من هذه الناحية مختلفة كذلك ، وسنرى أوجه هذا الاختلاف في عرض موجز لهذين الطرفين المتقابلين ثم نعود إلى الوسط الذي يلتقيان لديه .

ان القطر الذي تتصل فيه الحضارة وتتلاحق فيه مظاهر العمران يعطينا المشترعين والكهان ولا يعطينا الأنبياء المرسلين أو الرسل المجاهدين .

ففي هذا القطر يسري العرف وترتقي العادات الاجتماعية ، ويستقر نظام القانون والمعاملة وقد يتقدم أهله في إدراك العقائد الدينية من طريق تقدم المجتمع وتقدم الثقافة ومعاهد التعليم .

بل هو قد يتقدم قبل البداوة إلى ادراك عقيدة الوحدانية ، لأن الدول الكبار تنشأ في مبدأ أمرها من قبيلة تتسلط على قبائل أصغر منها ، ثم يجتمع من القبائل شعب كبير يتسلط على شعوب أصغر منه ، فتقوم دولة الحضارة

من امتزاج هذه القبائل والشعوب ، وتتقدم إلى الايمان بالوحدانية كلما اشتركت في عبادة واحدة يفرضها الشعب الذي سادت عبادته على مختلف العبادات .

فالقبيلة القوية تفرض على القبائل الصغيرة أن تطيع ربها كما تفرض عليها أن تطيع أميرها، ثم يجتمع من هذه القبائل شعب كبير يفرض على الشعوب التي دخلت في حوزته أن تطيع ربه وأن تدين بديانته ، ولا تزال كذلك حتى يتوحّد لها رب معبود تدين له جميعاً وتؤمن بوحدانيته وتؤمن بسيادته على جميع الأرباب زمناً ، حتى يبطل التعدد ويستقر التوحيد .

ان دولة الحضارة التي تقوم على هذه الأسس قد تسبق البداوة إلى الايمان بالوحدانية ، ولكن مسألة الدين فيها تؤول إلى سلطان الكهان، وهم أعداء الأنبياء ، وعداوتهم لهم تتكشف للعيان حتى في الأمم التي تعودت أن تتلقى الرسالات النبوية منذ عهد بعيد .

فلما توطد سلطان الكهنوت في بني اسرائيل خرج من الكهان أنفسهم من يتنبأ وينكر دعوة النبوة على غير أصحاب الكهانة، وقال زكريا صاحب آخر كتاب – قبل الأخير – من كتب العهد القديم :

« .. يقول رب الجنود اني أقطع أسماء الأصنام من الأرض فلا تذكر بعد ، وأزيل الأنبياء أيضاً والروح النجس من الأرض ويكون اذا تنبأ أحد بعد أن أباه وأمه – والديه – يقولان له: لا تعيش لأنك تكلمت بالكذب باسم الرب ، فيطعنه أبوه وأمه – والداه – عندما يتنبأ، ويكون في ذلك اليوم أن الأنبياء يخزون كل واحد من رؤياه اذا تنبأ، ولا يلبسون ثوب شعر لأجل الغش ، بل يقول: لست أنا نبياً أنا انسان فالح الأرض لأن انساناً اقتناني من صباي ، فيقول له : ما هذه الجروح في يديك ؟ فيقول: هي التي جرحت بها في بيت أحبائي » .

ويحدث احياناً أن يتصدى الكاهن للنبي حماية لعرش الملك كما فعل الكاهن أمصيا حين وبخ النبي عاموس وأنذره بالرحيل من بيت ايل : « فأرسل

امصيا كاهن بيت أيل إلى يربعام ملك اسرائيل قائلاً : قد فتن عليك عاموس في وسط بيت اسرائيل لا تقدر الأرض أن تطيق كل أقواله. لأنه هذا قال عاموس: يموت يربعام بالسيف ويسبى اسرائيل عن أرضه ، فقال أمصيا لعاموس : أيها الرائي اذهب . اهرب إلى أرض يهوذا وكل هناك خبزاً ، وهناك تنبأ . وأما بيت ايل فلا تعد تتنبأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك ، وبيت الملك .

« فأجاب عاموس وقال لأمصيا ، لست أنا نبياً ولا أنا ابن نبي ، بل أنا راع وجاني جميزة فأخذني الرب من وراء الضأن ، وقال لي الرب اذهب تنبأ لشعبي اسرائيل » .

وقد ينقسم الكهان والأنبياء إلى معسكرين عند الاختلاف على ولاية العهد ، كما حدث عندما وثب (ادونيا) بن داود لاغتصاب العرش .. : « وأعد لنفسه عجلات وفرسانا وخمسين رجلا يجرون أمامه، ولم يغضبه أبوه قط قائلاً : لم فعلت هذا وهو أيضاً جميل الصورة جداً . وكان كلامه مع .. أبياثار الكاهن وأما ناثان النبي .. فلم يدعه » .

وحدث في أوقات شتى أن مساومة السياسة وصلت إلى الايمان بالاله المختار ، فترك الملوك عبادته وعبدوا (البعل) وصنعوا له التماثيل، فتزوج آخاب ملك اسرائيل بنت ملك صيدا « وسار وعبد البعل وسجد له وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة » .

وحدث هذا من أحد أبناء داود.. فلم يستقم آحاز في عيني الرب كداود أبيه « بل سار في طرق ملوك إسرائيل وعمل أيضاً تماثيل مسبوكة للبعليم »[١].

وكان النبي أرميا ينعى على الأنبياء انهم يتواطأون على نسيان اسم الاله « كما نسي آباؤهم اسمي لأجل البعل ». واستمرت هذه المساومات إلى عهد النبي هوشع الذي تخيل أمة اسرائيل مزفوفة إلى (يهوا) لا تدعوه باسم البعل وتنزع أسماء البعليم من فمها .

---

(١) الاصحاح السادس عشر من سفر الملوك الاول .

حدث هذا بين بني اسرائيل ولم يطل بهم عهد الملك والاستقرار ولم يزل أكثرهم رعاة يتنقلون في البادية ، ولم يزل من هؤلاء الرعاة أناس يجهرون بالنبوة بين حين وحين ، فليست دعوة النبوة بالدعوة التي تشيع وتجتذب اليها الأسماع في مواطن الحضارة القديمة بعد استقرار العمران فيها بعاداته وآفاته مئات السنين أو ألوف السنين ، وليس بالنادر في هذه المواطن أن يعلم الكهان حقيقة الوحدانية ويتركوا الشعب وشأنه يعبد الأصنام والأرباب المتعددة ويتخذ له في كل اقليم رباً مقصوراً عليه ، ويستبقون إله الدولة الأكبر لمراسم الدولة الكبرى في الأعياد والمواكب التي يشهدها أصحاب التيجان ورؤساء الكهان .

وإذا شاع الفساد في مواطن الحضارة فالمسألة في هذه الحالة مسألة تشريع وقانون أو مسألة تنظيم وتدبير ، وربما حالت ألفة العادات الفاسدة دون التنبه لاصلاحها بالتشريع أو بالتنظيم .

وأوضح الأمثلة على موقف الحضارة بالنسبة للدعوات الدينية هو مثل الملك أخناتون بالديار المصرية . فان دعوة أخناتون بلغت بالتوحيد أعلى مرتقاه في تلك العصور ، وبلغت بتنزيه الاله غاية لم تدركها حتى اليوم بعض الأمم في البلاد الشرقية أو الغربية ، ولكنها دعوة جاءت من طريق الأوامر والقوانين ، ولم تلبث أن ذهبت بذهاب الملك الذي أصدر تلك الأوامر والقوانين ثم عادت الحضارة إلى مجراها كأنها لم تنحرف عنه في عهد الملك الراحل طرفة عين .

فليست بلاد العمران المتصل مهداً صالحاً للرسالة والنبوة ، فما حال الصحراء التي انقطع ما بينها وبين العمران كل الانقطاع ؟

ان لم يكن شأنها في أمر الرسالة النبوية شأن العمران المتصل فما هو بأصلح منه ولا أيسر .

فليس في الصحراء التي انقطع ما بينها وبين العمران من شريعة غير شريعة العدوان ، ولا عمل للقبائل فيها غير الاغارة والاستعداد لدفع الغارات من الآخرين . وربما تفاهموا على آداب الجوار والمهادنة كأنها من التدبيرات

العملية التي لا ترتقي إلى طبقة الفضيلة والعقيدة ، وربما تحلى بعض الناس فيها بمناقب الشجاعة والسخاء وما اليها من مناقب الميادين وشمائل السيادة والرئاسة . أما أن يتعارف المقاتلون المنقطعون عن العمران على الحقوق والفضائل وخلائق الصلاح والاستقامة التي ينشرونها باسم الاله ويستمعون وحيها من نذر السماء فذلك من وراء التخيل فضلاً عن التفكير .

وقد عرفت في البداوة حالات قريبة من عقيدة التوحيد ولكنها لم تعرف حتى كان أصحابها معروفين لأهل العمران في المدن المجاورة ، ولولا ذلك لما اتصل خبرها بالتاريخ .

فحالة البداوة التي ترشح أصحابها لعقيدة التوحيد هي حالة البدوي المترقي من عبادة الجن والعفاريت الذين ينتشرون في كل موطن إلى عبادة رب كريم يرعاه حيث سار وحيث أقام ، فهذه الحالة من البداوة ترشح صاحبها للايمان بالاله الموجود في كل مكان . لأن الايمان بإله « محلي » محصور في مكان واحد عبث ينفر منه طبعه ولا يلائم مطالب عيشه ، ولا يتكفل له بالأمان الذي يتطلع اليه في حله وترحاله ..

وكثير من أهل البادية الأقدمين من يجمعون بين عقيدة التوحيد وبين الوثنية على نحو يوافقهم في حالتي المقام والمسير فيتخذون لهم تماثيل يحملونها معهم ويرمزون بها إلى الاله ، وقد بقيت هذه التماثيل عند قبائل بني اسرائيل إلى ما بعد أيام داود عليه السلام ، وهي التماثيل التي كانوا يسمونها بالطرافين ويقتنيها أصحاب كل بيت كما يقتنون اللوازم المنزلية ..

ولكن هذا التوحيد كتوحيد أهل الحضارة الذي تقدم ذكره — كلاهما لا يخلق الجو الذي يلائم الرسالة النبوية ، ولا بد لهذا الجو من شيء يأخذه من البداوة وشيء يأخذه من الحضارة ، ولم يتحقق ذلك في غير مدينة القافلة وما اليها .

لا بد من النخوة الحيّة التي تتوقد بما تعتقد وتحس في أعماقها أن العقيدة حياة تحياها وليس قصاراها أنها تدبير من المجتمع أو قانون من الدولة ..

لا بد من بساطة التصديق الذي لا يعرف التّردد ولا يحسن اللف والدوران وتخريج الكلمات وتزييف الشعائر والأحكام .

لا بد من الاستغراق في الايمان على وجهة واحدة لا تتحمل ولا تتأول ولا تجعل العقيدة أجزاء مفرقة تتوزعها النصوص والفتاوى وتتعاورها المتون والشروح ..

لا بد من الجمع بين سهولة التغيير وصعوبة التغيير في وقت واحد ، وهذه خصلة تتيسر للبداوة ولا تتيسر في الحضارة ، فليس أكثر من التغيير في حياة البدوي لأنه أبداً على عزم السفر والانتقال ، وليس أكثر من الثبات في حياة البدوي لأنه محافظ على عهد الآباء والأجداد ينوط الفخر كله بما بقي له من التّراث القديم .

وهذه هي حصة البداوة في تهيئة الجو للرسالة النبوية .

أما حصة الحضارة فهي أصول الاستقرار وقواعد الشريعة وحماية المعاملة وأسباب السخط والثورة والدعوة إلى التغيير .

وهذه الأسباب موفورة في مدينة القافلة من جوانبها الحسنة ومن جوانبها السيئة على سواء ، وعندها حصتها وافية لقيام الدعوة النبوية في زمان بعد زمان .

فمن الأسباب الحسنة التي تهيأت بها مدينة القوافل للرسالة النبوية « شقة الحرام » أو الحرم المقدس ، أي المكان الذي تبطل فيه العداوات ويتلاقى فيه الناس من كل ملة ونحلة على سلام .

فهذا الحرم المأمون من مأثورات المدائن المطروقة بحكم موقعها وتشعب الموارد منها واليها.

وقديماً نشأت مدائن كهذه بين دولتين متناظرتين على عداء دائم لا يهدأ الا في تلك المدائن المطروقة ، كمدينة تدمر أو بعلبك في موقعها بين دولة القياصرة من الغرب ودولة الأكاسرة من الشرق ، ويتبع هؤلاء وهؤلاء أخلاط

من كل قوم وكل لغة وكل عقيدة ، وبينهم ما لا بد أن يكون بين هذه الأخلاط من التنافر أو من الخصومة أو من التراث والدخول أو من التزاحم في المصالح والتجارات . فان لم يكن هنالك ملاذ يأمنه الجميع وحرم يتسع لعبادة كل عابد وولاء كل حاكم ، تقطعت العلاقات وأحجم الوراد وبارت التجارة وكسدت الأسواق .

ومن المدائن ما يقوم في أمة واحدة متفرقة القبائل والبطون يتربص بعضها لبعض في كل موقع وكل موسم ، ولا غنى لها عن موقع واحد في موسم معلوم تنسى فيه هذه الفوارق ويتلاقى الناس فيه للمعاملة والمعاونة لا للقتال والانتقام .

فهذه الشقة الحرام احدى الأسباب الحسنة التي تتهيأ بها المدائن على حافة الصحراء لرعاية الحرمات وفهم القداسة في البيع والمناسك ، وكفى بكلمة « البيعة » نفسها دليلاً على فضل المدائن المطروقة في رعاية حرم العبادة من أقدم العصور ، وكفى بكلمة « الاحترام » دليلاً على الصلة بين هذه المحرمات وبين شعور التوقير والرعاية .

ومن الأسباب الحسنة تقرير الحقوق واقامة القواعد في المعاملات وتواضع المختلفين والمؤتلفين على مبادىء الأخذ والعطاء والذمة والوفاء ، وعمل الحاضر للغائب والقريب للبعيد على ثقة واطمئنان .

وليس في وسع أحد أن يزعم أن الحقوق والقواعد التي يتعارف عليها الناس في مدن القوافل تصان في كل صفقة وتحفظ في كل علاقة . فقد يكون الغش فيها أكثر من الصدق ، والخداع فيها أكثر من الامانة ، ولكنها على أسوأ الأحوال ملزمة للمشتركين فيها لا يجترىء القوي على الجهر بنكرانها والعدوان عليها ، سواء كان العدوان على قوي مثله أو على ضعيف غير مرهوب الذمار .

ومن الأمثلة التاريخية على ذلك حرب الفجار وحلف الفضول في مكة

المكرمة ، وهي من أكبر مدن القوافل ومن أعظم النماذج لها في جميع ما ذكرناه ..

ففي حرب الفجار أجاز زعيم من هوازن قافلة للنعمان بن المنذر على غير العرف المتفق عليه ، اعتزازاً بعزته ومنعته ومكانة النعمان بن المنذر في الأمم العربية ، فهاجت لها حرب استمات فيها الفريقان حتّى شد بعضهم نفسه بالحبال لكيلا يفر من القتال .

وفي حلف الفضول كان سبب الحلف أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصي بن وائل وحبس عنه حقه فاستعان عليه الزبيدي جماعة من الرؤساء فلم يعينوه ، فوقف الرجل على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس وصاح يطلب الغوث ، فمن جراء ذلك اجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار ابن جذعان فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتّى يؤدى اليه حقه ، ثم مشوا إلى العاصي بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه ، وقال أحدهم :

سيعلم من حوالي البيت أنا أباة الضيم نمنع كـــــل عـــار

وقال ابن قتيبة ان قريشاً قد سبقها إلى مثل هذا الحلف قبيلة جرهم ، فتحالف منهم ثلاثة هم الفضل بن فضالة والفضل بن وداعة وفضل بن الحارث ، فسمي لهذا حلف الفضول وجاءت قريش فسمّت حلفها بهذا الاسم لأنه مقصود لما قصده الأحلاف الأولون .

وليس بالقليل ما تعلمته الأمم من اقامة « الحوزة » التي يدين لها الجميع بالرعاية ويتعودون عندها أن يجعلوا الذمم والعهود في حماية الاله المعبود ، ومن الجائز ان تعدد الأرباب وتناقض الدعاوى في موطن واحد يجاور فيه كل دير ، نقيضه ، قد فتح الأعين على ما وراء ذلك من السخرية والتهافت ، ولا سيما أعين الطارئين العابرين من أهل البادية الدارجين على البساطة واجتناب المتناقضات ..

أما الأسباب السيئة التي أوجبت قيام الدعوات النبوية في تلك المدن فهي

أسباب قوية كثيرة لم تكن توجد يومئذ في غيرها بهذه القوة وبهذه الكثرة ..

وأقوى تلك الأسباب مساوىء الاحتكار والاستغلال.. فان تجارة العالم اذا توقفت على مدينة هنا ومدينة هناك صارت في كل مدينة إلى فئة قليلة من السادة وأصحاب اليسار يحتكرون المقايضة والنقل ويبرعون في أساليب المماكسة ورفع الأسعار وزيادة الضرائب والأجور على الرحال والمطايا وجند الحراسة ، ويغتنم هؤلاء المحتكرون فرصتهم فيخدعون البسطاء ويحتالون على الأصول والشرائع ، ويأخذون باليمين والشمال من الوارد والصادر والغادي والرائح ولا حيلة للتجار فيهم ولا لناقلي التجارة لأنهم قابضون على الزمام ، وليس في قدرة دولة أن تحاربهم الا بالاشتباك في الحرب مع دولة أخرى ، أو بانفاق أموال في الغزو والحصار تزيد على الأموال التي يغتصبها المحتكرون أو يختلسونها ، وقد يغلو هؤلاء المحتكرون في الجشع والتحكم حتى يدفعوا الدول إلى المجازفة بالغارة مرة تريحها من مرات .

كذلك صنع انتيجون خليفة الاسكندر مع أهم هذه المدن في زمانه وهي سلع (أو البتراء) فجرد عليها حملتين ولم يفلح في غزوها ، وهاجمها تراجان بقوة كبيرة فدمرها وحول الطريق منها إلى بصرى ، ولم يبق من حولها غير مدن صغار .

واشتهرت سدوم بين هذه المدن بالظلم وسوء المعاملة وسلب الغرباء وتدليس القضاء ، وفي قضائها يقول المعري :

وأي امرىء في الناس ألفى قاضيا

ولم يمض أحكاماً كحكم سدوم

ومن أمثلة هذا القضاء في احتياله على الشريعة أن رجلاً اسمه حضور رأى طارئاً غريباً أعجبه في رحله بساط ملون فدعاه إلى منزله ليبيت فيه وسرق منه البساط ، فلما طلبه الرجل قال له انك حالم ، وان تفسير البساط الملوّن في الرؤيا أنك تزرع أرضاً ينمو فيها النبت من كل لون ، ثم ساقه إلى القاضي ليعطيه أجره على تفسير رؤياه ، فقضى له بالأجر المطلوب ..

ومن أمثلتها أنهم سرقوا اليعازر خادم ابراهيم عليه السلام ، فلما أخذ بتلابيبهم ضربوه ورماه أحدهم بحجر وساقه إلى القاضي يطلب منه أجره على فصده ، ولم يخلصه من حكم القاضي إلا انه ضربه بحجر وأسال دمه ، ثم قال له انني نزلت عن أجري كي تعطيه لغريمي !

وفي المشنا أسماء يزعمون أن اليعازر هذا أطلقها على قضاة سدوم وهي شقارة أي الكاذب وشقرورة أي المحتال وكذبان أي المزور ومضل دين أي المتجانف في دينونته وقضائه ، وليس أكثر من حكايات التدليس التي تروى عنهم في كتب المشنا والمدراش .

ولا ينسى القارىء ان الجريمة الكبرى التي أحصاها القرآن الكريم على أهل مدين — ومدائن الحجر عامة — أنهم يختلسون ويطففون الكيل :

« وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .

ولا يلبث الترف أن يجني جنايته على هؤلاء المحتكرين فيغريهم بكل مفسدة ويجلب إلى بلادهم كل فاسد ، وشر هذه المفاسد في أعين أبناء الفطرة من قبائل البادية رذائل الشذوذ وتدنيس غريزة النسل التي تصونها تلك القبائل على فطرتها ، ولم توجد مدينة من مدائن القوافل سلمت من هذه الرذائل ، حتى قالت كتب المدراش أن طوفان نوح انما كان من جرائر هذا الشذوذ في قومه ، وأنه كان فاشياً في بيت المقدس يوم أنذر النبي حزقيال قومه بالنفي او بالسبي والتشريد [1] .

هذه الأسباب جميعاً هي التي هيأت مدن القوافل للدعوات الدينية ، لأنها دعوة تتهيأ اسبابها بين الحاضرة والبادية ولا بد لها من التقاء هذه وتلك ، ولا

---

(١) صفحة ٢٤٦ من المجلد الاول وصفحة ٤٢٠ من المجلد السادس من أساطير اليهود .

غنى لها عن صفات المدينة وصفات الصحراء . ولحكمة بالغة قال النبي صلوات الله عليه : « ما من نبي إلا وقد رعى الغنم » .. ولحكمة بالغة قامت مدينة القوافل بدورها في تاريخ بني الانسان . فنشأ الحكماء والنساك في الصين والهند على مثال كنفشيوس وبوذا ولم ينشأ فيهم الأنبياء المرسلون والرسل المجاهدون. اذ كانت أمانة النبوة المجاهدة شيئاً غير أمانة الاصلاح والتعليم ، وما عهدنا سورة العقيدة تملأ الوجدان كله وتشغل الحياة كلها كما عهدناها في المرسلين إلى الأقوام الذين عاشوا على هذه الرقعة الوسطى من العالم ، وتلقوا عقائدهم كأنهم يصلون الأرض بالسماء صلة اللحم والدم ، ولا يحسبونها سمة من سمات الأدب والمعرفة وكفى ، أو نصا من نصوص الشريعة والنظام وحسب ، أو نهجاً من مناهج السلوك ولا زيادة .

وأحسب لو اننا بدأنا دراسة التواريخ الدينية في الشرق العربي على ضوء هذه الحقيقة منذ بداءة النظر في هذه التواريخ لما تسرع المتسرعون بالنفي والانكار تارة والفهاهة وسوء الفهم تارة أخرى، بل كان من الميسور لهم ان يربطوا الدعوات الدينية كما ترتبط الحلقات في السلسلة الواحدة ، وان يملأوا فراغ التاريخ بما يسده ، بدلا من خلق الفراغ حيث لا فراغ ..

ان بعض الفلكيين قد عرفوا أماكن الكواكب المجهولة قبل اختراع المجاهر المكبِّرة لأنهم قدَّروا موقعها من الفلك بحساب المدارات والأحجام ..

وقد عرف بعض الكيميين أماكن عناصر لم يشهدوها في الطبيعة، لأنهم قدروا نسبة الكهارب والنواة فيها إلى العناصر المشهودة .

ولو أننا تتبعنا سلسلة الدعوات في مواقعها وتواريخها لما قال المتشككون : ان ابراهيم لم يوجد .. بل لقالوا : هنا مكان لابراهيم لا بد أن يُشغل ، واستطاعوا بالبحث والمقارنة وتعليق النتائج بمقدماتها ان يربطوا بين أور وأشور وبيت المقدس وجاشان والبتراء ومكة ، لأنها نسق واحد يدل الأخير منه على الأول كما يتقدم الأول منه في زمانه ووضعه على الأخير ... فكلها دعوات لا بد فيها من شخص الرسول ولا بد فيها من عنصري الحضارة والبداوة ،

ولا بد فيها من تمام المجزوء ووصل المقطوع واطراد مراحل التطور على نهجه الوحيد، وليس له نهج وحيد أصلح من نهجه الذي هيأته اسباب الدعوات موقعاً بعد موقع ، كما تعينت مواقع الكواكب في دراسة الفلك ومواقع العناصر في دراسة الكيمياء .

او لعلنا نصل إلى النتيجة من درب قريب اذا اعتمدنا على قياس التاريخ بمقياسه الذي لا يقبل الخطأ : وهو تصور الحوادث كما يرسمها الواقع والعقل. فان هذا المقياس شبيه بمقياس العمليات الحسابية في التمييز بين الخطأ والصواب، وما علينا اذا أردنا أن نمتحن حادثة تاريخية ، أو سلسلة من الحوادث التاريخية ، الا أن نسأل أنفسنا : كيف ينبغي أن تحدث ؟ فاذا ارتسمت لنا على الترتيب الذي يقبله العقل ويطابق الواقع فذلك هو الامتحان الصادق وما نستخلصه منه هو الصواب كأصدق ما يمكن أن يصوره تاريخ الحوادث لمن لم يشهدها شهادة العيان .

اذا كانت دعوات النبوة متصلة بمدائن القوافل فليس أولى من بلاد النهرين في العصر القديم أن تبدأ منهـا الدعوة الأولى ، ثم تتلوهـا المدن الأخرى على حسب مكانتها ومكانها من حيث النظر إلىالطرق العالمية ومظاهر الحضارات المختلفة .

فالدول القديمة بينالنهرين لم يكن لها نظام غير النظام الذي اشتهر في علم السياسة باسم نظام « حكومات المدائن» لأنه يقوم علىمدن أربع أو خمس من العواصم العظمى تحيط بها البادية التيتزرع مرعاها أو ترعى ماشيتها في المزارع الطبيعية وتسافر بالقوافل على حسب مراحلها، ويجوز أن تتغلب دولة واحدة على جميع هذه المدن إلى فترة قصيرة كما يجوز أن تتفرق وأن تنفرد كل منها بحكومتها ، ولكنها على الحالتين مدائن تحيط بها الباديةوتعتمد على نقل التجارة من أقصى العالم المعمور إلى اقصاه في الأزمنة القديمة .

وترتيبها على حسب مكانتها ومكانها في وادي النهرين، وفي العالم كله : يبدأ من مدينة (أور) في الجنوب وينتهيإلى مدينة أشور شمالاً ، ثم يتجه

غرباً وجنوباً إلى فلسطين ومدن خليج العقبة فالحجاز، حيث تلتقي قوافل الشمال وقوافل الجنوب .

فمدينة (أور) أهم هذه المدائن لأنها تتلقى التجارةمن البحر ومن البر وتنقلها من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، كما تنقلها بين الجنوب والشمال ..

ويليها في مكانها ومكانتها مدينة أشور لأنهاتأخذ من الجنوب وتوزع على ما حولها، وقد تصل قوافلها إلى أقصى الشمال من القارة الأوروبية كما تصل إلى آسيا الصغرى وأوربة الشرقية ..

وفي مدينة (أور) بدأت دعوة ابراهيم، وإلى مدينة (أشور) انتقلت ولم يطل بها القرار في هذه النقلة العاجلة .

وهنا كان مبدأ الدعوة النبوية التيلم يكن لها نظير في غير هذه البقاع من أوطان الأمم العربية الأولى .

* * *

ويطّرد الترتيب بزمانه كما يطّرد بمكانه، فمن أشور إلى حبرون او بيت المقدس ، إلى مدن خليج العقبة إلى مدينة الحجاز المقدسة، وعندها نهاية المطاف ..

جاء في تاريخ مكة قبل أيام اسماعيل أن مضاض بنعمرو كان يعشر (أي يفرض ضريبة العشر) على من دخل مكة من شمالها، وأن السميدع كان يعشر على من دخل مكة من أسفلها .

وجاء في العهد القديم ان الخليل قدم العشر لصاحب بيت المقدس (ملكي صادق) لانه سادن الإله العلي في محرابها الأعلى .

نظام واحد في مدن القوافل يدل عليه هذان التاريخان المنفصلان .

وتتوالى الدعوات النبوية بعد ذلك على حسب المكانة بين مدن القوافل ، وعلى حسب المكان من بقاع الهلال الخصيب والجزيرة العربية ..

فلما بدأ تاريخ الدعوة النبوية من أور إلى أشور إلى بيت المقدس إلى مدن الجنوب كانت هذه المدن الجنوبية على غايتها من الازدهار وعلى غايتها من الفساد ، وكان لها دورها الذي انتهى بكوارث الزلازل أو الهزيمة ..

وبقيت شواهدها في خرائبها تنطق بما كان بينها من صلات ومعاملات : ففي البتّراء محاريب الحجارة السود التي تساقطت من السماء ، وفيها هيكل البنت او الربة المصرية « ايزيس » .. وما ايزيس ؟ .. أتكون هي العزّى التي عبدت زمناً في الجنوب ؟

* * *

تكون أو لا تكون .. فالرواة الذين أرخوا ظهور الأصنام في الكعبة المقدسة بمكة لم يدرسوا الآثار المصرية ولم يدرسوا الأحافير التي درسها العصريون في القرن العشرين ، ولكنهم أرخوا الأصنام فقالوا ان سيد مكة في زمانه (عمر بن لحيّ) سافر إلى الشام وعاد منها بطائفة من الأصنام ، وأن أبناء اسماعيل بالحجاز تعودوا عبادة الأنصاب لأنهم كانوا يحملون معهم الحجارة المقدسة للتبرك بها كلما ابتعدوا من الحرم، ثم انتقلوا من التبرك بها إلى عبادتها مع طول الزمن ، وكانت روايتهم هذه مصدقة لما فعله أتباع ابراهيم وموسى وسائر الانبياء في الأماكن الأخرى ، فهكذا تحولوا من عبادة الاله الواحد إلى عبادة الانصاب والتعاويذ والتماثيل والطرافين .

* * *

وسواء صح هذا كله أو لم يصح فالصحيح الذي لا شك فيه أن الصلة الدينية والثقافية واللغوية والتجارية لم تنقطع قط بين النبطيين والمكيين ،وانا لو سلكنا التاريخ الديني طرداً وعكساً ، ثم سلكناه عكساً وطرداً لما كان له من مسلك أقوم وأثبت من بدايته ونهايته بين (أور) في جنوب العراق ومكة في وسط الحجاز !

واذا كان التاريخ يرتسم على هذه الصورة معقولاً وموافقاً للواقع أو ما ينبغي أن يقع ، فلا وجه للشك فيه ، بل الوجه كل الوجه أن نلتمس من طريقه هذا أسباب اليقين .

* * *

النّبوة

عثر الباحثون في آثار بابل وأشور على كلمات كثيرة في الألواح المسمارية من مصطلحات علم الفلك القديم ، ومنها اسماء المنازل والبروج ومجاميع الكواكب والنجوم .

واكثر الباحثين في الآثار البابلية والأشورية معنيون بمباحث التوراة وتواريخ الانبياء ، لعلاقتها بأرض بابل أيام الخليل ثم أيام السبي بعد عصر الخليل بأكثر من ألف سنة ، فهي علاقة تمتد من أقدم العصور الأثرية إلى أحدثها ، أي من قبل عصر الخليل إلى ما بعد عصر الميلاد .

فعاد الباحثون إلى كتب العهد القديم يعارضون عباراتها على الكلمات المسمارية ولاسيما الكلمات التي تطلق على الشئون السماوية ، فتوقفوا عند كلمات مختلفة كانوا يمرون بها ولا يلتفتون لمعنى فيها غير ظاهر معناها .. وعنّ لبعضهم أن بعض الأنبياء من العبرانيين كانوا على علم بالفلك ، وأن النصوص التي كتبت بها نبوءاتهم تثبت علمهم به على نحو قاطع أو على ترجيح يقرب من اليقين ..

وليس لابراهيم كما هو معلوم نصوص محفوظة منسوبة اليه ألفاظها ومنازل السماء أوضح من أن يعزى إلى المصادفة ، وهذا هو وهي نبوءات يعقوب فعارضوها على معلوماتهم من اللغة المسمارية ، واختاروا منها ما كان من قبيل الطوالع الفلكية وهي الطوالع التي احتواها الاصحاح التاسع والاربعون من سفر التكوين وفيها ينبىء يعقوب أبناءه بما يصيبهم في آخر الأيام ، فتراءى لهم أن التوافق بين ألفاظها ومنازل السماء أوضح من أن يعزى إلى

المصادفة ، وهذا هو الاصحاح الذي وجهوا اليه معظم البحث في كلام يعقوب :

« ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم في آخر الأيام . اجتمعوا واسمعوا يا بني يعقوب واصغوا إلى اسرائيل أبيكم .

« رأوبين أنت بكري ، قوتي وأول قدرتي ، فضل الرفعة وفضل العز . فائراً كالماء لا تتفضل ...

« شمعون ولاوي أخوان ، آلات ظلم سيوفهما ، في مجلسهما لا تدخل نفسي .. بمجمعهما لا تتحد كرامتي . لأنهما في غضبهما قتلا انساناً وفي رضاهما عرقبا ثورا .

« يهوذا إياك يحمد اخوتك .. يهوذا جرو أسد .. جثا وربض كأسد وكلبوة ، من ينهضه ، لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب ، رابطاً بالكرمة جحشه وبالجفنة ابن أتانه ، غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه .

« زبولون عند ساحل البحر يسكن ...

« يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر ...

« دان يدين شعبه كأحد أسباط اسرائيل ، يكون دان حية على الطريق .. يلسع عقبي الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء .

« جاد يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره

« أشير خبزه سمين وهو يعطي لذات ملوك

« نفتالي ايله مسيبة يعطي أقوالا حسنة

« يوسف غصن شجرة مثمرة على عين ... فمررته ورمته واضطهدته أرباب السهام ، ولكن ثبتت بمتانة قوسه وتشددت سواعد يديه ...

« بنيامين ذئب يفترس في الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهبا » .

هذه الطوالع درست باستفاضة وتدقيق وكتب خلاصة درسها أريك بروز في كتابه طوالع يعقوب وبلعام [1] فانتهى منها إلى وحدة بين كل اسم من أسماء الأسباط وبين برج من أبراج السماء .

فرأوبين الفائر كالماء يقابل برج الدلو ، وقد جاء في مدراش التكوين أن أباه قال له ، جعلت نفسك دلواً ، وبرج الدلو في منطقة البروج على صورة انسان قائم باسط يديه وآخذ باحداهما كوزاً مقلوباً ليسكب منه الماء ، وفي الكلمة جناس بين كلمة رأب بمعنى نام واسم رأوبين .

وشمعون ولاوي أخوان ، طالع يشير إلى برج التوأمين : وهو برج إله الحرب زجال عند البابليين ويصورون أحدهما وفي يديه خنجر والآخر في يديه سلاح شبيه بالمنجل ، وإلى هذا تشير كلمة آلات الظلم التي في سيوفهما ، وتشير عرقبة الثور إلى برج الثور الذي يتعقبه التوأمان في السماء كأنهما يطاردانه ويعرقبان رجليه .

ويهوذا ... ربض كأسد وكلبوة . اشارة إلى برج الأسد . وقد كان عند البابليين برجان : أحدهما برج الأسد أرجولا والثاني أرماح وهو أحد نجوم الدب الأكبر ، وأمام الأسد في البروج علامة الملك Seonis Rogulus ... وإلى هذا يشار بالقضيب الذي تخضع له ملوك .

وزبولون عند ساحل البحر يسكن . اشارة إلى برج الحوت ، وكان عند البابليين على صورة أصبعين منفصلتين احداهما ترمز إلى الدجلة Diglat والأخرى إلى الفرات Purattu .

ويساكر اشارة إلى برج اليحمور « حمار جسيم رابض بين الحظائر » ويلفت الباحثون النظر إلى التشابه بين اللون الأشقر وبين يشاكر أو يساكر ، وإلى ورود اليحمور بمعنى حمار الوحش ومعنى الظبي في اللغة العربية ..

ودان .. حية على الطريق يلسع عقبي الفرس ، والمراد صورة الحية الشمالية أو عنق الحية ، وموقعه الى شمال برج العقرب ...

---

(١) The Oracles of Jacob & Balaam by Eric Burrows

أما قوله « يلسع عقبي الفرس » فالاشارة فيه إلى النعائم الصادرة Saguittaru وصورتهما كالسنتاؤر الذي له جسم فرس ورأس انسان ، ويضعون السلاح على مقدمه وعلى مؤخره وقد يكون في هذا تفسير طالع (جاد) الذي يأتي بعد « دان » ويزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره .

وأشير طعامه سمين ، والكلمة العبرية (لحم) وتنصرف إلى برج السرطان وإلى جانبه علامة الملك ، ومن ثم يعطى لذات ملوك ..

وعلى هذا النمط يمضي علماء الأحافير في تفسير هذه الطوالع ، ومن تفسيراتهم ما هو قريب ومنها ما هو بعيد معتسف ، لارتباط الجناس اللفظي تارة بمدلول الفلك وتارة بمدلول النسب والتاريخ .

وقد صنعوا مثل ذلك في دراسة طوالع بلعام كما جاءت في الاصحاح الثالث والعشرين وما بعده من سفر العدد ، وقد اشتملت على تكرير عدد السبعة ، وعلى اسم الثور والحمل والظبي والأسد وعلى طوالع الأمم التي ليست من اسرائيل ، وعارضوا المصطلحات الفلكية على أقوال الأنبياء الآخرين ، وثبت على الأقل من هذه المعارضات أن معرفة الفلك كانت شائعة عند كتاب هذه الطوالع ، سواء كتبت على أيام الأنبياء الذين نُسبت اليهم أو كتبت بعد أيامهم عندما تحقق بعض الطوالع أو بدا أنه متحقق عما قريب .

فاذا صحت هذه التخريجات – كلها او بعضها – فهذا موضوع من الموضوعات التي تطابقت فيها الأحافير وأخبار التواريخ الأثرية والتواريخ القديمة ، اذ كانت هذه التواريخ مجمعة على معرفة الأنبياء الأوائل بالنجوم ، وان اختلفوا في المقصود بعلم النجوم .

وندع المبالغات من قبيل مفاخر يوسيفوس ودعواه ان ابراهيم هو الذي علم أحبار المصريين أسرار الكواكب وحساب الفلك ، فليس الخبر كله في هذه المسألة خبر تواريخ وروايات . لأن العقل يفرض بغير حاجة إلى التواريخ والروايات ان يكون رؤساء القبائل المترحلة على علم بمواقع النجم ومطالع الأفق ومهاب الأنواء ، وقد كان الأنبياء الاوائل رؤساء

لقبائلهم لا تبرم هذه القبائل أمراً من الرحلة والاقامة إلا بمشورتهم وتوجيههم، ومقام الأنبياء في بابل حيث يرقب الناس الكواكب لأنهم يعبدونها ولأنهم يربطون بها مواسم الزرع والري خليق أن يشغلهم بها للمحاجّة في شئون العبادة وللنظر في شئون المعاش .

وقد جاء في القرآن الكريم ان ابراهيم كان ينظر في النجوم ، وان يوسف كان يعبر الرؤيا وان موسى كان يطلع على سحر الكهان، فمن موافقات الأحافير انها تأتي بالسند المكتوب الذي يشرح لنا تفصيلات هذه الأخبار ، ويكاد أن يعين لنا الوقت الذي كتبت فيه طوالع الأنبياء لأن تقسيم بروج الفلك قد مر في أدوار متلاحمة من تاريخ بابل ، بعضها محدود على وجه التقريب .

والحد الفاصل بين النبوة والكهانة في السلالة العربية مرسوم أو كأنه مرسوم ، فكان الأنبياء هم أول من تولّى أمر الدين في أمم السلالة العربية ، وكانوا يسوسون أمر الدنيا فيما تتطلبه الرئاسة ، ومنه علم النجوم ...

ثم افترق عمل النبي وعمل الكاهن ، ووقع بينهما العداء أحياناً كما رأينا في غير هذا الفصل ، فأصبحت الكهانة وظيفة تعارض النبوة في كثير من الأوقات وهنا الفارق الأعظم بين النبوة والكهانة .

فالكهانة وظيفة ولكن النبوة ليست بوظيفة ، ولم يحدث قط أن أحداً عيّن نبياً لعمل النبوة كما حدث كثيراً تعيين الكهان لعمل الكهانة .

ان النبوة التي تنفصل من الكهانة خاصة لم تتكرر في غير السلالة العربية ، فما من ديانة كبرى أو صغرى في أنحاء العالم إلا يستطيع المؤرخ أن يحيلها كلها من مبدأ التاريخ إلى عمل الكهان ، وما من كهانة إلا وهي وظيفة قابلة للتعيين .

أما ديانات الأنبياء فلا وجود لها في غير السلالة العربية ، والاختلاف بينها وبين الديانات الأخرى أن النبي لا يعينه أحد ولا ينبعث بأمر أحد ، ولكنه ينبعث بباعث واحد من وحي ضميره ووحي خالقه ، وقد يأتي ليصدم العبا ات التي يقوم الكهان على شعائرها ومراسمها ، وهم أنفسهم مرسومون معينون ..

والفرق بين النبي وبين الكاهن في جوهر العمل أوسع جداً من الفرق بينهما في التعيين والإختيار . فالكاهن موكل بالشعائر والمراسم والأشكال ، يحرص عليها ويأبى أن يشاركه أحد فيها ..

ولكن النبي تعنيه روح الدين وحقيقته في الضمير قبـــل هذه الشعائر والمراسم والأشكال .

سريرة الانسان هي وجهة النبي وغايته من التبشير والانذار ، وأما الكاهن فوجهته نظام المجتمع وتقاليد الدولة وما اليها من الظواهر أو الواجبات العامة ..

ولم تخل الديانات الكبرى من أحبار معينين يوجبون على الناس الاستقامة ويحذرونهم غضب الإله على الذين ينحرفون عن سبيلها .

ولكن الإله هنا أشبه برئيس الديوان الذي يجري الاحكام وفقا للمأثور من نظام الدولة ، والكاهن أشبه بمندوبه وأمين سره في المحاسبة على الشريعة : كلها مسألة نظام ومجتمع ، وكلها مراسم وتقاليد .

أما النبي فالعالم الذي يصوره لنا أسرة حية ، والإله قائم على ذلك العالم لأنه على صلة قريبة بكل من فيه من خلقه ، وكل كائن من تلك الخلائق رهين برضاه وغضبه ، وذو شأن في دعوة الدين مقدم على شأن المجتمع والدولة ، وأهمه وأصدقه ما كان في الضمائر والنيات .

والنبي ذو شأن حي في دعوته يلعج نفسه ولا يريحه دون أن يبرىء منه ذمته ، وليس كذلك جماعة الكهان الذين لهم محل مستقر وعمل راتب وعلاقة بالناس كعلاقة المصالح والأشغال .

وهنا أيضاً نرجع الى « القبيلة » ولا سيما القبيلة في حالة الشعور بالخطر كائنا ما كان ، فضلا عن الخطر الأبدي الذي يحيق بالحياة وما بعد الحياة ..

فلا ينتظر من المصلح او المعلم أو الكاهن في بلاد الحضارة والعمـــران أن تخامره نخوة اللحم والدم كما تخامر النفس التي تعودتها في كل شعور وفي كل علاقة ، ولم تعرف حالة غيرها فيما بينها وبين الناس .

واذا كان هذا الطابع ملازماً لبعثات الرسالة حول مدن القوافل جميعاً فقد عرفنا ما نفتقده إذا افتقدنا سراً من أسرارها ، وعرفنا كيف نتتبع آثارها اذا انقطعت الصلة بين سوابقها ولواحقها ، فلا نخبط على ضلال ، ولا نضيع البحث في شكوك محيرة للسالك ، لا موجب لها على هذا المهيع المسلوك ...



أنبياء من غير بني إسرائيل

كلمة النبي عربية لفظاً ومعنى .

عربية لفظاً ، لأن مادة النبأ والنبوءة أصيلة في اللغة .

وعربية معنى ، لأن المعنى الذي تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة في اللغات الأخرى : فهي تجمع معاني الكشف والوحي والإنباء بالغيب والإنذار والتبشير ، وهي معان متفرقة تؤديها اللغات الحديثة بكلمات متعددة ، فالكشف مثلاً تؤديه في اللغة الانجليزية كلمة Revelation والوحي تؤديه كلمة Inspiration واستطلاع الغيب تؤديه كلمة Divination او Oracle ولا تجتمع كلها في معنى النبوة كما تجتمع في هذه الكلمة باللغة العربية .

وقد وجدت كلمة النبوة في اللغة العربية غير مستعارة من معنى آخر ، لأن اللغة العربية غنية جداً بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما إليها من الكلمات التي لا تلتبس في اللسان العربي بمعنى النبوة كما تلتبس في الألسنة الاخرى عند أصل التسمية واشتقاق المعاني الجديدة من الألفاظ القديمة ..

فكلمة النبي تدل على معنى واحد لا تدل على غيره ، خلافاً لأمثالها من الكلمات في كثير من اللغات .

والعبريون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء ، وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائي والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة في مبدأ الأمر إلا معنى الانذار .

وقد أشارت التوراة إلى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكي صادق الذي لقيه الخليل عند بيت المقدس ، وهؤلاء الأنبياء الثلاثة هم يثرون وبلعام وأيوب ، ومنهم من يقال انه ظهر قبل اثنين وأربعين قرناً ، وهو أيوب .

وقصة بلعام تروي لنا ما حدث بين شيوخ مديان (مدين) بعد خروج بني اسرائيل من مصر ، فان بالاق ملك موآب قد استعان عليهم بالنبي بلعام من تخوم العراق ، ليبطل دعواهم باسم النبوة ويدحض أقوالهم بأقوال من قبيلها ، فجاء بلعام وحكم بتفضيل عبادة الله على عبادة بعل الذي كان يومئذ معبوداً للموآبيين .

وأما يثرون فهو نبي مدين قبل خروج بني اسرائيل من مصر ، ويظن بعض الشراح أنه هو شعيب المشار اليه في القرآن ، ولعـــل شعيباً هو قريبه (هوباب) أو شوباب بمعنى محبوب الله .. وبين النطق العربي والنطق العبري تقارب محسوس ، ومن شراح التوراة من يقول ان « يثرون » لقب وليس باسم يدعى به نبي مدين،فلا يبعد اذن أن يكون شعيب اسمه الذي لم يذكروه .

ومجمل القصة مع قصة بلعام يفيد أن النبوة كانت معهودة متكررة في تلك الأرض قبل خروج بني اسرائيل من مصر ، وأيام أن كان موسى سائحاً في الأرض لم يتلق الوحي ولم يرجع إلى مصر ليخرج بقومه منها ... أما أيوب فالرحالة برترام توماس صاحب كتاب « مفزعات وكشوف في بلاد العرب » Alarms & Exploration in Arabia يحسبه من أهل عمـــان ، وغيره يحسبه من أهل نجد ، وزمنه متباعد بين المؤرخين وشرّاح التوراة ..

ومنهم من استعان بعلم الفلك على تحديد زمنه، لأنه ذكر النعش والجبار والثريا ومخادع الجنوب في القبة السماوية ، وفي اشارته إلى عين الثور وقلب العقرب من منازل الفلك ما يفهم منه زمان تلك المقارنات على تقدير الفلكيين المحدثين ، وقد ذكر المفسر هالس Hales أن هذه المقارنات تجعل تاريخ أيوب قريباً من سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد .

ومما يقرب هذا التقدير ويدل على اتصال أيوب بالبلاد المصرية أنه ذكر الأهرام والمدافن التي يبنيها الملوك لأنفسهم، ولكنه اذا لم يبلغ هذا الحد من القدم فلا شك عند جمهرة الشراح في سبقه لعهد الخروج من مصر، وحجتهم على ذلك أنه لم يشر بكلمة واحدة إلى الخروج ولا إلى خراب المدن التي دمرتها الزلازل بجواره ، ولم يرد ذكر « يهواه » في صلب كتابه ، وانما ورد في المقدمة والذيل وهما مضافان بعد عصره كما هو راجح عند الشراح ..

ولم تكن حجته قط في الخلاص وطلب الرحمة أنه يعتمد على موعد الله للآباء والأسلاف ، وقد جاء في مزامير داود وأمثال سليمان كلام يشبه كلامه كأنه مقتبس منه ، فهو من أقدم الانبياء في الجزيرة العربية ، وكلهم متفقون على انه من أبنائها وان اختلفوا في مكانه بين شمال نجد وشرق العقبة .

ومن جامعي التوراة من يضع سفره بين كتب موسى وكتاب يوشع وسائر الأنبياء من بني اسرائيل ، وهكذا وضعه جامع النسخة السريانية من كتاب العهد القديم .

* * *

وقد كان أيوب يعرف الكتابة ، ولكنه أشار إلى أقدم ادوات الكتابة كما هي معهودة بمصر : نقش بالحديد على الحجر ، وليست طبعاً على الطين المحروق أو خطوطاً على الأوراق والجلود ، ما عدا طين الخاتم الذي كان يطبع في البلاد الشرقية جميعاً على نحو واحد.

أما عقيدة أيوب كما تفهم من سفره المجموع في العهد القديم فغاية في السمو والكرم والتنزيه .

انه ينكر عبادة الشمس والقمر ، ويصف الله القدير بأنه أعلى من السماوات وأعمق من الهاوية وأعرض من البحر ، وسوّى بين الحرّ والعبد قائلاً : « أو ليس صانعي في البطن صانعه وقد صورنا واحد في الرحم؟» ويحمد من الغني أن يكون أباً للفقراء وأن تكتئب نفسه على المساكين ، وان يبكي لمن عسر يومه ، ويستعيذ بالله أن ينظر انسان إلى امرأة غير امرأته وأن يطمع في مال غير ماله .

وأجلّ من ذلك شأناً في تاريخ العقيدة الدينية ، انه كان أول من نص على البعث في كتب العهد القديم ،وكانت تربيته الإلهية التي انتهى منها إلى هذه العقيدة تربية طويلة صبر فيها على نكبات المرض والبوار وخيانة الاقربين والأبناء ، وتدرّج من القول بالزوال والعدم إلى القول برؤية الله بعد فناء الجسد ، فكان في أول السفر يقول : « الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد » ويقول « الانسان يضطجع ولا يقوم » و « اذا مضت سنوات قليلة أسلك في طريق لا أعود منها » ويتساءل : « ان مات رجل أفيحيا ؟ » ثم انتهى من هذه التجارب إلى الامل في خلود النفس ولقاء الله « فبعد أن يفنى جلدي هذا ، وبدون جسدي ، ارى الله » .

* * *

وعلى الجملة يبدو سفر أيوب غريباً في وضعه وموضوعه بين أسفار العهد القديم ، ولم يكن من عادة بني اسرائيل أن يجمعوا في التوراة كتباً لغير أنبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم وميعادهم ، ولكنهم جمعوا هذا السفر مع الأسفار المشهورة لأنهم وجدوه في بقاع فلسطين الجنوبية محفوظاً يتذاكره الرواة ، وحسبه بعضهم من كلام موسى وبعضهم من كلام سليمان ، ولا عجب أن يشيع هذا الكتاب العجيب حيث تسامع به الناس فانه عزاء صالح للمتعزين وعبرة صالحة للمعتبرين ، ولا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء اللغة العربية الدارجة في مصر والشام ، ولا نعرف كتاباً من كتب التوراة ظفر في رأي النقاد الغربيين بالاعجاب الأدبي الذي ظفر به سفر ايوب ، فقال توماس كارليل عنه انه واحد من أجلّ الأشياء التي وعتها الكتابة ، وأنه اقدم المأثورات عن تلك القضية التي لا تنتهي :قضية الانسان والقدر والأساليب الإلهية معه على هذه الارض، ولا أحسب أن شيئاً كتب مما يضارعه في قيمته الادبية » ..

وقال فيكتور هيجو « إنه ربما كان أعظم آية أخرجتها بصيرة الانسان » .

وقال شاف Schaff « إنه يرتفع كالهرم في تاريخ الأدب بلا سابقة وبغير نظير » ..

أما بلعام ويثرون فقد ذكر الأول في كتب العهد القديم لانه نصر بني اسرائيل في الخصومة بينهم وبين الموآبيين ، وذكر الثاني لما بينه وبين موسى من المصاهرة،وما كان له من الفضل فيتعليمه نظام الحكم وسياسة القبائل، وغيرهم ولا شك كثيرون لم يذكروا في المراجع اليهودية ، اذ كانت هذه المناسبات لا تستوعب تاريخ البقاع بين تخوم العراق وتخوم العقبة وما وراءها من أرض الجنوب .

وهذا بعض القرائن على مكانة النبوة في أرض الجنوب مما يلي سيناء والحجاز ، ومن القرائن الأخرى في كتب العهدين القـــديم والجديد يفهم بغير تردد أن تلك البقاع كانت وجهة الانبياء في كل عصر تحدثت عنه تلك الكتب . فابراهيم توجه إلى جيرار وموسى توجه إلى مدين (مديان) وبولس الرسول قال في كتاب غلاطيه انه ذهب إلى بلاد العرب قبل أن يأتي إلى دمشق ، ولم يفتأ بنو اسرائيل إلى عهد المسيح ينعون على الشمال انه لا يخرج منه شيء حسن ، وينتظرون النبوءات من برية الجنوب .

* *

ويجب أن يتأنى المؤرخ طويلاً عند ملاحظة هذه القرائن المتعددة فهي في تاريخ الخليل دليل على الوجهة التي يجب أن يبحث عنها المؤرخ اذا أراد البحث الصحيح عن مسلك الخليل في أيامه الأخيرة ، فانما يكون مسلكه المعقول إلى طريق الجنوب،ولا يعقل له مسلك إلى بيت المقدس يستقر عليه قراره، فان المصادر الاسرائيلية نفسها تقول انه كان غريب الدعوة والموطن في حبرون ، وأنه اشترى مدفنه من الحيثيين ، وما لم تكن له دعوة ولا موطن في الارض فالجنوب الذي اتجه اليه ، واتجه اليه أصحاب الدعوات النبوية أحرى أن يكون قبلته ومرجعه ، وليس من الغريب أن تتعمد المصادر اليهودية إغفال هذه القبلة والتعلق ببيت المقدس بعد أن قام فيها عرش داود ، فانها الدعوة التي يقومون بها ويسقطون بنفيها ، وفي ذلك وحده تفسير يغني عن كل تفسير .

العقائد والشعائر

من الألف الثالثة الى الألف الثانية قبل الميلاد ، أقام في البلاد العربية أناس من أتباع كل عقيدة دينية عرفت في تلك العصور .

وكان مركزها الأكبر في بلاد النهرين ، حيث تتابعت الدول فتتابعت معها الديانات والشعائر ومراسم العبادة.

عبدت فيها الكواكب ، وعبدت فيها الملوك ، وعبدت فيها قوى الطبيعة ، وعبدت فيها الأرباب العليا التي تعمُّ عبادتها رجال الدولة ، وعبدت فيها الأرباب المحلية التي يدين بها أبناء كل اقليم على حدة ، ولا تشترك الأقاليم جميعا في عبادتها ..

وقامت الشعائر على اختلافها مع كل دين من هذه الأديان ، فعرفوا الضحايا البشرية كما عرفوا القرابين من غلات الزراعة في مواسمها ، وعرفوا الصلوات في الهياكل بقيادة الكهان ، كما عرفوا الصلوات في البيوت أو في المدافن الملحقة بها ، وعرفوا الديانات التي تؤمن بالروح والجسد ، كما عرفوا الديانات التي تؤمن بالجسد ولا تذكر شيئا عن الروح ، أو التي تؤمن بان الروح يلصق بالأعضاء فلا ينتقل الى العالم الآخر ما دام للجسد بقية باقية ..

ومنهم من كان يفهم أن العالم الآخر ناحية من هذا العالم الأرضي أو هاوية في أعماقه ، ومن كان يفهم أنه آت بعد حين في آخر الزمان.

وشوهد من الآثار والأحافير أن هذه الديانات تتغير كلما تغيرت الدولة القائمة في مكانها ، فيقضي الدين الجديد على بعضها ويستبقي بعضاً منها أو يحوله الى صورة أخرى.

ومعظم هذه الشعائر والعبادات له علاقة بدعوة الخليل ابراهيم ، إما بالاقرار أو بالانكار والتحويل ..

وسبيل الباحثين الى تصفية هذه الشعائر والعبادات عسير بل جد عسير ، لاختلاط الأزمنة واختلاط الشعوب واختلاط البقايا في العصر الواحد ، فلا ندري على التحقيق ما كان من عقيدة هذا الفريق وما كان من عقيدة غيره ، ولا وسيلة الى الجزم بالقديم منها والحديث .

ويصدق هذا على العقائد والشعائر التي يقبلها أناس ويستنكرها أناس آخرون ، ولكنه لا يصدق على العقائد والشعائر التي يمكن أن يقبلها أتباع العبادات المتناقضة في وقت واحد ، كالحج وقد كان مفروضا في الجاهلية وظل مفروضاً في الاسلام مع اختلاف العقيدة والحكمة فيه ، وكالقول عن أصل الخليقة وقد اتفقت فيه الأديان الكتابية على الجملة وظهر من الآثار والأحافير أنه كان من عقائد الأمم الغابرة قبل الأديان الكتابية ، وما لم يأت نص بالمخالفة فليس ما يمنع تعاقب الاديان على قول واحد في هذه الأمور.

والمتواتر من سيرة الخليل ابراهيم أنه شهد عبادات الأقوام في عصره من أرض النهرين الى وادي النيل ، وأنه تنقل بين أقطار تتناقض في بعض العبادات وتتلاقى في بعضها على اتفاق قريب أو بعيد ، فاذا نظرنا فيما أبقى وفيما ترك وعارضناه على المشهور من عبادات أولئك الأقوام فليس من العسير أن نستخلص رسالته عليه السلام وما فيها من الجديد والقديم ، ومن الوفاق أو الخلاف .

وحاصل ما يقال هنا قبل تلخيص العقائد والعبادات في زمانه أن ظهوره عليه السلام قد كان ولا ريب على مفترق من الطرق يختلف فيه الجيلان في البيت الواحد ، فضلا عن الملتين أو القطرين.

وهذه طائفة من العقائد والشعائر التي كانت لها علاقة بدعوته ، وينبغي النظر فيها قبل التصفية التي نخلص منها الى بيان رسالته ورسالة الخالفين من بعده ..

١ – قصة الخليقة :

وجدت قصة الخليقة منقوشة بالخط المسماري على الألواح التي عثر عليها المنقبون عند مدينة الموصل ، ونقلوها إلى المتحف البريطاني بلندن حيث تعاون المفسرون على تفسيرها : وهذه خلاصتها :

« كان الأفق الأعلى لا يسمى بعد بالسماء ، وكان الأفق الأدنى لا يسمى بعد بالأرض ، ولما تفتح الهاوية ذراعيها .

« وكان الماء يغمرها جميعا ، وليس من انسان ولا حيوان يجوس خلالها .

« وولد يومئذ أقدم الارباب لخم ولا خامو .

« ثم ولد آشور وكيشور » .

ويلي هذا بعد كلام مفقود أو مطموس في الألواح المكسورة كلام عن الخلق في اليوم الرابع حيث صنع منازل لأعظم الارباب ، وصنع بروج الفلك على صور الحيوان ، وقسم السنة إلى أربعة فصول ، وإلى اثني عشر شهراً في كل فصل منها ثلاثة شهور ، وجعل فيها أيام المواسم والاعياد.

« وصنع للسيارات منازل تشرق فيها وتغرب ، ولا يصدم بعضها بعضاً في الطريق ، ووضعها مع منازل بعل وحي .

« وأقام لها مواصد على جوانبها ، وأغلاقاً على اليمين واليسار ».

« وأقام في الوسط نيرين . أقام القمر يسيطر على الليل ويسير فيه إلى مطلع الفجر ، وقدس في كل شهر أياما ، ليبرز في غرة الشهر قرنيه وينير أجواز السماء » .

ثم يلي هذا كلام ناقص عن اليوم السادس يتلى بعد اتمامه على الوجه الاتي :

« واجتمعت الارباب وخلقت الوحوش والانعام والدواب ، ومنها جماعة بيتي (أنا أشور السماء) .. وكانت فيه بهجة .

« والإله المشرف جعل فيها اثنين .. »

* * *

وفي المتحف البريطاني لوح عليه صورة شجرة جلس إلى جانبها رجل وامرأة ، ووراء المرأة حية ، وقد بسطا يديهما إلى ثمرتين بأسفل الاغصان . وفحوى قصة خلق الانسان أن الاله مردوخ فاتح الاله (ايا) رب الماء العذب فأفضى اليه بأنه سيخلق الانسان من دمه وعظمه ، وأمر حاشيته ، أن تضرب عنقه ليسيل دمه ، فنجم منه الانسان ، ولم يمت الاله مردوخ لان الاله لا يموت ، ولكن الانسان قضي عليه بالموت بعد ذلك لأنه طمح بآماله إلى خلود كخلود الأرباب .

٢ ــ قصة الطوفان :

وتؤلف قصة الطوفان البابلية من اثني عشر فصلا على حسب البروج : وراوي القصة يسمى (اسدبار) وقد عبر بحر الموت ليصعد إلى السماء ويلقى زستور الذي ارتفع اليها بعد نجاته من الطوفان ، والباقي من ألواح هذه القصة في المتحف البريطاني يحكيها على هذا المثال :

« ابن بيتاً واصنع سفينة تحفظ النبات والحيوان ، واخزن البذور واخزن معها بذور الحياة من كل نوع تحمله السفينة ، وليكن طولها ستمائة قدم في ستين عرضاً .. وتدخل السفينة وتحكم اغلاقها ، وتضع في وسطها الحبوب والمتاع والأزواد والخدم والجند ، وتضع فيها كذلك أجناس الوحش لتحفظ ذريتها ..

« ... وقال الله ليلا ! إني سأرسل السماء مدراراً ، فادخل إلى جوف السفينة وأغلق عليك بابها ، وتغطى وجه الأرض وهلك كل ما عليه من الأحياء ، وفار الماء حتى بلغ السماء ، ولم ينتظر أخ أخاه ولم يعرف جار جاره . ستة أيام وست ليال ، والريح تعصف والأنواء تطغى ، ثم كان اليوم السابع فانقطع المطر وسكنت العاصفة التي ماجت كموج الزلزال . سكنت العاصفة وانحسر البحر وانتهى الطوفان ، وعج البحر بعد ذلك عجيجه ، واستحال الناس طيناً وطفت أجسادهم على وجه الماء .

« ثم استوت السفينة على جبل نيزار .. وأرسلت أنا الحمامة فذهبت وعادت ولم تجد من مقر تهبط عليه ، فأرسلت عصفور السمانة فعاد وما هبط على مكان ، وأرسلت الغراب فراح ينهش الجثث الطافية ولم يرجع ، ثم أطلقت الحيوانات في الجهات الأربع وبنيت على رأس الجبل مذبحا فقربت لديه قربانا وفرقته في آنية سبعة وفرشت حوله الريحان ، وشمت الأرباب رائحة جيدة فاجتمعت على القربان ، ونظرت أعاظم الأرباب من بعيد ، وارتفعت أقواس السحاب تحييها عند اقترابها » .

وقد علم المنقبون أن هذه القصة منسوخة من مصدر قديم أقدم منها ، فهذه الألواح لا يقل تاريخها عن ألفين وخمسمائة سنة ، والمصدر الذي نقلت منه يرجع إلى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد .

وعلم المنقبون في جميع آثار الأرض التي كشفت في العالم القديم أو العالم الجديد أن قصة الطوفان عامة لا تنفرد بها الآثار البابلية ، ولا يقل تاريخها في القدم عن تاريخها .

٣ ــ عبادة الكواكب :

ومن كلامهم عن الخليقة والطوفان نعلم أنهم كانوا يؤمنون بإله عظيم خلق الآلهة الصغار وقدر لها منازلها في السماء .

وهذه الآلهة الصغار هي الاجرام العلوية ، وأشهرها القمر ، وقد عمت عبادته بلاد الساميين (أو العرب الأوائل) من وادي النهرين إلى سيناء ، ويسمونه سين ومنها أخذ اسم سيناء ، ولعله في الاصل من مادة السنى والسناء ..

وكان له اسم علم في وادي النهرين هو (نانار) وهو الذي يتوجهون اليه بالعبادة ، وكان له مركز في مدينة (أور) بلد الخليل ابراهيم ، ومركز في شمال العراق ومعه هناك إله آخر يسمونه مردوخ ، او المريخ .

وفي صلواتهم للقمر يقولون « يا رب . يا من قدرته الوهابة تمتد ما بين السماء والأرض ، ومن يجلب الغيوث والمواسم ، ويسهر على الأحياء :

ومن يعظم في السماء عالية وصيته ، ومن يعظم في الأرض عالية وصيته ، ومن تسبح له الأرواح السماوية والأرواح الأرضية . مشيئتك أنت في السماء مشرقة ، ونسألك أن تكشف لنا مشيئتك على الأرض . فان مشيئتك تطيل الحياة وتبسط لها الرجاء ، وتشمل كل كائن شمولا عجيبا ، وأنت تجري العدل على قضاء الانسان ، وما من أحد ينفذ إلى سرها أو يقيس عليها .. أنت رب الأرباب ما لك من شبيه ولا نظير .. » .

وكانوا منذ أقدم العصور على عهد السومريين (أو الشمريين) يرفعون الصروح لرصد الكواكب واستطلاع الطريق ، وهي الصروح التي يسمونها (زجرات) أو أماكن عالية، ويعلل المؤرخون المنقبون ذلك بنشأة السومريين في بلاد جبلية ، وان الجبل والشرق والبلد يطلق عليها في لغتهم اسم واحد وهو (كور) ومعناه في العربية قريب من هذا المعنى ، لأنه يُطلق على مجتمع القرى [1] وعلى العمامة وعلى الكارة التي تحمل على الرأس أو الكتف ..

وكانت هياكلهما المبنية ترصد للأرباب السماوية ، وتنصب فيها التماثيل بأسمائها ، ومن هنا عبادة الأصنام .

وأشهر الكواكب المعبودة بعد القمر كوكب الزهرة (عشتار) وكوكب المريخ (مردوخ) . وينسبون إلى الزهرة أنها ربة الحب لتألقها وزهوها وتقلب أحوالها ، وينسبون إلى المريخ أنه رب الحرب لاحمرار لونه كلون الدماء ..

على أنهم عبدوا الشمس قديما باسم (شماس) وان لم تكن عبادتها عامة بينهم كعموم عبادة القمر .

ويقول وولي Woolley في كتابه عن ابراهيم . وهو من أشهر علماء الاحافير : « ان الآلهة كانوا عند السومريين على ما يظهر ثلاث طبقات : الآلهة العظيمة التي تخصص لها هياكل الدولة ، والآلهة التي دونها وهي التي

---

(١) الدول المدفونة تأليف باتريك كارلتون Buried Empires by Patrich Karleton

تقام لها المعابد في مسالك الطرق ، ودون ذلك آلهة الأسرة ، والاغلب على الالهة العظيمة أنها كانت تشخص قوى الطبيعة كالشمس والقمر والماء والأرض والنار والبرق والنضال والخصب والموت ، وعندها تكمن جميع القوى ويكون التفوق بينها على حسب أحوال الربانية المتعددة ، وقد كانت لها أقاليم تغلب العبادة لكل منها على اقليم، ومن ثم لا يفرض الولاء الكامل له في غير ذلك الاقليم . ففي أور عبادة نانار ، وفي أريكة عبادة أشتار ، وقد يتنازعان فتصبح كل قوة مشلولة من جراء ذلك النزاع .

« والان وقد غلبت مدينة لارسا على أقليم الجنوب فقد أصبح شماش إله الشمس خليقاً أن يبسط سلطانه على المدن الاخرى التي دخلت في طاعته، وأصبحت سطوة بابل مرادفة لسطوة مردوخ . ولم يكن في السماء قرار ولا برهان الا بمقدار ما في الأرض بين البشر . كلا ولا ثمة شريعة للاخلاق أرفع من شريعتهم » .

وقد كانت لهم حاجة إلى الشمال لاعتقادهم أنه مركز القطب الثابت، ولكن التنازع بين دول الشمال ودول الجنوب حال دون الاتفاق على عبادته ، ويظهر أن الصابئين أو السابحين الذين ظلوا يعبدونه في الجنوب بقيت نحلتهم في مكانها على خلاف مع من حولها .

٤ ـ عبادة الملوك :

وفي متحف أشمول [١] بانجلترا أسماء الأسر التي حكمت بابل من بعد االطوفان إلى أيام سراجون ، وقد جاء في الألواح التي حفظت أسماؤها أن الأسرة الأولى تولى منها الملك ثلاثة وعشرون ملكا وكانت مدة حكمهم جميعاً أربعة وعشرين ألف سنة وخمسمائة وعشر سنوات ...

وكتاب الألواح مجمعون على أن الملوك الأوائل الذين حكموا بعد

---

(١) ينسب هذا المتحف الى اشمول Ashmole الذي أهداه الى جامعة اكسفورد سنة ١٦٧٧ .

الطوفان قد هبطوا من السماء إلى الأرض لحكمها بعد أن طهرها الله وعاقبها على فسادها ...

فهم أرباب سماويون تجب عبادتهم على الرعايا .

وأشهر من حكم منهم في مدينة (أور) أورنامو Ur Nammu صاحب الصرح الشاهق الذي أقيم لعبادة القمر ، وله تمثال نقل إلى متحف بنسلفانيا بأمريكا ..

وقد خلفه ابنه دنقي أو شلقي – على حسب اختلاف المنقبين في أساليب ترتيب الحروف والنطق بها – وهو أحد العواهل السومريين الذين فرضوا عبادتهم على جميع البلاد توحيدا للدولة ، وزوّج بنته لأمير عيلام (غير بعيد من السليمانية في بلاد الكرد في العهد الحاضر) ليضم اليه الإمارات المجاورة ، واتخذ أصحاب الأقواس الطوال من جند أور ، وخرج بهم وبالفرق القوية من البلاد الأخرى إلى الشمال لغزوه وإلحاقه بدولته ، فامتدت مملكته من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال بوادي النهرين ، ويقدر المؤرخ المتخصص لهذه الحقبة (باتريك كارلتون) في كتابه عن الدول المدفونة أنه تولى الملك سنة ٢٢٧٦ قبل الميلاد .

ولم يكن دنقي بالوحيد الذي فرض عبادته على البلاد كلها ، بل كان هذا شأن جميع الملوك الذين أخضعوها لسلطان واحد ، ومن لم يفلح في اخضاعها قنع بالعبادة من رعاياه حيث ينفرد بالسطوة في بعض الأقاليم ، أو قنع بالكهانة الأولى بين رؤساء الدين .

ولم يتعاقب على (أور) من هؤلاء العواهل كثيرون ، لأن العواهل الذين ضموا البلاد جميعاً إلى دولتهم قلائل متناثرون بين الأزمنة المتباعدة ، ومنهم السومريون والأكاديون والبابليون .

الا أن مدينة (أور) عرفت عبادات شتى غير عبادة القمر وعبادة العواهل ، ومن هذه العبادات عبادة الأسرة بدلا من الدولة ، شاعت مع ضعف الدولة وسقوط هيبتها وقلة الرغبة في الانفاق على الضحايا والقرابين التي تقدم على

محاريبها فاكتفى الناس ببيوتهم يدفنون موتاهم فيها ويتقربون لهم بمثل طعامهم وهم أحياء بين ظهرانيهم ، وقد كانت أعمال الحفر تبرز للمنقبين طبقة بعد طبقة من أعماق الارض ومن أعماق التاريخ في وقت واحد ، ومن قيمة القربان تبدو قيمة الثقة بالارباب أو تطور العبادة بين الماديات والمعاني الروحية ..

٥ – الضحايا البشرية

وتدل الاحافير على قدم الضحايا البشرية في العبادات التي سبقت عهد الساميين بوادي النهرين وبقاع الهلال الخصيب وانها بقيت إلى ما بعد وفود الشعوب السامية إلى تلك البقاع .

وتدل الأحافير بمدينة (أور) على قدم تلك العادة في عبادة الملوك خاصة ، اذ كان الملوك يدفنون ومعهم حاشيتهم ووزراؤهم ولا يبدو من هيئة جثمانهم أنهم ماتوا على الرغم منهم ، فليس منهم من وجدت جثته وفيها أثر الذبح أو الخنق أو القتل بالضرب العنيف ، ولهذا يعتقد (وولي) في كتابه « أور الكلدانيين » Ur of the Chaldees أنهم كانوا يتجرعون باختيارهم عقاراً ساماً يخدرهم ويميتهم ، لإيمانهم بالانتقال مع الملوك الأرباب إلى حالة في السماء كحالتهم في الحياة الأرضية .

ووجدت على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعاً يشبه رأس الحيوان ، والمظنون ان هذا الزي كان مقدمة للذبح الرمزي واجراء الشعائر مجرى التمثيل المقدس في الاحتفالات العامة ولا سيما الاحتفال بعيد رأس السنة (١) .

ووجد في حفائر « أور » تمثال جدي مربوط مقيد في شجرة ، لعله رمز لاستبدال الضحية الحيوانية بالضحية البشرية ، وتاريخه في تقدير (وولي) سابق لعصر الخليل بألف وخمسمائة سنة .

---

(١) اصول الشعائر السامية الاولى تأليف هوك
Origins of Early Senitic Ritual by Hooke

ولكن الضحية البشرية بقيت إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ، ويتضح هذا من الاصحاح الثاني والعشرين في سفر الخروج حيث حرم على بني اسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قرباناً إلى الله ، ويتضح أيضاً من الاصحاح العشرين من سفر اللاويين حيث ينص على عقوبة الرجم لمن يعطي ابنه قرباناً للرب ملوك .

ومع هذا كان بعض أمرائهم ينذر أبناؤه ليحرقهم على المذبح قرباناً إلى الله ، كما فعل يفتاح ونذر « نذراً للرب قائلاً : ان دفعت بني عمون أيدي فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسلامة يكون للرب وأصعده محرقة [1] »

ونعى عليهم النبي ارميا انهم « بنوا مرتفعات .. ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار .. »

٦ ــ الختان

وروى هيرودوت أبو التاريخ أنه سأل الفينيقيين والسوريين عن عادة الختان فقالوا : انهم أخذوه من المصريين ، وان المصريين كانوا يتحرون به النظافة والطهارة .

وحقيقته التي تدل عليها المقارنة بين العادات أنه اختصار لعادة الضحية البشرية نشأ مع تقدم الانسان في الحضارة والمدنية .

ففي أقدم العصور كان الفاتح المنتصر يقتل الأسرى قرباناً على محراب إلهه ، ثم تدرّجوا من قتلهم الى قطع أعضائهم ، وتدرّجوا من قطع أعضائهم الى قطع غلفتهم ، وجعلوا ذلك علامة على تسليم الأعداء بالهزيمة .

ولهذا بدأ الختان بالرجال ولم تنشأ عادة الختان بالنساء الا بعدذلك بزمن طويل ..

---

(١) اصحاح ٢٠ قضاة ٠

وانتقل الختان من اعتباره علامة تسليم لاله الأعداء ، إلى اعتباره علامة تسليم للاله الذي يعبده أبناء القبيلة ، وعندئذ وجب على النساء كما وجب على الرجال ..

ومن بقايا عاداته الأولى أن شاؤل اشترط على داود أن يقدم له مائة غلفة من الفلسطينيين مهراً لبنته ميكال ، فقدم له مائتين كما جاء في الاصحاح الثامن عشر من سفر صمويل الأول .

وليس بالصحيح أن الإسرائيليين اعتبروه علامة لقبيلتهم تميز الإسرائيلي من غيره ، وانما الصحيح أنهم اعتبروه علامة تسليم لربهم ، وفرضه المكابيون على الأدوميين والأتوريين حين هزموهم ، وجاء في الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين أن أبناء يعقوب أوجبوا على الرجل الذي اغتصب أختهم دينا أن يختتن هو وقومه الكنعانيون .

٧ – المعابد والمحاريب

لم يعرف عن قوم ابراهيم – أو المنتسبين اليه على الأصح – أنهم أقاموا لهم هيكلا قبل الهيكل الذي بناه سليمان عليه السلام .

وكان الخليل يبني المحاريب على الاماكن العالية ، ويختار للمحراب موضعاً إلى جوار الشجر والماء ، ثم تعددت المحاريب فتعددت المعبودات وحسب العامة أن كل محراب منها قد أقيم لمعبود غير المعبودات في المحاريب الاخرى ، وخلطوا بين أرباب كل اقليم فعبدوا الاوثان التي كان يعبدها أبناء البلاد الأصلاء من قبلهم ، وخيف عليهم الاختلاط والفناء فيمن حولهم من الشعوب فاجتمعت كلمة الحكماء على تحريم بناء المحاريب في الأماكن العالية وقصر العبادة والقربان وجميع المراسم الكبرى على هيكل واحد ، وكان هذا الهيكل في مبدأ الأمر خيمة تحمل ، ثم بني بالحجارة على رسم الخيمة وتقسيمها ..

ولم يكن هذا هو الأثر الوحيد من آثار نظام المعابد في وادي النهرين .

فقد بقيت عبادة الاسرة زمناً طويلاً ممثلة في عبادة الاوثان التي تسمى بالطرافين ، وكانوا يعتقـــدون أن حيازة الطرافين تحفظ لمن يحوزها حقوق الاسرة من الرئاسة إلى البركة والميراث ، ولهذا أخذت راحيل الطرافين معها قبل الهجرة من حرانة ، وظلوا يحتفظون بالطرافين بين ذخائر الاسرة المقدسة إلى ما بعد السبي كما يؤخذ من الاصحاح العاشر في سفر زكريا .

٨ — العالم الآخر

ولا يخلو دين أمة قديمة من الايمان بعالم آخر غير عالم الاحياء ، لأن الايمان بالارواح والاطياف شائع بين القبائل البدائية الاولى ، وكلهم كانوا يعتقدون أن الانسان يبقى بعد موته لانهم يرونه في احلامهم ، ومن هنا جاءت عبادة الاسلاف .

ولكن الايمان بالعالم الآخر نوعان : نوع ينظر إلى العالم الآخر كأنه جزء من هذا العالم المشهود ، ينتقل اليه الميت للاقامة فيه، وأكثر الامم القديمة يسميه الهاوية ويجعله تحت الارض بعيداً من النور .

ونوع ينظر إلى العالم الآخر ويؤمن بأنه عالم الحساب والجزاء والتفرقة بين الأبرار والاخيار ، وانه هو عالم الخلود والحياة الباقية ، بعد الحياة الفانية في هذه الدنيا .

وبين هاتين العقيدتين في العالم الآخر عقيدة متوسطة تجمع بين اعتقاد الهاوية واعتقاد الخلود ، فالموتى جميعاً يذهبون إلى الهاوية ثم ينجو منهم في آخر الزمان من يدينون بالاله الحق ، فيعودون إلى حياة كحياة الدنيا ، ويتم قضاء الموت الابدي على الآخرين .

كانت الديانة البابلية من النوع الأول .

وكانت الديانة المصرية من النوع الثاني

وكان العبريون يأخذون بجزء من هذه وجزء من تلك،ويدينون بالعودة إلى الدنيا في آخر الزمان ، وان غيرهم من الأمم لا يعودون .

وتراجع الصلوات البابلية اليوم فلا يرى فيها شيء يشير إلى النعيم في العالم الآخر ، وانما ينحصر الدعاء في طلب الخيرات الدنيوية وطول العمر والسلامة من الامراض والاحزان .

وكانت طائفة من البابليين الاقدمين تعتقد أن الروح تلازم الجسد بعد الموت ، فلا تزال عالقة به محيرة بين هذا العالم والعالم الآخر حتى يبلى رفاته ولا تبقى منه بقية تعلق بها ، ولهذا كانوا يتركون الموتى للجوارح والوحوش تنهشهم وتبيدهم لتستريح الارواح من عذاب الحيرة بين الدنيا والآخرة ..

٩ ــ التوحيد

والتوحيد كذلك توحيدان :

توحيد الايمان باله واحد خلق الاحياء وخلق معهم أرباباً آخرين .

وتوحيد الايمان باله واحد لا اله غيره .

ولم تعرف أمة قديمة ترقت إلى الايمان بالوحدانية على هذا المعنى غير الامة المصرية ، فعبادة (اتون) التي دعا اليها اخناتون قبل ثلاثة وثلاثين قرناً كانت غاية التنزيه في عقيدة التوحيد كما عرفها الاقدمون. ومن علماء المصريات ــ وفي طليعتهم برستيد وويجال ــ من يرى بعد المقابلة بين صلوات اخناتون والمزامير المنسوبة إلى داود ان حكماء الاسرائيليين كانوا يطلعون على اسرار المحاريب في مصر ، ولا سيما الأسرار التي كانت محجوبة عن الدهماء ، اذ كانت أسرار الديانة العليا مقصورة على كبار الأحبار وتلاميذهم المختارين .

ومن أسماء الملوك في بلاد العرب الجنوبية يبدو أنهم عرفوا الوحدانية التي يغلب فيها اله واحد على سائر الآلهة ، واسم ايلومى ايلوم الذي تولى الملك في بابل الجنوبية معناه ان الله هو الاله الحق ، ويقول عبدالله فلبي في كتابه سوابق الاسلام ان هذه الكلمة هي شهادة الوحدانية في طورها الأول ، ومن مرادفاتها في أسماء الشعب ايل رب ، وايل ملك ، وايل راب ، وكلها

من قبيل القول بأن الله هو الرب وانه هو الملك وأنه هو الرئيس المطاع ، ولا يقال هذا الا لتغليب اله واحد على سائر الآلهة ، أو لنفي صفة الإلهية عن سواه ..

١٠ — الشرائع

ويلحق ببحث الشعائر والعبادات بحث الشرائع والآداب الاجتماعية ، وقد وجد العمود الذي نقشت عليه شريعة حمورابي كاملاً ما عدا سطوراً مطموسة أمكن اتمامها من مصادر أخرى .

وتتضمن هذه الشريعة عقوبة الاغراق للسحر والخيانة الزوجية والاحراق لمن يختلس مالاً من بيت محترق ، وكان للنهر في هذه الشريعة قداسة يمتحنون بها من يلقونهم فيه من السحرة والمسحورين ، وفيها عقوبات القتل على السرقة والاغتصاب . ومن غرائبها أنها تعاقب البنت البريئة بذنب والدها « فاذا ضرب رجل بنت انسان حر ضرباً أسقط حملها فعليه عشرة مثاقيل من الفضة غرامة لاسقاط حملها . فان ماتت فبنته تقتل .. » [١].

ولا يشبه هذه الأحكام فيما رواه العهد القديم غير عقوبة عاخان لأنه سرق من غنائم القتال في وقعة عاي التي انهزم فيها الاسرائيليون.. « فأجاب عاخان يشوع وقال حقاً اني قد أخطأت إلى الرب إله اسرائيل ، رأيت في الغنيمة رداء شنعارياً نفيساً ومئتي مثقال من الفضة ولسان ذهب وزنه خمسون مثقالاً فاشتهيتها وأخذتها وها هي مطمورة في الأرض وسط خيمتي والفضة تحتها .. فأخذ يشوع عاخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم إلى وادي عخور. فقال يشوع : كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم. فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة وأقاموا فوقهم رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم، فرجع الرب عن حمو غضبه..».. [٢]

---

(١) المادة ٢٠٩ من شريعة حمورابي من كتاب أقدم شرائع العالم تأليف ستريك ادوارد The World's Earliest Laws

(٢) سفر يشوع الاصحاح السابع .

ومن أحكام حمورابي في مسائل الزواج تحريم تعدد الزوجات من طبقة واحدة وتحريم الزواج من الجواري اذا رزق الرجل أولاداً من زوجته المكافئة له في طبقته أو من احدى جواريها .

« المادة ١٤٤ » فاذا تزوج رجل من كاهنة وأعطته جارية فولدت له الجارية أولاداً فلا يجوز له أن يتزوج من سرية » .

« المادة ١٤٥ » واذا تزوج رجل من كاهنة ولم تلد له وأراد أن يتزوج من سرية وأن يؤويها في بيته فهذه السرية لا تكون مع زوجته في منزلة واحدة » ..

« المادة ١٤٦ » واذا تزوج رجل من كاهنة وأعطته جارية فولدت له الجارية اولاداً وجعلت نفسها في منزلة السيدة لأنها حملت أولاداً فلا يجوز للسيدة أن تبيعها بالفضة بل تقيدها وتبقيها مع الخدم » .

ولا يجوز حرمان ابن السرية من ميراث أبيه بعد الاعتراف بنسبه .

« المادة ١٧٠ » فاذا كان لرجل أولاد من زوجته وكان له اولاد من سريته ، وكان قد ناداهم بأبنائي في حياته وعدهم مع أبنائه من زوجته ، ثم ذهب لقضائه فالأبناء من الزوجة والأبناء من السرية يتقاسمون الميراث على السواء ، ويختار أبناء الزوجة القسمة والاقتراع » .

وتجري المقارنة كثيراً بين شريعة حمورابي والشريعة العبرية ، ويزعم بعض الفقهاء من علماء اليهود المعاصرين أن الشريعة العبرية تخالف شريعة حمورابي في تمييز الأصغر بالميراث ، فالاستاذ جوزيف جاكوب يعلل تفضيل اسحاق على اسماعيل ، وتفضيل يعقوب على عيسو ، وتفضيل يوسف على اخوته بأن الشريعة العبرية كانت لذلك العهد تأخذ بالحكم الذي كان شائعاً في بعض الشرائع الأولى : وهو اختصاص الابن الأصغر بالحصة الوافية من الميراث . Ultimageniture

قال هذا الفقيه : ان مؤرخي العهد القديم لم يدركوا معنى هذه السنة

القديمة فحاولوا ان يصححوها بالتعليلات التي خطر لهم أنها كفيلة بتصحيحها[1] ولكن القاعدة تطرد اطراداً لا يمكن تعليله بالمصادفة ، فلما قدم يوسف ولديه منسى وافرايم إلى أبيه يعقوب ليتلقيا بركته حول الجد يمينه إلى افرايم ويساره إلى منسى ، وهكذا تولى داود الملك وهو أصغر أبناء أبيه وكان جده فارز أصغر التوأمين اللذين ولدتهما تامار بنت يهودا ،وقد اتبع داود هذه السنة فولى سليمان عرش الملك من بعده وهو أصغر من أخيه ادوناي .

ويخطر لبعضهم أن هذه السنة قديمة في عشيرة الخليل ، وأنه هو صلوات الله عليه كان أصغر من أخيه .

* * *

وإلى هنا نقف بالمقتبسات من تواريخ الأحافير والتعليقات عليها ، لأن كشوف الأحافير الأخرى لا تعنينا في موضوع هذه الرسالة : وليس فيها ما ينبني عليه رأي في سيرة الخليل على فرض من شتى الفروض .



(١) المأثورات الشعبية في العهد القديم تأليف فريزر
Folklore in the Old Testament by Frazer

الخلاصة

الآن وقد انتهينا من معالم الطريق كما رسمتها لنا المصادر والتعليقات يصح أن نبدأ بتلخيص السيرة على هدي تلك المعالم ، ويحق لنا أن نقرر «أولاً» أن قرائن الثبوت في سيرة الخليل أقوى جداً من كل قرينة للشك ينتحلها من يتحدث باسم العلم ، والعلم من حديثه براء .

فالذي يقول ان وجود الخليل مشكوك فيه من الوجهة العلمية يظلم العلم ويحمله جريرة لا يحملها ، لأن سيرة الخليل ليست من السير التي يشك فيها العالم ، بل هي سيرة يبحث عنها العالم ان لم يجدها ، اذ كانت الدعوات النبوية سلالة واحدة يربط اللاحق منها بالسابق ، ولا يمكن الرجوع ببداءة لها أصدق من بداءتها بدعوة ابراهيم .

* * *

ان الدعوات النبوية التي بدأتها دعوة ابراهيم سلالة لم يظهر لها نظير في غير الأمم العربية ، والأمم السامية ، وقد ختمت بدعوة محمـــد وجاءت دعوة محمد متممة لها ، فلا تفهم واحدة منها منفصلة عن سائرها ، بترتيب كل منها في زمانها ، وعلاقة كل منها بمكانها ، فلا لبس فيها من جانب العصر ولا من جانب البيئة .

دعوات لم تظهر في العالم كله على غير هذا النسق ، لأنها ارتبطت بظاهرة غير متكررة حول مدن القوافل التي اختصت بها بلاد الأمم العربية ، وكانت بداءتها في زمانها وعلى ترتيب مكانتها الجغرافية حيث نشأ الخليل ابراهيم .

فهي نشأة لازمة في موقعها وفي عصرها ، والنشأة التي من هذا القبيل تواجه العلم بحقيقة ضرورية ، فلا يشك فيها . بل يكون موقفه منها على نقيض الشك من طرف إلى طرف ، لأنه يبحث عنها ان لم يجدها ، وعليه أن يجدها وأن يهتدي اليها .

ومن قرائن الثبوت — كما أسلفنا — أن هذه الدعوات النبوية نسبت إلى أصل واحد وهو السلالة السامية ، قبل ان يعرف الناس علم المقارنة بين اللغات ، وقبل ان يعرفوا علامات الوحدة في التصريف والاشتقاق وقواعد النحو وحركات النطق وأجهزة الكلام ، فلم يكن في وسع الذين قالوا بوحدة أصلها قبل مئات السنين أن يخترعوا هذه النسبة لو لم تكن نسبة صحيحة في مراجع لا تخترع ، ولا يسهل اختراعها .

* * *

وعلم المقابلة بين الأديان حديث كعلم المقابلة بين اللغات ، فاذا جاء هذا العلم الحديث مطابقاً للأخبار الأولى عن ديانة القوم في عصر ابراهيم — فتلك قرينة ثبوت وليست بقرينة شك ، ومن خالف ذلك فهو لا يفرق بين الشك والثبوت ..

لم يكن من السهل أن توجد في وطن واحد عبادة الكواكب وعبادة الأصنام وعبادة الملوك ، وأن تتعدد الأرباب مع تمييز رب منها على سائرها..

ليس من السهل أن يوجد هذا الخليط من العبادات في وطن واحد ، فقد يجهل الناس التوحيد ويعبدون الشمس والقمر ، أو يعبدون القمر دون الشمس ، أو يعبدون القمر ولا يعبدون المريخ والزهرة .

وقد يجهل الناس التوحيد ويعبدون الأصنام ولا يعبدون معها الملوك ، وقد يعبدون أرباباً كثيرة ولا يميزون رباً منها على سائرها .

أما عبادتها جميعاً في وطن واحد فهي حالة لا يمكن اختراعها ما لم تكن حقيقة واقعة ..

ونحن قد علمنا اليوم انها حقيقة واقعة لأننا فككنا ألغاز الكتابة واستخرجنا أسرار الأحافير ، وعلمنا منها تسلسل العبادات واختلاط السكان والحدود وتطور العقائد على حسب أحوال المعتقدين .

وقد علمنا اليوم أن عبادة القمر سابقة لعبادة الشمس ، خلافاً لبادرة الظن الأولى . اذ يسبق إلى الخاطر أن الشمس أكبر وأحق أن يبدأ بها في العبادة ..

بل علمنا اليوم أن رب الأرباب عند اليونان كوكب المشتري وليس الشمس أو القمر ، ولهذا يطلقون عليه اسم جوبيتر ويستمدون هذا الاسم من كلمتين بمعنى أبي الآلهة Dawes Pater .

وفي القرآن الكريم .. « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون » .

ومما علمناه اليوم أنهم أقاموا للكواكب تماثيل لا تغيب عن أبصارهم اذا غابت الكواكب ، فعبدوها مع عبادة الكواكب على سبيل التقريب والتمثيل..

وفي القرآن الكريم : « اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون » ..

وفيه : « قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون » .

* * *

وما علمناه اليوم من مقابلات الأديان أن التوحيد جاء بعد تعديد الأرباب وتمييز واحد منها ، وأن أهل بابل خاصة كانوا يرون في قصة الخليقة أن الإله الأكبر خلق الأرباب كما خلق سائر الموجودات الأحياء وغير الاحياء ، وتوحيد الإله على هذا النحو هو الذي يسمونه في العصر الحديث بالهينوثيزم Henotheism ويطلقونه على طور خاص من أطوار التوحيد البدائي لم يكن لزاماً أن يوجد في كل أمة .

وفي القرآن الكريم : «.. فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون»..

وفيه : « ... قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون » .

أما عبادة الملوك في بابل القديمة فنحن نعلم اليوم أنهم كانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم هبطوا من السماء بعد الطوفان ، لأننا قرأنا الآثار وكشفنا عن الأحافير ، وادعاء الملوك أنهم آلهة يملكون زمام الحياة والموت وارد في القرآن الكريم ، « اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت » ..

هذه المطابقات نعلمها اليوم من الكشوف والأحافير ، وسواء آمن العالم العصري بالقرآن أو لم يؤمن به فالمسألة هنا هي مسألة التفرقة بين قرائن الثبوت وقرائن الشك في سيرة ابراهيم ، فليس من قرائن الشك على كل حال أن تروى أخبار العبادة عن عصر ابراهيم على الوجه الذي حققته الكشوف الحديثة ، وعلى خلاف القصص التي تخترع اختراعاً بغير سند من الواقع ، لأن الاختراع لا يجمع بين الحقائق المتفرقة من عبادات القوم ، وهي عبادة الكواكب وعبادة الأصنام وعبادة الملوك وتعديد الأرباب مع تمييز واحد منها على الآخرين ، وهي المرحلة البدائية في طبيعة التطور بين التعديد والتوحيد ..

قلنا في مقدمة هذا الكتاب ان الشك في وجود ابراهيم لا يستند إلى سبب ، لأن الغرائب والخوارق لم تبطل وجود شيء قط ، ومنها أثبت ما في السماء وهو الشمس ، وأثبت ما في الأرض من صنع الانسان وهو الهرم الاكبر ..

ويحق لنا بعد ما قدمناه أن نقول على الأقل إن أسباب الثبوت أقوى من أسباب الشك جميعاً ، ان كانت له أسباب .

العصر

معظم المنقبين يعينون تاريخ ابراهيم في زمن متوسط بين أوائل القرن الثامن عشر وأواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ويجعلونه معاصراً لدولة الرعاة في مصر ودولة العموريين في العراق .

وولادة الخليل في هذه الفترة ترجحها الكشوف والأحافير ، كما ترجحها النتائج التي تمثلت في سيرته عليه السلام ، وكلها دلائل على تنازع السيطرة وتنازع العقائد واضطراب الأمور والاضطرار إلى الرحلة الدائمة من أور إلى أشور إلى فلسطين إلى مصر إلى بيت المقدس ثم إلى صحراء الجنوب ..

وتقترن زلازل الطبيعة وزلازل السياسة فلا يستقر لاحد من المقيمين في ديارهم قرار ، فضلاً عن القبائل الرحل في طلب المرعى وطلب الأمان .

سقطت دولة بابل وغلبتها عليها قبائل عيلام من الشرق وقبائل عمور من الغرب ، وعاش العموريون والعيلاميون تارة في قتال وتارة في حلف مزعزع خوفاً من دولة الأشوريين في الشمال .

وسقطت دولة مصر وغلبتها قبائل الرعاة ، ثم بقيت على خوف وحذر من الشرق ومن فراعنة الجنوب الذين احتفظوا بعروشهم في الصعيد .

وليس أشقى من حياة العشائر الصغيرة بين هذه القلاقل وهذه المنازعات التي يشترك فيها المغامرون من أبناء العشائر الكبرى ، وهم يزحفون للسيطرة على الدول كلما سنحت لهم الفرصة العاجلة ، ولا يقنعون بالتحول من بقعة إلى بقعة طلباً للمرعى والأمان .

وكانت عشيرة الخليل صغيرة ولا شك بالقياس إلى العموريين والرعاة

وسائر القبائل التي تحتل بقاع الهلال الخصيب .

ولو لم تكن صغيرة لما أمكن أن تهاجر من جنوب العراق إلى شماله إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط إلى مصر إلى فلسطين كرة أخرى في حياة زعيم واحد ...

وقد ألجأتها المجاعة إلى مصر ولم تلجىء قبيلة أخرى إلى مثل هذه الهجرة من القبائل التي اصيبت بالمجاعة في صحراء فلسطين .

وحدث غير حادث يدل على قلة هذه العشيرة في عددها وقوتها ، وأنها ظلت على هذه القلة بعد أيام ابراهيم وفي أيام يعقوب .. ومن أبرز الشواهد على ذلك في حياة البداوة خاصة أن جيرانها كانوا يجترئون على نساء زعمائها فطمع أبيمالك في سارة واعتدى شكيم على ابنة يعقوب ، وكانت العشيرة نزيلة إلى جوار الأقوياء الذين يضيفونهم أو يأبون ضيافتهم كما يشاءون .

ليس أشق من حياة عشيرة صغيرة بين العشائر الكبرى في أيام الزعازع وتقلب السلطان ، ولا سيما الحياة إلى جوار الدولة البابلية ، وكل سلطان جديد هناك فهو رب جديد يدين الناس بالعبادة ويسومهم أن يسجدوا له ولا يقنع منهم بطاعة الرعية للرعاة .

وقد حفظ لنا سفر دانيال مثلا من شتى الأمثلة على قيام هذه العبادات مع قيام السلاطين ، فان السلطان الجديد يعلن ولايته بالطبول والزمور ويفرض على كل مستمع أن يسجد لتمثاله على قارعة الطريق ، ومن أبى السجود أحرقوه بالنار ..

« فنبوخذ نصر الملك صنع تمثالا من ذهب طوله ستون ذراعا ، وعرضه ست أذرع ، ونصبه في بقعة دورا في ولاية بابل ، ثم أرسل ليجمع المرازبة والشحن والولاة والقضاة والخزنة والفقهاء والمفتين وكل حكام الولايات ليأتوا لتدشين التمثال .. ونادى المنادي : قد أمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة عندما تسمعون صوت القرن والناي والعود والرباب والشيطر والمزمار .. أن تخروا وتسجدوا لتمثال الذهب ، ومن لا يخر ويسجد ففي تلك الساعة يلقى في أتون النار .. » .

وحفظت لنا الالواح الاشورية صورة جيجو ملك اسرائيل (سنة ٨٤٢ قبل الميلاد) وهو ساجد يقبّل الأرض بين يدي شلمنصر ومن ورائه أمراء دولته يحملون الجزية صاغرين .. ومن كان يتقاضى الملوك أن يسجدوا له عند تقديم الطاعة لا جرم يتقاضى الرعايا دون طبقة الملوك أن يسجدوا له ويعبدوه ، وبخاصة حين يؤسس دولة جديدة قامت على أنقاض دولة ذاهبة ، ولا بد له من توطيد هيبته وقمع المخالفين له، وأولهم الذين ينكرون دينه كما ينكرون دنياه .

والحوادث التي أحصاها لنا الرواة من سيرة ابراهيم خليقة أن تحدث في مثل تلك الفترة ،سواء منها ماحدث في العراق أو ماحدث في الطريق إلى وادي النيل.

وربما صح أنه عاصر حمورابي أو كان في عصر قريب من عصره ، ولكن الأحوال لم تتغير قبل عصر حمورابي وبعد ولايته بسنوات ، فهي أحوال الدول المتبدلة والسيطرة المتقلبة ، ومن علاماتها الكبرى أنها تدعو حمورابي إلى نقش أحكام شريعته واقامة الانصاب التي تذكر الناس بتلك الأحكام ، ولا يكون ذلك الا آية من الآيات ، على أن الشريعة قد نسيت وهانت واحتاجت إلى تذكير .

ان كانت شريعة جديدة فموعدها القمين بها زمان كذلك الزمان .

وقد كان ابراهيم زعيم قبيلة بادية ، وكان تهافت العروش ، وتبدل العبادات والكهانات من حوله خليقاً أن يريبه في أمرها وأن يحبب اليه النجاة من طوارقها وطوارئها ، وكانت القبائل القوية حول العواصم تتنازع السلطان فهي في شاغل بالسيطرة عن العبادة . أما العشيرة الصغيرة فهي مغلوبة على مرافقها وعلى ضمائرها ، ولا عصمة لها الا أن تعتصم باله قدير أقوى من الغالبين ومن المغلوبين ، إله لا تحصره هياكل العاصمة وتماثيلها ولا يتغير من بادية إلى بادية فوق بطاح الصحراء وتحت قبة السماء ..

إن وجود ابراهيم في عصر كذلك العصر حقيقة لا غرابة فيها ولا محل فيها لاختراع المخترعين ..

* * *

النشأة

من الحقائق ما يبده السامع ، لأنه على قربه لم يلتفت اليه ..

كان جندي أوربي يقدح في الشرق وأبنائه وكل ما فيه أثناء الحرب العالمية الأولى ، ويقول انه مباءة السوء فلا يخرج منه شيء حسن ولا يأتي منه خير ..

وقال له محدثه : انك تدين بدين جاء من الشرق !

فوجم الرجل وأخذته الدهشة لأنه لم يتنبه إلى هذه الحقيقة لحظة واحدة طول حياته ، وهو يدين بدين السيد المسيح ، ويستمع إلى الانجيل كلما ذهب إلى الكنيسة ..

ومثل هذه الحقيقة ما ذكرناه آنفاً عن نسبة ابراهيم العربية . فانها أصح نسبة ينسب اليها ، ولكنها تبدو لمن يسمعها كأنها غريبة يقال لمن يزعمها : من أين جئت بهذه الأحدوثة التي لم نسمعها قبل الآن !

فلا يقال عن ابراهيم انه اسرائيلي ، لأن يعقوب هو أول من تسمى باسرائيل ، ويعقوب حفيد ابراهيم .

ولا يقال عن ابراهيم انه يهودي ، لأن اليهودي ينسب إلى يهودا رابع أبناء يعقوب ، ولم يكن ينسب اليه الا بعد أن أصبح اسمه علماً على الاقليم الذي قسم له عند تقسيم الأرض بين أبناء يعقوب .

ولا يقال عنه انه عبري اذا كان المقصود بالعبرية لغة مميزة بين اللغات السامية تتفاهم بها طائفة من الساميين دون سائر الطوائف ، فان ابراهيم كان

يتكلم بلغة يفهمها جميع السكان في بقاع النهرين وكنعان ، ولم تكن العبرية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية في تلك الايام .

وقد يقال عنه انه ساميٌّ ينتمي إلى سام بن نوح ، ولكنها نسبة إلى جد وليست نسبة إلى قوم وقد تكلم باللغة السامية أناس كالأحباش ليسوا من السريان ، ولا من الآراميين ولا الحميريين .

فاذا فتشنا عن نسبة لابراهيم لم نجد أصدق من النسبة العربية ، كما كانت العربية يومئذ بين جزيرة العرب وبقاع الهلال الخصيب .

وأصح التقديرات أنه نشأ في أسرة حديثة عهد بالهجرة من شمال اليمن إلى جنوب العراق وكانت هذه الأسرة مع الذين جاءوا من « أرض البحر » ، كما كان البابليون يسمون العرب المقيمين على مقربة من خليج فارس ، وقد وردت أسماء العرب التي لا شك فيها بين الأسر المالكة في جنوب بابل ، خلال عهد طويل يحيط بعصر ابراهيم على أقدم تقديراته ، فلم يمض على أسرته بمدينة (أور) زمن يفصله من عشيرته البادية ، وينسيها معيشة البداوة التي تستجيب للهجرة من أقصى الجنوب في العراق إلى أقصى الشمال ، ومن جملة أخباره يتبين أنه عليه السلام قد نشأ على مفترق طريق بين جميع العهود ..

مفترق طريق بين عهد الكهانة وعهد النبوة . ومفترق طريق بين إباحة القرابين البشرية وتحريمها . ومفترق طريق بين التعديد والتوحيد ، ومفترق طريق بين الايمان بالهاوية والايمان بالحياة الأخرى .

ومفترق طريق في عبادة الأسرة الواحدة ، فلا تلبث الأسرة الواحدة أن تختلف بين طريقين : أب وابنه وأخ وأخوه .

وتاريخ بابل يومىء إلى عصر قريب من القرن التاسع عشر قبل الميلاد يصح أن تفترق فيه جميع هذه الطرق ..

ففي حوالي هذه الفترة ضاعت هيبة الهياكل . وسقطت مكانة كهانها وندرت القرابين في محاريب الدولة وتحولت إلى مدافن الأسرة حيث تسكن الأسرة مع موتاها في دار واحدة .

وحوالى هذه الفترة تعاقبت الدول وتناقضت أوامر العبادة وتصارع الأرباب فاستحقوا سخرية العباد أجمعين ..

وانتهى قبل ذلك عهد الملوك الذين كانوا يسومون وزراءهم وحواشيهم أن يدفنوا أنفسهم معهم وهم بقيد الحياة، وبطل ايمان العلية بالحياة بعد الموت في جوار هؤلاء الملوك ، فتفتحت الأذهان لسماع شيء جديد عن اليوم الآخر ومعنى الخلود بعد الفناء .

ولعل الصابئة كانوا في ذلك العصر يدينون بالبقايا المصفاة من هذه العبادات ، ولعلهم خلطوا من أجل ذلك بين انكار الكهانة وانكار النبوة ، فاذا جاءهم ابراهيم بأول دعوة نبوية لم يميزوا بينه وبين الكهانة التي أنكروها على كهان الهياكل المتداعية والمحاريب الدائرة ، ولعل ابراهيم قد يئس منهم فاتجه إلى قبلتهم العليا شمالاً حيث كانوا يتجهون إلى نجم القطب أثبت النجوم ، عسى أن يتسمع اليه أصحاب القبلة، وأن يكونوا على استعداد للتفرقة بين الكهانة والنبوة ، فلا يشق عليهم أن يفهموا وحي الله إلى النبي كما شق عليهم أن يفهموا أن الكهان يتلقون الوحي من الله . وليس بالعسير علينا في العصر الحاضر أن نصور لأنفسنا معيشة أبناء العشائر بين الحاضرة والبادية .

فرؤساء العشيرة يقيمون بالمدن وتستبقيهم الدولة فيها ولا تضن عليهم بالرئاسة التي تعينهم على حكم العشيرة في بداوتها ، وأبناء العشيرة يروحون ويغدون بين الصحراء والحاضرة ليعرضوا على أولئك الرؤساء مطالبهم عند ذوي السلطان ، ويعقدوا صفقات القوافل أو يبتاعوا حاجتهم في حلهم وترحالهم ، فلا تنقطع الصلة بينهم وبين رؤسائهم ، ولا تنقطع خصوماتهم التي تلجئهم اليهم ، وما انقطعت خصومات أهل البادية قط بين أنفسهم أو بينهم وبين العشائر من حولهم ، فهم أبداً على مطلب من الحكام وشفاعة عند الرؤساء .

وأقلق ما تكون حياة العشيرة البادية حين تطغى عليها عشيرة أقوى منها ويبلغ من قوتها أن تسيطر على الدولة في عواصمها ، وهكذا كانت حياة

العشيرة التي تولاها ابراهيم وأبوه أيام طغت على مدينة « أور » أفواج من العيلاميين وأفواج من العموريين ، ولم ينفتح أمامها سبيل للهجرة غير سبيل الشمال ..

ومن اليسير أن تتخيل هنا حنكة الأب وثورة الفتى بين تداول الدول وتساقط الحكومات ، فالأب يتابع سادات الوقت ويجري معهم فيما يجرون فيه ، والابن يأبى الا ما اعتقد وينفر من المراء والرياء ، ويحفزه إلى الشمال أمل في صلاح العقيدة وأمل في صلاح الحكومة ، ثم ينقاد الأب بعد طول اللجاج لأن الحنكة لا تغني عنه شيئاً مع فساد الأحوال وتفاقم الخطر من الأقوياء عن اليمين وعن اليسار .

واذا صح أن أبا ابراهيم كان أميناً لبيت الأصنام وكان يصنع الأصنام على يديه فليست الحنكة وحدها هي التي تدعوه إلى المحافظة على تقاليد العبادة القائمة ، بل له مع الحنكة داع آخر من المصلحة والمنزلة الاجتماعية ، ويغلب اذن أن يكون ابراهيم قد تربى للامامة الدينية وتعلم العلوم التي كانت شائعة بين طبقة الرؤساء الدينيين ومنها علم الفلك والطب والتعاويذ ورقى الأسماء .

واسم ابراهيم من الأسماء التي تنبىء عن نشأة دينية ، لأنه – على أرجح معانيه – يفيد معنى حبيب الله . وقد كان قدماء السريان يطلقون اسم رأس الأسرة مجازاً على الإله المعبود فيسمونه الأب تارة والعم تارة أخرى ، وربما كان العم أغلب على هذا المعنى لأن الرجل ينادي كل شيخ مبجل (بيا عم ويا عماه) .. ومن هنا اسم عمرام وابرام ، ركب كلاهما من العم والأب ومن كلمة رام التي تعني المحبة ، ولعل التغيير الذي طرأ على اسم ابرام انما استحدث لكي يفيد معنى حبيب الله بدلاً من حبيب الإله الذي كان يعبده أبوه في معابد الوثنية .

على أن التعليم لم يكن مقصوراً على أبناء الكهان ، فان المثقفين الأثريين كشفوا عن أبنية ضخام كانت معدة للمكتبات والمدارس العالية ، ولم يكن

من النادر أن يتعلم أبناء العلية دروس الفلك والرياضة والتشريع التي ترشحهم لمناصب الدولة . واهتداء ابراهيم إلى حقائق الاجرام العلوية من طريق الفلك أمر معقول في زمانه على الخصوص ، فانه زمان تبددت فيه هالات الربوبية من حول الملوك وهبطت فيه منزلة الكهانات العليا وتصارعت فيه العقائد بين غالبة ومغلوبة وبين متأصلة في العواصم ومقتحمة عليها ، ونظر فيه المثقفون إلى الكواكب نظرة جديدة فجعلوها صوراً للأرواح النورانية ونزلوا بها من علياء الربوبية إلى مرتبة الخلائق المسخرة في الملأ الأعلى ، فان لم يكن مذهب الصابئة قد تم واستقر في ذلك العهد فقد كانت له بداءة تحوم على هذه المعاني وتستشرف لما وراءها ، ولولا ذلك لما بقيت السريانية القديمة لغة مقدسة في كتب هذه النحلة ، اذ كانت السريانية القديمة أعرق من السريانية المتشعبة منها ولا يمكن أن تنعزل الطائفة الصابئية بتلك اللغة الأولى ما لم تكن بداءتها ممعنة في القدم إلى ما قبل تدوين اللهجة السريانية الحديثة .

ومن البديهي أن العقائد التي تدعمها الدولة لا تنهدم بضربة واحدة ولا تولي أدبارها لكل منكر يجترىء عليها ، فقد لقي ابراهيم عنتاً شديداً من تلك العقائد المتداعية ، وأشد ما تكون العقيدة دفاعاً عن نفسها حين يشتد الخطر عليها وتحس في قرارة حصنها ان الضربة تصميها وتزلزل أركانها ..

وينبغي للناقد العصري أن يلمح شيئاً يستوقفه في قصة ابراهيم ووعيد الدولة له بالاحراق ان لم ينته عن تسفيه أربابها ..

فمن المسلم ان الاحراق عقوبة مقررة في شريعة بابل ، وأن النار لم تكن مجهولة في بلد من بلاد الأنبياء الآخرين ، ولكنهم لم يتعرضوا للاحراق في غير أرض بابل ، ولم يرد خبر قط عن نبي غير ابراهيم توعده قومه باحراقه ، ومنهم من نشأ في بلاد تحرق القرابين الحية في المحاريب . فليست أخبار الأنبياء اذن مما يُرسل جزافاً أو مما تنقطع فيه المناسبة بين النبي والبلد الذي يبعث اليه .

وسيأتي الكلام عن معجزات ابراهيم في موضعه ، ولكن موضع الالتفات

هنا لمن يصطنع الدراسة العلمية أن يلاحظ شواهد هذا الانفراد بعقوبة الاحراق في قصة ابراهيم دون قصص الأنبياء .

والعبرة من هذه الملاحظة وأمثالها أن الناقد العلمي مسؤول أن يتقصى من الأخبار الأولى مقدار ما فيها من الثبوت ، وليست مهمته كلها أن يأباها جميعاً لأنه وجد فيها شيئاً يأباه .

الجنوب

انفردت المصادر الاسلامية بأخبار ابراهيم في الحجاز ، وعلّق بعض المؤرخين الغربيين على هذه الأخبار بشيء كثير من الدهشة والاستنكار ، كأن المصادر الاسلامية قد نسبت إلى ابراهيم خارقة من خوارق الفلك وأسندت اليه واقعة بينة البطلان بذاتها وغير قابلة للوقوع ... ووضح من أسلوب نقدهم أنهم يكتبون لاثبات دين وانكار دين ، ولا يفتحون عقولهم للحقيقة حيث تكون ، فضلا عن الاجتهاد في طلب الحقيقة قبل أن يوجههم اليه المخالفون والمختلفون .

أما الواقع الغريب حقا فهو طواف ابراهيم بين أنحاء العالم المعمور ووقوفه دون الجنوب لغير سبب ، بل مع تجدد الأسباب التي تدعوه إلى الجنوب ولو من قبيل التجربة والاستطلاع .

ولم يكن لابراهيم وطن عند بيت المقدس ، سواء نظرنا إلى وطن السكن أو وطن الدعوة أو وطن المرعى . فالمتواتر من روايات التوراة أنه لم يجد عند بيت المقدس مدفناً لزوجه فاشتراه من بعض الحيثيين .

أما الدعوة الدينية فقد كانت الرئاسة فيها لأحبار ايل عليون ، وكان ابراهيم يقدم العشر أحيانا إلى أولئك الأحبار .

ومن كان معه أتباع يخرجون في طلب المرعى فلا بد لهم من مكان يسيمون فيه ابلهم وماشيتهم بعيدا من المزاحمة والمنازعة ، وهكذا كان ابراهيم يعمل في أكثر أيامه كما تواترت أنباؤه في سفر التكوين ، فلا يزال متجها إلى الجنوب .

هناك أسباب دينية غير هذه الأسباب الدنيوية توحي اليه أن يجرب المسير إلى الجنوب ، حيث يستطيع أن يبتني لعبادة الله هيكلا غير الهياكل التي يتولاها الكهان والأحبار من سادة بيت المقدس في ذلك الحين ، فقد بدا له ان اقامة المذابح المتعددة فتنت أتباعه وجعلتهم يتقربون في كل مذبح إلى الرب المعبود بجواره ، ومثل هذه الفتنة بعد عصر ابراهيم قد أقنعت حكماء الشعب بحصر القربان في مكان واحد ، فاتخذوا له خيمة وانتظروا الفرصة السانحة لبناء الهيكل حيث يقدرون على البناء . فان كان هذا الخاطر لم يخطر قط في نفس ابراهيم فذلك هو العجيب الذي يستوقف النظر من سيرة رسول وزعيم ، ولكن الرسالة والزعامة معا توحيانه اليه ولو مرة من المرات وهو على أهبة الرسالة والاستطلاع .

ومثل ذلك الخاطر خليق أن يتجه به إلى الجنوب ثم إلى الجنوب، اذ لم يبق له مكان لهذه التجربة غير الجنوب ، بعد أن هجر العراق وعاد من مصر ولم يجد عند بيت المقدس حوزة يقام فيها هيكل مقصود .

وواضح من تواتر روايات التوراة والمشنا والتلمود أن اللهج ببيت المقدس انما جاء متأخراً بعد عصر ابراهيم وعصر موسى بزمن طويل ، وأنه جاء ، مع عصر المملكة الاسرائيلية وعملت فيه السياسة عملها المعهود .

فبعد موسى بعدة قرون بقيت أورشليم في أيدي اليبوسيين ، واستولى بنو بنيامين على جيرتها ولكنهم لم يطردوا منها اليبوسيين ... « فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم » أي إلى الأيام التي كتب فيها سفر القضاة من العهد القديم .

ثم تغلب بنو يهوذا على المدينة فدمّروها وأحرقوها ولم يقيموا فيها ، وعاد اليبوسيون فجددوا بناءها وسكنوها إلى أيام الملك شاؤول ، ثم استولى عليها داود فاتخذها عاصمة ، وبنى فيها سليمان هيكلها المشهور ، وبعد هذا جاء ملك من ذرية ابراهيم وهو « يهواش » ملك اسرائيل فهدم سور أورشليم .. وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفي خزائن

بيت الملك والرهناء ورجع إلى السامرة [1] ... ثم اضطجع يهواش مع آبائه ، أي مات مرضيا عنه ..

فلم يكن لاورشليم هذا الشأن في حياة ابراهيم ولا في حياة موسى ، ولم يكن لها هذا الشأن من القداسة بين جميع بني اسرائيل حتى في عهد داود . أما « الجنوب » المسكوت عنه فقد كان له شأنه من القداسة إلى أيام أرميا وما بعدها ، وكانت كلمة « تيمان » مرادفة لكلمة الحكمة والمشورة الصادقة ، وهي تقابل كلمة « يمن » في اللغة العربية بجميع معانيها ، ومنها الاشارة إلى الجنوب ، ففي سفر التثنية يقال على لسان موسى : « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من جبل السعير » .

وفي سفر حيقوق : « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران »

وأوضح من ذالك قول أرميا متسائلاً في مراثيه : « ألا حكمة بعد في تيمان ؟ هل بادت المشورة من الفهماء ؟ » .

وأيسر ما يستوحيه طالب الحقيقة أن يتساءل : كيف يكون هذا الجنوب موصداً في وجه ابراهيم ؟ وكيف يطوف الأقطار جميعاً ولا ينفتح له الباب الذي لا موصد عليه ؟ .. ان كان أحد الطريقين مفتوحاً أمامه فليس هو طريق بيت المقدس ، بل طريق الحجاز ..

وفي هذا الطريق سلك الأنبياء ، وذكرت المصادر الاسرائيلية منهم من بلغ مدين ، وذكرت منهم من لعله أقام في نجد أو لعله أقام وراءها من البلاد العربية .. ولم تذكر المصادر الاسرائيلية صالحاً ولا هودا ولا ذا الكفل ولا غيرهم من الأنبياء ..

فموضع التساؤل هو السكوت عن هذه الناحية ، وليس هو الذكر الذي توحيه البداهة ، ويوحيه الواقع ، ويوحيه المعلوم من أطوار البعثات الدينية والرسالات النبوية .

---

(١) الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الثاني .

ونقول ان السكوت موضع تساؤل وهو في الحقيقة غني عن التساؤل ، لأنه معلوم السبب والغاية ، وحسبنا من التساؤل أن ينتهي بنا إلى سبب معلوم وغاية مرسومة ..

انما العجيب من ذوي الدعوى باسم البحث العلمي أن ينتظروا الخبر ممن يقضي على دعواهم كلها اذا رووه ، ويثبت دعواهم كلها اذا نفوه .

ومن الذي يكتم مسير ابراهيم إلى مكة ان لم يكتمه الذين ينقضون دعواهم كلها باثبات ذلك المسير ؟

على أن الباحث الذي يتحرى المعرفة لا يصح أن يقف عند النفي ثم يسكت على ذلك ولا يحاول الاثبات ما استطاع ..

ها هنا رواية عن نشأة الكعبة في الحجاز على عهد ابراهيم، فمن ينكرها فعليه أن يثق أولا من أسباب انكارها، وعليه بعد ذلك أن يعرفنا بما هو أصح في التاريخ وأولى بالقبول ..

ونفرض ان ابراهيم لم يصل إلى الحجاز لأن المصادر الاسرائيلية لم تذكر رحلته إلى الحجاز ووقفت بها عند جيرار وقادش وبلاد أدوم ..

ونفرض أن هذا سبب كاف لنفي الرحلة من الوجهة العلمية ، فهذه الكعبة قائمة تحتاج إلى بان يبنيها ، فمن الذي بناها ؟

ان روايات هؤلاء القوم الأميين — قوم مكة في الجاهلية— تذكر لنا أن مكة عمرت قديماً بأناس من اليمن ثم أناس من النبط ، وكل معلوم عن أحوال الحجاز يعزز هذه الروايات ، فإن أقام مقيم في مكة فسبيله أن يأتي إلى وسط الحجاز من الطرفين ، وهما طرف اليمن في الجنوب وطرف النبط في الشمال ..

لكن أهل اليمن — في اليمن — لا يخلقون لغير بلادهم قداسة تعفي على شأنها بين الشعوب العربية ، وقد حدث منهم غير مرة أنهم نظروا إلى الكعبة نظرتهم إلى منافس خطر فهموا بهدمها وتحويل الحجاج إلى معبد يقوم عند العرب مقامها .

أما النبط في الشمال فمكة هي طريقهم ولا مزاحمة عليها منهم ، وآثارهم الباقية في البتراء تنطق بالمشابهة بينهم وبين الحجازيين في العبادة واللغة والسلالة ، والنسّابون من الحجاز يقولون إنهم نبط وإنهم أخذوا الأصنام من النبط ، وجميع المصادر بعد ذلك تقول إن النبط هم ذرية نبات بن اسماعيل ..

ومن النظر العلمي أن يجتهد الباحث هذا الاجتهاد وأن يلتفت إلى كل باب من هذه الأبواب ، لأن الالتفات اليها واجب عليه ، ومن التقصير أن يكون أمامه باب واحد يبحث فيه عن الحقيقة التاريخية ثم يهمله ليستخرج منه غاية ما يخرجه من الثبوت أو من الفرض والاحتمال .

أما الأمر الذي لا يتفق مع العلم ولا مع الواقع ، فهو القول بأن ابراهيم لم يذهب إلى الحجاز لان المصادر الاسرائيلية خلو من هذا الخبر ، ثم يكتفي القائل بقوله فلا يضع أمامنا بديلاً منه أولى بالأخذ به .

ان ابراهيم صاحب دعوة دينية ، وليس في المصادر الاسرائيلية ما يدل على أنه قد صنع شيئاً لنشر دعوته ، وكل ما ورد عنه في هذا الكتاب أنه أقام مذبحاً في كل منزل من منازل الطريق ، ثم ترك البلاد جميعاً في رعاية الأحبار الذين كانوا مؤمنين بـ « ايل عليون » قبل وفوده إلى كنعان ، وليس في ذلك مقنع لصاحب دعوة دينية يغادر دياره في سبيل هذه الدعوة .

فأقرب ما يرد على الخاطر أن إبراهيم قد ذهب إلى حيث يصنع شيئاً باقياً في سبيل دعوته ، ولا مذهب له اذن إلى غير الحجاز ، وهذه هي تتمة السيرة التي لا بد منها في حياة نبي ينتمي اليه سائر الأنبياء ، والا كانت نسبة الدعوة إليه من أعجب الأمور .

وقد جاء في المأثورات جميعاً أن إبراهيم شهد عصر الكوارث والرجوم في مدن فلسطين الجنوبية ، وبقيت آثار البتراء (سلع) إلى اليوم وفيها أنصاب من هذه الرجوم في أماكن العبادة ، حفظوها تذكيراً لأنفسهم بقضاء الله لأنها هبطت من السماء عقاباً للمذنبين .

ولم يذكر مصدر من المصادر أن ابراهيم كان يحمل معه حجراً من

هذه الأحجار ، ولكنه اذا تعمد أن يقيم مذبحاً باقياً على طريقته فالحجر من النيازك أحق أن يحتفظ به من سائر الحجارة . وليس من اعتساف التفسيرات أن يقال إن الحجر الأسود نقل من البتراء عند بناء الكعبة ، وقد تبين بعد ذلك أنهم نقلوا كثيراً من طريق البتراء بعد اتخاذ الكعبة بيتاً للأصنام قبل الاسلام ببضعة أجيال ، وليس من المسائل العرضية أن تتشابه الحجارة في قوام تركيبها ، وهي تختلف في بنيتها المعدنية والصخرية كما هو معلوم .

وربما سميت مكة وبكة باسم البيت الذي بني فيها ، لأن البك والبكة كانا يطلقان على البيت في اللغة السامية الأولى ، ومنها بعلبك بمعنى بيت البعل. وربما كانت من مادة القربان في السبئية والحبشية لأنهم كانوا يطلقون المقربة على المحراب المقدس ، وبطليموس الجغرافي قد ذكرها باسم مكربة Macaraba نقلاً عن أهل اليمن ، ولكن التصحيف هنا بعيد ، ولا تسمى البلدة باسم القربان فيها الا إذا أصبحت محجة لقصادها من المؤمنين بكعبتها ، وقد مضى على السبئيين زمن وهم يعيشون في شمال الجزيرة ، فلم يذكروها بهذا الاسم في أثر من الآثار .

وفي مقاييس الكعبة شاهد لا يجوز اهماله عند البحث في أصل بنائها ، فانها قد بنيت مرات كما هو معلوم ، وكان البناة في كل مرة يحافظون على معالمها القديمة حيث أمكنت المحافظة عليها ، وقد تعذر عليهم أن يحافظوا على أبعاد جوانبها لدخول الحجر (بكسر الحاء) فيها تارة وخروجه منها تارة أخرى ، ولكنهم حافظوا على ارتفاعها كما جاء في أكثر الروايات ، وارتفاعها الآن سبع وعشرون ذراعاً أو خمسة عشر متراً [1] ولن تكون الخمسة عشر متراً سبعا وعشرين ذراعاً الا اذا كان الذراع بالمقياس المقدس عند قوم ابراهيم ، لأنه كما حققه الاستاذ جريفس Greaves الخبير المتخصص في المقاييس الاثرية يزيد من واحد وعشرين قيراطاً (بوصة) وثلاثة أرباع القيراط ، ويقاس بالتقريب عند مضاهاة الأبنية القديمة التي قدِّرت بالذراع ..

---

(١) الرحلة الحجازية تأليف لبيب البتانوني .

هذه القرائن المتجمعة يجب أن تستوقف نظر الباحث المنزه عن الغرض ، وأيسر ما فيها أنها تدفع الغرابة عن رحلة ابراهيم إلى الحجاز ، وأنها هي وحدها تحقق له صفة العمل على الدعوة الدينية .

وقد جاء الاسلام مثبتاً رحلة ابراهيم إلى الحجاز ، وأثبتها ولا شك بعد أن ثبتت مع الزمن المتطاول ، لأن انتساب أناس من العرب إلى ابراهيم قد سبق فيه التاريخ كل اختراع مفروض ولو تمهل به التاريخ المتواتر حتى يجوز الاختراع فيه لأنكرت اسرائيل انتساب العرب إلى ابراهيم ، وأنكر العرب أنهم أبناء ابراهيم من جارية مطرودة ، وليس هذا غاية ما يدعيه المنتسب عند الاختراع .

الرسالة

ان تاريخ الأديان لا يرسم لنا خطاً واحداً يفصل بين عهدين كلاهما مخالف للآخر كل المخالفة .

فما من عقيدة دينية ظهرت للناس طفرة بغير سابقة ، وما من عهدين من عهود الأديان الا وبينهما تمهيد وتعقيب ، ولكن الأمانة التي اضطلع بها الخليل ابراهيم حادث جديد لم تعرف له سابقة فيما وعيناه من تاريخ الدين ..

وذلك الحادث الجديد هو أمانة الرسالة النبوية : أمانة نفس حية تخاطب نفوساً حية باسم الإله الذي يتوجه اليه عباده في كل مكان .

أمانة نفس تخاطب النفوس ، ولا تخاطبهم من وراء المحاريب والهياكل ، ولا بسلطان من نظام الدولة أو نظام الكهانة ، ولكنها نداء ضمير إلى ضمير .

و هذه هي الدعوة التي قلنا انها تستلزم وجود « هداية شخصية » أو تستلزم وجود ابراهيم متصلاً بمن بعده ، لأنها سلالة من دعوات لا يتصورها العقل على غير مثالها الفريد في تواريخ الأديان .

ولولا أن الشكوكيين باسم البحث والنقد يعملون عمل الآلات في شكهم وفي بحثهم ونقدهم ، لفهموا أن الشخصية الخرافية جائزة في نظام الكهانات أو نظام هياكل الدولة ، لأنها نظم قائمة على « موظفين » دينيين ، يحل أحدهم محل الآخر بلا اختلاف ، ولكن الدعوة النبوية على المثال الذي بدأ به الخليل ابراهيم هي عمل لا غنى فيه عن الشخصية الحقيقية ولا عن التتابع الذي ينعقد بين الشخصيات من سلالة واحدة ، وما من حلقة في هذه

السلسلة الحية الا وهي تتطلب الحلقة التي قبلها والتي بعدها على السواء ..

كانت دعوة ابراهيم هي الفتح الجديد في تاريخ العقيدة .

فلم يبدأ ابراهيم عقيدة التوحيد ، ولم يبدأ عقيدة الفداء ، ولم يبدأ عقيدة البقاء ، ولكنه بدأ بالدعوة النبوية فاصطبغت العقائد بصبغتها ، حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك في عهود الكهانات والهياكل .

وقد أصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه في عصره ، فانقلبوا إلى عبادة الأصنام وجهلوا سر الفداء وسر البقاء ، ولكن البداءة قد بدئت وسارت في طريقها ، ولولا أنها بدئت لما تبيّن أحد موضع النكسة فيما بعد ذاك ..

* * *

كان توحيد ابراهيم ايمانا بإله يعلو على ملوك الأرض ونجوم السماء ، ويتساوى عنده الخلق جميعا ، لأنه أعلى من كل عال في الأرضين أو في السماوات . ولكنه قريب من كل انسان .

ولم يكن « يهوا » إله ابراهيم ، لأن قوم ابراهيم لم يذكروا يهوا من بعده قبل خروجهم إلى سيناء ، كما صرحت بذلك كتب التوراة الأولى .

ولكنه كان هو الاله « الايل » واليه ينسب ابنه اسماعيل .

وكان هو العلي « عليون » وعلى محرابه قدّم قربانه إلى ملكي صادق بعد نزوله بكنعان .

فهو إله لا فرق عنده بين وطن قديم أو وطن جديد ، ولا فضل لديه لعشيرة ابراهيم على عشيرة ملكي صادق ، ولا على غيرها من عشائر بني آدم ، بغير التقوى والايمان .

ان هذا التوحيد قد رفع مكانة الانسان في ميزان الخليقة ، فليس في الكون إلا خالق ومخلوق ، وهو أشرف مخلوق عند الله ، بفضيلة واحدة : وهي فضيلة الضمير الذي يميز بين الخير والشر ، وعمل الخير هو وسيلته إلى الله ..

جاء ابراهيم في مفترق الطريق بين استباحة القرابين البشرية وبين تحريمها .. ولكنها لم تحرَّم لأنها أغلى من أن تقدم ..

وانما حُرِّمت لأن الله أرحم وأكرم ..

ورأى ابراهيم في رؤياه أنه يُؤمر بذبح ابنه ، أعز ما في الحياة عنده .

رأى ذلك وهو يعلم أن الأرباب تتقاضى عبادها مثل هذه الضحية ، وأن تقريب الأوائل من الأولاد والأوائل من كل نتاج حق مفروض على كل أسرة لرب الأوثان والأصنام .. أيكون ابراهيم أبخل على ربه من عابد الوثن ؟ .. أيكون الوثن أحق بالتضحية من خالق الأرض والسماء ؟

أيرتاب ابراهيم في أمر الله وهو ينظر إلى شريعة العبادة من حوله ، وإن كانت شريعة شر وضلال !

ان العصيان هنا نزول بالاله الأعلى عن مرتبة الأوثان والاصنام .

فلتكن الطاعة تنزيها للاله الأعلى عن ذلك الاسفاف ، ويفعل الاله بالآباء والبنين ما يريد .

قال حكيم من حكماء الغرب [1] ان الدين هو الآمر الوحيد الذي يحق له أن يأمر الأنسان بما يناقض الاخلاق ، لأنه يرفعه أوجا بعد أوج في معراج الخلق الشريف .. إن ذبح الاب وليده نقيض الرحمة .. ولكن ايمان الانسان بعقيدة أعز عليه من ولده ومن نفسه غنيمة أقوم وأعظم من رحمة الآباء للأبناء .

فلا ينبغي أن يضن الانسان بشيء في سبيل هذه العقيدة .

ولا ينبغي أن يبطل القربان بالانسان لأن الله لا يستحقه كما استحقته أوثان الجهالة ، بل يبطل لأن الله أرحم وأعظم من أن يتقبله ، فهو أعظم وأكرم من الأوثان .

---

(١) كيركجارد الدنمركي Kierkegard (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) .

وارتفاع الانسان بهذه العبادة هو ارتفاع آخر يضاف إلى ارتفاعه بالتوحيد والتنزيه ..

ارتفاع من جانب القوة لا من جانب الضعف ، وسمو بالرحمة وبالعبادة إلى أعلى عليين ..

قلنا عن أيوب عليه السلام إن حياته كانت تربية دينية من تجاربها الأولى إلى ختامها ، فعلم في ختامها ما لم يكن يعلمه في أولها ، ولم يذكر البعث حين كان يتمنى الهبوط إلى الهاوية التي لا يصعد منها من هبط اليها ، ولكنه ذكره بعد اختبار طويل وبلاء شديد ، فقال : « بعد أن يفنى جلدي هذا ، وبدون جسدي أرى الله .. » .

ويصدق هذا القول على حياة ابراهيم في عقائده جميعاً ، لأنه اختبر حياة الشرك واختبر شعائره وفرائضه ، وخلصت له الهداية بالخبرة والهداية الالهية ..

وأصدق ما يكون ذلك على البعث خاصة ، فانه لمن مواضع التأمل أن يكون ابراهيم هو النبي الوحيد الذي ذكر القرآن الكريم أنه سأل ربه كيف يحيي الموتى : « واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي .. » .

ولم يرو القرآن الكريم خبراً كهذا عن نبي غير ابراهيم ، فانه إذن لمن مواضع التأمل التي ينبغي أن يلتفت اليها من يصطنعون الاستقصاء ، باسم العلم والتاريخ ..

فالحق أن عقيدة البعث ظلت خفية في كتب التوراة ، وأن خفاءها هذا دليل على أنها بقيت زمناً بعد ابراهيم مجهولة وغير مفهومة .

واذا اعتمدنا البحث التاريخي وحده لم يجز في العقل أن يكون ابراهيم قد ذهب إلى مصر وعاد منها ولم يسمع بعقيدة الحياة بعد الموت .

فمن ذرية ابراهيم يوسف وقد كان له صهر في كهان المحاريب المصرية ،

ومنهم موسى وله علم بمدارس مصر وأسرارها ، وغير معقول أن يكون ابراهيم قد خرج من أرض الكلدان إلى مصر ولم يخطر له أن يسائل حكماءها في أمر العقيدة ، وقد كانت في الوجه البحري – حيث تنزل القبائل الوافدة – محاريب كثيرة يتقرب منها ملوك الرعاة ويشتركون في شعائرها مع رؤساء الدين ؟.

فلا يجوز في العقل أن يكون ابراهيم قد ذهب إلى مصر وعاد منها ولم يسمع بعقيـــدة الحياة بعد الموت ، وأصوب من هذا أن نفهم أن كتب العهد القديم دونت بعد السبي أو نفي اليهود إلى بابل ، فطال العهد بينها وبين دعوة ابراهيم ، وطالت عصور النكسة بعد اختلاط العبادات الالهية والوثنية ، ومنها عبادات بعل وعشتروت .

وساعد على خفاء العقيدة بالحياة بعد الموت أنها لم تورث عن ابراهيم مفصلة منتظرة عن سابقة متتابعة ، فجاز أن يكتب المدونون في سفر الجامعة : « ان ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة .. كلاهما من التراب وإلى التراب يعود . من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق ، وروح البهيمة هل هي تنزل إلى أسفل . إلى الأرض .. ولا شيء خير من أن يفرح الانسان بأعماله . لأن ذلك نصيبه .. » .

وانقضت قرون قبل أن يسمع من دانيال « ان الراقدين في تراب الأرض يستيقظون : هؤلاء للحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار ... » .

وجاء عصر السيد المسيح ولما ينحسم الخلاف بين طوائف بني اسرائيل التي تقول بالحياة الأخرى وطوائفهم التي تنكرها وتتحدى المؤمنين بها أن يؤيدوها بسند من كتب التوراة . وضرب السيد المسيح المثل بالعازر والرجل الغني ، وفيه اشارة إلى النعيم والعذاب بعد الموت ، فكان عقيدة من عقائد الاناجيل لم تتقرر على هذا الوجه في كتب التوراة .

وقد مضى زهاء عشرين قرناً بين عصر ابراهيم وعصر المسيح ومضى زهاء أربعين قرنا بينه وبين هذا الزمن الذي غلب فيه أتباعه على أقطار الدنيا ..

ولكن أمراً ابتدأ قبل تلك القرون لم يكن لينتهي إلى هذه النهاية لو لم يبدأ ذلك الابتداء ..

ولم يكن ذلك الأمر عقيدة التوحيد أو عقيدة الفداء أو عقيدة الثواب والعقاب ، فقبل ذلك ما سمع الناس بتلك العقائد على نحو من الأنحاء ..

وانما سمي أبا الأنبياء لأنه كان رائد الدعوة النبوية في العالم الانساني بأسره ، وكأنها الرسالة الخاصة من خالق الكون إلى كل مخلوق من بني آدم وحواء ..

المعجزة

قلنا في صدر هذه الرسالة أن الاهتداء إلى عقيدة التوحيد كان فتحاً علمياً صحح نظر الانسان إلى الكون والحياة ولم يكن قصاراه أنه فتح ديني يصحح ايمانه واعتقاده .. « لأن حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بارادة ويتسلط عليها غيره بارادة تنقضها وتمضي بها إلى وجهة غير وجهتها ، فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادة الشرك وكفى . بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى ... » .

ونقول في ختام الرسالة ان الايمان بامكان المعجزة فتح كفتح عقيدة التوحيد ، لأنه يخلص العقل من حجر الحالة الواحدة التي تغلق عليه أبواب الاحتمال غير باب واحد ، هو الواقع المحدود كما يراه .

إن عقل الفيلسوف « ديكارت » قد نظر في الممكنات والمستحيلات فتقرر عنده أن تغيير الحقائق الرياضية نفسها ممكن غير مستحيل ، وأن تغيير العقل الذي ندرك به تلك الحقائق ممكن كذلك غير مستحيل .

وعلماء العصر قد تخلصوا من ربقة القوانين التي سميت زمناً بقوانين الطبيعة ، ووقر في أذهان أجيالها أنها تقيد الظواهر الطبيعية ، فلا يستطيع العقل أن يفسّرها بغيرها ..

فالقانون الطبيعي اليوم فرض من فروض ، وقد تصلح الجاذبية زمنا لتفسير حركات الافلاك ، ثم تأتي النسبية فيثبت لبعض العلماء أنها أصلح لتفسيرها من الجاذبية . ومهما يبلغ من دقة القانون الطبيعي فهو لا يحصر

كل حقيقة ولا بد من جزء غير محصور موكول إلى التقدير والترجيح ..

والإيمان بإمكان المعجزة نظر متصرف يصل إليه المؤمن بعقيدته ولم يبلغ مبلغ ديكارت في عمق الفلسفة أو مبلغ العلماء في تمحيص القوانين الطبيعية .. فاذا سأل سائل : هل يمكن أن تجري المادة على غير هذه الصورة ؟ فالذي يقول بالامكان أصدق نظراً ممن يجيب بالاستحالة والامتناع ، وأصوب في وزن الكون جملة واحدة ممن يفرضون عليه صورة محدودة من أقدم آباده إلى غاية آزاله ، ان كانت للآزال غاية ..

فالمعجزة ممكنة وليست بمستحيلة .

لأن مواد الكون كله ترجع إلىأصل واحد ، وليست خصائص هذه المواد مجعولة فيها بارادتها وليست كل خاصة منها مستقلة عن سائرها ، فاذا جاز أن يتشكل الأصل الواحد بجميع هذه الأشكال فاختلافها جائز في أحوال غير هذه الأحوال ، ولا وجه على الاطلاق للجزم باستحالة هذا الاختلاف .. ان الذي أودع في الأصل الواحد كل هذه الصور قادر على أن يودعه صوراً أخرى .. وعلى الذي يجزم بالاستحالة أن يقيم الدليل . أما القائل بالامكان فالواقع هو دليله الذي يقيس عليه .

فليس المقياس الحق للمعجزة أن تسأل : هل هي ممكنة أو غير ممكنة ؟ كلا بل المقياس الحق أن تسأل عن حكمتها ولزومها ، فان الذي يدبر الكون كله يتنزه عن العبث ، فلا يصنع شيئا لغير حكمة ، ولا تفوت هذه الحكمة ادراك الناس ما داموا هم المقصودين بادراكها .

ذلك هو مقياسنا للمعجزات ، وذلك هو المقياس الذي اعتمدناه في كتابتنا عن الرسل والدعوات الدينية ، وخلاصته التي نعيدها في هذه السيرة أن دعوة ابراهيم تفسرها حوادث عصره وتاريخ قومه من قبله ومن بعده ، وإرادة الله في هذه الحوادث هي ارادة الله في كل معجزة ، فليس في القول بهذه أو بتلك إخلال بقدرة الله على جميع الحالات .

ونحن لا نستحسن أسلوب المفسرين الذين يفترضون الفروض لتيسير

قبول المعجزة ، فان المعجزة متى وقعت لا بد أن تكون معجزة ، ولا بد أن يكون الناس في النظر اليها بصراء بحقيقتها غير مخدوعين فيها .

فالايمان الصحيح أن المعجزة ممكنة ، والايمان الصحيح أنها ممكنة لحكمة..

ومن الحق أن نبرز حكمة الله في الحوادث كما نبرزها في المعجزات ، وهذا الذي نصنعه في دراسة الدعوات الدينية ومنها دعوة الخليل ..

خاتمة المطاف

وينتهي المطاف بقصة الخليل إلى العصر الحاضر .

ينتهي إلى العالم الحديث وفيه ألف مليون انسان ، يقرأون قصتهم وقصة آبائهم وأجدادهم في العقيدة الالهية حين يقرأون قصة الخليل .

ومن مبدئها كان مبدؤهم في الايمان بالوحدانية .

ومن مبدئها وهي تمتزج بكل ما استطاع آباؤهم وأجدادهم أن يمزجوها به من صوابهم وخطئهم ، ومن علمهم وجهلهم ، ومن صدقهم ووهمهم ، ومن أفكارهم وأساطيرهم ، ومن كل ما يفقهون وما لا يفقهون .

تراث ضخم غاية في الضخامة .

فكيف انتهى به المطاف بعد أربعة آلاف سنة أو دون ذلك أو فوق ذلك بقليل ؟ ..

* * *

كيف توزن كفّتاه ، كفّة الصواب والعلم والصدق والانكار ، وكفّة الخطأ والجهل والوهم والأساطير ... ؟

انها النفس البشرية بما لها من قوام صالح وغير صالح .

وانها لن تنفصل شطرين يوضع أحدهما في كفة ويوضع الآخر في كفة تقابلها ..

بل خذها جملة أو انبذها جملة ، ووازن بين الغنم والخسارة في الحالتين ..

ومن يفطن لما حوله يفطن لهذا الشأن في كل عقيدة عظيمة وكل فكرة عظيمة وكل فاتحة عظيمة تتلوها الخواتيم على قدرها من العظمة .

فالنوع البشري لم يشرب قط فكرة عظيمة مع جرعة ماء ، ولم يستكمل عقيدة عظيمة بين ليلة وصباح .

وندع الغيب وعلوم الأبد وننظر إلى الدنيا المشهودة ومادتها التي تتناولها الأيدي كل يوم .

فمن أقدم القدم نظر الانسان في بنية المادة ، ثم انقضى عشرون ألف سنة يصيب فيها ويخطىء ، ولما يدرك خصائص الذرة جميعاً ، ولما يفقه من خصائصها التي عرفها سراً لها وراء القشور .

وندع الزمن وتياراته الخفية ، وننظر إلى المكان وتياراته التي تقاس وتُكال ..

يهبط ماء النيل ماء طهوراً من السماء ، ويخترق الثرى فيأخذ من كل ما فيه من تراب وأذى ومن صفاء وكدر ، ويستفاد من الخليط كما يستفاد من الصفاء ..

وهكذا كل ما يعبر طبيعة الانسان وطبيعة الأرض ، وطبيعة الدنيا وما فيها من أتربة الزمان وأتربة المكان ..

* * *

تقبلها جملة أو ترفضها جملة ، وتوازن بين الغنم والخسارة في الحالتين .

وازعم إن شئت أنه غنم أنت مخدوع فيه ، ولكن تزعم أيضا أنك مخدوع في حب حياتك فليست هي أفضل حياة . مخدوع في حب نسلك فليس هو أولى بالبقاء من جميع الاحياء .. مخدوع في هذه الألوان والأصوات فليست هي ألوانا ولا أصواتا ولكنها هزات في الفضاء أو هزات في الهواء ، وأنت مع هذا لا تعرف شيئا ما لم تعرفها بهذه الأسماء ..

ولقد مرت بنا في أبواب هذه الرسالة أخلاط من طبائع الملايين يمزجون بها عقائد الروح وأقداس الضمير ، ولا ينفصل المزيج من المزيج في روح ولا في ضمير ..

من يقبلها جملة يبقى له تاريخ الانسان كما كان وكما هو الآن .

ومن يرفضها جملة ماذا يبقى لديه ؟

إن عليه أن يذكر ماذا يرفض ليذكر ماذا يبقى .

انه لا يرفض الدنيا بتواريخ الدول والحضارات وكفى .

انه ليرفض هذه ويرفض معها كل بارقة أمل ، وكل نفحة عزاء ، وكل هاجسة سر ، وكل ركن من أركان الثقة والعزيمة أخذه الانسان من الدين وأخذ منه أعمالا وأحلاما وخلائق وأطوارا وبواعث وأفكارا لا تحصيها الأوراق كما تحصى تواريخ الدول والحضارات .

ولا يزال في جوانب الأرض من يعبد الحجر ..

ولا يزال في جوانب الأرض من يقدح النار من الحجر ..

ولا غضاضة من هذا وذاك على ودائع الكهرباء في الكون ، ولا على عقيدة التوحيد في أعلى مراتب التنزيه .

وإن في العالم اليوم لمن يعيش فيه وكأنه لم يولد فيه انسان يسمى ابراهيم .

* * *

وربما بقي في العالم شبيه هذا الرجل بعد ألف سنة .

بل ربما كان هذا الرجل خيرا من ألوف يضلون بالنبوءات والأنبياء حيث يهتدي المهتدون .

ولكنهم يسقطون من الحساب .

ويذكر في الحساب ألوف الملايين في مائة جيل ، يقرأون قصة ضمائرهم

حين يقرأون قصة انسان واحد مضى ولم يمض لسبيله ، بل مضى على سبيله دعاة وهداة ، ولا يزالون ماضين وحاضرين .

أليس هذا الانسان حبيب الانسان ؟

أليس هذا الإنسان حبيب الرحمن ؟

عباس محمود العقاد

حياة المسيح

عيسى بن مريم عليه السلام

في التاريخ وكشوف العصر الحديث



مقدمة المؤلف

من رغباتي التي كنت أردّدها في نفسي كلما راجعت أسماء الكتب التي أترقب الفراغ لتأليفها ، أن أدرس تاريخ الدعوة الدينية كما تجلّت في رسالات أكبر دعاتها في العالم الإنساني : إبراهيم الخليل وأبنائه ، والكليم ، والمسيح ، ومحمد عليهم السلام .

هذه الظاهرة الالهية — دعوة النبوة — ظاهرة فريدة في العالم الإنساني ، لم تظهر بين الأمم في غير السلالة السامية ، ولا بد لها من سبب تكشف عنه دراسة النبوّات في هذه الأمم .

وسببها من جانبها التاريخي فيما ظهر لنا من المقارنة الطويلة بين الديانات ، أن النبوات الكبيرة كانت ترتبط بمدن القوافل ، لأنها بيئة وسطى بين الحضارة والبداوة ، وكذلك كانت أور ، وبعلبك ، وبيت المقدس ، ومكة ، ويثرب ، ومدين ، ومحلات الطريق في جنوب فلسطين وشمال الحجاز ، وهي بيئات لا تمتّ إلى حضارة المدن التي تعول في تشريع الحقوق على نظام الدولة ، ولا إلى بداوة الصحراء التي تعول في تشريع الحقوق على سنّة الثأر والغلبة . ولكنها — مدن القوافل — وسط بين الجانبين ، مع حاجتها إلى تقرير الحقوق في كل لحظة ، لدوام المعاملات واشتباكها ، ولكثرة الطارقين ذهاباً واياباً ، ممن يجدون المال ، ويبحثون عن المتعة العارضة ، ويحاول كل منهم أن يغلب صاحبه في سوق الأخذ والعطاء ، وحلبة الخداع والادعاء .

ولهذا تترقب مدن القوافل مصدراً للهداية غير مصدر الشريعة الحكومية ، وغير مصدر النقمة والتغلب بين الغاصب والمغصوب والعادي والمعتدى عليه ،

وذلك هو مصدر الهداية النبوية في بيئة وسطى ، تهيأت لها حماسة النفوس في البادية ، وشعور النفوس بقيمة العهد ورباط الأمانة في كل علاقة واسعة ، كالعلاقة التي ترتبط بالقوافل المترددة على مسافات بعيدة .

ومما وفقت إليه ، مغتبطاً بهذا التوفيق ، أنني اهتديت إلى حكمة هذه الظاهرة في سيَر الخليل ابراهيم ، وسيرة محمد والمسيح عليهم السلام ، وكل هذه السير ظهر في حينه فظهر من استقبال العالم له ، أنه لم يكن رغبة من رغباتي القوية وحسب ، بل كان على التعميم رغبة قوية لقراء العربية في مختلف الآراء والنحل ، لا نحسبها برزت في استقبال هذه الكتب الثلاثة ، مما ألفناه خلال السنوات الأخيرة .

وكان من الواجب أن تظهر هذه الطبعة من هذا الكتاب قبل الآن ، لولا أن الفترة الأخيرة قد ازدحمت بالمؤلفات والكشوف الأثرية ، التي تستمهل كل مؤرخ للسيد المسيح ولعصر الدعوة المسيحية ، أملاً في الوقوف على جديد يضاف إلى تاريخ الداعي أو تاريخ الدعوة ، أو توقعاً لتوكيد شيء من القديم يحتاج إلى توكيد أو إلى تعقيب .

عباس محمود العقاد

١

كشوف وادي القمران

وتفسيرات من فلسفة التاريخ

- في وادي القمران
- تفسيرات من فلسفة التاريخ
- ردٌّ وتعقيب



في وادي القمران

يقال في بعض التعبيرات المجازية أن حادثاً من الحوادث وقع في طالع هذا البرج أو ذاك من بروج الفلك المشهورة . فإذا جاز لنـــا أن نستعير هذا التعبير ، قلنا إن السنوات القليلة قبل منتصف القرن العشرين كانت فترة يظللها في أفق الثقافة الروحية برج البحوث والدراسات عن تاريخ السيد المسيح .. فإن اللفائف المطلوبة التي كشفت منذ أوائل سنة ١٩٤٧ ، وما أعقبها من الشروح والمناقشات والردود ، تتألف منها مكتبة عامرة بالموسوعات الدينية والتاريخية ، وأمامي الساعة ثبت موجز مضموم إلى ذيل كتاب من هذه الكتب يستغرق خمس عشرة صفحة كبيرة ، ليس فيه من شيء غير أسماء الكتب والرسائل التي ظهرت في موضوع تلك اللفائف المكشوفة منذ سنة ١٩٤٧ .. وهذا عدا الكتب والرسائل التي ألّفها الباحثون عن السيد المسيح بمعزل عن هذا الموضوع ، ممن لم يقصدوا إلى التعقيب على تلك الكشوف ، ولم يربطوا بينها وبين ما بحثوه من سيرة السيد المسيح .

واتفق أن اللفائف كشفت ، حيث لا تسمح الأحوال باستمرار البحث فيها والتنقيب عن بقاياها ، في مطلع سنة ١٩٤٧ ، لأنها كشفت بوادي القمران من شرق الأردن ، وتفاقمت يومئذ مشكلة فلسطين ، فحالت دون البحث الهادىء والتنقيب المأمون في ذلك الجوار ، ولم يتصل خبر تلك الكشوف الهامة على شيء من التفصيل أو البيان المفهوم ، إلا بعد استئناف البحث فيها والاشتغال بدراستها حوالي السنة التي ألفت فيها كتابي عن « عبقرية المسيح » وهي سنة ١٩٥٢ .

فلما علمت بنبأ هذه اللفائف في وادي القمران ، توقفت عن إعادة طبع الكتاب قبل أن تتهيأ لي فرصة كافية الاطلاع على مضامين اللفائف والاستفادة مما عسى أن تسفر عنه من دفائن التاريخ المجهول ، وفيها ، كما قيل يومئذ ، كتاب كامل من العهد القديم ، وتعليقات على كتب أخرى ، ودفتر واف بالوصايا والأوامر عن آداب السلوك ، بين زمرة دينية تشبه الزمرة المسيحية الأولى في الشعائر والعبادات .

* * *

ولم يكن هذا التوقف عن البت في الموضوع المرتهن بنتيجة الاطلاع على لفائف وادي القمران ليثنيني لزاماً عن متابعة البحث في أسرار النبوة كما بدأت على عهد الخليل ابراهيم وعهد موسى الكليم .. فإن البحث في هذه الأسرار على عهد الخليل ، يبتدىء بنا من البداءة الأولى ، ويقترب بنا من مطالعها أو ينابيعها التي تقدمت قبل جميع الينابيع ، ودراسة النبوة على عهد موسى الكليم تفتتح عهوداً من النبوءات بلغ فيها عدد الأنبياء المتلاحقين العشرات بل المئات ، ولكن تاريخ موسى الكليم أيضا فإنه قد يتصل من كتب بتاريخ اللفائف بوادي القمران ، إذ كان منها ، كما قيل ، لفائف تتضمن كتباً من التوراة ، وقطعاً من الكتب الخمسة المشهورة باسم الكتب الموسوية ، وكان العثور على نسخ من هذه الكتب عند استئناف الكشف عنها أملاً يساور العلماء الحفريين واللاهوتيين ، ففضلت من أجل هذا أن أرجىء الكتابة عن موسى عليه السلام مبتدئاً بالكتابة عن الخليل ابراهيم ، وسميت كتابي عنه « بأبي الأنبياء » وانتهيت فعلاً من البحث في تفاصيله إلى تقرير العلاقة الحاسمة بين مدن القوافل والبيئة الصالحة لتلقي الرسالة النبوية ، إذ كانت للخليل علاقات متتابعة بكل مدينة من مدن القوافل الكبرى في زمانه ، وكان انتقاله من « أور » إلى جوار بعلبك وبيت المقدس ومدن الطريق بين سيناء والحجاز ، سلسلة من الشواهد البارزة ، تلفت النظر إلى هذه الحقيقة ، وتجلوها على صورها المتقاربة أتم جلاء .

أما الموضوع الذي توقفت عن المضي فيه ريثما تستقصيني موارده الجديدة

فقد كان يتوقف حوالي سنة ١٩٥٣ على مصادر ثلاثة : أهمها لفائف وادي القمران ، ومنها تراجم العهدين القديم والجديد المنقحة في اللغات الغربية ، ومنها سيل لم يكن ينقطع في تلك السنة من مؤلفات المفكرين الدينيين وغير الدينيين عن السيد المسيح من وجهة النظر العصرية بعد الحرب العالمية الثانية .

* * *

وقد كنا نقرأ في الصحف والنشرات أن لفائف وادي القمران تشتمل على نسخة كاملة من كتاب اشعيا ، ونسخة مقروءة سليمة بعض السلامة من تفسير نبوءات حبقوق التي حققتها الحوادث التالية، وشذرات من تفسير كتاب ميخا ، وقصة تسمى قصة الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام ، وأناشيد منظومة للدعاء والصلاة ، ونسخة آرامية من كتاب غير معتمد بين كتب التوراة ، وقصاصات متفرقة من كتب شتى تلحق بكتب العهد القديم ، ونسخة مفصلة لآداب السلوك المرعية بين جماعة النساك الذين أقاموا زمناً بصومعة وادي القمران ، وكلها مودعة في جرار كبيرة يوجد الكثير منها في بعض الكهوف المجاورة ، ويبدو من أجل ذلك أنها قد تشتمل على ودائع من هذا القبيل ، لا تقدر عند العلماء الحفريين وعلماء المقابلة بين الأديان وجمهرة اللاهوتيين على الإجمال .

ولو أن أحداً أراد أن يحيط بأطراف الكتب والرسائل التي تناولت مسائل البحث في تلك اللفائف خلال هذه السنوات الخمس ، لما استوعبها جميعاً ، ولو كرّس لها كل وقته .. وحسب القارىء العربي أن يعلم أنها بحثت من كل ناحية تشترك في موضوعاتها الدينية أو اللغوية أو التاريخية أو الحفرية أو الكيماوية أو الصناعية ، ولم تخل منها لغة من لغات الحضارة الغربية .. فقد تناولت البحوث مسائل الهجاء وقواعد الكتابة ، واختلاط اللهجات واللغات ، ومواد الورق والجلد والمداد واللصق والتجفيف ، كما تناولت أسماء الأعلام وما إليها من الألقاب والصفات وما يقترن بها من تواريخ الشعوب والقبائل ، ومواقع الأرض وعوارض الجو والفلك وأصول العقائد وشعائر العبادات ، في كل فترة على حسب حظها من الأصالة أو الاستعارة ، وعلى حسب

المصطلحات التي تلازمها ولا تعهد في غيرها .. واتسع نطاق البحث إلى غاية حدوده لتحقيق نماذج البناء ، وصناعة الآنية الفخارية ، وعادات الأكل والشراب ، وأزياء الكساء ، ومواد الأطعمة ، وثمرات النبات ، وتراوحت تقديرات الزمن بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الأول بعد الميلاد ، ولم تستقر بعد كل هذا التوسع وكل هذا الإمعان والتدقيق على قرار وثيق .

* * *

ومن البديهي اننا لم نستوعب هذا الطوفان الزاخر من الفروض والنقائض ، وعلى كل ما في هذه البحوث من مواضع المراجعة والعدول ، ومواضع التشكيك والترجيح ، بل نحن لم نشعر بضرورة الاستيعاب والاستقصاء كي نخلص منه إلى القول الجديد في تاريخ السيد المسيح ، ولكننا عمدنا إلى نخبة من كتب الثقات التي ألمّت برؤوس المسائل ، ولخصت محور الخلاف ومبلغه من الدلالة في كل مسألة منها، وخرجنا منها بالخلاصة المطلوبة فيما يعنينا ، فكانت هذه الخلاصة أن الجديد في الأمر لا يزال من عمل السيد المسيح أو من فتوحه المبتكرة في عالم الروح ، وان كل مشابهة بينه عليه السلام ، وبين مذاهب الدين قبل عصره ، تنتهي عند الظواهر والأشكال ، ولا تدل على فضل أسبق من فضله فيما ارتقت إليه عقائد الدين على يديه .

ولعل أرجح الأقوال التي خلصت إليها أكثر البحوث والمناقشات ، أن نسّاك صومعة القمران كانوا زمرة من « الأسينيين » إحدى الطوائف المتشددة في رعايتها للأحكام الدينية ، وانتظارها للخلاص القريب بظهور المسيح الموعود ، وهذه هي الطائفة التي ذكرناها في « عبقرية المسيح » ، فقلنا عنها ما فحواه أنها أقرب الطوائف الاسرائيلية إلى التطهر من أدران المطامع والشهوات ، وانهم « كانوا ينتظمون في النحلة على ثلاث درجات ... وإن أحدهم يقسم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة ، ويحرّم عليه القسم بالحق أو بالباطل مدى الحياة ، وليس بينهم رئاسة ولا سيادة ... والمادة عندهم مصدر الشر كله ، والسرور بها سرور بالدنس والخيانة .. وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين في رحلاتهم ...

وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص ، معتقدون أن الخلاص بعث روحاني يهدي الشعب إلى حياة الاستقامة والصلاح » ، ثم قلنا عنهم في سياق الكلام على زمرة المتنطسين بمصر Therepeuts : ان هؤلاء المتنطسين ربما كانوا أساتذة النساك اليهود المسمين بالآسين أو الأسينيين على قول بعض المؤرخين ، لأننا رجحنا أن الاسم مأخوذ من كلمة الآسي بمعنى الطبيب ، وهي تقابل كلمة الثيرابيين اليونانية بمعنى المتنطسين .

* * *

فإذا صح ان زمرة وادي القمران كانت تنتمي إلى الآسين ، وصح أكثر من ذلك أن صومعتهم كانت هي البرية التي كان يلوذ بها السيد المسيح ويوحنا المعمدان ؛ فالجديد في هذا الكشف هو توكيد الحاجة إلى رسالة السيد المسيح ، أو توكيد فضل الدعوة المسيحية في إصلاح عقائد القوم كما وجدتها على أرقاها وأنقاها بين أتباع النحل اليهودية قبل عصر الميلاد ..

فالكتب الأسينية — أو الآسية — التي وجدت في الصومعة تصف لنا نظام الجماعة وآداب سلوكها وشدة حرصها على الشعائر الموروثة بين قومها ، ولكنها لا تزال مصابة بداء القوم الذي انتهى إلى غاية مداه في تلك الفترة ، وهو داء الجمود على النصوص والحروف ، والانصراف عن جوهر العقيدة ولباب الإيمان ، ولا تزال النحلة الأسينية نفسها أدل على الحاجة إلى الإصلاح من النحل المتهمة أو المحاطة بالشبهات ، لأن النحلة المتهمة تجد إصلاحها عند الراشدين من أبناء الديانة القائمة ، وكل نحلة يهودية زائغة عن سوائها تجد مَنْ يقوِّمها من العارفين باستقامتها في نطاق الديانة اليهودية ، ولكن الحاجة إلى الإصلاح إنما تثبت كل الثبوت إذا بلغت النحلة أرقى ما تبلغه ، واستنفدت كل طاقتها تهذيباً وتطهيراً وإخلاصاً وتذكيراً ، ولم تزل بعد ذلك قاصرة عن تزويد الروح بما تتعطش له وتفتقر إليه . وكذلك كانت النحلة الأسينية التي كشفت عنها لفائف وادي القمران ، أيّاً كان اسمها، وأية كانت وجهتها ، فإنها لم تمهد لرسالة السيد المسيح إلا كما يمهد المريض للعلاج أويمهد الداء للدواء ، ولا شك أن اللفائف المكشوفة ذخيرة نافعة في بابها ،

ولكنها لا تضيف إلى معلوماتنا عن حقائق الرسالة المسيحية ، ولا تخرجنا بشيء جديد في أمر هذه الرسالة ، غير أنها تؤكد لنا فضلها ولزومها في أوانها ، فمهما يكن من غرض النحلة الأسينية ، فهي في أصولها وفروعها بقية محافظة على تراثها ، متشددة في محافظتها ، ناظرة إلى أمسها حتى في التطلع إلى الغد المرجو انتظاراً للمخلص الموعود على حسب النبوءات الغابرة ، ولهذه الآفة الوبيلة – آفة التشدد في عبادة المراسم والنصوص – كانت الدعوة المسيحية رسالة لازمة تعلم الناس ما هم في حاجة إلى ان يتعلموه كلما غرقوا في لجة راكدة من الحروف الميتة والأشكال المتحجرة ، تعلمهم أن العقيـــدة مسألة فكرة وضمير ، لا مسألة حروف وأشكال ... وهذه هي رسالة السيد المسيح في ذلك العصر الموبوء بجموده وريائه على السواء، لأن الرياء إنما هو في باطنه جمود على وجهه طلاء .

تفسيرات من فلسفة التاريخ

ونستطرد من تلخيص نتيجة اللفائف المكشوفة إلى تلخيص نتيجة المناقشة — أو المناقشات الطويلة — حول الترجمة المنقحة في اللغة الانجليزية لكتابي العهد القديم والعهد الجديد .

إننا سمعنا بنبأ هذه الترجمة المنقحة بعد سماعنا بنبأ اللفائف المكشوفة، وكدنا نحصر الضجة الكبرى حول فقرة واحدة في كتاب اشعيا في العهد القديم ، فاعتقدنا ان المشتغلين بتنقيح الترجمة رجعوا إلى نص جديد في لفائف وادي القمران لأن كتاب إشعيا هو الكتاب الكامل الذي اشتملت عليه تلك اللفائف فيما اشتملت عليه من الآثار المتفرقة ، ولكننا تلقينا البيان الوافي عن عمل المنقحين ، فلم نجد فيه ما يشير إلى علاقة بين الكشوف الجديدة وبين تنقيح الترجمة المتداولة من كتب العهد القديم على الخصوص ،لأن الفقرة التي جاءت في كتاب إشعيا وثارت حولها الضجة الكبرى بين أنصار التنقيح ومعارضيه لم تفاجىء علماء اللاهوت برأي لم يعلموه من قبل ، ولم يذهبوا فيه كل مذهب من الطرفين المتقابلين ..

ثارت الضجة حول فقرة في الاصحاح السابع مترجمة في اللغة العربية بالكلمات الآتية : « .. يعطيكم السيد نفسه آية : ها العذراء تحمل وتلد ابناً ، وتدعو اسمه عمانويل » .

فهذه الفقرة تظهر في الترجمة الانجليزية المنقحة بعبارة « امرأة شابة » في مقابلة كلمة « علامة » العبرية ، وكلمة « بارانثوس Parenthos » في الترجمة السبعينية ، ولا جديد أيضاً في هذا الخلاف لأنه خلاف بين المذاهب

الثلاثة التي يدور بحثها على تفسير المقصود ببتولة السيدة مريم أم المسيح عليه السلام . فمن أصحاب المذاهب المسيحية من يفسرها بالبتولة الدائمة قبل ميلاد المسيح وبعده ، ومنهم من يقول بالبتولة قبل ميلاده .. ثم ولادة إخوة له بعد ذلك وردت الإشارة إليهم في كتب العهد الجديد ، ومنهم من يرجع إلى النصوص العبرية ولا يذكر كلمة البتول كما تقدم .. وجواب القائلين بالبتولة الدائمةعلى المستشهدين بذكر إخوة السيد المسيح في كتب العهد الجديد انهم أبناء عمومة أو أنهم إخوة منسوبون إلى يوسف خطيب السيدة مريم ، إلى آخر ما ورد في هذا الخلاف القديم الجديد .

ولقد كانت أمامنا تفاصيل هذا الخلاف عند كتابة « عبقرية المسيح» فلم نعرض له ، ولم نعرض لبحث من البحوث في هذا الصدد، إلا ما كانت له صلة لا فكاك لها برسالة السيد المسيح في عالم الهداية الروحية؛ولهذا لم نذكر معنى كلمة « أخي الرب » التي شفعت باسم « جيمس » المقابل لاسم يعقوب في الترجمة العربية ، وقلنا عنه انه « جيمس قريب السيد المسيح » .

وقد خطر لبعض الناقدين أننا سميناه كذلك لأننا لم نطلع على الترجمة العربية لكتب العهد الجديد ، وإنه لظن يستسهله من يستسهل النقد بغير روية ، ويحسبه بعيداً كبعد المستحيل من يعلم من قراءة « عبقرية المسيح » اننا على الأقل فتحنا كتب العهدين مائة مرة ، لنبحث فيها عما بحثناه ، وننقل منها ما نقلناه .. فالآن تعرض المناسبة التي نذكر فيها سبب تلك الإشارة على علاتها ، دون أن نبدي رأياً في تصحيف كلمة جيمس من كلمة يعقوب ، ودون أن نقرر في الإشارة العابرة حكماً فاصلاً لا موضع له بين هذه التفصيلات .

وربما كان اتفاق الوقت بين ضجة الترجمة المنقحة ، وضجة اللفائف المستخرجة من وادي القمران ، مع تكرار الكلام عن كتاب إشعيا في كلتا الضجتين — هو الذي أوحى إلينا أن ننتظر ما وراء ضجة الترجمة كما أوحى إلينا أن ننتظر ما وراء ضجة اللفائف المكشوفة . فقد يكون هنالك من النصوص والأسانيد ما يوجب إعادة النظر في كتابة « عبقرية المسيح » .. ولولا هذا التقدير لما كان الخلاف على تفسير البتولة وحده موجباً للانتظار إلى ما بعد

فراغ القول منه . إذ كانت أوجه الخلاف جميعاً في هذه المسألة معروفة من زمن قديم ، وكانت من المسائل التي كان في وسعنا أن نتتبعها في مصادرها قبل الكتابة عن السيد المسيح .

* * *

إلا أننا نسأل الآن بعد خمس سنوات : هل كان مما يريح الضمير أن نمضي في إصدار الكتاب مرة أخرى قبل أن نطلع على الكتب الجديدة التي كانت تتعاقب في اللغات الغربية كتاباً بعد كتاب عن السيد المسيح ورسالته ، ونظرات المحدثين إلى هذه الرسالة في زمانها وفيما أعقبه من الأزمنة ؟ ..

إننا تمهلنا قبل خمس سنوات في إصدار الطبعة الحاضرة لأننا اعتقدنا أن تنقيح الترجمة قد يعود إلى أسباب توجب المراجعة وإعادة النظر ، ولكننا نسأل اليوم : ترى لو اننا علمنا يومئذ محور الضجة من الترجمة ، وعلمنا انها موضوع معاد في قضية معروفة — هل كنا نستخف من أجل ذلك بالفيض المتدفق من الكتب والرسائل التي كتبها أصحابها في موضوع كموضوعنا ، ومن وجهة نظر تعنينا ، أياً كان شأنها من الموافقة ، أو المخالفة لوجهة نظرنا ؟

نحسب أن اشتغالنا بالاطلاع على طائفة من تلك الكتب كان سبباً كافياً لتعليق النظر كي نصدر الكتاب على الأقل مطمئنين إلى عاقبة هذه الأناة .. فإن غيّر الاطلاع على الكتب الجديدة آراءنا في موضع من مواضع الكتاب فتلك فائدة جديرة بالانتظار ، وإن اطلعنا على الكتب الجديدة ولم تتغير نظرتنا فتلك طمأنينة نحمدها ، وما ضيعنا شيئاً بهذه الأناة .

* * *

وأيسر ما نقوله الآن عن الكتب الجديدة ، ان الاطلاع عليها كانمتعة من متع القراءة ، ترضينا قارئين قبل أن ترضينا مؤلفين ، وقد كان فيها السمين والغث ، والمتفوق والمتخلف ، كما يكون في كل تأليف ، ولكننا خلقاء أن نحمد حظنا مما استوفينا منها ، لأن الغث منها كان من قبيل المقروءات

التي تنكشف غثاثتها للمتصفح بعد الإلمام بسطور هنا وسطور هناك . وأما السمين منها فقد كان كافياً في موضوعه ، كما كان مكافئاً لما ينفقه القارىء من الوقت والجهد فيه .

ونستطيع أن نسلك هذه الكتب القيمة في بابين واسعين : باب التأمل وما اليه من النظر الفلسفي والخواطر الوجدانية وباب النقد التاريخي والتحليل العلمي على قواعد المقابلة بين الأديان .

ويلذ القارىء ولا ريب أن يعلم رأي الفيلسوف العصري في المقابلة بين تعاليم السيد المسيح وتعاليم نيتشه في العصر الحاضر، أو يعلم رأيه في المقابلة بين تعاليم المسيح وتعاليم كارل ماركس وأصحابه الماديين ، أو يعلم وجوه المشابهة ووجوه المناقضة بين خطة المسيح في الإصلاح الانساني وخطط الساسة ودعاة الاجتماع في القرون الحديثة ، أو يعلم بلاغة الكلمات المسيحية حين تقترن بكلمات البلغاء من أصحاب الكلم الجامع والحكمة المأثورة .. فهذه وأشباهها هي مدار القول في كثير من تلك الكتب العصرية يتفق أحياناً أن تدل عناوينها على أغراضها، ولكننا لا نعتقد أنها مما يقتضينا البحث في كتابنا هذا أن نبسطها أو نطويها موجزين... وقصارى ما نقوله عنها انها أشبه بالصور المتعددة للوجه الواحد في لوحات كثيرة ، ليست محل تلخيص ولكنها محل استزادة لمن يشاء ..

أما الكتب التي نسلكها في باب النقد التاريخي والتحليل العلمي ففيها حقاً ما يهتم به الباحث في تاريخ الرسالة المسيحية وفيها — ولا مراء — بحوث جديرة بطول التأمل وانعام النظر ومواجهة الموضوع كله في نطاقه الواسع من جميع جهاته ، وليس في استطاعة أحد أن يواجه هذا الأفق الواسع ما لم يكن على استعداد له بــكل عدته من المراجع والأسانيد .

ومن الاطالة على غير طائل أن نسرد هنا أسماء المؤلفات والمؤلفين في هذه البحوث النقدية . فاننا — بعد ما وقفنا عليه منها — نرى أن القارىء لا يفوته شيء من جوهرها اذا اطلع منها على كتابين اثنين يحويان جملة المناقضات

والأقاويل التي تتعرض للقبول أو الرفض في هذه البحوث ، ونعني بها كتاب[1] « الجانب الآخر من القصة » تأليف روبرت فيرنو ، وكتاب [2] « انجيل الناصري يعاد » تأليف روبرت جريفس وجوشيا بردو ، وكلا الكتابين مؤلف باللغة الانجليزية .

* * *

وندع التخمينات الملفقة التي تتخلل الكتابين ، وينبغي أن نذكر –بداءة– انها تخمينات كثيرة وانها في بعض الأحايين تخمينات معتسفة يعترف المؤلفون باضطرارهم اليها لاتمام الحلقات المفقودة في السلسلة التي سبكوها من بقايا الأسانيد المتخلفة منذ القرن الأول للميلاد ومن صنع خيالهم في مواضع النقص المعترضة في فجوات تلك الأسانيد ، ولا ننسى أن أحد المؤلفين–روبرت جريفس – قصاص يعتمد على التصور الفني في التوفيق بين الأخبار وتنسيق الملامح وملاحظة التناسب بين ألوان الشخصيات ، وله قصة في الموضوع نفسه سماها « عيسى الملك » يشرح فيها بالاسلوب الروائي نظريته التاريخية عن سيرة السيد المسيح ، وزبدتها أن السيد المسيح قد نشأ برعاية هيئة باطنية كانت تعمل لتعجيل الخلاص على يد الملك « المسيح » الذي يأتي من ذرية داود لانقاذ شعب الله المختار ، وان يوحنا المعمدان هو الذي وُكل اليه اختيار المسيح المنتظر على حسب العلامات المحفوظة في النبوءات ، فاختاره وعاهده وبايعه « ملكاً » مسيحاً أي ممسوحاً بالزيت المقدس على سنة الملوك المختارين من الأقدمين ، وان زعماء الهيكل لم يكونوا جميعاً من المطلعين على سر هذه المبايعة التي جمعت بين يمين الايمان ويمين الطاعة ، وتولاها المشرفون على تنفيذها وهم حذرون من سلطان رومة ومن سلطان الهيكل في وقت واحد ، ثم جرت الحوادث مجراها الذي نعلمه من الأناجيل مزيداً عليها هنا وهناك حلقات تربط الصلة بين التاريخ الظاهر والتاريخ الباطن كما جمعه المؤلف

---

(١) The Otherside of the story by Rupert Furneaux

(٢) The Nazarene Gospel Restored by Graves and Pardo

من أسانيده ومن وحي خياله أو تنسيق فنه وتقدير ظنه ، وربما زاد الجانب المضاف هنا وهناك على الجانب الأصيل ..

ونحن ندع هذه التخمينات ونجتهد في حذفها كما اجتهد المؤلف الروائي في اضافتها ، ولكننا لا نريد أن نحذفها حيث تترك الفراغ بعدها أدعى إلى الحيرة والتردد من الاثبات ..

وصفوة ما يبقى بعد حذف هذه التخمينات أن الدعوة المسيحية بعد السيد المسيح كانت ترجع إلى مركزين : أحدهما برئاسة جيمس أي (يعقوب) المسمى بأخي الرب ومقره بيت المقدس ، والثانية برئاسة بولس الرسول ومريديه ومقرها خارج فلسطين بعيداً عن سلطان هيكل اليهود . وقد كانت شعبة بيت المقدس أقرب إلى المحافظة والحرص على شعائر العهد القديم ملحوظة المكانة في العالم المسيحي داخل فلسطين وخارجها من بلاد الدولة الرومانية ، كما يظهر من وصاياها ومن أجوبة المسيحيين في الخارج عليها ، وكلها وصايا تحث على رعاية الشعائر الاسرائيلية كما تقدمت في النبوءات .

وظلت الرئاسة على العالم المسيحي معقودة لهذه الشعبة المقيمة في بيت المقدس حتى تهدم الهيكل وتقوضت مدينة بيت المقدس وتبددت الجماعة في اطراف البلاد ، وآلت قيادة الدعوة إلى الشعبة التي كانت تعمل في خارج فلسطين فكان لذلك أثر كبير في أسلوب الدعوة وفي اختيار وسائل الاقناع ، اذ اختلف الأسلوبان بين الخطاب الموجه إلى اليهود وحدهم ، والخطاب الموجه إلى الأمميين النافرين من اليهود .. فبينما كان الخلاص على يد فرد من بني اسرائيل لانقاذهم دون غيرهم أمراً مفروغاً منه بين اليهود ، كان العالم الخارجي بحاجة إلى صفات إلهية في الرسول المخلص يقبلها الأمميون ، ولا يتقيدون في قبولها بالشروط والعلامات التي يلتزمها المتشبثون بحرف الناموس . وقد كانت كتابة الأناجيل في وقت يوافق هـــدم الهيكل وتفرق الشعبة المقيمة ببيت المقدس ، فوضحت فيها دلائل الدعوة كما تولاها المبشرون بها في بلاد الأمميين ، وغلبت فيها الصفة الالهية على غيرها من الصفات المسموعة في جدار الهيكل ، قبل إلحاح الحاجة إلى تدوين الأناجيل . وان المؤلفين

ليطنبون اطناباً كبيراً في ترديد الكلمات الإنجيلية التي تدل على اعتصام السيد المسيح بكتب التوراة ، وتوصية التلاميذ باتباعها على سنة الفريسيين ، وأشهر هذه الكلمات قوله للتلاميذ والجموع كما جاء في الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى : « انه على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وتعلموه ، ولكن حسب أعمالهم لا تفعلوا. لأنهم يقولون ولا يفعلون »

ومن تلك الكلمات قوله كما جاء في الاصحاح الخامس : « لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل . فاني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل ... »

ومنها قوله كما جاء في الإصحاح العاشر : « إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت اسرائيل الضالة »

ومنها قوله كما جاء في الإصحاح الخامس عشر : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ... » إلى أقوال أخرى تفهم من مضامينها ان لم تفهم من لفظها الصريح كما في هذه الأقوال ...

ردّ وتعقيب

وعندنا ان المؤلفين أصحاب هذه النظرية في غنى عن العناء والعنت في تأويل الكلمات أو التنقيب عن الصحائف المطوية إذا كان قصاراهم ان يثبتوا ان الدعوة المسيحية ابتدأت بتوجيه الخطاب إلى الأمة التي تدين بالتوراة وتترقب ظهور المسيح المخلص من بين أبنائها ، وانهم كذلك في غنى عن العناء والعنت اذا أرادوا أن يثبتوا ان القائمين بدعوة الأمم قد اتخذوا لهم أسلوباً في الدعوة غير الذي يتفاهم عليه بنو اسرائيل الذين يقرأون الكتب ويعتقدون بما فيها من النبوءات ، وان رسل الدعوة المسيحية إلى الأمم قد وصفوا السيد المسيح بصفات لم يتصف بها السيد المسيح في كلامه الذي نقلته عنه الأناجيل .

كل أولئك لا حاجة به إلى العناء والعنت لاستنباط الأدلة عليه من مضامين الأقوال أو طوايا الصحف المنسية ، ولكن هؤلاء المؤلفين أصحاب هذه النظريات يكلفون براهينهم عنتاً شديداً اذا حاولوا أن ينكروا ان دعوة الأمم قد بدأت في عهد السيد المسيح ، وان التلاميذ والرسل تعلموا منه أن يشملوا الأمم بدعوته ولا يقصروها آخر الأمر على بني اسرائيل . فلم تتواتر أخبار الأناجيل على شيء كما تواترت على هذه الأخبار في مواضعها وفي مناسباتها المعقولة ، ولم تأت الأناجيل في هذه الأخبار الا بالنتيجة الطبيعية التي يعززها سياق الحوادث ويستلهم منها منطق الأشياء كما نقول في مصطلحاتنا الحديثة . وماذا كان السيد المسيح صانعاً بعد رفض القوم دعوته واصرارهم على رفضها الا أن يتجه برسالته إلى غيرهم ، أو أن يكف عن هذه الرسالة ويعدل عنها بتاتاً ، فيعدل عنها التلاميذ والرسل ، ولا يتجهوا بها إلى الأمم ولا إلى اسرائيل؟.

ولا يفوتن المؤلفين أصحاب هذه النظرية ان الرسل الذين بشروا الامم بالمسيحية هم الدعاة الذين احتملوا أشد العذاب في سبيلها ، وهم الذين صمدوا لها بعد أن تفرق دعاة المسيحية في بيت المقدس ، ومن يفعل ذلك لا بد أن يكون معتقداً لما يدعو اليه ولا يكون مبلغه من العقيدة انه يحتال لاجتذاب السامعين اليه بأسلوب غير الأسلوب المألوف عند بني اسرائيل ... فكيفما كان مرجع هذه العقيدة فالرسل الذين أعلنوها بين الأمم قد صدقوها قبل أن يدعوا الناس إلى تصديقها وقد اطمأنوا اليها قبل أن يروضوا الناس على ابتغاء الطمأنينة فيها .

* * *

وبعد : فنحن لا نستغرب الضجة التي أثارها المؤلفون بما ابتدعوه معتمدين على أسانيدهم التاريخية أو على طريقتهم في تكملة التاريخ بتنسيق الصور الفنية من وحي القريحة أو من وحي الخيال ... إلا أننا نعود إلى أنفسنا فلا نرى ان هؤلاء المؤلفين قد اطلعونا على رأي طارىء يدعونا إلى تعديل شيء جوهري في الصورة التي أوضحت أمامنا لرسالة السيد المسيح عندما استجمعنا خواطرنا ومعلوماتنا لتأليف هذا الكتاب ، ويسرنا اننا نعيده اليوم في طبعته الثانية كما بدأناه في طبعته الأولى بغير تعديل يذكر الا ما كان من قبيل المطبعيات والتصحيفات ... ويسرنا قبل ذلك أننا لقينا من قرائنا عرفاناً مشكوراً نغتبط به ، ويغتبط به كل من مارس التأليف في هذا الموضوع الجليل على التخصيص ، ولا نعلم ان منهجنا في الكتابة عن « السيد المسيح » قد لقي من أحد استنكاراً يحسبه الكاتب أو القارىء في حساب النقد المفهوم ، وكل ما هنالك ان بعضهم ظن ان التأليف عن السيد المسيح يقتضي منا أن ندين بالمسيحية أو ندين بجميع مذاهبها في وقت واحد ، ولم يقل أحد اننا اذا كتبنا عن برهما وجب أن نكون برهميين ، أو كتبنا عن أديان الأمم وجب أن ننتقل فيها من دين إلى دين ، ولو وجب ذلك على باحث لما كتبت تواريخ الأديان ولا تواريخ الدعاة اليها ممن يتفقون في الملة الواحدة أو لا يتفقون ... بل لو وجب ذلك لما كتب عن الشرق الا المشارقة ، ولا كتب عن أوربة الا الأوربيون ، ولا كتب عن

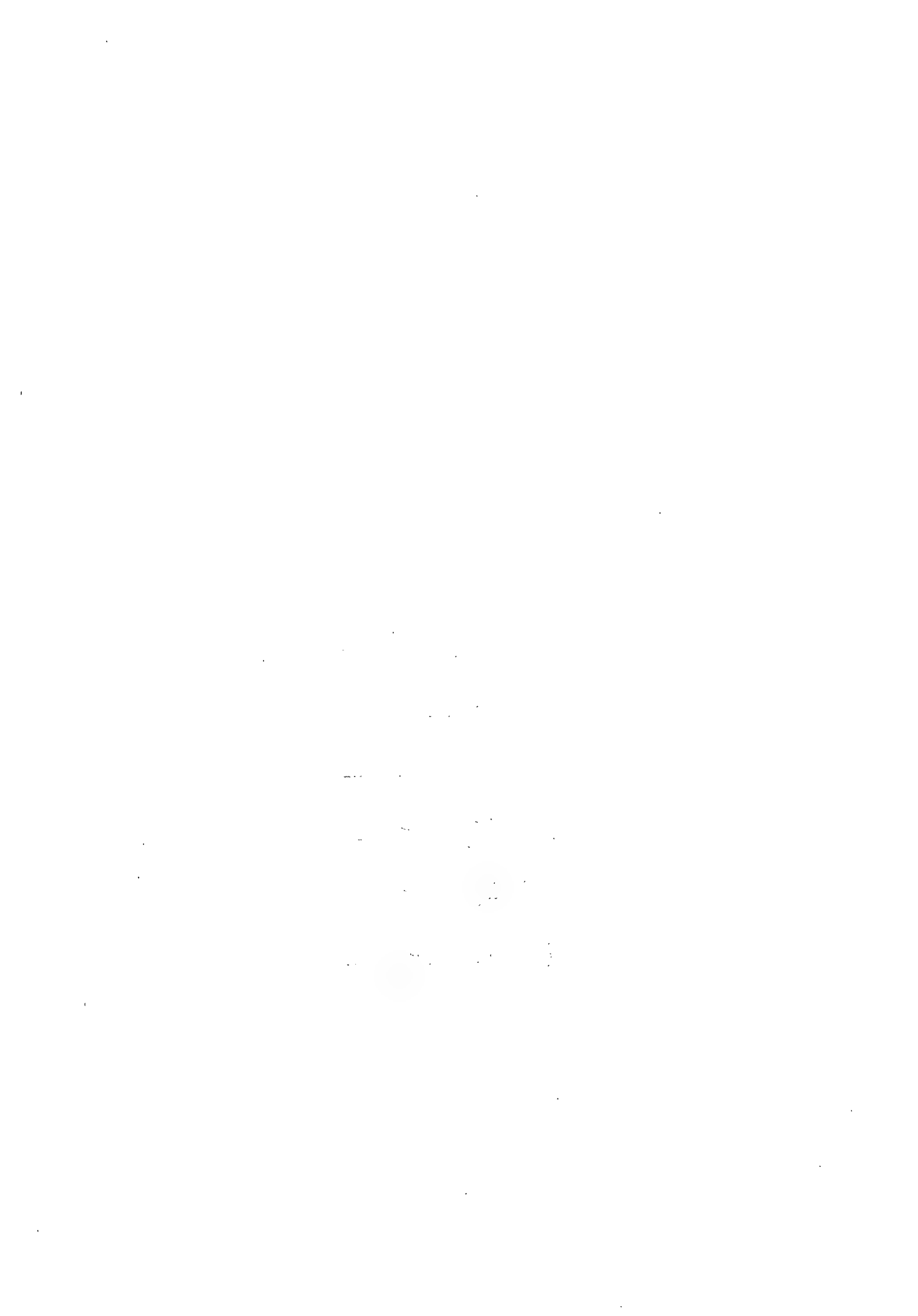
الماضي الا من كان فيه ، ولا عن المستقبل الا مولود من بنيه ، ولا وجوب لشرط من هذه الشروط المفروضة في حكم من أحكام النقد المفهوم .

وانصافاً لكثرة القراء الغالبة، نقول انهم من الوفرة بحيث تحسب هذه القلة إلى جانبها بحساب النسبة إلى الألف ، لأنها أندر من أن تحسب بحساب النسبة إلى المائة، وانما تصادفها على نسبة متفاوتة في شعب شتى من المطالعات التاريخية الدينية، فربما كتبنا عن الخلفاء الراشدين كلاماً لم يعجب أفراداً من الشيعة ، أو كتبنا عن معاوية بن أبي سفيان كلاماً لم يعجب أفراداً من غيرها ، ولكن العبرة من وراء هؤلاء بالقراء الذين يقرأون ما يوافقهم وما يخالفهم ولا يرضيهم من الكاتب أن يعطيهم نسخة مكررة مما في ضمائرهم وخواطرهم ، وبين أيدي هؤلاء القراء قدمنا الطبعة الأولى من هذا الكتاب ونقدم الآن طبعته الثانية بعنوان « حياة المسيح » على بركة الله ...

٢

المسيح في التاريخ

- الشجرة المباركة
- المسيح
- النبوة بين بني اسرائيل
- الطوائف اليهودية في عصر الميلاد
- الحياة السياسية والاجتماعية
- الحياة الدينية
- الحياة الفكرية



الشجرة المباركة

« اللهُ نُورُ السَّماوَاتِ والأرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ ، زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الأمْثَالَ للنَّاسِ ، واللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيم » .

سورة النور

« وَهُوَ الذي أَنْشَأ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغيرَ مَعْروشَاتٍ والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ والزَّيْتُونَ والرُّمّانَ مُتَشَابِهاً وَغيرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إذَا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » .

سورة الانعام

« هُوَ الذي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وِمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُون * يُنْبِتُ بِهِ الزَّرْعَ والزَّيْتُونَ » .

سورة النحل

« والتِّينِ والزَّيْتونِ وطورِ سينينَ وَهذَا البَلَدِ الأمينِ » .

سورة التين

« فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إلى طَعَامِهِ ، أَنّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبّاً ، ثُمَّ شَقَقْنَا الأرْضَ شَقّاً ، فَأنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ، وَعِنَباً وَقَضْباً ، وزَيْتُوناً وَنَخْلاً ، وَحَدَائِقَ غُلْباً » .

سورة عبس

* * *

هذه هي الشجرة المباركة في التنزيل : شجرة الزيتون . شجرة البحر الخالد . شجرة الحوض الذي نبتت عليه حضارة الانسان ودارت حوله ، ولا تزال تدور .

عالية تعلو خمس قامات وتزداد .

باقية تبقى خمسة قرون ، ثم لا تصير إلى نفاد .

كريمة تؤتي من ثمراتها ما تشتهيه الأنفس وتشتهي به طيب الطعام ، سعيدة تؤتي من عصيرها النور والطب ومسوح الاهاب وجبائر العظام ، من خشبها صور المحاريب وأعواد المنابر ، ومن ورقها أكاليل **الأبطال** وتحيات البشائر ، وتتشابه بركتها على الابطال الأقدمين فيتمسحون بطيبها طلباً لقوة النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون، وتتشابه بركتها عليهم كرة أخرى فهم يعلنون السلم ، ويرفعون غصن الزيتون !

* * *

بوركت في وحي المعابد والضمائر ، وبوركت في رموز القرائح والخواطر فلم يعرف الناس أمنية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها ، ولم يذكروا نعمة لا يذكرونها بنعمائها : رمزوا بها إلى الضياء ، ورمزوا بها إلى السلام ، ورمزوا بها إلى الخير والرخاء ، وتزودوا منها في البادية والحاضرة ، وادخروها للدنيا والآخرة ، واتخذوها للمصابيح في محاريب الصلاة والتسبيح ، ورجعوا اليها باسم من أقدس الأسماء ، وهو اسم « السيد المسيح » .

لأمر ما نبتت في فلسطين ، وانتشرت منها في منابت العالمين ، وعلى نحو من هذا وهبت مسحتها للرسول الأمين ، فطافت رسالته حيث طافت ، من عليين إلى غايتها من البلاغ المبين .

ولو لم تكن « للزيتونة » الا ان هذا الاسم المبارك مردود إلى سحتها وبركتها ، لاستحقت به الخلد المصون ، خضراء على مدى السنين والقرون ...

المسيح

يدل على المقارنة بين الأديان، على شيوع الايمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص في زمن مقبل ، وظهر من عقائد القبائل الحمر في القارة الأمريكية ان القبائل التي تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة من الأمريكتين ، وليس في هذا عجب .. لأن الرجاء في الخير أصل من أصول الديانة ، والأمل في الصلاح مادة من مواد الحياة الانسانية في طلب الكمال والخلاص من العيوب .

وقد يشتد هذا الامل حين تشتد الحاجة اليه ، فكان المصريون الاوائل يترقبون « المخلص » المنقذ بعد زوال الدولة القديمة ، وروى برستيد عن الحكيم ابيور Ipuwer ان المخلص الموعود « يلقي برداً على اللهيب ويتكفل برعاية جميع الناس ويقضي يومه وهو يلم شمل قطعانه [١] ».

وقد كان البابليون يؤمنون بعودة «مردخ» إلى الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد ، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة ينبعث في جسد انسان ، وقيل انه هو زرادشت رسول المجوسية الأكبر الذي يرجعون اليه بتفصيل الاعتقاد في إله النور وإله الظلام ، وقد تخلفت هذه العقيدة إلى ما بعد اليهودية والمسيحية والاسلام وأشار اليها الجاحظ وهو يتكلم عن أستاذه ابراهيم بن سيار النظام حيث قال : « ان السلف زعموا ان كل ألف عام يظهر رجل لا نظير له ، فاذا صدق هذا الزعم كان النظام هذا الرجل للألف عام هذه » ..

---

(١) صفحة ٧٩ من كتاب نور من الشرق القديم لمؤلفه جاك فينجان .

أما الايمان بظهور رسول الهي يسمى « المسيح » خاصة فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو التعليقات عليها ، في التلمود والهجادا وما اليها ..

ومرجع التسمية نفسها إلى الشعائر التي وردت في سفر التكوين وسفر الخروج وما يليها من أسفار الأنبياء .. فان المسح بالزيت المبارك شعيرة من شعائر التقديس والتكريم ، وأول ما ورد ذلك في الاصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين حيث روي عن يعقوب انه « بكر في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتاً على رأسه ودعا ذلك المكان بيت ايل ... أي بيت الله » .

* * *

وجاء في الاصحاح الثلاثين من سفر الخروج ان « الرب كلم موسى قائلاً : ..... وانت تأخذ أفخر الأطياب ، دهناً مقدساً للمسحة ، وتمسح به خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة والمائدة وكل آنيتها والمنارة وآنيتها ومذبح البخور ومذبح المحرقة ، وتقدسها فتكون قدس أقداس ، وكل ما مسها يكون مقدساً ، وتمسح هارون وبنيه وتقدسهم » .

وكان الأحبار والأنبياء يسمون من أجل هذا مسحاء الله وتنهى التوراة عن المساس بهم كما جاء في الاصحاح السادس عشر من سفر الأيام : « لا تمسوا مسحائي ولا تؤذوا أنبيائي » .

وكان مسح الملوك أول شعائر التتويج والمبايعة ، فكان شاءول وداود من هؤلاء المسحاء .

ثم أطلقت كلمة « المسيح » مجازاً على كل مختار ومنذور ، فسمي كورش الفارسي « مسيحاً » كما جاء في الاصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا ، لأن الله أخذ بيده لإهلاك أعداء الاسرائيليين واقامة بناء الهيكل من جديد ، وسمي الشعب كله مسيحاً كما جاء في المزامير وكتاب النبي حبقوق ، ومنه « خرجت لخلاص شعبك : خلاص مسيحك » بمعنى الشعب المختار ..

وتكررت في كتب « الهجادا » أو كتب التعاليم الاشارة إلى الرسول المنتظر باسم المسيح ، فتارة يطلق هذا الاسم على يوسف ، وتارة يطلق على موسى عليهما السلام ، ولا يزال المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحاً في صورة رسول هاد أو صورة شعب مبرور ، لأنهم لا يدينون برسالة عيسى بن مريم عليهما السلام .

* * *

وقد كان الايمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل الأول ، فردد الشعب الاسرائيلي وعود أنبيائه بعودة الملك إلى أمير من ذرية داود نفسه تخضع له الملوك وتدين الأمم لسلطانه ، ثم ترقى الايمان « بالمسيح » بمعنى الملك إلى الايمان بالمسيح بمعنى المختار أو المنذور للهداية والصلاح ، وبلغ هذا التحول غايته في بعض النبوءات ومنها نبوءة اشعيا التي امتازت بتكرار هذه الوعود ، فمن وصف القوة والبطش والصولة والصولجان ، إلى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكاره في سبيل التحذير والتبشير ، وقد جاء في الاصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظر انه « محتقر ومخذول من الناس ورجل أوجاع وأحزان » ... وجاء في الاصحاح التاسع عشر من سفر زكريا انه « عادل ومنصور وديع يركب على حمار ابن أتان » ... واتفقت أقوال كثيرة على انه يأتي مسبوقاً برائد يعلن مجيئه ، وهو النبي ايليا (الياس) منبعثاً من الأموات .

* * *

وقد كان هذا الارتقاء في فهم الرسالة المسيحية يصاحب أطوار الشعب الاسرائيلي في تاريخه المتعاقب ، فيقوى الرجاء في المسيح الملك كلما ضعفت الدول المسيطرة على فلسطين وهان خطب الثورة عليها وتعاظم الأمل في استقلال رعاياها ، ويعود الرجاء إلى « المسيح الهادي » كلما استحكم سلطان الغالبين وبدا ان الأمل في الخروج عليهم بقوة السلاح بعيد عسير ، وهكذا تراوح تفسير الرسالة المنتظرة بين رجعة الدولة وبعثة الهداية على حسب أطوار التاريخ ، فلما دخلت فلسطين في حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين

قبل الميلاد وأخذ الأمل في قيام الدولة يتضاءل ويخلفه الأمل المتتابع في انتظار الرسول المخلص والبعثة الروحانية ، اقترن هذا التحول بظاهرتين تصطحبان حيناً ، وتفترقان ، بل تتناقضان جملة أحيان .. فعظم سلطان الهيكل وكهانه حين تحول السلطان القومي كله اليهم وأصبح هذا السلطان ملاذ المتطلعين إلى كل رئاسة قومية تصمد للدولة الأجنبية ، ومن الناحية الأخرى جنحت الضمائر المتعطشة إلى اليقظة الروحية جنوحاً متمرداً على القديم مؤمناً بانتظار البعث من غير جانب « الهيكل » وبقاياه وما جمد عليه مع الزمن من الموروثات والمأثورات .

فلما بلغ الكتاب أجله وحانت البعثة المرقوبة كان المعسكران متقابلين متحفزين على استعداد ..

النّبوّة بين بني إسرائيل

من تمام العلم باستعداد عصر الميلاد لدعوات النبوة أن نلم بأحوال النبوءة في الشعب الاسرائيلي منذ تكاثر عدده وتنوعت أعمال الرئاسة والتعليم بين قبائله واسباطه . فان أحوال النبوءة في ذلك الشعب لم تكن على الصورة التي تسبق إلى خواطرنا من النظر في كبار الأنبياء ، وتاريخ الفترات التي مضت بين عهودهم في الأمم المتعددة .

فنحن اليوم نستهول دعوة النبوءة ، ونعلم عن يقين ان الذي يقدم على ادعاء النبوءة في عصرنا هذا يقدم على خارقة مستغربة ويعرض نفسه لاتهام المتدينين قبل المنكرين والملحدين ، لأن أتباع الأديان يؤمنون بختام النبوءات أو يؤمنون بأن النبي الجديد ينتقص عقائدهم ويزعم لنفسه انه يعلمهم ما لم يعلموه على كتبهم وأقوال أنبيائهم ، أما المنكرون والملحدون فانهم لا يقبلون دعوة النبوءة في هذا العصر ولا في غيره من العصور ..

ونحن اليوم نعلم ان الفترة بين ابراهيم وموسى وبين موسى وعيسى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم قد طالت حتى جسبت بمئات السنين . ففي اعتقادنا على الدوام ان ظهور الأنبياء حادث جلل لا يتكرر في كل جيل ولا يراه الانسان في عمره مرتين .

ونحن اليوم نعلم من تواريخ كبار الأنبياء انهم أقدموا على مصاعب تخفيف المقدمين عليها وشقوا بدعوتهم طرقاً لا يسهل تذليلها ، لأنهم حطموا آلهة وسفهوا أحلاماً وغيروا العقائد التي درجت عليها الأمم عصوراً بعد عصور ، وأقاموا عليها سلطان ذوي السلطان كما أقاموا عليها شرائع الحاكمين والمحكومين.

كذلك صنع محمد وكذلك صنع موسى عليهما السلام ، فمن تولى الهداية إلى دعوة على هذا النحو فهو متعرض للعدوان والبغضاء مقتحم على الناس طريقاً لا يقبلون اقتحامه من أحد ، ولا يرون أحداً يقتحمه عليهم الا أعنتوه وأقاموا له العراقيل ..

أما احوال النبوءة في بني اسرائيل فينبغي أن نتصورها على غير هذا النحو ، لأنها تخالفه من جملة وجوه ..

فأول ما هنالك من الفوارق أن الأنبياء في بني اسرائيل لم يكن وجودهم ندرة ، ولم يكن بينهم فترة ، أو لم يكن حتماً لزاماً أن تكون بينهم فترة ، فقد يوجد منهم في العصر الواحد أربعمائة نبي كما جاء في سفر الملوك الأول حيث جمع ملك اسرائيل « الأنبياء نحو أربعمائة رجل وسألهم : أأذهب الى رامة جلعاد للقتال ؟ .. » .

* * *

وخير ما ورد في وصف مكان الأنبياء بين بني اسرائيل قول النبي (محمد) صلوات الله عليه : « علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل » .

فقد كان عمل النبي اذن في شعب اسرائيل كعمل العالم الفقيه في الأمة الاسلامية ، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بهم الخاصة أو العامة في وقت من الأوقات ، ولم يكن قيامهم انكاراً لقيام الأنبياء من قبلهم ، بل هو تفسير للكتب والنذر وحض على اتباع السنن التي رسمها لهم من قبل ابراهيم ، وموسى ، ويعقوب ، وغيرهم من الأنبياء السابقين ، بل كانوا يعلمون من كتب العهد القديم ان الله وعد اسرائيل « ان يقيم أنبياء مثله ويجعل كلامه في أفواههم (١٨ تثنية) وان بعض هؤلاء الأنبياء قد يتحدث إلى الناس بكلام غير كلام الوحي فعليهم أن ينبذوه » ... « وان قلت في قلبك كيف تعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب فاعلم ان ما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهذا كلام لم يتكلم به الرب ، فلا تخف منه » .

بل يجوز أحياناً أن تصدق الأقوال والعلامات ولا يجوز للشعب أن يستمع

إلى وصايا الأنبياء إذا دعوه إلى عبادة رب غير إله اسرائيل .. فإذا قام في وسطك نبي أو صاحب رؤيا وأعطاك آية أو أعجوبة ... فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو صاحب الرؤيا ان دعاك إلى عبادة آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ولو صدقت الاعجوبة أو الآية ...

« ١٣ تثنية »

ولم تكن النبوءة باذن من ذوي السلطان أمراء كانوا أو كهاناً أو شيوخاً مطاعين في القبيلة . بل يمتلىء يقين الانسان بالايحاء اليه فيمضي في تبليغ وحيه ولا يقوى أحياناً على كف لسانه كما قال ارميا : « قد أقنعتني يا رب فاقتنعت وألححت علي فغلبت . صرت أضحوكة وهزءا ، وكلمة الرب جللتني بالعار والسخرية ، فقلت لا أذكره ولا أنطق باسمه بعد ، فكان قلبي كأنه نار محرقة محصورة في عظامي ، فلم تكن لي طاقة بالسكوت » .

« ٢٠ أرميا »

* * *

وكثيراً ما كان النبي ينحي على زملائه في عصره ويخالفهم في تفسير النذر من ربه ، كما قال ارميا : « من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق إلى الأرض كلها ... فلا تسمعوا كلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم فانهم يبطلون عملكم ويتكلمون برؤيا قلوبهم » .

أو كما قال ميخا لملك اسرائيل : « هو ذا الرب قد جعل روح كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء » .

قال هذا فتصدى له صدقيا بن كنعانة « وضرب ميخا على الفك وقال له : « من أين عبر روح الرب مني ليكلمك » .

وكان المعهود في الانبياء كما روت كتب التوراة أن يطلب أنبياء اسرائيل حالة الكشف كما يطلبها المتصوفون والنساك فيما علمناه من أخبارهم المتواترة ، فمنهم من يصوم ويتهجد ويمسك عن فضول العيش ويلتمس المنازه والأنهار كما قال دنيال : « لم آكل طعاماً شهياً ولم يدخل في فمي لحم ولا خمر ولم

أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع ، وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول اذ كنت إلى جانب النهر العظيم دجلة رفعت عيني ونظرت » .

بل منهم من كان يستعين بالسماع ليشعر بصفاء الروح ويستلهم الغيب كما جاء في سفر صمويل الأول : « انك تصادف زمرة من الأنبياء يهبطون من الأكمة أمامهم رباب ودف وناي وعود وهم يتنبأون فيحل عليك روح الرب » .

« ٩ صمويل أول »

أو كما جاء في سفر الملوك الثاني : « فقال اليشع حي رب الجنود ، والآن فأتوني بعواد ... فلما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب » .

ولكن الأغلب مع هذا انهم كانوا يرتادون الخلوات وينقطعون في جوانب الأنهار « عند نهر خابور انفتحت فرأيت رؤى الله » .

« ١ حزقيال »

ولا يمتنع عندهم أن يلهم الله بالرؤيا الصالحة أو الدليل البين انساناً من غير الأنبياء ومن غير شعب اسرائيل كما ألهم أبيمالك وبلعام ، ولكنهم يلهمون ليعرفوا بأنفسهم حق الأنبياء والمرسلين .

* * *

وكان الغالب على سامعي النبوءات أن يطلبوا آية يعلمون بها أن المتكلم ينطق بوحي من الله ، ولكن طلب الآية لم يكن عندهم دليلاً على اليقين والايمان ، وربما اذن للنبي أن يطلب الآية ويمعن في طلبها فيرى من الأدب ألا يجرب ربه بدليل هذه الآيات .

« ٧ اشعيا »

على انهم كانوا يلجأون إلى الأنبياء يستشيرونهم قبل الحرب أو الرحلة أو الاقامة لعلمهم انهم أقرب إلى الله وأدنى أن يطلعوا على الغيب المحجوب عن أنظار الدنيويين المنغمسين في هموم الحياة ، ومن هؤلاء الأنبياء من كان

يستمع الوحي صوتاً عالياً ومن كان يحسه الهاماً أو هداية أو رؤيا صالحة ، وغالباً ما كانوا يقصرون رسالتهم على النذير بالعقاب كلماخرج الشعب عن سنة الأقدمين وانحرف عن سواء العبادة كما تلقاها آباؤهم من الأنبياء السابقين ، فلم تكن النبوءة اقتحاماً ولا بدعة مستغربة ، ولم يكن فيها خطر على النبي الا حين يتصدى للملوك والأمراء فيأخذ عليهم مخالفة الشريعة أو مخالفة المأثور عن السلف ، ، ومن هؤلاء الملوك والأمراء من كان يعمد إلى التنكيل بالنبي في هذه الحالة ليثبت للناس كذبه وانه لم يأت من عند الله ، اذ كان موت النبي الكاذب احدى العلامات على بطلان دعواه .

ولعلنا نصف الحالة حق وصفها حين نقول ان القوم كانوا يبحثون عن الانبياء ، ويترقبونهم ولا يعتبرون ظهورهم خارقة يستهولونها أو يستغربون تكرارها ، وان الانسان المتهيء للنبوءة كان يخشى أن يسكت عن الدعوة متى جاشت ضمائره بحوافزها وألحت عليه أياماً بعد أيام ، حتى يصبح السكوت في حكم سريرته عصياناً لأمر الله ونكولاً عن ارادته ، ومتى استقر في سريرته أن طلب الآية تجربة لله وضعف في الايمان فأسلم الأمور عنده حين تجيش فيه بروح الله أن ينذر ويبشر ، وعلى الله بعد ذلك أن يثبت نبوءته وأن يهديه ويهدي الناس اليه كما يشاء .

* * *

وفي عصر الميلاد ، ذلك العصر الذي ترقبت فيه النفوس بشائر الدعوة الالهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكباً حان موعد طلوعه لا جرم تتفتح الآذان لصوت المبشر الموعود ، ولا جرم كذلك أن يكون البرهان المطلوب منه على قدر الرجاء في الخير المنتظر ، وأن يمتحنه الناس فيعسروا غاية العسر في امتحانه ، خوفاً من سهولة الدعوى على الأدعياء ، وخوفاً من بطلان الرجاء في ابان اللهفة على الرجاء ، فهو رجاء عظيم يعلقه المرتجون على برهان عظيم ..

الطوائف اليهودية في عصر المسيح

كان العالم اليهودي في العصر الذي ولد فيه السيد المسيح يشتمل على طوائف مختلفة ، لكل منها مذهبه في انتظار المسيح المخلص الموعود .

والتعريف بهذه الطوائف ضروري لتقرير مكان العقيدة الجديدة بين العقائد التي سبقتها في بيئات بني اسرائيل .

وضروري من جهة أخرى لأنه — فيما نرى — أقوى دليل يرد به على الناقدين المحدثين الذين ظهروا منذ القرن الثامن عشر وجمحت بهم شهوة النقد والتشكيك حتى جاوزوا الشك في النصوص والروايات إلى الشك في وجود السيد المسيح نفسه ، كأنه في زعمهم شخصية من شخصيات الأساطير . وتسقط دعوى هؤلاء الناقدين بمجرد الاحاطة بأصول المذاهب التي كانت معروفة في عصر الميلاد ، لأن الدعوة المسيحية كانت تعديلاً لكل مذهب من هــذه المذاهب في ناحية من نواحيه ، وكانت هذه التعــديلات في جملتها تثوب إلى وحدة متماسكة من القواعد والمثل العليا ، لا بد لها من « شخصية » مستقلة عن هذه المذاهب جميعاً ، قادرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متناسق الفكر والايمان .

ونكتفي من الطوائف الدينية التي كانت معروفة في عصر الميلاد بخمس منها ، وهي طوائف الصدوقيين والفريسيين والآسيين والغلاة والسامريين ، وكل طائفة من هذه الطوائف الخمس مهمة في تاريخ العصر بمزية من المزايا التي تتوقف عليها قوة المذاهب الدينية .

فالصدوقيون هم في دعواهم أتباع « صدوق » وأسرته الذين تواترت

الروايات بأنهم كانوا يتولون الكهانة في عهد داود وسليمان .

وكانت طائفتهم مهمة بمراكز أصحابها ، لأنهم على الجملة أنصار المحافظة والاستقرار وأصحاب الوجاهة والثراء .

وقد كانوا متشددين في انكار البدع والتفسيرات ، متشبثين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويقبلون أقدم الكتب التي احتوتها التوراة وهي كتب موسى عليه السلام ، ويرفضون ما عداها ولا سيما المأثورات المنقولة بالسماع .

* * *

وتدعوهم المحافظة على النظام القائم إلى مسلك يناقض عقيدتهم فيما هو ظاهر من لوازمها . فقد كانوا أقرب اليهود إلى الأخذ بالحضارة اليونانية وعادات المعيشة في البيئات الرومانية ، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب الفلسفية كمذهب أبيقور كما كان مفهوماً في ذلك العصر ، وقد كان الشائع عنه يومئذ انه مذهب اللذة الحسية والمتعة بالترف والنعيم ، ولكنهم في الواقع لا يناقضون سنتهم وسنة أمثالهم في كل زمن فانهم يحافظون على نظام المجتمع لأنهم أصحاب اليد الطولى عليه ، ولهذا يحبون متاعه ونعيمه ويوفقون بينهم وبين أصحاب السلطان السياسي وقد كانوا يومئذ من اليونان والرومان ، ويملي لهم في هذه النزعة انهم يؤمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة ، خلافاً للطوائف الأخرى التي تؤمن بالبعث والحساب .

وقد كانت الحملة على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين وهما : « حنانيا » و « قيافا » ، ولم يكن في ذلك عجب ، لأن الصدوقيين جميعاً يحافظون على سلطان الهيكل ويحافظون على النظام القائم أو لا يستريحون إلى الثورة والانقلاب .

وخلاصة الآداب الصدوقية انهم حرَفيون في مسائل الدين متوسعون

في مسائل المعيشة ، وانهم يعاشرون الأجانب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم ، لأن أعمالهم ومراكزهم متصلة بذوي السلطان .

وتقابل الصدوقيين طائفة أخرى هي طائفة الفريسيين ، وهي أقوى من الطائفة الصدوقية بكثرة العدد وشيوع المبادىء والآراء ، وحسن السمعة بين سواد الشعب وعلية القوم الذين لا يخالطون الأجانب ، وان لم يكن بين أفرادها كثيرون في مرتبة الرؤساء والوجهاء .

واسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تقارب كلمة « الفرز » العربية في لفظها ومعناها ، فهم المفروزون أو المتميزون وخصومهم يطلقون عليهم هذا الاسم تهكماً وتحقيراً لاعتقادهم انهم فرزوا أنفسهم عن السلف واعتزلوا طريق الجماعة الأولى . أما هم فقد كانوا يطلقون لقب الفريسيين أو المفروزين على أنفسهم ويردونه إلى خطاب الله لبني اسرائيل جميعاً كما يروونه في الاصحاح العشرين من سفر اللاويين ، فهناك يخاطب الله الشعب قائلاً : « وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي » ، فهم عند أنفسهم المميزون المفضلون..

* * *

لهذا كانت تلازمهم في بعض الأحيان صفات الادعاء والتعالي التي تلازم كل طائفة تستأثر لنفسها بالمزية بين الطوائف الأخرى ، وكان بعضهم هدفاً لحملات السيد المسيح تنديداً بما يظهرونه من الثقة والكبرياء .

على أنهم كانوا يقابلون بهذه الكبرياء كبرياء الوجاهة والثروة التي كانوا يستنكرونها على خصومهم الصدوقيين ، وكانوا يثورون على السلطان « الرسمي » حيث كان في الهيكل أو في المراجع الأجنبية ، فكانوا ينكرون على الكهان استبدادهم بالشعائر والمراسم ، وينكرون في الوقت نفسه عادات الأجانب والمتشبهين بهم محاكاة للحكام والمتسلطين .

وقد كانت ثورتهم الأولى ثورة على البدع الأجنبية التي كانوا يرفضونها كل الرفض ولا يسامحون من يقبلها ، فلما أمر الملك « أنطيوخس » كاهن الهيكل أن يضحي في مذبحه بالخنازير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد) قاموا قيامة

رجل واحد وعرضوا أنفسهم للموت بالمئات والألوف كراهة لهذه البدعة النجسة ، وحدث في عهد الرومان أن الوالي « بترونيوس » عجب من عنادهم في مقاومة الدولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها فسأل زعماءهم : كيف يخطر لكم أن تحاربوا قيصر ولستم أكفاء لربه ! فقالوا : نحن لا نحارب قيصر ولا نزعم أننا أكفاء لقوته ، ولكننا نموت على بكرة أبينا ولا نخالف الشريعة ، وكشفوا رقابهم مستعدين لإثبات ما يقولون ..

* * *

ومن نقائضهم أن ثورتهم على استبداد الهيكل ورغبتهم في تعميم الشعائر التي كانت محصورة في المحاريب هي التي دعتهم إلى إقامة هذه الشعائر في البيوت بغير حاجة إلى الكهان المرسومين ، ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا من كل بيت هيكلاً مقدس المراسم .. فكانوا على ميلهم إلى السماحة ومقاومة الاستبداد « الرسمي » أشد من المتشددين . .

إلا أن الغالب عليهم حين يبتعدون عن الأمور التي تتعرض لهذه النقائض أنهم أقرب إلى التصرف والقياس ، أو أقرب إلى تحكيم العقل في مسائل النصوص والتقاليد ، فكان الصدوقيون مثلاً يصرون على شريعة العين بالعين والسن بالسن ولا يقبلون الدية ، وكان الفريسيون على عكس ذلك يفضلون الدية والمسامحة على القصاص ، وكان الصدوقيون أقرب إلى المادية والقواعد العملية وكانوا هم أقرب إلى الروحانية والآداب النظرية أو آداب التأمل والتفكير ، وقد كان انكار البعث والحياة الروحية أشد ما ينكرونه على خصومهم الصدوقيين ، ومن أجل هذا سبقوهم مراحل إلى انتظار الخلاص أو انتظار المسيح المخلص في عالم الروح ، غير مقيد بشرط الصولة والصولجان .

وإذا وصف الصدوقيون على الإجمال بأنهم طبقة « الارستقراطيين » فالذين يستحقون وصف الديمقراطيين دون غيرهم من طوائف اليهود في ذلك العصر هم الفريسيون ..

وقد جاء عصر الميلاد وهم ينقسمون إلى فريقين : فريق منهما يتبع

الحكيم « هلل » الذي قدم إلى فلسطين من بابل وهو الفريق السمح الودود في معاملة الأجانب ، والفريق الآخر يتبع الحكيم « شماي » وهو أقرب إلى التحرج والتضييق ورد الراغبين في دخول الدين من غير اليهود ، وكان شعار هلل الاعتدال بين الزهد والمتاع وكلمته المأثورة : « ان الزيادة في اللحم زيادة في الدود » ، وشريعته في المعاملة أن الشريعة كلها كلمة واحدة وهي ألا تصيب أحداً بما تكره أن تصاب به ، وكل ما عدا ذلك من الأحكام المنزلة فهو تفسير وتفصيل ، وأما الحكيم « شماي » فقد كان الاعتدال بين الزهد والمتاع أكثر مما يطيق ، وروي انه كان يحترف النجارة ليعيش من كسب عمله ، وان غيرته على القديم كانت أقوى من اقباله على التجديد والتصرف في تأويل النصوص ..

والقول الراجح بين المؤرخين أن معلمي السيد المسيح في صباه كانوا من طائفة الفريسيين ..

* * *

والطائفة الثالثة التي تقل عن هاتين الطائفتين في العدد كثيراً وتساويها أو تزيد عليها في القوة والأثر هي طائفة الآسين أو الأسينيين كما يكتبها رواة الأخبار عنها في عصر الميلاد .

عددها كما قدره المؤرخ يوسفيوس والفيلسوف فيلون لا يزيد على أربعة آلاف يعيش أكثرهم في جنوب فلسطين .

ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة .. وقد تكون دلالتهم أعظم من قوتهم ، لأنهم طائفة من صميم الأمة الاسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها وأوشكت أن تستقل عن « الهيكل » كله في علاقتها بالدين والقومية ، ولولا انها تعترف بتقريب القرابين في الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود ، ولكنها مع هذا تنكر ذبح الحيوان ولا تقرب القرابين من غير النبات .

واسم هذه الطائفة مختلف عليه ، ولكن الراجح من الأقوال المتعددة

ان الاسم مأخوذ من كلمة «آسي» بمعنى الطبيب أو النطاسي في اللغة الآرامية، وهي تفيد هذا المعنى في اللغة العربية التي تعد اللغة الآرامية أقرب اللغات السامية اليها، ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسين لأنهم كانوا يتعاطون طب الروح ويدعون ابراء المرضى بالصلوات والأوراد، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير.

وقد نشأت الطائفة على الأغلب بالاسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد، واقتبست من مدارس الاسكندرية كثيراً من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية، كمذهب فيثاغورث الذي يحرم ذبح الحيوان، ويدعو إلى التقشف والقناعة بالقليل..

وكان حراماً عند أبناء هذه النحلة أن يملك أحدهم ثوبين أو زوجين من النعال أو يدخر الأمتعة والأقوات، وكانت الرهبانية غالبة عليهم إلا من أذن له بالزواج ويعفى من قيود النسك والبتولة..

* * *

وكانوا ينتظمون في النحلة على ثلاث درجات: درجة التلمذة ويقبلون فيها الصبيان فيما دون الحلم، ثم درجة المقسمين وهم الذين يقسمون اليمين ويقضون سنة في الرياضة والتدرب على العبادة والاطلاع على الأسرار، ثم ينقل المريد إلى درجة الواصلين ويقضي فيها سنتين، ثم يلبس شعار الطائفة وهو ثوب أزرق وزنار ويحمل الفأس في يده، كناية عن العمل الشاق، ولهم بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية شعائر متواترة يقوم بها الأساتذة، منها الاغتسال، وتلاوة بعض العهود، ويقسم أحدهم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة، ويحرم عليه القسم بالحق أو الباطل مدى الحياة، ويجوز فصل العضو بعد رسمه إذا حنث في يمينه واتفق مائة من الاخوان على ادانته، بل يجوز الحكم عليه بالموت إذا بلغ الحنث حد الخيانة والكفر بقواعد الايمان..

وهم يتطهرون من الحدث، ويصلون عند الفجر، ويحافظون على

الراحة في يوم السبت ، ومنهم من لا يستبيح في ذلك اليوم ازالة الضرورات ..

وليس بينهم رئاسة ولا سيادة ، والرق عندهم حرام ، وعملهم المفضل الزراعة والصناعة اليدوية . أما التجارة فهي في مذهبهم عمل خبيث أو غير لائق ، وأخبث منها حمل السلاح للقتال .

والمادة عندهم مصدر الشر كله ، والسرور بها سرور بالدنس والخيانة ، وكان يغلب عليهم من أجل هذا وجوم الصمت والندم وكل ما يباح لهم من السرور فهو سرور الروح أو سرور الاتصال بعالم الأرواح ، وهو عالم سماوي في أعلى الأثير يرتفع اليه المؤمن بالعبادة والرياضة والقنوت .

وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين في رحلاتهم ، وقلما كانوا يشاهدون في المدن الآهلة بالسكان أو في الأحياء التي يرتادها القصاد للفرجة وازجاء الفراغ .

وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص ، معتقدون أن الخلاص بعث روحاني يهدي الشعب إلى حياة الاستقامة والصلاح ، ورائدهم في طلب الرضا من الله هو النبي عاموس الذي كان يعلم الشعب أن التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب إليه بالذبائح والهدايا .

ولا يبعد أن يكون الغلاة أو الجليليون أتباع يهودا الجليلي فرقة متطرفة من فرق الآسين ، لأنهم يسلكون مسلكهم في التقشف والقناعة ويزيدون عليهم بالحض على العمل لتحقيق النبوءات وتقريب يوم الخلاص ، وهم الذين ثاروا ونظموا العصابات في السنة السادسة أو السابعة قبل الميلاد وتمردوا على أمر الاحصاء الذي صدر من « كرينياس » حاكم سورية وأصبح اليهود بموجبه معدودين من رعايا القيصر ، أو عبيده الذين يدينون له بالسيادة . وحجتهم أن طاعة القيصر من عبادة الأوثان ، وان احصاء الشعب لاعتباره من عبيد القيصر مروق به من الديانة. ولما رفع الملك هيرودس تمثال النسر القيصري فوق هيكل بيت المقدس ذهب اثنان من الغلاة إليه وانتزعاه عنوة وأنذرا اخوانهما من يعيده إلى مكانه بالموت ، وقد ثار هؤلاء في سنة الاحصاء بقيادة

يهودا الجليلي ومات هو وأبناؤه وذووه في ابان الثورة ، وكانت الدولة الرومانية تحذر الفتنة في هذه البقعة المتوسطة بين القارات الثلاث ، فكانت تؤثر التقية والمداراة في معاملة الثائرين ، ولا تأخذهم بالقمع والسطوة إلا إذا ضاقت بها سبل الحلم والاناة ..

والطائفة السامرية خليط من اليهود والأشوريين كانوا يقيمون في مملكة اسرائيل القديمة ، يقال انهم قبائل أشورية أرسلها ملوك بابل إلى فلسطين ليسكنوها في أماكن القبائل اليهودية التي نفيت إلى ما بين النهرين وسميت من أجل ذلك بسبايا بابل ، ويقال إنهم اختلطوا باليهود الذين بقوا في بلادهم ولم تحملهم الدولة البابلية إلى بلادها مع القبائل المسبية ، فوقع من هذا الاختلاط في السكن والنسب اختلاط في العادات والعبادات ، وعاد اليهود الذين رجعوا من السبي بعد سقوط بابل فأنكروا من السامريين شعائرهم المخالفة لتقاليدهم واتهموهم بعبادة الأوثان ، ورفضوا مشاركتهم في بناء الهيكل الجديد ، فعمد السامريون إلى بناء هيكل خاص لهم في جرزيم وجعلوا يتعمدون أن يدنسوا هيكل بيت المقدس ويحصروا القبلة في هيكلهم ومثابة حجهم وعبادتهم . وقد بقي منافساً لهيكل بيت المقدس زهاء مائتي سنة حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس حناهير كانوس قبل الميلاد بأكثر من مائة سنة ، ولكنهم أعادوا بناءه وظل قائماً حتى هدمه الرومان بعد ثورة السامريين في القرن الخامس للميلاد ، وقد هدم فسباسيان مدينتهم وأقام على أنقاضها مدينة سماها المدينة الجديدة « نيوبوليس » أو نابلس المعروفة اليوم ، ولا تزال بقايا السامريين تحتفظ بتقاليدها وتعتمد على نسخة التوراة المكتوبة بلغتها ، ولا تعترف بكتاب بعد الكتب الخمسة التي تعرف بالكتب الموسوية ، ولا تدين بعاصمة مقدسة غير موطن هيكلها المهدوم جرزيم ، وقد استحكم العداء بين أصحاب الهيكلين في عصر الميلاد حتى بطل الأمان في السفر بين السامرة والبلاد الأخرى ، وتعرض للاهانة والنكال كل من خاطر بالسفر إلى السامرة من يهود الجنوب أو الشمال .

* * *

ومن المحقق أن هؤلاء السامريين كان لهم شأن في تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود ، ويرجع شأنهم هذا إلى النزاع القديم بين مملكة يهودا في الجنوب ومملكة اسرائيل التي ورثها السامريون ، وهم ينسبون إلى يعقوب ويدعون انهم دون غـــيرهم الجديرون باسم « الاسرائيليين » .

فإذا اعتقد أصحاب مملكة يهودا في الجنوب أن عاصمتهم — بيت المقدس — هي مقر الملك المنتظر ، وأن هذا الملك المنتظر سيكون من سلالة داود فهذا الاعتقاد يرضيهم ويرد المجد إلى دولتهم ويجعل الخلاص على أيديهم ، ولكن السامريين أبناء الشمال كانوا يلجون في عدائهم لداود وذريته ويثيرون النزاع القديم بين الأسباط ، وينكرون على الأقل عقيدة الخلاص على يدي ملك من أسرة الملك في يهودا ويفتحون بذلك السبيل إلى الإيمان بالخلاص الروحاني والهداية الشعبية ويزعزعون الثقة في أحبار الهيكل الجنوبي وفيمن عسى أن يبايعوه بالملك ، إذا حان الموعد المقدور ..

* * *

ولم تخل البلاد جميعاً — مع هذا — من أناس هنا وهناك يئسوا من جميع الطوائف والنحل واعتزلوا الدنيا وعاشوا في الصوامع بمعزل عن العمران ، وارتفع شأنهم في أعين الشعب لسوء ظنه بالدعاة المغامسين للدنيا في بيئات الساسة والكهان ، ومن هؤلاء « بانوس » الذي تتلمذ عليه يوسيفيوس المؤرخ الكبير ثلاث سنوات . وكان هذا الناسك الثائر يعيش في عزلة ويأكل مما يتفق له بغير سعي ولا مسألة ، ويكثر من التطهر بالماء والتزكي بالرياضة والتلاوة ، وكان على مثال بانوس نساك متعددون يشبهونه في شعائر الاعتزال والاغتسال ، وأشهرهم يحيي المغتسل المعروف في الأناجيل باسم يوحنا المعمدان .

أما موقف الهيكل من هذه الطوائف والفرق فهو الموقف « الرسمي » المعهود .. وأما موقف المسئولين الذين يحاولون أن يتجنبوا التحيز لهذا أو ذاك ، ويجتهدون غاية اجتهادهم أن يكسبوا ثقة الشعب ولا يغضبوا سلطان

الدولة ، وقلما يتيسر النجاح في هذه المهمة ، ولا سيما في أوقات القلق والتطلع والتبرم بكل موجود .

كان الهيكل خيمة في عهد البداوة ، وكان الشعب يعتقد قديماً أن الله يتجلى في هذه الخيمة للأنبياء والكهان ، ثم بنيت الخيمة من خشب يفلك وينقل في أيام التيه ، ثم أقام سليمان الحكيم هيكله بديلاً من الخيمة والمعبد الخشبي ، وقيل إنه أنفق على بنائه مائة ألف وزنة من الذهب ، وألف ألف وزنة من الفضة غير ما جمعه أسلافه وأعقابه ، وبلغت تكاليف بنائه بحساب أيامنا الحاضرة نصف مليار من الجنيهات وضعف ذلك في حساب الآخرين حسب تقدير المثقال في المعاملات الرسمية وغير الرسمية ، وعظمت هيبة الهيكل وارتفعت أقدار كهانه وأحباره ردحاً من الزمن ، ثم هدمه البابليون بعد أن قام في مجده أكثر من أربعة قرون ، ثم أمر كورش الفارسي باعادة بنائه في سنة ٥٣٦ قبل الميلاد ، وجاء الملك هيرود بعد خمسة قرون فجدد بناءه وأضاف إليه ، وتم ذلك أو كاد في عصر الميلاد ..

لكن الهيكل بعد تقلب العصور وسيطرة الدولة على مناصب الكهانة خسر من المكانة بمقدار ما كسب من الفخامة ، وبدأ عصر الميلاد وسلطان الهيكل يتداعى في الحقيقة الواقعة ويتمكن في الصورة الظاهرة : يتداعى لأنه يقوم على غير ثقة ، ويتمكن لأنه كان الموئل الوحيد الذي بقي لقومه بعد زوال ملكهم واليأس من اعادة ذلك الملك ، مع غلبة الرومان على المشرق والمغرب في عصر الميلاد .

* * *

وقد كانت وظائف الهيكل كلها محصورة في أصحاب الكهانة ، وهي وظيفة دينية كانت موقوفة على سلالة هارون أو قبيلته لا يتولاها غيرهم من أسباط اليهود ، ومن أعمالهم في الهيكل إمامة الصلاة والإفتاء في مسائل الفقه وتقديم الذبائح والخدمة الدينية في الأعراس والمآتم والعناية بالآنية المقدسة ، وقد تزايد عددهم مع الزمن حتى قيل ان القائد زربابل (أي المولود

في بابل) كان معه عند عودته من البلاد البابلية نحو أربعة آلاف وثلثمائة كاهن غير السابقين والمتخلفين ، ولهذا كانوا يقسمونهم إلى فرق تقوم كل فرقة منها بالخدمة أياماً من الشهر ويقتسمون جميعاً في النذور والمرتبات ..

ولما تطاول الزمن وتكاثرت ذرية هارون وجد منهم ألوف بغير علم وبغير عمل ، يتعاطون صناعة الكهانة ويقتسمون النذور ولا يشتركون في تعليم الشعب ولا في إقامة الصلوات ، ووجد إلى جانبهم أناس يعرفون الكتابة ويسجلون الأسفار الدينية ولا نصيب لهم من وظائف الهيكل ولا من نذوره وأوقافه وهؤلاء هم جماعة « الكتبة » أو فقهاء الدين ، وكانوا جميعاً من الفريسيين لأنهم هم الذين يقبلون الأسفار الحديثة ويعتمدون عليها في العبادات والمعاملات ، خلافاً للصدوقيين الذين كانوا — كما تقدم — يقصرون تلاوتهم على الكتب الموسوية الخمسة ويرفضون كتب الأنبياء من بعدها ولا يعتمدون من ثم على جماعة الكتبة والفقهاء .

* * *

فلما جاء عصر الميلاد كان كثير من الكهان يشتركون في صناعة الكهانة ولكنهم لا يعملون في الهيكل ، وكان كثير من الكتبة والفقهاء يشتركون في العلوم الدينية ولكنهم لا يحسبون من رؤسائه الوراثيين ، وشاع بين الشعب اهمال الكهانة في المسائل الدينية التي تحتاج إلى التعليم والافتاء على الخصوص ، وشاع بين الشعب كذلك الاقبال على العلماء « غير الوراثيين أو غير الرسميين » لسؤالهم في المعضلات والاقتداء بهم في مسالك الحياة ، فأصيبت المكانة « التقليدية » بضربة قوية وانفسح الطريق للدعوة الدينية غير مصحوبة بالمراسم « الكهنوتية » والشعائر « الهيكلية » على الخصوص ..

وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشهر الروايات مصفاة في المجمع المقدس الذي يطلق عليه اسم « السنهدرين » وعدد أعضائه واحد وسبعون عضواً منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المخصوص وتغلب عليه الصبغة الرسمية التقليدية ، ويتصل أعضاؤه برجال الدولة في الشئون

العامة وما يرجع منها إلى تنفيذ الأحكام والمحافظة على الشريعة المحلية أو الشريعة الموسوية .

وعلى حسب المألوف يحاول أصحاب المناصب في « السنهدرين » أن يرجعوا بأصله إلى أقدم العهود ، وكانوا يزعمون أنه هو المجلس الذي ورد ذكره في سفر العدد إذ يقول : « فقال الرب لموسى اجمع إليَّ سبعين رجلاً من شيوخ اسرائيل الذين تعلم أنهم شيوخ الشعب وعرفاؤه وأقبل بهم إلى خيمة الاجتماع فيقفوا هناك معك ، فأنزل أنا وأتكلم معك وآخذ من الروح الذي عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمله أنت وحدك » ..

غير أن المراجع التاريخية ومراجع الكتب الدينية نفسها تخلو من ذكر السنهدرين ، إلا اشارة عابرة هنا وهناك لا يستفاد منها تقدير عدده ولا تفصيل حقوقه ووظائفه ، ومما لا ريب فيه أنه المجلس الذي كان في عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم في الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثاني بنحو أربعين سنة ، وكانت أحكامه الكبرى في أيام المسيح معلقة على اقرار الحاكم الروماني يبرمها أو ينقضها حين يشاء .

* * *

وإذا نظرنا إلى موقف هذه الهيئة من بشرى « المسيح المنتظر » لم نكد نرى فيها باعثاً إلى الترحيب بتلك البشرى ، لأنها تتضمن الحكم بفساد الزمن كله واليأس من صلاحه واتهام القائمين على شئون الدين بين أهله ، ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تتنكر لهذه الدعوة لأنها هي باب الأمل الوحيد في وجه المؤمنين والمترقبين ، فهي في موقف الخائف من رجاء الشعب كله أن يتحقق على غير يديه ، أو موقف من يتأهب للبطش بالدعوة على قدر الاقبال عليها ومخايل الأمل في شيوعها وانتشارها ، وهي إذا انتشرت لم يكن انتشارها في مثل ذلك العهد مقصوراً على الدهماء دون غيرهم ، لأن الفقهاء والعلماء والمتعلمين كانوا من الفريق الذي يستريب بالكهان ولا يأبى أن يصدق فيهم

أنهم كهان فاسدون مفسدون ، لأنهم — آخر الزمان — هم الذين تدركهم صيحة النذير وينصب لهم ميزان الحساب ..

ولا يستوفى الكلام على القوى الدينية التي كان لهـا عمل محسوس في موطن السيد المسيح قبيل ميلاده عليه السلام بغير الاشارة إلى طائفة النذريين أو المنذورين الذين وهبوا أنفسهم أو وهبهم أهلوهم لحياة القداسة وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود : يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب .

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التي تجمع بين أصحاب النحل والمراسم الاجتماعية ، ولكنهم كانوا آحاداً متفرقين ينذر كل منهم نفسه أو ينذره أهله على حدة ، ولا ينتسبون إلى جماعة واحدة غير جماعة الأمة بأسرها .

والكلمة باللغة العربية ترجع إلى مادة تفيد معنى التجنيد واستعيرت إلى ما يظهر للجهاد في سبيل الدين ، يقال نذر الجيش الرجل جعله نذيرة أي طليعة ، وربما كان من عمله أن ينذر قومه بالعدو ويبعدهم عن المخاطر والمفاجآت ، ولا شك ان المادة تدور حول هذا المعنى في العبرية مع اختلاف الحروف والأوزان .

* * *

ولا يشترط في النذريّ أو المنذور أن يهجر العالم ويعتزل الناس في الصوامع ولكنه يراض على حياة التنطس فلا يجوز له شرب الخمر ولا أن يدنس جسده بملامسة الموتى أو الأجسام المحرمة ، وعليه أن يرسل شعره ولا يحلقه قبل وفاء نذره إن كان منذوراً لأجل مسمى ، وقد ينذر الطفل قبل مولده ويمتد نذره طول حياته ، ويقال عن المنذور إنه بمثابة النبي في سن الفتوة ، قال النبي عاموس بلسان يهوا إله بني اسرائيل : « وأقمت من بينكم أنبياء ومن فتيانكم نذيرين ... لكنكم سقيتم النذيرين خمراً وأوصيتم الأنبياء أن يدعوا النبوءة » والنبوة هنا بمعنى الانذار بما سيكون ..

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد السيد المسيح لأنه وافق نهاية الألف

الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبري ، وهو الموعد الذي كان منتظراً لبعثة المسيح الموعود ، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة ومنهم من كان يقول إن اليوم الالهي كألف سنة كما جاء في المزامير ، وأن عمر الدنيا أسبوع إلهي ، تنقضي ستة أيام منه في العناء والشقاء ويأتي اليوم السابع بعد ذلك كما يأتي يوم السبت للراحة والسكينة . فيدوم ألف سنة كاملة هي فترة الخير والسلام قبل فناء العالم ، ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية Mellinnum ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام .

فالذين قدروا أن القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض إلى نهاية الألف السادسة ، ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود ، ولكنهم كانوا كغيرهم في انتظار رسول من عند الله كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة ، وكانت بداءة الألف الخامسة موعداً منظوراً أو منذوراً يكثر فيه النذيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحداً منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه ..

* * *

والمهم في أمر النذيرين بالنسبة إلى السيد المسيح أن النبي يحي المغتسل (يوحنا المعمدان) كان علماً من أعلامهم المعدودين وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليه ، وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين النذيري والناصري وهما في اللفظ العبري متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم أنه لم يكن من الناصرة بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط في كتب العهد القديم ، ولكن الأرجح في اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التي فتحها العبريون قديماً ، وانها كانت مرقباً صالحاً للاستطلاع لأن التلول التي تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج ابن عمير ، وبهذا تزول الصعوبة التي اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص ولا سيما الناظرين في اللغة اليونانية ، لغة الأناجيل ، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف اللساني فلا يفرقوا بين النسبة إلى المنذورين

والنسبة إلى النذيرة ، وبخاصة إذا كان أسم البلدة قد عرض له التصحف على ألسنة العبريين والغرباء على طول الزمن ، فنطقوه تارة بالصاد وتارة بالسين ..

وليس النذيرون طائفة موحدة كما أسلفنا ، ولكنهم ينتمون إلى كل مذهب يوافق حمية الشباب ، وهذا الذي جعلهم قوة ذات بال في عصر الميلاد خاصة ، لأنهم جميعاً فتيان معمورة قلوبهم بالأمل معقودة نياتهم على الاصلاح ، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح الموعود ويترقبون ظهوره للترحيب به والاصغاء إليه ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود ..

الحياة السياسية والاجتماعية

فتحت سورية وفلسطين للدولة الرومانية على يد القائد الكبير « بومباي » الذي قضى على ثورة العبيد الثالثة بقيادة « سبارتاكوس » المشهور ..

وقد حسبت هزيمة « سبارتاكوس » من العظائم التي أضافت إلى مجد بومباي وخلدت ذكره بين أبطال الرومان ، ولكن هذه العظائم تضفي على الأبطال والدول مجداً لا ينطوي على خير كبير .. فمن دلائل القوة أن تستطيع الدولة قمع فتنة كتلك الفتنة الجبارة التي لم يعرف لها مثيل في ثورات العبيد الأقدمين ، ولكنها ولا ريب دلائل القوة التي تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر ، فلو لم يكن في بنية الدولة صدع مخيف لما استطاع عبد أن يجمع سبعين ألف عبد ويقهر بهم جيوش رومة زهاء ثلاث سنوات ، ولولا خلل في كيان المجتمع لما اشتمل على أضعاف هذا العدد من الأرقاء المسخرين الذين ينظرون إلى مجد رومة نظرة الحقد ، ويجازفون بالحياة ليهبطوا به إلى الحضيض ..

* * *

وقد كان سبارتاكوس من أهل تراقية ولم يكن أول « عبد » شرقي ثائر على الدولة الرومانية ، بل سبقه رقيق آخر من البلاد الشرقية إلى الثورة في صقلية سنة (١٤٣ قبل الميلاد) واستطاع أن يقيم له عرشاً استقر في الجزيرة عشر سنين ، وهذه هي الثورة التي تجلى قائدها « أونس » لأتباعه في صورة النبي المرسل وفي شارة الملك المتوج بيد الله ، وكان أصله في سورية وكثير من أتباعه شرقيون .

وقد سبقت ثورة أونس السوري ولحقت بها ثورات من قبيلها لم تبلغ مبلغها من العنف ولم تخل احداها من صبغة دينية فيما تدعيه لقادتها ، وكانت واحدة منها في آسيا الصغرى تنشيء لها حكومة تسميها حكومة « الشمس » رمزاً إلى عبادة النور والحرية ، وتقيم هذه الحكومة والثوار المنهزمون في صقلية يعلقون بالألوف على أخشاب الصلبان ..

* * *

ولم يكن هذا الخطر الكمين خافياً على المصلحين من ساسة الرومان في الأجيال القريبة التي سبقت ميلاد السيد المسيح ، فأرادوا اصلاح العيوب الاجتماعية بالرجعة إلى الشريعة التي تقيد المواريث وتحرم زيادة الميراث على خمسمائة فدان ، وظن كايوس جراشس Grachus انه يعالج الآفة بانشاء طبقة جديدة من الصيارفة والتجار يحد بها من نفوذ النبلاء وأصحاب الضياع المتبطلين ، واضطر هو وأخوه إلى تموين المعوزين بأغذية تبيعها الدولة بأقل من تكاليفها ، ولكن عوامل الخراب كانت في تلك الأجيال أعمق وأفعل من عوامل العمار والصلاح ، فلما حاول يوليوس فيلبس في سنة (١٠٤ قبل الميلاد) أن ينظم الاقطاعات بتشريعاته الزراعية قال في خطابه « التفسيري » كما روى شيشرون :

« ان ملاك الأرض في مدينة رومة لا يزيدون على ألفين » .. وازدادت هذه الحالة سوءاً في عصر أوغسطس المجيد كما يوصف في التواريخ ، فآلت المستعمرة الافريقية إلى قبضة ستة من المتبطلين ، وفيها ألوف من الأرقاء المسخَّرين ..

وعصر أوغسطس المجيد هذا هو عصر الميلاد الذي قال فيه السيد المسيح في رواية الحواري متّي « ان للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكاراً ، وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه » .

والواقع انه كان عصراً مجيداً بقوة السيف دون كل قوة أخرى من القوى الانسانية ، وقد أخذت رومة من قوة السيف كل ما تعطيه : فتوح

واسعة وسطوة تصد الأعداء وتقمع الثائرين ، وألقت رومة بكل اعتمادها على هذه القوة فأصبحت لها سنداً لا غنى عنه ، وانتهت بها الحاجة إلى تلك القوة أنها ألقت بنفسها على مذبحها ، فباعتها حريتها وكرامتها .. وضيّعت الجمهورية في سبيل القيصرية المطلقة ، بل رفعت القيصر إلى مقام الربوبية المعبودة ، فخلعت على القيصر أوغسطس لقب إله ، وقررت عبادته مع الآلهة ورصدت له شهراً في السنة لا يزال معروفاً باسمه إلى اليوم ، وتتابعت بعده عهود القياصرة العسكريين من أمثال طراجان وهادريان وغيرهم من المتشبهين بهم ، حتى عز عليها آخر الأمر أن تجد القياصرة العسكريين .

* * *

وكان القانون والنظام فخر رومة الأول ، فضاع القانون مع السلطان المطلق ، وضاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين : ثروة وترف وطغيان من ناحية ، وفقر وضنك وهوان من ناحية ، ولا نظام للدول مع اختلال التوازن في المجتمع ، بل لا نظام للحياة نفسها ولا قيمة لها مع افراط النعيم حتى السأم من الحياة ، وافراط الشقاء حتى النقمة على الحياة ، فصدق في رومة كلها وصف السيد المسيح لذلك الرجل الخاسر الذي كسب العالم وضيع نفسه ، فضاع وأضاع .

ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية في فلسطين دفعة واحدة على أثر افتتاحها ، لأن التنازع بين الرومان والفرس لم يترك للبلاد قراراً في مدى عشرين سنة ، وانقسم رأي القوم وشعورهم بين الدولتين : منهم من يشايع الفرس ومنهم من يشايع الرومان ، واشتد التناحر بين الفريقين اشتداداً خرج بهم إلى ضراوة الوحشية في مناصب الدين فضلاً عن مناصب الدنيا ، ومن أمثلته أن أنصار الفرس تغلبوا على أنصار الرومان في بيت المقدس ، وكان أنصار الفرس يرشحون رئاسة الكهنة انتيجونس ابن اورسطبوتس . فقبض هذا بيديه على مزاحمه هيركانوس وقضم أذنه بأسنانه ، ليحول بينه وبين وظيفة الكهانة طول حياته ، إذ كانت هذه الوظيفة محرمة على المشوهين وذوي العاهات .

وكان في البادية الجنوبية من فلسطين زعيم مشهور بالحصافة والحزم على رأس قبائل الأدوميين ، عرف بفراسته وبعد نظره ان الكفة الراجحة في النزاع على فلسطين لدولة الرومان ، فانضوى إليها واستبسل في معونتها ، فكافأته على خدمته بتنصيبه ملكاً على اليهودية والسامرة والجليل حيث ولد السيد المسيح ، وكافأهم هو بالتمادي في محاكاة المدنية الرومانية ، وأوحت إليه حصافته أن يداهن السلطة الدينية ويداهن السلطة الدنيوية في وقت واحد، فتغالى في الغيرة اليهودية التي كانت قبيلته تدين بها على سبيل المداراة والمجاراة ، وتغالى في محاكاة الرومان والاغريق بالأزياء والمساكن والشارات والأسماء وتكفل باتمام بناء الهيكل على نفقته .. ثم تكفّل بترشيح رؤساء الهيكل من بين أعوانه « المترومنين » ان صح هذا التعبير ، لعلهم يدارون شططه في محاكاة الرومان ومجافاة التقاليد العبرانية ، كلما احتاج إلى التوفيق بين النقيضين .

* * *

ومع هذا الجهد المضني في التقريب بين الطرفين مات هيرود وهو مغضوب عليه أشد الغضب من أبناء دينه ، وحدث قبيل وفاته ان طائفة من الغلاة ثارت على مبانيه وأنصابه لتمسح منها معالم الوثنية ، فعقد لهم محكمة وأمر بأجناده فحملوه إلى المحكمة ، حيث قضى عليهم بالحرق وهم أحياء ! .. وقبض على الزعماء المحبوبين فحبسهم وأوصى أخته أن تقتلهم إذا مات ، قبل اعلان وفاته ، لتذهب حسرة الشعب عليهم بفرح الشماتة فيه ، فلا يمتعهم في ذلك اليوم بالفرح الذي ترقبوه .

وتمت البلية بتقسيم البلاد بين أبناء هيرود الثلاثة ، فوقعت الجليل — حيث ولد السيد المسيح — في حصة هيرود الثاني انتيباس ، ووقعت اليهودية في حصة ارخلاوس ، ووقعت مشارف الشام في حصـــة فيليب ، وكان من مراسم الولاية أن يذهب الملك إلى رومة ليتلقى عهد الامارة من يدي القيصر ، فهذا الذي يشير إليه السيد المسيح في مثله المشهور كما رواه الحواري لوقا حيث يقول ما فحواه : « كان انساناً شريف النسب ذهب إلى كورة بعيدة

ليأخذ لنفسه ملكاً ويرجع ... وأما أهل مدينته فكانوا يبغضونه فأرسلوا وراءه سفراءهم يقولون : « لا نريده ملكاً علينا .. » .

ولكن القيصر أقر الأبناء الثلاثة في ولاياتهم ، وخرجت البلاد ممزقة بين أبناء هيرود وحكومات النبطيين والمدن العشرة وقصدت رومة بهذا التمزيق أن تخيف ولاية بولاية وتلجئهم إلى التنافس بينهم في مرضاتها ، وتتخذهم جميعاً درعاً تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين .

* * *

ومن المتواتر — مع تصحيح تاريخ السنة كما سيأتي بعد — أن السيد المسيح ولد في أعقاب ثورة جائحة اشتعلت في أقاليم فلسطين اليهودية على الخصوص ، وأهدرت فيها دماء الألوف من الغلاة وأتباعهم لأنهم هبوا في وجه الدولة الرومانية محتجين على صدور الأمر بالاحصاء العام .. وليس الاحصاء بطبيعة الحال سبباً مباشراً لاشعال نار الثورة بين أبناء أمة مطمئنة ، ولكنه أشعل نار الثورة فعلاً لأنه أثار بين الاسرائيليين خاصة مشكلتين قديمتين من مشاكل فلسطين . احداهما ، مشكلة الاعتراف بملك غير « يهوا » الذي يؤمن الشعب اليهودي انه هو الإله وهو الملك ، وان مبايعة الشعب لغيره كفر وخيانة يعاقبه عليهما بالضربات والمحن ولا يغفرهما له إلا بعد كفارة تضيع فيها الأرواح والأموال ، فإذا دان اليهودي لملك غير « يهوا » أو غير مسحائه المختارين فهو مطرود من رحمة الله مستحق للعذاب والحرمان : وقد حسب الشعب الاسرائيلي أن الاحصاء مقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فرداً فرداً وتقييدهم عبيداً للقيصر مطالبين بعبادته وافتتاح الصلوات باسمه ، وكان فقهاء اليهود يذعنون للجزية وهي تؤخذ منهم عنوة عن طريق الالتزام الذي لا يخص الأفراد بالأسماء بل يؤخذ جملة على الأكوار والأقاليم ، ولكنهم كانوا ينكرون أداء الجزية من ناحية المبدأ أشد الانكار ، ويحكمون بكفر من يجيزها ويشترك في تحصيلها وينبذونه من الجماعة وينبذون معه من يعاشره ويتحدث إليه ، ولهذا دبروا مكيدتهم للسيد المسيح ليسألوه أمام جمهرة الشعب عن أداء الجزية هل يجوز أو لا يجوز .. فأرسلوا إليه تلاميذهم من

الهيروديين قائلين : « يا معلم : انك صادق تعلم بالحق ولا تبالي أحداً لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس . فقل لنا ماذا تظن ؟ .. أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا يجوز ؟ .. » فكان جوابه المشهور : « أروني معاملة الجزية ! .. » ونظر إلى الدينار الروماني فسألهم : « لمن هذه الصورة والكتابة ؟.. » فلما أجابوه انها لقيصر قال لهم : « أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .. » وأسكتهم جوابه لأنهم لا يرفضون العملة القيصرية مع وجود العملة اليهودية ، ولو كانوا يكسبونها ويدخرونها ما عدا طائفة منهم ، وهي التي ثارت عند تقرير الاحصاء العام .

أما المشكلة الأخرى التي أثارها تقرير الاحصاء فهي مشكلة الضريبة وعسف الجباة في تحصيلها ، فقد كان اليهودي يؤدي ضريبتين : احداهما للهيكل ، والأخرى للدولة ، وقد جاء في الأناجيل أن رسل الهيكل كانوا يطلبون ضريبة من السيد المسيح وتلاميذه ، وانه عليه السلام سئل مرة أن يؤديها فقال لتلميذه سمعان : « ما تظن يا سمعان ؟ .. ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية ؟ .. من بينهم أم من الأجانب ؟ .. » قال له التلميذ : « بل من الأجانب .. » فقال السيد المسيح : « إذن فان البنين أحرار » ولكنه عاد فأمر تلميذه بأداء الضريبة عنه وعمن معه من التلاميذ .

وقد كان أداء ضريبتين عبئاً فوق طاقة الفقراء ، ولكنه — مع العسف في تحصيل ضريبة الدولة — كان عبئاً لا يطيقه الموسرون فضلاً عن الفقراء ، لأن الدولة كانت تحصل الضريبة بطريق الالتزام والمزايدة . فإذا حان الموعد السنوي فتح باب المزايدة ومنح صاحب المزاد الراجح حق التحصيل طوال العام ، وكان الجباة أو العشارون يأخذون لأنفسهم شيئاً غير الذي يسلمونه للملتزم ، وكان الملتزم يأخذ لنفسه شيئاً غير الذي يسلمه لخزانة الدولة ، فكان المال المحصل يربى على ضعفي المال المطلوب .

ولهذا كانت طائفة العشارين بغيضة إلى الشعب وكان الشعب الاسرائيلي لا يغتفر لأناس منه أن يتجردوا لخدمة الملتزمين الأجانب ويبتزوا المال حراماً من أرزاق المعوزين ، ومن ثم كان انكارهم على السيد المسيح انه كان يخاطب

العشارين ويدخل بيوتهم ويستمع إلى مناجاتهم ، لكنه كان يستمع لهم ويوصيهم بالأمانة في الجباية ... يسألونه : يا معلم ! .. ماذا نفعل ؟ .. فيقول لهم : لا تستوفوا أكثر مما فرض لهم ، ويقول للجند الذين يصاحبونهم : لا تظلموا أحدا ولا تشوا بأحد ، واكتفوا بعلائقكم ، لأن الدولة كانت ترسل الجنود يجمعون طعامهم وعلائق مطاياهم من الناس ! ..

فلما صدر الأمر بالاحصاء العام توهم الدهماء أن الدولة لا تكتفي بما تحصله جملة وتنوي أن تزيد عليه ضرائب تستوفيها من الآحاد فرداً فرداً مع الشطط في تحصيل ضرائب الالتزام ، فاستجابوا داعي الثورة من الغلاة ، وغضبوا لعقائدهم كما غضبوا لأرزاقهم ، حين أمروا بالعودة إلى بلادهم ليسجلوا أسماءهم حيث ولدوا أو حيث يقيمون .

ومما لا خلاف عليه بين المؤرخين الشرقيين والأوربيين أن الحالة السياسية في فلسطين خاصة كانت على أسوأ ما تكون ، ولكنها على افراطها في السوء لم تبلغ مبلغ الحالة الاجتماعية في الدلالة على القنوط وعموم البلاء ، وحسب القارىء أن يتصفح الأناجيل كائناً ما كان اعتقاده فيها من الوجهة الدينية لكي تتمثل له حالة البؤس واليأس التي كانت ترين على القرى والمدن في أقاليم فلسطين ، ولا سيما اقليم الجليل الذي تواترت الروايات عنه ، فحيثما كتب الانجيليون رحلة من رحلات السيد المسيح بين القرى فهناك أخبار عن العجزة والمرضى الذين يتعرضون لطلب الشفاء بعد اليأس من كل علاج ، وبين هؤلاء مشلولون ومفلوجون ومجانين ومصابون بالخرس والصمم والعمى ويبس المفاصل والأطراف ، وبينهم من يقال عنه إن جسده تسكنه الشياطين أو يتناوب سكناه جملة من الشياطين بالليل والنهار ، وكان بعض هؤلاء المرضى أطفالاً وبعضهم من الشبان والكهول في مختلف الأعمار ، وهذا إلى أمراض البرص والنزيف والصرع الذي لا يقترن بالجنون .

وإذا كانت هذه هي الحالات البارزة فإلى جانبها ولا شك حالات أخرى دونها في الشدة والبروز تنم على الآفات الجسدية والنفسية التي فشت في ذلك المجتمع وتركته مهيض الأعصاب عرضة للسخط والهياج ، ويضاف إلى هذا

ان عصر الميلاد قد شهد في فلسطين طوائف شتى من الأساة الذين يطببون المرضى بالعلاج الروحاني ويعتمدون على قوة الايمان وطهارة المعيشة في التطبيب والعلاج ، وإذا قلنا ان عصر الميلاد قد شهد عصراً مهيض الأعصاب فنحن نلتفت التفاتاً خاصاً إلى هذه الظاهرة التي تشير إلى الحالة النفسية في جملتها ، فليس أحوج من عصر كذلك العصر إلى السكينة وثقة الايمان وليس أشد منه تعطشاً إلى التسليم والتطهير متى استراحت النفوس فيه إلى الهادي الذي يرجى على يديه التسليم والتطهير ، فلم يأت أوان الرسالة المسيحية حتى كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها وتعمل في وجهتها عمل الرواد السابقين ..

وقد كان أقوى هؤلاء الرواد يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان وان لم يكن هو الرائد الوحيد في طريق الرسالة والنبوة ، فجعل للتطهير رمزاً من الاغتسال بالماء ، وأثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد في زمنه وهو بلاط الملك هيرود ، فإنها البؤرة التي استبيح فيها الفجور بالمحارم والبناء بهن على غير شريعة وقتل الإخوة والأبناء وتدنيس العبادة والقداسة بالبذخ والجسارة على المنكرات ، فكانت جسارة النبي على التطهير كفؤاً لجسارة الطاغية الأثيم على الدنس والخيانة ، وقضي على الرسول أن يكون عاجل الرسالة في جملته الصراح وخرج من الميدان شهيداً يجر وراءه جثة ميت بقيد الحياة ، فإن جسد هيرود قد أكله الدود قبل دفنه ، وان عهده لقد وصف نفسه أصدق صفاته حين بذل رأس النبي هدية لراقصة مبذولة الجسد ، ولا جرم يكون عصر « يحيى المغتسل » عصر رسالة عاجلة أو عصر ارتياد وتمهيد : هجمة من هنا وهجمة من هناك ثم مبدأ المعركة التي تستوفي الميدان كله ، ولا تنحسم ما بين صباح ومساء ..

الحياة الدينية

بلغت الدولة الرومانية على عهد الميلاد غاية مداها ، ودخلت في حوزتها أمم العالم المعمور كله ، ما عدا الشرق الأقصى ، وأصبح من رعاياها أناس مختلفون في الجنس واللغة والعقيدة ، فشوهدت في رومة والاسكندرية ونابلس وبيت المقدس كل عبادة يدين بها البشر من تخوم الهند إلى الشواطىء الأطلسية وكثر الحديث بين الناس عن الأرباب والأديان والمذاهب والعقائد ، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدارس الحكمة والعلم إلى الاسكندرية ، وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة ، وتعود الناس أن ينظروا إلى الأمور نظرة عالمية وبخاصة بين أهل الدرس والتأمل والمطالب الروحية .

وأعظم من هذه النظرة العالمية أثراً في موضوعنا — عبقرية المسيح — ان عصر الميلاد قد شهد عدة موجات دينية تجري من الشرق وتغمر بلاد الدولة الرومانية نفسهاومنها العاصمة الكبرى ، خلافاً لما يسبق إلى الظن من غلبة العقائد تبعاً لغلبة القوة السياسية .

فلم تكن سيادة الدولة الرومانية على الشرق مقدمة لسيادة الديانة الرومانية كما جرت العادة في كثير من أطوار التاريخ بل حدث على نقيض ذلك ان عقائد الشرق هي التي غلبت على رومة وأتباعها ، وهي التي انتقلت من الأمم المحكومة إلى الأمة الحاكمة وجاءت المسيحية بعد ذلك فلم تكن استثناء من هذه القاعدة ، بل كانت تطبيقاً جديداً لها أعم وأوسع من كل تطبيق متقدم عليها .

وليس في الأمر مخالفة للسنن الطبيعية كما يبدر إلى الذهن لأول وهلة ، فإن سريان العقائد من الشرق إلى الغرب في تلك المرحلة كان هو السنة الطبيعية التي تؤيدها جميع الأسباب ولا يعوزها سبب واحد صالح للتعليل ...

* * *

كان اتخاذ النحل الشرقية موافقاً للقياصرة وموافقا للرعايا في وقت واحد ، فقد كان القياصرة يطمعون في الربوبية وكانوا يسمعون ان كهان المعابد في الشرق يعلنون حلول الألوهية في أجسام الملوك ويرشحونهم للعبادة ولم تزل المناداة بالاسكندر ابناً للإله « آمون » خبراً يتناقله المطلعون على سيرة ذلك الفاتح ويتشبّه به منهم من يطمح مثل طموحه ويفتح مثل فتوحه ، وجر هذا المطمع الغريب إلى فتنة عنيفة في وطن السيد المسيح حين تصدى الملك انطوخس — خليفة الاسكندر — يطلب الربوبية وسمى نفسه بالالهي أو صاحب الشارة الالهية .

وقد كان رعايا الدولة الرومانية خليطاً من الشعوب المختلفة ، وسرى هذا الاختلاط إلى الجيوش التي كانوا يسوقونها إلى المشرق ويتركونها فيه زمناً ثم يتعمدون ابقاءها ثمة بعض الأحيان اتقاء لمنازعاتها كلما أطالت البقاء في العاصمة ، ولم يكن من شأن هذا الخليط أن يتعصب لعبادات رومة أو يعرض عن عبادات غيرها فوافقه أن يتشبه بالمشارقة كما حدث في عهد الاسكندر — وأن يطلب الربوبية من القياصرة ! ..

ولم تزل سمعة الشرق عند الغربيين منذ القدم أنه هو مهبط الأسرار العلوية ، وانه تعلم من خبر السماء ما لا تعلمه الأمم الغربية ، وان كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب وينفذون إلى بواطن الديانات ، وكلمة السحر عندهم Magic منسوبة إلى المجوس ، والسحر البابلي في كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم إلى الزمن الحديث ، وتوقيت الزمن بالأسابيع التي يسيطر كوكب من الكواكب على كل يوم منها تراث شرقي موغل في القدم ، لا تزال بقاياه في التقويم الأوربي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ..

فلا عجب أن يؤخذ القوم بهذا السحر ، ويسلموا لأبناء الشرق بأخبار السماء وأسرارها ، ما دامت الأرض في أيديهم يحكمونها كما يشاءون ، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء ! ..

لهذا زحفت على العالم الروحاني نحلة « مثرا » ، ونحلة « ايزيس » ، ونحلة المتنطسين كما زحفت عليه نحلة أورفيوس اليونانية من آسيا الصغرى ، ومرجعها هي أيضاً إلى الشرق القديم .

* * *

وقد شوهدت آثار العبادة المثرية في أقصى أقطار الدولة الرومانية من المغرب : شوهدت في آثار السور الروماني بالبلاد الإنجليزية كما شوهدت في غيرها ، وشاعت العبادة بين شبان الجيش لأن « مثرا » كان شخصية مزدوجة تجمع بين صفتين محبوبتين : احداهما ، صفة النور الذي يبدد الظلام ، والحق الذي يمحق الباطل ، والأخرى صفة المناضل رب الجنود الذي قيل في كتاب المجوس المعروف بكتاب « الافستا » انه يسوق جحافله منتصراً لتغليب إله الخير أورمزد على إله الشر اهريمان. وهو كذلك إله محبوب عند غير الجنود كالرعاة والعاملين بالليل ، يعبده الرعاة والملاحون ويهتدون بنوره في أعمالهم الليلية ، ويعتقدون انه يولد في الجسد الآدمي كما يولد الفقراء في كهف مهجور ، ولهذا يتخذون له المعابد من الكهوف ، وربما حببه إلى العباد ذلك الحنين المعهود في الناس إلى استطلاع الأسرار والطموح إلى الترقي في درجات العلم بالمجهول ، فقد كانت لعباده درجات سبع يتنقلون فيها من درجة إلى درجة على أيدي الأئمة المختارين ، ويتعاطون الشعائر في كل احتفال سراً أو جهراً على ملأ من الصفوة المقربين ، ومنها تناول الخبز والخمر واعتبار الشهد المقدس الذي يوضع على اللسان رمزاً إلى حلاوة الإيمان .

واقترنت نحلة « ايزيس » المصرية بنحلة « مثرا » الفارسية في غزو بلاد الرومان واليونان ، فسماها اليونان « ديمتر » ونحلوها صفتها المصرية وهي صفة الأمومة الكبرى أو صفة الطبيعة الأم ، وكان عبادها يوحدون بينها

وبين القمر ويعتبرونها من ثم ربة البحر والملاحة ، ويرسمون لها صوراً جميلة تنم عن الطهارة والحنان وفي حضنها طفل رضيع يشع النور من وجهه رمزاً للأمومة والبر والبراءة ، وكان كهانها يحلقون رؤوسهم في الغرب ، محاكاة للكهنة المصريين ، وكان لها بينهم عابدون وعابدات يسمونها حامية البيت والأسرة ، ومن ثم شيوع عبادتها بين الرومان الذين اشتهروا بتقاليد الأسرة وتقديس حقوق الآباء ، ولا شك أن المراسم السرية التي تلازم نحلة « ايزيس » كان لها أثرها في تشويق الناس إلى انتحالها ، كما كان لها مثل هذا الأثر في عبادة « مثرا » وما شابهها من العبادات .

وخرجت من مصر أيضا نحلة قوية على قلة عدد المنتمين إليها ، وهي نحلة المتنطسين Therapeuts التي ذكرها الحكيم الاسكندري اليهودي فيلون ، وقال ان أتباعها كانوا يجتمعون يوم السبت ويتفرقون بعد ذلك في الصوامع للتأمل والدراسة الفلسفية ورياضة الروح والجسد واسمهم اليوناني معناه الاساة أو المتنطسون ، وأكثر صوامعهم كانت على مقربة من الاسكندرية حول مريوط القديمة ، ويظن بعض المؤرخين أن هؤلاء المتنطسين هم أساتذة النساك اليهود الذين يسمون الآسين أو الأسينيين ، وأشرنا إليهم في الكلام على فرق اليهود ..

ومما يلاحظ أن نحلة « اورفيوس » اليونانية لم يكن لها من الاشياع بين الرومان ما كان للنحل الشرقية الخالصة ، ولعلهم كانوا يحسبون « الأسرار الدينية » اختصاصاً للشرق القديم ويرجعون إلى اليونان في مسائل الفلسفة والفن والخطابة ، وبخاصة بعد أن تحولت الديانة « الاورفية » إلى ديانة شرقية تجري على سنة الشرق في التقشف والأخوة الروحية ، وقد نشأت الأورفية اليونانية نشأة فنية ، وقيل في وصف أورفيوس انه كان يعزف على أوتاره فيقبل عليه الوحش والنعم والطير ، وتنسى ضراوتها وهي تصغي إليه ، ثم أصبح التأليف بين الضواري والنعم رمزاً إلى التأليف بين القلوب وانتزاع الشر من نفوس الأقوياء . وجاء عصر الميلاد والاورفيون يدينون بالزهد والتقشف ويحرمون اللحوم ويلبسون الثياب البيضاء ولا يذوقون الخمر إلا في مواسم القربان ،

واحتفظوا بعقيدة اليونان الأقدمين في أساطيرهم عن أورفيوس الفنان فزعموا انه يزور عالم الموتى ويعود منه ، وجعلوا لهم موعداً يحزنون فيه على موته وموعداً يحتفلون فيه ببعثه ، وتشابه الاحتفال ببعثه والاحتفال ببعث أدونيس إله الربيع ، وكثيراً ما قيل في كتب المقابلة بين الأديان أن أتون الإله المصري وأدونيس الإله اليوناني وأدوناي بمعني السيد أو الرب باللغة العبرية أسماء عدة ترجع إلى مصدرها المصري القديم .

* * *

ومن الواضح أن هذه النحل التي كانت تصطفي الأعضاء والمريدين وتحتفظ بالعبادات والرموز للصلوات السرية لم تكن ديانات عامة تبشر الأمم كافة بظواهرها وخوافيها ، وإنما كانت في جوهرها أشبه بالروابط والجماعات التي تضم إليها المشتغلين بغرض واحد أو المتفقين في المزاج والعاطفة ، وكانت أقرب إلى الجماعات الفنية الرياضية التي تقوم على تخير الأذواق وتوحيد العلاقات بين الأشباه والنظراء ، فكان طلابها جميعاً من الشبان الذين يستطلعون حقائق حياتهم المجهولة ويعتقدون أو يرجحون أن هذه الحقائق سر من أسرار العلم والدراية يهديهم إليه الحكماء المجربون . وكان لها طلاب من الكهول والشيوخ بطلت عقيدتهم في الشعائر العامة وانصرفوا عنها إلى حيث يلتمسون الحقيقة ويشعرون براحة الضمير في جو من الألفة واتفاق المطالب النفسية والفكرية ، فمن لم تكن هذه النحل عنده حلقات رياضية أو فنية فهي عنده بمثابة الأندية التي تصون روادها من الاخلاط و « الاغيار » ولا سيما الاغيار من ذوي الجهالة والاسفاف .

ولكن الدلالة الكبرى التي تتجمع من شيوع هذه النحل في عصر الميلاد انها « أولاً » علامة على طلب الاعتقاد واحساس المخلصين المستعدين للايمان بما يحيط بهم من الخواء في جو التقاليد والمعتقدات .

وانها « ثانياً » علامة على الوجهة العالمية التي أخذت تسري في أنحاء العالم المعمور وتؤلف بين أبناء الأمم المختلفة في طلب العقائد الروحية ، لأن هذه النحل السرية لم تكن مقصورة على أمة ولم تكن محرمة على أحد من أجل

جنسه وأصله ، فكل من يفتح وجدانه لعقائدها وآدابها فهو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من أدناها إلى أعلاها .

أما جماهير الشعوب فلم تكن تحفل كثيراً بهذه النحل الخاصة المقصورة على طلابها ومريديها ، وكانت على دأبها سادرة في عاداتها ومألوفاتها ، ولكنها لم تخل في هذه العادات والمألوفات من وجهة عالمية تنزع الفوارق بين أتباع الديانات المختلفة وتضمهم جميعاً بين حين وآخر محافل الأعياد العامة التي تقام لهذا « الرب » أو لتلك « الربة » أو تتردد في مواسم الطبيعة بصبغتها التي كانت تمتزج على عادة الأقدمين ، وكانت سياسة الدولة الرومانية تساير هذا الشعور بل تشجعه وتحض عليه ، إذ كانت القاعدة الذهبية عند دهاقين السياسة من الرومان أن الشعوب لا تهتم بمن يسوسها متى وجدت الخبز واللعب بين يديها ، ومن اللعب الذي لا يكلف الدولة شيئاً أن تفرح جماهير العامة بالأعياد وتتسابق في المواسم والموالد وتصبغها كما تشاء بصبغة القداسة ، فذلك أسلم من التنازع والفتنة والصدام .

وجملة ما يقال عن الحياة الدينية يومئذ في العالم المعمور انها كانت حياة تقليد أو حياة تطلع ورغبة في الاعتقاد عن بحث وبينة آنفة من عقائد التقليد ، وانها كانت تجري في مجراها إلى « العالمية » التي تعم الناس ولا تخص كل أمة بعقيدتها على حسب جنسها وأصلها . وأهم من هذه « العالمية » في النحل والمحافل « عالمية » في اللغة والثقافة حطمت أقوى الحواجز التي كانت قائمة قبل ذلك زهاء عشرة قرون ، فقد كان العبرانيون يؤمنون أن العبرية هي لسان « يهوا » الذي يخاطب به الأنبياء ويناجي به الكهان في المحارب ، فلم يلبثوا أن قبلوا الدعاء واستمعوا إلى كتب الوحي باللغة الآرامية ، وما يشابهها من اللهجات السريانية ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية في القرن الثاني قبل الميلاد ، ثم استرسلت هذه الحركة إلى مداها في عصر الميلاد ومابعده ، فكانت الآرامية هي اللغــة التي بشر بها المسيح والتلاميذ ، وكانت اليونانية هي لغة الأناجيل ، وكانت السريانية هي لغة التوراة والانجيل معاً ولما ينقض أكثر من قرن واحد على مولد السيد المسيح ..

* * *

وأهم الظواهر التي تسجل في سياق الكلام على الشئون الدينية العامة قبيل الميلاد أن العقائد الوثنية كانت في حالة أشبه ما تكون بحالة التصفية قبل شهر الافلاس ، فقد روى المؤرخ سويتنوس أن القيصر أغسطس جمع في سنة « ١٢ قبل الميلاد » قرابة ألفي قرطاس من النبوءات والصلوات المكتوبة باللاتينية والاغريقية وأمر بها فأحرقت علانية ، واحتفظ بقليل من المخلفات المأثورة فوضعها في صندوقين مذهبين ونقلها إلى معبد الإله أبولون ، وفي هذا الخبر خلاصة أخبار العقائد الوثنية في ذلك الجيل ..

الحياة الفكرية

كانت المذاهب الفكرية التي يتحدث بها المثقفون شائعة في بلاد الجليل حيث ولد السيد المسيح وحيث اختلط الغربيون والشرقيون كثيراً قبل عصر الميلاد ببضعة قرون ، وأكثرها الفيثاغورية والابيقورية والرواقية ، وهي التي تعنينا فضلاً عن شهرتها ، لأنها هي المذاهب التي تتصل بالسلوك والاعتقاد، ومنها مذهبان ظهرا بين اليونان في عصر يشبه عندهم العصر الذي ولد فيه السيد المسيح ، وهما الابيقورية والرواقية ، فإن هذين المذهبين — على تناقضهما — رد فعل لحالة واحدة غمرت البلاد اليونانية بعد انتصارها على الدولة الفارسية ، وهي حالة الترف والبذخ واللهو والطغيان من جانب السادة وحالة النقمة من جانب العبيد والمسخرين .

وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى في غاية واحدة وهي : طلب السكينة والراحة ، إلا أن الفيثاغورية التي ظهرت قبل عصر الترف والسلطان أقرب إلى الروحانية والمزج بين عقائد الأمم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود ، وهي جميعاً أقرب إلى النشأة الشرقية ، لأنها نشأت بين قبرص وآسيا الصغرى ..

وقد كان أتباع فيثاغوراس طائفة تجتمع في « اخوة » ذات شعائر وصلوات بعضها معقول وبعضها من قبيل المحظورات والمحرمات التي تشيع بين القبائل البدائية وتستوجب عندها عادات مقدسة أو امتناعاً عن بعض العادات ،وقد كانوا يعتقدون في رئيسهم فيثاغوراس انه إبن الإله « أبولون » وانه لم يمت وسيبعث بعد حين ، لأنهم يؤمنون كأهل الهند بتناسخ الأرواح ، وأن الروح في

الجسد غريبة تلتمس الفكاك ولا فكاك لها بغير صالح الأعمال ، وهم يحرمون أكل الحيوان ويحرمون كذلك أكل الفول ويستحسنون اجتناب البقول على العموم ، ومن محرماتهم العجيبة ألا يأكلوا من رغيف صحيح وألا يلتقطوا شيئاً وقع على الأرض ولا يقطعوا الزهر من الشجر ولا ينظروا في المرآة إلى جانب النور ، ومنهم من كان يعظ الحيوانات لأنهم يؤمنون انهم يخاطبون أرواحاً تسكنها إلى حين ، وعندهم أن الناس درجات : بشر ، وانصاف من بشر وآلهة ، وفيثاغوراس أحد هؤلاء .

وكان فيثاغوراس يقبل الرجال والنساء في اخوته ويوجب المشاركة في الأقوات والمقتنيات التي تصل إلى أيدي الجماعة ، ويؤمن أتباعه بعد موته بأنه يلهمهم الكشوف العلمية ويلقنهم عظات الحكمة والخلائق الحسنة وان الحياة كانت « فرجة » عنده وهي كذلك عند من يشبهونه . فالعالم في رأي الفيثاغوريين كساحة الألعاب الأولمبية ، يقصدها أناس للتكسب وهم أخس الزائرين ، ويقصدها أناس للمباراة وهم فوق ذلك ، ويقصدها أناس للفرجة وهم أرقى منهم جميعاً ، وكذلك الفلاسفة الذين يزورون العالم للتأمل والنظر هم أرفع من المتكسبين والمتنازعين على جوائز الميدان .

والأفكار الفلسفية نفسها هي وحي من الله ، ويردون اشتقاق الكلمة ثيوري Theory إلى إسم الله ثيوس Theos باليونانية فكل حكمة عندهم فهي من الحكمة الالهية يتلقاها الباحث بالرياضة والمناجاة و « الانسجام » بينه وبين موسيقى الكون .. إذ الكون كله عندهم نسب عددية موسيقية وصورة كماله عدد الأربعة ، ولعله كذلك عندهم لأنه يجمع العناصر الأربعة التي تخلق منها جميع الأشياء .

وقيل ان لهم أغراضاً سياسية وانهم كانوا يتآمرون على الدولة في اجتماعاتهم السرية ، وقد عاش فيثاغوراس في القرن السادس من الميلاد وساح في بقاع العالم المعمور كله ، وبقيت نحلته أو اخوته في جميع الأقطار ، ولا سيما الأقطار التي أقام فيها اليونان المستشرقون .

أما الابيقورية والرواقية فقد ظهرتا في عصر واحد ، وانتشرتا بين المثقفين

في جميع أنحاء العالم المعمور ، ويبدو عليهما انهما متناقضتان ولكنهما في الواقع متقاربتان أو يمكن أن تتقاربا عملاً على حسب التفسير والسلوك في المعيشة .

* * *

نشأ أبيقور بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد ، وولد على القول الأشهر في جزيرة ساموس على مقربة من شواطىء آسيا الصغرى ، ولاذ بآسيا الصغرى مع أهله هرباً من الاضطهاد ، وقد أقبل على دراسة الفلسفة وهو في نحو الرابعة عشرة ، وافتتح مدرسته في حديقته المشهورة بأثينا سنة ٣١١ قبل الميلاد وهو في نحو الثلاثين ..

وإذا قيست فلسفة أبيقور على معيشته الشخصية فهي حياة نساك متقشفين ، لأنه كان يقضي معظم أيامه على الخبز والماء أو على الخبز والجبن ، ولكن اسمه اقترن باللذات والشهوات لأنه كان يعلم تلاميذه ان السرور هو غاية الحياة وأفضل السرور ما لم يعقب ألماً ولا ندماً ، ولهذا كان يتجنب الشهوات البهيمية ويجعلها من قبيل السرور « المتحرك » وهو السرور الذي يقترن بالجهد ويعقب الندامة والعناء ، وقد كان يقسم السرور إلى نوعين : سرور متحرك ، وسرور مستقر أو ساكن ، وأفضلهما كما تقدم سرور السكينة والاستقرار ويعني به سرور التأمل والراحة والقناعة ..

وكان أبيقور يقبل في مدرسته العبيد والراقصات والمأجورات ولا يرى حرجاً في طلب السرور حيث يوجد بريئاً من الألم والندم ، بل لا يرى كيف يتخيل الحكيم « الخير » إذا أخرج من حسابه مسرات الذوق والنظر والسماع ، ومن أعرض عن سرور يستطيعه في غير ألم ولا ندم فهو أحمق وليس بحكيم .

وقد أنحى أبيقور على الديانات اليونانية وغيرها من ديانات زمانه لأنها محشوة بالخرافات والأكاذيب ، وعلم تلاميذه أن الآلهة موجودة ولكنها مشغولة بسعادتها عن شئون الدنيا فلا قدر لها فيها ولا قضاء ، ولا فرق عنده بين الأرباب والمخلوقات إلا في لطافة المادة ونقاوة التركيب ، فكلها من

المادة وليس لغير المادة وجود ... ومن هنا كان يقبل كل تفسير لظواهر الوجود يرجع بها إلى الأسباب الطبيعية ويرفض كل ما كان مرجعه إلى الأرباب والغيوب ويواجه الموت نفسه على مذهبه في السرور والألم ، فإن لم يكن في الموت مسرة فهو خلاص من آلام الحياة ، ولهذا شاع مذهب أبيقور في عصور الشك والسآمة وفقدان اليقين والايمان بالعناية ، وفضله المكذبون بالديانات على مذهب الرواقيين لأن الابيقورية — خلافاً للرواقية — لا تعفي أصحابها من التكاليف ولا تفرض على عقولهم أو ضمائرهم واجباً يثقل على كواهلهم ، ولكنها مع هذا كانت تجمع قواعدها ووصاياها في أصول منظومة أشبه بالأوراد الدينية التي يستظهرها المريد ويترسمها ترسم الإيمان والعبادة .

* * *

وإذا أردنا تلخيص المذهب الرواقي في كلمتين اثنتين ، فهاتان الكلمتان هما : الصبر والعفة .

الصبر على الشدائد ، والعفة عن الشهوات ، ولا سعادة للانسان من غير نفسه وضميره ، فمن راض نفسه على مغالبة الألم والحزن وقمع الشهوة والهوى فقد بلغ غاية السعادة المقدورة لأبناء الفناء،وهم يؤمنون بالقدر ويعتقدون أن الكون كله نظام متناسق يجري على حسب المشيئة الالهية ، والوحي والرؤيا والفأل وطوالع النجوم من وسائل العلم بأسراره وخفاياه ، ويلتقي الانسان بالعقل مع الآلهة وبالجسد مع الحيوان الأعجم . وفضيلته الانسانية هي أن يطيع العقل ويعصي الجسد ، وعصيانه الجسد هو مقاومة الشهوات ، وطاعته العقل هي طلب المعرفة ، وسعادة الانسان كلهـــا هي السعادة التي تتهيأ له من الاستغناء عن الشهوة وتحصيل العلم ، فما زاد على ذلك من السعادة فهو وهم لا يدرك أو هو فضول لا خير فيه .

وقد نشأ الرواقيون الأول ماديين يؤمنون بأن الوجود كله أصل واحد ، ولكنهم تدرجوا في الروحانية وانتهى خلفاؤهم في عصر الميلاد وما بعده إلى

الإيمان بحرية الروح في مواجهة المادة ، فالإله الأكبر « زيوس » لا يستطيع أن يجعل الجسد حراً من قيود المادة ولكنه يعطينا قبساً من روحه الإلهية ، فنصبح بنعمته اخواناً لا يفرق بينهم وطن ولا جنس ولا لغة ، وأينما يكونوا فهم مع الله ، لا حاجة بهم إلى هيكل أو معبد ، فإنما القداسة في النفس التي تعبد وليست القداسة في مكان للعبادة يصنعه البنّاء والحداد .

ومن صلواتهم الصلاة المشهورة التي أثرت عن زعيمهم كليانتس (٣١٠ — ٢٣٠ قبل الميلاد) حيث يناجي زيوس قائلاً : « اهدني يازيوس ، أيها القدر . خذ بيدي الى حيث أردت أن ترسلني . خذ بيدي أتبعك غير ناكص ولا وجل فإن خامرني الريب فأحجمت وتريثت فمن اتباعك لا مهرب لي ولا نجاة » .

* * *

ويتبع الرواقي طريق القدر لأنه هو الخير وليس هو الضرورة وكفى . فإن الإله الأكبر لا يريد شراً ولا يخلقه ، وما هذه الشرور التي في الدنيا إلا نقائض محتومة يستلزمها وجود الخير ولا يعقل الخير بغيرها ، فلا محل للراحة بغير التعب ولا محل للشبع بغير الجوع ولا محل للرحمة بغير القسوة ، وإذا كانت القسوة رذيلة فالرحمة التي تسلم النفس للحزن والغم ليست بالفضيلة الإلهية ، وإنما تكون الرحمة فضيلة إذا تبصرت كما يتبصر الإله في قضائه ، فتنكر القسوة ولا تخضع للحزن والغم بغير حيلة ، فإن الحكيم يحمل في حكمته ترياق كل سر ودواء كل بلاء .

وقد أخذ الرواقيون من الهند — بسبيل فيثاغوراس على ما يظهر — ان العالم ينقضي ويعود في دورات أبدية لا تعرف لها نهاية ، واعتقد بعضهم أن أرواح الحكماء تبقى في كل دورة إلى نهايتها ، ثم يشملها ما يشمل العالم كله من حريق النار الأبدية ، وهي النار التي تطهر جميع الموجودات لتتخلص من أوشابها ثم تعود دواليك في وجود بعد وجود وعالم بعد عالم وقيامة بعد قيامة .

والمدرسة الرواقية بأسرها مدينة للأئمة الشرقيين ولا سيما القطبين الكبيرين

في هذه المدرسة زينون (٣٤٠ — ٢٧٠ قبل الميلاد) وبوزيدون (١٣٥ — ٥١ قبل الميلاد) فهم جميعاً من الفينيقيين أو اليونان الذين استشرقوا وأقاموا منذ زمن في البلاد الشرقية . وخلاصة مذهب الامام الرواقي الأكبر — زينون — كما لخصناه في كتابنا عن الله « ان الإله جوهر ذو مادة Soma وان الكون كله هو قوام جوهر الإله ، وان الإله يتخلل أجزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا ، وان الناموس Nomos — وهو بعبارة أخرى مرادف للعقل الحق Orthoologos أو الكلمة الحقة — هو والإله زيوس شيء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون ، وكان زينون يرى للكواكب والأيام صفة إلهية ويعتقد — كما أسلفنا — ان الفلك ينتهي بالحريق وتستكن في ناره جميع خصائص الموجودات المقبلة وأسبابها ومقاديرها ، فتعود كرة بعد كرة بفعل العقل وتقديره ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم كأنها مدينة يسهر عليها حراس الشريعة والنظام ، ويترادف عنده معنى الله والعقل والقدر وزيوس ، فكلها وما شابهها من الأسماء تدل على موجود واحد ، وقد كان هذا الموجود الواحـــد منفرداً لا شريك له فشاء أن يخلق الدنيا فأصبح هواء وأصبـــح الهواء ماء ، وجرت في الماء مادة الخلق Sparmathos logos كمـــا تجري مادة التوليد بالعقل أعظم مما يتجرد منه ، ولا شيء أعظم من الكون Cosmos فهو عاقل الأحياء ، فبرزت منها مبادىء الأشياء وهي النار والماء والهواء والتراب ، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبادىء على التدريج ، وتعريف القدر عند زينون انه القوة التي تحرك الهيولى ، وهي قوة عاقلة ، لأن ما يتصف لأنه عظيم . ويفسر زينون تعدد الآلهة في معتقدرت العامة بأنهم بحثوا عن الله في مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال ، ولكن هذه التشبيهات إن هي إلا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية .

وآخر الأقطاب الرواقيين قبل الميلاد — بوزيدون الذي أشرنا اليه — كان يعلم تلاميذه أن الروح لا تفني بفناء الجسد وأنها ترتقي صعداً في السماء على حسب ارتقائها في المعرفة والفضيلة .. فمن الأرواح ما يرفرف على مقربة

من الأرض ، ومنها ما يحلق بين الأفلاك العلى ويسبح معها وينعم بالنظر إليها والاستماع إلى ألحانها في مسراها إلى يوم القيامة ، وقد كان هذا الحكيم معنياً بالهند في بحوثه الجغرافية الفلكية كما كان معنياً بها في بحوثه الفكرية الدينية ، فقرر فيما رواه عنه صاحب كتاب «الرواقيون والشكوكيون» Stoïcs & Sceptics أن المسافة بين قادش والهند سبعون ألف ستادة ، وهي مقياس يوناني يساوي نحو مائة وخمسة وسبعين متراً ، ويقال ان هذا التقدير كان في حساب كولمبس عندما قصد إلى الهند من طريق البحار الغربية .

* * *

ويتفق مؤرخو الفلسفة على قوة الأثر الذي أعقبته المذاهب الرواقية في العالم الروماني إلى أقصى أطرافه ، وتظهر قوة هذا الأثر وسعة مداه من اتساعه لتبشير الملوك والأرقاء بعد ظهور إمامه الأول — زينون — بنحو أربعة قرون ، فكان من أئمته العبد الرقيق أبيكتيتس (٦٠ — ١٠٠ بعد الميلاد) والامبراطور الكبير ماركس أورليوس (١٢١ — ١٨٠ بعد الميلاد) وفاخر بالانتماء إلى هذا المذهب قادة ورؤساء من الذين زاروا الشرق وأقاموا فيه ..

أما فلسطين خاصة حيث ولد السيد المسيح فقد كان هذا المذهب ومذهب الابيقوريين يتقاسمان فيها أفكار المتدينين وغير المتدينين ، وتغلغل المذهبان بين الطوائف الاسرائيلية كأنهما زيان من أزياء الثقافة التي يتراءى بها أدعياء العلم والمدنية ، فكان الصدوقيون يميلون إلى الابيقورية وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية على كراهتهم للتشبه بالأجانب ، ولكن شيوع الأقطاب الشرقيين بين الرواقيين كان يصبغ نحلتهم بالصبغة الوطنية التي لا يتحرج الفريسيون من محاكاتها ، تمشياً مع نزعتهم إلى التجديد ..

ومن المصادفات التي تساعد على تتبع أثر المذاهب الفكرية في العالم الاسرائيلي أن عصر الميلاد أنجب أكبر فلاسفة الاسرائيليين في العصر القديم وهو يهودا فيلون ، الذي ولد بالاسكندرية سنة (٣٠ قبل الميلاد) ومات سنة (٥٠ بعده) ومزج في فلسفته بين عقائد عصره ومذاهبه الفلسفية من كل

منبت ولا سيما منبت الاغريقية الاسكندرية ، وقد أخذ القول بالكلمة Logos من الرواقيين عن هيرقليطس أول القائلين بها في الزمن القديم ، وقال انها هي واسطة الله في علاقته بهذا العالم،وأخذ تفسير الرموز الدينية من العبادات السرية كعبادة ايزيس ، وعبادة أوزيريس سرابيس التي تأسست بالاسكندرية وتفرعت في أثينا وبومبي ورومة وبعض الموانىء الآسيوية ، ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة فشرحها شرحاً عقلياً يخالف في كثير من المسائل شروحها التقليدية ، وقال في كلامه عن خلق العالم ان موسى عليه السلام لم يأت بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع الذين يحصرون أحكام قومهم في الحلال والحرام بغير تصرف ولا تنقيح ولا بأسلوب أصحاب الشرائع المبهمة التي تحيط بها الألغاز والزيادات ، وانه روى قصة الخليقة رواية تتضمن أن الدنيا مطابقة للنظام (أو الشريعة) وان النظام مطابق للدنيا ، وان الانسان الذي يتبع النظام ، مواطن صالح للعالم كله ، يسير في عمله وفقاً لمشيئة الطبيعة التي تسير الدنيا كلها وفقاً لمشيئتها .

وقد كان فيلون رواقياً على حافة الابيقورية ، فقال في كلامه عن ابراهيم مفسراً اسم اسحاق : « ان معنى اسحاق في لغتنا الضاحك . ولكن الضحك هنا غير الضحك الذي يأتي من سرور الجسد ، فهو سرور المعرفة الصالحة ، وهذا هو الفرح . هذا الفرح الذي روي لنا ان الحكيم أبراهام قدمه قرباناً إلى الله مبيناً بذلك في هذا الرمز أن الفرح على صلة وثيقة بالله وحده إذ الانسان عرضة للحزن والخوف من الشرور الحاضرة والمتوقعة ، وليس الحزن ولا الخوف من طبيعة الله » .

ومذهب فيلون في الصلاة ان الانسان يصلي شكراً لله على ما في الكون كله وخلائقه كلها ومنها بنو آدم جميعاً رجالاً ونساء ويوناناً وبرابرة ومنها ذات المصلي جسداً وروحاً ومنطقاً وعقلاً وحساً ، فإن الصلاة على هذا المثال جديرة أن تستجاب .

وينقسم الانسان عند فيلون إلى ثلاثة أقسام : وليد الأرض ، ووليد السماء ، ووليد الله ، فوليد الأرض من يطلب متاع الجسد ، ووليد السماء

من يطلب متاع الفكر ، ووليد الله من تجرّد عن الدنيا وأقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم معصوم من الفناء براء من المادة ، في زمرة الهداة والمرسلين .

* * *

وليس فيلون من دعاة العزلة في الصوامع ، لأن اختلاف المكان لا يصنع شيئاً وانما الخير كله من الله حيث كان ، وهو كائن في كل مكان ، يهدي ركاب الروح إلى حيث يشاء .

كذلك لم يكن يستعظم ضحية القرابين كما قال في كلامه عن الشرائع الخاصة : « إن الله لا يفرح بالضحايا ولو حسبت بالمئات لأنه مالك كل شيء ومعطي الناس كل شيء ومن عطاياه تلك الضحايا. وقد يكون التقرب بخبز الشعير أقوم عنده من التقرب بالنفائس والذخائر ، بل من تقدم إليه بنفسه لا يحتقب شيئاً غير الصدق وخلوص النية أكرم عنده ممن يبذل الأموال ويسيء الأقوال والفعال » .

وقد كان فيلون عالمياً يخاطب بني الانسان كافة .. وكان يقول : ان اسرائيل إنما سمي بهذا الاسم لأنه ينظر إلى الله ، فكل ناظر إلى الله اسرائيل ، ولكن هذه الدعوة العالمية لم تصرفه قط عن العصبية القومية ، ولم ينس قط في كلامه عن بني اسرائيل انهم هداة الأمم وانهم أحق عشائر الإنسان باعجاب جميع العشائر فإن الأثينيين يرفضون شعائر اللقدمونيين كما يرفض اللقدمونيون شعائر الأثينيين ، ولم يعهد في المصريين انهم يأخذون بتقاليد السيثيين أو في السيثيين انهم يأخذون بتقاليد المصريين ، وأهل أوربة يعرضون عن عادات أهل آسيا ، وأهل آسيا يعرضون عن عادات أهل أوربة ، ولكن اليوم السابع الذي يستريح فيه اليهود مرعيّ الحرمة عند جميع الأقوام ، ويوم الكفارة من كل سنة أقدس من الشهر الحرام في عرف الاغريق ، إذ هو شهر يبطل فيه القتال ولكنه يغري الناس بالافراط في الشراب والطعام وشهوات الأجسام ، وشتان هذا من موسم الصيام والقنوت عند بني اسرائيل .

يقول هذا عن قومه ، في كلامه عن حياة موسى عليه السلام ، ولكنه

يقول في كلامه عن الشرائع الخاصة إن اسرائيل بين الأمم كاليتيم المضيع بين الغرباء ، لا يأخذ بناصرهم أحد إذا تألبت الأقوام وتعصبت العشائر ، وذنبهم عند الناس انهم يدينون أنفسهم بالفرائض الصارمة ويتزمتون في المعيشة والصرامة ثقيلة على الطباع والتزمت بغيض إلى النفوس « ومع هذا يقول لنا موسى إن يُتْم اسرائيل يستجلب لها شفقة الله مدبِّر الكون الذي وقعت اسرائيل من نصيبه وفُرِزت من العالم كما تُفرز بواكير الثمار هدية للخالق والأب الرحيم » .

* * *

تلك غاية الشوط الذي انتهى إليه فيلون في زمنه ولا يعتبر فيلون من الأئمة ذوي الأتباع في الديانة الموسوية ، ولكنه يعتبر نموذجاً صالحاً لتلك الديانة كما يفهمها الحكيم المطلع المتدين في أوائل عصر الميلاد .



٣

تاريخ الميلاد

- أرض الجليل
- متى وُلِد المسيح ؟
- صورة وصفية



أرض الجليل

ولد السيد المسيح بأرض الجليل – أو جليل الأمم – كما كان يسميها الاسرائيليون ، لأنها كانت اقليماً مفتوحاً لجميع الأمم الشرقية والغربية ، ولم يخلص سكنه للاسرائيليين وحدهم في زمن من الأزمان .

ومعنى الجليل بالعبرية الدائرة ، يعنون بها الاحاطة ، لأنها اتسعت لكثيرين ممن يحال بينهم وبين الاقامة في بلاد أخرى من فلسطين ولا سيما الجنوب ..

وكانت الجليل جزءاً من أقاليم الشاطىء الشمالية التي عرفت في التاريخ القديم باسم كنعان ، ثم أطلق عليها اليونان اسم « فينيقية » من اللون الأحمر على ما يظهر ، وهو لون الصخور والجبال .

وقد امتازت كنعان قديماً بالموانىء الصالحة ووقوعها على طريق التجارة من البحر الأبيض إلى خليج فارس إلى أقصى المشرق واشتهرت في هذه الموانىء صيدا وصور وحيفا ، وكادت تجارة المشرق والمغرب تنحصر في صيدا وصور ، لأن الشواطىء الجنوبية خلت في الزمن القديم من الموانىء الصالحة ، ولم تكن وراءها مسالك مطروقة للتجارة غير مسالك الصحراء وهي يومئذ قليلة الأمن كثيرة التكاليف .

ولهذا الموقع الفريد حفلت أرض الجليل من قديم الزمن بالسياح والمقيمين من جميع أمم الحضارة في المشرق والمغرب ، وتوثقت صلاتها بجميع الحضارات الانسانية ، وراجت فيها الصناعات والمعارف العملية والنظرية ، ولا سيما المعارف التي لها علاقة بالملاحة كفن بناء السفن ورصد الكواكب والكتابة ،

حتى تواتر أن تجار الفينيقيين وملاحيهم هم الذين نشروا الأبجدية في بلاد البحر الأبيض ، ومنها انتقلت إلى سائر الأمم الأوربية ..

وقد دخل بعض بلاد الجليل — أو كنعان — في مملكة داود بعد انشائها ، ولكن العلاقة بين الجليل واليهودية ظلت على الدوام علاقة حذر وجفاء إن لم تكن علاقة حرب وعداء ، وكان أثر السيطرة اليهودية على بلاد الكنعانيين ان اليهود أخذوا من الكنعانيين معالم حضارتهم وعولوا عليهم في الصناعة والتجارة ، وجاء في العهد القديم غير مرة ذكر الاستعانة بالصناع والخبراء من أهل كنعان في تشييد الهياكل والقصور اليهودية ، ومن ذلك في سفر الملوك أن سليمان أرسل إلى حيرام ملك الكنعانيين يرجوه أن يأمر بقطع الخشب لبناء الهيكل ، ويقول له : « إنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب كالصيدونيين » . [1]

ومنه وصف المهندس الذي كان أبوه من صدر وأمه من سبط نفتالي ، وكان ممتلئاً حكمة وفهماً ومعرفة لكل عمل في النحاس .

وقد جاء في الاصحاح السابع والعشرين من سفر حزقيال انهم كانوا يتّجرون بالحنطة والعسل والزيت والبلسان والحلوى وغيرها من منقولات الأمم الأخرى ..

واعتمد اليهود على الكنعانيين في شئون الثقافة والفن ولم ينته اعتمادهم عليهم عند مطالب التجارة والصناعة ، فنقلوا عنهم الكتابة وأوزان الشعر وأناشيد الصلوات ، وحدث غير مرة أنهم تركوا عقائدهم وتحولوا عنها إلى عقائد الكنعانيين ، وإلى ذلك يشير العهد القديم في سفر القضاة حيث يقول : « وفعل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم وتركوا إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر » وإلى ذلك أيضاً يشير العهد القديم في سفر الملوك الأول حيث يقول النبي ايليا : « إن بني اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك » إلى أن يقول : « وقد أبقيت في اسرائيل سبعة آلاف وهم كل الركب التي لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله » .

---

(١) الاصحاح السابع في الملوك الأول .

ولما تكاثر عدد اليهود المقيمين في الأقاليم الشمالية من فلسطين كالجليل والسامرة، تغيرت عاداتهم ومأثوراتهم ونظر إليهم أبناء اليهودية نظرتهم إلى الخوارج الذين انقطعوا عن أصولهم وتابعوا الغرباء على عاداتهم وآدابهم ، وكان الواقع أن أهل الجليل خاصة تعودوا الكلام بالآرامية وهي لغة أهل سورية الداخلية ، أو باليونانية ، وهي لغة القادمين من البحر أو من آسيا الصغرى ، واقتبسوا كثيراً من مأثورات الفرس والهند والعراق ، لأنهم كانوا يلتقون بأبناء هذه البلاد القادمين مع القوافل الشرقية ، ويرجح بعض المؤرخين أن الفينيقيين الأقدمين جميعاً كانوا من قبائل الخليج الفارسي التي جلت عنه وسارت مع طريق القوافل حتى استقرت على شاطىء بحر الروم وظلت محافظة بعد ذلك على علاقتها بالبحار الشرقية ..

* * *

وبلغ من بغض أهل اليهودية لأبناء ملّتهم في الشمال ان « حنا هير كانوس» المكابي أغار على الأقاليم الشمالية ، ومنها بلاد في السامرة وبلاد في الجليل ، فأعاد من فيها من اليهود إلى الجنوب وخيّر المقيمين في الشمال بين الهجرة أو قبول الختان وشارات اليهودية ففضلوا البقاء على المهاجرة من بلاد آبائهم وأجدادهم أو من البلاد التي استوطنوها منذ زمن طويل ، ولبث السامريون منفردين بتقاليدهم ، ولبث أهل الجليل متهمين منظوراً إليهم بعين الريبة والاستغراب .

ومما اتفقت عليه أقوال المؤرخين وتردد كثيراً في روايات التاريخ أن جمهرة من أهل الجليل كانوا عرباً يتكلمون الآرامية ويلفظون العبرية بلهجة أجنبية يلحظها أهل الجنوب ويميّزون المتكلم بها من كلمات قليلة تبدر منه عرضاً على غير روية، وكذلك عرف الحواريون في الهيكل كما كانوا يعرفون في كل فلسطين .

وقد كان من الأمثال السائرة على ألسنة اليهود المتعصبين لتقاليدهم وعاداتهم : « انه لا خير يأتي من الجليل » وفي انجيل يوحنا ان نثنائيل عجب

حين قال له صاحبه: «إننا وجدنا الذي أنبأ عنه موسى» وانه من الناصرة في الجليل ، فأجابه مستغرباً : « أمن الناصرة يجيء شيء صالح ؟ » [1] ..

وفي انجيل يوحنا أيضاً يروى عن رجـال الهيكل انهم كانوا يقولون متهكمين : « انه لم يقم نبي من الجليل » [2] .

كانت السماحة الدينية وقلة التحرج هما سبب هذه النقمة على الجليل وأهله في نفوس أبناء اليهودية المنكرين لكل سماحة والجامدين على كل حرج ، ولكن هذا السبب بعينه هو الذي جعـل أرض الجليل أصلح منبت للدعوة الانسانية التي ترقبها العالم في ذلك العصر ، فما كان من اليسير أن تنبثق دعوة الإخاء بين الأمم في كنف الحجر والجمود .

وقد اتفق بعد مولد السيد المسيح ببضع سنوات أن الجليل خرجت من سلطان ملك اليهودية على أثر وفاة هيرود الكبير ، وانها دخلت هي والبادية المجاورة لها في نصيب ابنه هيرود انتيباس .. وربما كان عليه السلام في العاشرة من عمره حينما هدم الرومان عاصمة الأمير الجديد ، وبُنيت العاصمة الجديدة طبرية على مقربة من الناصرة حيث نشأ عليه السلام ، ولا شك انه في نحو العاشرة يسمع أخبار هذه الضربة ويسمع أخبار الثورة التي تقدمتها وأعقبت بعدها ما أعقبته من جرائرها ، وقد كانت مشكلة التعصب أو مشكلة السماحة الدينية حديث صباه وأول ما طرق مسمعه من مشكلات السياسة والدولة ، ولما سميت العاصمة الجديدة باسم العاهل الروماني طيبريوس سمع ولا شك تعقيب الكبار على ذلك الملق المرائي وشهد العبث من ذوي السياسة والإمارة قبل الأوان ، وأدرك أن العواصم تهدم وتبني ، وأن الدول تدول ، وأن الطاغية يتزلف والمتزلف يطغى ، وأن مجد الرياء زيف وخواء ، فسبحت نفسه البريئة في آفاق غير هذه الآفاق وصور لفؤاده الذكي ملكوت السماء في صورة غير هذه الصورة ، تخالفها ولا تزال تختلف عنها كلما تقدمت به الأيام ..

---

(١) الاصحاح الأول .
(٢) الاصحاح السابع .

متى ولد المسيح ؟

يفهم من رقم التقويم الميلادي أن السيد المسيح ولد في السنة الأولى للميلاد ، وعلى هذ الحساب يجري العمل بين الأمم الأوروبية منذ سنة **٥٣٢** للميلاد وهي السنة التي دعا فيها الراهب دينوسيس الصغير Exigus إلى تأريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد ، وصحح الحساب على تقديره ثم جرى العمل على حسابه إلى الآن .

ولم يكن الرجل صغيراً في مكانته الدينية ، ولكنه أطلق لقب الصغير على نفسه من قبيل التواضع والانكسار ، وقد حقق بحوثه ومراجعاته ما استطاع في زمانه فلم يسلم من الخطأ في حساب بضع سنوات ، ثم تعذر اصلاح هذا الخطأ عند ثبوته فتقرر استدراكه باضافة أربع سنوات إلى التقويم القديم الذي يحسبه أصحابه منذ بدء الخليقة ، واعتبروا أن السيد المسيح ولد في سنة أربعة آلاف وأربع بحساب ذلك التقويم ..

أما القول الراجح في تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الأولى ببضع سنوات ، وأنه على أصح التقديرات لم يولد في السنة الأولى للميلاد ...

ففي انجيل متى انه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير ، وقد مات هيرود قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات .

وقد جاء في انجيل لوقا أن السيد المسيح قام بالدعوة في السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين ، وقد حكم طيبريوس الدولة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة **٧٦٥** من تأسيس مدينة

رومة ، ومعنى هذا ان السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالي سنة ٧٧٩ رومانية ، وانه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أي قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات .

ويذكر انجيل لوقا أن القيصر أوغسطس أمر بالاكتتاب — أي الاحصاء — في كل المسكونة ، وأن هذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرنيوس والياً على سورية « فذهب الجميع ليكتتبوا كل في مدينته ، وصعد يوسف ... من مدينة الناصرة إلى اليهودية ... ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى ، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر » .

والمقصود بالاكتتاب هنا — على ما هو ظاهر — أمر الاحصاء الذي أشار اليه المؤرخ يوسفوس وأرّخه بما يقابل السنتين السادسة والسابعة للميلاد ، ولا يمكن أن يكون قبل ذلك لأن تاريخ ولاية كيرنيوس معروف وهو السنة السادسة ، فيكون السيد المسيح إذن قد ولد في نحو السنة السابعة للميلاد ، وتكون دعوته قد بدأت وهو في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين ، وهو تقدير يخالف جميع التقديرات الأخرى ويخالف المعلوم من مأثورات الاسرائيليين ، فإن الكاهن اللاوي عندهم كان يباشر عمله بعد بلوغ الثلاثين ، وكان الأحبار المجتهدون عندهم يبلغون الخمسين قبل الجلوس للتفسير والافتاء في مسائل الفقه الكبرى ، ولهذا قالوا عن السيد المسيح انه لم يبلغ الخمسين بعد ويدعي انه يرى ابراهيم ويستمع إليه ، ولو أنه بدأ الدعوة قبل الثلاثين لكان الأحرى أن يعجبوا لكلامه قبل بلوغه سن الكهنة اللاويين .

ويغلب على تقدير المؤرخين الثقات ان الاحصاء المشار إليه هو الاحصاء الذي ذكره ترتليان Tertullian وقال انه جرى في عهد ساتورنينس Saturninus والي سورية إلى السنة السابعة قبل الميلاد ، فإذا كان هذا هو الاحصاء المقصود فالسيد المسيح كان قد بلغ السابعة في السنة الأولى للميلاد ..

ومن القرائن التي لا نريد أن نهملها قرينة الكوكب الذي قيل ان كهّان المجوس تتبعوه من المشرق ليهتدوا به إلى المكان الذي ولد فيه السيد المسيح ..

فمن المعروف أن خبراء فينيقية وفارس كانوا يشتغلون بالفلك والتنجيم ، وأنهم كانوا في عصر الميلاد يرقبون حادثاً جللا في التاريخ البشري حوالي سنة الميلاد ، وكانوا كذلك يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر ذلك الحدث الجلل المرتقب من حين إلى حين ، وكان قران المشتري وزحل من الطوالع الهامة عند سكان المشرق على البحر حيث ترصد الكواكب للملاحة والتفاؤل ، وفي داخل البلاد الفارسية حيث ترصد الكواكب للعبادة واستيحاء الارادة الإلهية ، ويكفي أن نذكر بقايا هذه العادة في البقعة الفينيقية إلى ما بعد أيام المعري لنعلم شأن الارصاد هنالك كما كانت في الزمن القديم ، وقد كان المعري الضرير يعنى نفسه بهذه الأرصاد ويقول عن قران المشتري وزحل خاصة في لزومياته :

قِرَانُ المشْتَرِي زُحَلاً يُرَجّى
لايقاظِ النَوَاظِرِ من كرَاهَا

وهَيْهَاتَ البَرِيّةَ في ضَلالٍ
وقَد فَطِنَ اللّبِيبُ لما اعْتَرَاهَا

وكَمْ رَأَتِ الفَرَاقِدُ والثُّرَيّا
قَبَائِلَ ثُمَّ أَضْحَت في ثَرَاهَا

تَقَضى النَاسُ جِيلاً بَعْدَ جيلٍ
وخلفت النُجوم كَمَا تَرَاهَا

* * *

فإذا كان هذا ما تخلف من العناية بالأرصاد في البقعة الفينيقية إلى أيام المعري فليس من الأمانة للبحث أن نهمل قرائن الأرصاد كل الاهمال ، لأننا نرفض التنجيم ونرفض دعوى المجوس فيه .

فمن المعقول أن ننكر على المنجمين علمهم بالغيب من رصد الكواكب وطوالع الأفلاك ، ولكن لا يلزم من ذلك أن ننفي ظهور الكوكب الذي

رصدوه ، وأن نبطل دلالته مع سائر الدلالات ، وبخاصة حين تتفق جميع هذه الدلالات ..

وقد ذكر فردريك فرار في كتابه « حياة المسيح »[1] أن الفلكي الكبير كبلر حقق وقوع القران بين المشتري وزحل حوال سنة ٧٤٧ رومانية ، ويقول فرار في وصف هذه الظاهرة : « ان قران المشتري وزحل يقع في المثلث نفسه مرة كل عشرين سنة ، ولكنه يتحول إلى مثلث آخر بعد مائتي سنة ، ولا يعود إلى المثلث الأول بعد عبور فلك البروج كله إلا بعد انقضاء سبعمائة وأربع وتسعين سنة وأربعة أشهر واثني عشريوماً » وقد تراجع كبلر بالحساب فتبين له أن القران على هذا النحو حدث سنة ٧٤٧ رومانية في مثلث النونين أو الحوتين وأن المريخ لحق بهما سنة ٧٤٨ رومانية ..

ويظهر من هذا الحساب أن تاريخ الميلاد يضاهي التاريخ الذي يستخلص من التقديرات الأخرى على وجه التقريب ، وأن السيد المسيح ولد في نحو السنة الخامسة أو السادسة قبل الميلاد .

ونعود فنقول ان اثبات الرصد لا يستلزم الإيمان باطلاع المجوس على الغيب من مراقبة الأفلاك .. وكل ما يفهم ، ولا يجوز أن يهمل ، ان الذين كتبوا تاريخ السيد المسيح بعد عصره بنحو جيلين كانوا يتناقلون خبر تلك الظاهرة ويؤمنون بدلالتها على حدث عظيم فقرنوا بينها وبين ميلاد المسيح المنظور ، ولعل الأناجيل قد دونت والناس يتحدثون بقران فلكي من قبيل ذلك القران في حكم القيصر هادريان ، فقد ظهر يومئذ مسيح كذاب آمن به الرباني عقيبة ليدحض دعوى المسيحيين ، وسماه ابن الكوكب « باركوكبه بالعبرية » ونقش على العملة التي سكها صورة كوكب ، فعادت الذاكرة بكتاب الأناجيل إلى تلك الظاهرة الفلكية النادرة ، بعد الدعوة المسيحية بنحو سبعين سنة .

على ان الدراسات الأخيرة في علم المقابلة بين الأديان تسوق المؤرخ

---

(١) الجزء الاول ص ٣١ الطبعة الثانية من مطبعة كاسل .

الذي يكتب عن تاريخ المسيح حتماً إلى مبحث عويص أدق جداً من المبحث الذي يدور حول السنة الميلادية ، فإن القرن الثامن عشر قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق في مقررات العلم القديم ووقائع التاريخ المتواتر ، فشك الكتاب في وجود الأنبياء والمرسلين وكاد الشك يتناول كل نبي وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام : شكوا في بوذا كما شكوا في ابراهيم وموسى وعيسى . وسرى الشك إلى الأدب كما سرى إلى الدين ، فشكوا في شخصية هوميروس وفي شخصية شكسبير وظن بعض المثبتين للشخصيات المتأخرة في التاريخ انها وجدت فعلاً ولكنها لم تصنع ما نسبوه إليها ، ولم تكتب ما ينشر بأسمائها ..

وقد زار فولتير — إمام الشاكّين — بلاد الانجليز فوجد هناك مدرسة بولنجبروك تتحدث بغاية السهولة في شبهاتها عن وجود السيد المسيح ، وكان نابليون يسأل العالم الالماني ويلاند : « هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخي وجد كما وصفوه ؟ » وجاء القرن التاسع عشر وقد طغت على ميدان الدراسات الدينية موجات من الكتب التي ألفها الألمان والدنمركيون والفرنسيون والانجليز يفنّدون بها أقوال المؤرخين ويرجحون أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال ، وليس من المستطاع في هذا الحيز أن نورد أقوالهم مفصلة أو مجملة في هذا الموضوع ، فإن أسماء المؤلفين والمؤلفات وعناوين المسائل التي طرقوها وخلاصة البراهين التي شفعوا بها بيان تلك المسائل تستغرق وحدها كتاباً كهذا الكتاب ، ولكننا نجتزىء بتلخيص الأساسين المهمين اللذين قامت عليهما مدرسة الشك في وجود السيد المسيح ، وأحدهما أنه عليه السلام لم يذكر في التواريخ القديمة التي فصلت أخبار عصره والآخر ان روايات التلاميذ عند قد سبقت روايتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الزمن القديم وبعضها أقرب إلى الأساطير والفروض .

أما المؤرخون الذين خصوهم بالذكر فهم يوسفوس Josephus وتاسيتس Tacitus وسوتينوس Suctonius وكلهم ممن أرخوا عصر الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن أيامه .

نعم وردت في نسخ من تاريخ يوسفوس اشارة مقتضبة إلى « عيسى القديس » ولكن النقاد التاريخيين يجزمون بأنها مضافة اليه ، ويؤكدون انها أضيفت بقلم أحد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الاشارة إلى أعظم الحوادث في ذلك العصر فأباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الاشارة كأنها من كلام يوسفوس على اعتبار أن الحقائق التاريخية أمانة عند من يعلمها وليست أمانة المؤلف وحده سواء عرفها أو لم يعرفها ، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودي الذي ينكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين فيقول : « انه في ذلك العهد عاش عيسي ذلك الانسان القديس — إن جاز أن يسمى انساناً— بعد ما أتى به من المعجزات البينات وعلم الناس وتلقى الحق فاستبشر به ، واتبعه كثير من اليهود والاغريق ، وكان هو المسيح » .

قالوا : « ان يوسفوس اليهودي الذي مات على دينه لا يكتب هذا ولا يؤمن إيمان المسيحيين ، ولو انه آمن كما آمنوا لما اكتفى بتسجيل ذلك الحادث العظيم في ثلاثة سطور جاءت عرضاً بغير تعقيب أو تفصيل » .

ومن اللاهوتيين الذين عقبوا على هذه الملاحظة القس هورن Horne الذي ألف كتابه « مقدمة الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة » وأدرك به هجمة الشكوك الأولى في سنة ١٨٣٦ (١) .

فقد ذكر هورن أن هذه العبارة موجودة في جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التي حفظتها مكتبة الفاتيكان من الترجمة العبرية ، وان العبارة نفسها موجودة في النسخة العربية التي تحفظها الطائفة المارونية بلبنان ، وان كتاب القرن الرابع والقرن الخامس من السريان والاغريق والمصريين قد اطلعوا عليها واستشهدوا بها وان يوسفوس قد أشار في موضع آخر إلى جيمس أسقف أورشليم حيث قال : « ان حنانا عقد السنهدرين اليهودي وأحضر أمامه جيمس أخا عيسى المسمى بالمسيح ومعه آخرون ثم أمر بهم أن يرجموا عقاباً لهم على عصيان الشريعة » .

---

(١) Introduction to the critical study and knowledge of the holy scriptures.

قال هورن : « ولو أن أوسبياس Eusobius أول من استشهد بالعبارة المتقدمة كان قد أثبتها مختلقاً لها لما عدم ناقداً يكشف دسيسته من المطلعين على كتاب يوسفوس وهو كتاب له مكانة موقرة بين الرومان من قديم الزمن ، وبفضل هذه المكانة كسب يوسفوس شرف الوطنية الرومانية ، بل كان من الراجح جداً أن يتصدى اليهود لمن يدس تلك العبارة في تاريخهم الأشهر فيفضحوه تفنيداً له وتفنيداً للديانة التي يدعيها » .

وألمع هورن إلى الشكوك التي تحيط بتلك العبارة لأنها لم تذكر قط في كلام معروف قبل أوسبياس ، فقال ان هذه الشكوك لا تقيم حجة لأصحابها لأن أقطاب المسيحية كانوا في غنى عن الاستشهاد بأقوال المؤرخين مع استطاعتهم أن يثبتوا رسالة السيد المسيح في نبوءات كتب التوراة ..

وختم هورن ردوده بتوجيه عبارة يوسفوس إلى معنى لا يستلزم أن يكون المؤرخ اليهودي مؤمناً بالمسيحية أو برسالة المسيح المنتظر ، ولعله سماه « المسيح » رواية عن أتباعه الذين كانوا يدعونه مسيحاً ويعرفونه بشهرته الغالبة ..

أما المؤرخ الروماني تاسيتس الذي كتب تاريخه حوالي سنة (١١٥ ميلادية) فأقدم ما ذكره عن السيد المسيح لا يرجع إلى أقدم من سنة أربع وستين ميلادية ، ولم يذكره مباشرة بل أشار إلى اسمه في سياق الكلام على حريق رومة حيث قال : « ان الامبراطور نيرون أقلقه اتهام الناس إياه باحراق المدينة فألقى التهمة على طائفة العامة الذين يسمون بالمسيحيين وينسبون إلى المسيح الذي حكم عليه بونتياس بيلاطس بالموت في عهد القيصر طيبريوس » .

ولا يعرف الآن علام استند تاسيتس في رواية هذه النسبة ، ولكنها كانت على كل حال رواية شائعة بين أناس كثيرين لم يشهدوا عصر المسيح .

وكذلك لم يذكر سويتنيوس خبراً مباشراً عن السيد المسيح ولكنه قال في تاريخه لقيصر كلوديس : « انه نفى من رومة جماعة اليهود الذين كانوا على الدوام يثيرون المتاعب بتحريض كريستس » وكتبها هكذا باللاتينية Chrestus

لأن الاسم التبس عليه بين كرستس بمعنى الطيب ، وكريستس بمعنى المسيح ..

وأيا كان مستند هذا المؤرخ فلا يستفاد من روايته إلا أن العاصمة الرومانية كان فيها أناس يعرفون باسم المسيحيين عند منتصف القرن الثاني للميلاد ، وانه كان يحسب ان الزعيم كرستس كان يحرض أتباعه بنفسه في ذلك التاريخ .

وقد عاش في عصر السيد المسيح نفسه كتاب ومؤرخون من اليهود مثل الفيلسوف فيلون الذي سبق ذكره والمؤرخ جستس الطبري الذي عاش في الجليل أيام الدعوة المسيحية وكتب تاريخ قومه من عهد موسى إلى نهاية القرن الأول للميلاد ، ولم ترد في تاريخه اشارة مباشرة أو غير مباشرة إلى الدعوة المسيحية .

تلك خلاصة الحجة التي تقوم على خلو التواريخ المعاصرة من ذكر الدعوة المسيحية في عصرها .

أما الحجة الأخرى وهي حجة التشابه بين القصص المروية عن السيد المسيح والقصص المروية عن الأرباب في العبادات الشرقية القديمة ، فهي تعتمد على تفصيلات كثيرة تحيط بأخبار المعجزات والشعائر في ديانات الأقدمين من المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين ، وأكثر النقاد المتشبثين بهذه الحجة من علماء المقابلة بين الأديان المطلعين على أديان المشرق في لغاتها ، ويغلب عليهم ترجيح القول بأن أخبار المسيح بقية من بقايا الديانات الشمسية يدل عليها عدد « اثني عشر » الذي يشير إلى البروج ويشير إلى عدد التلاميذ ، ويدل عليها الاحتفال بالميلاد في يوم الاعتدال الخريفي على حساب الأقدمين ، والاحتفال بيوم الأحد الذي اعتقدوا قديماً أنه يوم الشمس ويعرف حتى اليوم في اللغات الأوربية بهذه النسبة ، وذلك عدا المشابهة في اسم الأم والولادة في المذود وركوب « الحمار ابن الاتان » وغير ذلك من الشعائر والمعجزات .

والغريب في شأن هؤلاء العلماء أنهم لم يكلفوا أنفسهم تفسيراً مقبولا لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد .. فإن التفسيرات

التي فرضوها تتسع لشكوك كثيرة كلها أغرب من القول بشخصية المسيح التاريخية ، ولا يكفي أن يقال إن أخبار المعجزات والشعائر قديمة لتفسير الدعوة المسيحية بغير داع وبغير محور معلوم تدور عليه ، وقد توفي بولس الرسول في نحو سنة سبع وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين سنة يبشر باسم المسيح ، ولم يكن قد طال العهد بتاريخ الدعوة ولم يحدث خلال ذلك ما يفسر تكوينها من المعجزات والشعائر التي ظلت قبل ذلك مئات السنين متواترة على الألسنة وكان تواترها قديماً أقوى وأشيع من تواترها بعد تقادم العهد وتتابع السنين .

وكل ما يفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين على سبيل الجزم أن المؤرخين لم يدركوا خطرها ولم يميزوها من الحركات المتفرقة التي كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة عامة ، ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر باسم خاص في الأناجيل جميعاً غير ثلاث مرات ، فذكر أتباع السيد المسيح باسم المسيحيين في الاصحاح الحادي عشر من أعمال بولس الرسول حيث قيل ان التلاميذ دعوا « مسيحيين » لأول مرة في مدينة « انطاكية » ثم جاء في الاصحاح السادس والعشرين على لسان الملك اغريبباس أنه قال محتجاً : « أهون بما تقنعني به أن أصير مسيحياً » وجاء في الاصحاح الرابع من رسالة بطرس : « ان عيرتم باسم المسيح فطوبى لكم ... ان أحدكم لا يتألم لأنه قاتل أو سارق أو فاعل شر أو صاحب فضول ، فان تألم لأنه مسيحي فلا يخجل » .

وجملة ما يؤخذ من الكلمة في هذه المواضع الثلاثة انهـا كانت نسبة ازدراء وتعيير على ألسنة أعداء المسيحيين .. وليس من الصعب أن يضيع الكلام على طائفة لا عنوان لها بين ما يكتب عن جماهير ذلك الزمن في غمار التواريخ ، وبخاصة إذا كانت لم تبلغ من الخطر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغروا شأنها لأنها طائفة مغضوب عليها في مراجع الدين ومراجع الدولة ، فالهيكل ينكرها والحكومة الرومانية تترفع عنها ، ولم يحدث قبل ذلك ان طائفة من طوائف فلسطين جمعت بين

غضب السلطتين ، وهي مع ذلك غير معروفة بعنوان تدور عليه الأخبار !

* * *

ويبدو لنا أن نشوة العلم الجديد ــ علم المقابلة بين الأديان ــ هي التي دفعت أصحابها في القرن الثامن عشر إلى تحميل المشابهات والمقارنات فوق طاقتها فإننا نرى أمامنا في هذا العصر أن هذه المشابهات لا تنفى ولا تثبت ، بل لعلها إلى الإثبات أقرب منها إلى النفي على الاجمال .

نحن نرى في هذا العصر أن أتباع الطرق الدينية يتنافسون فينسب كل منهم إلى وليه المختار كرامات جميع الأولياء الآخرين ، لأنه يؤمن بتلك الكرامات ولا يشك في وقوعها ولكنه يعتقد أن ولياً واحداً هو الجدير باتيانها وهو الولي الذي اصطفاه وفضله على غيره من الأولياء .

ونحن نرى في هذا العصر وفي جميع العصور أن المشهور في صفة من الصفات تضاف إليه نوادر تلك الصفة وعجائبها ويصبح علماً لتلك الصفة في كل ما يروى عنها وينسب إليه ، فالمشهور بالكرم تنسب إليه المكارم جميعاً بغير سند، والمشهور بالشجاعة يذكر كلما ذكرت نادرة من نوادر الشجاعة ثم يذكر بعد ذلك كأنه هو صاحب تلك النادرة أو صاحب نادرة مثلها إن لم تكن تفوقها وتزيد عليها في بابها ..

وينبغي أن نذكر أن المسيحية وجدت قبل أن تقترن بها تلك المراسم والتقاليد ، وأن المسيحيين الأوائل أعرضوا عن كثير منها واستنكروه ومنعوه ، ومنهم من كان يحرم الاحتفال بمولد للمسيح في يوم كائناً ما كان ، وعلى رأسهم أوريجين الفقيه العظيم . وقد مضت ثلاثة قرون قبل أن تحتفل كنيسة من الكنائس المعتمدة بعيد الميلاد في تاريخ من التواريخ ، ثم اختلفت الكنائس . فاحتفلت الكنيسة الشرقية بالميلاد في السادس من شهر يناير واحتفلت به الكنيسة الغربية في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر ، ويرجح انها اختارت هذا اليوم لتصرف المسيحيين عن حضور المحافل الوثنية التي كانت تتخذه عيداً للشمس ، وتعلن فيه الأفراح بانتصار النور على الظلام ، لأن الاعتدال

الخريفي هو الموعد الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار ..

ولا يخفى أن بولس الرسول قد ولد في طرسوس وهي مركز من مراكز الديانة المثرية ، فليس من المستغرب أن تعلق بذهنه بعض مصطلحاتها وعاداتها ، وأن يكون قد تقبل بعضها تيسيراً لاقناع أتباعها بالدعوة الجديدة ، فلم يزل من سياسة التبشير في جميع الدعوات أن تيسر في هذا الباب ما يستطاع تيسيره ، وقد ظلت هذه السياسة مرعية عدة قرون ، إذ نقل الراهب بيد Bede في تاريخ الكنيسة الانجليزية خطاباً لغريغوري الأول (تاريخه سنة ٦٠١ ميلادية) يستشهد فيه بنصيحة المستشار البابوي مليتس 'Mellitus الذي كان ينهى عن هدم المعابد الوثنية ويرى الابقاء عليها « وتحويلها من عبادة الشياطين إلى عبادة الإله الحق ، كي يهجر الشعب خطايا قلبه ويسهل عليه غشيان المعاهد التي تعود ارتيادها » [1] .

ولا خلاف في تكرار العدد « اثني عشر » في كثير من الديانات ، ولكن تكراره هذا لا يستلزم أن يكون كل معدود به خرافة أو أسطورة غير تاريخية ، وقد كان خليقاً بأصحاب المقارنات والمقابلات أن يذكروا هذه الحقيقة بصفة خاصة ، إذ أقرب المؤرخين إليهم سوتنيوس صاحب تاريخ « القياصرة الاثني عشر » وكلهم من « الشخصيات التاريخية » .

وفي تاريخ الاسلام تفصيل مذهب الشيعة الامامية وهم يدينون بالولاء لاثني عشر إماماً معروفين بأسمائهم ليس منهم من يمكن أن يقال فيه انه شخصية غير تاريخية .

على أن النقاد الذين شكوا في وجود السيد المسيح قد شكوا كذلك في وجود يوشع بن نون وظنوا فيه كما ظنوا في السيد المسيح أنه رمز من رموز العبادات الشمسية لأنه يسير الشمس ويوقفها عن مسيرها ، ولم يصل إلى علم هؤلاء النقاد أن اسم يوشع بن نون وجد منقوشاً على حجر عند « نوميديا » بشمال افريقية حيث أقام الفينيقيون مستعمرتهم « قارة حداشة » التي عرفت

---

(١) كتاب Paganism into Christianity in the Roman Empire by Hyde.

فيما بعد باسم قرطاجة ، وعلى ذلك الحجر الذي كشف (سنة ٥٤٠ ميلادية) كتابة بالفينيقية يقول كاتبوها : « اننا خرجنا من ديارنا لننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يوشع بن نون »[1] ... وليس كاتبو هذا الكلام عن النبي الاسرائيلي ممن يتهمون بالحرص على اثبات وجوده ونفي الشبهات عن سيرته وتاريخه ..

وقد تعب أصحاب المقارنات والمقابلات كثيراً في اصطياد المشابهات من هنا وهناك ولم يكلفوا أنفسهم جهداً قط فيما هو أولى بالجهد والاجتهاد ، وهو استخدام المقارنات والمقابلات لاثبات سابقة واحدة مطابقة لما يفرضونه عن نشأة المسيحية ، فمتى حدث في تاريخ الأديان أن أشتاتاً مبعثرة من الشعائر والمراسم تلفق نفسها وتخرج في صورة مذهب دون أن يعرف أحد كيف تلفقت وكيف انفصلت كل منها عن عبادتها الأولى ؟ .. ومن هو صاحب الرغبة وصاحب المصلحة في هذه الدعوة ؟ .. وأي شاهد على وجوده في تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد ؟ .. وكيف برز هذا العامل التاريخي الديني الخطير على حين فجأة قبل أن ينقضي جيل واحد ؟ .. ولماذا كان يخفي مصادر الشعائر والمراسم الأولى ولا يعلنها إلا منسوبة للسيد المسيح ؟ ..

إن استخدام المقارنات والمقابلات في تحقيق هذه السابقة أولى بمؤرخي الأديان من كل ما جمعوه أو فرّقوه لينتهوا به إلى فرض منقطع النظير ..

* * *

على ان صناعة النقد التاريخي تتهم نفسها بالعجز البالغ إذا لم تستطع أن تعتمد على الكلام المروي في تقرير « شخصية القائل » وتحقيق مكانه في التاريخ ، وبين أيدينا كلام السيد المسيح كما روته الاناجيل ينبئنا في هذه الناحية عن كثير ..

فمهما يكن من فصل القول في استقلال كل انجيل أو اعتماد بعضها على بعض فهناك علامات واضحة لا يمكن أن يقصدها كتاب الأناجيل ،

---

(١) الفصل الرابع من المجلد الثالث من صحائف شمبرز **Chamber's papers**

لأنها علامات نفهمها الآن وفاقاً لما درسناه من تطور الدعوة المسيحية ، ولم يكن لها محل في رؤوس الرواة المشاهدين أو الناقلين .

فإن روايات الأناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة إلى نهايتها ، ومن التطور المعقول أن تبتدىء الدعوة قومية عنصرية ثم تنتهي انسانية عالمية ، وأن تبتدىء في تحفظ ومحافظة ثم تنتهي إلى الشك والمخالفة ، وأن تبتدىء بقليل من الثقة في شخصية الداعي ثم تنتهي بالثقة التي لا حد لها في نفوس الأتباع والأشياع ، وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الأناجيل دون أن يتعمد كتابها تطبيق أحوال التطور أو تلتفت أذهانهم إلى معنى تلك الأحوال .

وربما كان أوضح من هذا في الابانة عن شخصية الداعي أن أقواله تتضمن نقداً لجميع المذاهب التي كانت شائعة في عصره ، وأن هذه الأقوال تشير إلى وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود في غير تلك الشخصية ..

فالأقوال المسيحية تنتقد الفريسيين ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر الصدوقيين أو السامريين .

وتنتقد أصحاب النصوص ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر الاباحيين والمتحللين .

وتنتقد الآسين المتعصبين ولكنها لا تدين بآراء الفلاسفة أو الأبيقوريين والرواقيين ..

وتنتقد السامريين ولكنها لا ترفض السامرية بتاتاً ولا ترفض غيرها من النحل كل الرفض من جانب محدود .

وتستشهد بأقوال موسى وابراهيم والأنبياء ولكنها لا تتقيد بكل قول منها تقيد المحاكاة ولا تقتدي بها اقتداء التابع للمتبوع .

وإذا جمعنا وجوه النقد جملة واحدة أمكن أن نردها كلها إلى وجهة نظر متناسقة وقوام شخصي مرسوم ، وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغي أن يقع ، لأن التناسق الذي يجري مجرى الأعمال الآلية على وتيرة واحدة

لا يوافق طبيعة الدعوات الحية المتقدمة ، ولا سيما الدعوات في عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثبيت .

* * *

هذه علامات « موضوعية » لها شأنها الأكبر في الابانة عن شخصية السيد المسيح ، وأصدق تلك العلامات ، بعد هذا كله ، ان الدعوة جاءت في ابانها وفاقاً لمطالب زمانها ، بحيث تكون الغرابة أن يخلو الزمن من رسول يقوم بالدعوة ويصلح لأمانتها ، لا أن يوجد الرسول ونستغرب أن يكون ، ولو أن مؤلفا بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رسولاً يوافق رسالته المنشودة لوقف به الخيال دون ذلك التوفيق المطبوع ..

صورة وصفية

من أقدم الصور الوصفية التي حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون في القرن الرابع وزعم رواتها انها كتبت بقلم بيليوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبل الدولة الرومانية ، رفعها إلى مجلس الشيوخ الروماني في عصر الميلاد ، وجاء فيها : « انه في هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمى يسوع ويدعوه تلاميذه بابن الله وكان للرجل سمت نبيل وقوام بين الاعتدال ، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معاً ، فيحبه من يراه ويخشاه .. شعره كلون الخمر منسرح غير مصقول ، ولكنه في جانب الأذن أجعد لماع ، وجبينه صلت ناعم ، وليس في وجهه شية ، غير أنه مشرب بنضرة متوردة ، وسيماه كلها صدق ورحمة ، وليس في فمه ولا أنفه ما يُعاب ، وعيناهُ زرقاوان تلمعان .. مخيف إذا لام أو أنّب ، وديع محبب إذا دعا وعلم ، لم يره أحد يضحك ، ورآه الكثيرون يبكي ، وهو طويل له يدان جميلتان مستقيمتان ، وكلامه متزن رصين لا يميل إلى الاطناب ، وملاحته في مرآه تفوق المعهود في أكثر الرجال » .

إلا ان هذه الرواية مشكوك فيها وفي اسنادها التاريخية ، ومثلها جميع الروايات التي تداولها الناس في ذلك العصر أو بعده ، ومنها ما لا يعقل ولا يظن به إلا أنه مدسوس من أعداء المسيحية في العصور الأولى ، كقول بعضهم انه كان قميئاً أحدب دميم الصورة . فإن الشريعة الموسوية كانت تشترط في الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من العيوب ، ولا ترسم لخدمة الدين من يعيبه نقص أو تشويه ، فمن غير المعقول أن يتصدى للرسالة من يعاب بالحدب والدمامة والقماءة معاً ، وأن يخلو الكلام المنسوب إلى خصومه أو أنصاره

من الاشارة إلى ذلك في معرض المذمة أو معرض العجب ومداراة العيوب الجسدية بالمحاسن الروحية .

نعم إن الأنبياء في بني اسرائيل لم يكن لهم راسم يرشحهم للنبوة بشروط معلومة كشروط الكهانة ، ولكن اتصاف النبي بالدمامة والحدب لا يبقى في طي الكتمان مع التحدث عنه وعن المشوهين وأصحاب الآفات الذين يبرئهم ويساقون اليه ليشفيهم من الشوهة والآفة .

* * *

وليس في الأناجيل إشارة إلى سمات السيد المسيح تصريحاً أو تلميحاً يُفهم من بين السطور ولكن يؤخذ من كلام نثنائيل حين رآه لأول مرة انه رائع المنظر ملكي الشارة ، إذ قال له : « أنت ابن الله . أنت ملك اسرائيل » ... وأراد المسيح أن يفسر ذلك بأنه تحية يجيب بها الفتى على تحيته ، ولكنها على أية حال تحية لا تقال للأحدب ولا للدميم المشنوء ..

غير اننا نفهم من أثر كلامه انه كان مأنوس الطلعة يتكلم فيوحي الثقة إلى مستمعيه ، وذلك الذي قيل عنه غير مرة إنهم أخذتهم كلماته ، لأنه « يتكلم بسلطان » وليس كما يتكلم الكتبة والكهان .

وقد كان ولا ريب فصيح اللسان سريع الخاطر ، يجمع إلى قوة العارضة سرعة الاستشهاد بالحجج الكتابية التي يستند إليها في حديث الساعة كلما فوجىء باعتراض او مكابرة ، وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتجلة ، لأن وصاياه مصوغة في قوالب من الكلام الذي لا ينظم كنظم الشعر ولا يرسل ارسالاً على غير نسق ، ويغلب عليه ايقاع الفواصل وترديد اللوازم ورعاية الجرس في المقابلة بين الشطور .

وذوق الجمال باد في شعوره كما هو باد في تعبيره وتفكيره ، والتفاته الدائم إلى الأزهار والكروم والحدائق التي يكثر من التشبيه بها في أمثاله عنوان لما طبع عليه من ذوق الجمال والاعجاب بمحاسن الطبيعة ، وكثيراً ما كان يرتاد المروج والحدائق بتلاميذه ويتخذ من السفينة على البحيرة — بحيرة

طبرية — منبراً يخطب منه المستمعين على شاطئها المعشوشب كأنما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفقات الموج وخفقات النسيم ، ولم يؤثر عنه انه ألف المدينة والحاضرة كما كان يألف الخلاء الطلق حيث يقضي سويعات الضحى والأصيل أو سهرات الربيع في مناجاة العوالم الأبدية على قمم الجبال وتحت القبة الزرقاء ..

وقد أطبقت روايات الأناجيل على أنه كان عظيم الأثر في نفوس النساء ، يتبعنه حيث سار ويصغين إليه في محبة ووقار ، ومن عظماء الرجال من تتعلق بهم نظرات النساء كأنهن مأسورات مسحورات ، ومنهم من تتعلق بهم نظرات النساء لأنهم يلعجون أفئدتهن بخوالج اللحم والدم ونزعات الغرائز والأهواء . ولكن الرجل العظيم الذي يجتذب إليه قلوب النساء لأنه يشيع فيها السكينة ويبسط عليها الطمأنينة وينعمها بجنان الطهر والقداسة ويريحها من وساوس الضعف والفتنة ، أعظم في نفوسهن أثراً من كل عظيم ، وهو الذي من أجله ينسين الجسد ويرتفعن بحبهن له فوق مناط الظنون ..

لهذا لا نستغرب أن يقال إن قرينة بيلاطس كانت تحذر قرينها أن يمس ذلك الانسان الصالح ، وأن تغلب محبة التقوى على محبة الدنيا في نفوس تبعته وهجرت زينة الحياة ، ومنهن الغواني اللواتي تستدعيهن الحياة كل يوم بداع مطاع .

* * *

وقد وصف نفسه بأنه « وديع متواضع الفؤاد » وقال ان الوداعة مفتاح السماء فلا يدخلها غير الودعاء ، وتمثلت الوداعة في كثير من أقواله وأفعاله ، ومنها الرحمة بالخاطئين والعاثرين ، وهي الرحمة التي تبلغ الغاية حين تأتي من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات .

إلا أن هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة ، وكانت شيمته في رسالته شيمة الرسل جميعاً حين تعلو عندهم أواصر الروح على أواصر اللحم والدم ، وتتقدم حقوق الهداية على

حقوق الآباء والأمهات ... « مَن هي أمي ومَن هم اخوتي ؟ .. من يصنع مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي » .. « من ليس معي فهو علي ومن لا يجمع معي فهو يفرق » .. « وان كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته ، حتى نفسه ، فما هو بقادر أن يكون لي تلميذاً » .

وهذه وأشباهها من الشروط الصارمة التي كان يفرضها على مريديه هي الشروط التي لا غنى عنها لكل دعوة مستبسلة أمام السيطرة والجبروت: ومهما يكن فيها من أساليب المجاز والكتابة فالقول الصراح الذي لا خلاف عليه أن التجرد من أواصر المنافع والشهوات أول الآداب التي يتأدب بها الجنود في كل ملحمة : جنود الحرب في ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة ، فما بالنا بجنود الحرب في فتوح الروح ومطالب الكمال ..

* * *

ولقد كان عليه السلام يأمرهم أن يقدموا على المخاطر في سبيل الحق والهداية ، ولكنه كان يقيم لهم حدود المخاطرة حيث يجب الاقدام على الموت وجوباً لا مثنوية فيه ، فالخطر على الروح أولى بالاتقاء من الخطر على الجسد ، وهان موت الجسد إذا كان موت الروح في الحسبان ، فإن لم يكن خطر على الجسد ولا على الروح فلا خير في المخاطرة ... وكونوا بسطاء كالحمائم وحكماء كالحيات .

وفي انجيل مرقس أن السيد المسيح نجا بنفسه إلى جانب البحر حين علم أن الفريسيين والهيروديين يأتمرون به لاهلاكه ، وفي سائر الأناجيل انه كان يشكو حزنه وبثه حين أحدق به الخطر ، وانه كان يدعو الله أن يجنبه الكأس التي هو وشيك أن يتجرعها ، وانه كان يقول لتلاميذه : « نفسي جد حزينة ... امكثوا ها هنا واسهروا معي » ... وانه كان يعتب عليهم حين يراهم نياما على مقربة منه وهو يعاني برحاءه وأشجانه ويقول لهم : ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة ؟ .. ثم قال لهم آخر الأمر وقد حم القضاء : الآن ناموا واستريحوا ! ..

فليس الاقدام على الجهاد أن تتجرد النفس من طبيعتها في وجه المخاوف والمتالف ، وليس محظوراً على النفس في سبيل ذلك الجهاد أن تأخذ بالحيطة أو تلوذ بمن تحب وتستمد العون من عواطف المحبين ، وإنما المحظور عليها أن تخشي الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح ، وفي غير ذلك لا خشية ولا مخاطرة ولا ملام .

* * *

ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان السيد المسيح خلق على فطرة أمثاله من أصحاب الرسالات الكبرى الذين لا ينقطعون لحظة عن الرياضة الروحية ، وهذه الرياضة الروحية هي التي تجعلهم منذ صباهم عرضة للقلق والتنقيب في أعماق ضمائرهم لعلهم يعرفون مداهم من الاقتراب أو الابتعاد من طريقهم إلى الله . فهم يشرفون على النور حيناً ويحتجبون عنه حيناً ويعودون إلى طواياهم في كل حين يحاسبونها على اشراقه أو احتجابه ، ويستبشرون تارة لأنهم يلمحون معالم الطريق ، وينحون على أنفسهم باللائمة تارة لأنهم يتهمونها بالزيغ عن الجادة والانحراف عن السواء ، وفيما بين هذا القلق وتلك البشارة تنمو النفس على الرياضة وتتهيأ للثبات والاستقرار وتتخذ العدة لليقين والايمان .

لا ريب أن هذه الرياضة هي التي عناها كتّاب الأناجيل بفترة التجربة في البرية حيث تعيش الشياطين ، وما للشياطين هنا من وساوس غير وساوس القلق وصراع الفتنة وغواية الطمع بين الاقدام والاحجام ، حيث تطمئن النفس ساعة ثم تمتحن هذه الطمأنينة بالتجربة ساعة أخرى ، ثم تعاف التجربة لأنها تسليم بالشك حيث ينبغي التسليم بالثقة ، رسالة الله حقيقة بكل فداء وأهل لكل ثمن وكل جزاء ، ولكن من لك أيها الضمير ، إنك أنت المختار لرسالة الله ؟ .. أو تطلب البرهان ؟ .. فمن أين لك أن تجمع بين طلب البرهان وبين صدق الايمان .. ؟

وقد تغلب المسيح على هذه المحنة كما تغلب عليها الانبياء المرسلون

بعد قلق وجهاد وصبر أليم ، ونحسبه بعد ذلك كان يعالج القلق من هذا القبيل بالتسليم للواقع ، وكان يستلهم الحوادث إرادة الغيب حين تحتجب عنه هذه الارادة ، فيترك الحوادث تمضي ويمضي معها وينتظر ما تحكم به المقادير ، وفي هذه المواقف يخيفه في أعماق طويته أن يطلب البرهان الالهي لأنه لا يريد أن يجرب إلهه ، ويخيفه أن يحجم ويتهم ضميره بالاحجام مخافة العواقب ، فذاك مسعاه إلى بيت المقدس في أخريات رسالته مرتين : مرة وهو يدخلها بين الترحيب والتهليل ، ومرة وهو يدخلها بين النذر والشباك وخيانة الأصحاب ودسيسة الأصدقاء .

* * *

كانت هذه الخطوات من خطوات التسليم الذي ينطوي فيه حب الاستلهام والاستطلاع ، خيراً من طلب البرهان وخيراً من النكوص ما لم يكن هنالك برهان ، وما قال قائل في أمثال تلك المواقف ، ليفعل الله ما يشاء ، إلا وهو يترك للمقادير أن تظهر من مجرى الحوادث حيث تجري بها مشيئة الله ..

في لحظات كهذه اللحظات يغوص الإنسان كله في أعماق ضميره ، ولعل لحظة من تلك اللحظات هي التي قال فيها الناظرون إليه أنه غائب عن نفسه ، أو هي التي صمت فيها لا يحير جواباً لأنه هو يترقب جواب الغيب المنظور مما عسى أن يكون عما قريب ، أو هي التي أقدم فيها لا يبالي بسلامته وعاقبة أمره ، ولم يكن فكره قاصراً عن استطلاع العواقب جميعاً في موقف من تلك المواقف الحاسمة ، ولكن المشكلة الكبرى كلها في استطلاع العواقب ، فهل تراه لا يُقدم على العواقب إلا بضمان من البرهان ؟ ..

* * *

إن أعمال أصحاب الرسالات لا تُفهم على حقيقتها ما لم تفهم معها هذه القاعدة الأساسية في طبيعة الرسل وهي أن الشك أخوف ما يخافونه ، وان استبقاء الإيمان غاية ما يبتغونه وكثيراً ما يقدمون على جسام الأمور لأن التسليم أقرب إلى الإيمان ، ولأن الإحجام شك أو انتظار برهان ، والشك وانتظار البرهان يستويان في بعض الأحيان .

وقد تواترت الروايات على أن السيد المسيح كان يبتهل إلى الله في أخريات رسالته قائلاً : « اللهم جنبني هذه الكأس ، لكن كما تريد أنت لا كما أريد » ..

وفي هذا الابتهال مفتاح كل عمل أقدم عليه بعد ذلك ، أو أقدم عليه في مثل هذا الموقف ؛ فإنه لم يتجنب الكأس كما يريد بل ترك لله أن يجنبه إياها كما أراد ، وموضع الشبهة في نفسه الشريفة ان السلامة هي ما يريده ، وان النكول هو طريقه إلى اجتناب الكأس ، فليكن مسيره إذن في غير هذه الطريق ، وليكن التسليم هو طريق الأمان .



٤

الدعوة

الدعـــوة

تواريخ الأديان جميعاً تثبت الحقيقة الواضحة التي لا مغزى لكتابة التواريخ مع الشك فيها ، ونعني بالحقيقة الواضحة اطراد السنن الكونية في الحوادث الإنسانية الكبرى ، فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا إلا سبقته مقدماته التي تمهد لحدوثه ، وجاء سريانه في العالم على وفاق لوازمه ودواعيه .

وليست المسيحية شذوذاً عن هذه القاعدة ، بل هي من أقوى الظواهر التي تؤيدها وتسري في مسراها ، وسنرى بعد الاحاطة بالفصول السابقة والفصول التالية أن الصلة لم تنقطع كل الانقطاع بين العصرين ، وأن العصر القديم كان يلتفت بنظره شيئاً فشيئاً إلى وجه العصر الجديد ، وسنرى غير مرة في هذا الكتاب أن الدعوة المسيحية جاءت في ابانها وفاقاً لمطالب زمانها ..

وليس أقرب إلى جلاء هذه الحقيقة من تلخيص صورة العصر كله في كلمات معدودات نحصر بها آفاتها البارزة ونهتدي بهذه الآفات إلى علاجها الموكول إلى العقيدة .

فما هي آفة العصر التي برزت في التاريخ واتفقت عليها أوصاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين أو من غير طريق الدين ؟ ..

كانت له آفتان بارزتان : احداهما تحجّر الأشكال والأوضاع في الدين والاجتماع ، والأخرى سوء العلاقة بين الأمم والطوائف مع اضطرارها إلى المعيشة المشتركة في بقعة واحدة من العالم المعمور ، وعلى الخصوص تلك الأقاليم التي نسميها اليوم بالشرق الأدنى .

تحجرت الأشكال والأوضاع وغلبت المظاهر كل شيء ، وتهافت الناس على حياة القشور دون حياة اللباب ، فكل معنى الحياة عندهم سمت وزينة وأبهة ومحافل وشارات ، وانتقلت الحضارة من الداخل إلى الخارج أو من النفس إلى الجسد ، كما يحدث دائماً في أعقاب الحضارات ، تبدأ في عالم الفكر والوجدان ثم تستفيض العمارة فتميل إلى التجسم والتضخم وتفقد من قوة النفس والضمير بمقدار ما تكسب من مظاهر المادة والمال ..

* * *

تجمعت الثروة والكسل في ناحية وتجمعت الفاقة والجهد المرهق في ناحية أخرى .. فغرق السادة في الترف ، وغرق العبيد والأرقاء في الشقاء ، وفسدت حياة هؤلاء وهؤلاء .

وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالاً ومراسم خلوا من المعنى والغاية ، وتحجرت معه الشرائع والقوانين ، فلم يكن غريباً أن تنقش على حجارة وأن يرتفع ميزانها في يدي عدالة معصوبة العينين ، وأن تفرغ الكفتان فتستويان لأنهما فارغتان ! ..

وهل كانت المسيحية إلا العقيدة التي تدعو إلى خلاصها من حيث يرجى وهيهات لها في غيره خلاص ؟ ..

* * *

وتقطعت الأسباب بين الأمم وبين الطوائف وبين الآحاد ، واتسم العصر كله بالعصبية في السائد والمسود والحاكم والمحكوم .

الروماني سيد العالم بحقه ، والاسرائيلي سيد العالم بحق إلهه ، واليوناني والآسيوي والمصري كل منهم سيد الأمم وكل منهم مثال الهمجية ، والمولى يخرج العبد من زمرة الآدميين ، والعبد يمقت السيد مقت الموت أو يفضل الموت على الرق الذي يجمع عليه بين الذل والألم والجوع ، وأبناء الأمة الواحدة طوائف تشيع بينها التهم وتعمها البغضاء .

ويأتي إلى هؤلاء البشير المنظور فماذا يقول لهم إن لم يقل لهم ان الله رب بني الإنسان وانه هو ابن الإنسان ، وان الحب أفضل الفضائل وأفضل الحب حب الأعداء ، وان الكرم أن تعطي من يسألك وأكرمه أن تعطي فوق ما تُسأل وأن تعطي بغير سؤال ، وان ملكوت السماوات لا تفتحه الأموال ، وان ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، وان المجد الذي يتنازعه طلابه لا يستحق أن يُطلب ، وان المجد الذي يستحق أن يطلب لا موضع فيه لنزاع .

ولم يأت هذا البشير فضولاً على غير انتظار : أبناء قومه موعودون به في ذلك الزمن ، وأبناء الأقوام ينتظرون شيئاً لا يعرفونه ولكنهم يعرفون أن زمانهم لا يطاق ، وان حالهم لا بد لها من تحويل ..

وتحجرت العقائد الوثنية في الدولة الرومانية وتحجرت العقائد الكتابية بين بني اسرائيل فأصبح فرق الشعرة بين النصين يقيم الحرب الحامية على قدم وساق ، وأصبحت التقوى علماً بالنصوص وبحثاً عن مراسم الشريعة ، وغلب « المظهر » على المتشبثين بالنصوص والمتصرفين فيها ، فلا خلاف بينهم في طلب المظهر وإن اختلفوا على اللفظ والتأويل .

أشكال وقشور ، ولا جوهر هناك ولا لباب .

وساءت العلاقة بين الأمة والأمة وبين الطائفة والطائفة ، وبلغ الحس بسوئها غايته ، لأن الذين يعانون من سوئها يعيشون في نطاق واحد ويخضعون لحكم واحد ، فلا فكاك منه بحال .

دنيا آفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة ، ومن وراء ذلك باطن هواء ، وضمير خواء ، فلا جرم يكون خلاصها في عقيدة لا تؤمن بشيء كما تؤمن ببساطة الضمير ، ولا تعرض عن شيء كما تعرض عن المظاهر ، ولا تضيق بخلاف كما تضيق بالخلاف على النصوص والحروف وفوارق الشعرة بين هذا التأويل وذلك التحليل .

عقيدة قوامها أن الإنسان خاسر إذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه ، وأن ملكوت السماء في الضمير وليس في القصور والعروش ، وأن المرء

بما يضمره ويفكر فيه وليس بما يأكله وما يشربه وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد والمحاريب .

هل كانت للدنيا آفة غير آفة التناحر على المظاهر ؟..

وهل كانت لتلك الآفة خلاص غير ذلك الخلاص ؟ ..

أفلست العبادات ، وجاء أحد المعبودين – قيصر رومة – فأحرق الأسفار والنبوءات ، ولم يبق منها إلا ما هو إلى الفن في محراب ابولون إله الفنون ..

أما العبادة التي لم تفلس فقد كان رأس مالها كله نسيئة منتظرة ... وهذه علامات السداد يستبشر بها المصدق ولا يجحدها المنكر ، وإنما هو خلاف على العلامات ، وعلى مصداقها من العيان والسماع .

لقد كانت الدعوة طباق الزمن وقد بدأت في أوانها لم تتقدم ولم تتأخر ، وكفى بذلك برهاناً على موقعها الصحيح من التاريخ ، فقد كان بلاء الناس انهم خربوا باطنهم وعمروا ظاهرهم ، فجاءهم الرجاء الذي يصلح لذلك البلاء : بشارة لا تبالي أن يخرب ظاهر الدنيا كله إذا سلم للانسان باطن الضمير ...

* * *

وهذه هي دعوة السيد المسيح كما ساقها الغيب وترقبها العالم الذي سيقت إليه ، ولو لم تكن هي طلبته يومئذ لما استولت عليه قبل أن تنقضي عليها أربعة قرون ...

وهذه الدعوة لقيت أشد ما يلقاه دين من مقاومة ... فلا يفهم من هذا إنها شاعت في العالم الإنساني على الرغم منه أو على غير حاجة منه إليها ، فإنما الدين المطلوب هو الدين الذي تعلو أسباب قبوله على أسباب رفضه ، وليس هو الذي يقبله الناس جميعاً طائعين مستسلمين كأنه غني عمن يدعو إليه ، وما من دعوة قط تستغني من مبدأ الأمر عن الدعاة .

ولقد تصدى رسول الإخاء والسلام لدعوته وهو يعلم انها أخطر الدعوات

وأنها أخطر جداً من دعوة البغضاء والقسوة ، لأن الذي يدعو إلى الإخاء يدعو إلى اقتلاع جذور البغضاء ، والذي يدعو إلى السلام يدعو إلى تحطيم سلاح الأقوياء ، وليس اقتلاع جذور البغضاء بالأمر الهين ، وليس تحطيم سلاح الأقوياء علالة حالم وليس السبيل إلى ذلك سبيل الرضا والوفاق .

لهذا كان يقول : « جئت لألقي على الأرض ناراً فحبذا لو تضطرم » .. وكان يسأل تلاميذه وسامعيه : « أتحسبونني أتيت لأمنح الأرض سلاماً ؟ » ثم يبادر فيقول : « كلا ! .. وإنما هو الصدام والانقسام ، خمسة في البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين ، واثنان على ثلاثة : ينقسم الأب على ابنه والابن على أبيه ، وتنقسم الأم على بنتها والبنت على أمها ، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة » .

* * *

ولقد كان كلام كهذا يقال على ألسنة بني اسرائيل كما قال ميخا : « ما في الناس من مستقيم ، كلهم يكمن للدماء وينصب الشباك ، لا تأتمنوا صاحباً ، لا تثقوا بصديق وأوصد فمك عن تلك التي تضطجع في حضنك ، إن الابن بأبيه مستهين ، وإن البنت على أمها ثائرة ... والكنة على الحماة ، وللانسان من أهل بيته أعداء » .

ولكن هذه الأقوال وما شاكلها كانت وصفاً لما هو حادث ولم تكن نبوءة عما سيحدث من الشر في سبيل الخير ، ومن البغضاء في سبيل الإخاء ، ومن الحرب سعياً إلى السلام .

وقد صحت نبوءة الرسول في بني قومه فناصبوه العداء لأنه يبسط الدعوة إلى الإخاء ويعم بها « طيور السماء » وهم رمز للطراق في جميع الأرجاء ..

ومن الواضح انه كان يؤثر قومه بالخير لو استمعوا إليه واتبعوه ، ولكنهم مدعوون إلى وليمة يرفضونها فمن حضرها بغير دعوة فهو أولى بها ، وكذلك ضرب لهم المثل بوليمة العرس وقد أرسل الداعي عبده في طلب ضيوفه « فقال هذا اني اشتريت حقلاً ، وعلي أن أخرج فأنظره ،

وقال ذلك : اني اشتريت أزواجاً من البقر وسأمضي لأجربها ... فغضب السيد وقال لعبده : « اذهب عجلاً إلى طرقات المدينة وأزقتها وهات إلي من تراه من المساكين » . فعاذ العبد وقال لسيده : « قد فعلت كما أمرت ولا يزال في الرحبة مكان » . قال السيد : « فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتي فلن يذوق عشائي أحد من أولئك الذين دعوت فلم تستجيبوا الدعاء » ..

ويمكن أن يقال في وصف تلك الدعوة العامة كثير لا يحصى على حسب النظرة التي ينظر بها القارىء إلى كلام المسيح في الأناجيل .

يمكن أن يقال انها دعوة إلى حين ينتهي وشيكاً بانتهاء العالم كله في أمد قريب ، ويمكن أن يقال انها دعوة ملكوت يدوم ولا يعرف له انتهاء .

ولكننا على التحقيق نطابق جوهرها كله إذا وصفناها بأنها « تغيير وجهة» وافتتاح قبلة ، ولا سبيل إلى الجمع بين الوجهتين ولا إلى التردد بين القبلتين ، فلن يخدم أحد سيدين .

قبلة الروح أو قبلة الجسد .

قبلة الله « مامون » [1] إله المادة والمال .

معبد الضمير أو معبد الصخر والخشب .

هنا أو هناك ..

فالمهم هو الاتجاه أين يكون ، وإلى أي أمد يدوم ، وكل ما يلي ذلك من تفصيل فهو خطوات الطريق تتسع أو تضيق وتسرع أو تتريث متى استقبل السالك قبلته وأدار ظهره لما وراءه ، ولا بد من المفترق الحاسم بين القبلتين ، ولا بد من خيرة بين السيدين ! ..

* * *

(١) كلمة آرامية ترمز الى المطامع الدنيوية والشهوات الجسدية .. وتلقى الآن في اللغات الاوروبية على الله المادة والمال .

اختيار القبلة

كان الموقف — كما قدمنا — على مفترق الطريق ، وكان على السالك أن يختار وجهته وقبلته ، ويحسب لها كل حسابها ، فيأخذها بكل ما لها وما عليها أو يرفضها بكل ما لها وما عليها ، ويجمع قلبه كله في خدمة الرب الذي يعبده .. فليس في مقدوره أن يعبد ربّين ، وأن يدين بالخدمة والاخلاص لسيدين ..

وعلى هذا الوجه وحده تفهم الدعوة المسيحية على جليتها ، ويزول اللبس عنها ، بل يزول عنها ما يبدو عليها من النقائض والأضداد ، لأنها عند تصحيح الاتجاه تعتدل على طريق مستقيم .

إذا كان الجليل مقبلاً على محراب « مامون » بقلبه وقالبه ، فالوجهة الأخرى على الطرف الآخر من هذا المحراب .

إن عبّاد « مامون » غارقون في هموم الحطام ، لا يفرغون لحظة لغير الشهوة والطعام ، فالذي يستدبر هذه القبلة فلتكن قبلته حيث لا ظل لذلك المحراب ولا انقاض لأركانه وأوثانه ، وحيث المطلوب كله هم الروح والضمير ، وحيث المنبوذ كله هم المادة والجثمان .

أو كما قال لهم الرسول البشير : « الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس .. وزنابق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تغزل ، وسليمان في كل مجده لا يلبس كما تلبس واحدة منها ، فإذا كان العشب الذي يقوم اليوم في الحقل ويطرح غداً في التنور يلبسه الله فما أحراكم أن يلبسكم يا قليلي الإيمان ..

« نعم .. وإذا تهالكت أمم العالم على الطعام والشراب وقلق العيش فاطلبوا أنتم ما هو أفضل وأبقى .. اطلبوا كنوزاً لا تنفد في سماواتها حيث لا تنالها يد السارق ولا يبليها السوس » .

من استدبر قبلة « مامون » فهذه هي القبلة التي يتجه إليها ، وهذه هي غايتها القصوى ، وإن لم تكن هي كل خطوة في الطريق .

وعلى هذا الوجه يفهم السامع رسول الرحمة حيث يقول :

« ما هو بقادر أن يكون لي تلميذاً من لا يقدر على أن يبغض أباه وامرأته وبنيه واخوته ، بل يبغض نفسه .

« وما هو بقادر أن يكون لي تلميذاً من لا يقدر على أن يحمل صليبه ويتبعني في طريقي » .

قائل هذا هو القائل :

« أيها السامعون : أحبوا أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، ادعوا لمن يسيئون اليكم ، من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الأيسر ، ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك ، وكل من سألك فأعطه ، ومن أخذ ما في يدك فلا تطالبه ، وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم ، وأي فضل لكم إن أحببتم الذين يحبونكم ؟ إن الخطاة ليحبون من يحبهم .. وأي فضل لكم إن أقرضتم من يردون قرضكم ؟ إن الخطاة ليقرضون من يقرضهم ، بل تحبون أعداءكم وتحسنون وأنتم لا ترجون أجركم .. »

وقائل هذا هو القائل :

« إن أخطأ أخوك فوبّخه ، وإن تاب فاغفر له ، وإن أخطأ إليك سبع مرات وتاب إليك سبع مرات فتقبّل منه توبته » .

وهذا نقيض ذاك ..

هذه الرحمة التي تعم الأعداء والأحباب نقيض البغضاء التي تشمل بها أحب الناس إلى الناس : الآباء والأمهات والأبناء وذوي الرحم والقربى .

إنهما تتناقضان غاية التناقض إلا على وجه واحد ، وهو توجيه النظر إلى قبلة غير القبلة ووجهة غير الوجهة ، وغاية قصوى غير تلك الغاية القصوى التي تستدبرها ..

وإذا افترقت الطريقان ووجب عليك أن تمضي هنا أو هناك ، فلا جناح عليك أن تمضي حيث سددت خطاك ولو كرهت نفسك وحملت صليبك وانقطعت عن ذويك ..

* * *

وما من أحد يأبى أن يحب ذويه وأن يحبه ذووه إذا ساروا حيث سار واستقاموا معه حيث استقام ، فليس عن هذا يجري الحديث ولا في هذا موضع للنصيحة أو التفضيل ، وإنما يجري الحديث ويستمع النصح حيث يتعارض الطريقان ويتناقضان .

إنما يجري الحديث ويستمع النصح حيث تتقابل القبلتان ، وحيث تمضي هنا مع الله وتمضي هناك مع « مامون » ..

ولا تناقض في هذا المفترق بين نصيحة من تلك النصائح أو آية من تلك الآيات ، فكلها على نهج واحد من أول الطريق إلى غايته ، ولهذه الغاية القصوى ينبغي أن يتحول من يممها بخطاه وآثرها بهواه .

وفي مثل من الأمثلة التي تعمر بها أقوال السيد المسيح عبر لهم عن الموقف كله بأن يحسبوا النفقة كلها قبل بناء حجر في البرج الشامخ .

« من منكم — وهو يريد أن يبني برجاً — لا يجلس ليحسب نفقته ويعلم هل لديه ما يلزم لكماله ؟ »

فهذا حساب التكاليف جميعاً قبل وضع الحجر الأول في أساس البناء ، وإلا فلا حجر ولا أساس ولا برج هناك ، وخير لمن تخذله القدرة وتعوزه النفقة أن يترك الأرض والحجر والبناء .

فمن نظر إلى الأرض فرأى شعاباً تتقاطع ومفارق تختلف فليرفع نظره

من تلك الشعاب ولينظر إلى الأفق الذي تنص إليه الركاب ، فهنالك القبلة التي يتلاقى عندها ما تشعب ، وينتهي إليها ما اعوج أو استقام من الدروب .

ولقد كان المستمعون إلى السيد المسيح ، وأولهم تلاميذه وأتباعه ، يعجبون منه لأمرين : ترحيبه بالأطفال الصغار ، وخطابه للمنبوذين المحقرين ، فانتهرهم حين رآهم يبعدون عنه أطفال القرى وقال لهم :

« دعوا الأطفال يأتون إلي ولا تمنعوهم .. فمن لم يقبل على ملكوت الله طفلاً فلن يدخل اليه » .

وقال لقوم أيقنوا أنهم أبرار واحتقروا المشهورين بالذنوب : « صعد اثنان إلى الهيكل يصليان ، فريسي وعشار .

« فأما الفريسي فراح يقول في صلاته : حمداً لك يا إلهي ! انني لست كسائر هؤلاء الخاطئين الظالمين الزناة ، ولا كمثل ذلك العشار ، أصوم في اليوم مرتين وأؤدي حق العشر عن كل ما أقتنيه .

« وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه إلى السماء وقرع صدره وابتهل إلى الله : ارحمني يا إلهي أنا الخاطىء ... فهبطا إلى بيتيهما هذا مستجاب وذلك غير مبرور » .

* * *

وتكررت هذه الأمثلة فتكرر معها العجب من المستمعين اليه من آمن به وأحبه ومن كفر به وحنق عليه ، ولو أنهم إذ كانوا يعجبون ذلك العجب قد عرفوا رسالته واستقبلوا قبلته لما أنكروا عليه أن يشخص ببصره إلى بعيد ، وإن يزهد في يومه ثم يمتد بالرجاء إلى غده ، فإنما في الغد يوم أولئك الأطفال المرتقب، وإنما يرجى لتبديل الحال من لا يعنيه من الحاضر إلا أن يزول ..

وجماع القول إن الدعوة الجديدة كانت ككل دعوة جديدة مريبة مناقضة لما حولها ، ولكنها تنفض عنها كل غرائبها ونقائضها إذا نظرنا إلى القبلة التي تستقبلها فهنالك تلتقي الشعاب ويحسن المآب .

تجارب الدعوة

استوفت الدعوة تجربتها في فترة قصيرة لم تطل أكثر من ثلاث سنوات ، ولكنها كانت كافية .. لأنها كانت في الواقع تجربتين ودعوتين ، قام بهما رسولان مختلفان في الطبيعة والطريقة : وهما يوحنا المعمدان (يحيي المغتسل) وعيسى بن مريم .

وكان يوحنا المعمدان مثال الناسك الصارم الذي لا يحابي ولا يتردد ، ينذر كثيراً ويبشر قليلاً ، ويضع الفأس على أصل الشجرة ، ولا يبالي أن يلقي بها حطباً في الأتون .

ولد لشيخين كبيرين بعد يأس ، كلاهما من سلالة الكهانة أبناء هارون : وهما زكريا واليصابات ..

* * *

وفي انجيل لوقا شرح لقصة هذا المولد في شيخوخة الأب والأم جاء فيه أن زكريا كان يتولى الخدمة الدينية في نوبته فأصابته القرعة لدخول الهيكل واطلاق البخور ، فطال مكثه في المحراب ، وجمهور المصلين يترقب ويتعجب ، حتى عاد اليهم صامتاً لا يتكلم ، فعلموا أنه قد حلت به الرؤيا داخل المحراب ، ثم روى أنه بصر على يمين المذبح بملك واقف فاضطرب وعرَته رجفة فقال له الملك : « لا تخف يا زكريا .. إن الله قد أجاب سؤالك وستلد امرأتك ولداً وتسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون ، لأنه يولد من بطن أمه ممتلئاً بالروح القدس ويرد بني اسرائيل إلى إلههم ، ويتقدم بروح ايليا (الياس) وقوته » .

وقد ذُكرت قصة زكريا في سورة آل عمران من القرآن الكريم : « هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيّا رَبّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إنّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ . فَنَادَتْهُ المَلائِكَةُ وهُوَ قَائِمٌ يُصلِّي في المِحْرابِ أَنَّ اللهَ يُبَشّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وسَيِّداً وحَصُوراً ونَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ رَبِّ أَنّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وامْرَأَتِي عَاقِرٌ ، قَال كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء . قَال ربِّ اجْعلْ لي آيةً قَال آيتُكَ ألاّ تُكلِّمَ النّاسَ ثَلاثَةَ أيّامٍ إلاّ رمْزاً ، واذْكُرْ رَبّكَ كَثِيراً وسَبِّحْ بالعَشِيِّ والإبْكَارِ » .

وذكرت في سورة مريم : « ذكرُ رحْمَةِ ربِّكَ عَبْدَهُ زكَرِيّا ، إذ نَادَى رَبَّهُ نِداءً خَفِيّاً ، قَال رَبِّ إني وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ولمْ أكُنْ بِدعَائِكَ رَبِّ شقِيّاً، وإنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً . يَا زَكَرِيّا إنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَي لَمْ نجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً . قَالَ رَبِّ أَنّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وكَانَتِ امْرأَتي عَاقِراً وقَدْ بَلَغْتُ مِن الكِبَرِ عِتِيّاً. قَالَ كَذلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُو عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً . قَال ربِّ اجْعَلْ لي آيَةً ، قَال آيَتُكَ الاّ تُكَلِّمَ النّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ، فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوْحَى إلَيْهِم أَنْ سَبِّحُوه بُكْرَةً وَعَشِيّاً ، يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوّةٍ وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيّاً ، وَحَنَاناً مِنْ لَدُنّا وزَكَاةً ، وكَانَ تَقِيّاً ، وَبَرّاً بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جبّاراً عَصِيّاً ، وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ويَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً » .

* * *

وقد نشأ الطفل منذوراً للبتولة وذلك معنى وصفه في القرآن الكريم بالحصور ، وكان عليماً بالكتب الدينية ، يسمعها من أبويه ويتلوها في خلواته ، وكان كثير العزلة شديداً على نفسه في تهجده ونسكه ، فلما ظهر بالدعوة رآه الناس في ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد ، يصوم أكثر الأيام ويقتات من الجراد والعسل البري ويهيب بالناس في صوت قوي صارم : توبوا واستعدوا . قد وضعت الفأس في رأس الشجرة وكل شجرة لا تأتي بثمر جيد تقطع وتلقى في النار : صوت صارخ في البرية كما قال الأنبياء الأقدمون .

ولم يكن يتقي حرجاً في كلامه عن ذي خطيئة أو دنس ، فراح ينحي بهذا الصوت القوي الصراح على الملك هيرود لأنه تزوج من هيرودية أخته وزوجها لا يزال بقيد الحياة ، فلما اعتقله الملك وجيء به إلى حضرته لم يسكت ولم يكفف عن التنديد به وبأخته وأمره بتطليقها فراراً من غضب الله .

* * *

وفي سهرة من سهرات اللهو التي تعود هيرود أن يحييها في قصره، رقصت بنت أخته (سلامة) بين يديه فاستخفه الطرب ووعد أن يعطيها سؤلها كائناً ما كان ، فلم تسأله شيئاً غير رأس يوحنا في طبق،وأصرت على طلبها فأعطاها ما سألت وهو كاره ، ونجا بفعلته لأن يوحنا كان شديد اللسان على الكهان الفقهاء ، فتقبلوا تلك الجريمة بغير تشهير أو اعتراض .

وقد تنكر الكهان والفقهاء للرسول الثائر قبل أن يتنكر لهم ، كما يفعل الدينيون « المحترفون » عادة بالوعاظ الذين لا ينتسبون اليهم ولا يعيشون في زمرتهم ، فكان يوحنا يصيح بهم : « يا أولاد الأفاعي ، لا يهجس بأخلادكم انكم تنتسبون إلى ابراهيم .. إني أقول لكم إن الله قادر أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لابراهيم » .

وكانت هذه أول صيحة من ذلك الرسول الثائر سمع فيها الناس ان الخلاص نعمة يسبغها الله على من يشاء ولا يخص بها أبناء سلالة دون سائر

السلالات البشرية، وكانت علامته على قبول المسيحيين لدعوته أن يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول في زمرة التائبين وطلاب الخلاص ، ولو لم يكن لهم نسب في آل يعقوب وابراهيم ..

* * *

هذه الدعوة الصارمة لم تلبث أن اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور ولكنها لم تذهب سدى بين الدهماء التي لا تضلها أهواء السيادة ، وبقي اسم يوحنا مقدساً محبوباً يخاف الأدعياء أن يجترئوا عليه ، فلما أراد الكتبة والناموسيون أن يحرجوا السيد المسيح بالأسئلة والمعميات رد عليهم حرجهموقال لهم :أجيبوني (أولاً) هل كانت رسالة يوحنا من السماء أم من الناس ؟ .. فلم يستطيعوا جواباً لأنهم إذا اعترفوا برسالته اتهموا أنفسهم وإذا انكروها غضب الشعب عليهم فصمتوا مفحمين ..

وليس أدل على مكانة يوحنا من ثناء يوسفوس المؤرخ الكبير عليه ، وهو شديد الحذر من اغضاب ذوي الرأي والسلطان ، فقد قال عنه : « إنه كان إنساناً صالحاً أوصي اليهود أن يبر بعضهم ببعض وأن يتقوا الله » . وهذه شهادة من المؤرخ يردد بها شهادة قومه ، وهي شهادة للرسول وشهادة على أنفسهم ، وقد باءت دعوة الرسول الصارم باحدى التجربتين اللتين مرت بهما دعوة الخلاص في عصره ، فخرج الرسول الصارم من الدنيا وهو يعلم ان دعوة الخلاص ضائعة إذا انحصرت في قبيل واحد ، وان الخلاص مرهون بمن يطلبه ويخشى من فواته ، ولو لم يكن من ذلك القبيل ..

* * *

وللسيد المسيح طبيعة أخرى غير طبيعة يحيي بن زكريا ، فلم يكن متأبداً ولا نافراً من الناس ، بل كان يمشي مع الصالحين والخاطئين ، وكان يشهد الولائم والأعراس ، ولم يكن يكره التحية الكريمة التي تصدر من القلب ولو كانت فيها نفقة وكلفة ، ووبخ تلاميذه مرة لأنهم تقشفوا وتزمتوا فاستكثروا أن تريق احدى النساء على رأسه قارورة طيب تشترى بالدنانير ، وقالوا :

لماذا هذا السرف ؟ .. لقد كان أحرى بهذا الطيب أن يباع ويعطى ثمنه للفقراء ، فقال لهم عليه السلام : « ما بالكم تزعجون المرأة ؟ .. إنها أحسنت بي عملاً ، وإن الفقراء معكم اليوم وغداً ، ولست معكم في كل حين » ..

هذه السماحة قد اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور كما اصطدمت بهما تلك الصرامة . وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال : « إن يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به مس شيطان ، ثم جاء ابن الانسان يأكل ويشرب فقالوا انه انسان أكول شريب محب للعشارين والخطاة » .

رسالة قد استوفت تجربتها بل تجربتيها ، وخرجت من التجربتين معاً انسانية عالمية تنادي من يستمع اليها ، وتعرض عمن أعرض عن دعوتها بل دعوتيها : دعوة الغيرة الصارمة الأبية ، ودعوة الغيرة السمحة الرضية ، ولو قدر لها أن تعيش في قبيل واحد لاستمع لها ذلك القبيل فانعزلت معه ، فلم يسمع بها العالمون .

الشريعة

كل مراجعة تاريخية لذلك العصر تنتهي من جانب البحث السياسي أو جانب البحث الاقتصادي أو جانب البحث الاجتماعي ، أو الديني ، أو الثقافي إلى نتيجة واحدة: وهي أن ضحايا البذخ والرياء قد بلغوا فيه من كثرة العدد وسوء الأثر حداً يفوق احتمال عصر واحد، فلا يطيق أن ينتقل بها إلى العصر الذي بعده دون ان يطرأ عليه طارىء، ولن يكون ذلك الطارىء غير طارىء انقلاب شامل .

بلغ فيه ضحايا البذخ والرياء غاية ما يبلغونه في عصر واحد ، وقد يقال انهم ضحايا الرياء بألوانه الاجتماعية والنفسية ، فما كان البذخ إلا ضرباً من الرياء الاجتماعي ، لأنه معلق في جميع أحواله بفخفخة الظهور ، وسيان ولع النفوس بفخفخة الظهور الأجوف وولعها بالرياء .

وفي عصر كذلك العصر تلزم الرسالة .

لكنها رسالة لا تلزم لتأتي العالم بمزيد من الشريعة ، ولا بمزيد من تطبيق الشريعة . فقد تكون المصيبة كلها في تطبيق الشريعة إذا جرى على سنة الرياء ، وغلب فيه النفاق على الصدق والإنصاف .

إنما تلزم الرسالة في أمثال ذلك العصر لتعطي العالم ما يحتاج اليه ، وتنقذ ضحاياه .

والآداب الانسانية هي الحاجة العظمى حين ينخر السوس باطن العرف

والشريعة ، وضحايا الرياء هم أول من يتلقف تلك الآداب الانسانية ، ويشعر بتلك الحاجة العظمى .

إنها رسالة قلب كبير يشعر فيجذب اليه كل شعور ، ولا سيما شعور الضحايا والمظلومين ..

ويوشك مع الظلم أن يكون كل منهم مظلوماً ، لأن الجريمة كلها في جانب الحاكم لا في جانب المحكوم عليه .

وحيث يكون الظلم هو الآفة فالمتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ ..

وقد كان المتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ في أحضان الدعوة الجديدة : أحضان الرسول المبشر بالخلاص والنجاة .

طوبى للحزانى . طوبى للمساكين . طوبى للجياع والظماء . طوبى للمطرودين في سبيل البر ، طوبى للودعاء والرحماء : « تعالوا إلي يا جميع المتعبين والمثقلين .. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني .. فتجدوا راحة لنفوسكم . لأن نيري هين وحملي خفيف » .

أما الويل فهو ويل الشباعى الذين لا يعلمون أنهم جائعون ، والأغنياء الذين لا يعلمون أنهم معوزون ، والمتجبرين الذين لا يعلمون أنهم مساكين ، والمتكبرين الذين لا يعلمون أنهم منكسرون .

* * *

واستجاب ضحايا الرياء صيحة الرسول الكريم على قدر شوقهم إلى العزاء ، وعلى قدر ما يحملونه من أوقار الشريعة العمياء ، والتقوى المزيفة ، وربما كان الأصح ان الرسول الكريم بذل عطفه لضحايا الرياءعلى قدر حاجتهم اليه وشعورهم براحته ورحمته ، وعلم ان الشكران على قدر الغفران ، وان الأمل في التوبة على قدر الكرم في المحبة : « مدينان على أحدهما خمسمائة

ديناروعلى الآخر خمسون . ليس لهما ما يوفيان ،فأجزلهما شكراً من سومح في الدين الكبير » .

وكانت ضحية الضحايا في ذلك العصر المرأة ، لأنها لم تزل ضحية الضحايا في كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب ويطغى عليه الحرمان من جانب ، ويعم الرياء في كلا الجانبين ، ولم تزل في كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على ألوانها : فتنة الغواية وفتنة الفاقة وفتنة الأسرة المنحلة وفتنة الحيرة التي تعصف بالثقة .. والطمأنينة ألزم ما يلزم المرأة في كل زمان ..

ونظرت تلك الفريسة التي لاحقتها اللعنة أحقاباً بعد أحقاب ، وأطبقت عليها الفتنة في ذلك العصر خاصة آكاماً فوق آكام — فإذا حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ويشيع الأمل في رحمة الله بين جوانحها ، فعلَّمها من دروس الحب القدسي ، ما لم تتعلمه من دروس العقاب في شريعة المنافقين وموازين المقسطين ، وبرزت على صفحة الزمن في ساعة من ساعات ذلك العصر المريج صورة مشرقة .. زالت شرائع الهيكل ، وزالت شرائع رومة ، وهي باقية عالية : صورة الغفران ماثلة في شخص الرسول الكريم ،وصورة التوبة ماثلة في شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه ، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر رأسها .

* * *

والتفت السيد إلى تلميذه وإلى المتعجبين من حوله ، يتساءلون : كيف يزعم انه نبي ويجهل انها امرأة خاطئة ، فقال : « أتنظر إلى هذه المرأة ! إن دخلت بيتك فلم يكن لقدميّ فيه مسحة من ماء ،ولكنها غسلتهما بالدموع ، ومسحتهما بشعر رأسها ، ولم تمنحني قبلة وهي منذ دخلت لا تكف عن تقبيل رجلي ، ولم تدهن رأسي بزيت وهي قد دهنت رجلي بالطيب .. ومن أحب كثيراً غفر له الكثير من خطاياه » .

توبة صادقة ورحمة مستجيبة لا غرو تضيع على الشريعة الكاذبة فرائسها ،

وتخشي التقوى الزائفة على فخرها وكبريائها ، وويل لمن يفتح باباً للتوبة والرحمة ولا يبالي الأبواب التي فتحت للنقمة والعقاب .

منذ الخطوة الأولى التي خطاها السيد المسيح في التبشير برسالته أخذ على نفسه أن يعتزل « السلطة » ويتنحى لها عن ميدانها ، فلا يتصدى لها بإبطال أو بانقاذ : لا يبدلها ولا يدعي لنفسه ولايتها ، وحق لكل معلم قادر أن يسلك تلك الخطة في زمنه ، فانه ــ كما تقدم ــ قد نشأ في دنيــا تشكو الكظة من الشرائع والأوامر والنواهي والحكام والمتحكمين : ما فاض من رومة الشرائع تملؤه مراسم الهيكل وشعائره ومحللاته ومحرماته ، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وأبنائه وأذنابه وتابعيه ، ولا حاجة إلى مزيد من الاحكام مع فساد الحكام ، فإذا وجب اصلاح بعضها فالخير من اصلاحه لا يساوي جهد الحرب التي نشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان، وعلى دولة الهيكل وعلى الدويلة الادومية اليهودية التي تشايع الدولتين وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين ، ومن المحقق أن الشر الذي ينجم من ذلك الجهد أخطر وأفدح من الخير الذي يتأتىْ من ورائه ــ إن تأتّى ــ وقد يدرك باصلاح الضمائر وتهذيب الآداب الانسانية وتعليم الآحاد أمثلة من الأخلاق تهــدي أصحابها حيث تضلهم الشرائع والقوانين .

إلا انه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميدانها فلم تترك له ميدانه ، وسرعان ما أقبلت عليه الجموع حتى أحست السلطة ــ سلطة الدين قبل كل شيء ــ بالخطر المقبل من ذلك الداعية المحبوب ، وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليد والجمود .

جاؤوه في ميدانه بعد أن ترك لهم ميدانهم ،ووقع الاشتباك الذي لا بد منه بين سلطة شعارها المبالغة في الاتهام والبحث عن المخالفات والعقوبات ، وبين دعوة شعارها تيسير التوبة للخاطئين وتمهيد سبل الرجاء في الغفران ..

كان التبشير بالغفران والتوبة أكبر ذنوب الداعي الجديد ، لأن الخطايا والعقوبات بضاعة السلطان القائم ، وهي على كونها مصلحة مربحة ، باب للفخر والكبرياء ..

فجاءوا يسوقونه إلى حيث أبى أن يساق ، وكان همهم الأكبر أن يثبتوا عليه انه يبطل شريعة أو يتصدى لتنفيذ ذريعة ، فأعنتوا عقولهم في البحث عن المشكلات والألغاز التي يفتي فيها بما يخالف الشريعة الدينية أو القوانين السياسية ، أن يفتي فيها بما يخالف آداب الرحمة ووصايا السماحة والصلاح ..

برز له مرة واحد من جموع السامعين فقال له : « أيها المعلم ! .. مر أخي يقاسمني الميراث » ... وظن انه يتولى هنا سلطة التقسيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه ، فما زاد على أن قال : « أيها الانسان ، من أقامني عليكما قاضياً أو حسيباً ؟ » .

وتعمدوا وهو في الهيكل أن يضطروه إلى موقف الحكم أو إنكار الشريعة ، فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها إلى وسط الحلقة ، وراحوا يتصايحون : « أيها المعلم : هذه امرأة أخذت وهي تزني ، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟ »

ماذا يقول هو ؟ .. ما بالهم يسألونه ويستأذنونه وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها إلى قضاتها ؟ .. ان الشرك مكشوف على وجه الأرض . وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا ... ان قال ارجموها فذلك حق الولاية يدعيه ، وان قال أطلقوها فتلك شريعة موسى ينكرها في قلب الهيكل . فكيف الخلاص من جانبي الشرك ، ولو انه مكشوف معروف ؟! .

سبق إلى ظنهم كل خاطر إلا أنه ينتهي من القضية إلى حل لا يدعي به السلطة ولا ينكرها ، ولا ينساق فيه إلى مجاملة الرياء بالدين والكبرياء بالتقوى ، ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذي دفعوه اليه ، وهو يستمع اليهم ويخط بأصبعه على الأرض حتى فرغوا من جلبتهم وسؤالهم ، فوقف قائماً ورد عليهم رياءهم في وجوههم ، وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه ، وهو يقول لهم : « من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر » .

لا ينقض شريعة موسى ولا يدعي تنفيذها ولا يجامل رياءهم .. بل يدعهم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان !

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه ، فسألها سؤال العارف : « أين المشتكون منك ؟ .. أما دانك أحد ؟ » فقالت: « لا أحد أيها السيد ». فأرسلها وهو يقول : « ولا أنا أدينك .. فاذهبي ولا تخطئي » .

نعم..لا يدينها ولا يحسب عليه انه لا يدينها في تلك القضية ولو كان هو قاضيها ، لأن القاضي لا يدين بغير شكوى، وبغير شهود ، وبغير بيِّنة ! ..

وتناول مسألة الزواج والطلاق وقد بلغ من سهولتهما في ذلك العصر أن تتصدّع الأسرة وأن تصبح الزوجة أضيع من الخليلة في عرف قومها ، فقال: ان الزوج والزوجة جسد واحد لا يفصلهما الانسان وقد جمعهما الله « ومن طلق امرأته إلا لعلة الزنا دفعها إلى الزنا . ومن تزوج مطلقة فانه زان » .

* * *

ولم تحدث مناوشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفيقهين من متخذي العلم صناعة وأحبولة إلا ارتدوا منها مفحمين ، وخرج منها مجيباً أحسن جواب بل أكرم جواب .

فلم يصعب عليه أن يحطم « الشرك السياسي » الذي نصبوه له ليسمعوا منه اشارة باعطاء الجزية أو بعصيان الدولة ، وأراهم انهم يتعاملون بنقود قيصر ويكنزون منها الثروة والمال ، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟

ولم يصعب عليه أن يسكت الصدوقيين والفريسيين معاً والأولون ينكرون البعث والآخرون يؤمنون به جسدياً وروحياً على السواء . فلما قيل له ان شريعة موسى توصي الأخ أن يبني بزوجة أخيه المتوفى حفظاً للأسرة ، وسألوه : « لمن تؤول في يوم القيامة زوجة تعاقبها سبعة اخوة ؟ » خيل اليهم انه لا يستطيع أن يجيب على هذا السؤال جواباً يرضي الصدوقيين أو يرضي الفريسيين ، فكان جوابه مفحماً لهؤلاء وهؤلاء ، لأن الأحياء في العالم الآخر لا يتزاوجون زواج هذا العالم ، ولا يتناسلون ! ..

والحق ان الأناجيل لا تروي لنا من هذه المساجلات إلا ما نشهد أمثاله اليوم في كل درس من الدروس العامة يتصدى فيه المتعالمون المتفيقهون لتعجيز

المعلمين والوعاظ ، وان اختلفت المقاصد من أسئلة السائلين في كل حلقة على حسب الموضع والموضوع .

والحق ان قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والأجوبة المسكتة لهي دليل آخر إلى جانب أدلة كثيرة على « الشخصية » التاريخية ، والدعوة المتناسقة ، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين ، بل هم يروونها ولا يفطنون إلى أهم البواعث عليها في سياسة الرسالة المسيحية ، فان هذه الرسالة قائمة على اجتناب التشريع واجتناب التعرض له بالابطال أو الابدال ، ووجهتها على الدوام انها لا تدعي سلطة من سلطات الدنيا والدين ، وان مملكة المسيح من غير هذا العالم وليست من ممالك الدول والحكومات .. كذلك قال لكهّان الهيكل ، وكذلك قال لبيلاطس حاكم الرومان ، وعلى ذلك جرى أسلوبه في كل أمر وفي كل موعظة . فهو أسلوب الآداب والمثل العليا وليس بأسلوب النصوص والقوانين ، وكلامه عن زنى المطلق وعن زنى العين التي تقلع إذا نظرت نظرة اشتهاء ، وعن خطيئة اليد التي تقطع إذا وقعت في العثرات ، لا يحمله أحد على محمل التشريع وليس في مسلك المسيح كله في رسالته ما يجريه مجرى الالزام ، ومع هذا غلب على الرواة من يحسبه تشريعاً مقصوداً بحروفه ، وقل من الرواة من فرق في فهمه بين أسلوب الشريعة المقصودة بحرفها وأسلوب الآداب الانسانية التي ترتفع إلى الأكمل فالأكمل وتنفذ إلى المعاني من وراء الألفاظ ، ويرجع الأمر فيها إلى ضمير يحاسب صاحبه ولا يرجع إلى قاض يسمل عيناً أو يدخل في الصدور ليتتبع فيها بواعث الاشتهاء ، ولو خلصت هذه المعاني إلى سامعيها جميعاً كما عناها السيد المسيح لما ثبتت له كما ثبتت من اختلاف الفهم والتأويل ..

شريعة الحب

الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر .. فالجمود يقف بصاحبه عند الكلمات والنصوص ، يخيل اليه انها مقصودة لذاتها فتصبح شغلاً شاغلاً له يمعن في تأويلها وتوجيهها واستخراج العقد والالغاز منها ، وينتهي الأمر به إلى اعتبارها مسألة براعة وفطنة ، واعتبار الأحكام والعقوبات فرصة للشارع لا يجوز أن تفلت من بين يديه ، والا كان ذلك مطعناً في براعته وفطنته وهزيمة له أمام غرمائه المقصودين بتلك الأحكام والعقوبات .

ومن الجامدين من يفخر بعلمه بالنصوص والشرائع ، ويقيس علمه بمبلغ قدرته على خلق العقد والعقبات من خلال حروفها وسطورها أو من المقابلة بين سوابقها ولواحقها وبين مواضع الموافقة والمناقضة منها ، ويحدث هذا لكل « شريعة » صارت إلى أيدي الجامدين والحرفيين ، فقد أدركنا في مصر أناساً من كتاب الدواوين يفخرون بقدرتهم على توقيف العمل بين المراجعات والردود ، اعتماداً على هذا النص أو تلك الحاشية ، وافتناناً منهم في عَصْر العبارات ونَبْش الدفائن ، واقامة الدليل من ثم على سعة العلم والغلبة في ميدان الحوار ومجال اللف والدوران .

ولا حساب للنفس البشرية بطبيعة الحال عند هؤلاء الجامدين الحرفيين ، فانما الحساب كله للنص المكتوب من جهة ولدعوى العلم والتخريج من جهة أخرى ، وإنما النفس البشرية هي الفريسة التي يتكفل العقاب باقتناصها ويتكفل العلم باغلاق منافذ النجاة في وجهها ، ويقدح في غرور العالم المحيط بأسرار الشريعة وخفاياها أن تتمكن النفس المسكينة من الهرب وأن يرجع العقاب

بغير فريسة .. وتلك خيبة للشرائع والقوانين ، خيبة لها أن تفتح مذابحها ثم تتيح للضحايا والقرابين أن تفلت منها !

فالشارع الماهر في عرف الجمود هو أقدر الشارعين على مد الحبائل واقتناص الضحايا ..

والفخر كل الفخر لخدام الشريعة أن يوفروا لها الصيد ويحكموا من حوله الشبكة ..

وقد تنتفخ الأوداج بهذا الفخر علانية ، ويصبح أحق الناس بالمفخرة أقدرهم على ادانة الآخرين ..

ويتمادى الأمر حتى تصبح الاستقامة براعة في اللعب بالألفاظ وتعجيزاً للجهلاء بالحيل والفتاوى ، وحتى يزول الجوهر في سبيل العرض ، ويزول اللباب في سبيل القشور ، وتزول الاستقامة وطهارة الضمير في سبيل الكلمات والنصوص ، وتزول الحقائق في سبيل الظواهر والأشكال .

* * *

وإذا صار أمر الفضائل إلى الظواهر والأشكال تساوى فيها الصدق والرياء ، فإن غاية الصدق والرياء معاً شكل ظاهر باطنه خواء ، فلا فرق بين المرائي وبين الصادق في فضيلته ، ما دامت الفضيلة جموداً لا حس فيه ولا حياة ولا اعتبار فيه للنفس البشرية وراء النصوص والأحكام ووراء الأوامر والنواهي ووراء العقاب والاحتيال .

إن الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر .

وعالم الظواهر غير عالم الضمير .

وهذان هما العالمان اللذان تقابلا وجهاً لوجه عند قيام الدعوة المسيحية :

عالم كله قيود وأشكال ..

وعالم طلق من القيود والأشكال ، في ساحة الضمير .

روى انجيل متي في الاصحاح الخامس أن السيد المسيح قال : « لا تظنوا إني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل » ..

وروت الأناجيل انه عمل في يوم السبت وسخر من المحرمات التي لا تدنس الانسان ، وخاطب الناس بغير خطاب الناموس .

فهل نقض المسيح من تقدموه أو اتبعهم في كل ما أبرموه ؟

إن شئت فقل إنه نقض كل شيء .

وإن شئت فقل انه لم ينقض منه مثقال ذرة .

لأنه نقض شريعة الأشكال والظواهر وجاء بشريعة الحب، أو شريعة الضمير ..

وشريعة الحب لا تبقي حرفاً من شريعة الأشكال والظواهر ، ولكنها لا تنقض حرفاً واحداً من شريعة الناموس بل تزيد عليه .

وينبغي هنا أن نصحح معنى الناموس في الأذهان ، فان معناه هو « القوام » الذي يقوم به كل شيء ، وناموس العقيدة هو الأصول الأبدية التي يقوم بها ضمير الانسان ما دام للضمير وجود ، فلن يزال قائماً – كما قال السيد المسيح – ما قامت الأرض والسماوات .

* * *

ولقد كمل المسيح شريعة الناموس حقاً لأنه جاء بشريعة الحب ، وهي زيادة عليه ..

ان الناموس عهد على الانسان بقضاء الواجب . أما الحب فيزيد على الواجب ، ولا ينتظر الأمر ولا ينتظر الجزاء .

الحب لا يحاسب بالحروف والشروط ، والحب لا يعامل الناس بالصكوك والشهود ، ولكنه يفعل ما يطلب منه ويزيد عليه ، وهو مستريح إلى العطاء غير متطلع إلى الجزاء .

بهذه الشريعة – شريعة الحب – نقض المسيح كل حرف في شريعة الأشكال والظواهر .

وبهذه الشريعة – شريعة الحب – رفع للناموس صرحاً يطاول السماء ، وثبت له أساساً يستقر في الأعماق .

وبهذه الشريعة – شريعة الحب – قضي على شريعة الكبرياء والرياء ، وعلم الناس ان الوصايا الالهية لم تجعل للزهو والدعوى والتيه بالنفس ووصم الآخرين بالتهم والذنوب ، ولكنها جُعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك ، وللعطف على الناس بالرحمة والمعذرة ، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب .

وفي اعتقادنا أن « شخصية » السيد المسيح لم تثبت وجودها التاريخي وجلالها الأدبي بحقيقة من حقائق الواقع كما أثبتتها بوصايا هذه الشريعة : شريعة الحب والضمير .

فكل كلمة قيلت في هذه الوصايا فهي الكلمة التي ينبغي أن تقال ، وكل مناسبة رويت فهي المناسبة التي تقع في الخاطر ولا تصل اليها شبهة الاختلاق ..

يلزم في شريعة الكبرياء والرياء من يتخذ الدين سبيلاً إلى التعالي على الآخرين ، ويلزم في شريعة الحب من يقول لذلك المتعالي على غيره المتفاني بنفسه : « لماذا تنظر إلى القذى في عين أخيك ولا تنظر إلى الخشبة التي في عينك ؟! » ..

* * *

يلزم في شريعة الفرح بالعقاب والسعي وراء العورات من يسوق المرأة الخاطئة في المواكب ويخف إلى مواقف الرجم كأنها يخف إلى محافل الأعراس ، ويلزم في شريعة الحب من يبهت ذلك الجمع المنافق ويكشف له رياءه ويرده إلى الحياء ، وقد ارتد إلى الحياء حين استمع السيد يناديه : « من لم يخطىء منكم فليرمها بحجر » .

ويلزم في شريعةالرياء والكبرياء أن يفخر المصلي بصلاته وأن يعلن الصائم عن صيامه ويتخذه زياً ينم عليه بعبوسه وضجره.. ويلزم في شريعة الحب من ينهى الناس عن صلاة الرياء وصيام الرياء لأنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع « ومتى صمتم أنتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين ، فانهم يغيِّرون وجوههم ليظهروا للناس صيامهم فقد استوفوا أجرهم فلا أجر لهم ، وأما انتم فمتى صمتم فادهنوا رؤوسكم واغسلوا وجوهكم ، لا يظهر صيامكم للناس بل لأبيكم المطلع على الصدور » ..

يلزم في شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المعطي بالعطاء وأن يستطيل به على الفقراء ، وأن يصوت قدامه بالأبواق ويعلن صدقته في الطرقات والأسواق ، ويلزم في شريعة الحب أن تستتر أعمال المحسنين فلا تعلم الشمال ما تفعل اليمين ..

في شريعة الكبرياء يتقي المتكبر تقواه ليتكبر بها على المذنبين ويلوم المرشد المصلح لأنه يجلس مع العشارين والخطاة ، وفي شريعة الحب والضمير يقال للمترفعين بتقواهم ما ينبغي أن يقال لهم : انما يحتاج المرضى إلى الطبيب وانما يكون الحب على قدر الغفران .

وقد بلغت فتنة « الظواهر والأشكال » غايتها وطغت من الهيكل إلى البيت ، ومن المكتب إلى السوق ، ومن المنبر إلى المائدة . حتى لقمة الطعام أصبحت لا تحل أو تحرم إلا بمقدار ما يتلى عليها من الأوراد والعزائم ، وما تحاط به من الشعائر والمراسم ، وما يرسمه الكهان من أحكام الذبائح والولائم.. فبحق يصطدم هنا عالم الظواهر وعالم الضمير ، وبحق يقال للمتطهرين بغسل الأيدي والتلاوة على لقم الطعام وصحاف المائدة : « ان ما يدخل الفم لا يدنس الضمير ، وان الدنس انما يخرج من القلب الذي فيه الشر والزور والفسوق والكفران » .

* * *

ومجمل القول ان الخير كله كان في حكم شريعة الظواهر والأشكال ،

شريعة الكبرياء والرياء ، مسألة « امتياز رسمي » يحتكره أصحابه بفضل السلالة والعنصر ويرجع الأمر فيه إلى الموروثات والمأثورات .

فالفضل بين الأمم « امتياز رسمي » محتكر لاسرائيل لأنهم أبناء ابراهيم ، والفضل بين الاسرائيليين « امتياز رسمي » محتكر لابناء هرون وأبناء لاوي أصحاب الكهانة بحق النسب والميراث ، والفضل في الدين والعلم حرفة يحتكرها الكتبة والناموسيون أو فقهاء ذلك الزمان ، بل كادت محبة الله لشعبه المختار أن تكون « وثيقة في صك مرسوم » تضمن الايثار لذلك الشعب وان هبطت به أعماله دون سائر الشعوب ... « فلا لأنكم أكثر الشعوب لازمكم الرب واختاركم فانكم أقل من سائر الشعوب ، بل هي محبته وحفظه القسم الذي عاهد عليه آباءكم » .

فلما قامت الدعوة المسيحية بشريعة الحب والضمير كانت كلمتها هي الكلمة التي تقال في كل ما ادعوه ، وما استأثروا به واحتكروه .

ليس الخير حكراً للنسب والسلالة « بل الذي يعمل مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي » . . « ان كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحاق ويعقوب على أرائك الملكوت وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة بالعراء » .

* * *

وانما الرحمة عمل ، لا نسبة ولا حرفة ، وضَرب لهم مثلاً : « انساناً خرج عليه اللصوص في الطريق فسلبوه وضربوه وتركوه بين الحياة والموت ، وعبر به كاهن فأهمله ومضى في طريقه ، وجاء لاوي فمضى ولم يلتفت اليه .. ولكن سامرياً رآه فأشفق عليه وضمد جراحه وأركبه على دابته وأتى به إلى فندق وأولاه عنايته ثم أخرج لصاحب الفندق عند سفره دينارين لينفقهما عليه ويعنى به ومهما ينفق عليه فهو موفيه عند مرجعه » .. قال السيد المسيح لتلاميذه وقد ضرب لهم هذا المثل : « أي هؤلاء الثلاثة أقرب إلى ذلك الصريع الجريح ؟ » والجواب الذي لا خلاف عليه بداهة أن السامري المنبوذ أقرب اليه من أبناء هرون ومن اللاويين المصطفين ! ..

وراح يجبه فطاحل العلماء التياهين بما علموه وحفظوه وتفننوا فيه من ألغاز وأحاجي الشريعة ، فقال لهم : « ان الدين بما تعمل لا بما تعلم » ... وحذر أتباعه ومريديه أن يقتدوا بهم في عملهم وأن يدعوا مثل دعواهم. « لأنهم يحزمون الأوقار ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ولا يمدون اليها أصبعاً يزحزحونها ، وانما يعملون عملهم كله لينظر الناس اليهم .. يعرضون عصائبهم ويطيلون أهداب ثيابهم ، ويستأثرون بالمتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجامع ، ويبتغون التحيات في الأسواق وأن يقال لهم : « سيدي سيدي حيث يذهبون ... »

ثم يهتف بأولئك المنافقين التياهين : « أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل ... انكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة وهما في الباطن مترعان بالرجس والدعارة. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون — انكم كالقبور المبيضة ، خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة » .

ولما تعالموا عليه بالأسئلة عن أسرار الكتب وألغاز الفرائض والوصايا ، وسألوه : أيهما أعظم في الناموس ؟ .. حسبوا انه سينقب بين السطور ويطيل البحث بين الأسرار والألغاز ، ولكنه ترك السطور والنصوص وجمع لهم الدين كله والكتب جميعاً في كلمات معدودات : « أن تحب ربك بجماع قلبك ومن كل نفسك وفكرك ، وأن تحب قريبك كما تحب نفسك » ..

* * *

هذا كل ما يلزم العابد الصالح أن يحتقبه من القماطر والأوراق ، ولا تكون العقبى انه يهدر الفرائض والأحكام وانه يستبيح ما لا يباح ، بل لعله يتشدد حيث يترخص النصوصيون والحرفيون ، كما يتشدد الانسان حين يحاسب ضميره ويصنع في سبيل الحب ما لا يصنعه في سبيل الواجب ، وكل ما هناك أن تصبح الفضيلة وحي نفس وحساب ضمير ، ولا يصبح قصاراها وحي القانون وحساب الصكوك والشروط ، وأساليب الروغان من بين السطور والحروف.

لا جرم كانت شريعة الحب والضمير أشد وأحرج من شريعة الظواهر والأشكال ، لأن الضمير موكل بالنيات والخواطر قبل الأفعال والوقائع ، ولأنه يحاسب صاحبه على همساته ووساوسه ولا يتركه حتى يعمل ما يضر أو يسوء ..

« قيل للقدماء لا تقتل ومن يقتل وجب عليه العقاب . أما أنا فأقول لكم ان من يغضب على أخيه باطلاً يأثم ويجزى .. فان قدمت قربانك وذكرت حقاً لأخيك عليك ، فدع قربانك أمام الذبح واذهب فصالح أخاك ..

« وقيل للقدماء لا تزن . أما أنا فأقول لكم إن من ينظر إلى امرأة فيشتهيها فقد زنى بها في قلبه ، فان كانت عينك اليمنى تلقي بك في العثرات فاقلعها وألقها عنك ، فخير لك أن يهلك عضو لك من أن تهلك كلك ..

« وقيل للقدماء لا تحنث . وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا .. وليكن كلامكم كله : نعم .. نعم .. لا .. لا .. وما زاد على ذلك فهو من الشيطان ..

« وسمعتم انه قيل عين بعين ، وسن بسن . وأما أنا فأقول لكم لا تقابلوا الشر بالشر ، ومن لطمك على خدك الأيمن فحول له خدك الأيسر ، ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه ميلين ..

« وسمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، واغفروا لمن يسيء اليكم ويطردكم ، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات ، فانه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويرسل غيثه للأبرار والظالمين . وأي أجر لكم ان أحببتم من يحبونكم . أليس العشارون يفعلون ذلك ؟ وأي فضل تصنعون ان خصصتم اخوتكم بالسلام ؟ .. أليس العشارون يفعلون ذلك ! .. فتعلقوا أنتم بالكمال ، فان الله كامل يحب الكمال » .

* * *

هذه شريعة تهدم كل عرف قائم وتعصف بكل شكل ظاهر ، ولكنها

لا تهدم الناموس ولا تعصف بركن من أركانه ، وقد تزيد فرائضه ولا تنقص حرفاً منها حين تنقلها من الأوراق ومناظر العيان إلى الضمائر والقلوب ، لأن الانسان يحاسب نفسه إذا أحب حساباً لا تدركه الشرائع ولا يطلع عليه القضاء .

وقد كان المصطدم بين الشريعتين حيث يتوقع وكما يتوقع ، وكان السجال بينهما هو السجال الذي تمليه شريعة الحب والضمير وشريعة الظواهر والأشكال ، ولم تسقط من ذلك السجال كلمة كانت منظورة من دعاة الرياء والكبرياء ، ولم يكن الجواب على كلمة منه عرضاً غير مقصود في وجهته أو جزافاً يقوله كل قائل ويأتي لغير مناسبة ، ومن ثم نقول ان الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهان أصدق من هذا البرهان ، وان المصطدم بين الشريعتين لا يختلقه المختلق ان شاء ، لأنه من وراء طاقة المختلق أن يخلق طبيعة الشريعتين : شريعة الحب والضمير وشريعة الرياء والكبرياء ، ويدفع بهما حيث تندفعان ويملي عليهما ما تسألان عنه وما تجيبان .

* * *

تلك معالم واضحة ومقاصد بينة معروفة المنحى ، فإذا وقع اللبس مرة فليس أيسر من الحسم في مواضع اللبس على ذوي النية الحسنة ، فكل ما وافق شريعة الحب والضمير وخالف شريعة الظواهر والأشكال فهو هنا ، وكل ما مشى في سبيل الظواهر والأشكال وأعرض عن سبيل الحب والضمير فهو هناك ، ولن يطول اللبس في معنى من معاني السيد المسيح إلا على عباد الألفاظ والنصوص ، وليس من الانصاف ولا من حسن الفهم أن تحكم الألفاظ والنصوص في الدعوة التي تزدريها وترجع بكل شيء إلى مقاصد الحب والضمير . ذلك كما قال السيد المسيح هو وضع الخمر الجديدة في الزق القديم أو وضع الرقعة القشيبة على الثوب الرديم .



آداب حياة

كان « أوريجين » فيلسوفاً ملحوظ المكانة في تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية، ويرى الكثيرون انه أكبر المفكرين الدينيين الذين نبغوا بين القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد ، ومن لم يره كذلك فلا خلاف عنده في حسبانه بين ثلاثة أو أربعة من كبار المفكرين في عصره ، غير مستثنى منهم أساتذتهم الأولون .

هذا الرجل قرأ في شبابه قول السيد المسيح ان أناساً يخصيهم الله وأناساً يخصيهم الناس وأناساً يخصون أنفسهم في سبيل الله ، فحمله على معناه الحرفي وجبَّ نفسه ليُقدم بعد ذلك على تعليم النساء وهو آمن ، ولكنه أدرك خطأه بعد ذلك وعدل عن هذا الفهم الحرفي لأقوال السيد المسيح ..

الا أن ثبوت هذه الرواية في سيرة رجل من أعلام زمانه يبطل العجب من روايات كثيرة بقيت بين أخبار الدعوة المسيحية في عصرها الأول ، فقد كان الرجل يفقأ عينيه إذا علم انها نظرت إلى امرأة نظرة اشتهاء ، وكان يمسخ جسده مسخاً إذا راودته الشهوات ، حتى ليتساقط منه الدود وهو بقيد الحياة ، فإذا كان شاب في ذكاء « أوريجين » وقوة فطنته يفهم العظات المسيحية على هذا الوجه ، فلا عجب أن يشيع هذا الفهم بين طائفة من البسطاء الذين لا يبلغون مبلغه في الفطنة والدراية .

لكن « أوريجين » نفسه قد عدل عن خطئه بعد زمن كما أسلفنا ، وسبقه وجاء بعده أناس من طبقته أيقنوا أن السيد المسيح قصد المعاني ولم يقصد الحروف حين أوصى بكفِّ الأعضاء عن نزغات الجسد .. فلم يعنِ بفقوء العين إلا ما نعنيه بقطع اللسان حيث نريد به السكوت أو الإسكات ، ولم يعنِ

بقمع الجسد إلا ما نعنيه بقمع الرياضة والتّربية ، وكان « كلمنت الاسكندري» يقول بحق : ان السيد المسيح لا يعني بنبذ المال أن نرفضه بتاتاً في جميع الأحوال ، وإلا لم يكن الاحسان فضيلة من أكبر الفضائل في الوصايا المسيحية، وجاء القديس أوغسطين بعد ذلك فنفى أن الدين يوجب الزهد على كل أحد، مع استحسانه الزهد لمن يقدر عليه ..

* * *

إلا أن الخلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائماً بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات في أقوال الحكماء المسيحية ، ولا يزال هذا الخلاف قائماً إلى عصرنا هذا في الوصايا الّتي تدور على رفض الحياة خاصة ، وغير قليل من المتأولين ينحو منحى الدكتور « شويتزر » Schweitzer الذي يرى أن السيد المسيح قد أوصى بتلك الوصايا لاعتقاده أن الساعة قريبة وأن الدنيا الّتي يهجرونها مقضيٌّ عليها بالفناء في مدى سنوات ، فكل ما أوصى به الناس فالمفهوم منه أنهم على سفر وأن الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذي يدخره المدخرون للدنيا الزائلة ..

وفي اعتقادنا انه لا محل للخلاف على الوصايا الّتي وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجردين لنشر الدعوة ، فان كل دعوة في عصر السيد المسيح أو في عصرنا هذا ، وفي جهاد الدين أو جهاد الدنيا ، تحتاج من الدعاة إلى مثل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى .. ونظام فرق الفداء في الجيوش الحديثة معلوم لا خلاف عليه ، وأول أحكامه أن يفكر « الجندي المجاهد » في الموت قبل تفكيره في الحياة .

إنما الخلاف على الوصايا حين تتجه إلى غير التلاميذ والرسل.. إلى أبناء الدنيا الذين يعيشون فيها ويعملون لأنفسهم ولمن يعولونهم من أبنائهم وذويهم ، فهل يطلب من هؤلاء جميعاً أن ينقطعوا عن دنياهم ويرفضوا حياتهم ويتشبهوا بالطير والنبات في اعتمادهم على الغذاء والكساء ؟ ..

أقول حقاً انني أفهم وصايا السيد المسيح جميعاً ولا أجد في فهمها صعوبة

على الإطلاق إذا أنكرنا الجمود على الحروف والنصوص كما كان ينكرها عليه السلام ، وإذا علمنا انه عليه السلام قد قال كل شيء حين قال ولخص حكمته كلها في هذا المقال : « ليس الانسان للسبت ، وإنما السبت للانسان » .

لقد كان همّ السيد المسيح في الاصلاح النفسي تغيير البواعث لا تغيير المقادير ..

كان همه ان ينقل الآداب من محور إلى محور ، ولا قيمة للمسافات ولا للابعاد إذا كان انتقال المحور هو المقصود .

كانت العروض هي المحور الذي تدور عليه حياة الأمم والآحاد في عصره ، فوجب أن يكون الجوهر الصميم هو محور الحياة .

* * *

كانت « الأشياء » مقدمة على النفس الانسانية ، فوجب أن تكون النفس الانسانية مقدمة على الأشياء .

وجب أن يكون ربح النفس الانسانية هو الغنيمة الكبرى ، لأن من ربحها فلا جناح عليه أن يخسر العالم .

واذا كان « الحطام » هو محور الحياة فسيان الكثير والقليل . سيان من يطلب الدرهم الواحد ومن يطلب ملايين الدراهم ، فكلاهما مداره خطأ وسعيه عقيم ..

إذا كانت « الشهوة » هي محور الحياة فسيان من يشتهي بعينه ومن يقوم ويقعد ويسهر وينام في طلب اللذة والغواية ، فكلاهما فارغ لهذا المحور الذي يدور عليه .

ولكننا ننقل المحور ، أو ننقل القبلة كما أسلفنا في فصل سابق ، فينتقل كل شيء ويتغير اللباب الأصيل من كل خلق .

إذا أصبح كسب النفس الانسانية — كسب المحور — هو غاية الحياة

فالذي يملك الملايين زاهد كالذي يملك العشرات أو الذي لا يملك شيئاً من الأشياء ..

إذا تغير المحور فمسافة الفرسخ والميل كمسافة الشبر والقيراط .

وإذا بقي المحور فالبعيد كالقريب والقريب كالبعيد .

وتغيير المحور هو الذي عناه السيد المسيح .

وتغيير المحور لازم في ذلك العصر ، لازم في هذا العصر ، لازم في كل زمن ينحرف فيه الاتجاه عن سوائه ، ولهذا كانت رسالة السيد المسيح نموذجاً للرسالات ، ولم تكن آخر الرسالات في الحياة الانسانية .

* * *

لهذا نعتقد أن السيد المسيح كان يغير المحور تغييراً آخر لو انه حضر الدنيا بعد عصره ببضعة أجيال ، ورأى الناس يغرقون في تعذيب الجسد ويفرحون بإطعامه للدود وهم بقيد الحياة .

بل لا حاجة بنا إلى الفرض هنا أو الاحتمال الذي يقبل الخلاف ، فان المسيح قد غير المحور هذا التغيير في زمانه.. غيره حين قَبِل انفاق الدنانير في عطر تمسح به قدماه ، وحين قبل أن يشهد الأعراس ويضرب المثل لأتباعه في أفراح الحياة ، وفي براءة كل فرح يأتي من القلب ويسر الجسد ولا يحزن الروح ..

وما كان الاصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات . أنت تنهك نفسك لتكنز مليوناً فحسبك أن تنهك نفسك لتكنز عشرة آلاف ، ولا تزيد .

أنت تتهالك على جميع اللذات في جميع الأوقات ، فتهالك عليها أياماً في الاسبوع ، أو تهالك على بعضها دون سائرها في جميع الأيام .

أنت مشغول الذهن بالعدوان والبغضاء فاشتغل بهما قليلاً ولا تجعلهما شغلا شاغلاً بغير انقطاع .

كلا .. لم يكن الاصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات، وإنما كان على الدوام مسألة « محور » ينتقل ، أو مسألة « باعث » يتغير ، وعلى الدنيا بعد ذلك أن تعرف شأنها في مسافاتها ومقاديرها، حتى يبلغ بها الانحراف غايته فتعود أو يعاد بها إلى محورها الذي انحرفت عنه أو إلى محور جديد .

اننا لا ننصف السيد المسيح بل ننصف أنفسنا حين نعتقد انه كان يدرك ما يقول وهو يقول : « من أخذ منك رداءك فأعطه قميصك مع الرداء » ..

أترى السيد المسيح كان يفوته ان الرداء والقميص اللذين يعطيهما المعطي هما الرداء والقميص اللذان يأخذهما الآخذ أو يسلبهما السالب ؟

كلا .. ما كان يفوته ذلك ولا ريب ، ولا أدنى ريب .

ولكن النفس الانسانية هي المقصود ، وليس المقصود هو الرداء أو القميص .

* * *

المقصود هو أن ترفع النفس الانسانية فوق أشيائها ، بمثل من الأمثلة ، يصح أن يكون هذا المثل ويصح أن يكون مثلاً سواه !

فليكن العطاء حباً وطواعية ، لأن من يعطي مجبراً أو يعطي ما لا يهمه أن يعطيه يفقد شيئاً ولا يملك نفسه .

وليس كذلك من يعطي لأنه يريد العطاء .. انه يكسب ما أعطاه ولا يضيعه ، لأن غنى النفس يقاس بما تعطيه ، وغنى الجسد يقاس بما يأخذه ، ومن كان لا يبالي أن يعطي العالم كله ليربح نفسه فأخلق به أن يربح نفسه بقليل من العطاء .

أراد السيد المسيح أن يعبد الانسان سيداً واحداً ، ولا يعبد سيدين ، وهذا كل ما أراد .

فمن يملك أموال الدنيا غير عابد للمال فلا جناح عليه .

ومن يعبد الله ويستعبد المال فلا جناح عليه .

ومن حاول غير ذلك فهو غير مستطيع ، وليس قصاراه انه غير مشكور أو غير مأجور ..

ونحسب أن النهي عن عبادة سيدين قد أقام الحد واضحاً سهلاً بين ما هو مباح وما هو محظور في طلب الدنيا ومتاعها وزينتها . فلا حرج على انسان يملك المال العريض وهو لا يعبد المال ولا يقدم نفسه قرباناً على هيكله ، ولا نجاة لانسان يملك درهمين ولا ينالهما بغير عبادة المال .

ويحسن بنا على الجملة أن نذكر أن السيد المسيح لم يقصد اقامة مجتمع في مكان مجتمع ، ولكنه قصد إلى تهذيب آداب انسانية يعتصم بها ضمير الفرد وضمير الأمة ، وأقامها على أساس واضح في وصايا متعددة لا تضارب بينها ..

فالجسم أفضل من الطعام واللباس ..

والانسان أفضل من السبت ..

وغنيمة النفس أربح من غنيمة العالم ..

ومملكة الضمير في قرارة كل انسان أبقى من ممالك العروش والتيجان .

* * *

وبساطة الإيمان أصلح من حذلقة العلماء والحفاظ ، ولولا هذه الحذلقة لما استعصى على أحد أن يفهم ما يسمع من وصايا السيد المسيح وما جرى مجراها في كل زمن ، فمن دأب الحذلقة على الدوام أن تجتهد لكيلا تفهم وليس من دأبها أن تجتهد مرة لكي تفهم ، وعندها في كل آونة سبب لتعطيل كل فهم وسبب لتعطيل كل عمل وسبب للظهور يصرفها آخر الأمر عن بواطن الأمور ، وهذه الحذلقة هي التي حالت بين المتحذلقين قديماً وبين كل عمل بكل وصية ، فليس عندها مستمع لنبي ولا لحكيم .

ان الحذلقة هي التي أبت أن تفهم حين قال القائل : ان العصفور المبكر يجد الدودة قبل غيره ... أفليس في هذا الكلام شيء يفهمه السامع ؟ .. بلى .. وفيه نصح لمن يريد أن يسمع ويعمل . ولكن الحذلقة هي التي قالت في جواب تلك النصيحة : ان الدودة لو لم تبكر قبل العصفور لما أكلها العصفور ...!

ان الحذلقة تقول هذا لأنها لا تعمل ، فهل تراها كسبت شيئاً حين خسرت العمل ؟ .. كلا فان سخريتها تستقيم إذا كان التأخير أسلم للدودة من التبكير ، ولكنهما يستويان على الأقل ، إن لم يكن التأخير خليقاً أن يعرض الديدان لمئات المناقير ومئات العيون ، بدلاً من فرد منقار وفرد عين ! ..

كذلك يقول السيد المسيح : من طلب منك رداءك فأعطه قميصك مع الرداء ، فتقول الحذلقة ولماذا يحق للطالب أن يملك القميص والرداء معاً ولا يحق لمن يعطيهما أن يحتفظ بهما في حوزته ؟

أفليس في قول السيد المسيح ما يفهم ؟ .. بلى . فيه ما يفهم وما يصحح فهماً على ضلال ، ولكن الحذلقة لا تريد أن تفهم ولا أن تعمل ، ولا تريد إلا ظهوراً « على حساب » الفهم والعمل كما يقولون ، ولولا ذلك لما غاب عنها أن الجديد في الأمر هو امتحان المعطي الذي يقتدى به في الاحسان ، وان طالب الرفد لا خلاف عليه ولا على قيمة عمله من الفضيلة ، وإنما الخلاف الذي يحتاج إلى جديد هو قيمة الاعطاء من فضيلة السماحة والإيثار .

لقد كانت الدنيا تدور على محور الشره والشر والبغضاء والنفاق ، فحسن ولا شك أن تدور على غير ذلك المحور ، وإذا انتقلت منه إلى محور القناعة والخير والحب والصدق فلا مشاحة في قياس المسافات ولا تقدير المقادير .

بل نقول ان الرسالة كاملة وافية ولو لم يكن هذا الانتقال إلا إلى حين وفي حيز محدود ، فانما العبرة باضافة هذه القيم الجديدة إلى حساب الانسانية ، وشأن الانسانية بعد ذلك وما تستطيع ، شأن الرسل بعد ذلك وما يستطيعون من تجديد الرسالة كلما انحرفت الجادة أو احتاج ضمير الانسان إلى محور جديد .

* * *

ملكوت السموات

« إنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ ولكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وهُوَ أَعْلَمُ بالمُهْتَدِين » . « قرآن كريم »

هذه آية كريمة لها مرجع من تاريخ كل دعوة ولا سيما الدعوات الدينية الكبرى ، وما من شيء هو أدعى إلى التدبر الطويل من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات وبين الغايات التي تنتهي اليها دعواتهم على غير قصد منهم ، بل على خلاف ما قصدوا اليه ، ثم يمضي الزمن وتنطوي المقاصد والغايات فيبدو أن طريق الدعوات كان أهدى من طريق أصحابها ، كأنما الدعوات والدعاة معاً وسيلة مسخرة تسير في عنان الحكمة الأبدية ، دون أن يعلم الدعاة أو يعلم المستجيبون لهم إلى أين تسير ، وإلى أين يسيرون ..

ماذا لو أن أهل مكة عقلوا فاستجابوا إلى الدعوة المحمدية ولم يدخل المسلمون مكة دخول الغالبين المنتصرين ؟ .

ان الهجرة من مكة إلى المدينة كانت فاتحة الفتوح الإسلامية .. فلو أنها ارتفعت من تاريخ الإسلام لتغير ذلك التاريخ ، ولكنه لا يستفيد فيما نعتقد بزوال ذلك الحادث الذي كان محسوباً من العقبات ، بل أكبر العقبات في صدر الإسلام .

وماذا لو أن بني اسرائيل في عصر السيد المسيح قبلوه وصدقوه وفتحوا له أبواب الهيكل مرحبين مؤمنين ؟ ..

كان غاية الأمر أن نبياً من الانبياء يضاف اسمه إلى أسماء الأنبياء في

كتاب العهد القـــديم . وتبقى اسرائيل في عزلتها كما كانت ، ويبقى العالم كله كما كان من هذه الناحية ، وتبقى الناصرة كما كانت في التاريخ ، منسيّة لا تذكر ، أو تُذكر كما تذكر أصغر القرى التي تحكمها رومة الخالدة .. رومة القياصرة والجبّارين المتألهين ..

فمما لا ريب فيه ان السيد المسيح قد أراد اسرائيل بدعوته الأولى، ومن البديهة أن يريدهم قبل أن يريد أحداً غيرهم ، لأنهم عشيرته الأقربون ، ولأنهم أصحاب الكتب التي تبشر بالخلاص وتترقب الرسول المخلص من وراء الغيب ..

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم : ماذا تركتم للأمم ؟ لأنهم أبناء أمة أولى بها أن تستمع إلى الحق من أبناء الأمة كافة ، وهم غير مختارين ..

وقد كان يرسل التلاميذ للدعوة وينهاهم أن يدخلوا السامرة ويحذرهم على العموم أن يطرحوا اللآلىء تحت أقدام الخنازير .

وعلى رفقه في الخطاب ، كان ينتهر المرأة الفينيقية التي أرادت منه كرامة من تلك الكرامات التي يخص بها أبناء يعقوب ، لأنه ليس بالحسن أن يؤخذ الخبز من أبناء البيت ليلقى به إلى الكلاب .

وكان هذا الايثار بديهاً كما قلنا من وحي الفطرة ووحي الكتب والدراسة، وكان كذلك حكمة من حكم الدعوة التي يراد لها النجاح ، فان المساواة بين العشيرة الأقربين وبين الغرباء الموتورين كانت خليقة أن تقصي الأقربين ولم يكن يقيناً ولا شبيهاً باليقين أن تدني اليه أحداً من أولئك الغرباء الموتورين ، الذين يحاربونه ويحاربون قومه ويبادلونهم سوء الظن وتارات الانتقام .

فماذا لو استجاب المدعوون إلى الدعوة على أحسن حال وأيسر احتمال ؟.. ماذا لو استجابوا بغير عناد وبغير استشهاد ! ..

إن استجابوا جميعاً إلى الدعوة فقد دخلت الدعوة في نطاق « العصبة العنصرية » ولم يتغير بها شيء في غير ذلك النطاق المحدود .

وإن لم يستجيبوا جميعاً ، واستجابت منهم فئة من فئات شتّى ، فغاية الأمر انها فرقة تضاف إلى فرق الفريسيين والصدوقيين والآسين والغلاة ، بل قد حدث فعلاً أن فئة من بني اسرائيل قبلت المسيحية على أنها « طائفة يهودية » سميت بالطائفة « الأبيونية » أي طائفة الفقراء والدراويش ، ثم ذهبت هذه الطائفة في الغمار فلا هي إلى اليمين ولا إلى اليسار ، ولم يبق لها نصيب في تاريخ اليهود ، ولم يبق لها نصيب في تاريخ المسيحيين !

بل حدث فعلاً أن كنيسة مسيحية يهودية هجرت بيت المقدس إلى شرق الأردن ، واعتزلت كنائس اسرائيل وأقامت شرقاً حيث تحرّم الاقامة على سائر اسرائيل ، وظلت ردحاً من الزمن لا هي اسرائيلية خالصة ولا هي مسيحية خالصة ، ثم ذهبت في الغمار كما ذهب الأبيونيون .

لقد مر بنا المثل الذي ضربه السيد المسيح للمدعوين المتخلفين : مثل الأمير الذي أولم الولائم ، وأرسل إلى الصفوة المختارين من الأقرباء والصحاب يدعوهم أن يفرحوا معه ويشاركوه في طعامه وشرابه فلم يجبه منهم أحد ، وتعلل كل منهم بعلة تؤخره إلى ما بعد يوم الوليمة ، فأقسم لا يحضرنها أحد بلغته الدعوة ، وليملأنها بمن حضر ومن لم يحضر ، ومن تزويه الأزقة أو تقذف به الطريق ، وأبى أن يبقى مكان على المائدة خلوا من ضيف ، وأصبح كل طارق ضيفاً مقبولاً على الرحب والسعة ، وهكذا تعمر وليمة السماء التي يتأخر المدعوون اليها ، ويتقدم اليها من هم أحق بها ، لأنهم يشتهون ما يعافه المدعوون المتبطرون ..

قال السيد المسيح لمن دعاهم وألحف في دعواهم فأنكروه وألحفوا في انكاره : « ان الحجر الذي رفضه البناءون صار على رأس الزاوية ، ان ملكوت الله ينتزع منكم ويوهب لأمة تؤتيه ثماره ، من سقط على ذلك الحجر رضه ومن سقط الحجر عليه سحقه ، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، هناك يُدعى الكثيرون ولا يُنتخب إلا القليلون » ..

ومنذ استحكمت النبوة بينه وبين الجامدين والمتعصبين قلّت وصاياه

التي يخص بها « الأمة » ويفردها بين الأمم ، وكثرت في وصاياه الآداب الانسانية التي يستحق بها الانسان ملكوت السماوات ، فرداً فرداً كائناً ما كان شأن الأمة التي ينتمي اليها ، وفهم السامعون من الملكوت انه حق لمن يقصده من بني الانسان أجمعين .

غير أن ملكوت السماوات لا يفهم على صورة واحدة من روايات الأناجيل المتعددة ، بل لا يذكر بلفظ واحد في جميع الأناجيل ، فان مرقس ولوقا يذكرانه باسم ملكوت الله ، ومتى يذكره باسم ملكوت السماوات ، ويتفق أحياناً أن يذكر في جميع الأناجيل باسم ملكوت ابن الانسان .

كذلك يبدو من بعض الأقوال أنه حاضر على الأبواب ، وان من الأحياء السامعين من لا يذوق الموت حتى يرى ابن الانسان آتياً في ملكوته (١٦ متى) .

ويبدو من أقوال أخرى أن المدى بعيد وأن الضلال في دعواه طويل الأمد « لا يضلنّكم أحد .. فان كثيرين سيأتون باسمي فيضل بهم كثير . وسوف تسمعون بحروب وأنباء ولا يحين الحين بعد ، بل تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتحدث مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن شتى ، وهذه كلها بوادر الأوجاع ، ويسلمونكم يومئذ إلى الضيق فتقتلون وتبغضكم جميع الأمم في سبيلي ، ثم يأتي أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين ، وتفتر محبة كثيرين ، ولكن الصابرين إلى المنتهى ينجون ، وينادى ببشارة الملكوت هذه في أنحاء المسكونة شهادة لجميع الأمم » — (٢٤ متى) .

وأحياناً يأتي الكلام عنه كأنه قريب ولكنه مفاجىء مجهول الموعد : « اسهروا إذن لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم ، ولو عرف رب البيت في أي هزيع يأتي السارق ما سرق ، فاستعدوا أنتم كذلك .. لأنه في ساعة لا تخطر لكم يأتي ابن الانسان » ..

ومن النبوءات ما يقول ان ابن الانسان نفسه لا يعلم باليوم والساعة (١٣ مرقس) وان بوادره وشيكة أن تظهر في هذا الجيل .

ويشار إلى الملكوت أحياناً بمعنى مشيئة الله وأوامره وفرائضه : « أطلبوا

أولاً ملكوت الله وبره » – (٦ متى) – « وقد أعطي لكم أن تعرفوا ملكوت السماوات » – (١٣ متى) .

وأحياناً يطلق على الرسالة التي يتعلمها التلاميذ من السيد المسيح : « أجعل لكم ملكوتاً كما جعل لي أبي » ، ويقول لوقا : « ان التلاميذ والأتباع كانوا يحسبون والسيد المسيح ذاهب إلى بيت المقدس أن ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال » – (١٩ لوقا) .

وقد رأينا في كتب التعليقات والتفسيرات ان هذه الصفات المتعددة تستغرب وتثير البلبال بين ذوي الآراء ، كأنها أمر غير منتظر في تقديرهم ، وهي في اعتقادنا أقرب شيء إلى البداهة وطبائع الأمور .

فيجب أن نقدر أولاً أن السيد المسيح قد أشار حتماً إلى الملكوت الذي يفهم كل سامع انه هو العالم الآخر ، وانه يأتي في نهاية هذا العالم ، وانه إذا أشار إلى ذلك الملكوت رجع السامعون بالبداهة إلى النبوءات التي جعلت له علامات ، وإلى كلام المفسرين والمترقبين الذين قرنوا تلك العلامات بنهاية الألف الرابعة أو نهاية الألف السادسة ، واختلفوا ، هل يأتي المسيح المرتقب ثم يعود ، أو ينتهي العالم الأرضي بمجيئه ولا يكون مرجعه بعد ذلك في هذا العالم الأرضي المعهود .

وطبيعي جداً أن يتكلم السيد المسيح عن ملكوت السماوات بهذا المعنى وأن يرجع السامعون إلى تلك النبوءات ، ولا موضع للاستغراب في هذا الصدد ، بل الغريب أن يخلو كلام السيد المسيح من هذا النذير ، سواء ظهر في ذلك الوقت أو ظهر بعده في زمن تتطلع فيه الأنظار إلى النهاية وإلى تحقيق النذر والبشائر والعلامات .

فإذا أدخلنا هذا الملكوت بهذا المعنى في تقديرنا فليكن في الحساب انه باب من أبواب اللبس بينه وبين الملكوت بمعانيه الأخرى ، ولا سيما الملكوت الذي تقوم عليه رسالة السيد المسيح خاصة . كما هو الواقع في جميع الرسالات ..

ففي رسالات الأنبياء الداعين إلى العالم الآخر جميعاً ملكوت رضوان

يتحقق في السماء وملكوت يعمل له الناس في هذه الحياة أو رسالة يستمعون لها في هذا العالم فيستحقون بها الملكوت في العالم الآخر .

هذا الملكوت أيضا – ملكوت الرسالة المسيحية أو ملكوت ابن الإنسان – يقع في البال حتماً أن السيد المسيح قد تكلم عنه ووصف لأتباعه مطالبه ووصاياه .

ولا بد من لبس هنا مع اللبس الذي يحدث من توجيه المعنى حيناً إلى ملكوت القيامة ، وتوجيهه حيناً إلى الملكوت يوم القيامة .

أما اللبس في فهم الملكوت الذي يدور على الرسالة المسيحية – أو رسالة ابن الإنسان – فمرجعه من جهة إلى تطور الدعوة على حسب قبول المستمعين لها ، فالملكوت في الدعوة التي يخص بها الاسرائيليون غير الملكوت في الدعوة التي لا يخصون بها ، بل لعلهم يطردون منها ، وتعمّ الأمم أجمعين ..

ومرجع اللبس من جهة أخرى إلى سمو الرسالة على مدارك السامعين ، ولا مناص من هذا اللبس إذا دعي السامعون إلى رسالة أسمى جداً مما ترقبوه وتطلعوا إليه واستطاعوا أن يفهموه .

ولا نرى أن المسافة الشاسعة بين نفس السيد المسيح وبين نفوس التلاميذ والأتباع قد برزت في موضع من المواضع بروزها في الأسئلة التي توالت منهم عليه وفي الحيرة التي دلت عليها هذه الأسئلة ، حتى نيقوديموس عضو المجمع الأعلى لم يفهم معنى الملكوت الذي يستدعي من الإنسان أن يولد ولادة ثانية ويدخل اليه إنساناً جديداً كما يدخل الطفل الوليد إلى هذا العالم ، وحتى بعد بلوغ الدعوة ختامها ظل التلاميذ يحسبون أن الملكوت يأتي بدولة بني اسرائيل : « فسألوه قائلين : يا رب ! .. هل في هذا الوقت ترد الملك إلى اسرائيل ؟ .. فقال لهم : « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي أودعها الأب سلطانه ، لكنكم ستنالون قوة متى حل عليكم الروح القدس ، وستكونون شهداء لي في أورشليم وفي اليهودية جميعاً ، وفي السامرة ، وإلى أقصى المسكونة » ..

ونعود فنقول ان اللبس طبيعي جداً في هذا الموقف بين مقصد المتكلم

ومدارك السامعين ، وان هذا التفاوت البعيد هو الذي يؤدي بنا إلى فهم الملكوت كما أراده السيد المسيح ، لأنه ملكوت لم يكن في طاقة التلاميذ أن يخلقوه ويصوروه ، وكل ما في استطاعتهم أن يذكروا له أوصافاً متفرقة سمعوها فسجلوها والتقطوها كما يلتقط السامع ألفاظاً من لغة لا يفهمها ، فإذا أمكننا بعد ذلك أن نخرج تلك الألفاظ مفردات متناسقة مفهومة على صورة واحدة فتلك هي الآية على صحة تلك الصورة ، وانها هي الوصف المقصود .

والأناجيل قد ذكرت وصفاً متناسقاً للملكوت في مواضع شتى : ذكرت مملكة ليست من هذا العالم ، وذكرت مملكة قائمة في ضمير الإنسان في كل زمان ، إذا ربحها فهو الغانم وإذا خسرها فالعالم كله لا يجديه ، وذكرت مملكة لا يدخلها الإنسان إلا بنفس طاهرة صافية كنفس الطفل البريء ، وذكرت مملكة لا يفتحها السيف لأن ما بالسيف يؤخذ فبالسيف يضيع . « ولما سأله الفريسيون متى يأتي ملكوت الله ؟ .. أجابهم انه لا يأتي بمراقبة . ولا يقول قائـــل هوذا هاهنا وهوذا هناك ، لأنه هو الآن في داخلكم » (١٧ لوقا) .

فالذين استغربوا الأوصاف ، ولم يروا فيها إلا التناقض والشكوك .. ماذا يصنعون بهذه الصورة المتناسقة ؟ .. وعلى أية صورة كانوا ينتظرون أن تأتي غير هذه الصورة مع التفاوت بين مدارك المعلم ومدارك التلاميذ ، ومع حضور الملكوت في أذهان السامعين بمعنى القيامة وروده أحياناً في كلام السيد المسيح بهذا المعنى ؟ .. بل كيف كانوا ينتظرون أن تأتي على غير هذه الصورة مع تطور الدعوة تطوراً لا بد منه بين كلام موجه إلى أمة خاصة وكلام موجه إلى جميع الأمم ؟ ..

ان الخلاصة المغربلة موجودة بين السنابل والحبوب ، ولكن العيب في الغربال الذي لا يعمل عمله وفي حامل الغربال الذي ينسى أن الغربال لازم وان هذا موضع لزومه على التخصيص .

إذا جاءنا رجل لا يعرف اللغة الصينية ، ووضع أمامنا خطوطاً وأشكالاً ،

وتسني لنا أن نخرج من تلك الخطوط والأشكال كلمات تتم بها جملة مفهومة ، فتلك آية الآيات على صدق الصورة المنقولة ، وتلك الصورة إذن أحق بالاعتماد عليها من كلام الناقل الذي يستطيع أن يزيد على الكلام أو ينقص منه ، أو يدخل عليه التحوير والتبديل حسب هواه .

* * *

تحولت الدعوة من خاصة إلى عامة ، ومن أمة واحدة إلى سائر الأمم ، بل إلى « الإنسان » فرداً كان ، أو عنواناً يشمل كل انسان .

وحدث هذا التحول والعالم الإنساني متهيىء للدعوة الجديدة من أعماق وجدانه ، وإن لم يكن يسيراً عليه أن يفهمها حق فهمها ، أو يسبر أغوارها ..

والعالم الإنساني يتهيأ لهذه الدعوات على حسب حاجته اليها ، ولا يلزم على الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج اليها أو إلى شيء من قبيلها ..

مثله في ذلك مثل التربة التي ينفعها المطر لأنها مهيأة له متعطشة اليه ، ولا محل هنا للحديث عن الفهم وسبر الأغوار .

كانت العلاقة العالمية ، أو العلاقة الإنسانية قد وجدت من وراء أسوار الأمم والأقوام ، ولكنها قد وجدت في بقاع من الأرض ولم توجد في سرائر الضمير ، ولعل الناس قد اختبروا منها أضرار العداء والبغضاء وكبرياء الجنس ونفور العصبة ، قبل أن يختبروا منها مزايا الوحدة ويتطلعوا من ورائها إلى الأخوة والصفاء .

بل تحطمت أسوار الأمم والأقوام أمام وطأة الشقاء قبل أن تتحطم أمام دعوة الأخوة والصفاء ، فاتسعت رقعة العالم المتوحد لأناس من جميع العصب والسلالات ، لا يشعرون بينهم بوحدة غير وحدة العبودية والضنك ، إما في ربقة الرق الصراح أو في ربقة أخرى لا تقل عنها في القسوة والنقمة ، وهي ربقة الحرمان والقنوط .

وقد كان من العسير أن يتمخض العالم الوثني عن رسول يجمع الأقوام

إلى دين واحد ، لأن تاريخ الوثنية لم يعهد فيه أن يخرج للدنيا رسلاً تملؤهم الحماسة الروحية وتفيض منهم على كل من حولهم فضلاً عن البعيدين عنهم ، ولم يعرف التاريخ قط داعية وثنياً تجرد للتبشير والانذار غير حافل بالموت ولا مرتدع بما يلقاه من زواجر الارهاب والوعيد ، وكل ما يحدث في الأديان الوثنية أن تتغلب الدولة التي تدين بها على الشعوب المقهورة فتحملها على طاعة أربابها كما تحملها على طاعة قوانينها وأحكامها ، وتفرض عليها العبادات التي تتصل بالشعائر العامة والمحافل الرسمية ثم تترك لها بعد ذلك ما يروقها أن تعبده من الأرباب والأصنام .

أما الحماسة الروحية التي كانت لازمة لتوحيد العقيدة في العالم الإنساني فلم تعهد قط في غير الأديان الكتابية أو الأديان الالهية ، ولم يكن لها رسل قط غير الرسل المؤمنين بإله أعظم من الدنيا وأعظم من الدول وأعظم من كل موجود .

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول في تلك الفترة .

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول مطروداً في قومه ، ولم يوجد بينهم مقصور الدعوة عليهم ، فوجد فيه العالم بغيته في ساعة الحاجة اليه ، وانها لآية من الآيات التي يطول عندها تدبر الباحثين والمؤرخين ، لأنها من التوفيقات التي يكون القول بالمصادفة فيها أصعب وأعجب من القول بالتدبير والتقدير .

وتم على يد هذا الرسول نقيض ما يتم على أيدي الوثنية في صولتها وسلطانها ، فإن الوثنية تتغلب لأنها دين الدولة الغالبة ، أما هذه الرسالة — رسالة الملكوت السماوي — فقد نشأت في عشيرة قبيلة ذليلة ، تحكمها تارة دولة الرومان الغربية ، وتحكمها تارة أخرى دولة الرومان الشرقية ، فلم يمض غير أجيال معدودات حتى غزت الدولتين واستوت على العاصمتين ، وصح ما رووه عن جوليان — سواء قاله أو لم يقله — فانتصر « الجليلي » بملكوته السماوي على ممالك القياصرة ، وضم القياصر إلى حاشيته ، فمنه يأخذون ما أخذوه باسم قيصر وما أخذوه باسم الله ! ..



٥

أدوات الدعوة

- قدرة المعلم
- إخلاص التلاميذ

قدرة المعلم

إذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة في العالم ثبت من انتشارها شيئان على الأقل، وهما ان العالم كان عند انتشارها محتاجاً اليها، ومستعداً لسماعها، وهما شيئان مختلفان لا يذكران في معرض الترادف والتماثل، لأن الحاجة إلى الدعوة كالعلة، والاستعداد لسماعها كالشعور بالعلة أو كالاستعداد لطلب الدواء، وقد يتفقان في وقت واحد، وقد توجد العلة ولا يوجد معها طلب الدواء ولا قبوله إذا عرض على العليل.

وجملة ما يفهم من العصور التمهيدية التي لخصنا الكلام عليها فيما مضى أن العالم في عصر الميلاد كان محتاجاً إلى الدعوة المسيحية، مستعداً لسماعها، سواء قصرنا الكلام على عالم اسرائيل أو عممنا به العالم أجمع.

فعالم اسرائيل كان يؤمن بالمسيح المنتظر وبموعده في تلك الحقبة من الزمن، والعالم المعمور كان يؤمن إيماناً «سلبياً» بافلاس الوثنية واقفار النفوس من الرجاء، وكان عامته في بؤس ويأس، وخاصته مستسلمين للمتاع أو مستسلمين للتصوف، من كان منهم يفكر دان بالأبيقورية أو دان بالرواقية، ومن كان مطبوعاً على التدين والبحث في شئون الغيب، دان بنحلة خاصة من النحل السرية التي تحل فيها المراسم والشعائر محل الفرائض والعبادات.

قد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الأبيقورية والرواقية والنحل السرية، فهم إذن في حالة الخواء الذي يسبق الامتلاء، وأسلم ما يقال عنه في صدد العقيدة المقبلة إنه لا يملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها، وانه قد

يتفتح بقبولها فيكون شعور الحواء من أسباب الاقبال عليها والرغبة فيها ..

كان العالم في عصر الميلاد محتاجاً للعقيدة مستعداً لسماعها ما في ذلك ريب ، ولكنه مع هذه الحاجة وهذا الاستعداد لم يكن خليقاً أن يظفر بتلك العقيدة عفواً صفواً بغير جهاد من رسلها ودعاتها ، وبغير كفاية عالية في أولئك الرسل والدعاة .

لم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداده لسماعها مغنياً للعقيدة عن أدوات الفلاح والنجاح ، وأولها قدرة الداعي على كسب النفوس واجتذاب الأسماع والغلبة على ما يقاومه من المكابرة والعناد .

وقد كانت هذه القدرة موفورة في معلم المسيحية ، وبحق سمي المعلم ونودي به في مختلف المجامع والمحافل ، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وإيحاء روحي حيوي من طريق التعليم .

* * *

نودي المسيح بالمعلم فيما روته الأناجيل مرات : ناداه بهذا اللقب تلاميذه كما ناداه به خصومه ومن يستمعون له غير متتلمذين وغير مخاصمين ..

وكان نداؤهم له بهذا اللقب لأنهم يجدون في كلامه علماً واسعاً بالكتب والأسفار ، وبديهة حاضرة في الاستشهاد بها والتعقيب عليها ، ويكفي ما بين أيدينا من الأناجيل للجزم بأنه كان يرتل المزامير وكان يحفظ كتب أرميا وأشعيا وحزقيال فضلاً عن الكتب الخمسة التي نسبت إلى موسى عليه السلام ، وفضلاً عن اختلاف المذاهب في تطبيق الوصايا والأحكام .

ويرجح بعض المؤرخين أنه كان يعرف اليونانية وان الحديث الذي دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة ، لأن اليونانية كانت شائعة في عصره بين أبناء الجليل ، وكان كثير من اليهود خارج الجليل لا يفهمون العبرانية ولا الآرامية ويحتاجون إلى ترجمة الكتب المقدسة باللغة اليونانية ، ومنهم من كان يحج إلى بيت المقدس في الأعياد ، ومن أبناء الجليل اليهود من كانوا

يسافرون إلى الاسكندرية وبلاد الاغريق ولا يتفاهمون بغير اليونانية مع أبناء جلدتهم هناك ، فلا غرابة في معرفة السيد المسيح باليونانية كما كان يعرفها الكثيرون من أبناء الجليل ، ولكن المحقق أنه كان يعرف العبرية الفصحى التي تدرس بها كتب موسى والأنبياء ، وانه كان يعرف الآرامية التي كان يتكلمها كلام البلغاء فيها ، وانه إذا عرف اليونانية فإنما كانت معرفته بها معرفة خطاب ولم تكن معرفة دراسة ، لأن أقواله خلت من الاشارة إلى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة ، ولأن العبارات التي جاءت في الأناجيل اليونانية منسوبة اليه تشف عن أصلها الآرامي بما فيها من الجناس أو من قواعد البلاغة وايقاع الألفاظ .

على أن هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الاسرائيلية لم يكن فريداً بين أحبار اليهود في تلك الآونة ، فربما كان في بيت المقدس يومئذ مئات من الكتبة والفريسيين حفظوا من تلك الكتب ما حفظ السيد المسيح ، واقتدروا على الاستشهاد بها والتعقيب عليها بعارضة قوية وبديهة حاضرة ، ولم تكن لواحد منهم كفاية المعلم الذي يبث الحياة الروحانية في النفوس وينفث في الخواطر تلك الراحة التي تشبه راحة السريرة ، حين تتناسق فيها الأنغام التي كانت متنافرة قبل أن تجمع وتصاغ .

لقد كانت اللغة التي حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صاحبها بغير مشابهة ولا مناظرة في القوة والنفاذ .

كانت لغة فذة في تركيب كلماتها ومفرداتها ، فذة في بلاغتها وتصريف معانيها ، فذة في طابعها الذي لا يشبهه طابع آخر في الكلام المسموع أو المكتوب .. ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب ، مع غلبته القوية على الأذهان والقلوب .

كانت في تركيبها نمطاً بين النثر المرسل والشعر المنظوم ، فكانت فناً خاصاً ملائماً للدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال ، وهو نمط من النظم لا يشبه نظم الأعاريض والتفعيلات التي نعرفها في اللغة العربية ،

لأن هذا النمط من النظم غير معروف في اللغة الآرامية ولا في اللغة العبرية ، ولكنه أشبه ما يكون بأسلوب الفواصل المتقابلة والتصريعات المرددة التي ينتظرها السامع انتظاره للقافية ، وان كانت لا تتكرر بلفظها المعاد ..

كان أسلوبه في ايقاع الكلام أسلوباً يكثر فيه الترديد والتقرير وليس في الترجمة العربية ما يدل عليه من قريب ، ولكنها مع التأمل تدل عليه من بعيد ، كما في هذا المثال :

« اسألوا تعطوا .

« اطلبوا تجدوا .

« اقرعوا يفتح لكم .

« لأن من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له الباب .

« من منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ؟

« أو يسأله سمكة فيعطيه حية ؟

« أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً ؟

« فإذا كنتم — وأنتم أشرار — تحسنون العطاء للأبناء ، فكيف بالأب الذي في السماء يعطي الروح القدس لمن يسألون » .

أو كما في هذا المثال :

« كما في أيام نوح كذلك يكون في أيام ابن الانسان .

« كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون ، إلى اليوم الذي دخل الفلك وجاء الطوفان وأهلك الجميع .

« كذلك في أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويغرسون ويبنون ، ولكن اليوم الذي خرج فيه لوط من سدوم أمطرت ناراً وكبريتاً من السماء فأهلك الجميع .

« هكذا يكون في اليوم الذي يظهر فيه ابن الانسان .

« في ذلك اليوم من كان على السقف وأمتعته في البيت فلا يهبط اليها ليأخذها ..

« ومن كان في الحقل فلا يرجع إلى الوراء . ألا تذكرون امرأة لوط ؟

« ومن طلب الخلاص لنفسه يهلكها ، ومن أهلكها يحييها .

« أقول لكم فاستمعوا : في تلك الليلة يكون اثنان على فراش واحد فيؤخذ أحدهما ويترك صاحبه .

« وتكون اثنتان تطحنان ، تؤخذ احداهما وتترك الأخرى .

« ويكون اثنان في الحقل يؤخذ هذا ويترك ذاك .

« ... حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور » .

* * *

وقريب من هذين المثالين نذيره لأورشليم :

« يا أورشليم ، يا أورشليم ! ..

« يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين .

« كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ..

« ولم تريدوا ..

« هو ذا بيتكم رهين بالخراب » .

وقريب منه نذيره لبنات أورشليم :

« يا بنات أورشليم ! ..

« لا تبكين علي .. وعلى أنفسكن وأولادكن فابكين ..

« أيام يقولون طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي التي لم ترضع ..

« أيام ينادون الجبال أن تسقط عليهم ، والآكام أن تكون غطاء لهم .

« إن كان بالغض الرطب يصنع هذا ، فباليابس ماذا يصنعون ؟ »

* * *

هذه النماذج فيها بعض الدلالة على أسلوبه في تركيب اللفظ وسياق النذير والتذكير . .

أما أسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الأمثال في كل قالب من قوالب الأمثال ، ومنه القالب الذي يعول على الرمز ، والقالب الذي يعول على الحكمة ، والقالب الذي يعول على القياس ، والقالب الذي يعول على التشبيهات ، وكلها تتسم بطابع واحد هو طابعه الذي انفرد بين أنبياء الكتب الدينية بغير نظير ، وإن كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الأمثال . .

* * *

فمن نماذج المثل الذي يعول على الرمز مثل الزارع والبذور . « زارع خرج ليزرع وفيما هو في الطريق سقط بعض البذور فجاءت طيور السماء وأكلته ، وسقط بعضهم في مكان محجر خفيف التربة فنبتت على الأثر ، ثم لم يلبث أن أشرقت عليه الشمس فاحترق ، وإذ لم يكن له عمق في جوف الأرض جف ، وسقط بعض البذور بين الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يثمر ، وسقط غيرها في الأرض الجيدة فأعطى ثمراً يصعد وينمو ، فأتى واحد بثلاثين وآخر بستين وآخر بمئة . من له أذنان للسمع فليسمع » .

ومن نماذجه مثل فتيات العرس : « يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس : خمس منهن فطنات وخمس غافلات . أما الغافلات فقد أخذن المصابيح ولم يأخذن معها زيتاً ، وأما الفطنات فأخذن الزيت في آنيتهن مع المصابيح ، وأبطأ مقدم العريس فغلبهن النعاس جميعاً ، ثم علت الصيحة عند منتصف الليل : ها هوذا العريس قد أقبل فاخرجن للقائه .. فالتفتت الغافلات إلى مصابيحهن تنطفىء وسألن زميلاتهن قليلاً من زيتهن فأجبنهن : لعله لا يكفينا فاذهبن واشترين حيث

يباع . وفيما هن ذاهبات قدم العريس .. وصحبته الحاضرات المستعدات إلى محفل الزفاف ، ثم جاءت الغائبات وقد أغلق الباب وطفقن ينادين : افتح لنا يا سيد .. افتح لنا يا سيد .. فأجابهن : من أنتن ؟ .. إني لا أعرفكن ! .. » .

ومنه قوله : « أنا خبز الحياة ، من يقبل علي لا يجوع » .

ومن نماذج المثل الذي يعول على الحكمة : « لا تطرحوا الدر أمام الخنازير » .. « بالكيل الذي تكيلون يكال لكم » .. « أيها المداوي داو نفسك » .. « خمر جديدة في زقاق قديمة » .. « لا تدع يسارك تعلم بما تصنع يمينك » .. « من ثمارهم تعرفونهم » .. « لا كرامة لنبي في وطنه » ..

ومن نماذج المثل الذي يعول على القياس : « ان كنتم تحبون من يحبونكم فأي فضل لكم ؟ .. أليس ذلك شأن العشارين ؟ » .

ومنه في تبكيت من ينكرون عليه صحبة الخاطئين : « لا حاجة بالأصحاء إلى طبيب ، وانما المرضى يحتاجون إلى الأطباء » ، ومنه : « ان كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون ! .. »

ومن نماذج المثل الذي يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه : « أنتم ملح الأرض ، فان فسد الملح فبماذا يملّح ؟ ... انه لا يصلح إذن إلا لأن يلقى على التراب ويداس . أنتم نور العالم ، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل ، وما من سراج يوقد ليوضع تحت المكيال ولكنه يرفع على المنار يستضيء به جميع من في الدار » .

* * *

ومن نماذجه : « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص وحيث يكون الكنز يكون القلب » ..

وقد أثر عن السيد المسيح في جميع الأمثال حب المقابلة بين الأضداد

لجلاء المعاني وتوضيح الفوارق من وراء هذه المقابلة : « يرون القذى في أعين غيرهم ولا يرون الخشبة في أعينهم » .. « يحاسبون على البعوضة ، ويبلعون الجمل » .. « في الظاهر جدران مبيضة ، وفي الباطن عظام نخرة » .. « غني يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل في سم الخياط » .

ومعظم هذه الأمثلة تأتي في مناسباتها عفو الخاطر ، جواباً على سؤال ، أو تعقيباً على حادث عارض ، أو تقريعاً لمكابر ، فيندر أن يسترسل فيها المعلم البصير إلى غير المناسبة التي توحيها ، ولهذا يرجح بعض الشراح المحدثين أن الأمثلة المتوالية في المقاصد المختلفة لم تصدر عنه في سياق واحد أو جلسة واحدة ، وان الخطبة على الجبل — وهي أحفل الخطب بالمقاصد والموضوعات — جمعت من متفرقات كانت منجمة على حسب الموضوعات في أوقاتها ومناسباتها.

وإذا كانت طائفة من عظات السيد المسيح جاشت بنفسه في أوقات مناجاتها فانتظمت فيها كما تنتظم المعاني المنسوقة في البديهة الملهمة فقد كانت سرعة البديهة تسعفه في غير هذه الأحوال ، فتجري كلماته في مجراها المألوف على نسق سهل قد يظن به التحضير لأنه منتظم غير مرسل ، ولكنه في الواقع لم يكن محضراً قبل ساعته ، وغاية ما يعرض له من التحضير أن الفكر الذي يجود به لم يخل قط من التفكير فيه وانه تعود التفكير في المواقف المتشابهة فانسبكت قوالب التعبير في بواطن قريحته غير مقصودة ولا متكلفة، وهي عادة يعرفها من تعودوا التفكير، والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين الجماهير ، وقد سمعت خطباء جادوا بأبلغ آياتهم الخطابية في لحظة من لحظات الارتجال الفياض بين الشعور المتجاوب والحماسة المنبعثة من القائل والمستمعين ، فهم مرتجلون يخيل اليهم قبل غيرهم انهم يسمعون كلاماً معهوداً ، ويوشك أن يتساءلوا : أين يا ترى سمعوه قبل الآن ؟ .. والواقع انهم نقلوه من وعيهم الخفي إلى وعيهم الظاهر فكان شأنهم كشأن سامعيه في استغرابه ، والواقع أيضاً أن الناس حين يستمعون اليه يرونه غريباً وقريباً في وقت واحد: غريباً لأنه كان يساورهم ولا يدركونه ، وقريباً لأنهم تمثلوه بفضل بلاغة القائل بعد استعصائه على الادراك .

* * *

ومن كان كالسيد المسيح تربّى منذ طفولته على التلاوة في كتب الأنبياء وتتابعت على سمعه ولسانه أصداء المزامير المرتلة ، والأمثال المرددة ، واستقامت فطرته على الوحي والايحاء فليس أقرب اليه من أن ينطلق بكلام يحيك في الأسماع بهاتف الصحف الأولى وهو من نبع فؤاده واملاء بديهته .. وهذه هي البديهة التي كان يعنيها حين يوصي تلاميذه بالاعتماد على الطبع ، وترك الاهتمام بالتزويق والتنميق قبل الساعة التي تدعوهم دواعيها للخطاب ..

ولعل سامعي العظات الدينية في عصر المسيح قد سمعوا الأمثال في قوالبها مرات كثيرة .. ولعلهم كانوا يعاودون سماعها كلما دخلوا معبداً أو استمعوا إلى خطيب في غير المعابد ، فان نقاد البيان العبري والآرامي يردُّون هذه الصيغ البيانية إلى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين . فلم يكن المسيح مبدعاً للأمثال ولا لقوالبهـــا التي تعول على الرموز أو الحكم أو التشبيهات أو منطق القياس ، ولكن الأمر المحقق أن سامعي ذلك العصر لم يعرفوا قط أريحية كتلك الأريحية التي كانت تشيع في أطوائهم وهم يصغون بأسماعهم وقلوبهم إلى ذلك المعلم المحبوب الذي كان يناجيهم بالغرائب والغيبيات مأنوسة حية يحسبون أنها حاضرة في أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة ، لفرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق ويستولي عليهم من عطفه الطيب وحنانه الطهور ..

* * *

ومن البيان ما يروع ويهول ويخيل إلى سامعه انه يبتعد من مصدره كلما أصغى اليه ، ومنه ما يجذب ويقرب ويخيل إلى سامعه أن كل كلمة منه ترفع حاجزاً أو تدني مسافة وتزيل وحشة بين القائل والسامع .. من هذا البيان كان بيان المعلم المحبوب القدير على تقريب سامعيه بالعطف والافهام ، فمن فهم قريب ومن لم يفهم غير بعيد ، وفي وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم في ظلام الجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون ثم تتفتح في أذهانهم الخواطر ، وتتفتق فيها الأشياء وتتبين الفوارق بين الأضداد فينجاب الظلام سدفة بعد سدفة ويعقبه النور قبساً وراء قبس ، ويداخلهم على

مهل شعور الأعمى الذي يسترد بصره مشدوهاً بالرؤية لأول مرة ، أو شعور المدلج الذي يصحب الليل من السحر إلى الفجر إلى الصباح : هداية في رفق ورحمة ، واقتراب في غير عناء ولا اقتحام .

في وسعنا أن نتخيل أولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعرفة ، أو يقتربون منه بالعطف والمودة .

وفي وسعنا أن نتخيل من ثم فضل الرسول في الرسالة . فلا رسالة في الحق بغير رسول ، ولا سبيل إلى قيام المسيحية بغير مسيح ، فان مصدر الرسالة الروحية هو زبدتها وجوهرها وهو الأصل الأصيل في قوتها ونفاذها ، وكل ما عداه فروع وزيادات .

* * *

لقد كان لب الرسالة المسيحية في لب رسولها المسيح : هداية انسان لا صولة له على أحد غير العطف والالهام ومكاشفة القلوب والأفهام ، ولو لم يكن فضل الرسول هو فضل الرسالة لقد كان يوحنا هو الأولى بالسبق في الميدان لأنه صاحب السبق في الدعوة وصاحب السبق في الشهادة ، ولكنها دعوة كانت تنتظر صاحبها ، وصاحبها هو المسيح .. وكانت حاجة العالم كله إلى الدعوة المطلوبة لا تكفى بغير صاحبها القادر عليها .. والصالح لاقامتها ، لأن صاحب الحاجة لا يملك بالبداهة ما هو محتاج اليه ..

اخلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الأول في كل دعوة انهم دعاة ، أي أنهم شركاء للمعلم في نشر الدعوة ..

أما الفضل الأول للتلاميذ في الدعوة المسيحية فهو انهم مستجيبون ، فلم يكونوا قادة يدعون غيرهم إلى صفوفهم بل كانوا في الواقع هم الصف الأول السابق إلى الاستجابة ثم تلته صفوف أخرى من أمثاله ، ليس فيهم قائد ولا مقود ، وكلهم في قبول الدعوة سواء .

كان فضل التلاميذ في الديانة المسيحية انهم أول القابلين ، ولا بد أن نعلم هذا الفارق بين طبيعة القابلين وطبيعة العاملين .

فالتلاميذ بالنسبة إلى السيد المسيح هم أمته الصغرى ، كبرت مع الزمن على هذا المثال ، فأصبحوا أمة كبيرة تقتدي بتلك الأمة الصغيرة في الاستجابة ، فهم سابقون أعقبهم لاحقون من قبيلهم وهم الصف الأول في الجيش الواحد، وليسوا هم جيشاً يقابل جيشاً آخر بالدعوة فيلبيه وينضوي اليه ..

كانوا نموذج الأمة المسيحية في أول الرسالة ، ومضى على الأمة المسيحية عدة أجيال وهي لا تخالف هذا النموذج في التكوين ولا في الطراز ، ومن هنا نقول ان التلاميذ لم يكونوا دعاة فرضوا عقيدتهم على أناس غيرهم ، ولكنهم وغيرهم مستجيبون للدعوة فوجاً بعد فوج ورعيلاً وراء رعيل . .

في الدعوات قادة ومقودون .

ولكن التلاميذ في الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم ، بل كانوا هم

السابقين من صفوف تلاحقت وتعاقبت ، لا فرق في بنيتها بين أولين وآخرين ..

وليس في سيرتهم الأولى ما يفهم منه أنهم مميزون بصفة القيادة ، فهم جميعاً من بيئة واحدة ، وربما كانوا جميعاً من سلالة متقاربة أو بيوت متجاورة كأنهم وقعت عليهم القرعة بين المتشابهين والمتماثلين ، ثم امتازوا بعد ذلك بالتعليم والتدريب على يدي السيد المسيح .

وكان السيد المسيح ينظر إلى بعضهم فيقول له : اتبعني .. فيتبعه ولا يظهر عليه انه أفضل من غيره بمزية عقلية أو نفسية إلا أن تكون المزية التي يتوسمها فيه السيد فيدعوه من أجلها ، وهي مزية الإصغاء والاتباع .

ولم يبد منهم أنهم أقدر على فهمه من الآخرين ، فلو أصابت القرعة اثني عشر آخرين لكانوا في مثل قدرتهم على التعلم واستعدادهم للقبول ، لأن كفاءتهم ولا شك هي الكفاءة الوسطى في كل طائفة بهذا العدد ومن هذه البيئة .. فلم يكن منهم علم بارز لا يتكرر بهذه النسبة في أية جماعة يقع عليها النظر للوهلة الأولى ، فلا يقال في واحد منهم انه واحد من مائة أو واحد من ألف لا يتكرر ، أو أن واحداً منهم تعلم ما لا يتعلمه أمثاله او حضروا كما حضر على معلمهم القدير . بل كل ما يقال انه مجند يشبه غيره من المجندين والفضل للقائد بعد ذلك فيما ظفر به من التدريب والتهذيب ..

وقد وقع عليهم الاختيار كما جاء في الأناجيل .

ولكن لا يبدو من ذلك الاختيار انه كان اختياراً نادراً أو مستعصياً على القائدالحكيم الحصيف ، ولعل العامل الأكبر فيه انهم مختارون من طائفة متعارفة متآلفة ، وان اجتماعهم هكذا خير وأصلح من اجتماعهم بدداً من بيئات متباعدة ، فان المتآلفين أولى بمصاحبة بعضهم بعضاً من المتباعدين ..

ونحسب أن التشبيه بالتجنيد هنا خليق أن يقرب إلى الأذهان هذا المعنى الذي نرى له المكان الأول في فهم الدعوة وأسباب سريانها .

فالمجندون يقترعون ، وكلهم متماثلون في شروط التجنيد ، ولكنهم

مع هذا يعرضون على القائد فيعزل منهم فئة متجانسة فيما يراه ، وكل الفئات الأخرى تضارعها على الجملة في شروط التجنيد .

لم يكونوا طينة من البشر غير طينة السواد لولا تلك النفحة العلوية التي نفثتها فيهم روح المعلم القدير .

كان يعرف عيوبهم ، وكانوا في أمانتهم واخلاصهم لا يغالطون أنفسهم في تلك العيوب ..

كان يخاطبهم فلا يفهمونه فيسألونه مزيداً من التوضيح ، وكان يخامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكرونه ، وربما فاتحوه بالشك ابتداء وسألوه أن يزيدهم إيماناً ، فيزيدهم ويعلمهم كيف يتقون أمثال هذه الشكوك ..

ولم يحسب قط انهم طود لا يتزعزع وانهم عزيمة لا تتضعضع وانهم يواجهون المحنة في كل حال ولا يدركهم ضعف النفس يوماً أمام هول من الأهوال ..

فقد أنبأهم أنهم سيتخلون عنه،وقد ناموا وهو يسألهم أن يسهروا معه، وقد لامهم غير مرة لأنهم يتنافسون على السبق أو لأنهم يستبطئون جزاءهم على الإيمان ، أو لأنهم – بعـد وعظهم وتذكيرهم – لم يزالوا يفرقون بين الناس ويدينون بشريعة غير شريعـة الحب والغفران ، ولم يكن على اليقين ينتظر منهم أكثر ممـا نظر ، أو تفوته منهم في أوائلهم حالة ظهرت له في أواخرهم،ولكنه علم المطلوب منهم كله فوجد فيهم الكفاية على انهم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم ، وليس مطلوباً من الناس في العالم الواسع أن يدركوا مقاماً من الإيمان فوق مقام الاخلاص وحسن الاستعداد لإصلاح العيوب ، وهذا المقام قد أدركه التلاميذ يوم وكل اليهم أن يسيحوا في أرض الله ويجعلوا من أنفسهم مثلاً يقتدي به المخلصون ..

فهو لم يقصد اعدادهم ليخرجهم طرازاً معصوماً لا عيب فيه ولا مأخذ مأخذ فيه ، ولكنه قصد اعدادهم ليحسنوا القدوة ويجمعوا حولهم من يسلك

مسلكهم ، ويستقبل معهم قبلتهم ، ويكلفوا أنفسهم غاية ما يستطيعون ، وقد يستطيع من يقفوهم فوق ما استطاعوا .

* * *

ومن العبارات ذات المغزى الكبير في الانجيل ان المسيح مضى شوطاً بعيداً في دعوته ولم يقل لهم انه هو المسيح المنتظر ، فشاع ذكره في القرى وتساءل الناس عنه : من يكون ؟ .. فمنهم من يقول : انه يوحنا المعمدان قد بعث من الموتى ، ومنهم من يقول : انه الياس ، ومنهم من يقول : انه نبي مبعوث ، والمسيح لا يقول للتلاميذ انه المسيح . بل سألهم بعد شيوع ذكره وتساؤل الناس عنه : وأنتم من تقولون إني أنا هو ؟ .. فأجابه بطرس : أنت المسيح . فانتهره وأوصاهم ألا يذكروا ذلك لأحد في رواية انجيل مرقس. أما في انجيل متى فقد روى ان بطرس قال : « أنت هو المسيح بن الله الحي » ، فأجاب يسوع وقال : طوبى لك يا سمعان بن يونا . ان مخلوقاً من لحم ودم لم يعلن لك ولكنه أبي الذي في السماوات ، وأنا أقول لك انك أنت بطرس[1] وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح السماوات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات ثم أوصي تلاميذه ألا يقولوا لأحد انه هو يسوع المسيح » .

أما انجيل لوقا فالرواية فيه أقرب إلى رواية انجيـل مرقس : « ففيما هو يصلي على انفراد كان التلاميذ معه فسألهم قائلاً : ماذا تقول الجموع عني ؟ .. فأجابوا : انهم يقولون : يوحنا المعمدان ، وآخرون يقولون : الياس ، وآخرون يقولون : ان نبياً من القدماء قام . ثم سألهم : وأنتم من تقولون ؟ .. فقال بطرس : مسيح الله .. فانتهرهم وأوصاهم ألا يقولوا ذلك لأحد » ..

---

(١) الكلمة الآرامية صفا بمعنى حجر كما في العربية وبطرس « بيتر » هي ترجمة الكلمة باليونانية .

والرواية في يوحنا أقرب إلى تصوير ما قدمناه ، فان السيد المسيح أحس ان الناس يتراجعون عنه « وان كثيراً من تلاميذه رجعوا إلى الوراء ولم يمشوا معه ، فقال للاثني عشر : ألعلكم أنتم تريدون أيضاً أن تذهبوا ؟ .. فأجاب سمعان بطرس : يا رب ! .. إلى أين نذهب ؟ .. كلام الحياة الأبدية عندك !.. ونحن قد آمنا وعرفنا انك أنت المسيح ابن الله الحي ، فأجابهم : ألست أنا اخترتكم ... وواحد منكم شيطان ! .. »

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ فقال لهم كما جاء في انجيل يوحنا : « قال يسوع لليهود الذين آمنوا به انكم ان ثبتم في كلامي كنتم بالحقيقة تلاميذي ، وتعرفون الحق والحق يحرركم . فأجابوه. اننا ذرية ابراهيم ولسنا عبيداً لأحد ، فكيف تقول انكم ستصيرون أحراراً ؟ .. قال : الحق الحق أقول لكم ان كل من يعمل الخطيئة فهو عبد للخطيئة ، والعبد لا يبقى في البيت أبداً . إنما يبقى فيه الابن إلى الأبد . فان حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً .. أنا عالم انكم ذرية ابراهيم ،لكنكم تريدون قتلي لأن كلامي لا يقع منكم موقعاً ،أنا أتكلم بما رأيت عند أبي وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم ، فأجابوه : ان أبانا ابراهيم . قال : لو كان أباكم لعملتم عمله ، ولكنكم الآن تطلبون دمي وأنا انسان كلمكم بالحق الذي سمعه من الله . هذا لم يعمله ابراهيم وأنتم تعملون أعمال أبيكم ، فقالوا له: اننا لم نولد من سفاح ، لنا أب واحد هو الله . قال : لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأنني خرجت من قبل الله وأتيت اليكم . انني لم آت من نفسي بل هو أرسلني ... أنتم من أب هو ابليس ... »

فأجابه اليهود : « ألا نقول حسناً انك سامري وبك شيطان » . وبعد أن قال لهم : ان من يحفظ كلامي لن يرى الموت ، عادوا يقولون : « الآن تبين لنا أن بك شيطاناً . قد مات ابراهيم وأنت تقول : إن حفظ أحد كلامي لن يذوق الموت . من تجعل نفسك ؟ .. ألعلك أعظم من أبينا ابراهيم الذي مات » ..

والعبرة من هذه القصة ان السيد المسيح مضى في دعوته زمناً ولم يذكر لتلاميذه انه هو المسيح الموعود ، وأنه كان يعلم ممن يطلبون التتلمذ عليه

انهم لا يدركون ما يقول ، ولا يفرقون بين لغة الحس ولغة الروح أو لغة المجاز ، وأنه أشفق يوماً أن ينفض عنه تلاميذه المختارون كما انفض هؤلاء الذين أرادوا أن يحسبوا أنفسهم من التلاميذ ، وزعموا انهم مثله فأنكر عليهم دعواهم وقال لهم : « انما بنوة الله بالأعمال وانما أنتم بأعمالكم أبناء ابليس » .

وقد علم المسيح انه لن يبقى طويلاً مع طلاب التلمذة عليه إلى الأبد ، وانه لن يبقى معهم حتى يبلغوا من الدراية والإيمان تلك الغاية المثلى التي ليس فوقها غاية ، فان صمد معه أناس يضعفوا تارة ولا يحسنوا فهمه تارة أخرى ولكنهم يحسنون الظن ويترقبون الأمل في الخلاص من هذا الطريق ، فأولئك على علاتهم خير من المتتلمذين الذين يسيئون الفهم ويستكبرون ويأتمرون به ليقضوا عليه .

* * *

والشائع ان التلاميذ كانوا طائفة من صيادي السمك في بحر الجليل ، والمفهوم من هذا عند أناس ممن يعرفونهم بالصناعة على السماع انهم طبقة عمال الصيد الأميين ، ولكنه فهم متعجل مبني على قياس غير صائب . إذ الواقع أنهم كانوا طائفة تقرأ وتكتب وتتردد على مجامع الوعظ والصلاة وتراجع ما قيل عن النبوءات ، لم يبلغوا في العلم مبلغ الفقهاء في زمانهم ، وهو خير لأنهم لو كانوا من فقهاء زمانهم لركبهم الغرور وقابلوا الدعوة بالتحدي والمكابرة ، ولكنهم لم يبلغوا كذلك مبلغ الأمية الجاهلية في الغباء ، وكان منهم من نسميه في عصرنا هذا بكاتب الحسابات أو مأمور التحصيل وهو متى العشار صاحب الانجيل المعروف باسمه ، وقدرته على كتابة انجيل « باللغة اليونانية كما هو الأرجح » قدرة لا تتأتى لغير المثقفين ، ومنهم يوحنا الذي ينسب اليه الانجيل الرابع ، وهو ابن خالة المسيح أو من بني خؤولته ، وكان صاحب عمل ناجح في تجارة السمك يشاركه فيه أخوه يعقوب كما يؤخذ من انجيل مرقس حيث يقول : « انهما تركا أباهما في السفينة مع الأجراء وذهبا وراء السيد المسيح » .

ومنهم جيمس [1] قريب المسيح ويوحنا أو « ابن الرعد » كما سماه المسيح لقوته في الانذار وتشديد النكير ، ومنهم بطرس وهو متكلم جريء صلب العزيمة مدرب على حمل السلاح كما يؤخذ من بعض أخبار الانجيل ، وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة الناس في أمر الدعوة ، وأكثرهم واجه الموت في عمله لنشر الدعوة ولم يحفل بمقاومة ذوي البأس والسلطان .

وقد استمالت الدعوة اليها في عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين العلماء مثل نيقوديمس عضو المجمع الأعلى ، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول ، ومنهم بولس الرسول نفسه وهو أستاذ في فقه الدين عالم بالتواريخ ، وأكثر هؤلاء المثقفين مالوا إلى الدعوة عطفاً على التلاميذ المجاهدين الذين نكلت بهم السطوة الغاشمة ، لأنهم خارجون على نظام من العقيدة والعادة يحتقره أولئك المثقفون ولا يجهلون فعل الحماسة الروحية في تقويضه أو الاجهاز عليه .

ومن المعاصرين من يحلو له أن يحسب السيد المسيح داعياً إلى الفوضى السياسية متحللاً من النظام ، لشدة انحائه على الشريعة والجامدين عليها والمنافقين باسمها ، وفاتهم ان الشريعة الفاسدة في أيدي الجامدين أو المنافقين هي الفوضى في صورة أخرى ، ومن يدحضها وينحي عليها لن يكون من الفوضويين ولا أعداء النظام .

أما البينة في الواقع على سخف هذا الحسبان فهو تنظيمه لتلاميذه وترويضه لهم على الطاعة وانكار الذات ، وتقسيمه للأعمال في مجتمعه الصغير — مجتمع التلاميذ — بين أمين للصندوق ، ومباشر لمطالب الجماعة ، وراع يرعى القطيع في غيبة السيد، وهم فئة قليلة لا تجاوز العشرين مع حسبان التلاميذ وغيرهم من الطارئين .

---

(١) ورد في بعض المجامع أن « جيمس » تصحيف يوناني لكلمة يعقوب ، ولكن اسم يعقوب وارد في التراجم اليونانية فالمفهوم على الأرجح ان المترجم اليوناني سمع اسم جيمس من أفواه الناطقين بالآرامية فلم يتصرف فيه .

وأدخل من هذا في باب التنظيم انه اختار أولاً اثني عشر تلميذاً ثم اختار بعدهم سبعين وأوصاهم أن ينطلقوا بالدعوة اثنين اثنين في كل اتجاه.. وانهم حين عادوا من رحلتهم، أخذهم ناحية في الجبل ليستمع منهم ويراجع أعمالهم ، ويزيدهم من الوصية والارشاد .

وقد جعل كل مناسبة للدعوة مناسبة لتعليم أولئك التلاميذ المختارين، وكان يحذرهم على الدوام من الفتنة الموبقة التي يتحطم عليها نظام كل جماعة .. وهي فتنة التنافس على الرئاسة ، فعلمهم ان الأول فيهم هو خادمهم الأول، وضرب لهم مثلاً فذاً في تاريخ الدعوات ليقوا جماعتهم غواية الرئاسة كلما ذكروه ، فجمعهم في محفل ليغسل أقدامهم بيديه ، ونفر بعضهم أول الأمر ولكنهم عادوا فأذعنوا حين علموا العبرة التي عناها بهذه القدوة ، وقال الذين نفروا أول الأمر من هذا التقليد انهم يودون لو يأمرهم بأن يطيعوه في غسل الأيدي والرءوس .

|| وحصر جهده كله في تعويدهم « انكار الذات » وهو فضيلة الفضائل في الأعمال العامة ، فعلمهم أن يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم ، ثم أذن لهم أن يقبلوا ضيافة البيوت التي يدخلونها لدعوة أهلها ، ولكنه قال لهم : « لا تحملوا كيساً ولا مزوداً ولا أحذية ... وأي بيت دخلتموه فقولوا سلام .. وأي مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى سبلها وانفضوا غبارها من أرجلكم » .

وكرر لهم الوصية بالبساطة في العمل والكلام فأمرهم « ألا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون لأنهم يلهمون في تلك الساعة ما يقولون ، وليسوا هم المتكلمين بل هو روح أبيهم يتكلم فيهم » .

ولم يُخف عنهم انهم مُلاقون ويلاً من الناس ، فليكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام . أما إذا جد الجد فلا يخافن من يهلك الجسد وليخافن من يهلك الروح ..

وقد أثمرت رياضة الحب في تدريب هذا الجند الروحاني ما لا تثمره

رياضة القسوة والصرامة في تدريب جنود القتال فخرجوا يعملون وهم يعلمون ان الوناء في أداء الأمانة يصغرهم أمام أنفسهم ، ويصغرهم أمام الله ، وليس أقسى على النفوس من الشعور بهذا الصغار .

وما هو إلا أن حان موعدهم ليعملوا وينتشروا في الأرض حتى خرجوا إلى كل وجهة وأبعدوا الرحلة في كل مكان معمور ، فمنهم من وصل إلى جزر الهند الشرقية كالرسول توما ، ومنهم من وصل إلى سكيثية وآسيا الصغرى كالرسول أندراوس ، ومنهم من شغل بنفسه في البلاد الأوربية فأرسل صحابته إلى افريقية الشمالية ، وعمت الدعوة مصر وبلاد العرب والعراق ، فضلاً عن الدعوة في فلسطين .

ولكنهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية كما حفلوا بخطاب « الأمم » في الجليل وآسيا الصغرى والاسكندرية ، وأفادهم التمهيد الذي سبقهم به طوائف اليهود وأصحاب النحل السرية في تنظيم الدعوة ، فعملوا كما كان يعمل الآسون والغلاة الغيورون ، يخرجون اثنين اثنين وينشرون الخلايا في كل بقعة ، ويحفظون الصلة بين تلك الخلايا بالمراسلة والزيارة ، وهنا يصح أن يقال ان الدعوة الجديدة استفادت من الدعوات التي سبقتها في العصر السابق لعصر الميلاد ولا جرم يكون أكبر النجاح الذي أصابوه ملحوظاً في آسيا الصغرى والاسكندرية حيث عرف من قبل نظام الخلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ .

كذلك يبدو أثر « الحالة العالمية » في انتشار الدعوة الجديدة من ظاهرة رائعة تكررت في كل أمة . فقد كان المدعوون إلى الدين الجديد من جماهير الناس سراعاً إلى القبول ، حراصاً على المعاونة والتأييد ، ولم يصب الرسل خطر إلا من قبل « السلطة » الغالبة ، حيث تصطدم عبادة القياصرة بعبادة الله ..

وكان أشدهم حماسة لدينه يلجأ إلى المجاملة رجاء أن تكسبه هذه المجاملة بعض المؤمنين الذين يعرضون عن الدعوة إذا واجهتهم الصراحة بغير تقية ، فكان بطرس في انطاكية يجامل المحافظين ولا يعاشر أبناء الأمم كلما أحس

حوله بقوم من « آل يعقوب » فوبخه الرسول بولس علانية وحذره من مخالفة الدعوة في سبيل مرضاة الناس .

على أن بولس نفسه كان يتألف القلوب ببعض المجاملة ، وكان كما قال في سفر كورنثوس الأول : « ... استعبدت نفسي للجميع لكي أربح الأكثرين، وصرت لليهودي كيهودي لأربح اليهود، وللناموسيين كالناموسيين، ولغيرهم كأنني بغير ناموس ... صرت لكل كلّ شيء ، لعلّي أستخلص من كل حال قوماً ... » .

ومن ثم ولا شك خالط المسيحيين الأول أناس ممن تحولوا إلى المسيحية من الوثنية ، ونقلوا معهم بعض عاداتها وشعائرها ، وشملهم الإغضاء حيناً لعلهم بعد هجر الوثنية يستقيمون على منهاج الدين الجديد .

ومن بدع القرن العشرين سهولة الاتهام كلما نظروا في تواريخ الأقدمين فوجدوا في كلامهم أنباء لا يسيغونها وصفات لا يشاهدونها ولا يعقلونها ، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يثبتونه من أعاجيب العيان ، أو أعاجيب النقل والرواية ، ولكننا نعتقد أن التاريخ الصحيح أبى هذا الاتهام لأنه أصعب تصديقاً من القول بأن أولئك الدعاة أبرياء من تعمد الكذب والاختلاق ، فشتان عمل المؤمن الذي لا يبالي الموت تصديقاً لعقيدته ، وعمل المحتال الذي يكذب ويعلم انه يكذب وانه يدعو الناس إلى الأكاذيب ، مثل هذا لا يقدم على الموت في سبيل عقيدة مدخولة وهو أول من يعلم زيفها وخداعها ، وهيهات أن يوجد بين الكذبة العامدين من يستبسل في نشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون . فإذا كان المؤرخ الصادق من يأخذ بأقرب القولين إلى التصديق فأقرب القولين إلى التصديق ان الرسل لم يكذبوا فيما رووه وفيما قالوا إنهم رأوه أو سمعوا ممن رآه ، وليس بالمخالف للمعهود في كل زمن أن يصدق الانسان عياناً ما يصدقه في قرارة نفسه، وبخاصة حين يجمع الألوف على تصديقه ولا يوجد بين قائليه وسامعيه من يحسبه من المستحيل..

وليذكر أدعياء التمحيص في عصرنا هذا اننا نطلب من الرجل في القرن

الأول للميلاد أن يكذب انساناً لغير سبب وهو يطمئن اليه ولا يتهمه بالتلفيق والاختلاق .. ومن التكذيب لغير سبب في ذلك العصر أن يبادر السامعون إلى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجزات ، فذلك شبيه في عصرنا هذا بمن يكذب انساناً لأنه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصناعية لا غرابة فيها ، ولا سيما إذا كان المتكلم غير معهود فيه أن يتعمد الكذب والاختلاق ..

* * *

ان أسخف السخف أن يقال إن ديناً من الأديان قام على الأعاجيب والخوارق . ان تصديق الخوارق والأعاجيب هو نفسه إيمان كأقوى الأيمان ، وما خلت دعوة دينية قط من أحاديث هذه الخوارق والأعاجيب ما يعقل منها وما لا يعقل .. ولكن لم يحدث قط اقبال كذلك الاقبال الجارف الذي تلقى به الناس رسل المسيحية ، لأنهم تلقوهم بنفوس مقفرة متعطشة ، ونظروا أمامهم فرأوا قوماً مثلهم يؤمنون غير مكترثين لما يصيبهم وغير متهمين في مقاصدهم ، فأصغوا اليهم وآمنوا كإيمانهم ، ولولا ثقة المسيح عليه السلام بهذا الاقبال لما أوصى تلاميذه أن يذهبوا حيث يستمع لهم وينفضوا عن أقدامهم غبار كل بلد يتلقاهم بالصدود والنفور ..



٦

الأناجيل

- الأناجيل
- شرّاح الأناجيل



الأناجيل

الانجيل كلمة يونانية بمعني الخبر السعيد أو البشارة ، وقد تداول المسيحيون في القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل ثم اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع — أي بكثرة الأصوات — وهي انجيل مرقس ، وانجيل متى ، وانجيل لوقا ، وانجيل يوحنا ، مع طائفة من أقوال الرسل المدونة في العهد الجديد .

ويرجح المؤرخون المختصون بهذه المباحث أن الأناجيل جميعاً تعتمد على نسخة آرامية مفقودة يشيرون اليها بحرف « ك » مختزلة من كلمة كويل Quelle بمعنى الأصل ، ومنهم من يسمي هذه النسخة « لوجيا » Logia بمعنى الأقوال ، ويريدون بها الأقوال الشفوية التي سمعت ثم كتبت على القول الراجح عندهم باللغة الآرامية ، ويعللون اتفاق متى ولوقا في بعض النصوص باعتمادها معاً على تلك النسخة المفقودة .

أما الأناجيل الموجودة الآن فقد كتبت جميعاً باليونانية العامة Koine ولوحظ في ترجمتها انها تعتمد على نصوص آرامية وتحافظ على ما فيها من الجناس وترادف المعاني والمفردات ، وتتفق الآراء على أن هذه الأناجيل لا تحتوي كل ما فاه به السيد المسيح ، إذ جاءت في أعمال الرسل التي تضمنها العهد الجديد كلمة منسوبة إلى السيد المسيح لم ترد في الأناجيل وهي : « تذكروا كلمات المسيح . ان العطاء مغبوط أكثر من الأخذ » ... وجاءت في الأناجيل الأخرى التي لم تعتمد كلمات من هذا القبيل ، وكشفت أوراق بردية في مصر ترجع إلى منتصف القرن الثاني لا تشبه الأناجيل المعتمدة في نصوصها .

وتتفق الآراء أيضاً على أن نسختين من الأناجيل كتبهما مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعا منه ، وهما نسخة مرقس التي دون فيها ما سمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب وعلى غير قصد منه أن تجمع في كتاب ، وقد كتبها في رومة بعد مقتل الرسول وليس معه أحد من التلاميذ ، ويتراوح تاريخ كتابتها بين سنتي سبع وستين وسبعين .

والنسخة الأخرى هي نسخة لوقا صاحب بولس الرسول ، دون فيها ما سمعه منه ، ولعله أضاف اليها جزءاً من النسخة المفقودة ثم جزءاً من انجيل مرقس بعد إطلاعه عليه ، وكانت كتابتها على الأرجح سنة ثمانين .

أما انجيل يوحنا فهو آخر الأناجيل كتابة ومراجعة ، وأكثر النقاد يجمعون على انه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ السيد المسيح ، وآخرون يعتقدون انها بقلم يوحنا آخر كان في افسس ولم ير السيد المسيح .. لأن يوحنا تلميذ المسيح هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف على أصح الأقوال في سنة ست وتسعين ، ولا يظن أن مؤلفا واحداً يكتب في وقت واحد كتابين بينهما مثل ذلك التباين في المنهج والفحوى .

على ان الأب فرار فنتون مترجم الانجيل«طبعة اكسفورد»يعن له ان انجيل يوحنا هو أقدم الأناجيل ، وانه كتبه أولاً بالعبرية بين سنة ثلاثين وسنة أربعين ثم نقله إلى اليونانية ، ولكن تأخر الزمن الذي كتب فيه هذا الانجيل ثابت من تفصيله بعض ما أجملته الأناجيل ، وزيادته في التعبيرات الفلسفية ، وتوسعه في شرح العقائد التي أثرت عن بولس الرسول ، ولا يظن انه كتب قبل سنة ست وتسعين .

والترتيب المفضل عند المؤرخين أن انجيل مرقس هو أقدم الأناجيل ، ثم يليه انجيل متى فانجيل لوقا ، وهي الأناجيل الثلاثة التي اشتهرت باسم أناجيل المقابلة ، لإمكان المقابلة بين ما فيها من الأخبار والوصايا على اختلاف الترتيب ، مع العلم بأنها كتبت في الأصل مرسلة بغير أقسام وبغير مواضع للوقف والالحاق ، ولم تُقسَّم إلى اصحاحات قبل القرن الثالث عشر للميلاد .

وليس من الصواب أن يقال ان الأناجيل جميعاً عمدة لا يعول عليها في تاريخ السيد المسيح ، لأنها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب في الزمن والمكان ، ولأنها في أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ ، ولأنها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين ، كانشقاق القبور وبعث موتاهم وطوافهم بين الناس وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال.

وإنما الصواب انها العمدة الوحيدة في كتابة ذلك التاريخ ، إذ هي قد تضمنت أقوالاً في مناسباتها لا يسهل القول باختلاقها ، ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها ، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع إلى أسباب هذا وأسباب ذاك .

فانجيل متى مثلاً ملحوظ فيه انه يخاطب اليهود ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة ، ويؤدي عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس في منتصف القرن الأول للميلاد .

وانجيل مرقس على خلاف ذلك ملحوظ فيه انه يخاطب « الأمم » ولا يتحفظ في سرد الأخبار الالهية التي كانت تحول بين بني اسرائيل « المحافظين » والإيمان بإلاهية المسيح .

وانجيل لوقا يكتبه طبيب ويقدمه إلى سري كبير ، فيورد فيه الأخبار والوصايا من الوجهة الإنسانية ، ويحضر في ذهنه ثقافة السري الذي أهدى اليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية .

وانجيل يوحنا غلبت عليه فكرة الفلسفة وبدأه بالكلام عن « الكلمة » Logos ووصف فيه التجسد الالهي على النحو الذي يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة .

وسواء رجعت هذه الأناجيل إلى مصدر واحد أو أكثر من مصدر ، فمن الواجب أن يدخل في الحسبان انها هي العمدة التي اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس إلى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفي سنة عمدة أحق منها بالاعتماد .

ونحن قد عولنا على الأناجيل ولم نجد بين أيدينا مرجعاً أوفى منها لدرس حياة الرسول والاحاطة بأطوار الرسالة وملابساتها ، ولكننا نتبع في مراجعتها طريقة غير التي درج عليها مؤرخو الوقائع والأخبار فلا نراجعها من حيث هي وقائع تاريخية ولا من حيث المقاصد التي أرادها كتابها ورواتها ، ولكننا نجمع الوقائع والأخبار ونسأل عما وراءها من الابانة عن شخصية الرسول ؟ وفي هذه المراجعة تنفعنا الوقائع المستغربة كما تنفعنا الوقائع المألوفة وتهمنا الأغراض المقصودة وغير المقصودة .. فهل وراء هذه الأخبار « شخصية متناسقة » مفهومة ؟ .. إن كانت هناك علامات على تلك الشخصية المتناسقة فحسبنا ذلك من جميع الوقائع والأخبار .. وعلينا أن نفهم هنا أن النقائض في هذه المراجعة قد تكون من أسباب التصديق ، ولا تكون من أسباب الشك والانكار ، ثم يتأتى لنا أن نجعل هذه الشخصية نفسها محكاً لكل واقعة ولكل خبر ولكل كلمة مروية ، فما خرج من السواء فهو فضول .

ومن الأمثلة على الاختلاف بين هذه الطريقة وبين طريقة المؤرخين الذين يطلبون الوقائع لذاتها ان الغرائب هنا شيء يجب أن نبحث عنه إن لم نجده ماثلاً بين أيدينا ، فإن خلو هذا التاريخ من الغرائب هو الذي يستغرب ، وليس هو المألوف الذي يدعو إلى الترجيح أو اليقين . وهل يخلو من الغرائب سجل قوم يؤمنون بها ولا يشكون في وجودها ؟ ..

ونحب هنا أن نبين موقفنا من الخوارق والمعجزات حيث وجدت في تواريخ الأديان ، فنحن نسأل : هل هذه المعجزة لازمة في تفسير مسألة من المسائل ؟ .. فإن كان تفسير المسألة ميسوراً بغيرها فلا حاجة بنا إلى الجدل في امكانها أو استحالتها ، لأن التفسير الذي يقبله كل انسان يغني عن التفسير الذي يضطرنا إلى امتحان الممكنات وامتحان الرواة .

أما رأينا نحن في امكان المعجزات فهو رأينا في امكان جميع الأسباب : فان العقل قاصر عن تعليل الحوادث بأسبابها ، وليس من العقل أن يقال ان هذه الأسباب المسماة بالطبيعة هي العوامل الفعالة في ايجاد الأشياء ، وأصح ما يقال فيها قول الغزالي رحمه الله ، ان الأسباب والمسببات تحدث معاً ،

ولا تزيد علاقتها بعضها ببعض على علاقة المصاحبة والتوافق في الأوقات، وإلا لزم أن تكون المادة ألوفاً من المادات ، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الأخرى ولا يقول بذلك عقل سليم .

فإذا كان العقل لا يعلل الأسباب الطبيعية فمن الشطط أن يتعجل بانكار المعجزات والجزم باستحالتها ..

* * *

ومتى ناقشناها فلتكن مناقشتنا لها كمناقشة الأسباب : هل هي لازمة لتفسير هذه المسألة ؟ .. وكما نقول هل هذا السبب لازم نقول أيضاً : هل هذه المعجزة لازمــة للفهم والتفسير ؟ .. وبهذا القسطاس يجب أن توزن الحوادث ويدرس تاريخ الأديان وغير الأديان ..

ونحن لم نتعرض للمعجزات التي وردت في الأناجيل لأن تفسير الحوادث منساق لنا بغيرها ، فليس في الأناجيل ان معجزات الميلاد حملت أحداً على الايمان بالرسالة المسيحية بعد قيام السيد المسيح بالدعوة .. وكثيراً ما نقرأ فيها أن المعجزة لا تقنع المكابر ، وان الجيل الشرير يطلب الآية ولا يعطاها ، وان المنكرين كانوا يعجبون لما يرونه أحياناً ولكنهم كانوا يزعمون انه من فعل الشيطان ، بل كان من أسباب التعجيل بمصادرة المسيح انه كما قال الكهنة يصنع كثيراً من المعجزات .

وبعد ، فمن الحق أن نقول إن معجزة المسيح الكبرى هي هذه المعجزة التاريخية التي بقيت على الزمن ولم تنقض بانقضاء أيامها في عصر الميلاد : رجل ينشأ في بيت نجار في قرية خاملة بين شعب مقهور ، يفتح بالكلمة دولاً تضيع في أطوائها دولة الرومان ولا ينقضي عليه من الزمن في انجاز هذه الفتوح ما قضاه الجبابرة في ضم اقليم واحد ، قد يخضع إلى حين ثم يتمرد ويخلع النير ، ولا يخضع كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والأجسام ..

شرّاح الأناجيل

عني الشراح الانجيليون عناية دقيقة مضنية بترتيب الحوادث في سيرة السيد المسيح عليه السلام كما تستمد من روايات الأناجيل ، ولكنهم لم يصلوا إلى ترتيب متفق عليه ، لأن سياق الحوادث مختلف في الأناجيل الأربعة ، وبعض الأناجيل قد سجلت ما سمعه كتابها في أوقات متفرقة حسبما عرض لهم من مناسبات الرواية لا حسب تسلسل الأزمنة التي وقعت فيها الحوادث ، فلم يتفق ترتيب الكتابة وترتيب الحدوث .

على ان حوادث السيرة فيها ما يظهر منه انه مقدمات وما يظهر منه انه نتائج لاحقة لتلك المقدمات ، فإذا حسبنا بعضها نتيجة لبعض على حسب المعقول من آثار الحوادث ، أمكن على الترجيح متابعة السيرة المسيحية في خطوطها الكبرى ، ولا يضيرنا بعد استقامة هذه الخطوط أن تختلف أوضاع الحوادث التي يمكن أن تضاف إلى كل فترة دون أن يتغير سياق السيرة كله أو يتغير جوهر الموضوع الذي تدور الحوادث عليه .

كان لقاء المسيح ليوحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية .

ولم تذكر لنا الأناجيل من أخبار نشأة المسيح عليه السلام قبل ذلك اللقاء غير حادثتين اثنتين : احداهما ، حادثة السفر إلى مصر وهو رضيع ، والأخرى حادثة السفر إلى بيت المقدس وهو في الثانية عشرة من عمره .

روى الحادثة الأولى انجيل متّى فقال : « ان ملاك الرب ظهر ليوسف في حلم قائلاً : قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر .. لأن هيرود مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه ، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر ،

وبقي فيها إلى وفاة هيرود » ثم قال : « وقتل هيرود جميع الصبيان الذين في بيت لحم وتخومها من ابن سنتين فما دونهما » .

ولم يذكر خبر هذه المذبحة في غير انجيل متي ، ولا يعرف الآن سبب وجود الأسرة في بيت لحم – وهي في الناصرة – لأن الاحصاء الذي أشار اليه انجيل لوقا وقال انه سبب انتقال كل أسرة إلى منبتها قد تقرر في السنة السادسة للميلاد وحدثت من جرائه ثورة عنيفة على عهد والي سورية كرينيوس .

أما الانجيل الذي توسع في وصف طفولة السيد المسيح فهو انجيل لوقا الذي روى أخبار ختانه وتسميته والسفر به إلى بيت المقدس : « فلما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سمي يسوع ... » وتمت أيام التطهير حسب الشريعة الموسوية « فصعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للرب ... ويقدموا ذبيحة زوج يمام أو فرخي حمام » وهي القربان المقبول من الفقراء ..

قال انجيل لوقا : « وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح ، فلما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد ، وبقي الصبي عند رجوعهما في أورشليم ويوسف وأمه لا يعلمان . وإذ ظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف ، ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه ، فوجداه بعد ثلاثة أيام في الهيكل جالساً في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم ، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته ، فلما أبصراه دهشا وقالت له أمه : يا بني . لماذا فعلت بنا هكذا ؟ . فقال لها : « لماذا كنتما تطلبانني ؟ ... ألم تعلما حيث ينبغي أن أكون فيما لابي » . فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما ، ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعاً لهما .. وكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » ..

ولا يذكر الانجيل شيئاً عن نشأة الصبي بعد ذلك إلى أن بلغ الثلاثين وظهر يوحنا « بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا » وحينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن ليعتمد منه – كما ورد في انجيل متي – فمنعه يوحنا قائلاً : أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ ؟ .. فأجابه يسوع تسمح الآن ، لأنه هكذا

يجمل بنا أن نستوفي كل بر . فسمح له ، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء .. وإذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه ، وصوتاً من السماوات يقول : « هذا هو ابني الحبيب » ..

وفي انجيل غير الأناجيل الأربعة المعتمدة — وهو انجيل العبريين — رواية عن هذه الفترة من سيرته عليه السلام جاء فيها ان أمه واخوته قالوا له ان يوحنا المعمدان يوالي التعميد لغفران الخطايا فهلم بنا اليه ليعمدنا .. فقال لهم : « أي خطيئة جنيت حتى أذهب اليه لتعميدي ! .. اللهم إلا أن يكون هذا القول الذي قلت » .

وليس في الأناجيل ولا في غيرها خبر عن تعليم السيد المسيح في طفولته قبل الثانية عشرة وبعدها ، ولكنه بالقياس إلى نظام التربية في ذلك العصر يبدأ في مكتب ملحق بالبيعة في كل قرية كبيرة يشرف على بيعتها « حزان » أو « خزان » بمعنى الخازن والحارس ، ويندر في المكتب حصول التلميذ على النسخ المخطوطة من الكتب الدينية غير نسخة البيعة المعدة للتلاوة منها في الصلوات وللاستعانة بها على تعليم التلاميذ الصغار ، ومعولهم جميعاً على الحفظ والاستظهار .

لقد كانت كل أسرة يهودية تتمنى في ذلك العصر أن يخرج منها المسيح المنتظر ، وقد سمي الطفل يسوع أو « يهوشع » على هذا الأمل ، لأن الاسم مركب من كلمتين تفيدان معنى سعي « يهوا » أو نجدة « يهوا » أو خلاص « يهوا » فتربي الطفل تربية دينية خالصة ، ولا يصعب علينا تعليل سفر الأسرة إلى بيت لحم عند مولده ، لأنها تنتظر المعجزة هناك ، حيث ورد في أسفار من النبوءات أن بيت لحم هي مولد المسيح الموعود ، لأنها موطن داود ..

ولا يبعد أن الصبي المبارك ، وكان في الثانية عشرة من عمره ، قد وعى جميع الدروس التي يتعلمها الصغار في مدارس القرى واستمع إلى شيء جديد من فقهاء الهيكل وأحباره ، فتاقت نفسه إلى استيعابه ونسي أهله وموعد عودتهم إلى قريتهم وهو يتنقل بين دروس الفقهاء والأحبار .

ويغلب على الظن انه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان وان يوحنا قد رآه وعرفه وعرف فضله وطهارة سيرته قبل أن يلقاه في الأردن عندما تصدى لرسالة التعميد ، وهي بطبيعتها رسالة إعداد وتمهيد ..

ومن البديهي أن كلمات يوحنا مع الفتى ابن الثلاثين في ساعة التعميد لم تذهب بغير صداها في نفسه الواعية ، فمن أيسر آثارها في مثل تلك النفس أن تعزز فيها الأمل وتدعم فيها اليقين وتبعثها على التأمل فيما خلقت له وفيما ترجوه ويرجى منها من البشائر والنذر التي ترددت يومئذ في كل مكان ، وعلى كل لسان .

وخلوة البرية هي احدى نتائج تلك التحية النبوية ، وهي خلوة التجربة والامتحان والتساؤل والاستيثاق التي عالجها كل نبي قبل أن يصدع بما أمر به ، وقبل أن يستيقن أن ما أمر به من عند الله .

ونعتمد في وصف هذه التجربة على رواية انجيل متى حيث يقول : « انه عليه السلام بعد أن صام في البرية أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً فتقدم اليه المجرب وقال له : ان كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تصير خبزاً . فأجابه : مكتوب انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله . ثم أخذه ابليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من عل ، لأنك موعود أن يوصي ملائكته بك ليحملوك على أيديهم فلا تصطدم رجلك بحجر . قال يسوع : ومكتوب أيضاً : لا تجرب الرب إلهك . ثم أخذه ابليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له :أعطيك هذه جميعها إن سجدت لي .. قال يسوع : أغرب عني أيها الشيطان ، فإنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » .

قال انجيل متى بعد ذلك : ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم لهيرود انصرف إلى الجليل وترك الناصرة وسكن في كفرناحوم ، وابتدأ رسالته داعياً إلى التوبة ، لأنه قد اقترب ملكوت السماوات .

كان لقاء يوحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية كما أسلفنا ، فكانت سيرة الفتى المؤمن قبل ذلك اللقاء تأهباً واستعداداً وأملاً ، وكانت سيرته بعد اللقاء رياضة وامتحاناً وعزيمة ، وردّته كلمات النبي النذير إلى طويته يسبر أغوارها ويمتحن صبرها ويسائلها ويسائل الغيب ليهديه إلى كنه رسالته ومصدر بعثته ، وتوسوس له التجربة أن يطلب الآية ويلمس الدليل ، وكل تجربة من هذه التجارب التي مثلتها بساطة الرواية الانجيلية تدور على سر الرسالة المسيحية وما أحاط بها في كتب القدامى من البشائر والمواعيد : ألم يكن رجاء الناس من المسيح الذي ينتظرونه أن يعم الخير ويبطل العناء في طلب الأرزاق ويصبح الخبز لقى لمن يطلبه كحجارة الطريق ؟ ألم يكن من مواعيد المسيح أن يقبل على السحاب محمولاً على أجنحة الملائكة ؟ .. ألم يكن من مواعيده ملك العالم بالتاج والصولجان ؟ .. كل تجربة من هذه التجارب كانت هي التجربة التي تساور ضميراً مشغولاً بالرسالات المسيحية ، واقفاً على قمة الإيمان وشفا الهاوية في لحظة واحدة ، تغريه من هنا رسالة جسد وسلطان ومساومة على البراهين والآيات ، وتعصمه من هنا رسالة روح وقداسة ويقين لا يساوم على البرهان .

أتكون كلمات يوحنا للمسيح أول وحي نبوي بالرسالة المسيحية ؟ ..

واضح غاية الوضوح أن هذه الكلمات الحية لم تطرق مسامعه إلا وقد فتحت في نفسه الصافية باباً للتأمل والتساؤل ، وان فترة الخلوة في البرية على أثر ذلك كانت فترة اعتكاف لاستخلاص الحقيقة من أعماق الضمير والاستعانة بالصيام والتهجد على مناجاة الغيب والاستقرار على عزيمة خالصة للاقدام على خطوة حاسمة يريدها الله ويبطل فيها الابهام والاحجام .

وعندنا أن أنفس خبر يعين على التعريف بمنهاج الإيمان في نفس الرسول العظيم هو هذا الخبر عن تجربة الوحدة في البرية ، فهو يفسر لنا مواقف السيد المسيح جميعاً قبل الاقدام على خطواته الحاسمة ، أو يفسر لنا منهاج الإيمان بدواعي العمل في ضميره السليم .

إنه إذا أقدم على أمر من الأمور الحاسمة أطال التفكير فيه ، ولم يزل يطيل التفكير فيه ويقلب وجوه الروية والمراجعة حتى يخطر له أن العمل مرهون بانتظار آية يستوثق بها من ارادة الله ، وعندئذ يبادر إلى نبذ هذا الخاطر بغير هوادة ، لأن العامل الذي يتوقف عمله على انتظار آية ضعيف الإيمان ، ومن كان قوام نفسه أن مثقال حبة خردل من الإيمان ينقل الجبل من مكانه ويخلع الشجر من منبته فلن يكون إيمانه معتمداً على آية يراها قبل أن يعمل عمله ويتجرد لمقصده ، وبخاصة حين يبدو للنفس ان الآية منتظرة لاتقاء الخطر وضمان الأمان الذي لا يأتي إلا بضمان من البرهان ..

وكلما بلغ السيد المسيح من تفكيره ورويته هذا الحد الفاصل فمنهاجه الجدير به هو استخارة الحوادث واستلهام الغيب من هذا الطريق ... ليفعل ما يتوقاه ولا يشترط شرطاً للوقاية ، وليفعل الله ما يشاء ، فما يجري بعد ذلك كله هو ارادة الله .

خرج السيد المسيح من العزلة إلى الرسالة ، ولم يقل لأحد انها رسالة مسيح ، بل سكت عن ذلك حتى تسامع الناس بدعوته وأصبح له أكثر من ثمانين تلميذاً يبشرون برسالته ويستمدون الهداية من وحيه .

واصطبغت رسالته الأولى في الجليل بصبغة مميزة وهي صبغة الرسالة القومية إلى اسرائيل ، وحرص عليه السلام أشد الحرص ألا يثير الناس على السلطان الحاكم ولا يثير السلطان الحاكم عليه ، فكان يؤثر المباعدة والتقية ما استطاع ، حتى بلغ الكتاب أجله وآن أن يمضي في خطوة أخرى بعد الخطوة الأولى التي انتقل بها من العزلة إلى الدعوة بين بني اسرائيل ، فهذه الخطوة التالية هي الدعوة الإنسانية العامة وهي استخارة للحوادث واستلهام للغيب في ميدان أوسع وأبقى ، وعلى الصفة التي ثبتت له في طوية ضميره وهداه اليها وحي الله ، ولم يبق إلا أن تؤيدها حوادث القدر كيف شاء ..

أما الصفة التي ثبتت له عليه السلام في طوية ضميره فقد تكررت في كلامه عن نفسه على صور شتى ، فهو نور العالم وخبز الحياة ، والكرمة الحقيقية ، وهو ابن الله وابن الانسان .

والأبوة الالهية قد وردت في مواضع متعددة من كتب الأنبياء فجاء في سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله « وأن أبناء الله رأوا بنات الناس حسنات فاتخذوا منهن زوجات » (٦ تكوين) .

وورد في كلام موسى عليه السلام أن بني اسرائيل جميعاً أبناء الله حين قال لفرعون : « دع ابني يخرج » ووردت بهذا المعنى في كتب أخرى كسفر التنبيه حيث جاء فيه : « أنتم أبناء الله » (تثنية ١٤) وأشير إلى الشعب كله بأنهم أبناؤه وبناته (٣٢ تثنية) ... ووردت كذلك غير مرة في المزامير حيث قيل : « قدموا للرب يا أبناء الله » (٢٩) و « من يشبه الرب بين أبناء الله » (٨٩) .

وكذلك وردت في هوشع وجاء فيه من خطاب الشعب : « أنتم أبناء الله الحي » ..

أما العهد الجديد فمخاطبة الله فيه باسم الأب وردت في الصلاة التي تبتدىء بدعاء الله « أبانا الذي في السماوات » وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ : « إن أباكم واحد هو الذي في السماوات » وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد ، وكل ولادة للروح فهي بنوة الله .

أما ابن الانسان فقد وردت في كتب العهد القديم باللغة الآرامية ، وباللغة العبرية ، وهي بالآرامية « بارناشا » من بار بمعنى ابن وناش بمعنى انسان ، وهي بالعبرية « ابن آدم » وتطلق في كلتا اللغتين على الإنسان الخالص أو على الإنسان من حيث هو نوع يقابل أنواع الأحياء .

وقد وردت تسعين مرة في سفر حزقيال حيث يخاطب « يهوا » ذلك الرسول فيناديه بابن الانسان .

ووردت مرة في سفر دنيال بلسان جبريل وهو يخاطب النبي باسم ابن الانسان (٨) .

ووردت في هذا السفر باللغة الآرامية حيث يتكلم عن مخلوقات بصور

الحيوانات ثم ينبيء عن رسول يأتي في صورة إنسان رآه النبي في رؤى الليل « على سحاب كابن الانسان » جاء بسلطان لن يزول .

أما كتب العهد الجديد فقد وردت في مواضع منها بمعنى « الإنسان » ومنها قول السيد المسيح في انجيل متي « كل خطيئة وتجديف يُغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في العالم الآتي» (١٢) .

وقد جاءت أحياناً مرادفة لضمير المتكلم « أنا » حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه ، فجاء في لوقا ١٢ : « كل من اعترف بي قدام الناس يعترف به ابن الإنسان قدام ملائكة الله » وجاء في متي ١٠ : « كل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام أبي الذي في السموات » .

وورد في متي ١٦ : « انه لما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلاً : من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان » .

وورد في مرقس ٨ : « ثم خرج يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصرية فيلبس وفي الطريق سأل تلاميذه قائلاً : من يقول الناس إني أنا ؟ » .

فهي في بعض الأناجيل مرادفة أو بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه ، ولا بد أن يلاحظ هنا أن التلاميذ قد عرفوا استخدامها في هذا السياق فلم ينادوا السيد المسيح قط باسم ابن الإنسان .

وقد وردت حيناً بمعنى يشبه معناها في نبوءة دنيال حيث قال : كما يجمع الزؤان ويحرق بالنار هكذا يكون في انقضاء العالم ، يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر والآثمين » متي (١٣) .

وهي إشارة كإشارة دنيال إلى يوم الدينونة ، وصيغتها بالآرامية واحدة في الموضعين ..

هذه هي الأسماء التي تسمى بها السيد المسيح في ابان دعوته الأولى أو عند نهايتها ، وفي أثناء هذه الدعوة كان يدعى بالمعلم الصالح أحياناً فيقول :

« لماذا تدعونني صالحاً ؟ .. ليس أحد صالحاً إلا واحداً ، وهو الله » .

وعند نهايتها سأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه ، فلما قال له بطرس إنك أنت المسيح ابن الله باركه ثم أمرهم بالكتمان .

وغني عن القول إن هذه الأسماء إنما كانت تفهم كما تعود قراء الكتب الدينية أن يفهموها في ذلك الحين ، ولم يوص السيد المسيح تلاميذه أن يفهموا منها غير ذلك حين يذكرون « ابن الله » أو « ابن الإنسان » .

لو جرت الأمور في مجراها الذي استقامت عليه الدعوة في الجليل من بعد الرسالة المسيحية لمضت هذه الرسالة في طريقها سنوات دون أن تشتبك في حرب صراح مع دولة الكهانة في بيت المقدس .

ولكن الحوادث حكمت حكمها في السنة التي تحسب الآن سنة ثلاثين للميلاد ، وحان موعد عيد الفصح وزيارة بيت المقدس كما جرت عادة الأسر اليهودية ، ومنها أسرة السيد المسيح : أمه وإخوته وذوو قرباه .

وكان عليه السلام يجاري أسرته في هذه الشعائر التي لا ضير فيها ، ولم يكن يضيّق على الناس في المحافظة على المأثورات التي تعودوا أن يحتفلوا بها ويفرحوا فيها بالاجتماع وتبادل التهنئات ، وإنما كان ينكر من المأثورات ما كان فيه حجر على الضمائر أو مفاخرة بالتقوى الكاذبة والنفاق المكشوف ، وفيما عدا هذا كان يشارك أسرته في أفراحها القومية ويذهب إلى الهيكل ويأمر بشراء القربان ، بل يأمر بسداد الفرضة التي كانت تفرض على كل رأس من رؤوس بني اسرائيل .

وفي سنوات مضت زار بيت المقدس ولم يذكر قط انه تخلف عنه في احدى السنوات منذ بشر برسالته في الجليل ، وكان يذهب مع أصحابه القلائل ثم يعود إلى الجليل دون أن يحس زيارتهم سدنة الهيكل وذوو الشأن في العاصمة الدينية ، ودون أن يشتبك الفريقان في نضال .

لكن كيف يكون الذهاب إلى بيت المقدس في هذه السنة ؟ ..

انه لا يذهب إلى العاصمة هو وأصحابه كما كانوا يذهبون في السنوات الماضية ..

انهم يعدون الآن بالألوف في أنحاء الجليل ، وإذا قدرنا أن نيفاً وثمانين مسيحياً يعدون من التلاميذ فالمسيحيون الذين لا يعدون منهم قد يبلغون عشرة أضعاف هذا العدد أو يزيدون .

فكيف يذهب هؤلاء المئات مع معلمهم إلى بيت المقدس خفية يتسللون اليها ولا يعلنون ولاءهم للمعلم الذي يحج معهم إلى المدينة ؟ .. ولماذا هذا التسلل وهذا الاختفاء ؟

هنا موقف من المواقف التي نسميها موقف استلهام الغيب واستخارة الحوادث ..

أيذهب إلى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والأتباع منكراً لرسالته حذراً من اعلانها مع هذا الجمع الذي لا يسهل معه التخفي والاستتار .

وماذا يقع من أثر التخفي والاستتار في نفوس المؤمنين برسالته الروحية إن لم نقل برسالته المسيحية ؟

أيؤمن أحد منهم أن رسالة روحية أو مسيحية تعم العالم في الخفاء ، وتستتر لسبب من الأسباب ، فضلاً عن السبب الذي يسبق إلى الأذهان لأول مرحلة ، وهو الحذر والاتقاء !

وجب الذهاب إلى بيت المقدس ووجبت العلانية و لا محيد عن الواجبين ، ولتكن الآية الالهية ما تسفر عنه الحوادث بعد حين .

وأدل شيء على أن الموقف الأخير في الرسالة المسيحية كان على منهاج السيد المسيح في أمثال هذه المواقف — موقف استخارة الحوادث — انه عليه السلام سهر ليلة الوداع يصلي ويناجي ربه قائلاً : « اعبر عني هذه الكأس يا أبتاه .. كما تريد أنت لا كما أريد » ... ثم أيقظ تلاميذه النيام وقال لهم : « اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة . أما الروح فنشط وأما الجسد فضعيف ».

وقد أعد عدته لمواجهة أعدائه حيث لا بد أن يواجهوه ، وأعد العدة لاستبقاء عزيمة تلاميذه ، فطفق يهيء أذهانهم لاحتمال ما يلاقونه من بلاء ، وصرف عن أذهانهم انها غزوة فتح تنجلي عن غلبة عاجلة على دولة الكهانة الدنيوية ، فليوطنوا أنفسهم إذن على أسوأ ما يكون ، بل لا ييأسوا إذا غلبهم الضعف فتفرقوا عنه ، ولا يخامرهم الظن أنهم إذن قد خسروا المعركة وانهزموا هزيمة الضياع ، فهذا الضعف مقدور يتبعه نصر قريب .

وتروي الأناجيل انه عليه السلام دخل إلى بيت المقدس على ظهر اتان كما جاء في بعض النبوءات عن موكب المسيح الموعود ، وأنهم كانوا يحملون السعف أمامه ويفرشون ثيابهم تحت أرجل مطيته ، ويهتفون بهتاف النصر الذي يحفظه اليهود منذ الطفولة ، ويتغنون به في المواكب والمحافل لذكرى داود ، وذكرى مجده المستعاد إلى آخر الزمان .

ويفهم من وصايا السيد المسيح أنه ظل في بيت المقدس يرعى للكهان وللفقهاء مكانتهم ولا يقلقهم على ما هم حريصون عليه من حقوقها ودعاواها ، ففي احدى هذه الوصايا يقول مخاطباً الجموع والتلاميذ : « على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون » ..

ولم تسمع منه في رواية الأناجيل كلمة واحدة يغير بها ما اختطه لنفسه في حكمته المأثورة عما لقيصر وما لله ، فكل ما سُمع منه في بيت المقدس يعيد ما أسلفه من بيان الملكوت الذي يدعو اليه ، وانه من غير هذا العالم ، ولا شأن له بسلطان التيجان والعروش .

إلا أنه من اللحظة الأولى في بيت المقدس لمس مكامن الاشراك التي ترصد له في كل خطوة ، وعرف من الأسئلة التي كانت تنهال عليه أن القوم يأتمرون به لإهلاكه .. إذ كانت هذه الأسئلة جميعاً تنزع إلى هدف واحد وهو استدراجه إلى كلمة تثبت العصيان والتمرد على الدولة أو كلمة تثبت « الكفر » ونقض الشريعة ، وكانت أجوبته كلها على ما تعودوه في مواضع العنت والاحراج تستند إلى حجته وتستقيم مع غايته ورسالته وتخجل

من يحاول احراجه وتهتك ما يستره من حجب الرياء ، ولا يبعد انه قد سمع من بعض رؤساء الهيكل تفصيل المؤامرة المحبوكة ، لأن أحدهم وهو — نيقوديموس — كان يزوره ليلاً ، ولعله واحد من كثيرين .

ثم حدث ما لا بد أن يحدث في عيد كذلك العيد ، بين أناس متنمرين وأناس متجردين لدعوة جديدة يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها ، فاشتبك السيد المسيح وسماسرة الهيكل في معركة أدبية لم تلبث أن انقلبت إلى معركة يدوية ، فقلب عليه السلام موائد الصيارفة وباعة الضحايا وصاح بهم وبسماسرة الهيكل يذكرهم انهم في بيت الله ، وانهم نقلوه من معبد صلاة وطهارة إلى مغارة لصوص .

وكانت هذه هي الواقعة الفاصلة على ما يظهر ، وربما سعى اليها السيد المسيح تقريراً للموقف على وجه من الوجوه ، فامتلأت الصدور الموغرة واتخذت من درء الفتنة ذريعة إلى العمل العاجل ، وبدأ العمل على النحو الذي تفرقت فيه أقوال النقلة والرواة.

وهنا ينتهي دور التاريخ ويبدأ دور العقيدة .

فليس للتاريخ كلمة راسخة في خبر من الأخبار التي أعقبت حادثة الهيكل وحرّكت كهانه للبطش والنكاية ..

ففي حادثة الاعتقال لا يدري متتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه ، وهل كان معروفاً من زياراته للهيكل أو كان مجهولاً لا يُهتدى اليه بغير دليل ..

وفي حادثة المحاكمة يجري الخبر على انه حوكم بالليل وصدر الحكم في يوم واحد ، ويجري نظام القضاء الموسوي على تحريم المحاكمة الليلية واسقاط كل حكم يصدر في قضايا الدم بعد جلسة واحدة في يوم واحد، ولا ينفذ الحكم في هذه القضايا إلا إذا صدر بالاجماع .

وفي حادثة التنفيذ يجري الخبر على انه قد تمّ على الرغم من اعلان الحاكم

الروماني براءة المحكوم عليه ، ويقول انجيل يوحنا أن تسليمه للتنفيذ كان في نحو الساعة السادسة ، ويقول انجيل مرقس انها كانت الساعة الثالثة فصلبوه .

وقد بحث الأستاذ ريشارد هزباند Husband في كتابه « محاكمة المسيح » تواريخ عيد الفصح في خمس سنوات من سنة سبع وعشرين إلى سنة ثلاث وثلاثين ، فتبين انه كان يوم خميس سنة ثلاثين وكان يوم جمعة سنة ثلاث وثلاثين ، والأخبار تجري على أن المحاكمة والصلب حدثا يوم جمعة وان تناول عشاء الفصح كان مساء خميس ويوافق السادس من شهر ابريل . أما السنوات الأخرى غير سنتي ثلاثين وثلاث وثلاثين فقد جاء العيد فيها يوم الأربعاء سنة سبع وعشرين ويوم الاثنين سنة ثمان وعشرين ويوم الأحد سنة تسع وعشرين ويوم الثلاثاء سنة احدى وثلاثين ويوم الاثنين سنة اثنتين وثلاثين .

ومن الأخبار عن يوم التنفيذ أن الأرض زلزلت وان القبور تفتحت وخرج منها القديسون يمشون بين الناس .

وروى نقلة الأخبار أن القبر فُتح في اليوم التالي فلم توجد فيه جثة ، وان السيد المسيح ظهر للتلاميذ مرات وقال لهم لما توهموا انه طيف : « جسوني وانظروا فان الروح ليس له لحم وعظام » .. « وسألهم أعندكم هنا طعام ؟ .. فناولوه جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد عسل فأخذ وأكل » ٢٤ لوقا .

وقد تناول هذا الموضوع طائفة من أقطاب العلم واللاهوت كالقس شاين الانجيلي Cheyne والأستاذ هنريك بولس Poulus أستاذ اللغات الشرقية بجامعة جينا والدكتور ويجال المختص بالدراسات الأثرية في مصر والشرق الأدنى والدكتور هوجو تول Toll السويدي وغيرهم من علماء الدين والدراسات التاريخية فانتهوا إلى التفرقة في أخبار هذه الفترة بين وجهة التاريخ ووجهة الاعتقاد .

ومن الأخبار التاريخية خبر لا يصح اغفاله في هذا الصدد ، لأنه محل نظر كبير ، وهو خبر الضريح الذي يوجد في طريق « خان يار » بعاصمة

كشمير ويسمونه هناك ضريح النبي أو ضريح عيسى ، وروى تاريخ الأعظمي الذي دون قبل مائتي سنة ان الضريح لنبي اسمه « عوس آصاف » ويتناقل أهل كشمير عن آبائهم انه قدم إلى هذه البلاد قبل الفي سنة ، وينقل المولوي محمد علي في ترجمته للقرآن الكريم عن كتاب عربي يسمى « اكمال الدين » محفوظ من ألف سنة ان اسم « عوس آصاف » مذكور فيه وانه قال عنه انه رحالة ساح في بلاد كثيرة وان كتاب «برلام ديو شافاط» في صفحة (١١١) يذكر عن عوس آصاف انه صاحب « بشرى » وانهم يحفظون مثلاً من أمثاله في تعليمه يشبه مثل السيد المسيح عن الزارع والبذور .

ولقد أورد المولوي محمد علي هذا التعليق في تفسير الآية الكريمة : « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمعِينٍ » وأورد تعليقاً يقرب منه في تفسير قوله تعالى : « إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِليَّ » وغيرهما من الآيات القرآنية التي تناولت حياة عيسى بن مريم عليه السلام ..

* * *

وبعد فهذا الكتاب مقصور على غرض واحد وهو جلاء العبقرية المسيحية في صورة عصرية ، نفهمها الآن كما نفهم العبقريات على أقدارها وأسرارها وقد قل فيها نظير هذه العبقرية العالية في تواريخ الأزمان قاطبة ولا يزال هذا الغرض المجيد متسعاً للتوفية والتجلية من نواح عدة ، فان كتب لنا أن نوفق لزيادة شيء إلى هذه الذخيرة القدسية ، فذلك حسبنا وكفى ، ولا حاجة بنا في هذه الصفحات إلى اثارة الجدل في مسائل لا ترتبط بالمقصد الذي قصدناه وقصرنا الرسالة عليه .

ولا نستطيع كما أسلفنا أن نقرر على وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية ، ولكننا نستطيع أن نقرر على وجه التحقيق انها انتهت في موعدها حيث أسلمها التاريخ الينا ، فقد كان ذلك الجيل آخر جيل قامت فيه دولة العصبية الدينية التي تحتكر هداية الله ورحمته لسلالة

واحدة من أبناء آدم وحواء ، وأول جيل عمت فيه الدعوة إلى هداية إلهية تحيط بكل من يهتدي من بني الانسان ، فلم تنقض أربعون سنة حتى تداعت ديانة الاثرة العصبية وتداعى الهيكل الذي اعتصمت به وتجدَّدت فيه .. ثم قامت للضمير الانساني دعوة حية تبسط نورها كما ينبسط نور الشمس لكل ناظر وكل متطلع ، ولحكمة ما ألهم داعيها أن يتسمى كلما تكلم عن نفسه بابن الانسان .

في الختام:
لو عاد المسيح..



في احدى روايات الكاتب الروسي العظيم – دستيفسكي – بطل من أبطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد إلى الأرض في طوفة عابرة ونزل بأشبيلية في ابان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضي والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة ..

وانه ليمضي بين الشعب يضفي عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم إذا برئيس ديوان التفتيش – المفتش الأعظم – يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير إلى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء في انتظار التحقيق .

ويأتي المساء فيذهب المفتش الأعظم إلى الحجرة ويقول للرسول الكريم : « إنني أعرفك ولا أجهلك ، ولهذا حبستك ، لماذا جئت إلى هنا ؟ .. لماذا تعوقنا وتلقي العثرات والعقبات في سبيلنا ؟ .. »

ثم يقول له فيما يقول : « انك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة . كلفتهم حرية الضمير ، كلفتهم مؤنة التمييز ، كلفتهم أن يعرفوا الخير والشر لأنفسهم ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم .. والآن وقد عرفنا نحن داءهم وأعفيناهم من ذلك التكاليف ، وأعدناهم إلى الشرائع والشعائر ، تعود الينا لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الاختيار وحرية الضمير ؟

« ليس أثقل على الانسان من حمل الحرية ، وليس أسعد منه حين يخف عنه محملها وينقاد طائعاً لمن يسلبه الحرية ويوهمه في الوقت نفسه انه قد

أطلقها له وفوض اليه الأمر في اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الانسان من جديد أن يفتح عينيه وأن يتطلع إلى المعرفة وأن يختار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟

« انك منحتنا السلطان قديماً وليس لك أن تسترده ، وليس في عزمنا أن ننزل عنه ، فدع هذا الانسان لنا وارجع من حيث أتيت ، وإلا أسلمناك لهذا الانسان غداً وسلطناه عليك وحاسبناك بآياتك وأخذناك بمعجزاتك ، ولترين غداً هذا الشعب الذي لثم قدميك اليوم مقبلاً علينا مبتهلاً لنا أن نخلصه منك وأن ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين » .

قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التي تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار : « ان السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو ازورار ، وتقدم إلى المفتش الأعظم — وهو شيخ فان في التسعين — فلثم شفتيه وخرج إلى ظلام المدينة وغاب عن الأنظار » .

* * *

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم في خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الآخر الذي يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم .

ولا نحسب أن الخيال في هذا الخطاب العجيب بعيد عن الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الأعظم حين أنذر الرسول الكريم أن يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب ، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسّل اليه ..

كلا .. ان الخيال في ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة وأقرب شيء إلى طبائع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يتبعوا المفتش الأعظم في نقمته على الرسول الكريم .

وأقرب شيء أن يكون ، لو عاد السيد المسيح إلى الأرض ، أن ينكر

الكثير مما يُعمل اليوم باسمه ، وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين ينعى عليهم الرياء ويعلمهم من جديد أن السبت للانسان وليس الانسان للسبت ، وأن العبرة بما في الضمائر لا بما تفوه به الألسن ويبدو على الوجوه ، وان الوحي الحي في طوية الانسان لا في طوايا الكتب والأوراق .

أقرب شيء أن يكون أن ينعى على الناس ما نعاه قبل ألف وتسعمائة سنة ، وأن يجد انسان اليوم كانسان الأمس في شروره وعداوته ، وفي نفاقه وشقاقه ، وفي اعراضه عن اللباب واقباله على القشور ، وفي استعلائه بالتقوى حين يتقي ، ولجاجه في الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدي ، خمراً جديدة في زق قديم .

ذلك أقرب شيء أن يكون ..

وأقرب شيء أن يقال إذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ، أن يردد اللسان قول أبي العلاء :

تَعَبٌ غير نَافعٍ واجْتِهَاد   لا يُؤَدِّي إلى غنَاء اجْتِهَـاد

* * *

ففيم يشقى المصلحون ، وفيم يهلك الشهداء ؟ .. وفيم يأتي الأنبياء ويذهبون ؟.. وفيم اختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون ؟ .. فيم كل هذا ؟ .. فيم جاءهم رسول بعد رسول ؟ .. وفيم توالى التابعون بعدهم باحسان أو بغير احسان .

جاءوا وعادوا ..

وانصَرفُوا والبَلاء بَاقٍ   ولمْ يَزلْ داؤُنَـا العَيَاءُ

لئن قيل هذا ليكونن أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التي جاءت في صورة الخيال ..

ولكن الحقيقة الكبرى التي توزن بها جميع الحقائق هي أن الحقيقة

لا ترى من جانب واحد ، ولا سيما الحقيقة التي تخلد على الزمن في أطوار الانسان منذ كان ، وتخلد معه أنى يكون .

ليست حرية الضمير مطلباً محدود المسافة ، يرحل اليه الانسان ، ثم يصل اليه ويقعد عنه ، ويكف بعده عن كل عناء .

إنما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب ، يتقدم فيه الانسان شوطاً بعد شوط ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوماً إلا لينظر بعده إلى جهاد مستأنف ولا يودع الشر في مرحلة من مراحله إلا ليلقاه ويجاهده ، ولن يلقاه في سلام .

ومطالبنا المحسوسة تهدينا إلى القياس الصحيح في هذه المشكلة ، وهي أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التي تعتلج بالضمير وتبتعثه إلى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات ..

* * *

من ذا يقول ان عناء التعليم باطل إذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو في الخامسة ، ورآه يحمله وهو في العاشرة ، ورآه يحمله وهو في العشرين ثم في الثلاثين ، ثم رآه مدى الحياة لا يستغني عن علم ولا يقضي على الجهل كل القضاء ..

من ذا يقول ان عناء الطب باطل إذا رأى الناس يمرضون بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنانهم في الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء .

من ذا يقول ان الغاية عبث لأن الطريق اليها طويل ، أو لأنها غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟ ..

لا نقول هذا في محسوساتنا التي نلمحها ونلمسها ، فهل نقوله في غاية كحرية الضمير هي سر الأسرار في حياة الانسان منذ كان وأنى يكون ؟

ليست العبرة أن الشر واقع ، ولكن العبرة كيف ننظر اليه وكيف نواقعه أو كيف نتقيه .

وإذا وقع اثنان في الشر ، فليس الذي وقع فيه وهو مستريح اليه مستزيد منه ، كالذي وقع فيه وهو مضطر اليه نادم عليه ، وليس الذي وقع فيه وهو يعلمه كالذي وقع فيه وهو يجهله ، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والاضطرار .

إنما الإنسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير ، وإنما يقاس ضمير الإنسان بالقيم التي يقومها والمثل العليا التي يتمثلها ، والمطالب التي يطلبها وينالها أو لا ينالها ، وما دام المصلحون والرسل يعلمون الإنسان قيمة يغليها ويرفعون أمامه مثلاً أعلى يتسامى اليه .. فهم عاملون ، وعملهم لازم ، ونتيجته محققة ، وإن دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الاحصاء .

وإذا قلنا يوماً إن الإنسان في هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه ، فقد قلنا على اليقين انه أفضل من الإنسان الذي كان لا يطلبه ولا يعرفه وان عمله غير مطلوب وغير معروف ، كما يعمل الحيوان البهيم .

* * *

إنما تقاس الأديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز ، وبما تزيده من نصيب الإنسان في حرية الضمير أو في حرية التمييز بين الحسن والقبيح ، وقد عملت الأديان كثيراً ولا تزال قادرة على العمل الكثير ، ولكنها لن تغني الإنسان يوماً عن جهاد الضمير .

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى في العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء .

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء انهم جهلاء .

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم إذا اعتقدوا أن ديناً من الأديان لم

يعمل عملاً ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لأن الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغي ، باق فيها الكفران ..

أي فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لا تعاب ، وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة في « الألفية » الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟ ..

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب إلى التقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لأنهم يفكرون وينتظرون « الألفية » . وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير !

* * *

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيراً يصنعه ، ويعيد صنعه ، ولصنع كثيراً بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه، ولكن الدنيا التي يصنع فيها الهداة صنيعاً كثيراً خير من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير .

ولن يختم المسيح العائد إلى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هي شوط الضمير الذي لا ختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام .

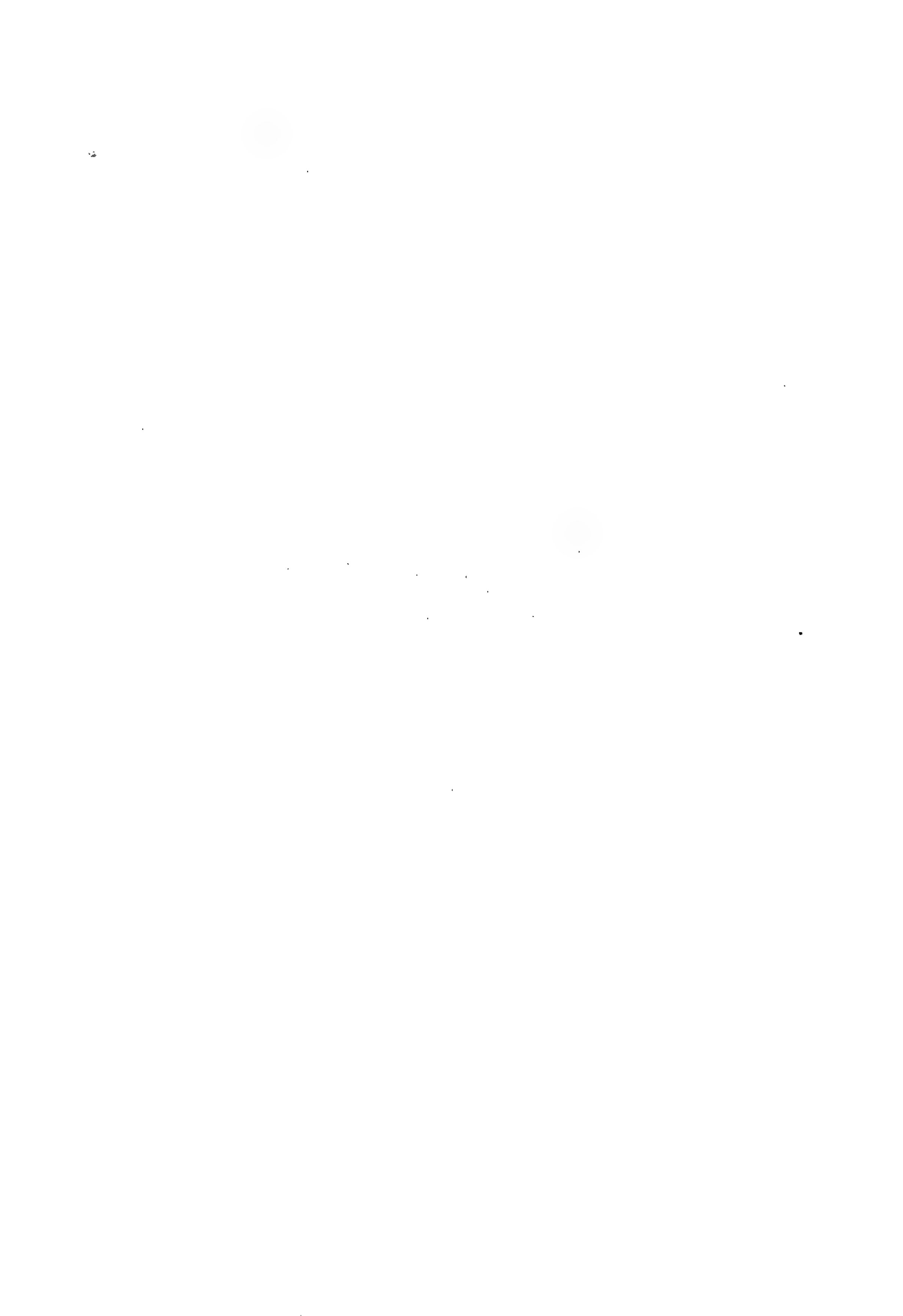
وسيعلم الناس في العصر الحديث — إن لم يكونوا قد علموا حتى اليوم — أن عقيدة الإنسان شيء لا يأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعي أو ممتناً عليه ، ولكنها هي ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه ، إن احتاج إلى الاصلاح ، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى انه عالج نفسه لمرضاته . فالعقيدة مسألة الإنسان ، لا شأن للأنبياء بها إلا لأنها مسألة الإنسان ، وعليه إذا عالج اصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءاً من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها كأنها بضاعة يردها إلى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من أمر العقيدة إلى آخر الزمان ..

عباس محمود العقاد

مطلع النور

أو

طوالع البعثة المحمدية



مقدمة المقدمات

مطلع النور عنوان هذه الصفحات .

ومدار البحث فيها على البعثة النبوية — بعثة محمد عليه السلام — وما تقدمها من أحوال العالم ، وأحوال جزيرة العرب ، وأحوال الأسرة الهاشمية ، وأحوال أبويه الشريفين .

مقدمات تمهد لنتائجها وتفضي اليها .

ومقدمات تأتي النتائج بعدها كأنها رد فعل لها ، وعلاج لأسبابها وعواقبها ..

مقدمات من قبيل الداء يأتي بعده الموت ، فهو نتيجته وعقباه على الشرعة المعهودة في طبائع الأشياء .

ومقدمات من قبيل الداء يأتي بعده الدواء ، فليس هو بنتيجة له الا على معنى واحد ، وهو لحاق الدواء بالداء ، وظهور الشفاء بعد الحاجة اليه ..

مقدمات تتحقق بها قوانين الطبيعة ومقدمات تتحقق بها عناية الله .

ولا سيما حين تأتي الحاجة إلى الشفاء من غير المريض ، بل تأتي على الرغم منه وعلى خلاف ما يرجوه ويبتغيه .

كيف نشأ التوحيد بعد التباس الوحدانية بالشرك واختلاط الأديان بين الآلهة والأوثان ؟

كيف نشأت ديانة الانسانية بعد ديانات العصبية والاثرة القومية ؟

كيف نشأت نبوة الهداية بعد نبوة الوقاية والقيادة ؟

كيف أصبحت المعجزة تابعة للايمان بعد أن كان الايمان تابعاً للمعجزة ؟..

كيف ظهر الاسلام بعد عبادات لا تمهد له ولا يبقي عليها ؟

مقدمات لم تكن واحدة منها ممهدة لنتائجها ، وان مهدت لها خطوة في الطريق فقد تنكص بها بعد ذلك خطوات وخطوات .

وهذه هي المقدمات التي لا تأتي بعدها النتائج الصالحة الا بعناية من الله واتجاه بقوانين الكون وعوامله إلى حيث يشاء .

فليست الجاهلية مقدمة للاسلام .

وليس الفساد في العالم سبباً للصلاح .

وليست قريش ولا جزيرة العرب ولا دولة القياصرة ولا أبهة الأكاسرة هي التي بعثت محمداً لينكر العصبية على قريش، ويعلم العرب تسفيه التراث الموروث من الآباء والأجداد ، ويثل العروش التي قام عليها الطغاة وتأله عليها الجبابرة من دون الله .

هؤلاء جميعاً كانوا ضحية البعثة المحمدية .

وهؤلاء جميعاً كانوا مريضها الذي شفي على يديها بغير شعور منه بالمرض وبغير سعي منه إلى الشفاء .

وتلك هي المقدمات ونتائجها كما تتجه بها عناية الله .

رسول يوحى اليه فيصنع الأعاجيب .

ذلك ما يقوله المؤمنون بعناية الله .

فاذا استطاع المنكرون أن يقولوا غير ذلك فليقولوه وليفسروه ، فلا تفسير له عندهم الا أن الفساد يصلح الفساد ، وان الداء يشفي الداء ، وان الأسباب تمضي في طريقها فتختلف بها الطريق وتذهب إلى حيث لا يُفضي الذهاب ..

جاء محمد بدين الانسانية في أمة العصبية .

جاء ينكر كل اله غير الواحد الأحد في عالم يؤمن بكل اله غير الواحد الأحد ، أو يؤمن به كأنه صنم من الأصنام يتعدد في كل بيعة وكل مقام .

أمحمد وحده يقدر على ذلك ؟

أمحمد يقدر عليه بعناية من الله ؟

أدنى القولين إلى عقل العاقل أدناهما إلى الايمان ، وأنآهما عن الصواب أنآهما عن الله .

ولولا تدبير من الله لما ادّخرت جزيرة العرب لهذه الرسالة ، لتخرج بالتاريخ الانساني كله إلى عالم جديد .

* * *

وسنرى فيما يلي من هذه الصفحات كيف تتناقض النتائج والمقدمات فلا تستقيم الا بمقدمة واحدة ، وهي رسالة النبوة وعناية الله .

وسنبدأ بالمقدمات من طوالع الغيب في تأويل المتأولين إلى وقائع الحس والعيان في أحوال العالم ، وأحوال الجزيرة ، وأحوال الأسرة ، وأحوال البيت الذي طلع منه نور النبوة ، وبزغ منه فجر التاريخ الجديد في كل ما حوله ، وتحققت به عناية الله .

ونرجو في نهاية المطاف أن نبلغ بها نتيجة النتائج كما تتفق عليها نظرة الفكر وبديهة الايمان .

وعلى بركة الله ..

الطوالع والنبوات

على بركة الله نمضي في سرد المقدمات التي سبقت البعثة المحمديـــة بنوعيها :

مقدمات ترتبط بما تلاها من الحوادث ارتباط الأسباب بالمسببات .

ومقدمات لا ترتبط بما تلاها هذا الارتباط ، بل لعلها تناقضها وتؤدي إلى خلافها ، وانما ترتبط بها ارتباط الداء بدوائه والعلة بما يزيلها ، فليست النتائج هنا وليدة المقدمات، بل هي العلاج الذي يزيلهـــا والآية الالهية التي تحول الأسباب الطبيعية إلى طريق الحكمة الأبدية التي تنكشف أوائلها من خواتيمها ، خلافاً للعرف الشائع من دلالة الأوائل على الخواتيم ..

ورائدنا في متابعة هذه المقدمات بنوعيها أن ننظر في الآيات الكونية والمعاني التاريخية ، لأنها ولا شك عنوان ارادة الله المتصرف في الكون كله ، ولأنها — على هذا — مفتوحة الصفحات لكل ناظر ومتأمل يعمل بفريضة الاسلام الكبرى وهي التفكير في ملك الله والنظر بالعقل في حقائق السماوات والأرضين .

رائدنا في البحث عن مقدمات الدعوة النبوية ان ارادة الله ظاهرة في ملكه وآيات خلقه ، وان الناس مطالبون بالنظر في هذه الارادة قبل النظر في المعجزات والخوارق التي لا تأتي في كل حين ولا تخص المؤمنين دون سائر المصدقين بالحس والعيان .

وسؤالنا عن كل معجزة لا يدور على امكانها أو استحالتها ، فليست

المعجزات بالقياس الى قدرة الله خالق الكون الا كالمألوفات التي تجري بها العادات في كل يوم ، فاذا كانت الموجودات مخلوقة بخصائصها فالذي خلقها وخلق خصائصها يملك تغييرها وتبديلها ويأتي بالمعجزات كما يأتي بالمنظور المطرد من النواميس والعادات ، وعقيدتنا في ذلك عقيدة الامام الغزالي رضي الله عنه حيث قال غير مرة ان الحوادث تجري عند حصول الأسباب ولا تجري بحصول تلك الأسباب ، فليست خصائص المادة من فعلها ولا ارادتها ولكن المادة وخصائصها جميعاً من فعل الحكمة الالهية التي تسخر كل شيء بمقدار .

فنحن لا نسأل : هل المعجزة ممكنة أو غير ممكنة ، فان العقل الذي يقول ان المادة لا توجد الا هكذا أضيق من العقول التي تصدق كل شيء بغير بحث ولا برهان .

ولكننا نسأل : هل المعجزة لازمة أو غير لازمة ؟ .. وهل كان لها أثر مشهود في الاقناع بالدعوة كما ينبغي لكل معجزة ، أو كانت في تاريخ الدعوة عملاً بغير أثر ولغير ضرورة ؟

ذلك أن الله جل وعلا يضع قوانين الطبيعة لحكمة ويخرقها لحكمة ، وتعالى الله عن العبث في غير معنى . فلا يكون خرق القوانين وخلق المعجزات لغير قصد يعلمه شهود المعجزة التي تخالف مألوفهم ومجرى العادات أمامهم كل يوم .

وقد أشرنا إلى ذلك في كتابنا عن عبقرية محمد حين قلنا ان « علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج اليها الأمة ، وهي أسباب تتمهد لظهورها ، وهي رجل يضطلع بأمانتها في أوانها ، فاذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها .. ؟ واذا تعذر عليها أن تتجمع فأي علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟ .. وقد خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولاً مبشراً بدين ، والا فلأي شيء خلق ؟ .. ولأي عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ، وكل هاتيك المناقب والصفات ؟ ..

لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن لكان تاجراً أميناً ناجحاً موثوقاً به في سوق التجار والشراة ، ولكن التجارة تشغل بعض صفاته ، ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة اليها في هذا العمل مهما يتسع له المجال ، ولو اشتغل زعيماً بين قومه لصلح للزعامة ولكن الزعامة لا تستوفي كل ما فيه من قدرة واستعداد .. فالذي أعده له زمانه ، وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية دون سواها ، وما من أحد قد أعد في هذه الدنيا لرسالة دينية ان لم يكن محمد قد أعد لها أكمل اعداد » .

وقلنا عن بشائر الرسالة المحمدية ان المؤرخين « يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية : يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكدوه وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه ، وما أيدته الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته ، ويتفرقون في الرأي والهوى بين تفسير الايمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة ، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الاسلام ؟ ..

« لا موضع هنا لاختلاف

« فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في اقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة ، أو كان ثبوت الاسلام متوقفاً عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها ولا عرفوا انها علامة على شيء أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا اليه . وقد ولد مع النبي عليه السلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها . فاذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين الا بعد عشرات السنين ، يوم تأتي الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وانكار المنكرين . أما العلامة التي لا التباس فيها ولا سبيل إلى انكارها فهي علامة الكون أو علامة

التاريخ . قالت حوادث الكون : لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة ، وقالت حقائق التاريخ : لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة ، ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ » .

* * *

على هذا المحك البسيط نعرض أخبار الخوارق والمألوفات في تاريخ الدعوات النبوية ، وينبغي أن نقرر في هذا المقام – لأنه مقامه الذي يذكر فيه – ان المؤرخ المسلم الذي يكتفي بالآيات الكونية انما يختار هذا الطريق لأنه طريق واضح المعالم أمامه وأمام الناظرين الذين يعملون بهداية الاسلام في تدبر الآيات والبحث عن حقائق الموجودات ، ولكنه لو شاء لوجد لديه ذخيرة من الطوالع والنبوءات التي يعتمد اتباع الأديان المختلفة على أمثالها ، وقد يعز عليهم أن يجدوا أمثالها في المصادر التي يؤمنون بها ولا يشكون ، فلا يعتمد المؤرخ المسلم على الآيات الكونية لقلة الطوالع والنبوءات التي يثوب اليها – لو شاء – كما يثوب غيره ، وانما يعتمدها توثيقاً للبينة وايثاراً لأفضل الحسنيين في مقام المقابلة بين المتشابهات .

ومن الحسن أن نأتي على أمثلة من الطوالع والنبوءات التي وجد فيها بعض المؤرخين المسلمين شواهد على ظهور النبي عليه السلام مكتوبة قبل أوان ظهوره بعشرات القرون . ونلاحظ ان هؤلاء المؤرخين ، أو أكثرهم ، من فضلاء الهند وفارس والأمم الشرقية التي تتكلم غير العربية ، وسر ذلك انهم ورثوا في بلادهم طوالع الديانات السابقة ولم يشاءوا أن تكون هذه الطوالع مزايا خاصة تنفرد بها تلك الديانات ويعجزون هم عن الاتيان بنظائرها التي تقابلها في كفة الديانة الاسلامية ، فهم يتوخون إلزام الحجة بالدليل المماثل ولا يعييهم فعلا أن يجدوا ذلك الدليل مساوياً أو راجحاً في الدلالة على أدلة المتقدمين من أبناء الملل الغابرين ..

ونحن نورد هنا بعض الأمثلة التي يستدعيها المقام ولا يجوز اهمالها في تمهيد يحيط بجميع الشواهد والمقدمات ولو على سبيل الاجمال .

من هذه الكتب كتاب باللغة الانجليزية ألفه « مولانا عبد الحق فديارتي » وسماه « محمد في الأسفار الدينية العالمية » واستفاد في مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوربية ، ولم يقنع فيه بكتب التوراة والانجيل بل عمم البحث في كتب فارس والهند وبابل القديمة ، وكانت له في بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها في شواهد المتدينين كافة ، ولا نذكر اننا اطلعنا على شاهد أقوى منها في روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية .

يقول الأستاذ عبد الحق ان اسم الرسول العربي « أحمد » مكتوب بلفظة العربي في السامافيدا Sama Vida من كتب البراهمة ، وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ونصها ان « أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس » ..

ولا يخفي المؤرخ وجوه الاعتراض التي قد تأتي من جانب المفسرين البرهميين ، بل ينقل عن أحدهم « سينا اشاريا » Syna Acharya انه وقف عند كلمة « أحمد » فالتمس لها معنى هندياً وركب منها ثلاثة مقاطع وهي « أهم » و « آت » و « هي » .. وحاول أن يجعلها تفيد « انني وحدي تلقيت الحكمة من أبي ». قال الأستاذ عبد الحق ما فحواه· إن العبارة منسوبة إلى البرهمي « فاتزا كانفا » Kanva من أسرة كانفا ، ولا يصدق عليه القول بأنه هو وحده تلقى الحكمة من أبيه .

ويزيد الأستاذ عبد الحق على ذلك أن وصف الكعبة المعظمة ثابت في كتاب الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يسميها الكتاب بيت الملائكة ويذكر من أوصافه انه ذو جوانب ثمانية وذو أبواب تسعة .

والمؤلف يفسر الأبواب التسعة بالأبواب المؤدية إلى الكعبة وهي باب ابراهيم وباب الوداع وباب الصفا وباب علي وباب عباس وباب النبي وباب السلام وباب الزيارة وباب حرم ، ويسرد أسماء الجوانب الثمانية حيث ملتقى الجبال ، وهي في قوله : جبل خليج وجبل قُعَيقان وجبل هندي وجبل لعلع وجبل كدا وجبل أبي حديد وجبل أبي قُبيس وجبل عمر .

ويضرب المؤلف صفحاً عن تفسير البرهميين لمعنى البيت هنا بانه جسم الانسان ومنافذه ، ولا يذكره لأنه – على ما يظهر – يخالف وصف القداسة الروحية في البرهمية ، ولا يأتي بتفسير للجوانب الثمانية عند تفسيره للأبواب بذلك المعنى .

وفي مواضع كثيرة من الكتب البرهمية يرى المؤلف ان النبي محمدا مذكور بوصفه الذي يعني الحمد الكثير والسمعة البعيدة ، ومن أسمائه الوصفية اسم سشرافا Sushrava الذي ورد في كتاب الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يشار إلى حرب أهل مكة وهزيمة « العشرين والستين ألفاً مع تسعة وتسعين » وهم على تقدير المؤلف عدة أهل مكة وزعماء القبائل الكبار ووكلائهم الصغار كما كانوا يوم قاتلوا النبي صلوات الله عليه .

وللمؤلف صبر طويل على توفيق هذه العلامات وأشباهها يستخرج منها الطالع بعد الطالع والنبوءة إلى جانب النبوءة مما يغني المثل عليه عن استقصاء جميع موافقاته وعلاماته .

وكذلك صنع بكتب زرادشت التي اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب زند افستا Zend Avesta نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين « سوشيانت » Soeshyant ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبا لهب Angra Mainyu ويدعو إلى اله واحد لم يكن له كفؤا أحد (هيج جيز باونمار) وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة .

« جز آخاز وانجام وانباز ودشمن ومانند ويار وبدر ومادر وزن وفرزند وحاي سوي تن آسا وتناني ورنك وبوي است » .

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الاسلام : أحد صمد ، ليس كمثله شيء ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤا أحد ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا .

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزردشتية ، تنبيء عن دعوة الحق التي يجيء بها النبي الموعود وفيها اشارة إلى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها إلى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف « ان أمة زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون وينهض رجل في بلاد العرب يهز أتباعهُ فارس ، ويُخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة ابراهيم التي تطهرت من الأصنام ، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ ، وهي الأماكن المقدسة للزردشتيين ومن جاورهم ، وان نبيهم ليكونن فصيحاً يتحدث بالمعجزات » [1] .

وقد أشار المؤلف بعد الديانات الاسيوية الكبرى إلى فقرات من كتب العهد القديم والعهد الجديد فقال : ان النبي عليه السلام هو المقصود بما جاء في الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس ومن يمينه نار شريعة لهم » .

وجاء بالنص العبري كما يلي :

« ويومر يهووه مسينائي به وزارح مسعير لامو هو فيع مهر باران واتا مر ببوث قودش ميميفو ايش داث لامو » .

فترجمه هكذا : « وقال ان الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطع من جبل فاران وجاء مع عشرة آلاف قديس ، وخرج من يمينه نار شريعة لهم » .

وقال ان الشواهد القديمة جميعاً تنبيء عن وجود فاران في مكة ، وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتي يوسبيوس Eusebius « ان فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من ايلة » .

---

(١) صفحة ٤٧ من كتاب : Mohammed in World Scriptures.

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التي صدرت في سنة ١٨٥١ ، ان اسماعيل « سكن برية فاران بالحجاز ، وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر » ، ثم قال ان سفر العدد من العهد القديم يفرق بين سيناء وفاران اذ جاء فيه ان بني اسرائيل ارتحلوا « من برية سيناء ، فحلت السحابة في برية فاران » .. ولم يسكن أبناء اسماعيل قط في غرب سيناء فيقال ان جبل فاران واقع إلى غربها . وفي الاصحاح الثالث من كتاب حبقوق ان « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران » فهو اذن إلى الجنوب حيث تقع تيمان بموضعها الذي تقع فيه اليمن مرادفتها بالعربية . ولم يحدث قط أن نبياً سار بقيادته عشرة آلاف قديس غير النبي محمد عليه السلام ، وقوديش تترجم بقديس في رأي المؤلف الذي يناقش ترجمتها بالملائكة في الترجمات الأخيرة . كذلك لم يحدث قط أن نبياً غيره جاء بشريعة بعد موسى الكليم ، فقول موسى الكليم « ان نبياً مثلي سيقيم لكم الرب الهكم من اخوتكم أبناء ابراهيم » يصدق على النبي العربي صاحب الشريعة ولا يصدق على نبي من أبناء ابراهيم تقدمه في الزمن ، ويرجح المؤلف ان المدينة التي تعلم فيها موسى عليه السلام في صحبة يثرون — أي شعيب — لم تكن هي مديان الأولى التي تخربت بالزلزال كما جاء في القرآن الكريم ، ولكنها كانت « مدينة » الحجاز التي سميت يثرب على اسم يثرون ، ومما يعزز ذلك ان بطليموس الجغرافي يقول بوجود موضعين باسم مديان وان كان قد أخطأ على رأي المؤلف في تعيين الموضعين . وقد جاء في سفر التكوين ان مديان بن ابراهيم الذي سميت مديان الأولى باسمه كان له أخ اسمه عفار ، وهو الذي يقول نوبل Knoble شارح التوراة ان ذريته كانت تنزل في عهد البعثة الاسلامية إلى جوار يثرب ، ولعل موسى تلقى اسمه في ذلك الجوار . اذ كانت تسميته العربية أرجح من تسميته المصرية أو العبرية ، فان ابنة فرعون لا تسميه بالعبرية ولا يسميه بها من يريد خلاصه من مصير المولودين العبريين ، وصحيح ان كلمة ميسو Mesu بالمصرية معناها الطفل كما يقول بعض الشراح المحدثين ، ولكن اليهود لا يرتضون لنبيهم ومخرجهم من أرض مصر اسماً مستعاراً من المصريين .

* * *

ومن الجماعات التي عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمدية الهندية التي ترجمت القرآن الكريم إلى اللغة الانجليزية ، فانها أفردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه السلام بحثاً مسهباً في مقدمة الترجمة ، شرحت فيه بعض ما تقدم شرحاً مستفيضاً ، وزادت عليه ان نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء : وهي التجلي من سيناء وقد حصل في زمانه والتجلي من سعير أو جبل أشعر وقد تجلى في زمن السيد المسيح ، لأن هذا الجبل — على قول الجماعة الأحمدية — واقع حيث يقيم أبناء يعقوب الذين اشتهروا بعد ذلك بأبناء أشعر ، أما التجلي الثالث فمن أرض فاران وهي أرض التلال التي بـين المدينة ومكة ، وقد جاء في كتاب فصل الخطاب ان الأطفال يحيون الحجاج في تلك الأرض بالرياحين من « برية فاران » .. وقد أصبح أبناء اسماعيل أمة كبيرة كما جاء في وعد ابراهيم فلا يسعهم شريط من الأرض على تخوم كنعان، ولا وجه لإنكار مقامهم حيث أقام العرب المنتسبون إلى اسماعيل ولا باعث لهم على انتحال هذا النسب والرجوع به إلى جارية مطرودة من بيت سيدها . وقد جاء في التوراة أسماء ذرية اسماعيل الذين عاشوا في بلاد العرب ، وأولهم نبايوت أو نبات أبو قبائل قريش ، الذي يقرر الشارح كاتربكاري Katripikari انه أقام بذريته بين فلسطين وينبع ميناء يثرب ، ويقرر بطليموس وبليني ان أبناء قدور — وهو قيدار الابن الثاني لاسماعيل — قد سكنوا الحجاز ، ويضيف المؤرخ اليهودي يوسفيوس اليهم أبناء ادبيل الابن الثالث في ترتيب العهد القديم ، ولا حاجة إلى البحث الطويل عن مقام أبناء دومة وتيماء وقدامة وأكثر اخوتهم الباقين فان الأماكن التي تنسب اليهم لا تزال معروفة بأسمائها إلى الآن ، ومن نبوءة اشعيا التي سبقت مولد السيد المسيح بسبعمائة سنة يظهر جلياً أن ابناء اسماعيل كانوا يقيمون بالحجاز ، ففي هذه النبوءة يقول النبي اشعيا من الاصحاح الحادي والعشرين : « وحي من جهة بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين . هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء .. وافوا الهارب بخبزه فانهم من أمام السيوف قد هربوا . من أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب . فانه هكذا قال لي السيد: في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار » .

ويعود المترجمون من الجماعة الأحمدية فيفسرون هزيمة قيدار بهزيمة المكيين في وقعة بدر ، وهي الهزيمة التي حلت بهم بعد هجرة النبي إلى المدينة بنحو سنة كسنة الأجير .

* * *

ويقرنون هذه النبوءة بنبوءة أخرى من الاصحاح الخامس في سفر شعيا يقول فيها : « ويرفع راية للأمم من بعيد ويصفر لهم من أقصى الأرض فاذا هم بالعجلة يأتون .. ليس فيهم رازح ولا عاثر ، لا ينعسون ولا ينامون ولا تنحل حزم احقائهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم . سهامهم مسنونة وجميع قسيهم ممدودة . حوافر خيلهم كأنها الصوان وبكراتهم كالزوبعة .. »

وهذه نبوءة عن رسول يأتي من غير أرض فلسطين لم تصدق على أحد غير رسول الاسلام .

وتلحق بهذه النبوءة نبوءة أخرى من الاصحاح الثامن في سفر اشعيا جاء فيها ان الرب أنذره أن لا يسلك في طريق هذا الشعب قائلاً : « لا تقولوا فتنة لكل ما يقول له هذا الشعب فتنة ولا تخافوا خوفه ولا ترهبوا . قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم ، ويكون مقدساً وحجر صدمة وصخرة عثرة لبيتي اسرائيل وفخاً وشركاً لسكان اورشليم فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون ويعلقون فيلقطون .. صُرّ الشهادة . اختم الشريعة بتلاميذي . فاصطبر للرب الساتر وجهه عن بيت يعقوب وانتظره » .

فهذه النبوءة عن الرسول الذي يختم الشريعة تصدق على نبي الاسلام ولا تصدق على رسول جاء قبله ولا بعده ..

وتلحق بهذه النبوءة أيضاً نبوءة من الاصحاح التاسع عشر في سفر اشعيا يذكر فيها ايمان مصر بالرسول المنتظر « وفي ذلك اليوم يكون مذبح للرب في وسط أرض مصر وعمود للرب عند تخمها ، فيكون علامة وشهادة لرب الجنود في أرض مصر لأنهم يصرخون إلى الرب بسبب المضايقين ،

فيرسل لهم مخلصاً ومحامياً وينقذهم ، فيعرّف الرب في مصر ، ويعرف المصريون الرب في ذلك اليوم ويقدمون ذبيحة وتقدمة وينذرون للرب نذراً ويوفون به ، ويضرب الرب مصر ضارباً فشافياً ، فيرجعون إلى الرب فيستجيب لهم ويشفيهم . في ذلك اليوم تكون سكة من مصر إلى اشور فيجيء الاشوريون إلى مصر والمصريون إلى اشور ويعبد المصريون مع الأشوريين . في ذلك اليوم يكون اسرائيل ثُلثاً لمصر ولأشور بركة في الأرض . بها يبارك رب الجنود قائلاً : مبارك شعبي مصر وعمل يدي اشور وميراثي اسرائيل » .

فالذي حدث من قدوم أهل العراق إلى مصر وذهاب أهل مصر إلى العراق انما حدث في ظل الدعوة الاسلامية ، ولم تتوحد العبادة بينهم قبـــل تلك الدعوة ، وان النبوءة ستتم غداً على غير ما يهواه بنو اسرائيل ، اذ تكون البركة لمصر وأشور ولا تكون اسرائيل الا لاحقة بكلتا الأمتين .

* * *

ثم ينتقلون بالنبوءات إلى سفر دانيال حيث جاء في الاصحاح الثاني : « انت ايها الملك كنت تنظر واذا بتمثال عظيم . هذا التمثال العظيم البهي جداً وقف قبالتك ومنظره هائل . رأس هذا التمثال من ذهب جيد ، وصدره وذراعاه من فضة ، وبطنه وفخذاه من نحاس ، وساقاه من حديد ، وقدماه بعضها من حديد والبعض من خزف . كنت تنظر الى أن قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً ، وصارت كعصافة البيدر في الصيف ، فحملتها الريح ، فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض كلها » ..

* * *

ويلي ذلك تفسير النبي دانيال لهذا الحلم اذ يقول : « انت أيها الملك ملك ملوك لأن اله السماوات أعطاك مملكة واقتداراً وسلطاناً وفخراً ، وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلطك عليها

جميعها ، فأنت هذا الرأس من ذهب ، وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد لأن الحديد يدق ويسحق كل شيء ، وكالحديد الذي يكسر تسحق وتكسر كل هؤلاء وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة وتكون فيها قوة كالحديد من حيث انك رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين وأصابع القدمين بعضها من حديد وبعضها من خزف فبعض المملكة يكون قوياً والبعض قصما ، وبما رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين فانهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما ان الحديد لا يختلط بالخزف ، وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم اله السموات مملكة لن تنقرض أبداً وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد لأنك رأيت انه قد قطع حجر من جبل لا بيدين ، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب .. الله العظيم قد عرف الملك ما سيأتي بعد هذا . الحلم حق وتعبيره يقين » ..

وتعود الجماعة الأحمدية إلى التاريخ لتستمد منه التعليق على تعبير النبي دانيال لتلك الرؤيا ، فمن كلام النبي دانيال يفهم ان الرأس الذهبي هو ملك بابل ، وان الصدر والذراعين من الفضة تعبر عن مملكة فارس وميدية التي ارتفعت بعد دولة بابل ، وان الرجلين من النحاس تعبران عن الدولة الاغريقية في ظل الاسكندر ، لقيامها بعد زوال حكم الفارسيين والميديين ، وان القدمين من الحديد تعبران عن الدولة الرومانية التي ارتفعت بعد ذهاب ملك الاسكندر ، وتقول الرؤيا عن هذه الدولة الأخيرة ان قدماً من قدميها خزف والأخرى حديد ، وهو وصف يشير إلى جزء من الدولة في القارة الأوروبية وجزء منها في القارة الاسيوية ، فالقدم الحديد هي سيطرة الأمة الواحدة والعقيدة الواحدة وهذه السيطرة تستولي على أقطار شاسعة وموارد غزيرة ولكنها تنطوي على الضعف الكامن من جراء التفكك بين أوصال الشعوب ، والرؤيا صريحة في وشك انحلال الدولة الرومانية في السنوات الأخيرة لهذا السبب ، وتستطرد من ثم إلى أمور اهم وأخطر اذ تقول : « انك كنت تنظر إلى ان قطع حجر

بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد فسحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً وصارت كعصافة البيدر في الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض كلها .. »

* * *

تقول الجماعة : « فهذه نبوءة بظهور الاسلام . فقد اصطدم الاسلام في صدر الدعوة بدولة الرومان ثم بدولة فارس ، وكانت دولة الرومان يومئذ قد بسطت سلطانها على ملك الاغريق الاسكندري فبلغت من المنعة غايتها ، وكانت دولة فارس قد بسطت سلطانها على بابل ، ثم ضربتهما قوة الاسلام فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة معاً وصارت كعصافة البيدر في الصيف ، وهكذا ينبيء ترتيب الحوادث وتعبيرها في رؤيا دانيال انباء لا ريب في معناه .. اذ كلنا نعلم ان بابل خلفتها فارس وميدية وان سطوة فارس وميدية كسرتها سطوة الاسكندر ، وان ملك الاسكندر خلفته الدولة الرومانية التي أقامت من عاصمتها القسطنطينية أركان مملكة أوروبية أسيوية، ثم انهزمت هذه المملكة وأدال منها الفتح الاسلامي وغزوات النبي والصحابة » .

وهذا الحجر الذي جاء في رؤيا دانيال يذكره اشعيا والحواري متى ، ففي الاصحاح الثامن من سفر اشعيا انه « يكون مقدساً وحجر صدمة وصخرة عثرة لكل من بيتي اسرائيل ، وفخاً وشركاً لسكان اورشليم ، ويعثر بهما كثيرون ويسقطون ويعلقون فيلقطون » .

وفي الاصحاح الحادي والعشرين من انجيل متي يقول : « لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه » .

كذلك يذكره المزمور الثامن عشر بعد المائة اذ يقول : « ان الحجر الذي رفضه البناءون قد أصبح عقد البناء وركن الزاوية » .

* * *

ويتبين من كلام السيد المسيح في الاصحاح الحادي والعشرين من انجيل متى المتقدم ذكره ان هذه النبوءة تنبيء عن زمن غير زمن السيد المسيح ، اذ يقول عليه السلام : « اما قرأتم قط في الكتب ان الحجر الذي يرفضه البناءون قد صار رأس الزاوية . فمن قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا » .

ثم تفضي النبوءة – نبوءة النبي دانيال – إلى عقباها ، فيصبح الحجر جبلاً عظيماً ويملأ الأرض كلها . فان هذا هو الذي حدث بعد انتشار الدعوة المحمدية . فان الرسول الكريم وصحابته هزموا قيصر وكسرى وأصبح المسلمون سادة للعالم المعمور كله في ذلك العصر ، وصار الحجر جبلاً عظيماً فظل زمام العالم في أيدي أتباع محمد ألف سنة .

ثم تتم نبوءات العهد القديم بنبوءات العهد الجديد ، ويستشهد جماعة الأحمدية بالاصحاح الحادي والعشرين من انجيل متى حيث يقول السيد المسيح : « اسمعوا مثلاً آخر . كان انسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجاً وسلمه إلى كرامين وسافر ولما قرب وقت الاثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره . فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضا ورجموا بعضاً ، ثم أرسل اليهم ابنه أخيراً قائلاً انهم يهابون ابني . فأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه ، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه ، فمتى جاء صاحب الكرم فماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ .. قالوا له انه يهلك اولئك الأردياء هلاكاً رديئاً ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها .. قال لهم يسوع : أما قرأتم قط في الكتب ان الحجر الذي رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية ؟. من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا . لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لامة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه . ولما سمع الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا انه تكلم عليهم . واذ كانوا يريدون أن يمسكوه خافوا من الجموع لانه كان عندهم مثل نبي » .

* * *

هذا المثل يبحثه كتاب المقدمة لترجمة القرآن فيقولون ان السيد المسيح قد لخص به تاريخ الانبياء والرسل أجمعين . فالكرم هو الدنيا والكرامون العاملون فيه هم الجنس البشري الكادح في دنياه ، والثمرات التي يريد صاحب الكرم ان يحصلها هي ثمرات الفضيلة والخير والتقوى ، والخدم الموفدون من صاحب الكرم إلى الكرامين هم الرسل والانبياء ، ولما جاءهم السيد المسيح بعد اعراضهم عن الرسل والأنبياء فغدروا به وأنكروه عوقبوا بتسليم الكرم إلى كرامين آخرين ونزع ملكوت الله منهم لتعطاه الامة الاخرى الموعودة بالبركة مع أمة اسحاق ، وهي أمة اسماعيل ونبيها العظيم محمد عليه السلام ، وهو الذي يصدق عليه وعلى قومه انهم كانوا الحجر المرفوض فأصبح هذا الحجر زاوية البناء من سقط عليه رضه ومن أصيب به فهو كذلك مرضوض .

وتتلو هذه النبوءة في انجيل متى نبوءة متممة من الانجيل نفسه حيث جاء في الاصحاح الثالث والعشرين منه خطاباً لبني اسرائيل « هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً ، لاني أقول لكم انكم لا ترونني من الان حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب » .

وفي الأصحاح الاول من انجيل يوحنا نبأ يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان مع الكهنة واللاويين « اذ سألوه : من أنت ؟ فاعترف ولم ينكر . وقال اني لست أنا المسيح . فسألوه : اذن ماذا ؟ .. أأنت ايليا ؟ .. فقال لا .. قالوا : أأنت النبي ؟.. فأجاب : لا .. فقالوا له : من أنت لنعطي جواباً للذين أرسلونا ؟.. ماذا تقول عن نفسك ؟ .. قال : أنا صوت صارخ في البرية ، قوّموا طريق الرب كما قال اشعيا النبي » .

ويعقب أصحاب المقدمة للترجمة القرآنية على هذه النبوءات فيقولون انها كانت ثلاثاً في عصر الميلاد المسيحي كما هو واضح من الاسئلة والاجوبة : نبوءة عن عودة ايليا ، ونبوءة عن مولد السيد المسيح ، ونبوءة عن نبي موعود غير ايليا والسيد المسيح .

ولقد أعلن السيد المسيح كما جاء في الاصحاح الحادي عشر من انجيل متي : « ان جميع الانبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا ، وان أردتم أن تقبلوا فهذا — أي يحيى المغتسل — هو ايليا المزمع أن يأتي » .

* * *

وواضح من الاصحاح الاول من انجيل لوقا ان الملك بشر زكريا بأن امرأته ستلد له ولداً وتسميه يوحنا .. « وانه يكون عظيماً أمام الرب لا يشرب خمراً ولا مسكراً ، ويمتلىء من بطن أمه بالروح القدس ، ويرد كثيرين من بني اسرائيل إلى الرب الههم ، ويتقدم أمامه بروح ايليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الابناء » .

وفي الاصحاح التاسع من انجيل مرقس يقول السيد المسيح : « ان ايليا أيضاً قد أتى وعملوا به كل ما أرادوا كما هو مكتوب عنه » .

ويتكرر ذلك في انجيل متي اذ يقول : « ان ايليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا » .

فالنبي ايليا قد تقدم اذن في عصر الميلاد ، وقد جاء فيه المسيح أيضاً ثم بقي ذلك النبي الموعود . ولم يظهر بعد السيد المسيح نبي صدقت عليه الصفات الموعودة غير محمد عليه السلام ، وكلام السيد المسيح في الاصحاح السادس عشر من انجيل يوحنا يبين للتلاميذ « انه خير لكم أن أنطلق لانه ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزي ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطيئة وعلى بر وعلى دينونة ، فأما على خطيئة فلأنهم لا يؤمنون بي ، وأما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً ، واما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين ، وان لدي أموراً كثيرة أقولها لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوها الآن ، واما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى الحق جميعه ، لانه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ، وذاك يمجدني لانه يأخذ مما لي ويخبركم ، وكل ما للاب فهو لي . لهذا قلت انه يأخذ مما لي ويخبركم وبعد قليل لا تبصرونني .. »

وقد جاء نبي الاسلام ممجداً للسيد المسيح يسميه روح الله ويجدد رسالته لانها رسالة الله .

وبعد تأويلات شتى من قبيل ما تقدم تختتم الجماعة الاحمدية بحثها بالاشارة إلى ما جاء في الاصحاح الثالث من أعمال الرسل الذي ينبيء عن تتابع النبوءات من صمويل إلى السيد المسيح بظهور نبي كموسى الكليم صاحب شريعة يحقق الوعد لابناء ابراهيم ويبارك جميع قبائل الارض ، ويكون هذا النبي من أخوة بني اسرائيل لا منهم . فهو من ذرية اسماعيل لا من ذرية اسحاق .

* * *

ان أبناء الهند وأبناء فارس — كما قدمنا — قد توفروا على هذا الدأب في استخراج خفايا الكلمات والحروف والمقابلة بين المضامين والتأويلات واتمام أجزاء منها بأجزاء متفرقة في شتى المصادر والروايات ، ولكنهم لم ينفردوا بالبحث في هذه النبوءات وهذه الطوالع خاصة وجاراهم فيها الباحثون من سائر الامم واجتمعت في كتاب « فتح الملك العلام في بشائر دين الاسلام »[1] متفرقات لم ترد فيما أسلفناه من البحوث الهندية ، أو وردت عن منهج غير منهجها ، نلخص بعضه فيما يلي ولا نستقصيه لانه يقع في أكثر من مائتين وستين صفحة .

يعتمد المؤلفان على الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين اذ جاء فيه ان أبناء اسماعيل سكنوا « من حَويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أشور » فهم اذن سكان الحجاز لان الحجاز هو الارض التي بين شور وحويلة اذ كانت حويلة في اليمن كما جاء في الاصحاح العاشر « ان يقطان ولد الموداد ، وشالف ، وحضرموت ، ويارح ، وهدورام ، وأوزال ودقلة ، وعوبال ، وابيمايل ، وشبا ، واوفير ، وحويلة ويوباب — جميع هؤلاء بنو يقطان » سكان الارض اليمانية ..

---

(١) لمؤلفيه الاستاذين أحمد ترجمان ومحمد حبيب .

ويعتمدان كذلك على وعد ابراهيم الخليل في سفر التكوين « لانه باسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لانه نسلك » .. وانما شرط الوعد لأبناء اسحاق باتباع وصايا الرب وأن لا يعبدوا الهاً غيره والا فهم يبيدون سريعاً عن الارض الجيدة كما جاء في الاصحاح الحادي عشر من سفر التثنية . وقد عبد القوم أرباباً غير الله واتخذوا الاصنام والاوثان كما جاء في مواضع كثيرة من كتب العهد القديم .

* * *

ومما اعتمد عليه المؤلفان رؤيا النبي دانيال ..

وفي الاصحاح التاسع منها يقول : « سبعون أسبوعاً مقضية على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الاثم وليؤتى بالبر الابدي ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القديسين ، فاعلم وافهم انه من خروج الامر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون اسبوعاً يعود ويبني سوق وخليج في ضيق الازمنة ، وبعد اثنين وستين أسبوعاً يقطع المسيح . وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس وانتهاؤه بغمارة ، وإلى النهاية حرب وخراب .. وعلى جناح الارجاس » .

وهذه الخاتمة هي التي تتم كما جاء في سفر اشعيا « على يد شعب بعيد من أقصى الارض » أو كما جاء في سفر التثنية « ان الرب يجلب أمة من بعيد من أقصى الارض .. ثم يردهم إلى مصر في سفن » .

وقد تم ذلك حين استدعى الرومان حاكم بريطانيا الكبرى ومعه جيش نكل باليهود وحمل طائفة منهم أسرى إلى مصر وطائفة إلى رومة من طريق البحر سنة ١٣٢ . فلم تنته حرب الرومان سنة ٧٠ ميلادية بل جاءت بعدها تلك الحرب التالية مصدقة لنبوءة الدمار على يد القادم من بعيد ونبوءة النقل على السفن إلى الديار المصرية وما وراءها .

يقول المؤلفان ، ويعتمدان في ذلك على اجماع الشراح ، ان اليوم من أسابيع دانيال سنة ، واننا اذا أضفنا أربعمائة وتسعين سنة إلى ١٣٢ فتلك

سنة ٦٢٢ التي هاجر فيها النبي عليه السلام إلى مدينة يثرب ، وبعد أربع عشرة سنة دخل جيش الاسلام القدس الشريف وبنى المسجد الاقصى في مكان الهيكل ، وكان الفرس قد ملكوا فلسطين أربع عشرة سنة أباحوا فيها لليهود اقامة شعائرهم ثم عاد الرومان وتلاهم المسلمون . فكانت السنون التي مضت بعد الهجرة النبوية مقابلة لتلك السنين التي ارتفع فيها الحجر عن اليهود ، على عهد الدولة الفارسية ..

* * *

هذه العلامات انما هي نماذج لأضعاف أضعافها لم نحصرها لانها تستغرق مئات الصفحات ولا يلزمنا حصرها جميعاً لان الأمثلة المتقدمة تكفي للتعريف بها ، وان لم تجمعها بحذافيرها . ونحن أمام هذه البحوث المستفيضة نتوخى فيها الحد الوسط بين الفضول وهو جمع هذه البحوث كلها في هذه الرسالة التي لا تتوقف على العلم ببحوث العلامات والطوالع جميعاً وبين النقص وهو اهمال هذه البحوث كل الاهمال في رسالة تدور على بيان مقدمات النبوة الاسلامية وعلى الآراء المختلفة في شرح ما سبقها من هذه المقدمات ، ومهما يكن من رأي القارىء في هذا العصر فالرأي الذي رآه الناس منذ ألوف السنين ولا يزالون يرونه لا بد أن يكون له مكانه التاريخي ودلالته النفسية في هذا السياق .

ولسنا هنا بصدد الاسهاب والتفصيل في نقد الأساليب التي يعتمدها الباحثون في حل الرموز على الأصح في بعض الاحيان ، ولكننا نوجز فنقصر التعقيب على مقطع الآراء الذي لا يطول عليه خلاف بين المنصفين ، فكل من راجع العلامات النبوية في كتب الديانات من أقدمها قبل موسى وعيسى ومحمد عليه السلام إلى يومنا هذا يرى ولا شك ان العلامات التي لخصناها هنا من أقواها وأوضحها وأقلها اعتسافاً واستكراهاً للالفاظ والتراكيب على غير معانيها ، وانما ننظر اليها على كل احتمال مفروض فلا نرى انها تغني عن الدلائل الكونية ولا نعلم ان قيام الدعوة المحمدية قد اعتمد عليها عند

أحد من المسلمين الأولين أو عند أحد من الذين دانوا بالاسلام في الزمن الحديث .

* * *

فاذا فرضنا أن التخريج صحيح في كل ما أورده الباحثون المتقدمون وغيرهم فان هذه العلامات لم تنفع أحدا من الذين كانوا يقرأون التوراة في عهد الدعوة المحمـــدية ولم نعلم لهم موقفـــاً من الدعوة غير اللجاجة والمكابرة والاشتداد في الانكار على نحو لم نعلمه من الجاهليين والذين لم يطلعوا على حرف من كتب العهد القديم ، واذا قدرنا ان هذه العلامات لم ترد قط في كتاب سابق للدعوة المحمدية لم يكن ذلك مما يضير هذه الدعوة أو يصدها عن طريقها أو يسلبها وسيلة من وسائل الاقناع والذيوع التي اعتمدت عليها .

هذا على تقدير الصحة والصواب في كل تخريج وفي كل علامة مذكورة مشروحة ، فأما على غير هذا التقدير فلا حاجة بنا اذن إلى تعقيب طويل أو قصير ..

ولا ندع الكلام على النبوءات الغيبية حتى نقرر فيها الرأي الذي يسلمه المنصفون ، ولا يجرؤ أحد على انكاره باسم العلم أو باسم المنطق أو باسم القياس الصحيح .

فما من أحد يجرؤ على أن يقول — باسم العلم — ان الالهام بالغيب مستحيل. لانه اذا جزم باستحالته وجب عليه قبل ذلك أن يجزم بأمور كثيرة لا يستطيع عالم أمين أن يقررها معتمداً على حجة أو سند قويم ..

يجب على العالم الذي يجزم باستحالة الالهام بالغيب أن يقرر لنا انه عرف حقيقة الزمن وعرف — من ثم — حقيقة المستقبل ، ويجب عليه مع ذلك أن يقرر تجريد الكون من عنصر العقل غير عقل الانسان والحيوان .

فما هي حقيقة الزمن ؟ .. هل هو موجود في الماضي والحاضر والمستقبل

أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يزول ؟ .. وما هي هذه اللحظة الواحدة ؟ وما مدى احاطتها بالبعيد والقريب من الأمكنة الشاسعة في هذه الأكوان ؟ وهل المستقبل موجود الآن أو هو عدم يوجد لحظة بعد لحظة ؟ وكيف يوجد العدم بعد ان لم يكن له وجود ؟ ..

ان العالم الذي يجزم في قول من هذه الأقوال باسم العلم يدعي على العلم كذباً وينم على عقل ضيق لا يصلح للنظر في هذه الآفاق .

فاذا كنا لا ننفي وجود المستقبل نفياً مقطوعاً به مستنداً إلى حجة أو بينة فالغيب غير مستحيل والعلم به لا يدخل في باب الممنوعات أو غير المعقولات ..

* *

واذا كان عنصر العقل في هذه الأكوان أكبر من أن يحصره رأس الانسان وحده فانتقال المعرفة منه إلى عقل الانسان جائز جداً أو جائز على الاقل كجواز الانتقال بين الافكار على تباعد الامكنة والعقول . ولا ندعي ان هذا الانتقال الفكري بين عقول الناس قد ثبت في هذا الزمن ثبوتاً قاطعاً في جميع التجارب والمحاولات . فان هذا الانتقال – المسمى بالتلباثية – يصيب ويخطىء ، ويكفي انه لم يبطل كل البطلان باعتراف الملحدين والماديين إلى جانب المتدينين والمؤمنين .

فاذا كان وجود المستقبل لم يبطل ، فكيف يبطل العلم بما جرى فيه ؟ ..

انه قد يبطل اذا تحقق بالبينة ان عنصر العقل وراء عقل الانسان مستحيل ، فاذا كان وجود هذا العقل الأكبر لم يمتنع ولم يدخل في باب المستحيلات فكل دعوى هنا للجزم بانكار الغيب وانكار العلم به أو الايحاء به إلى انسان من الناس فانما هي دعوى تهجم على الواقع ولا يكفي أن يقال فيها انها تهجم على الغيوب والمجهولات .

فليكن رأينا اذن في تخريجات الباحثين عن الطوالع والعلامات ما يكون ، فان هذا الرأي لا يبطل الايمان بالغيب الا على لسان مجازف يخبط بالقول

حيث يجهل المدى الذي يخوض فيه ، وانما نقبل تلك التخريجات أو لا نقبلها لان الباحثين فيها أصابوا أو أخطأوا في التخريج والتأويل ، وانما نقبلها أو لا نقبلها كرة أخرى لان قيام الدعوات النبوية متوقف عليها أو غير متوقف عليها بل ماض في سبيله على اختلاف هذه العلامات ..

أما الإنباء بما في الغيب بمشيئة العالم به والقادر عليه فلا يمنعه علم ولا منطق ولا تجربة قاطعة من تجارب العيان .

مقدماتُ النبوّة

والآن ، وقد أقررنا الطوالع والعلامات في قرارها الذي يسهل الاتفاق عليه ، نطرق الأبواب الواسعة التي تنفتح أمامنا للبحث في مقدمات النبوة الاسلامية ، وهي أبواب البحث في الحوادث التاريخية والآيات الكونية . وليس أثبت منها في مقام الكلام على النبوة الاسلامية بصفة خاصة بين سائر النبوءات .

تاريخ العالم كله — قبيل عصر الدعوة الاسلامية — هو تاريخ هذه المقدمات حول بلاد العرب وفي صميم الجزيرة العربية من أجوافها إلى اطرافها ..

فلم يكن للعالم كله في تلك الفترة حالة لا توصف بالسوء ولا يقال فيها بالاجمال انها حالة فساد وانحلال .

فلا حالة للعلم ولا للسياسة ولا للأخلاق ولا للمرافق العامة لا توصف بتلك الصفة ولا تغلب فيها السيئات كل الغلب على الحسنات .

واذا نظرنا إلى الأحوال في جملتها وجدنا انها هي الأحوال التي تنادي في كل مكان بالحاجة إلى الدعوة الدينية .

ان ظاهرة واحدة كانت تلف تلك الظواهر جميعاً في طياتها ، وهي فقدان الثقة بكل شيء ، ولا معنى لذلك في كلمة موجزة الا أن الثقة هي المطلوبة ، وان الايمان هو دواء هذا الداء الذي استشرى في كل مكان .

ونبدأ بالاديان الكبرى التي شاعت في العالم المعمور قبيل الدعوة المحمدية ، وهي على حسب قدمها المجوسية واليهودية والمسيحية .

المجوسية

فلم يكن اتباع دين من هذه الأديان على استقرار في عقيدتهم أو على ثقة بأحبارهم وأئمتهم ، وأولها وأشدها اضطراباً ديانة الدولة الفارسية أو دياناتها المتعددة التي تشملها الثنوية أي الايمان برب للنور ورب للظلام وعالم للخير وعالم للشر في كون واحد .

فقد كانت هذة المجوسية تستعصي على الدعاة المصلحين من أيام الوثنية الآرية الاولى التي اشترك فيها الهنود والفارسيون ، وقد عمل « زرادشت » جهده لتطهيرها من الوثنية ، واخلائها من شعائر الهياكل والمحاريب الخفية فلم يتيسر له من ذلك غير القليل ، وجاء بعده مصلحون من أتباعه مزجوا الفلك بالتنجيم بالخرافة بالعبادة في نحلة واحدة ، ولم يعرف الناس عنها على البعد إلى عصر الميلاد المسيحي الا أنهم رصدة للكواكب طلعة للخفايا والغيوب من وراء حجاب الظلام .

وقام « ماني » الذي تنسب اليه المانوية في القرن الثالث للميلاد فأراد أن يغلق باب الوثنية في الشرق ويرجع إلى ثنوية قريبة من ثنوية « زرادشت » وتوحيد الفلسفة العقلية ، فحول قومه من الكتابة البهلوية إلى الكتابة الآرامية أو السامية ، وكاد أن يفلح في اقناع ولاة الأمر بآرائه في الاصلاح والتنزيه لو لم تفسدهم عليه دسائس الكهان والوزراء ، فقضى في السجن وقيل انهم سلخوا جلده وعلقوه مصلوباً لسباع الطير ..

ثم كانت الطامة الكبرى في عهد قباذ أبي كسرى انو شروان الذي حضر بعثة النبي وتلقى رسالته بالسخط والوعيد ..

ففي عهد قباذ هذا ظهر « مزدك » داعية الاباحة والفوضى في الأموال والأعراض ، ولم يتزحزح هذا الداعية خطوة واحدة من الثنوية إلى التوحيد ، أو ما يشبه التوحيد ، وقال كما قال « ماني » من قبله : ان العالم كله في قبضة اله النور واله الظلام ، غير انه زاد عليه « ان النور يفعل بالقصد والاختيار وان الظلمة تفعل على الخبط والاتفاق ، وان النور عالم حساس والظلمة جاهلة

عمياء ، وان المزاج كان على الاتفاق والخبط لا بالقصد والاختيار ، وكذلك الخلاص انما يقع بالاتفاق دون الاختيار » .

وزعم مزدك هذا انه جاء ليبطل الخلاف بين العقائد والأمم وينهاهم عن المباغضة والقتال ، وانه لما كان اكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والاموال ، فقد أحل النساء ، وأباح الاموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ ، ورد القوى الكونية إلى أربع هي : التمييز ، والفهم ، والحفظ ، والسرور ، وكل منها يعمل بسبعة من الوزراء يتبع الوزير منهم اثني عشر روحانيون .. وكل انسان اجتمعت له أسرار الاربعة والسبعة والاثني عشر صار ربانياً في العالم السفلي وارتفع عنه التكليف ، وان ملك الملوك في العالم العلوي انما يدبر بالحروف التي مجموعها الاسم الاعظم ، ومن تصور من تلك الحروف شيئاً انفتح له السر الاكبر ومن حرم ذلك بقي في عمى الجهل والنسيان والبلادة والغم في مقابلة القوى الأربع الروحانية » (١)

ويقال عن مزدك هذا انه كان عظيم الدهاء خبيراً بفنون الاقناع والاغراء ، وانه بلغ من سلطانه على قباذ انه أقنعه ببذل زوجته لمن يشتهيها ليعلم الناس الصدق في ايمانه ويقتدوا به في ترك التباغض والملاحاة على الأعراض والعروض فأوشك قباذ أن يفعل ما أوحاه اليه لولا أن علم ولي عهده كسرى فدخل عليه باكياً متضرعاً يتوسل اليه الا يذله هذا الاذلال ويبتذل أمه أمام الناس هذا الابتذال ، ثم تمالأت عصبة ولي العهد فقتلوه وتعقبوا شيعته بالقمع والتشريد .

وعلى الرغم من تتابع المصلحين الذين اجتهدوا غاية اجتهادهم في تطهير الديانة المجوسية من الوثنية والمراسم الهيكلية لم تزل عقيدتهم جميعاً في الأرواح والشياطين حائلاً بينهم وبين التوحيد بل حائلاً بينهم وبين الثنوية على بساطتها الاولى ، فان موالاة الأرواح ومحاذرة الشياطين تسوقانهم إلى ضروب من العبادة والزلفى لطوائف شتى من الأرباب الصغار عدا الالهين الأقدمين اله

---

(١) الشهرستاني في الملل والنحل .

النور ، واله الظلام ، ولا يزال المجوس إلى اليوم يبدأون صلاتهم بعد منتصف الليل ويقضون ساعات الصلاة الاولى في تلاوة الأناشيد التي يسترضون بها شياطين الظلام ، قبل انبثاق النور الاعظم عند الصباح .

اليهودية والمسيحية

أما اليهودية فقد كان قيام المسيحية في معقلها الاكبر ايذانا حياً بنفادها وانتهائها إلى الغاية من الجمود والضيق . اذ كانت المسيحية في الواقع حركة اصلاح واسع في جميع العقائد اليهودية التي جمدت على النصوص والمراسم وتحولت من الدين إلى نقيض الدين ، ولا شيء يناقض الدين كما ناقضته تلك الأنانية القومية التي حسبت الاله المعبود ملكاً لها دون سائر عباده يبيح لها في سائر الأقوام ما لا يباح في شريعة ولا قسطاس مستقيم ..

وفي عصر الميلاد نفسه ظهر من حكماء اليهود من أحس الحاجة إلى اصلاح عقائد قومه وشعائرهم ، فاختار فيلون الحكيم أسلوب التعبير الرمزي لتفسير مسائل الكتاب التي لا تقبلها الحكمة ، وكان مما يلفت النظر في هذا الصدد انه رجع إلى قصة ابراهيم وسارة وهاجر فعبرها على أسلوبه تعبير الرموز ، لان المسلك الذي نسب فيها إلى ابراهيم لا يعقل من خليل الرحمن . فعنده ان سارة هي الحكمة الالهية وان هاجر هي الدربة الدنيوية ، وان زواج الخليل من سارة لم يثمر في أول الأمر لانه لم ينضج له قبل التمرس بحقائق الحياة ، وقد كان هذا أسلوب الفلسفة الذي أدخله بولس الرسول في أسلوبه الديني فقال في رسالة غلاطية : « انه مكتوب انه كان لابراهيم ابنان : واحد من الجارية ، والآخر من الحرة . لكن الذي من الجارية ولد حسب الجسد ، وأما الذي من الحرة فبالموعد . وكل ذلك رمز . لان هاتين هما العهدان أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذي هو هاجر . لان هاجر جبل سيناء في العربية ، ولكنه يقابل اورشليم الحاضرة فانها مستعبدة مع بنيها ، وأما اورشليم العليا التي هي أمنا جميعاً فهي حرة ... »

وهذه ثورة على تفسير موعد ابراهيم بأسلوب العصبية والأنانية تلفت

النظر فيما نحن بصدده وتومىء إلى ما يأتي بعدها في الزمن المتطاول . ثم سرى الاصلاح المسيحي مسراه فمضى معه من اليهود من صلح له وبقي الجامدون على شر مما كانوا عليه قبل الدعوة المسيحية ، وجنى العناد والاصرار على الباطل جنايته المعهودة فذهبت ريح الكهانة والمراسم الهيكلية وتفرقت مراجع الديانة مع كل مجمع وكل معبد وكل طائفة ذات مذهب في التوراة أو التلمود أو تقاليد الاحبار والربانيين ، وكان من آثار هدم الهيكل سنة سبعين للميلاد أن أشياعه فقدوا وحدة المراسم بعد أن فقدوا وحدة العقيدة والروح ، فلم يأت عصر البعثة المحمدية حتى استفحل الخطب بينهم من جراء تفسيراتهم الكثيرة فنهضت بينهم طلائع الطائفة التي عرفت بعد ذلك بطائفة القرائين وأنكرت كل رأي غير النصوص والحروف في الكتب المنسوبة إلى موسى الكليم ، فكان خوف التفرق سبيل النكسة إلى أيام العصبية والأنانية القومية ولم يكن سبيلا إلى الحرية والتجديد . ومما يلفت النظر مرة اخرى أن اصلاح هذا الجمود الجديد انما أتى من قِبَل البلاد الاسلامية ، على يد سعديا المصري وابن ميمون الأندلسي ، وان حكماء اليهود في القرن الثالث للهجرة لم يكن لهم مذهب في تنزيه الاله غير مذهب علماء الكلام من المسلمين ..

وكذلك كان يهود العالم في عصر البعثة المحمدية : بين أشتات يذهب كل منها مذهبه على حسب المجمع أو المعبد الذي ينتمي اليه ، وبين شراذم متعنتين في الجمود على الحروف والنصوص يرجعون بهذه النكسة إلى الداء الذي قامت المسيحية لاصلاحه قبل بضعة قرون فتلك حاجة جديدة إلى اصلاح جديد .

محنة المسيحية

وقد جاء الاسلام والمسيحية منتشرة في بلاد الدولة الرومانية شرقاً وغرباً يدين بها ملوكها ورؤساؤها ومعظم رعاياها ، وكان هؤلاء الملوك والرؤساء قبل تنصرهم يضطهدون المسيحيين ويعذبونهم ولا يتورعون عن لون من ألوان العذاب يصبونه عليهم ، فكانت محنة عظيمة صبر لها المسيحيون

الاولون صبر المؤمنين الصادقين ، ولكن هؤلاء الملوك والرؤساء كانت محنتهم للمسيحية بعد تنصرهم أشد عليها من محنة الاضطهاد والتعذيب ، لانهم لم يكفوا عن الظلم وزادوا عليه عبث السياسة بالعقائد والآراء ، فدسوا مطامعهم بين المختلفين على تفسير المسيحية الأولى وفرقوهم شيعا متباغضة متنافرة يرمي بعضها بعضاً بالكفر والضلالة . وينشب بينها الجدل فلا تتفق على قول حتى تتفتح أمامها مذاهب الخلاف على أقوال ، ولم يكن خلاف المذاهب يومئذ كخلاف المذاهب في العصر الحاضر يسمح بوجهات النظر ولا يستلزم طرد المخالفين جميعاً من حظيرة الدين ، بل كان بحث الآباء الأولين في سبيل الوصول إلى أركان العقيدة وتقرير ما يسمى بالمسيحية وما لا يحسب منها وانما يحسب من الكفر والضلالة . فلم تبق نحلة من النحل الكثيرة الا حكمت على مناقضيها بالمروق والهرطقة ، وتعددت هذه النحل بين الأريوسية والنسطورية واليعقوبية والملكية على تباعـد الأقوال في الطبيعة الالهية ومنزلة الأقانيم الثلاثة منها ، ويأتي النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية فيقضي على البقية الباقية من الثقة والطمأنينة ، ولا يدع ركناً من أركان العقيدة بمبعدة من الجدل والاتهام ، فلا جرم يتردد على الألسنة ، ويدوّن في كتب التاريخ يومئذ ان القوم جميعاً قد استحقوا العقاب الالهي وان أبناء اسماعيل قد جاءوا من الصحراء بأمر الله عقاباً للظالمين والمارقين .

ويستطيع القارىء ان يترجم هذه البلبلة بحوادث السياسة ومنازعات العروش فلا يرى من حوادثها يومئذ الا زعازع من هذا القبيل على عروش الدول والامارات وأولها عرش الأكاسرة وعرش القياصرة رؤساء أكبر الدول في ذلك الحين ، فلم يكن بين الملوك الخمسة أو الستة الذين تعاقبوا على عرش فارس أو عرش بيزنطية من مات حتف أنفه ، أو مات مستقرا على عرشه ، ولم يكن منهم أحد كان له حق واضح في السلطان حين وثب عليه ، ويتقلب العرش بين الغاصبين فيفزع من كان آمنا ويأمن من كان مهددا أو مشردا في البلاد مع اختلاف الحظوة والنقمة بين الأنصار والخصوم ، فلما تمادى الأمر على ذلك عاما بعد عام لم يبق من يأمن على نفسه وماله في زمن أنصار

ولا زمن خصوم ، وعم الخوف أقرب الناس إلى السلطان وأبعدهم منه على حد سواء .

وتمت المحنة الكبرى بالقتال الدائم بين الدولتين ، فاذا بالبلد الواحد ينقلب في الحكم بين سيادة الفرس وسيادة الروم فلا تهدأ له حال في نظام ولا في سلام ولا في معاش يأمن الناس على مرافقه ومسالكه بين ميادين القتال ، وبطل الأمان كما بطل الايمان ، فلا خلاصة لهذه الأحوال جميعا غير خلاصة واحدة هي ضياع الثقة بكل منظور ومستور ، فلا أمان من السياسة ولا من الدين ولا من الأخلاق ولا من الواقع ولا من الغيب ..

* * *

هذه أحوال العالم وهذه هي مقدمات الدعوة الاسلامية من تلك الأحوال : مقدمات لا تأتي بنتائجها على وتيرة الداء الذي يتبعه الفناء ، ولكنها مقدمات العناية الالهية التي تدبر الدواء للداء المستحكم على غير انتظار ، وبغير حسبان ..

عالم اذا صح أن يقال عنه إنه كان ينتظر شيئا من وراء الغيب فانما كان ينتظر عناية من الله .

الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية

كان في الجزيرة العربية مجوس ويهود ونصارى ، وعرف أبناء الجزيرة هذه الأديان من طريق القدوة الفردية في رحلاتهم ومبادلاتهم مع الأمم التي تحيط ببلادهم ، كما عرفوها من طريق الدعوة العامة التي يعززها سلطان الرؤساء على نحو ما حدث في أرض غسان والحيرة ونجران .

ويقول ابن قتيبة ان المجوسية كانت معروفة في قبائل تميم ومنهم زرارة ابن عدس وابنه حاجب ، وقد تزوج ابنته ثم ندم .. ويروى أنها كانت شائعة بين قبائل البحرين عامة على مقربة من فارس ، وان لقيط بن زرارة — كما جاء في ابن الأثير — تزوج بنته دُختنوس وسماها بهذا الاسم الفارسي ومات عنها فقال وهو يجود بنفسه :

يا ليت شعري عنك دختنوس اذا أتاها الخبرُ المرمـــوسُ

أتحلِـــقُ القرُونَ أو تَميس لا ، بل تميس انها عـــروس

والأغلب على الظن ان المجوسية شاعت في هذه القبائل لأنها كانت سهلة هينة عليهم لا تكلفهم بناء الهياكل ولا نحت الأصنام ، ولا ينكرون في عبادتها للنار شيئا لان اشعال النيران للقرى والاستسقاء واشهار الحلف لم تكن مجهولة في البادية العربية ، ولعلهم سبقوها إلى عبادة بعض الكواكب لأنهم كانوا أحوج إلى رصد الأنواء والاهتداء بالنجم في سفر الليل حتى جعلوا له اسما خاصا من السّرى والادلاج وغيرهما من الرحلة في سائر أوقات الظلام .

ولعل أحدا منهم لم يكن يلتفت إلى مجوسية المجوس الا حين يحدث الزواج بالمحارم التي لا يحلها عامة العرب ، فأما فيما عدا ذلك فقد كانت مراسم الدين عادات كغيرها من عادات البداوة في الأعراس والمآتم وتعظيم الاسلاف والأرواح ، لا ينكرها المجوسي ولا اليهودي ولا النصراني من عرب الجاهلية .

واذا كان عرب البحرين قد عرفوا المجوسية فقد عرفوا الصابئين الذين كانوا يقيمون على مقربة من بلادهم ولكنهم لم يقتدوا بهم في عقيدتهم لكثرة قيودها وأشراطها وكتمان الصابئين ما كانوا يؤمنون به مخالفا لمن حولهم ، وقد كانوا يخالفون كل دين في أشياء ويحالفونه في أشياء ، ويجنحون إلى العزلة والاعتكاف فلا يصل إلى أسرارهم الا من تعمد البحث عنها والنفاذ اليها من طلاب المعرفة والمتنسكين والمتحنفين ، والظاهر من أصول كتابتهم النبطية ان الصلة بينهم وبين نبط الحجاز الشمالي عن طريق العراق والعقبة كانت أوثق وأقرب من صلاتهم بسكان البحرين والشواطىء اليمانية ، ولهذا وجد فيهم من ينتمي إلى جد يسمونه كاظم بن تارح يزعمون انه أخو ابراهيم الخليل ، وكيفما كانت علاقة العرب بموطن الصابئة فلم توجد بين العرب قبيلة كبيرة تدين بملة الصابئة كما دانت تميم بالمجوسية . لان هذه الملة الصابئية بطبيعتها لا تنتقل إلى طائفة كبيرة بعيدة من موطنها على موارد الماء ، وانما ينتقل اليها فرد أو أفراد يفضلون عقيدتها على العقائد الوثنية من حولها ، ولا يخفى شأن الارتباط بالمكان في العقيدة الصابئية ، فان اشتراط القرب من الماء فريضة من فرائضهم العامة ، واسمهم الاول في أصله مأخوذ من (سبح) لا من (سبأ) التي ينتمي اليها بعض قبائل اليمن ولا من (صبأ) بمعنى ارتد عن الدين ، وذلك أرجح الآراء فيما قيل عن أصول هذه الاسماء ..

وكانت اليهودية أعم انتشارا في الجزيرة العربية من المجوسية . لأن المجوسية بقيت محصورة في عشائر من العرب من سكان بين البحرين ، ولكن اليهود كانوا يهاجرون بجملة قبائلهم من أرض كنعان كلما أصابهم القمع والتشريد من فاتح جديد ، وقد هاجر بنو النضير وبنو قريظة وبنو

بهدل جملة واحدة إلى يثرب على رواية الأغاني « بعد أن ظهرت الروم على بني اسرائيل جميعا بالشام » .

قال صاحب الأغاني : « لما قدم بنو النضير وقريظة وبهدل المدينة نزلوا الغابة فوجدوها وبيئة فكرهوها وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم منزلا سواها ، فخرج حتى أتى العالية — وهي بُطحان ومَهزُور — واديان من حَرَّة على تلاع أرض عَذيّة ، بها مياه عذبة تنبت حر الشجر ، فرجع اليهم فقال : قد وجدت لكم بلدا طيبا نزها إلى حرة يصب فيها واديان على تلاع عذية ومدرة طيبة في متأخر الحرة ، فتحول القوم اليها من منزلهم ذلك ، فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان ، وكانت لهم ابل نواعم فاتخذوها أموالا ، ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور ، فكانت لهم تلاعة وما سقي من بعاث وسموات ، فكان ممن يسكن المدينة حتى نزلها الأوس والخزرج ، من قبائل بني اسرائيل بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو قينقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو الفصيص ، فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود .. وكان هناك معهم من غير بني اسرائيل بطون من العرب ، منهم بنو الحرمان : حي من اليمن ، وبنو مرثد : حي من بلي ، وبنو نيف : حي من بلي أيضا ، وبنو معاوية : حي من بني سليم ثم من بني الحارث بن بهثة وبنو الشطبة : حي من غسان » .

ولم ينزل اليهود بغير المدن والقرى التي تحميهم فيها الآطام والأبنية ، فنزلوا تيماء وفدك وخيبر واشتغلوا بالتجارة والصناعة في المدن وزرعوا الأرض حولها للمرعى والاتجار بمحاصيلها ، واختاروا من التجارة أيسرها على غير المحاربين لأنهم لم يقدروا على حراسة القوافل الكبيرة التي كانت تحمل أحيانا — كما جاء في الطبري — على أكثر من ألفي جمل ، فاستغلوا المال وشاركوا في قروض الربا والوساطات ولم ينسوا قط أنهم غرباء في بلد غريب ، واجتنبوا المزاحمة في التجارة فلم يكن لهم شأن بمكة دون سائر المدن لأنها كانت مستقلة بالتجارة على طريقها في أيدي قريش ، ولكن يقال في

روايات غير حاسمة ان بطونا من نمير وكنانة وكندة وبني الحارث عرفت اليهودية من جوارها لطريق المدن التي سكنها اليهود .

وموضع النظر الكثير ما يقال عن دخول اليهودية إلى اليمن وقيام دولة يهودية فيها بامرة ذرعة المكني بذي نواس ، فلا خلاف في وجود اليهود بين عرب الجنوب من أهل اليمن ، ولكن الخلاف في تاريخ دخول اليهودية تلك البلاد ووسيلة دخولها ، لأن المعهود في بني اسرائيل المتأخرين أنهم كانوا لا يدعون أحدا إلى دخول دينهم لايثارهم أنفسهم بوعد ابراهيم الخليل وحصر هذا الوعد في ذرية اسحاق بن يعقوب ، وقد حدث في عهد هركانوس الاول المكابي انه أغار على الأدوميين وأكرههم على التهود فتهودوا وقامت منهم دولة هيرود حليفة الرومان ، وكان ذلك في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد حين ضعف ايمان اليهود برجعة الدولة الدنيوية إلى أرض الموعد ، وكان تدبيرا حربيا سياسيا دعت اليه الرغبة في تأمين الطريق ومحالفة الرومان لدرء الخطر من ناحية فارس وحلفائها من جانب الصحراء . فاذا كان اليهود قد أكرهوا قبائل اليمن على التهود فمن أين لهم القوة التي تضارع قوة المكابيين في الشام وفلسطين ؟ .. واذا كانوا قد هودوا تلك القبائل بالتبشير والاقناع فكيف قبلوا أن يشركوا معهم أناسا من المطرودين المحرومين في وعد ابراهيم الخليل ؟ ..

ان الاحتمال الراجح بين هذه النقائض ان اليهود وصلوا إلى اليمن مهاجرين متفرقين ، وربما بدأت هذه الهجرة من أيام السبي البابلي لقرب بابل من طريق البحرين إلى اليمن ، فان لم تكن موغلة هذا الايغال في القدم فقد يكون مبدؤها عند تشتيت اليهود في أوائل القرن الثاني للميلاد ، ثم استمرت نحو ثلثمائة سنة إلى أواخر الدولة الحميرية ، ثم وجد اليهود الحميريون أنفسهم معرضين لخطر واحد أمام تحالف الحبشة والروم ونصارى اليمن بنجران وغير نجران . فعقدوا الحلف المقابل لهذا الحلف بينهم وبين فارس وأعوانها من عرب الشواطىء الشرقية .

ومن المعلوم أن الدولة الفارسية كانت تنازع الحبشة والروم في أرض

اليمن ، وكانت ترحب في بلادها باليهود بعد انقلابهم على الدولة الرومانية واشتهارهم بمعاداتها وموالاة أعدائها ، وكانت ترحب بالنصارى الذين اضطهدهم الرومان الوثنيون ، ولم تزل ترحب بعد ذلك بالنصارى من أتباع المذاهب التي وقع عليها التحريم والتشريد بعد تنصر العواهل الشرقيين في القسطنطينية ، ولم تقبل نصارى الحيرة الا لعلمها بمنافستهم لنصارى غسان من أتباع الرومان وانتمائهم إلى مذهب النسطوريين .

فالدولة الحميرية على عهد ذي نواس لم تكن دولة يهودية يقبلها اليهود ويدخلونها معهم في عداد شعب الله المختار ، ولكنها كانت تحالف اليهود وتعمل على الاشتهار بمحالفتهم لاقناع فارس بولائها في النزاع بينها وبين الحبشة والروم ، واشتهرت من ثمة بالتهود لأنها أيدت اليهود وتنكرت للنصارى حذرا من معاونتهم – خفية أو جهرة – لشركائهم في العقيدة أبناء الحبشة ، ولو كان اليهود هم القوة التي قامت عليها دولة حمير لما صاروا إلى القلة التي غمرتها الكثرة العربية في القرن الخامس للميلاد ..

وأيا كان تاريخ اليهودية في اليمن وفي بلاد العرب عامة فانها لم تكن ذات رسالة دينية أو روحية للصلاح والاصلاح ، ولم تكن يهودية معترفا بها بين بني اسرائيل في غير الجزيرة العربية وقد نقل الدكتور اسرائيل ولفنستون صاحب كتاب « تاريخ اليهود في بلاد العرب » رأيا فيهم ليهود دمشق وحلب رواه جريتز Graetz فقال : « انهم كانوا ينكرون وجود يهود في الجزيرة العربية ويقولون ان الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهودا حقا اذ لم يحافظوا على الديانة الالهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما ، وان العالم شيركان يعتقد أن اليهودية في بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة ، فقد كانت يهودية في أساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودي » .

ولا يمنع هذا أن يكون ليهود يثرب رأي في أنفسهم غير رأي اخوانهم الدمشقيين والحلبيين ، فقد روى أوليري O'leary في كتابه عن بلاد العرب قبل محمد « ان بني النضير وبني قريظة كانوا يسمون أنفسهم بالكاهنيين

ويزعمون من ثم أنهم من نسل هارون ، وأما ياقوت فإنه يقول ان يهود يثرب عرب تهودوا . وقد يخطر لنا أن بني قينقاع كانوا من عرب الشمال الأدوميين أو أشباههم الذين هاجروا إلى بلاد العرب بعد هدم الهيكل سنة سبعين أو بعد تشريد اليهود على عهد هادريان سنة مائة واثنتين وثلاثين » .

على أن الصبغة اليهودية التي بقيت مع يهود يثرب في معيشتهم وصناعاتهم ومعاملاتهم ومعرفة بعضهم بالكتب العبرية القديمة ولياذهم بالآطام — أدل عليهم من تقديرات المؤرخين على الفرض والتخمين ، وما أشبه قينقاع أن ترجع في أصلها إلى كوهنكا ! .. وما أبعد اسم النضير من أسماء العرب الأقدمين !

لقد قيل إنهم بطن من بطون جذام أبناء عم اللخميين ، فهل كان في جذام من يعرف العبرية كما عرفها يهود يثرب ؟ وهل كان في وسعهم أن ينشئوا المدرسة العبرية التي ظلت إلى عصر الدعوة المحمدية يسميها العرب بيت المدارس ويسميها اليهود « بيت هام مدراس » ؟

وقد كان يحسب لهؤلاء اليهود أثر في مقدمات الدعوة الدينية ، أو مقدمات النهضة القومية الانسانية بعبارة أخرى لو أنهم أفادوا العرب من حولهم دروسا في التفكير والأخلاق تكشف لهم عن سخف الجاهلية وتهيء ضمائرهم لما هو أصح منها وأقرب إلى التقدم والهداية. هذا أو تكون حياتهم بين العرب قدوة صالحة يقتدون بها في معاملاتهم وعلاقة بعضهم ببعض في السلم والحرب والمحالفة والمخالفة .

ولكنهم لم يصنعوا هذا ولا ذاك وصنعوا في أكثر الأحيان نقيض هذا وذاك . لأنهم لم يكترثوا لأمر المتهودين من قبائل العرب الا لينتفعوا بولائهم وحراستهم لتجارتهم في الطريق . فلم يكن بين الجاهليين المتهودين والجاهليين الوثنيين فرق في العادات والأخلاق الا أن يكون فرق الشجاعة والرجولة في جانب الوثنيين يمتازون به على الذين تعودوا اللياذ بالآطام والتعلق في حربهم وسلمهم بذرائع المساومة والنفاق .

وقد كان يهود يثرب قدوة سيئة في كل علاقة بينهم وبين العرب أو بينهم وبين أنفسهم في جوار المدينة ، فقد كانت سياستهم مع قبائل العرب قائمة على الايقاع بينها واثارة الاحقاد في المتخاصمين منهم كلما جنحوا إلى النسيان وتعاهدوا على الصلح والأمان . ولزم اليهود أنفسهم داؤهم القديم من الشقاق والمشاكسة حيثما اجتمعوا في مكان واحد ، فدبت الخصومة بين بني قينقاع من جانب وبين بني النضير وبني قريظة من الجانب الاخر ، ولم يتفق بنو النضير وبنو قريظة على شيء غير حسدهم لبني قينقاع وعملهم على الوقيعة بين قبائل الاوس والخزرج وهي كثيرة في جوار المدينة . وقد كانوا ينفسون على بني قينقاع انهم كانوا يقيمون في قصورهم داخل المدينة ولا مأوى لبني قريظة غير ضاحية المشرق ولا لبني النضير غير ضاحية المغرب . فلما نشبت الحرب بين الاوس والخزرج تفرق اليهود بين الحزبين فكان بنو قينقاع مع الخزرج وكان بنو النضير وبنو قريظة مع الاوس ، ولم يتحرك أحد من النضيريين والقرظيين لنصرة بني قينقاع حين أجلاهم المسلمون عن المدينة ، ولا تحرك أحد من القرظيين لنصرة النضيريين حين قضي عليهم بالجلاء لغدرهم بالنبي عليه السلام وصعود أحدهم — عمر بن جحاش — على جدار يجلس النبي تحته ليلقي عليه بصخرة من أعلاه ... وانما وصفتهم الآية بوصفهم هذا حيث جاء في القرآن الكريم من سورة الحشر أنهم « لا يقاتلونكم جميعا الا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

« سورة الحشر ١٤ »

وليس في خليقة من هذه الخلائق قدوة صالحة تعلم الجاهليين ما يحسن بهم أن يتعلموه ويهتدوا به إلى طريق مستقيم .

ولقد عاش يهود يثرب ما عاشوا في جزيرة العرب ولم يؤثر عنهم قط سعي في سبيل مطلب من المطالب العامة والخاصة غير الاستكثار من الربح المشروع وغير المشروع بكل ما استطاعوا من حول وحيلة . فلما جهر النبي بدعوته خذلوه من مبدأ الأمر ، وأوفدوا وفودهم إلى كفار قريش ، يعرضون

عليهم المؤازرة والمحالفة واتخذوا خطتهم التي ثابروا عليها بعد ذلك ولم يعدلوا عنها إلى حين اجلائهم عن حدود الجزيرة ، وخلاصة هذه الخطة تثبيت الوثنية الجاهلية وايثارها على دعوة التوحيد والتنزيه التي جاءت بها رسالة الاسلام وشملت بها تعظيم العقائد الكتابية وعقائد التوحيد جملة منذ عهد ابراهيم الخليل . وكان في سعيهم للتأليب على هذه الدعوة بعض الأناة والحيطة قبل الهجرة النبوية إلى المدينة ، لأنهم كانوا يتراوحون في مساعيهم بين الحذر من عاقبة الدعوة وبين الامل في القضاء على تجارة قريش وانفرادهم بعد قريش بتجارة الحجاز كله من اليمن إلى مكة إلى المدينة إلى الشام ، فلما هاجر المسلمون القرشيون إلى المدينة وأقاموا لهم سوقا بجوار سوق اليهود أرادوا أن يفسدوا كل ما صنعه الاسلام حتى الصلح بين الاوس والخزرج والمؤاخاة بين المهاجرين والانصار ، واستيأسوا في الكيد والدس ولم يحرصوا على شيء غير استبقاء الربح والتأليب على كل اصلاح وكل مصالحة في غير هذا السبيل ..

فاذا كان ليهود يثرب أثر في مقدمات الدعوة المحمدية فهو أثر أسوأ من أثر الجاهليين في المقاومة والعناد ، واذا استفاد الباحث من تاريخ هؤلاء القوم توضيحا لتلك المقدمات فانما تأتي هذه الفائدة من جانب آخر لا فضل لهم فيه ، فانهم كانوا تصحيحا عمليا لاخطاء المستشرقين الذين أنكروا وحدة اللغة العربية قبل الاسلام في عصر المعلقات والقصائد الجاهلية ، ولقد كانت وحدة اللغة من مقدمات الدعوة الاسلامية التي خاطبت العرب جميعا بلسان يعرفونه من قبل عصر الاسلام ، فجاء بعض المستشرقين بوهم من أوهامهم يشككون في وحدة هذه اللغة وينكرون اتفاق الجزيرة على التخاطب بلسان القرشيين والمكيين ، وزعموا أن وحدة هذه اللغة ممتنعة لاختلاف لسان العدنانيين والقحطانيين ..

فاليهود في يثرب أصدق جواب على هذه الأوهام لأنهم غرباء عن الجزيرة العربية دخلوها في القرن الأول أو الثاني للميلاد ، ولا يجوز الشك في ذلك ولا القول بأنهم عرب تهودوا كما قال بعض المؤرخين على غير علم ولا روية فيما يصح أن يقال ، فان القول بذلك يستلزم منا أن نفرض أن

العرب الأميين تطوعوا للتحول إلى اليهودية ثم تعلموا العبرية وتفقهوا في كتب التوراة لينقطعوا عن أسلافهم وينضووا إلى قوم مخذولين في بلادهم لا يسلمون لاحد من الامم بأنه أهل للدخول معهم في عداد شعب الله المختار ، فهذا من أغرب الفروض التي لا تثبت بغير دليل قاطع فضلا عن الثبوت بغير دليل ، وليس في هجرة اليهود من فلسطين إلى بلاد العرب غرابة أو مناقضة لوقائع التاريخ بعد تشتيتهم في القرن الأول أو الثاني للميلاد ، وقد كان مقامهم على الطريق بين تيماء والمدينة للتجارة والزراعة والاشتغال بغير صناعات القبائل العربية أشبه شيء أن يكون على تلك الطريق خاصة دون الطريق الاخرى التي يحميها النبط وقريش ولا يستطيع اليهود المهاجرون أن يقتحموها على أصحابها وهم مشردون مستضعفون ، مع العداء بينهم وبين النبطيين وتعصب النبطيين على اسرائيل دينا ولغة وميلا في السياسة والولاء .

وعلى جميع هذه الفروض التي لا تقبل الشك تبقى هناك الحقيقة التي لا تختلف مع اختلاف القول في أصول يثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادي القرى على الاجمال .

فهل هؤلاء عرب يكتبون ؟

لو كانوا كذلك لقد كانوا خلقاء أن يحفظوا في صحفهم كلاما عربيا مما قبل الاسلام بثلاثة قرون يخالف العربية الموحدة في عصر الاسلام ، ان صح أن العربية لم تكن موحدة في أيام شعراء المعلقات ، وبعض هؤلاء الشعراء لم يسبقوا عصر الاسلام بأكثر من مائة عام .

وكانوا خلقاء أن يحفظوا بالكتابة العبرية لهجة غير اللهجة الموحدة التي يشك المستشرقون في سبقها للاسلام إلى عصر أولئك الشعراء ، أو كانوا خلقاء أن نعلم من كتابتهم شيئا يؤيد ذلك الشك نوعا من التأييد .

أما اذا كانوا على القول الراجح — بل القاطع — يهودا دخلوا الجزيرة بلسان غير لسانها ، وتكلموا الآرامية أو الأدومية أو العبرية ثم تعلموا اللغة العربية الحجازية فهذا التوحيد الذي تم بين اللغة الحجازية وبين الآرامية أو

الآدومية أو العبرية ليس بالمستغرب أن يتم بين لهجة العرب في الجنوب ولهجة العرب في الحجاز وسائر أطراف الجزيرة ، فقد أقام عرب اليمن في الجزيرة واتصلوا بالحجاز زمنا أطول جدا من مقام اليهود المهاجرين منذ القرن الاول أو الثاني للميلاد .

ولم يصل الينا شيء من لغة اليهود الذين أقاموا بجنوب الجزيرة أو اليهود الذين تحالف معهم ذو نواس في نجران ، ولكن اليهود الذين وفدوا إلى الحجاز بعد البعثة النبوية كان منهم كتاب ومؤرخون مطلعون على تواريخ حمير وتواريخ أسلافهم العبرانيين ، وكان منهم كعب بن ماتع الحميري الملقب بكعب الأحبار ، وكان منهم وهب بن منبه الصنعاني الذي قال ابن خلكان انه رأى كتابا له عن ملوك حمير وأخبارهم في مجلد واحد ووصف هذا الكتاب بأنه مفيد . وقد كان كعب ووهب من المغربين في طلب النوادر فلم يذكرا لنا زمنا شهداه ، أو شهده آباؤهم وأجدادهم كانت فيه لغة قريش مجهولة في اليمن وما جاورها . وأدنى من ذلك إلى عصر البعثة قدوم الوفود من اليمن إلى الحجاز وذهاب الولاة من الحجاز إلى اليمن باذن النبي عليه السلام ، ومنهم معاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب ، ومن كان يصحبهما في عمل الولاية والتعليم ، فلم نسمع أن وفود اليمن على النبي جهلوا ما سمعوه أو نطقوا بكلام لا يفهمه أهل الحجاز ، وهؤلاء قد لقنوا لغاتهم من آبائهم فلا يفوتهم ما اختلف من كلامهم اذا كان ثمة اختلاف .

وأقدم من البعثة المحمدية رحلة الصيف ورحلة الشتاء ، وليس في اخبار هذه الرحلات الماع إلى تفاهم قريش مع أهل اليمن بلغة غير اللغة القرشية في الجيل السابق للبعثة والجيل الذي تقدمه ، ومن البعيد جدا أن يغيب عن ذاكرة العربي حديث جيلين قبل جيله وقد كانت أخبارهم ورواياتهم وأنسابهم وأمثالهم كلها قائمة على الحفظ وتسلسل الرواية والإسناد من جيل إلى جيل ، فاذا كانت لغة الحجاز شائعة عامة على مدى الذاكرة في عصر البعثة المحمدية فلا أقل من ثلاثة أجيال تقدر لهذا الشيوع وهذا التعميم ، وترجع بنا هذه الاجيال إلى أقدم الأوقات التي أسند اليها نظم المعلقات فلا نستغرب نظمها باللغة التي يفهمها العرب من الجنوب إلى الشمال .

ولقد سمع النبي عليه السلام قصيدة كعب بن زهير ، وقد نظمها ولا شك بلغة أبيه زهير بن أبي سلمى ، وكان زهير من أسرة شاعرة مسبوقا إلى النظم بتلك اللغة ، ولا يعقل أن يكون التغير في لغة النظم قد طرأ عليهم فجأة في مدى سنوات معدودات ، فاذا بلغنا بالمعلقات عصر هرم بن سنان — ممدوح زهير — وما تقدمه بقليل ، فليس من شعراء المعلقات من هو أقدم من ذلك بزمن طويل يمتنع فيه التوافق على النظم الواحد واللغة الواحدة ، ولا بد أن نذكر هنا أن أوزان العروض لا تخلق بين يوم وليلة ، وأن وزن قصيدة كعب ووزن قصيدة أبيه قد وجدا قبل عصر الشاعرين ونظمت فيهما قصائد جيل أو جيلين على الاقل قبل ذلك التاريخ ، ولو أن هذه الأوزان وسعت شعرا غير شعر اللغة الحجازية لما غاب خبره ولو غاب لفظه ومعناه .

ومن عسف القول ولا ريب أن نجزم بامتناع هجرة اليمانية إلى ما وراء حدود اليمن في الجزيرة العربية ، فاذا جاز أن تهاجر منهم قبيلة واحدة فحكم القبيلة في مسألة اللغة كحكم القبائل العشر أو العشرين . ولمن شاء أن ينكر نسبة البكريين أو التغلبيين أو الغساسنة إلى اليمن مستندا إلى الدليل أو غير مستند إلى دليل على الاطلاق ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر نسبتهم إلى اليمن وينكر نسبة اللغة العدنانية اليهم في وقت واحد ، فإنه بذلك ينكر نسبتهم إلى كل أصل معروف في الجزيرة العربية ، ولا يأتي لهم بأصل غير تلك الأصول .

وان من ينكر انتقال قوم من اليمن إلى ما وراءها لينكر أمرا غير قابل للانكار في الجزيرة العربية التي لم يثبت فيها تاريخ أثبت من تواريخ الرحلات على تباعد الأزمنة وتبدل العوارض الجوية وطوارىء الخصب والجدب والغلبة والهزيمة . وما من باحث ذي روية يعتسف البت بذلك الانكار ثم يجزم بحصر اليمانية في حدودهم منذ أحاطت بهم تلك الحدود . فمن العسف أن يقال إن اليمانية لم تبرح اليمن قط في العصور التي سبقت البعثة المحمدية ، وليس من العسف في شيء أن يقال انها برحتها على حسب الطوارىء وعوامل الجو والتاريخ ، ولا داعية بعد ذلك لاستغراب التوافق بين اليمانية وأبناء الحجاز وتهامة وسائر الجزيرة في لهجة من اللهجات . فما دمنا نقدر بحكم

البداهة أن اليمانية وجدوا في الجزيرة العربية وراء حدودهم وتكلموا كما يتكلم المقيمون في جوارهم فقد زالت المشكلة ولم تكن هنالك في الحقيقة مشكلة تزال .

وليس أكثر من العسف الذي يلجأ اليه منكرو الوحدة في لغة الجزيرة قبل البعثة المحمدية بجيلين أو ثلاثة أجيال ، وأن اعتساف التاريخ هنا لأهون في رأينا من اعتساف الفروض الأدبية التي لا تقبل التصديق ، فما من قارىء للأدب يسيغ القول بوجود طائفة من الرواة يلفقون أشعار الجاهلية كما وصلت الينا ويفلحون في ذلك التلفيق . اذ معنى ذلك « أولا » أن هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التي بلغها امرؤ القيس والنابغة وطرفة وعنترة وزهير وغيرهم من فحول الشعر في الجاهلية ، ومعنى ذلك « ثانيا » أنهم مقتدرون على توزيع الأساليب على حسب الأمزجة والاعمار والملكات الادبية . فينظمون بمزاج الشاب طرفة ومزاج الشيخ زهير ، ومزاج العربيد الغزل امرىء القيس ، ومزاج الفارس المقدام عنترة بن شداد ، ويتحرون لكل واحد « مناسباته » النفسية والتاريخية ويجمعون له القصائد على نمط واحد في الديوان الذي ينسب اليه ، ومعنى ذلك « ثالثا » أن هذه القدرة توجد عند الرواة ولا توجد عند احد من الشعراء ثم يفرط الرواة في سمعتها وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الأصيل ، وما من ناقد يسيغ هذا الفرض ببرهان فضلا عن اساغته بغير برهان ولغير سبب الا أن يتوهم ويعزز التوهم بالتخمين ، وان تصديق النقائض الجاهلية جميعا لأهون من تصديق هذه النقيضة التي يضيق بها الحس ويضيق بها الخيال .

وشتان — مع هذا — النقائض التي يستدعيها العقل ويبحث عنها اذا تفقدها فلم يجدها ، والنقائض التي يرفضها العقل ولا موجب لها من الواقع ولا من الفكر السليم .

فهذه النقائض التي تحاول أن تشككنا في وحدة اللغة العربية قبل الاسلام برفضها العقل لأن قبولها يكلفه شططا ولا يوجبه بحث جديد بالاقناع ..

فمما يتكلفه العقل اذا تقبلها أن يجزم – كما تقدم – بانقطاع عرب اليمن عن داخل الجزيرة كل الانقطاع ، وأن يجزم ببقاء لغة قحطانية تناظر اللغة القرشية في الجيلين السابقين للبعثة المحمدية ، غير معتمد على أثر في ذاكرة الاحياء ولا في ورق محفوظ ، وأن يلغي كل ما توارثه العرب عن أنسابهم وأسلافهم وهم أمة تقوم مفاخرها وعلاقاتها على الانساب وبقايا الاسلاف ، وأن يفترض وجود الرواة المتآمرين على الانتحال بتلك الملكة التي تنظم أبلغ الشعر ، وتنوعه على حسب الأمزجة والدواعي النفسية والأعمار ، وأن يفهم أن القول المنتحل مقصور على الأسانيد العربية مبطل لمراجعها دون غيرها من مراجع الامم التي صح عندها الكثير مما يخالطه الانتحال والكذب الصريح .

ومن النقائض التي يستدعيها العقل ويستلزمها ويتخذ منها حجة لثبوت الواقع في جملته أن يحدث الاختلاف في الرواية وأن يتعذر فيها الاجماع بين الرواة ، فان العقل لا يصدق الاقاويل التي يتفرق رواتها ويطول العهد عليها ويعول أصحابها على الذاكرة والاسناد ثم تأتي متفقة في الجملة والتفصيل ولا تتعرض مع الزمن وعوامل الاهواء للاضطراب والحذف والاضافة عن قصد أو بفعل النسيان والاهمال .. فاختلاف الرواة اذن سبب من أسباب التصديق ، واتفاقهم يدعو إلى الشك أو التكذيب .

وقد نسمع النقيضين في هذه الحالة فنرفضهما ولا نرفض لباب الخبر ومغزاه . فقد سمعنا أن عمرو بن كلثوم أو الحارث ابن حلزة ألقى قصيدته في وقفة واحدة ، وسمعنا أن زهير بن أبي سلمى كان ينظم قصيدته في الحول وتسمى قصائده من أجل ذلك بالحوليات ؛ وقد نسقط هذه المبالغة كما نسقط تلك ولا يلزم من ذلك أن نسقط الشعر الذي بولغ في وقت نظمه بين أقصى الطرفين .

وربما وقفنا على روايتين نصدقهما الآن عند النظر إلى الحقائق العصرية ونعلم أن تلفيقهما في الزمن الماضي جد عسير ولو أراده الملفقون . فمما يروى عن امرىء القيس انه تعجب من اعراض النساء عنه مع وسامته ومكانته .

وسأل احدى النساء في ذلك فقالت له : نعم ، ولكن لك عرقا كأنه عرق كلب ، ثم نقرأ أخبار وفاته فنعلم منها أنه أصيب قبل موته بقروح تساقط منها جلده وسمى الحلة التي كان يلبسها من أجل ذلك بذات القروح ، ومؤدى الروايتين معا أن الشاعر كان على استعداد للمرض الجلدي لفساد رائحة العرق الذي يفرزه ، وانه لم يزل حتى استشرى به الفساد في رحلته القصية فظهر في تلك القروح ، ويقترن ذلك بنوادره مع النساء المعرضات عنه وغلبة الشاعر علقمة عليه في عيني امرأته ، فلا يسهل على الناظر في جميع هذه الاخبار أن ينسب تلفيقها عمدا إلى راوية واحد ، ولا يسهل عليه أن يتلقاها متفرقة ثم يجردها من الدلالة التي تربط بينها على غير علم من الرواة المتفرقين .

وربما كذب الكثير من أخبار طرفة ولم تكذب قصيدته التي تنم في جملتها على خلائقه التي تنوب عن تلك الأخبار وتغنينا عن محاسبة الرواة على التصديق أو على التكذيب .

وهذه القرائن الادبية هي التي يغفل عنها المستشرقون ولا يفطنون لها لأنهم ينظرون في النصوص والاسناد ولا ينظرون في الادب ولا في روح الكلام ومضامين التعبير ، ومنهم من لا يعرف أدب بلاده ولا يحسن الحكم عليه وهو أدب اللغة التي تلقنها في حجر أمه ، فليست معرفته باللغة العربية كافلة له أن يحكم على آدابها وأساليبها ومضامين الكلام على تعدد الامزجة والاذواق ، ومنهم علامة تصدى لوضع المعجمات الكبرى في اللغة العربية فكتب في مادة « أخذ » انها تأتي بمعنى نام لقوله تعالى « لا تأخذه سنة ولا نوم » .. ومنهم من يترجم « أبا بكر » بأبي العذراء لأنه كان والد الزوجة التي بنى بها النبي عليه السلام وهي عذراء ، ومنهم من يترجم الصعيد بمصر الميمونة أو مصر السعيدة Egypt Felix قياسا على اليمن التي تسمى العربية السعيدة Arabia Felix ومنهم من يقول ان التضحية تدل على عبادة الشمس لأنها من الضحى .. وما هي في وضعها الا كالتغذية من الغداة والتعشية من العشاء والسحور من السحر إلى غير ذلك من توقيت الوجبات والذبائح بميقاتها من الليل والنهار .. ومنهم من يحسب أن القصيدة من القصد فيترجمها بالكلام الذي يراد معناه !

وقد تصدت منهم لهذا البحث الذي نحن فيه عن اللغة قبل نزول القرآن طائفة تقتحم هذه المباحث وهي أجهل بآلاتها من عامة الأميين . فالدكتور سنكلر تسديل Thusdale صاحب كتاب مصادر الاسلام يروي شبهات الناقدين للقرآن الكريم ، ومنها هذه الأبيات :

دنت الساعة وانشق القمــــر عن غزال صاد قلبي ونفــر
أحورٌ قد حرت في أوصافــه ناعس الطرف بعينيه حــور
مر يــوم العيــد في زينتــــه فرمــاني فتعاطى فعقــر
بسهــام مــن لحاظ فاتــــك فتركــني كهشيم المحتظــر

ويتخذ منها قرينة على اقتباس القرآن بعض الآيات من أشعار الجاهليين ، ويضيف الدكتور العلامة إلى هذه الأبيات أبياتا أخرى كقول القائل :

أقبل والعشاق مــن خلفــــه كأنهم من حدب ينسلــون
وجاء يوم العيــد في زينــــة لمثــل ذا فليعمــل العاملــون

قال الدكتور : « من الحكايات المتداولة في عصرنا الحاضر انه لما كانت فاطمة بنت محمد تتلو هذه الآية وهي — اقتربت الساعة وانشق القمر — سمعتها بنت امرىء القيس وقالت لها ان هذه القطعة من قصائد أبي أخذها والدك وادعى أن الله أنزلها عليه ، ومع أنه يمكن أن تكون هذه الرواية كاذبة لأن امرأ القيس توفي سنة ٥٤٠ م ولم يولد محمد الا في سنة الفيل أي سنة ٥٧٠ م فلا ينكر أن هذه الأبيات المذكورة واردة في سورة القمر وفي سورة الضحى وفي سورة الانبياء وفي سورة الصافات ، وغاية الأمر أنه يوجد اختلاف طفيف في اللفظ وليس في المعنى ، فورد في القرآن اقتربت وفي القصيدة دنت .. ومن البين الواضح انه يوجد مناسبة ومشابهة بين هذه الأبيات وبين تلك الآيات الواردة في القرآن . فاذا ثبت أن هذه الأبيات هي لامرىء القيس حقيقة فحينئذ يصعب على المسلم توضيح كيفية ورودها في القرآن لأنه يتعذر على الانسان أن أبيات شاعر وثني كانت مسطورة في اللوح المحفوظ قبل انشاء العالم » ..

ثم قال الدكتور يطالب العلماء المسلمين مع المعترضين والمشتبهين بأن يقيموا الدليل على أن هذه الآيات مأخوذة ومقتبسة من القرآن وانها ليست من نظم امرىء القيس الذي توفي قبل مولد محمد بثلاثين سنة « ولكن يصعب علينا أن نصدق بأن ناظم هذه القصائد بلغ إلى هذا الحد من التهتك والاستخفاف والجرأة في أي زمن من الأزمان بعد تأسيس مملكة الاسلام التي كانت متسعة الاطراف والاكناف حتى يقتبس آيات من القرآن ويستعملها في مثل هذا الموضوع » .

ثم يختم الدكتور كلامه في هذه الشبهات مصطنعا الحذر والحيطة لئلا يثبت نظم هذه الابيات بعد الاسلام فتسقط الشبهة كلها ، فيقول : ان هذه الابيات ليست كل ما يعترض به المعترضون ، لأن ما تقدم من الاسانيد كاف عندهم لتأييد هذه القضية [1] .

وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء الخابطين في أمر اللغة العربية قبل الاسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم — انهم يحسبون أن علماء المسلمين يلقون في بحث تلك الأبيات وصبا واصبا لينكروا نسبتها إلى الجاهلية ولا يلهمهم الذوق الادبي أن نظرة واحدة كافية لليقين بادحاض نسبتها إلى امرىء القيس أو غيره من شعراء الجاهلية .

وهذه النظرة الكافية هي التي تعيي الناقدين المستشرقين وهي أصل وثيق من أصول النقد يعول عليه الناظر في الأدب كل التعويل ، ولا يقدح فيه أن يتسع للجدل وأن يجوز عليه الخطأ في القليل دون الكثير .

كذلك يتسع سبيل الجدل في انكار خبرة الخبير بكتابة الخطوط ، وكذلك يجوز الخطأ في محاكاة كلمة أو بضع كلمات ولا يجوز في السطور والصفحات .

فاذا نظر خبير الخطوط في صفحة من الصفحات فقد تغنيه نظرة في الحكم عليها بالصحة أو التزييف ، وربما جاز عليه أمر الكلمة والكلمات اذا لم يكن أمامه غير هذه الكلمة أو هذه الكلمات للمقابلة والمضاهاة ،

---

(١) من صفحة ٢٥ الى صفحة ٢٩ من الترجمة العربية .

ولكنه اذا حصل على تلك الكلمة مكتوبة عشر مرات أو عشرين مرة لم يكن من اليسير أن ينخدع فيها كما ينخدع في الكلمة المفردة بغير تكرار ، وعلى هذا المنوال يبدو الصحيح والزيف في الشعر الاصيل والشعر المدخول ، وقد يجوز التزوير في الشطرة الواحدة أو البيت الواحد اذا امتنعت المقارنة بينه وبين أمثاله من تلفيق صاحب التزوير ، ولكنه لا يجوز اذا كرر المزور الأبيات ومثلت للناظر الناقد طريقته في تزوير هذه الأبيات المتفرقات ..

تزوير الادب الجاهلي مستحيل

أما المستحيل ، أو شبه المستحيل ، فهو تزوير أدب كامل ينسب إلى الجاهلية ويصطبغ في جملته بالصبغة التي تشمله على تباين القائلين والشعراء ، فاذا جمعنا الشعر المنسوب إلى الجاهلية كله في ديوان واحد فمن المستحيل أو شبيه المستحيل أن نجمع ديوانا يماثله من كلام العباسيين أو كلام الامويين المتأخرين ، واذا قل الفارق بين الشعر المخضرم والشعر الاموي الاول والشعر الجاهلي ، فتلك آية على صحة العلامات التي تميز الشعر الجاهلي ، وعلى صحة القرابة بينه وبين الشعر الذي لم يفترق عنه افتراقا بعيدا بزمانه وثقافة قائليه وبيئاتهم في المعيشة ومناسبات التعبير . فلا يتشابه الشعر الجاهلي والشعر المخضرم ، ان لم يكن بينهما ميزان مشترك ، مع انتمائه إلى عشرات الشعراء الجاهليين والمخضرمين ..

ان الملامح الشخصية التي تميز بين الفرزدق والاخطل وجرير لم يكن لها ثبوت أوضح وأقوى من ثبوت الفوارق التي تميز بين امرىء القيس وعمرو ابن كلثوم وزهير ، فمن يرى أن خلق دواوين الفرزدق والاخطل وجرير في وسع راوية احد ، فقد سهل عليه أن ينسب شعر الجاهليين جميعا إلى راوية أو رواة ، ولكنه يذهب في الحالين مذهبا لا سند له ولا سابقة من مثله في آداب الامم ولا نصيب له من الذوق الادبي غير النبوّ والاستغراب ..

وربما كان « سنكلر تسديل » الذي مثلنا به لجهل المستشرقين باللغة

والذوق الادبي مثلا صارخا كما يقال في التعبير الحديث ، ولكن المثل الصارخ هو الذي يبرز الحقيقة مستعصية على اللبس والمكابرة ويحيط بما دونه من الأمثلة التي تتردد بين الشك واليقين ، وقد أتينا على طائفة منها لا تتخلف عن المثل الصارخ بشوط بعيد .

سوء فهم وسوء نية

والمعهود في جماعة المستشرقين ان الكثيرين منهم يقرنون سوء الفهم بسوء النية ، لأنهم يخدمون سياسة المستعمرين أو سياسة المبشرين المحترفين أو ينظرون في بحوثهم نظرة الغربي الذي ينظر إلى الشرقي نظرة المتعالي عليه في حاضره وماضيه . غير أنهم ما عدا القليل منهم محدودون سطحيون يحومون حول المسائل الحسية ولا يتوسعون في النظر أويتعمقون وراء الظواهر التي يلمسها شاهد الحس لمسا فلا تخرج عنده من حدود ما يثبته أو ينفيه من وقائع العيان والسماع .

فغاية ما يقصدون اليه من أمر اللغة أنهم يلتمسون الاسناد المعتمدة عند أهلها فيأخذونها بالشك والتجريح ، وأنهم يهدمون الدعائم القائمة ليستجيزوا بعد ذلك كل ادعاء يدعونه وكل انكار ينكرونه من أصول اليقين والاطمئنان ، وتشكيكهم في أسانيد اللغة من هذا القبيل لا يعدوه إلى مطلب بعيد من مطالب الاحاطة والاستيعاب ، فهو كالمنازع الذي ينكر على صاحب الدار وثيقته ولا يعدوها إلى أركان الدار وما في الدار ، وتقديرهم لمسألة الشك في وحدة اللغة أقل جدا من قدرها الصحيح في مقدمات الدعوة المحمدية ، اذ هي أصلح هذه المقدمات للدلالة على ما بعدها ، وأصدق في التمهيد لنتائجها من مقدمات السياسة والاحداث الاجتماعية ، لأنها المقدمة الوحيدة التي تمشي في طريق الدعوة المحمدية مساوقة لها مترقبة لأوانها ، ولا تكون الدعوة المحمدية بالنسبة اليها كأنها رد الفعل الذي يقاوم ما قبله ويجري معه مجرى النقيض من النقيض ..

الفخر باللسان العربي

ان الشعور بالعربية والفخر باللسان العربي مقدمة لا بد منها للدعوة التي تواجه العرب بآية البلاغة في القرآن الكريم ، وتروعهم بالمعجزة التي يحكونها ان استطاعوا أو يحسبونها من قدرة الله .

مثل هذا التحدي بالبلاغة لا يحدث في أمة لم تتأصل فيها مفخرة اللسان العربي والوحدة العربية جيلين أو ثلاثة أجيال ، ولا بد — مع ذلك — أن تكون فتحا قريبا أو شعورا فتيا لم يتطاول عليه العهد مئات السنين ولم تذهب روعته بالالفة وفتور النسيان .

ووحدة اللغة القرشية أو الحجازية لا تصبح من مفاخر العرب جميعا كرامة لقريش أو لأرض الحجاز ، ولكنها خليقة أن تسري إلى نفوس العرب من حيث يشعرون بالعروبة الموحدة عالية الرأس غير مستكينة لسلطان من « العجم » على الخصوص .

والكعبة هي الجوار الوحيد الذي يشعر عنده العرب هذا الشعور .

فهم في الشام رعايا دولة الروم ، وهم في الحيرة رعايا دولة الفرس ، وهم في اليمن أتباع للحبشة أو لفارس أو رعايا لسلطان يدينهم بالمذلة كما يدينهم الملوك الغرباء .

ولكنهم عند بيت الله في حرم الله يقدسونه جميعا لأنه لهم جميعا يضمهم اليه كما يضم أوثانهم وأصنامهم وأربابهم ، يلوذون به ، ويأوون اليه ، فكلهم من معبود أو عابد في حمى من الكعبة لأنهم في بيت الله .

وشعورهم هنا بأنهم « عرب » لم يماثله شعور قط في أنحاء الجزيرة العربية ، وقد أوشك أن يشمل شعب اليمن وجمهرة أقوامه على الرغم من سادته وحكامه ، فما كان هؤلاء الحكام لينفسوا على الكعبة مكانها ويقيموا لها نظيرا في أرضهم لو كان شعب اليمن منصرفا عنها غير معتز بها كاعتزاز البادية والصحراء .

وحدة الكعبة

وقد وافق ذلك زوال عرش الحيرة وزوال عرش حمير واستكانة الغساسنة في الشام تارة للروم وتارة للفرس بلا ولاء لهؤلاء ولا لهؤلاء ، ولا بقية من الفخر لهم غير انهم عرب وليسوا من هؤلاء ولا هؤلاء .

وان ابقاء الاسلام على مكانة الكعبة لدليل على هذه المكانة ودليل على حكمة الاسلام في الاحتفاظ بها للعالم الاسلامي في متسعه العميم بعد عالمه الاول في الجزيرة العربية .

ونكاد نقول ان العرب أقبلت على الاسلام أفواجا ، حين صارت الكعبة إلى يديه وأصبحت عاصمة العروبة عاصمة للدين الجديد .

ولو لم تكن للعرب وحدة معروفة بينهم قبل البعثة الاسلامية ، لما اعتزوا بالبيت الجامع لهم هذا الاعتزاز ، وما وحدة أقوام متقاتلين متنازعين مأخوذين بعصبية الاجداد والعشائر ، ان لم تكن وحدة اللغة ووحدة الفخر بلسان مبين يتيهون به على « العجم » أجمعين ؟

قال سترابون : انه وجد الاقوام في بلاد العجم تتفاهم بلغة واحدة ، وهي بلاد تعاقبت عليها سلالات الآريين والطورانيين والساميين ، ويقال في روايات شتى إن الحاميين وصلوا اليها في زمن قديم كما كانوا يصلون اليها ويتجمعون فيها بعد الاسلام بعدة قرون ، ولم تكن عوامل الوحدة اللغوية بينهم أقوى من عواملها في جزيرة العرب ، ولم يمض عليهم من الزمن ممتزجين متقاربين أكثر مما مضى على القبائل العربية التي من عادتها الترحل والانتقال من مرعى إلى مرعى ومن جوار إلى جوار .

وفي زماننا هذا — من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين — لا نرى أحدا يستغرب تخاطب القوم في جزائر البريطان بلغة واحدة ومنهم الايرلنديون والايقوسيون والغاليون ، وفي كل أمة من هذه الامم خطباء مفوهون وشعراء مشهورون يحسنون الانجليزية منظومة ومنثورة وفي مجامع الخطابة والبيان .

ولا نرى أحدا يستغرب ذلك في بلاد الاسبان ومنهم القشتاليون والباسكيون .
ولا نرى في مصر هنا من يستغرب البيان العربي الفصيح اذا نسب إلى فئة من أبناء النوبة وهم يتفاهمون في الاقليم النوبي برطانة لا يفهمها سائر المصريين ، فلا موجب لانكار النظم والكلام بلغة واحدة في جزيرة العرب قبل البعثة المحمدية بمائتي سنة أو أكثر من ذلك مع عجز المنكرين أن يأتوا بشاهد من اللغة الاخرى التي يفترضونها وينكرون توحيد اللغة من أجلها ، ومع توافر الأسباب الموحدة في جزيرة العرب على نحو لم يعهد في غيرها من بلاد الزمن القديم ، ولا تكفي كلمة أو كلمات للحكم بانفصال اللغات ، فان الاقليمين في قطر واحد لا يتفقان في جميع الكلمات .

فمن التاريخ الثابت أن أبناء الجنوب لم ينقطعوا عن الشمال ولم تزل لهم آثار مكتوبة فيها إلى الان . وقد وجدت بعض هذه الآثار بالخط الجنوبي واللغة الشمالية مما يدل على تشابه الكلام والنطق مع بقاء الكتابة بخط الجنوب .

وحدثت في تاريخ الجنوب حوادث متعاقبة نقلت زعامة الشمال إلى الشماليين وجعلت أهل الجنوب تبعا لهم كلما وفدوا على الشمال ، وذاك بعد قيام الدولة النبطية التي ازدهرت في القرن الرابع للميلاد وتغلغل روادها وتجارها في الغرب كما ظهر من بعض نقوشهم في بحر ايجه وفي ايطاليا الجنوبية ..

وقد كان من أسباب ضعف الجنوب وقيام دولة النبط في الشمال اضطراب بلاد اليمن بعد حروب الاسكندر واجتياحه لدولة فارس التي كان لها الاشراف على حكومة اليمن وتجارة الهند والشرق عامة في الاقطار العربية ، وبعد انهيار سد مأرب وانتشار القراصنة في خليج العجم وبحر العرب والبحر الاحمر . فغلبت طريق القوافل التي تمر بالحجاز على جميع الطرق الاخرى. وتقاربت الصلة بين النبط والحجازيين وأخذ الحجازيون بالخطة الوسطى التي تلتقي عندها سبل الجنوب والشمال والشرق والغرب في كل بقعة عربية لم تكن للفرس حماية عليها ، واشتعلت الحروب بين اللخميين على خليج العجم والغساسنة في بادية الشام فانحصر الامان أو كاد على طريق الحجاز ، واحتاج النعمان بن المنذر — صاحب الحيرة — إلى زعماء مضر لحماية تجارته داخل

الجزيرة إلى مكة ، فكان من أسباب يوم نخلة أنه أراد رجلا يجيز قوافله على أهل نجد فتنازعها البراض وعروة الرحال سيد هوازن ، وقال له هذا انه يجيزها على أهل الشيح والقيصوم في أهل نجد وتهامة ، ثم نشبت الحرب فاحتكم الجميع أخيرا إلى سيد من سادات مكة عبد الله بن جدعان ..

وانقضت عدة قرون على اتصال النبط والحجاز ، وعمل الحجازيون على تعظيم شأن الحجاز بين النبطيين فوضعوا في الكعبة تماثيل أرباب يعبدها النبطيون يعد منها الرواة هبل واللات ومناة التي قيل إنها من « المنية » بمعنى « القدر المقدور » معبود النبطيين ، وقولهم خانت منيته وحان قدره ، معنى واحد عند عباد مناة ..

ولا شك أن قصة « عمرو بن لحي » الذي اتفقت الاخبار على أنه نقل الاصنام من بلاد النبط إلى الكعبة انما هي وسيلة من وسائله لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال وايناسهم بها كلما رحلوا إلى الحجاز وتقريب ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام ، وهم جميعا حريصون على تحريم هذه الشقة وحماية روادها من كل قبيل .

وأخطر من ذلك كله أثرا في اعظام شأن الكعبة انها المفخرة القومية والحرم الالهي الذي بقي للعرب بعد سيادة الروم على غسان وتقلب الحبشة والفرس على اليمن وشعور اللخميين — سادة الحيرة — أنفسهم بمناعة الكعبة ومناعة الطريق في أيدي مضر ومن يواليها ، وهوان سلطان هؤلاء اللخميين حتى آل بهم الأمر إلى الدثور ، ثم جاءت وقعة ذي قار التي انتصر فيها العرب على الفرس بعد زوال دولة اللخميين وقضاء الفرس عليها فهزت الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ونمت على نخوة قومية عربية تمكنت من نفوس القبائل جميعا فاشرأبت أعناقها زمنا إلى كل ملاذ تقصر عنه أيدي فارس والروم ..

هؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيما بينهم ، ويفخرون بجنسهم بين سائر الاجناس ، قد حلت اللغة عندهم محل العرش والدولة ومحل البذخ والحضارة ومحل العلم والصناعة ، حتى أصبح الفخر بها علامة من

العلامات التي يتميزون بها في عرف علماء الاجناس البشرية . فاذا وجد الفخر باللغة فتلك علامة العربي بين العناصر عامة ، من أقاربه الساميين إلى الغرباء عنه من الآريين والطورانيين والحاميين ، ثم تتجلى فيهم — دون سائر الامم — تلك الظاهرة الفريدة في تواريخ الأديان والثقافات ، وهي العلو بالبلاغة حتى تكون البلاغة في قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم تحدياً نبوياً ، وتحدياً ربانياً ، من معجزات الاله التي لا تتسامى اليها قدرة البلغاء في أمة اللسن والبيان .

وهذه ظاهرة متجلية للنظر القريب والبعيد لا تحتاج من المستشرقين إلى بحث عن مجهول أو معلوم . فما يجيء الكتاب بهذه المعجزة لأمة خلت من مأثورات البلاغة في شعرها وجوامع كلماتها ، وما هو بجائز عقلا أن يتحداها القرآن وهي لا تعرف من كلامه شيئا يتجه اليه ذلك التحدي وتدور عليه الموازنة في عرف الخبراء بالكلم البليغ . فالقياس المستقيم ان القرآن نزل في قوم لهم بلاغة موروثة يتناقلونها ولا يجهلون أعلامها ، وأما القول بأن بلاغة الجاهلية لم تكن حقيقة واقعة وانما اصطنعها الرواة اصطناعا بعد الاسلام سندا للقرآن ودفعا للشبهات عنه بين المؤمنين به — فليس من القياس المستقيم في مقياس غير مقياس أولئك المستشرقين ، وما كان الجاهلي الكافر ليقبل آية القرآن ولا يشك في فصاحة القرآن ثم يأتي المسلم المؤمن فلا تثبت له فصاحة القرآن الا بكلام يخلقه خلقا لينسب إلى أولئك الجاهليين ، ولقد حدث نقيض ذلك في كثير من الشواهد على صحة اللغة وسلامتها ، فكان القرآن مرجع المصححين فيما يختلفون عليه ويبتغون له سندا لا مراء فيه .

ومهما يبلغ من ضعف الذاكرة بالبادية — وليست هي بالضعيفة — فلن يبلغ من نسيانها أن ينقطع الجد عن أخبار أبيه وأخبار بنيه ، وأن ينسى لغة سمعها في حياته أو سمعها أبوه قبل مولده ، فما كان جيلان أو ثلاثة أجيال بالامتحان العسير لذاكرة قوم لا معول لهم على غير الذاكرة ورواية الاخلاف عن الاسلاف ، وانه ليمتنع أو يستحيل ان ينشأ الاسلام في جيل يجهل اللغة التي تنسب إلى شعراء المعلقات وأقدمهم لم يسبق جيل الاسلام بأكثر من مائة

وخمسين سنة ، وفي هذه السنين خاصة توحد حساب التاريخ وتولاه قلامس العرب وخالفوا فيه تقويم اليهود في حساب النسيء . فكان جنادة بن عوف ناسئا عند ظهور الاسلام ، وسبقه أبوه عوف بن أمية ، وسبقه أبوه أمية ابن قلع ، وسبقه أبوه قلع بن عباد ، وسبقهم آخرون إلى عهد القلمس من بني كنانة ، فهم في تاريخ معلوم متسلسل قبل الاسلام بأربعة أجيال .

ومن فهامة المستشرقين هؤلاء أنهم لا يختارون من تاريخ العرب مطعنا يصيبونه غير اللغة والانساب ، وكلهم يتحذلقون على العلم في شكوكهم الموكلة بالتاريخ العربي أو الاسلامي من أقدم عهوده ، ثم يأتي العلم فيثبت بالكشوف المحسوسة صدق الخرافة المزعومة وكذب العلماء الزاعمين حتى لقد أصبح التخريف حقا لهؤلاء المحققين الذين لا يعرفون من التحقيق الا اتهام كل رواية عربية أو اسلامية بالتخريف .

فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عادا وثمودا وأنكر الكوارث التي أصابتهم بغير حجة الا انه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة ولا يعاب على النفي الجزاف . فما لبثوا طويلا حتى تبين لهم أن عادا Oadita وثمودا Thamudida مذكورتان في تاريخ بطليموس وان اسم عاد مقرون باسم ارم في كتب اليونان ، فهم يكتبونها « أدراميت » Adramitae ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد إرم ذات العماد ... وعثر المنقب موزيل التشكي Musil (١) صاحب كتاب الحجاز الشمالي على آثار هيكل عند « مدين » منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه اشارة إلى قبائل ثمود ..

ومن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر أبرهة ونكبة جيشه واهتمامه بتعطيل الكعبة وبنائه القليس في صنعاء لصرف العرب عن الكعبة اليها . ثم تنكشف النقوش عن اسمه على خرائب سد مأرب ملقبا بالامير الحبشي من قبل « ملك الحبشة وسبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل » .. ويتواتر الخبر عن الجدري الذي تفشي في منتصف القرن

---

(١) Northern Hejaz by Musil

السادس للميلاد فيذكره بروكوب Procobe من وزراء القسطنطينية ، ويروي الرحالة بروس Bruce الذي زار بلاد الحبشة في القرن الثامن عشر أن الاحباش يذكرون في تواريخهم أن أبرهة قصد إلى مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذي يصفونه بصفة الجدري ، ولا يقل عن هذه الاسانيد جميعا سند التاريخ بعام الفيل قبل البعثة المحمدية بجيل واحد ، بل أقل من جيل .

وسد مأرب برمته لم يسلم من التكذيب ، وبناء قريش للكعبة بعد مولد النبي هو أيضا تخريف في زعم هؤلاء المخرفين ولكنه لقي من يدحضه من المؤرخين الاوربيين المعاصرين ، فكتب كرزويل تحقيقه الذي يقول فيه « ان العالم ليوني كايتاني يذهب إلى القول بأن قصة تعمير قريش للكعبة ليست الا خرافة من نسج الخيال ، فاليوم يثبت لنا جليا بعد ما أوردناه من الحقائق من بناء الكعبة على الطراز الحبشي في سنة٦٠٨ ميلادية ووجود الصور المسيحية التي كانت تحلي باطنها وقيام معمار حبشي ببنائها — وهي جميعا حقائق متماسكة آخذ بعضها برقاب بعض — صدق رواية المؤرخين الذين قصوا أخبار هذه العمارة ، وصحة ما ذهبنا اليه وبطلان ما يدعيه كايتاني من اختراع هذه القصة وتلفيقها » (١) .

ونحن نقف بهذه التواريخ عند حدها ولا نجاوز بها مداها ، فحسب الناظر في التاريخ أن يفهم منها أن أخبار العرب عن لغتهم وعن أوائلهم لا تدحض جملة واحدة ، وقد تخالطها المبالغة وتتناقض حولها الغرائب ، بل ربما كان من دواعي ادحاضها أن تبرأ من كل مبالغة وغرابة ، فأما الكذب الذي يعاب على العلم ويلحقه بالخرافة فهو هذا التحقيق الذي هو أهون وأضر من التخريف .

* * *

ان الحوادث الكبرى تستدعي المقارنة بين فهمنا لها بمقاييس العلم ومقاييس

---

(١) المجلة التاريخية المصرية ، عدد اكتوبر سنة ١٩٤٩ .

الفلسفة ومقاييس العقيدة، وتوحي الينا في جميع الاحوال أن مقاييس العقيدة أخلصها إلى أعماقها وأقدرها على التفسير كلما استجاشت العقيدة في الامم قوة الحياة وقوة الضمير .

والاسلام قد استصفى تاريخ العرب قبل دعوته فجمعه كله في الوحدة القومية، وأقام هذه الوحدة على ركنيها اللذين لا قوام لها بغيرهما على تساند واتفاق : وهما ركن اللغة وركن الحرية الدينية ، وكلاهما كان تمهيدا صالحا لظهور الدعوة الاسلامية .

الا أن معجزة الاسلام في جميع مقدماته ونتائجه ان هذه النتائج لم تكن قط منقادة مسخرة لتلك المقدمات ، فان هذه العصبية اللغوية الدينية قد آلت في يد الاسلام إلى دعوة انسانية عالمية لا تنكر شيئا كما تنكر العصبية الجاهلية ، ولا تعرف ربا غير رب العالمين ولا قسطاسا غير قسطاس العمل الصالح يتفاضل به القرشي والحبشي والعربي والاعجمي وعترة النبي ومن ليست بينه وبين النبي لحمة غير لحمة الايمان .

ونعود فنقول ان شأن اليهودية في توضيح هذه الحقائق أعظم من كل شأن لها في الجزيرة العربية . فمما لا نزاع فيه ان أناسا من اليهود قدموا إلى الجزيرة بلغة غير اللغة الحجازية فاحتفظوا بلغة الدين للدين ولم يمض عليهم زمن طويل حتى عم التفاهم بينهم وبين سائر العرب بلسان الحجاز وتهامة ونجد ومن جاورهم من الانباط وعرب الحيرة وبادية الشام ، وهذه حقيقة تاريخية واقعية مسقطة لكل دعوى يتحذلق بها أدعياء العلم من محترفي التبشير والاستشراق .

المسيحية في الجزيرة

أما المسيحية فقد كان لها مدخل إلى الجزيرة العربية غير هذا المدخل . فلم تصل إلى داخل الجزيرة عشيرة كبيرة أو صغيرة من المهاجرين ، ولم يأتها قوم بلسان غير اللسان العربي كما حدث في هجرة اليهود ، ولكنها شاعت

بين قبائل من العرب في جيرة الدول التي سيطرت على أطراف الجزيرة ، وهي بيزنطية وفارس والحبشة ، وكان لمذهب العاهل القائم بالأمر في دولة بيزنطية أثر كبير في توجيه النحل والمذاهب في بلاده وبلاد أعدائه . وقد حدث في مدى قرن واحد ان العواهل كانوا يحرمون المسيحية على رعاياهم ، ثم دانوا بها على مذهب ، وجاء من بعدهم فدان بها على مذهب يعاديه ويرميه بالكفر والزندقة . فمن شاء أقام مع العاهل في بلاده طائعا له أو مداريا لأمره والا ففي بلاد أعدائه من الفرس متسع له يعلن فيه مذهبه وينطلق في تسفيه العاهل وشيعته غير ملوم ولا ممنوع ..

وأفلت إلى الجزيرة العربية آحاد من كل نحلة مسيحية غضب عليها عاهل القسطنطينية ، فهاجرت اليها فئات متفرقة من أتباع آريوس وأوريجين ونسطور ولوسيان الانطاكي وجماعة المشبهين وجماعة القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتين .

وكان نسطور بطرقا للقسطنطينية ينشر مذهبه ببأس الدولة ، ثم عزل ، وتعقبه خصومه بالنفي إلى أرض النوبة ، ومحور مذهبه أنه يفصل بين الناسوت واللاهوت في السيد المسيح ويرفض القول بتأليه العذراء عليها صلوات الله ، وكان الانطاكي يناقض تفسير الكتب الدينية بأسلوب المجازات والرموز ويلتزم اللفظ والنص في فهم معانيها ومسائلها الغيبية . وكان آريوس يقول ان الكلمة هي واسطة الخلق ، ويقول أوريجين انها مخلوق مُحْدث له الشرف على سائر المخلوقات ، وان هذه الكلمة تجسمت في السيد المسيح فظهرت على مثال الانسان ، وآخرون يقولون ان جسد السيد المسيح تشبيه بالجسد وليس بالجسد المادي الذي يحكي جسد الانسان ، وأنه في لاهوته أجل وأرفع من أن يتعذب أو يتضرع ، وصيحته عند الصلب لم تكن « ربي ! ربي ! » بل كانت : قوتي ! قوتي ! كما ورد في بعض النصوص .

* * *

ويعترف جورج سيل مترجم القرآن بما كانت عليه حال المسيحيين في الحجاز من السوء والضلالة ، فيقول في مقدمته للترجمة « من المحقق أن ما

ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الاحوال في صدر المائة الثالثة للميلاد قد اضطر كثيرين من نصاراها أن يلجأوا إلى بلاد العرب طلبا للحرية وكان معظمهم يَعاقبة ، فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة . وأهم القبائل التي تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيىء وقضاعة وأهل نجران والحيرة .. ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد في بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد انه كان للنصارى أساقفة في مواضع جمة منها لتنتظم بهم سياسة الكنائس وقد تقدم ذكر أسقف ظفار وقال بعضهم كانت نجران مقام أسقف وكان لليعاقبة أسقفان .. يدعى أحدهما أسقف العرب باطلاق اللفظ وكان مقامه باكولة وهي الكوفة عند ابن العبري أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبي الفداء ، وثانيهما يدعى أسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة . أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريركهم » .

إلى أن يقول : « أما الكنيسة الشرقية فانها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوي مرتبكة بمناقشات لا تكاد تنقضي وانتقض حبلها بمماحكات الاريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع . على أن الذي ثبت بعد البحث أن كلا من بدعتي النساطرة واليعقوبية كانت بأن تُدعى اختلافا في التعبير عن المعتقد أولى من أن تُدعى اختلافا في المعتقد نفسه ، وبأن تدعى حجة يتعنت بها كل من المتناظرين على الآخر أولى من أن تدعى سببا موجبا لالتئام مجامع عديدة يتردد اليها جماعة القسان والأساقفة ، ويتماحكون ليُعلي كل واحد منهم كلمته ويُحيل القضايا إلى هواه . ثم ان نافذي الكلمة منهم وأصحاب المكانة في قصر الملك كان كل واحد منهم يختص نفرا من قواد الجيش أو من أصحاب الخطط ، يكون له عليهم الولاء ، ويتقوى بهم ، وبذلك صارت المناصب تنال بالرشي والنصفة تباع وتشترى جهارا . أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وارسكينوس في المشاحة على منصب الاسقفية – أي أسقفية روته – ما أفضى إلى احتدام نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيهما.. وكان أكثر ما تنشأ هذه المناقشات عن القياصرة

أنفسهم ولا سيما القيصر قسطنطينوس فانه اذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحي وخرافات العجائز ربك الدين بكثير من المسائل الخلافية .. هذا ما كان عليه حال النصرانية في غير بلاد العرب . أما في بلاد هذه الأمة التي هي موضوع بحثنا فلم تكن خيرا من ذلك .. فكان في نصارى العرب قوم يعتقدون ان النفس تموت مع الجسد وتنشر معه في اليوم الآخر وقيل إن أوريجانوس هو الذي دس فيهم هذا المذهب ، وكم وكم من بدعة انتشرت في جزيرة العرب ، حتى لا نقول نشأت فيها ؟! فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هي الله ويقربون لها أقراصا مضفورة من الرقاق يقال لها كليرس وبها سمي أصحاب هذه البدعة كليريين .. وفضلا عن ذلك فقد اجتمع أيضا في جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الاسماء لجأوا اليها هربا من اضطهاد القياصرة .. » .

* * *

فالحالة التي تمثلت بها النصرانية في جزيرة العرب لم تكن حالة هداية يحيط بها مذهب واحد صالح لتعليم من يتعلمه ، بل كانت شيعا سياسية ومذاهب متنازعة يتوقف العلم بالصالح منها على هدى الناظرين فيها وعلى ما عندهم من البصر الثاقب والبداهة المنزهة التي يعود اليها الفضل فيما تقبله وتأباه ، ولا فضل عليها لمن يعلمها نحلة من تلك النحل تقدح في سائرها ، وترمي الذين لا يتبعونها بالكفر والضلال ..

والقرآن الكريم يصف هذه الحالة بين أهل الكتاب جميعا كما جاء في سورة المائدة عن طوائف اليهود والنصارى .

قال عز من قائل : « ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله اني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ، فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن

مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلــع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفــح ان الله يحب المحسنين ، ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » .

* * *

هذه حالة النصرانية في الحجاز كما عهدها النبي عليه السلام قبل مبعثه، وهي بهذه المثابة من مقدمات رد الفعل لا من مقدمات التمهيد والتحضير ، سواء كان ذلك في أمر النبي أو أمر الحكماء من طلاب الهداية الذين عرفوا باسم المتحنفين أو المتحنثين .

وينبغي الاحتراس من قول القائلين ان أحدا من اولئك المتحنفين أو الحنفاء تنصر أو تهود على مذهب مفصل مستوعب لعقائد النصرانية أو اليهودية ، فكل ما يصح من أخبار الحنفاء أنهم كانوا يعرفون أن الايمان بالاله الواحد أهدى وأحكم من الايمان بالنصب والاوثان ، ونحسب ابن هشام قد صدق الرواية حقا حين قال عن أشهر هؤلاء المتحنفين زيد بن عمرو بن نفيل انه « وقف ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الاوثان والميتة والذبائح التي تذبح على الاوثان ونهى عن قتل المولودة وقال أعبد رب ابراهيم .. وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : « يا معشر قريش ! والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين ابراهيم غيري . ثم يقول اللهم لو اني أعلم أي الوجوه أحب اليك عبدتك ولكني لا أعلم » .

* * *

ومثل ابن نفيل ورقة بن نوفل الذي قصدت اليه السيدة خديجة لتسأله عن جبريل الذي نطق النبي عليه السلام باسمه أمامها ، فإنه كان يطيل القراءة في كتب اليهود والنصارى ويعلم ان عبادة الاصنام ضلالة فيلتمس الهداية في غيرها ولا يستوفي العلم ولا الايمان بأي الديانتين ، وغاية الأمر في نصرانيته

كما قال ابن هشام انه « كان نصرانيا تتبع الكتب وعلم من علم الناس » .. وقد ذكر عنه مع ثلاثة من أصحابه ، أحدهم ابن نفيل ، أنهم كانوا قد انصرفوا من عند صنم يعظمونه في يوم عيد فقال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ما قومكم على شيء .. لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم . ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع . يا قوم ! التمسوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء » .

قال ابن هشام : فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم .

ونحن نعلم من القرآن الكريم أن المشركين كانوا يقولون انهم لم يعبدوا الأرباب والأوثان الا ليقربوهم إلى الله زلفى ، وسنرى في الكلام على الكعبة ان الحقبة التي سبقت بعثة النبي شهدت طوائف من المجتهدين في العبادة منهم طائفة الحمس التي اختصت الحرم وحده بالتقديس وتنسكت بضروب من العبادة لم يتبعها أحد من قبلهم في الجاهلية . فقد كانت الحقبة اذن حقبة حائرة بين العبادات ولم تكن عبادة منها لتستأثر بضمير صاحبها أو تغنيه عن النظر في غيرها ، وقد كانت هذه الحيرة في جانب من جوانبها ، على الأقل ، أثرا من آثار الجامعة القومية أو أثرا من آثار الشوق إلى ديانة جامعة غير ديانة الاصنام المتفرقة ، لكل قبيلة من القبائل صنم تنفرد به ، أو تميزه بين زمرة الأصنام المشتركة ..

فقد كانت القبائل تعبد أصنامها ولم تكن بها حاجة إلى الاشتراك في عبادة واحدة تشملها . فلما وجدت هذه الحاجة لمسوا النقص في كل عبادة من عباداتهم وذهب أصحاب النظر منهم يبحثون عن الدين الصالح ويستلهمون من كلمة « بيت الله » قبسا يقربهم من الله ومن ديانة رب البيت وبانيه ابراهيم عليه السلام ، وقديما نسب الحجازيون أنفسهم إلى اسماعيل بن ابراهيم ونسبهم اليه أصحاب التوراة وعلماء الأنساب .

* * *

وان أصدق وصف للحالة الدينية في عصر البعثة الدينية انها حالة نقص

في كل نحلة وكل عقيدة . فلم نعلم من أخبار الوثنية قط أنها كانت تستوعب المؤمن بها وتمنعه أن يأخذ ببعض الشعائر من هنا وأن يتقبل بعض الآراء من هناك.ولم تكن الحدود بين النحل والعادات الدينية متحجرة مستقرة على قرار لا يأذن بالتبديل والزيادة والتحوير ، ولم يكن المتدين منهم جميعاً يتنبه إلى الابتداع في أمر الدين الا أن يسومه الخروج على قومه والزراية بشرعة الآباء والأسلاف فيومئذ تنقلب المسألة من تصرف في الشعائر والآراء إلى النخوة العصبية والغيرة على الأحساب والأنساب ، وتصطدم البدعة الجديدة اذن بالعصبية القومية كلها في ابان اليقظة والطموح ، وهذه الصدمة لم تفاجىء أبناء الجاهلية قط من نحلة يحكونها أو يستجيبون لها بحكم المسايرة والمجاراة ، وانما فاجأتهم من دعوة الاسلام وحده فتمردوا عليه ذهاباً مع العصبية وتراث الحسب والنسب ولم يتمردوا عليه ذياداً عن ملة شاملة تستأثر منهم بالضمائر والأفكار .

فالوحدة القومية مهدت للاسلام إلى حد محدود ، ويسرت له الأمر بالتوقع والانتظار ثم وقفت دون الغاية حين اصطدمت القومية بالدعوة الجديدة ووجب أن تثوب الدعوة الجديدة إلى قوة أكبر من قوة القومية التي اعتز بها المشركون وخلطوها بما ألفوه من السيادة والمصلحة في التراث القديم ..

فبالوحدة القومية تمهدت طريق الاسلام ، وبقوة الاسلام برزت من الوحدة القومية شريعة الانسان وعبادة رب العالمين .

* * *

ولم نذكر فيما تقدم عاملاً من أشهر عوامل هذه الوحدة القومية ، وهو يوم ذي قار الذي انتصر فيه العرب على الفرس وارتجت له الجزيرة العربية بالفخر والأمل في مطلع العصر الاسلامي وعند ولادة النبي عليه السلام ..

لم نذكره لنضعه كما وضعه أناس في مقدمة العوامل الكبرى ، ولا ننساه هنا لنحسبه منها ولا نقدمه عليها ، فلو لم يكن يوم ذي قار لكانت الوحدة العربية وكانت توابعها التي لحقت بها في أوانها . ولعل وثبة ذي قار جاءت بعد الوحدة

القومية ولم تسبقها ، ولعلها كانت الجولة الثانية بعد الجولة الاولى على نخوم الدولة الفارسية ، فلما تنازع أمراء الحيرة وشواهين الدولة غلبت الدولة على الامارة وقضى الأكاسرة والشواهين على المناذرة والنعامين ، ولما التقت سطوة فارسية ونخوة عربية في الجولة التالية ظفرت القبائل حيث أخفق الأمراء .

كانت ذو قار وليدة النخوة العربية ولم تكن أمها التي ولدتها ، وإنما كانت أم الأمهات في هذه النهضة وحدة اللسان ووحدة الجنان .

النبوّة المحمّدية

أوائل النبوات

ندع الآن هذه الوحدة ريثما نعود اليها في الكلام على الكعبة المكية ، ونرجع بتاريخنا إلى أوائل النبوات لنمضي بها إلى ختامها بالرسالة المحمدية ، فان تاريخ النبوة من أوائلها أصلح المقدمات لبيان فضل النبوة كما بعث بها خاتم الانبياء .

من قديم الزمن وجدت الرغبة في العلم بالغيب واستطلاع المجهول ، ووجدت لذلك علامات كثيرة يتفق عليها النـــاس عامة من قبيل زجر الطير والتفاؤل بالكلام المسموع والمناظر التي تبشر بالخير والنجاح أو تنذر بالشر والخيبة ..

هذه العلامات العامة كانت معرفة شائعة بين الناس لا يختص بها أحدهم دون غيره ، فكل ما عرفه الناس قديماً من علامات التفاؤل أو علامات التشاؤم فهو ميراث الجماعة يتناقلونه على وتيرة واحدة من الآباء إلى الأبناء ..

لكن الرغبة في استطلاع الغيب ومواجهة المجهول لم تكن كلها من هذا القبيل ، ولا سيما المجهول الذي يعرفه الآلهة وحدهم ولا يكشفونه لغير المقربين من عبادهم ، وهم خدام معابدهم والأمناء على مشيئتهم والمترقبون لوحيهم في ليلهم ونهارهم ، فربما عرض للقبيلة عارض جسيم لا تعرف وجهتها فيه ، ولا يدلها على هذه الوجهة طير يراه فرد من أفرادها على صورة من الصور ، ، أو كلمة يسمعها من عابر طريق يستوحي منها البشارة أو الانذار ،

فان شؤون الفرد غير شؤون القبيلة ، وليس لفرد من عامة أفرادها أن يدعي لنفسه القدرة على سؤال أربابها والفهم عنهم في معابدهم ومحاريبهم ، مع وجود الكاهن الذي انقطع لخدمة الأرباب وورث هذه الخدمة من آبائه وأجداده في أكثر الأحوال ، ولا مع وجود الكاهن الذي تربى من صباه في مهد العبادة ليقترب من الأربـــاب المعبودين ويفقه عنهم من اشاراتهم ومضامين وحيهم ما يخفى على سواه ..

ومن قديم الزمن أيضاً وجد الكاهن « المختص » ووجد « الرائي » الملهم الذي يختاره الاله للنطق بلسانه والجهر بوعده ووعيده ، ولم يكن بين عمل الكاهن وعمل الرائي تناقض في مبدأ الأمر ، لأن كلام الرائي كان يحتاج إلى تفسير الكاهن وحل رموزه ونفي « النفاية » من خلطه واضطرابه اذ كان الغالب على الرائين انهم قوم تملكهم حالة « الوجد » أو « الجذبة » أو « الصرع » فيتدفقون بالوعد والوعيد وينذرون الناس بالويل والثبور ، ويقولون كلاماً لا يذكرونه وهم مفيقون ، فيحسب السامعون أن الوثن المعبود يجري هذا الكلام على ألسنتهم للموعظة والتبصرة ، وسمي الصرع من أجل هذا بالمرض الالهي في الطب القديم ..

وكان اليونانيون يسمون الرائي مانتي Mantis ويسمون المعبر عنه أو المفسر لكلامه بروفيت Prophet أي المتكلم بالنيابة عن غيره ، قبل أن تطلق هذه الكلمة على النبي بمعناها المأثور في الأديان الكتابية ، ولكن الفرق بين الرائي والكاهن لم يزل ملحوظاً في الأزمنة المتأخرة كما كان ملحوظاً في الأزمنة الغابرة . فالكهانة وظيفة والرؤية طبيعة ، والكاهن يقصد ما يقوله والرائي يساق اليه ، وقد تشترك الكهانة والرؤية في شخص واحد ويظل العملان مختلفين ، فما يقوله الكاهن قصداً غير ما يقوله وهو « راء » ينطق لسانه بما يعيه وما لا يعيه .

ويصطدم العملان كثيراً بعد ارتقاء الديانة ، وامتزاجها بالفضائل الأخلاقية والفرائض الأدبية ، فان الكهان في هذه الحالة يجمدون أحياناً على المراسم والشعائر ويحافظون على مناصبهم بالتماس الحظوة عند ذوي السلطان في

بلادهم ، ويومئذ يختلف عمل الكاهن المرسوم وعمل الرائي المتطوع ، فيثور الرائي على الكاهن ويتهمه في أمانته وايمانه ، ويحدث بينهما ما حدث بين « أمصيا » كاهن بيت ايل وعاموس الرائي ، اذ يحذره الكاهن على رزقه وحياته فيقول له : « أيها الرائي اذهب .. اهرب إلى أرض يهودا وكل هناك خبزاً وكن هناك نبياً . وأما بيت ايل فلا تعد تتنبأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك وبيت الملك » .

* * *

وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين من أقدم عصورهم كما وجدت في سائر الأمم ، ولم يسموا الرائي عندهم باسم النبي الا بعد اتصالهم بالعرب في شمال الجزيرة .. اذ وجدت كلمة النبوة في اللغة العربية كما قلنا في كتاب أبي الأنبياء « غير مستعارة من معنى آخر ، لأن اللغة العربية غنية جداً بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما اليها من الكلمات التي لا تلتبس في اللسان العربي بمعنى النبوة كما تلتبس في الألسنة الأخرى .. والعبريون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائي والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة في مبدأ الأمر الا معنى الانذار .. وقد أشارت التوراة إلى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكي صادق الذي لقيه الخليل عند بيت المقدس .. وهم يثرون وبلعام وأيوب ، ومنهم من يقال انه ظهر قبل اثنين وأربعين قرناً وهو أيوب » .

ويعزز هذا الرأي ما جاء في موسوعة الكلمات اللاهوتية (١) في التوراة عن عالمين من أكبر علماء التاريخ العبري هما هولشر Holscehr وشميدت Schmidt فانهما يرجحان أن كلمة النبوة مما استفاده العبريون من أهل كنعان بعد ورودهم على فلسطين .

---

(١) A Theological Word Book of the Bible, edited by Richardson.

النبوة والجنون

عرف الأقدمون من العرب والعبريين كلمة النبوة قبل بعثة موسى عليه السلام ، ولكنها لم ترتفع بينهم إلى مكانتها الجليلة التي نعهدها اليوم دفعة واحدة ، وغبر عليهم دهر طويل وهم يخلطون بينها وبين كل علاقة بالغيب ، وينتظرون منها الكذب كما ينتظرون منها الصدق شأنها في ذلك كشأن غيرها من الدلالات على المجهول .

فخلطوا بينها وبين الجنون ، كما خلطوا بينها وبين السحر والكهانة والتنجيم والشعر ، وأضعف من شأن النبوة عند بني اسرائيل خاصة أن الانبياء بينهم كثروا وتعددت نبوءاتهم في وقت واحد فتناقضوا وأشار بعضهم بما ينهى عنه الآخرون ، فأصبح الانبياء عندهم فريقين يتشابهون في المسلك والمظهر ويختلفون بالصدق والكذب ، ولا سبيل إلى معرفة الصادق والكاذب بغير امتحان الحوادث التي تأتي أحياناً بعد نسيان ما تقدم من النبوءات .

وغلبت عليهم في مبدأ الامر عقيدة شائعة بذهول النبي وغيابه عن الوعي في جميع أيامه وفي الايام التي يملكه فيها الوجد الالهي على الخصوص ، كأنهم يرون أن الغيبوبة والاتصال بالغيب شيء واحد ، وكأنهم يحسبون أن الانقطاع عن شواغل الدنيا آية على صدق النبي واقباله بجملته على الله .

ويؤخذ من سفر صمويل الاول أن المتنبئين كانوا يظهرون جماعات جماعات « اذ أرسل شاول رسلا لاخذ داود ، فرأوا جماعة الانبياء يتنبأون ، وشاول واقفاً بينهم رئيساً عليهم ، فهبط روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضاً وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء .. فخلع هو أيضاً ثيابه وتنبأ هو أيضاً أمام صمويل وانطرح عارياً ذلك النهار كله وكل الليل » .

ومن لم تملكه حالة الوجد برياضة النفس على الخشونة والشظف وتعريض جسده لحرارة الشمس وبرد الليل فقد يستعين على اكتسابها بالسماع والجولان وينتقل بهذه الوسيلة إلى النشوة أو الغيبوبة فينطلق لسانه بالنبوءات والرموز ويستخلص منها السامعون تفسيرها بما جرت عليه عادتهم من التأويل والتخريج .

وفي سفر صمويل قبل ذلك « أنه يكون عند مجيئك .. إلى المدينة انك تصادف زمرة من الانبياء نازلين من الاكمة وأمامهم رباب ودف وناي وعود وهم يتنبأون ، فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر » ..

وفي سفر الايام الاول أن داود ورؤساء الجيش « أفرزوا للخدمة بني آساف وهيمان ويدوثون المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج » .

وقد ينعزل بنو الانبياء كأنهم يرشحون أنفسهم للنبوة بعد آبائهم حتى يضيق بهم مكانهم كما جاء في سفر الملوك الثاني : « وقال بنو الانبياء لأليشع هوذا الموضع الذي نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق علينا فلنذهب إلى الاردن ».

وعلى هذه الحيرة التي كانت تنتاب القوم بين النبوءات الكثيرة لم يكن بهم غنى عن النبي الصادق الذي يحذرهم غضب الله ويبلغهم مشيئته ويملي عليهم فرائضه وأحكامه فلم يعرضوا عن الأنبياء كل الاعراض ولم يقبلوا عليهم كل الاقبال ، ورجعوا إلى التجربة في التفرقة بين النبوءات ، وعقيدتهم في ذلك ما جاء في سفر التثنية خطاباً لموسى عليه السلام : « وأقيم لهم نبياً من وسط اخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون ان الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي انا أطالبه . وأما النبي الذي يفرض عليكم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى ، فيموت ذلك النبي وان قلت في قلبك كيف تعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخف منه » .

وعلى هذا انقسم المتنبئون أقساماً ثلاثة : نبي يتكلم باسم الرب ، ونبي يتكلم باسم آلهة أخرى ، ونبي يتكلم باسم رب اسرائيل ولكنه يطغى بما في قلبه على وحي ربه ، فيخلط بين ما يقوله هو بلسانه وبين ما يجريه الله على لسانه ليبلغه إلى قومه .

والمرجع في التفرقة بين الانبياء إلى صدق النبوءة ، فاذا امتد الاجل بالنبي حتى يشهد القوم صدقه في نبوءة بعد أخرى فذاك هو النبي المختار الذي يطاع وتكتب عنه النبوءات ، وربما قضى صدر حياته مهاناً منبوذا بين قومه كما حدث للنبي أرميا الذي أصبح عند كتابة العهد القديم في زمرة كبار الانبياء ، وقد حكى ذلك فقال في الاصحاح العشرين : « قد أقنعتني يا رب فاقتنعت وألححت علي فقبلت .. صرت للضحك كل النهار .. وكلهم قد استهزأ بي . لاني كلما تكلمت صرخت .. ناديت ظلم واغتصاب .. فقلت لا أذكره ولا أنطق بعد باسمه ، فكان في قلبي كنار محرقة محصورة في عظامي .. »

نبوءة الاحلام والرؤى

ومن الحق أن نذكر أن المتنبئين لم يتطلعوا جميعاً إلى مكان النبوة العليا — نبوة القيادة والتعليم والتشريع — ولم تكن نبوة الكثيرين منهم مستمدة من شيء غير الاحلام والرؤى وجيشان الشعور وإلحاحه على صورة واحدة ، يعجز المتنبيء عن صرفها فيجهر بها صارخاً كما فعل أرميا كأنه يستغيث من لاعج في نفسه لا يقوى على كتمانه . ومنهم من كان يرى الرؤى ثم تتكرر في منامه ، فيفضي بها إلى قومه مخافة الكتمان وحذراً من أن يكون هذا الكتمان نكوصاً عن الدعوة وممالأة على العصيان والفساد ، وقل منهم من أبلغ قومه أنه تلقى الوحي من هاتف مسموع أو شخص منظور في حالة اليقظة ، ومن هؤلاء القليلين صمويل الذي « سمع قبل أن ينطفيء سراج الله وهو مضطجع في تابوت الرب صوتاً يدعوه » ويعود إلى دعوته لتوكيدها ، ومنهم دانيال الذي قال ان « الرجل جبريل الذي رآه في الرؤيا ابتدأ يلمسه عند تقدمة الماء ويتكلم معه ويقول له انه خرج ليعلمه الفهم ويرشده » .. ومنهم من كان يستعظم الدعوة حين يحسها في صدره فيقول كما قال أشعيا : « اني هلكت لاني انسان نجس الشفتين أسكن بين شعب نجس الشفتين » إلى أن قال « ان عيني قد رأتا الملك رب الجنود فطار إلى واحد من السرافيم وبيده جمرة

قد أخذها بملقط من على المذبح ومس بها فمي وقال ان هذه قدست شفتيك فانتزعت اثمك وكفرت عن خطيئتك » .

وجاشت نفس أرميا وهو صبي بخواطر النبوة ثم أُلقي اليه أن الرب يقول له : « قبلما صورتك في البطن عرفتك وقبلما خرجت من الرحم قدستك . جعلتك نبياً للشعوب » فاستكثر النبوة على سنه ، وقال في صلاته : آه يا سيد الرب من أين لي أن أعرف الكلام وأنا ولد ، فمد الرب يده ولمس فمه وقال : ها قد جعلت كلامي في فمك ، فانظر ، لقد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبني وتغرس ..

ولقد خشي الانبياء الكبار على الشعب خطر المعجزات والآيات التي يدعيها المتنبئون ، لانهم عرفوا عجائب السحر في مصر وبابل وأشفقوا من فتنتها على عقول السواد فلم ينكروا المعجزة الصادقة ولكنهم حسبوا حساب المعجزة الكاذبة التي يقتدر عليها السحرة واتباع الارباب المحرمين فكان من وصايا سفر التثنية التي تنسب إلى موسى عليه السلام « انه اذا قام في وسطك نبي أو حالم حلماً وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الاعجوبة التي كلمك عنها قائلاً لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم . لان الرب الهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب الهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم .. وذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم يقتل لانه تكلم بالزيغ من وراء الرب .. »

الا أن الحيرة بين أصحاب الآيات والمعجزات لم تبطل في عهد أنبياء بني اسرائيل ولا بعد ظهور السيد المسيح . فكان الرسل يستدلون بالعجائب والآيات العظيمة على صدقهم وكانت العجائب الكثيرة تجري على أيدي الرسل كما جاء في سفر الاعمال ، وكان بولس الرسول يبكت أهل كورنثوس وينعى عليهم سوء معتقدهم بعد العلامات التي صنعها بينهم وصبر عليها بآيات وعجائب وقوات .. وكان إلى جانب هذا يحذر الشعب ممن يقتدرون بقوة الشيطان على الآيات والعجائب الكاذبة « بكل خديعة الاثم في الهالكين » .

وجاء في الرؤيا أن الأنبياء الكذبة يقتدرون على ذلك إلى آخر الزمان ..

« ومن فم النبي الكذاب ثلاثة أرواح نجسة تشبه الضفادع ، فانهم أرواح شياطين صانعة للآيات تخرج على ملوك العالم وعلى كل المسكونة لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم » .

ومنذ عرف اسم النبوة بين قبائل اسرائيل ظهر فيهم مئات وألوف من هؤلاء المتنبئين لم يكن شأن الاكثرين منهم ليزيد على شأن الدراويش الذين يلوذون بأماكن العبادة أو أماكن الزيارة في جميع الاديان ، ولم تكن قبائل البادية ولا أهل القرى ليضيقوا بتكاليف معاشهم لانهم كانوا يقنعون بالقليل من الخبز والادم ، وبالخشن الرخيص من ملابس الشعر والصوف ، وربما استراح اليهم الدهماء لانهم يفرجون عن صدورهم بالاجتراء على كبرائهم وسرواتهم الذين يستسلمون للطمع والكبرياء ، أو ربما حمد لهم الامهات والآباء أنهم يباركون أطفالهم ويشفون مرضاهم ويفوهون أمامهم بأطراف من الاقاويل يفسرون رموزها بما يطيب لهم ولا يشعرون منها برهق شديد ، لانهم لا يحملون مؤونتها اذا أخذت مأخذ الجد والجسامة ، بل ترتفع إلى أيدي ولاة الامر ورؤساء الدين والكهان والحكماء فيوفقون بين نقائضها أو يستخدمونها في تلقين الشعب ما يحبون أن يقولوه بلسان المتنبئين ، ولا يقولونه بألسنتهم ، خوفاً من تبعاته أو من قبيل الحيطة للتراجع اذا حسن لديهم أن يرجعوا عما فرضوه وأثبتوه .

كان خطب المتنبئين من هذا القبيل ميسوراً للقبائل ورؤسائها ، حتى اذا ظهر الانبياء الكبار ظهرت معهم حالة كبرى لا تعرض للقبائل كل يوم ، لانهم لا يظهرون الا اذا احتاجت القبائل إلى تغيير شامل في معيشتها وأخلاقها ومعاملاتها ، وقد يتقاضاهم الامر هجرة إلى بلد ناء أو قتالا مع أهل البلد الذي هم فيه أو مع أهل جواره ، وليست خطتهم مع المتنبئين الصغار بمجدية مع هؤلاء الانبياء الكبار دعاة التغيير الشامل وأصحاب الحق في القيادة المطاعة ، وانما الخطة المجدية هنا هي الانقياد للدعوة التي يخشى على من يعصيها أن يهلك بغضب من الله ولو عم الهلاك قومه أجمعين ، فلا يلبث النبي الكبير أن ينزل في منزلته بين القوم وأن يتولى بينهم مكان القيادة والتشريع والتعليم ، وهو أرفع مكان يسمو اليه عندهم صاحب حق أو صاحب سلطان .

دليل الأمان

ان مهمة النبوة كما قام بها هؤلاء الانبياء الكبار هي أعلى ما ارتفع اليه نظر الاقدمين من بني اسرائيل وغيرهم إلى مقام النبوة ، فقد كانوا يلقون عليهم كل معولهم ، ويطلبون منهم ما لم يطلبوه قط من ذي ثقة أو مقدرة بينهم ، فانتهت هذه المطالب كافة إلى غاية واحدة : وهي أن النبي « دليل أمان » .

يقبلون منه التعليم والهداية ، ولكنهم يقبلون تعليمه وهدايته لانه دليلهم إلى الطريق الامين .

ويستمعون له فيما يبلغهم من أوامر الله ونواهيه ، ولكنهم يستمعون له لانه يزحزحهم عن طريق الغضب والنكال .

ويجب عليه قبل كل شيء أن يعرف الغيب ليعرف الخطر المتوقع عليهم وعلى أعدائهم الذين يبغضونهم ولا يقدرون على قتالهم وربما طلبوا منه أن يكشف لهم الغيب لما هو أهون من ذلك بكثير : وهو تعريفهم بمكان المال الضائع والحيوان الضال .

ولبثت مهمة النبي عندهم معلقة على دلالة الامان في المكان المجهول والزمان المجهول ، ولكنها دلالة الامان من أخطار محسوسة تشبه تلك الاخطار التي تحذرنا منها المراصد ومكاتب التأمين ، فمنها أخطار الخراب وأخطار الوباء وأخطار المصائب في الاقارب والاعزاء .

ولم يبلغ أحد من أنبياء بني اسرائيل مكانة أعلى من مكانة يعقوب الذي ينسب اليه بنو اسرائيل ، أو موسى الذي يدينون له بالشريعة ، ثم صمويل وحزقيال وأرميا من أصحاب النبوءات غير المشترعين .

وكل هؤلاء كانت مهمة النبوءة فيهم مقترنة بالمهمة الاخرى التي لا فكاك منها ، وهي دلالة الامان بالمعنى المتقدم ، أو دلالة الامان كما يترقبها المرء من المراصد ومكاتب التأمين ، وان تكن قائمة على الهداية والتعليم ..

فمن نبوءات يعقوب يفهم انهم كانوا يعولون عليه في رصد النجوم وان كل اسم من أسماء الابناء يشير إلى برج من بروج السماء ، ولا نستقصي الاسماء هنا بل نشير منها إلى مثلين يغنيان عن غيرهما ، وهما مثل يهودا وشمعون ولاوي « فيهودا جرو أسد جثا وربض كأسد ولبوة .. لا يزول قضيب من يهودا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب » .

وهذه اشارة إلى برج الاسد ، وكان عند البابليين برجان أحدهما برج الاسد أرجولا والآخر أرماح أحد نجوم الدب الاكبر ، وأمام الاسد في البروج برج يشير إلى علامة الملك Seonis Rogulus الذي تخضع له الملوك ..

أما مثل شمعون ولاوي « فأخوان ، سيوفهما آلات ظلم في مجلسهما لا تدخل نفسي .. لانهما في غضبهما قتلا انساناً وفي رضاهما عرقبا ثوراً .. »

وهذه اشارة إلى برج التوأمين ، وهو برج اله الحرب « زجال » عند البابليين ويصورون أحدهما وفي يديه خنجر والآخر في يديه سلاح شبيه بالمنجل .. وتشير عرقبة الثور إلى برج الثور الذي يتعقبه التوأمان [١] .

وسواء صحت هذه الاشارات إلى الابراج والنجوم أو كان فيها مظنة للخطأ والتجوز من المفسرين فالنبوءات عن مصائر الابناء بأسمائهم واضحة لا تحتمل التكذيب .

وموسى الكليم طالبه القوم من اسرائيل وغير اسرائيل في مصر بقدرة على السحر أعظم من قدرة السحرة وأصحاب الكهانة والتنجيم ، ثم جاوزوا تكليف الدلالة معه إلى تكليفه أن يهيء لهم الطعام الذي يشتهونه صنوفاً بعد صنوف وهم في وادي التيه ، بمأمن من جند فرعون .

واحتاج القوم إلى علم الغيب في عهد صمويل ليسألوه عن الماشية الضالة ويأجروه على ردها : « خذ معك واحداً من الغلمان وقم اذهب فتش عن

---

(١) The Oracles of Jacob by Eric Barrows.

الآن .. فقال شاول للغلام : فماذا نقدم للرجل ؟ .. لان الخبز قد نفد من أوعيتنا ، وليس من هدية نقدمها لرجل الله . ماذا معنا ؟ » فعاد الغلام يقول : هو ذا يوجد بيدي ربع شاقل فضة » .

ولم يحفل بنو اسرائيل بالنبوءات بعد صمويل كما حفلوا بنبوءات أرميا وحزقيل ، وكلها نبوءات عن أخطار الحوادث التي تصيب قومهم وتصيب غيرهم من الاقوام أصحاب الدول في وادي النيل وبين النهرين ، وكان الإنباء بالغيب على هذا المثال هو المهمة الاولى من مهام كبار الانبياء ، وربما تحدث عن الغيب أنبياء من غير هذه الطبقة ليذكروا مصائر أفراد معلومين إلى جانب مصير الامة كما قال النبي عاموس في بيت ايل : « أنت تقول لا تتنبأ على اسرائيل ولا تتكلم على بيت اسحاق .. ولذلك قال الرب : ان امرأتك تزني في المدينة وبنيك وبناتك يسقطون بالسيف وأرضك تقسم بالحبل ، وأنت تموت في أرض نجسة ، واسرائيل يسبى سبياً عن أرضه ... »

نبوة الهداية

ختمت أيام هذه النبوءات جميعاً في بني اسرائيل قبل البعثة الاسلامية بنحو تسعة قرون ، لم تتغير خلالها نظرة الناس عامة وبني اسرائيل خاصة إلى النبوة الدينية ، ولم يفهموا النبوءات الاولى وما لحق بها غير الفهم الذي عهدوه . فلما ظهرت النبوة الاسلامية لم تكن تكراراً لتلك النبوءات ولا تطوراً فيها بل كانت « تنقية » لها من كل ما لصق بها من بقايا الكهانات والدعوات ، وجاءت بمعنى النبوة كما ينبغي ان تكون ونفت عنها ما ليس ينبغي لها من شوائب الاوهام ، وأولها انها مرصد للحوادث يحمي الطريق أو مكتب للتأمين يقارض القوم على الامان من الاخطار ..

ليست مهمة النبي أن يعلم الغيب « انما الغيب لله » .

* * *

وليس أصدق من نبي يعلم الناس الصدق فيعلمهم مرة بعد مرة أن الغيب من علم الله يكشف عنه ما يشاء لمن يشاء .

« يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو » .

« قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

« قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك ان أتبع الا ما يوحى الي قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون » .

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » .

وآية الآيات مسألة « المعجزات » في الدعوة المحمدية ، فليست المعجزة ممتنعة اذا أرادها خالق الكون كله ، وخالق السنن التي يجريه عليها ، ولكن المعجزة لا تنفع من لا ينفعه عقله ولا تقنع المكابر المبطل اذا أصر على اللجاجة في باطله :

« .. ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سُكِّرَت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

« ويقولون لولا انزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا اني معكم من المنتظرين » .

وقد كان الناس ينظرون إلى حوادث الفلك فيحسبونها من الآيات فينهاهم أن يخلطوا بين حوادث الفلك وحوادث الحياة والموت ، وكذلك كسفت الشمس عند موت ابراهيم ابنه عليه السلام فقال الناس انها كسفت لموته فلم يمهلهم أن يسترسلوا في ظنهم وهو محزون الفؤاد على أحب أبنائه اليه بل أنكر عليهم ذلك الظن ورآها فرصة للتعليم ولم يرها فرصة للدعوة فقال : « انما الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد .. »

وخلصت النبوة كلها لمهمتها الكبرى وهي هداية الضمير الانساني في

تمام وعيه وادراكه ، فانقطع ما بينها وبين كل صناعة أو حيلة كان يستعان بها قديماً على التأثير في العقول من طريق الحس المخدوع .

فليس في النبوة سحر ولا كهانة ولا هي شعر يزخرفه قائله : « انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون » .

* * *

ولا بد للمؤرخ أن يتريث عند كل وصف من أوصاف الانبياء الذين كذب بهم أقوامهم ، لانها جمعت كل ما قيل عن الانبياء بين أولئك الاقوام في العصور المتطاولة . فاذا صح أن جزيرة العرب لم تعرف الانبياء كما عرفهم بنو اسرائيل وان النبوءات كانت وقفاً على بني اسرائيل والمتنبئين غيرهم من الامم ، فمن أين عرفت أحوال الانبياء والمتنبئين التي وصفهم بها المكذبون وقد وردت جميعاً في القرآن الكريم ؟

فمنهم من كان من المعلمين ، ويرميه مكذبوه بالجنون « أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » .

ومنهم من كان يرمى بالسحر أو الجنون : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون » .

ومنهم من كانوا يلحقونه بزمرة الشعراء ويرمونه بالجنون : « انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » .

واذا رموه بالسحر وحده قالوا انه السحر الكاذب ، تمييزا له عن السحر الذي كانوا يعترفون به لكهان معابدهم : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » .

فالتعليم والشعر والسحر والكهانة والغيبوبة — كانت كلها سوابق واقعة موصوفة على ألسنة المكذبين من أقوام الرسل الاقدمين ، ومن وصفها مخترعاً

فهذا هو العجب العجاب ، ومن وصفها مطلعاً فقد استقصاها وزاد عليها ما لم يكن منها ، وهو النبوءة الخالصة لهداية الضمير ..

* * *

ان المتنبئين من الأقدمين لم يفصلوا النبوة بفاصل حاسم ، وان من المتنبئين في بني اسرائيل لمن جمع بين الكهانة واستطلاع الغيب بالاقتراع في المحراب ، وعاش القوم بعد أنبيائهم بأزمنة طوال وهم لا يذكرون لهم رسالة أكبر من رسالة الانذار بالحوادث والاخطار . فاذا كانت النبوة لم تخلص لمهمتها الكبرى قبل محمد عليه السلام فأين هي الكرامة التي تعلو على هذه الكرامة بين مراتب الانبياء ؟

ان الرسالة المحمدية قد علمت الناس أن يعجبوا للنبوءات اذا لم تكن نبوءة للهداية وللانذار والبشارة : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم .. »

وهذه هي النبوّة المحمدية ..

وهذه هي النتيجة التي لم تأت من مقدمتها ، أو هذه هي النتيجة التي لم تأت من جميع مقدماتها .

وهذه هي آية العمل الالهي بين أعمال الناس .

سيد الأنبياء

نشاة الأنبياء

ان وجهة الدعوة النبوية تتبين من نشأة النبي التي أعده الله بها للقيام بتلك الدعوة ، فاذا عرفنا نشأة النبي بين قومه عرفنا رسالته فيهم وعمله في هدايتهم ، وعرفنا وجهة النبوة من وجهة النبي منذ هيأه الله حيث جعله أهلا لرسالته .

ولكن غرائب التاريخ في أمر الانبياء كثيرة ، ومنها هذه الغريبة التي تكاد أن تشمل الانبياء أجمعين ، وهي الجهل التام بتفاصيل نشأتهم بين ذويهم وأقوامهم ، فلا يحصي التاريخ شيئاً من هذه التفاصيل عن نشأة نبي من كبار الانبياء غير محمد عليه السلام ، وكل من عداه من جلة الانبياء فالعلم بأنباء طفولتهم مستفاد من سيرته بعد النبوة أو مأخوذ مأخذ الاستقراء والاستنباط .

وعلى هذا يقل عدد الانبياء الذين نحاول اختيارهم للمقابلة بين نشأتهم ومقاصد دعوتهم ، ولا نستطيع أن نزيد على ثلاثة من كبارهم وهم ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وعلى بعض الانبياء المذكورين في العهد القديم في مناسبات ظهورهم ، وبعض هذه المناسبات يدل على النشأة التي نشأوها والوجهة التي اتجهوا اليها .

خليل الرحمن

مهما يكن من بداءة الخليل ابراهيم فالاقوال متواترة على زعامته لقومه حين هاجر بهم من جنوب العراق إلى شماله ومن شماله الى أرض كنعان ..

كانت مهمته اذن مهمة الزعامة المفروضة على الزعيم ، وكان عليه أن يتولى هدايتهم في شئون دنياهم وشئون دينهم ، وبخاصة حين يخشى الخطر عليهم من غضب الله ونقمته العاجلة من جراء المخالفة والعصيان .

وينبغي أن نذكر هنا أن الوعيد بالغضب الالهي كان خطراً محذوراً قريباً ممن تعبدوا لجميع الارباب في الديانات الاولى ، وان ايمان الناس بالاله في العهود الاولى انما كان على أقواه ايماناً بحماية الرب الذي يعبدونه دون سائر الارباب ، فلم يكن لزعيم مؤمن أن يغرر بقومه وهو يعلم سبيل نجاتهم ، وقدكان ابراهيم الخليل زعيم أسرته الذينهاجروا معه، فكان عليه أن يهديهم الطريق ، وأن يهديهم كل طريق في هجرة الجسد والروح ..

وتتفق الاقوال على أن ابراهيم خالف أباه حين أنكر أرباب القوم ودعا قومه إلى الكفران بالاصنام ، وليس في هذا ما ينفي زعامته على الذين هاجروا معه من أسرته وذوي قرباه وتابعيه ، فربما كان الخلاف على الاقامة والمصانعة وارضاء ذوي السلطان بشيء من المداراة ، فاستكان الشيخ للواقع ونفر الكهل القوي من هذه الاستكانة ،وقد رأينا أن ثورة النفوس كانت تبلغ غاية مداها في سلالة ابراهيم حين يؤمرون بعبادة انسان أو اقامة الصنم مقام الاله الذي في السماء ، فلعل المفترق بين ابراهيم وأبيه انما كان على عبادة جديدة اقحمت على القوم من هذا القبيل ، فنجا المؤمنون بأنفسهم وتبعوا الخليل في طريقه ، وأدى لهم أمانة الزعامة بهذه النبوة وبهذه الرسالة .

فهذه النبوة مهمة زعيم أمين ..

نبوة موسى

ويريد فرويد أن يجعل قيادة موسى عليه السلام من قبيل هذه القيادة ، ولكنه يذهب بعيداً حين يزعم أن موسى كان من المصريين الذين دانوا بعقيدة « اتون » وكفروا بعقيدة آمون ، فلما انقلب الكهنة على الوحدانية التي جاءت بها عقيدة اتون تحول موسى إلى المستضعفين من اليهود في أرض

مصر لينشر بينهم هذه العقيدة في الاله الواحد ، وأضاف اليها ما تلقاه من العلم بدين « يهوا » حين نجا بنفسه إلى صحراء سيناء والتقى في أرض مدين بنبي الصحراء .

ألف فرويد المشهور – وهو اسرائيلي – كتاباً خاصاً عن موسى والوحدانية Moses and Monotheism حاول فيه جهده أن يرجع بأصل موسى عليه السلام إلى الاسرة المصرية المالكة، وقال ان اسمه نفسه يدل على أصله المصري لانه مؤلف من كلمة ابن ومن اللاحقة التي تشبه اللواحق في أسماء رعموسيس وتحتموسيس وأموسيس ، وقصته في الماء على رأي فرويد تقابلها في البابلية قصة سراجون الملك الذي وضعته أمه على حافة النهر وجعلت له مهداً عائماً من السلال .

وقد توسع فرويد في تخمينه فقال ان أدوناي التي أطلقها العبريون على الاله انما هي آتون أو اتوم المصرية ، وان موسى عليه السلام وفق بين عبادتين ليقنع بني اسرائيل بدعوة اخناتون ، وإلى هذا يرجع الاضطراب في النصوص العبرية القديمة .

وليست طريقة فرويد في تخمين التاريخ الا أسلوباً آخر من طريقته في كشف العقد النفسية بالتخمين والتأويل تفسيراً لبواطن المريض ، وقد يكون تفسير هذه البواطن قرينة على صحة الرجم بالغيب في استكشاف الامراض الباطنية ولكن تخميناته في سيرة موسى عليه السلام لا تعتمد على قرينة ولا على ظن مقبول ، وليس لها سند من الاثار المصرية أو من الاثار العبرية ، وفي وسع من يشاء أن يخمن مثلها على هذا المنوال ويأتي بعشرين فرضاً متضارباً من فروض الخيال .

أما سيرة موسى عليه السلام من المراجع الدينية فليس فيها ما يدل على زعامة معترف بها بين بني اسرائيل ، بل فيها انكار هذه الزعامة بالقول الصريح . لانه أراد أن يحكم بين خصمين من العبرانيين فقال له أحدهما : « من جعلك رئيساً وقاضياً علينا ؟ ألعلك تريد قتلي كما قتلت المصري بالامس ؟»

ويرجح برستيد – أحد الثقات في التاريخ المصري القديم – أن موسي قد تخرج من المدارس المصرية الكبرى واطلع على مكنونات علم الكهنة والحكماء، وكانت له منزلة فاضلة عند ولاة الامر لعله كان يستخدمها في الشفاعة لقومه والعلم بنيات الولاة وأوامرهم فيما يمس شئونهم ، فتعود عقلاؤهم أن يلجأوا اليه ويوسطوه ليستشفعوا به فيما ينوبهم من الظلم وسوء الحال ، وأصبح له حق الشورى عليهم كلما ارتبط الامر بمشيئة الدولة ومطالب بني اسرائيل .

وعلى خلاف الصورة التي تخيلها (ميكال انجلو) للرسول العظيم يؤخذ من أوصافه انه كان وديعاً « حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الارض » كما جاء في كتاب العدد من العهد القديم ، وانه كان يشكو حبسة في لسانه فهو يقول عن نفسه كما جاء في سفر الخروج : « لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمت عبدك ، بل أنا ثقيل الفم واللسان ، قال له الرب من صنع للانسان فماً ؟ .. أما أنا هو الرب . فالآن فاذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به .. »

ولم يخطر له بادىء الرأي أن يقود قومه في خروجهم من مصر ، ولم يكن على أهبة للرسالة الدينية قبل هجرته إلى صحراء سيناء ولقائه في أرض مدين للنبي العربي الذي يرجح الاكثرون انه نبي الله شعيب . ولكنه على مختلف الروايات قد تعلم من ذلك النبي علوماً شتى في شئون التبليغ والقيادة ، ولم يزل يتعلم منه كما جاء في كتب العهد القديم بعد عودته إلى مصر وخروجه منها مع قومه ، وكان يثوب اليه كلما ساورته المخاوف وأوشك أن ييأس من هداية القوم أو يضيق ذرعاً بما يسومونه من شهوات الطعام ولدد الخصومة والمنافسة بين العشائر على صغائر الامور ..

فالسنوات التي قضاها إلى جوار نبي مدين كانت هي فترة الاستعداد والرياضة الروحية والتدبر الطويل فيما يمكن عمله لاخراج بني اسرائيل من مصر واحلالهم حيث حل على مقربة من سيناء وكنعان ، ولا بد أنه قد جاس تلك الصحراء ووطىء بقدميه أماكن الرحلة التي لا بد منها قبل المقام على استقرار في ذلك الجوار .

ولا شك انه كان يصغي إلى نبي مدين فيما يبسطه له من أمر عقيدته وعبادته ، وانه حكى ما عرفه من العقائد المصرية وعبادات الهياكل والكهان ، ووازن طويلاً بين هذه العبادات وعبادة البادية كما تلقاها من استاذه المديني ومن هداية الوحي والالهام .

فلما عاد إلى مصر ليخرج بقومه منها كان هذا الخروج حيلة من لا حيلة له في البقاء ، ودعاهم اليه باسم الله فأطاعوه بعد لأي ومجاهدة ، ولم يظهر من سلوكهم معه انهم خفوا إلى الخروج من مصر طواعية بغير دعوة ملحة واقناع عسير .

ولا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصاً على عقيدة دينية ، فانهم أسفوا على ما تعودوه من المراسم الدينية في مصر وودوا لو انهم يعودون اليها أو يعيدونها منسوخة ممسوخة في الصحراء ، وخطر لهم ان الاله الذي دعاهم موسى اليه انما غرر بهم ليهلكهم ويعفي على آثارهم ، واحتاجوا في كل خطوة إلى توكيد الوعد بالامان ورغد العيش بعد أعوام التيه والانتظار .

فمهمة الرسالة الموسوية بين هذه العوارض الطبيعية لا تفهم الا على خطة واحدة ترتسم أمامنا كما كانت لانها هكذا ينبغي أن تكون .

هجر موسى مصر بعد مقتل المصري وتهديد بني اسرائيل ، قبل غيرهم بالابلاغ عنه ، فضلاً عما يخشاه من ملاحقة ولاة الامور .

ولم يخطر له قبل تلك الهجرة أن يقنع قومه بالرحيل من الديار المصرية ، فلما اختبر الصحراء وسمع ما سمع من هداية نبي مدين ولمح بعينيه مطارح الرحلة والقرار بين مدين وسهوب سيناء وكنعان ، وطاب له مقام البادية فلم يستعظم المشقة في دعوة قومه إلى مثل هذا المقام ، تدبر الامر وصحح العزم على التحول بالقوم من مصر إلى أرض كنعان ، وصرف الجهد الذي لا جهد بعده في اقناعهم باسم الاله الذي اختارهم للنجاة ، ولم يزل يحذر عليهم ترك هذا الاله عند أيسر دعوة وبغير اغراء على الترك في أكثر الاحيان .

وهذه أمثلة من تحذيراته تدل على الجهد الجهيد في تحويل قومه من العبادة التي كانوا عليها إلى العبادة التي دعاهم اليها .

فمن هذه التحذيرات في سفر التثنية يقول لهم : « لا تسأل عن آلهتهم قائلاً كيف عبد هؤلاء الامم آلهتهم فأنا أيضاً أفعل هكذا . لا تعمل هكذا للرب الهك لانهم قد عملوا لآلهتهم كل رجس مما يكرهه الرب » .

وحذرهم من الانبياء « فاذا قام في وسطك نبي أو حالم حلماً وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الاعجوبة التي كلمك عنها قائلاً لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبي .. »

وحذرهم من الاخ والابن والزوج والصاحب أن يغويهم قائلاً : « نذهب ونعبد آلهة أخرى .. فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه بل قتلا تقتله » .

وحذرهم من المدن التي يدخلونها أن يدعوهم اللئام إلى عبادة أربابها : فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرسها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف » .

واذا سمع عن أحد من اسرائيل « انه يذهب ويعبد آلهة أخرى ويسجد لها أو للشمس والقمر أو لكل من جند السماء .. فأخرج ذلك الرجل أو تلك المرأة .. وارجمه بالحجارة حتى يموت » .

* * *

ولا تتغير هذه الحقيقة بما يقال — تأييدا أو تفنيدا — لنسبة الكتب الخمسة الاولى من العهد القديم إلى موسى عليه السلام أو نسبة بعضها اليه وبعضها إلى الانبياء من تلاميذه وتابعيه ، فان أنبياء بني اسرائيل جميعا من عهد موسى إلى مبعث عيسى عليه السلام لم تكن لهم من مهمة غير هذه المهمة ، وهي تحذير بني اسرائيل من عبادة اله غير الاله الذي دعاهم اليه صاحب الشعيرة ، وتبكيتهم كلما انحرفوا عن طريقه ، واستبدلوا بملته ملة أرباب آخرين ، وهؤلاء الياس وأرميا وحزقيل من أشد النعاة على بني اسرائيل في هذا الأمر

لم يتجرد أحدهم لرسالة غير هذه الرسالة ، ولم يكن هم الياس الا أن يحذرهم عاقبة « اغاظة الرب » اذ كان عمري قد ملك على اسرائيل .. « « وعمل الشر في عيني الرب وبلغت سيئاته أضعاف سيئات من قبله وسار في جميع طريق يربعام بن نباط وفي خطيئته التي جعل بها اسرائيل تخطىء لاغاظة الرب بأباطيلهم .. وملك آخاب بن عمري فاتخذ ابنة ملك الصيدونيين زوجة وسار وعبد البعل وسجد له وأقام مذبحا له في بيت البعل الذي بناه في السامرة » .

ولم تكن رسالة أرميا الا كهذه الرسالة حيث أنذرهم في بعض مراثيه قائلا : « ... انكم تبخرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها ... الابناء يلتقطون حطبا والآباء يوقدون النار والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكا لملكة السموات ولسكب السكائب لآلهة أخرى كي يغيظوني ... » ويمضي النبي منذرا متوعدا ناعيا على عشائرهم جميعا « انهم أبوا أن يسمعوا كلامي وذهبوا وراء آلهة أخرى ليعبدوها ونقض بيت يهودا أو بيت اسرائيل عهدي الذي قطعته مع آبائهم » .

ومثل هذا الوعيد يسمع من كتاب حزقيل حيث يقول لشيوخ اسرائيل : انني آخذ بيت اسرائيل بقلوبهم لأنهم كلهم قد ارتدوا عني بأصنامهم .. وان كل انسان من بيت اسرائيل أو من الغرباء المغتربين في اسرائيل يرتد عني ويصعد أصنامه إلى قلبه .. ويجيء إلى النبي ليسأله عني فأني أنا الرب أجيبه بنفسي وأجعل وحيي ضد ذلك الانسان وأجعله آية ومثلا واستأصله من وسط شعبي .. فاذا ضل النبي وتكلم كلاما فأنا الرب قد أضللت ذلك النبي وسأمد يدي عليه وأبيده من وسط شعبي اسرائيل ... »

فشعب بني اسرائيل لم يستغن قط عن الاقناع المتتابع للايمان بالاله الواحد الذي دعاهم اليه موسى عليه السلام ، ولم يتحرك من مصر فرارا بعقيدته بل كانت هذه العقيدة هي وسيلة الاقناع لحمله على النجاة بنفسه من عواقب البقاء حيث طاب له البقاء ، ولم يزل في الطريق يحتاج إلى تجديد هذا الاقناع في كل مرحلة ويحن إلى العودة بعد كل نقلة ، وظل كذلك بعد انتهاء أيام التيه وايوائه إلى الفرار عند أرض كنعان .

ونشأة موسى التي عرفناها من مصدرها الذي لا مصدر لنا غيره هي التي تطابق بين هذه النشأة وبين الرسالة الموسوية كما وضحت من الكتب المنسوبة إلى موسى والكتب التي نسبت إلى الانبياء من بعده ، فخلاصة هذه النشأة ان كليم الله تربى في مصر وخرج منها خفية بعد مقتل المصري الذي صرعه موسى انتصارا لرجل من بني اسرائيل ، ولم يكن خاطر الخروج ببني اسرائيل قد خطر له أو لاحد من ذوي الزعامة بين عشائر قومه ، ولكنه عاش في البرية إلى جوار الهداية النبوية في أرض مدين ، وراض نفسه على حياة النسك والاستلهام وهو يفكر في أسرته وقومه ويزور الأرض من حوله ، وتلقى الدعوة الالهية بعد طول التدبر والرياضة فعاد إلى مصر لاقناع قومه بدعوته واقناع السادة الحاكمين بها ان تيسر له ذلك دفعا للخطر عن ملته وعقيدته ، ولم يكن يرضيه فيما بدا من طوالع السيرة وخواتيمها أن يبقى شعب بني اسرائيل حيث استطاب البقاء ، لأنه رأى لهم مصيرا في البادية أكرم من هذا المصير ، ورأى ان العقيدة التي دعاهم اليها كفيلة بحمايتهم من الضياع بين العشائر والملل في أرض البادية أو أرض الحضارة .

وهذا هو حكم التوفيق بين النشأة والرسالة في حياة الكليم عليه السلام .:.

وقد عرضت لنا في خلال هذه السيرة قصة مدين ودعوتها النبوية التي أشارت اليها كتب اسرائيل من بعيد ولم تذكر بشيء من التفصيل في غير القرآن الكريم ، ولكنها جاءت بالنشأة والرسالة متوافقتين ذلك التوافق الذي يغني عن كل دليل على صحة الاصل الاصيل .

قلنا عن مدن القوافل في كتابنا عن أبي الأنبياء ابراهيم الخليل : « أما الأسباب السيئة التي أوجبت قيام الدعوات النبوية في تلك المدن فهي أسباب كثيرة لم تكن توجد يومئذ في غيرها بهذه القوة وبهذه الكثرة ، وأقوى تلك الأسباب مساوىء الاحتكار والاستغلال ، فان تجارة العالم اذا توقفت على مدينة هنا ومدينة هناك صارت في كل مدينة إلى فئة قليلة من السادة وأصحاب اليسار يحتكرون المقايضة والنقل ويبرعون في أساليب المعاكسة ورفع الأسعار وزيادة الضرائب والاجور على الرحال والمطايا وجند الحراسة . ويغتنم هؤلاء

المحتكرون فرصتهم فيخدعون البسطاء ويحتالون على الاصول والشرائع ويأخذون باليمين والشمال من الوارد والصادر والغادي والرائح ولا حيلة للتجار فيهم ولا لناقلي التجارة لأنهم قابضون على الزمام وليس في قدرة دولة أن تحاربهم الا بالاشتباك في الحرب مع دولة أخرى أو بانفاق أموال في الغزو والحصار تزيد على الاموال التي يغتصبها المحتكرون أو يختلسونها . وقد يغلو هؤلاء المحتكرون في الجشع والتحكم حتى يدفعوا الدول إلى المجازفة بالغارة مرة تريحها من مرات .

« كذلك صنع أنتيجون خليفة الاسكندر مع أهم هذه المدن في زمانه وهي سلع — أي البتراء — فجرد عليها حملتين ولم يفلح في غزوها وهاجمها تراجان بقوة كبيرة فدمرها وحول الطريق منها إلى بصرى ، ولم يبق من حولها غير مدن صغار » .

ان آفة مدين هي آفة هذه المدن على مدرجة الطرق ، وان قصتها في القرآن الكريم هي قصة التجارة المحتكرة والعبث بالكيل والميزان وبخس الاسعار والتربص بكل منهج من مناهج الطريق ، وليس أدل على حدوثها من التوافق بين النشأة والرسالة كما جاءت في مواضع مختلفة من السور واحداها سورة الاعراف :

« وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين. وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا.قال أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على

الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا أنكم اذاً لخاسرون. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كان لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسي على قوم كافرين » .

* * *

فرسالة شعيب عليه السلام انما كانت رسالة خلاص من شرور الاحتكار والخداع في البيئة التي تعرضت له بحكم موقعها من طرق التجارة والمرافق المتبادلة بين الأمم ، والاغلب على التقدير أن جزيرة العرب تعرضت لضروب من هذه الآفات وجاءتها الرسالات التي تصلحها في ابان الحاجة اليها ، ومنها رسالات هود وصالح وذي الكفل واخوانهم من الرسل الصالحين الذين لم تقصص علينا أخبارهم في كتاب .

عيسى عليه السلام

وقد اختتم عهد النبوة والرسالة في بني اسرائيل بظهور عيسى عليه السلام ، ولا نعرف عن نشأته في طفولته غير القليل ولا نعرف شيئا عن أيامه من الثانية عشرة إلى الثلاثين مبعثه إلى قومه من بني اسرائيل ، ولكن نشأة العصر كله من وجهة الاستعداد للنبوة معروفة ببعض التفصيل كما أشرنا إلى ذلك في كتاب « حياة المسيح » ..

ففي عصر الميلاد : « ترقبت النفوس بشائر الدعوة الالهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكبا حان موعد طلوعه » وكان موعد الألف الرابعة من تاريخ الخليقة موعدا مقدورا في عرف الأكثرين لظهور المخلص الموعود ..

وكان اليهود في عصر الميلاد فريقين : فريق يترقب الخلاص على يد رسول من ذرية داود عليه السلام ، وفريق آخر وهم السامريون بنوا لهم

هيكلا خاصا في جرزيم .. « ومن المحقق ان هؤلاء السامريين كان لهم شأن في تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود ... وهم ينتسبون إلى يعقوب ويدعون انهم دون غيرهم الجديرون باسم الاسرائيليين .. »

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد المسيح وهم المنذورون لصحبة المخلص المنتظر ، لأن مولده عليه السلام « وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبري » وهو الموعد الذي كان منتظرا لبعثة المسيح الموعود ، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة ، ومنهم من كان يقول ان اليوم الالهي كان ألف سنة كما جاء في المزامير ، وان عمر الدنيا أسبوع الهي ، تنقضي ستة أيام منه في العناء والشقاء ويأتي اليوم السابع بعد ذلك كما يأتي يوم السبت للراحة والسكينة ، فيدوم ألف سنة كاملة هي فترة الخير والسلام قبل فناء العالم، ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية Mellinium ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام ، والذين قدروا ان القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض إلى نهاية الألف السادسة ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود ، ولكنهم كانوا كغيرهم في انتظار رسول من عند الله كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة ، وكانت بداءة الألف الخامسة موعدا منظورا أو منذورا يكثر فيه النذيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحدا منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه ، والمهم في أمر النذيرين بالنسبة إلى السيد المسيح ان النبي يحيى المغتسل — يوحنا المعمدان — كان علما من أعلامهم المعدودين ، وكان السيد المسيح يتعمَّد على يديه ، أو يأخذ العهد عليه ، وان بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين النذيري والناصري وهما في اللفظ العبري متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم انه لم يكن من الناصرة بل يزعم ان الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط في كتب العهد القديم ، ولكن الأرجح في اعتقادنا ان الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التي

فتحها العبريون قديما ، وانما كانت مرقبا صالحا للاستطلاع لان التلول التي تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج باسم مرج بن عمير ... » .

ولا شك أن السيد المسيح قد اتجه بدعوته إلى اسرائيل وابتغى منها الهداية « لخراف بيت اسرائيل الضالة » ولكنه عمم الدعوة بعد تكرارها على القوم ولجاجتهم في الاعراض عنها ، فوجهها إلى كل مستمع لها مقبل عليها ، وقال لهم ان العاملين بالخير ذرية لابراهيم الخليل أقرب وأوفى ممن يدعون النسبة اليه بالسلالة ، لأنهم هم أبناؤه بالروح ، وضرب لهم المثل بوليمة العرس التي لم يحضرها المدعوون اليها ... « فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا إلى طرقات المدينة وأزقتها وهات الي بمن تراه من المساكين ، فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت ولا يزال في الرحبة مكان . قال السيد فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتي ، فلن يذوق عشائي أحد من اولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء » .

ولم تكن رسالة السيد المسيح رسالة تشريع ، لأن الشريعة الدينية كانت في أيدي أحبار الهيكل والشريعة الدنيوية كانت في أيدي أتباع قيصر ، ولكنه عليه السلام قد جاء بالفتح المبين الذي لم يسبقه اليه سابق من المرسلين في تصحيح الشرائع بجملتها ، فقد حطم عنها قيود النصوص ونقلها إلى مقياسها الصحيح وهو مقياس الضمير ، ومن تحطيم النصوص أن يكون أبناء النبي هم أتباعه بالروح وان لم يكونوا من ذريته بالجسد ، ومن تحطيم النصوص كذلك أن يكون الخير في ضمير الانسان لا في مظهر من مظاهر العالم فان ملك ضميره فقد ملك كل شيء ، وان ضيع ضميره لم يغن عنه العالم بما وسع من أناس وحطام .

رسالة النور الجديد

ومما تقدم تنجلي المطابقة بين النشأة والرسالة النبوية عن مقاصد ثلاثة تنطوي في هذه الرسالات :

فمنها الرسالة التي تنطوي في تكاليف الزعامة ، فتأتي الدعوة الالهية لتمكين زعيم القوم من هدايتهم الروحية لأنه مطالب بقيادتهم في جميع الشؤون ..

ومنها الرسالة التي تقوم على منفعة أمة من الأمم لحراستها في وجه الأمم الاخرى ، والمثابرة على تذكيرها بحاجتها إلى تلك الحراسة .

ومنها الرسالة التي ينتظرها القوم تحقيقا لوعود متعاقبة يفسرها كل منهم بما يبتغيه .

ثم قامت بعد هذه الرسالات جميعا رسالة محمد عليه السلام ، فلم يستغرقها مقصد من هذه المقاصد ، اذ لم تكن تكاليف زعامة ولا رسالة مقصورة على منفعة أمة ، ولا تحقيقا لوعود منتظرة يفسرها كل أحد بما يبتغيه ..

رسالة محمد عليه السلام رسالة الهية قوامها أن الله حق وهدى ، وان الايمان به جل وعلا مطلوب لأنه حق وهدى ، هذا الايمان أعلى وأقدس من كل ايمان لأنه بالحق والهدى .

لم تكن زعامة محمد على قومه مناط تلك الرسالة ، لأنه جاء بها بشرا كسائر البشر ، عليه أمانة الهداية ما على الانسان للانسان ، زعيما كان أو غير زعيم ..

ولم تكن منفعة الأمة العربية مناط تلك الرسالة ، لأنها ايمان برب العالمين ، ولا فضل فيها لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي الا بالتقوى ..

ولم تكن مقاضاة لوعود ، لأن الاسلام لم يعد أحدا من العالمين بغير ما وعد به الناس كافة في جميع البقاع والأرضين .

نزاهة العبادة

تعود بعض المصابين بداء الهذر من المؤرخين الغربيين أن يتكلموا عن

نزاهة العبادة ويذكروا النعيم السماوي كما وصفه الاسلام بين النقائض التي تقدح في العبادة النزيهة .

وما من دين من الأديان خلا من مبدأ الثواب والعقاب ، وما من أمة من الأمم في عصر الدعوة الاسلامية كانت صور النعيم السماوي عندها مقصورة على صورة واحدة تؤمن بها ولا تؤمن بغيرها .

فليس الايمان بالثواب والعقاب مخلا بنزاهة الدين ، وما من دين يستحق أن يسمى دينا يسوي بين الصالحين والمفسدين ، أو يحجر على النفوس أن تطمح إلى النعيم الذي ترتضيه .

انما الميزان الحق للعبادة النزيهة هو الصفة التي يتصف بها الاله المعبود ومن أجلها يتعبد له المؤمنون .

وأنزه العبادات — ولا ريب — هي العبادة التي يدين بها المؤمن لله جل وعلا لأنه حق وهدى ، ولأن الايمان به هو الصدق والصواب .

هذه العبادة أنزه من العبادة التي تتجه بها الأمة إلى الله لأنه يقوم لها مقام الحارس في وجه الأمم التي تخشاها ، وهي أنزه من العبادة التي تقوم على تقاضي الوعود أو العبادة التي تقوم على تعلق المرءوس بتكاليف الرئاسة والزعامة .

أمانة انسان يدعو بها اخوانه في الانسانية ، ويرفعها مكانا فوق مكان انها نشأت في جزيرة العرب حيث لا غرابة أن تكون الرسالة أمانة زعامة أو تكون حراسة أمة ذات عصبية أو تكون على الاجمال منفعة محدودة في وجه العالم كما تحد الصحراء ما حولها من البقاع والأرضين .

سيد المرسلين بحق من جاء بالرسالة المنزهة المثلى ، وهذه هي رسالة محمد بشهادة العقل حين يقابل بين القرائن والأمثال ، قبل شهادة المتدين لدينه أو المتعصب لعصبته والمقلد لما يمليه التقليد عليه .

الوساطة

يقوم الاسلام على خمس فرائض : هي الشهادتان ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج إلى بيت الله .

ولا تتوقف فريضة من هذه الفرائض الخمس على وساطة بين الخالق والمخلوق ، فحيثما وجد المسلم ففي وسعه أن يؤدي صلاته و « أينما تكونوا فثم وجه الله » .

واذا وجبت صلاة الجماعة فكل مسلم يحسن الصلاة يجوز له أن يؤم المصلين حيث اجتمعوا ، ولا يشترط اجتماعهم في مسجد معلوم .

ويحتاج المسلمون إلى الحاكم لتوقيت شهر الصيام ، ولكنهم يحتاجون اليه لان وسائل الرصد والتعميم تتيسر له حيث لا تتيسر لكل فرد من أفرادهم ، وشأنه فيما عدا ذلك كشأن جميع المسلمين .

* * *

واذا حج المسلم إلى بيت الله فليس في بيت الله كاهن يقدم له قربانه أو يملي عليه شعائره ، وانما يقرب لنفسه ويقوم بشعائره لنفسه ، فان جهل حكما من أحكام الحج فانما يسأل عنه سؤال المتعلم للمعلم ولا يحتاج في قبوله إلى وساطة من وسيط .

ويصح للمسلم أن يؤدي زكاته كما يصح له أن يسلمها لولي الأمر ليجمعها ويفرقها على مستحقيها ، ولا عمل له فيها يتمم به الفريضة بعد أدائها ..

هذه الفرائض التي تنزهت عن الوساطة بين الانسان وربه ، قد تفهم على أنها مصادفات متكررة على صعوبة التكرار والتوافق بين هذه المصادفات ، لولا أنها متممة مستوفاة بعقيدة التنزيه التي ارتفعت إلى غايتها في الاسلام فالاله في العقيدة الاسلامية منزه عن المشابهة والمقاربة والرمز والمحاكاة . وليس كمثله شيء ، ولا وسيلة لانسان إلى رؤيته من حيث لا يراه الآخرون .

* * *

ومن العسير على بعض المشتغلين بالمقارنة بين الاديان من الغربيين أن يدينوا للاسلام بهذا التقدم الكبير في تنزيه العقيدة وتنزيه الفكرة الالهية ، وأيسر من ذلك عليهم أن يحسبوه ضرورة من ضرورات النشأة في الصحراء، حيث يتعود الحس التجريد ولا يرمز إلى الفخامة بروعة البناء ..

ولكن العقائد الدينية نشأت في صحراء العرب وفي غيرها من الصحاري قبل الاسلام ، ولم تنشأ في احدى هذه الصحاري مجردة من شوائب الوثنية والطوطمية وضروب الكهانات والوساطات بين الانسان وطبقات من الأرباب دون مقام الاله الواحد المنزه عن الاشباه والنظراء ، وكانت الكعبة في مكة ملأى بالاصنام والاوثان يتخذونها كما يقولون لتقربهم إلى الله زلفى ، ولا يحسون انها تناقض طبيعتهم الصحراوية في التدين والعبادة .

ومما فات أصحاب المقارنات أن يذكروه في هذا الصدد ، ان الامم التي تدين لسلطان الهياكل وتقدر على تفخيم البناء انما كانت تثوب إلى هيكل واحد تتبعه سائر الهياكل ويستأثر كاهنه الاعلى بالوساطة بين أتباعه وبين الله ويضفي من قداسته ما يشاء على ما يشاء ، فاذا وجد في الصحراء هيكل متفق عليه بين القبائل فهو أحرى أن يمتاز بالتعظيم والتقديس وأن تحيطه الندرة برعاية خاصة لا تظفر بها المعابد حيث يكثر البناء ..

وأولى من ذلك بالتنبيه أن الاسلام يحارب سيطرة توجد في الهياكل وتوجد في صوامع الصحراء وخيامها وفي التوابيت التي تحمل من مكان إلى مكان كتابوت بني اسرائيل ، لأنها سيطرة الكهان والرهبان التي تسلط الناس على رقاب الناس باسم الدين .. « يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » ... وكل مسلم منهي بحكم دينه أن يقتفي آثار الامم الذين حكموا فيهم رؤساء دينهم و « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ..

* * *

فليس لرئيس الدين في الاسلام من فضيلة غير فضيلة العلم والموعظة

الحسنة وتنبيه الغافلين من ذوي السلطان : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » وتلك هي الفريضة العامة التي يندب لها من يقدر عليها من ورثة الانبياء ، وهم : « .. أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

* * *

هذا موقف للانسان في الكون كله بين يدي الله بغير وساطة ولا فاصل ولا حجاب ، تقدم به الاسلام ولم تمهده له البادية ولا المدينة ، ولكنه نتيجة من تلك النتائج الالهية الكثيرة التي تقصر عنها السوابق والمقدمات .

دين الإنسانية

قلنا في صدر هذه الرسالة اننا نتتبع فيها المقدمات ونقسمها إلى قسمين : مقدمات كافية لتفسير النتائج التي تأتي بعدها ، ومقدمات غير كافية لا تفسر جميع النتائج التي تلحق بها ، وقد تبدو هذه النتائج كأنها منقطعة عن تلك المقدمات أو مستغنية عن تفسيرها .

ونحن نرى في فصول هذه الرسالة تفاوتا بين المقدمات في كفايتها ، ولكنه لم يبلغ قط مبلغ التفاوت في مقدمات دين الانسانية ولا في مقدمات النبوة كما بسطناها في موضعها فلو أن جميع الاديان التي عرفها الناس قبل الدعوة المحمدية وضعت أمام الباحثين يومئذ لما استطاعوا أن يستخلصوا منها ظهور دعوة دينية تخاطب أمم الانسانية جميعها من جزيرة العرب على الخصوص .

ومن الواجب أن نفرق بين دين التوحيد ودين الانسانية في هذه الخصلة ، فقد وجدت أديان تدعو الامم إلى التوحيد قبل دعوة الاسلام ، ولكنها لم تكن تدعوهم لأنها تسوي بينهم وترى لهم حقا واحدا في عبادتهم ، بل كانت تدعوهم إلى عبادة ملك واحد في السماء وملك واحد في الأرض ، كأنها مسألة سيادة لا مسألة مساواة .

وقد جاءت الدعوة إلى التوحيد قبل الاسلام عن طريق توحيد الدولة وفرض السلطان الواحد والعبادة الواحدة حيث تبسط سلطانها ، اذ كانت القبيلة القوية تتغلب على القبائل الصغار فتفرض عليها عبادة ربها وطاعة رئيسها ، ثم يتغلب الشعب القوي على الشعوب الصغيرة فيفرض عليها عبادة

ربه وطاعة أميره ، ثم تمتد حدود الدولة وراء بلادها فتصبح لها الصفة « العالمية » وتحسب الأرض كلها عالما واحدا خاضعا لشريعتها وشرائعها ، فلا يطاع فيه ملك غير ملكها ولا يعبد فيه رب غير ربها ، ولا يأتي هذا التوحيد على سبيل التسوية بين الغالب والمغلوب أو على سبيل الهداية والارشاد ، بل يأتي على سبيل القهر والاخضاع وتجريد المغلوب من سادته في الأرض وسادته في السماء على السواء .

وعلى هذه السنة جرى الرومان على اخضاع اليهود حين فرضوا عليهم عبادة « الامبراطور » في هيكلهم ووضع الشارة الرومانية على محاريبهم ، فلم يفرضوا عليهم ذلك هداية لهم أو اعترافا بمساواتهم ، بل فرضوه لاخضاعهم وتحريم كل معبود في الدولة غير معبودهم ، وهكذا صنع غير الرومان في مصر وبابل والبلاد الفارسية .

إن هذا « التوحيد » وجد قبل الاسلام .

ولكنه أبعد شيء عن دين الانسانية الذي نعنيه ، وهو الدين الذي يتجه إلى جميع الامم بدعوة واحدة على سنة المساواة بين الشعوب والاجناس والتماس الهداية للغالب والمغلوب ، فشتان دعوة إلى توحيد العبادة تقوم على السيادة والاستعباد ، ودعوة إلى توحيد الانسانية في حقوق واحدة وهداية واحدة وايمان واحد باله لا اله غيره يتساوى الناس بين يديه ولا يتفاوتون بغير الفضل والصلاح .

لقد كان الاله عند العبريين يسمى اله اسرائيل ويخص من أبناء ابراهيم ذرية يعقوب بن اسحاق دون سائر العبريين .

قال يوشع : « هكذا قال الرب اله اسرائيل » .

ويقول الشعب في كتاب الايام : « ألست أنت الهنا الذي طردت سكان هذه الأرض أمام شعبك اسرائيل وأعطيتها لنسل ابراهيم خليلك إلى الابد . »

وقال داود في سفر صمويل الاول : « مبارك الرب اله اسرائيل الذي أرسلك هذا اليوم » .

وفي سفر الايام : « خلصنا يا اله خلاصنا ، واجمعنا وانقذنا من الامم لنحمد اسم قدسك ونتفاخر بتسبحتك .. مبارك الرب اله اسرائيل من الازل إلى الابد .. »

ويطمئن بنو اسرائيل إلى هذه الحظوة وان لم يستحقوها بولاء أو ايمان ، ويتنبأ المتنبئون والانبياء فينعون عليهم خيانة الاله كما جاء في سفر أرميا : « ان « آباءكم قد تركوني وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها واياي تركوا وشريعتي لم يحفظوها ، وأنتم أسأتم في عملكم أكثر من آبائكم وها أنتم ذاهبون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير حتى تسمعوا لي .. »

ولكنهم يعودون فيسمعون من صاحب النذير ان الله يريدهم شعبا له : « واجعل عيني عليهم للخير وارجعهم إلى هذه الأرض وأبنيهم ولا أهدمهم وأغرسهم ولا أقلعهم وأعطيهم قلبا ليعرفوني اني أنا الرب فيكونوا لي شعبا ، وأنا أكون لهم الها ، لأنهم يرجعون إليّ بكل قلوبهم .. »

ودامت هذه العقيدة إلى عصر الميلاد فتهيأت العقول لعقيدة أرفع منها وأعدل وأقرب إلى المساواة بين الناس ، فكان يحيي المغتسل (يوحنا المعمدان) يزعزع هذه الثقة بالخلاص لغير سبب من عمل أو ايمان ، ويخاطب القوم كلما تمادوا في اغترارهم بالنسبة إلى ابراهيم الخليل قائلا : ان الله قادر على أن يخلق لابراهيم أبناء من حجارة الأرض ، فان لم يخلصوا في ايمانهم فلا أمل لهم في الخلاص .

وتحولت الدعوة المسيحية من بني اسرائيل إلى الامم على الرغم من بني اسرائيل ، لأن السيد المسيح شبههم بالمدعوين الذين أقيم لهم العرس فتعللوا بالمعاذير وتخلفوا عن اجابة الدعوة : « فقال هذا اني اشتريت حقلا وعلي أن أخرج فأنظره .. وقال ذاك : اني اشتريت ازواجا من البقر وسأمضي لأجربها .. فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا إلى طرقات المدينة وأزقتها وهات الي من تراه من المساكين .. فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت ولا يزال في الرحبة مكان . قال السيد : فادع غيرهم من أعطاف الطريق

وزواياه حتى يمتلىء بيتي فلن يذوق عشائي أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء » .

ولم تتحول الدعوة المسيحية عن بني اسرائيل الا بعد اعراضهم عنها واصرارهم على الاعراض في كل بقعة من بقاع فلسطين توجهت اليها دعوة السيد المسيح وتلاميذه . أما قبل ذلك فكانت الدعوة مقصورة عليهم صريحة في تقديمهم على غيرهم من الامم : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيداء . واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة : ارحمني يا سيد ! يا ابن داود . ابنتي مجنونة جدا ، فلم يجبها بكلمة . فتقدم اليه تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل الا إلى خراف بيت اسرائيل الضالة فأتت وسجدت له قائلة : يا سيد ! أعنّي .. فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب . . فقالت : نعم يا سيد . والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها . حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيم ايمانك . ليكن لك ما تريدين .. »

وتحولت دعوة السيد المسيح ودعوة الرسل المسيحيين إلى الامم غير مقصورة على بني اسرائيل ، ولكنهم كانوا يدعون الامم لأنهم أحق بابراهيم من أبنائه بالجسد ، اذ كان المستجيبون للدعوة أبناء ابراهيم بالروح ..

* * *

واذا روجع تاريخ الأديان قبل ألفي سنة لم يوجد منها دين واحد خرجت دعوته من نطاق القومية فعمت شعوب الانسانية على اختلاف أصولها وأجناسها .

وقد وجدت في الصين شعوب بلغت في ذلك العهد مائة مليون أو تزيد ، ووجدت في الهند شعوب تقاربها في العدد ولم يعرف هؤلاء ولا هؤلاء دعوة الانسانية إلى دين واحد بل كانت الصين تدين بعبادة الاسلاف ، كل بيت له هيكله وعبادته على حدة ، وكانت ديانة الهند ديانة الطبقة الغالبة ينفرد الاحبار بتلاوة أسفارها ويحرمون على الطبقات المحرومة تلاوتها والتعرض

لفهمها وتفسيرها ، ويقول جوتاماريشي في بعض كتب الفيدا : « اذا سمع الفيدا رجل من المنبوذين فمن واجب الملك أن يصب الرصاص المذاب في أذنيه » .

* * *

هذه مقدمات الدعوات الدينية قبل الدعوة المحمدية بعدة قرون ، وتقف المقدمات عند هذه الدعوات ، ثم يستمع الناس إلى دعوة من أعماق جزيرة العرب تنادي بني الانسان جميعا إلى دين واحد واله واحد وحق واحد :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

« وما أرسلناك الا كافة للناس » .

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

ويفصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذي أنزل اليه فيقول في تفسير هذه الآيات : « لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي الا بالتقوى » ..

ولو لم يكن من سعة المسافة بين المقدمات وهذه النتيجة غير هذا الذي أجملناه لكان فيه الكفاية .

لكن العجب منه يتضاعف ويتعاظم حين تأتي النتيجة من أعماق الجزيرة العربية حيث مشتجر الانساب والاعراق على نحو لم يعرف له مثيل بين الامم والعصبيات .

وبقية تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتضاعف المتعاظم ، فان الرسول الذي نادى بهذه المساواة بين الاصول والامم لم يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسبا ونسبا من أبويه الشريفين ، بل كان من شرف الابوة في الذؤابة التي يعترف بها النظراء ويعنو لها المكابرون .. وهذا الرسول هو الذي يتعلم منه الناس انهم صلحوا واستقاموا « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » .

المسئولية الفردية

وللديانة الانسانية مناط واحد هو ضمير كل فرد من أفرادها ، فما لم يكن لهذا الضمير حساب وعليه تبعة فلا ديانة لانسان ولا لجملة الناس .

وفكرة التبعة الفردية ، والمسئولية الفردية ، بسيطة سهلة الفهم .. تتجدد الحاجة إلى تطبيقها كل يوم في كل بيئة اجتماعية فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها وسهولة فهمها وتجدد الحاجة إلى تطبيقها لما خلا المجتمع الانساني قط من مبدأ المسئولية الفردية منذ أوائل عهد الانسان بالاجتماع ..

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت وظلت مهملة من عهد البداوة إلى عهود الحضارة الأولى . لان محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع إلى سلطان واحد . اذ كان الفرد من القبيلة يعتدي على فرد من قبيلة أخرى ويندر أن ترضى قبيلة المعتدي أن تسلمه إلى قبيلة المعتدى عليه ، فان لم تسلمه « تضامنت » في الدفاع عنه ووقعت الحرب بين القبيلتين أو تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتدي لأخذ الثأر منه ، وقد يتوارثون الثأر إلى الابناء والاعقاب.

فيمضي نظام القبيلة على « مسئولية » القبيلة كلها عن جميع أفرادها ، ثم تطورت القبيلة وتألف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامها القديم . فثبتت على عاداتها لصعوبة التغيير في الجماعات التي تقوم على المحافظة ورعاية المأثورات السلفية ، وبلغ من ثبات هذه العادات أن رومة — التي كانت تسمى أم الشرائع — جعلت الاب مسئولا عن الاسرة وأباحت له التصرف في أرواحها وأموالها ، وقد ناظرتها في الشرق شريعة حمورابي فجعلت من حق الرجل الذي تقتل بنته أن يتسلم بنت القاتل ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم انسانا مستقلا بحياته .

وكانت في الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسئولية الفردية ولكنها ترجع بها إلى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الازمنة التي لا تعرف لها بداءة منذ أزل الآزال ، فهو مولود بجرائره وآثامه وكفارة تلك الجرائر

والآثام إلى الاجل المقدور ، وليست تبعاته مرهونة بما يعمله بعد ميلاده بل هي سابقة للميلاد لاحقة به آمادا بعد آماد .

وعلى هذا تعاقبت الاجيال على اهمال المسئولية الفردية في أطوار البداوة وأطوار الحضارة ، ولم تعرف حضارة واحدة دانت بهذه المسؤولية على النحو الذي نفهمه الان أو على نحو قريب منه غير الحضارة المصرية في عصور الاسر القديمة ، ثم طواها الزمن وطوى معها شرائعها فلم يبق منها الا اليسير .

* * *

ولا نطيل في شرح « المسئولية الفردية » كما اعتقدها أناس من المتدينين الكتابيين قبل الاسلام ، ولكننا نشير إلى طرف منها للابانة عما انتهت اليه واستقرت عليه عند ظهور الدعوة الاسلامية .

ففي سفر التكوين أن « نوحا شرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا .. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لاخوته .. »

وفي سفر يشوع أن « عاخان » سرق من غنائم القتال في وقعة عاي فانهزم الاسرائيليون .. « وأجاب عاخان يشوع وقال حقا اني قد أخطأت إلى الرب اله اسرائيل .. رأيت في الغنيمة رداء شنعاريا نفيسا ومئتي مثقال من الفضة ولسان ذهب وزنه خمسون مثقالا فاشتهيتها وأخذتها وها هي مطمورة في الأرض وسط خيمتي والفضة تحتها .. فأخذ يشوع عاخان بن زارح الفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم وادي عجوز .. فقال يشوع : كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم ، فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم ، فرجع الرب عن حمو غضبه » .

وكان القول الشائع إن عصيان آدم جريرة لا يسأل عنها وحده ، بل يسأل عنها كل ولد من ذريته .

* * *

أما الدعوة الاسلامية فالمسئولية الفردية فيها شيء جديد كل الجدة لم يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لاحدى هذه المقدمات ، ومعجزة المعجزات فيها انها قامت بالمسئولية الفردية حيث يصدها كل عرف قائم ويعوقها كل نظام مصطلح عليه في المعاملات والعقوبات .

قامت بها في أعماق الجزيرة العربية ، ولا قانون فيها غير قانون الثأر ولا شريعة لها غير شريعة القبيلة ، وتعلم الناس لأول مرة في تاريخ البداوة والحضارة « أن ليس للانسان الا ما سعى » وأن جيلا من الأجيال لا يؤخذ بجريرة أسلافه ولا يؤخذ خلفاؤه بجريرته : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

و « كل امرىء بما كسب رهين » .

* * *

مرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ما عمله الاسلام وحده مبتدئا بغير سابقة ، بل مبتدئا على الرغم من العوائق والموانع والمناقضات .

ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة من نوافل الرأي على حواشي العقيدة ، ولكنها هي الفتح الاكبر من فتوح الضمير في جميع مراحل التاريخ . اذ لا قوام للخلق ولا للدين بغير التبعة ، ولا معنى بغير التبعة لتكليف ولا حساب .

الكعبة

ونعود بعد هذه المقدمات جميعا إلى حديث الكعبة أو الكعبات التي ثابت جميعا إلى قبلة واحدة : هي قبلة الكعبة المكية خاتمة المطاف.

يدور البحث ما يدور في تاريخ العرب الديني ثم يتصل من احدى نواحيه بتلك البيوت التي تعرف ببيوت الله ، أو البيوت الحرام ، ويقصدها الحجيج في مواسم معلومة تشترك فيها القبائل من سكان البقاع القريبة ، ويتعاهدون على المسالمة في جوارها ..

وكان منها في الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة ، وهي بيت الاقيصر وبيت ذي الخلصة ، وبيت صنعاء ، وبيت رضاء ، وبيت نجران ، وبيت « مكة » أشهرها وأبقاها ، عدا بعض البيوت الصغار التي يعرفها الرحالون ولا تقصد من مكان بعيد .

وكان بيت الاقيصر في مشارف الشام مقصد القبائل من قضاعة ولخم وجذام وعاملة، يحجون اليه ويحلقون رؤوسهم عنده ويلقون قبضة من الدقيق مع كل شعرة ، وهو الذي عناه زهير بن أبي سلمى بقوله : [1]

حلفتُ بأنصاب الاقيصر جاهدا   وما سُحقت فيه المقاديم والقملُ

وبيت « ذي الخلصة » كان يدعى بالكعبة اليمانية في أرض خثعم بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة ، وروى البخاري أن النبي عليه

---

(١) البيت في هذه الرواية في « الاصنام » : ٣٨

الصلاة والسلام أمر بهدمه فهدم ، وان الذين كانوا يسمونه بالكعبة اليمانية كانوا يطلقون اسم الكعبة الشامية على كعبة مكة تمييزا بين الكعبتين ..

وكان بصنعاء بيت رئام يحجون اليه وينحرون عنده فطلب حبران « يقرآن التوراة » من ملك اليمن أن يأمر بهدمه « لأنه شيطان » يفتن الناس فأذن لهما فهدماه .

وفي بيت رضاء يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب حين هدمه بعد الاسلام :

ولقد شددت على رضاء شـــدة فتركتها قفرا بقاع اسحمـــا
وأعان عبد الله في مكروههـــا وبمثل عبـــد الله أغشي المحرما

أما كعبة نجران فقد تعفت آثارها وكشفها الرحالة عبد الله فلبي في رحلته (٢٥ يونيه سنة ١٩٣٦) وهي التي قال فيها الاعشي يخاطب ناقته :

فكعبة نجـــرانَ حـــتمٌ عليـــ ـــك حتى تُناخـــي بأبوابهـــا
نزور يزيـــدَ وعبـــد المسيـــ ـــح وقيسا هم خيرُ أربابهـــا

ويقول بعض المؤرخين — ومنهم أبو المنذر [١] — ان هذا البيت وبيت سنداد بين الكوفة والبصرة ، لم يكونا من بيوت العبادة ، وانما كانا من المزارات الشريفة التي يذكرها السياح .

اسم الكعبة

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في تفسير اسم الكعبة ، فقال بعضهم انها كانت كلمة رومية أطلقت على كعبة مكة لتكعيبها ، وأن بناء من الروم عمل في بنائها وهندستها فاستعير اسمها من اللغة الرومية ، وقيل بل كان بناؤها من الحبشة ومنها — أي من الحبشة — عرف العرب بناء هذه المعابد وأمثالها لأنهم أمة خيام لم تتأصل فيهم صناعة البناء .

(١) انظر « الاصنام » : ٤٥

وهؤلاء المؤرخون وأشباههم يتشبثون بالفرع ويغفلون الاصل بجذوره وجذوعه عليه ..

فمهما يكن من لغة البناء الرومي أو الحبشي فالقبائل العربية لم تبن تلك البيوت لأن البناء من الروم أو من الحبش ، ولم ترد أن تنشيء لها بيتا يسمى « الكعبة » أو المكعبة في اللغة الرومية ، وانما وجدت الحاجة إلى البيت الحرام ثم وجدت الوسيلة إلى تلك الغاية ، ولو لم يبنه أحد من الروم أو الحبش لبناه أحد من فارس أو مصر أو الهند أو غيرها من الامم التي تقدمت في هذه الصناعات . وقد احتاج سليمان بن داود إلى بناء هيكله فاستعان بالصناع العاملين في الحجر والمعدن والحديد من شواطيء البحر الابيض إلى جواره في الشمال ، ولم تقم العقيدة تبعا لاصحاب الصناعة بل كان أصحاب الصناعة جميعا ممن يخالفون تلك العقيدة ويتسمون بسمة الكفر والانكار عند المعتقدين بها .

ولم نعرف أن معبدا سمي بشكله أو كان له شكل غير أشكال الابنية التي يغلب عليها التكعيب مع بعض الاستطالة ، وليست مادة « كعب » بالغريبة عن اللغة العربية لأنهم كانوا يعرفون كعوب الفتاة ويسمون الفتاة كاعبا اذا كعب ثدياها ويلعبون بالكعوب ويتسلحون بالرماح وهي من القصب أو من الاقنية ، فيغلب أن يكون اليونان هم الذين أخذوا من العرب كلمة الكعب وكلمة القناة فتصحفت في لغتهم إلى القانون وهو العصا التي تتخذ للقياس .

البيوت الحرام

ومهما يكن من أصول هذه الاسماء والأشكال ، فالأمر الذي لا يجوز فيه الشك أن « البيوت الحرام » وجدت في الجزيرة العربية لأنها كانت لازمة ولم توجد فيها العبادات والمعبودات لأن أحدا اخترعها لتعبد وتقصد ، وانما كانت العبادات والمعبودات مرعية موروثة ثم أقيم لها المكان الذي تعبد فيه وتقصد من أجله .

وقد اجتمع لبيت « مكة » من البيوت الحرام ما لم يجتمع لبيت آخر في أنحاء الجزيرة ، لأن مكة كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال وبين الشرق والغرب ، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطىء الجنوب ، وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل في باديتها أو في رحلاتها . فليست في مكة دولة كدولة التبابعة في اليمن أو المناذرة في الحيرة أو الغساسنة في الشام ، وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو دولة فارس أو دولة الحبشة وراء الامارات العربية المتفرقة على الشواطىء أو بين بوادي الصحراء . فهي — أي مكة — مثابة عبادة وتجارة وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش فيها ولا يبالي من عداه ، وهي ان لم تكن كذلك من أقدم أزمانها فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق الذين روى عنهم الرواة انهم كانوا يعشرون كل ما دخلها من تجارة ..

* * *

كانت « مكة » عربية لجميع العرب ولم تكن كسروية ولا قيصرية ولا تبعية ولا نجاشية ، كما عساها كانت تكون لو استقرت على مشارف الشام أو عند تخوم الجنوب ، ولهذا تمت لها الخصائص التي كانت لازمة لمن يقصدونها ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والاكراه .

ولقد حاولت الدول الكبرى أن تستغني عنها بتحويل الطريق منها أو هدم كعبتها فلم تفلح وبقيت لها مكانتها وقداستها كما كانت من أقدم عهودها وهي قديمة سابقة لكتابة أسفار العهد القديم في التوراة ، فانها هي « ميشة » المشار اليها في سفر التكوين وهي « ميشا » التي يقول الرحالة « برتون » انها كانت بيتا مقصودا لعبادة أناس من أبناء الهند ، ويقول الرحالون الشرقيون انها كانت كذلك بيتا مقصودا للصابئين الذين أقاموا في جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون ، ونرجح نحن ترجيح الظن أن سكان شواطىء

الهند وخليج فارس وجدوا فيها سماحة لعبادة أربابهم العلوية وافلاك السماء كلما ترددوا عليها في تجارتهم من أقدم عهود التاريخ ، فكان حكمهم فيها حكم القبائل البادية التي وجدت فيها محلا لعبادة أوثانها في مواسم الحج والاحرام .

ومن المحاولات التاريخية التي لا شك في بواعثها محاولة عام الفيل ومحاولة عثمان بن الحويرث أن يدخل مكة في حوزة الروم ، وأن تستولي دولة الروم من ثم على تجارة المشرق كلها من شواطىء اليمن إلى مشارف الشام ...

* * *

فالحبشة كانت تخشى نفوذ الفرس في اليمن وكانت تلقى من دولة الروم معونة على مقاتلة التبابعة اليمانيين ، وكانت تحذر دولة الروم لأنها كانت تملك الوصول إلى بلادها من وادي النيل وتملك طريق البحر الاحمر في نهايته القصوى ، فلما خرجت جيوش الحبشة بقيادة أبرهة وأرياط كانت دولة الروم من وراء هذه الغزوة وانتهت بهزيمة ذي نواس ملك اليمن فاقتحم البحر بجواده ليغرق فيه ، وسفر ابرهة عن غايته بعد التمكن من اليمن وشواطئها ، فبنى « القليس » في صنعاء ، ويجوز أن تكون مصحفة من كلمة اكليس اليونانية بمعنى المعبد والمجمع أو من كلمة الكلس بمعنى التكليس أو الطلاء . فلما تم بناؤها أمر بتحويل الحج اليها وكتب إلى النجاشي يقول : « إنه ليس بمنته حتى يصرف اليها العرب أجمعين » .. فقيل فيما قيل إن أناسا من العرب كانوا يذهبون إلى هذه الكعبة الجديدة ليدنسوها وأن سيدا من سادات تميم فعل ذلك وتحدى أربابها أن تصيبه بأذاها ان كانت لها قدرة الارباب ، فكان من جراء ذلك هجوم أبرهة على مكة في عام الفيل المشهور .

هذه محاولة لا شك في الغرض منها وهو الاستيلاء على طريق الحجاز من اليمن إلى الشام .

والمحاولة الاخرى كانت من محاولات السياسة الخفية لتمليك سيد من

العرب على مكة يدين بالولاء لدولة الروم ، فارتضى قيصر لملك مكة رجلا من ساداتها هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وكتب له رسائل يبلغها قومه فعاد بها وجمع القوم اليه يرغبهم في حسن الجزاء من قيصر ، وينذرهم بسوء العاقبة في الشام اذا هم عصوه ، وأهون ما هنالك أن يغلق أبوابها في وجوههم وهم يذهبون اليها ويعودون منها كل عام . قال : « يا قوم ! ان قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه ، وقد ملكني عليكم وانا ابن عمكم وأحدكم ، وانما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكة [1] من السمن والأوهاب ، فأجمع ذلك ثم أذهب اليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه » .

* * *

وهذه المحاولة السياسية غرضها كما هو ظـــاهر كغرض تلك المحاولة العسكرية ، وكلتاهما تثبت شيئا واحدا وهو قيام كعبة الحجاز على كره من ذوي السلطان في الجنوب وان دولة الروم لم تكن تريدها باختيارها وانما كانت مشغولة بها معنية بتحويلها إلى حوزتها فلم تستطع أن تنال منها منالها ، واستطاعت « الكعبة » أن تحفظ مكانها على الرغم من خلو مكة من العروش الغالبة على أنحاء الجزيرة بجميع أطرافها ، بل استطاعت ذلك لخلوها من تلك العروش وقيام الأمر فيها على التعميم دون التخصيص وعلى تمثيل جملة العرب بمأثوراتهم ومعبوداتهم دون أن يسخرهم المسخرون ، أو يستبد بهم فريق يسخرهم تسخير السادة للاتباع المكرهين على الطاعة وبذل الاتاوة .

قداسة الكعبة

والأساس المهم الذي قامت عليه مكانة البيت المكي أن البيت بجملته كان هو المقصود بالقداسة غير منظور إلى الاوثان والاصنام التي اشتمل عليها ،

(١) العكة : وعاء من جلد مستدير .

وربما اشتمل على الوثن المعظم تقدسه بعض القبائل وتزدريه قبائل أخرى فلا يغض ذلك من مكانة « البيت » عند المعظمين والمزدرين ، واختلفت الشعائر والدعاوي التي يدعيها كل فريق لصنمه ووثنه ولم تختلف شعائر البيت كما يتولاها سدنته المقيمون إلى جواره والمتكفلون بخدمته ، فكانت قداسة البيت هي القداسة التي لا خلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية ، وجاز عندهم ، من ثم ، أن يحكموا بالضلالة على اتباع صنم معلوم ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير ..

وعلى هذا كان يتفق في موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناس من العرب يأخذون بأشتات متفرقة من المجوسية واليهودية والمسيحية وعبادات الامم المختلفة ، ولا يجتمع منها دين واحد يؤمن به متعبدان على نحو واحد ، وما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف بين عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها كالصلاة والصوم والزكاة والطهارة ، ومناطها كلها انها حسنة عند رب البيت أو عند الله . وجاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن الصامت أن أبا ذر قال له : « يا ابن أخي ! صليت مرتين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم . فسأله : فأين كنت توجه ؟ قال : حيث وجهني الله ! » .

وجاء في الاغاني أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يستقبل الكعبة في صلاته ويقول :

لبيك حقا حقا تعبدا ورقا

* * *

عذتُ بما عاذ به ابراهيم مُستقبلَ الكعبة وهو قائم
يقول اني لكَ عان راغم مهما تُجشِّمني فاني جاشم

وذكر صاحب كتاب حجة الله البالغة انهم كانوا يصومون يوم عاشوراء ، وكان صيامهم من الفجر إلى مغرب الشمس ، وكانت لهم بقايا من العبادات التي عرفت بين أهل الكتاب أو لم تكن معروفة على وتيرة واحدة بين أتباع دين من الاديان ، وانما يرغبهم فيها انها أعمال ترضي « الاله » وانهم يعرفون

الها أعظم من سائر الالهة يتوجهون اليه بالدعاء ، وهي حقيقة لا يعتورها الشك لأنهم كانوا يسمون « عبد الله » ويلبون فيقولون اللهم لبيك ، ولا يدعون أحدا من الاصنام « رب البيت » فاذا قالوا « رب البيت » أرادوا به ربا فوق جميع الارباب .

اننا في هذه الرسالة نذكر المقدمات ونقسمها كما قلنا في مفتتحها إلى قسمين : قسم ينقطع دون النتائج التي جاءت بعده ، وقسم يتصل بنتائجه ويسير من مبدأه إلى غايته في مجرى الحوادث ، وليس بين هذه المقدمات المتصلة ما هو أحكم اتصالا بين أوائله وخواتيمه من قيام البيت في مكة وتوثيقه قبائل العرب على حرمة واحدة .

وقد سميت الكعبة « الحمساء » وانتسب اليها « الحُمس » وهم طوائف متشددون في فرائضهم وخلائقهم يدينون أنفسهم بالتقشف والزهد في مواسم العبادة ، فيقضون زمنا في العراء لا يحول بينهم وبين السماء حائل من سقف أو ستار ، ويحرمون على أنفسهم في الأشهر الحرام أكل الإقط والسمن ، ولبس النسيج من الوبر والشعر ، ولا يجيزون لغيرهم أن يطوف بالبيت في غير الثياب الاحمسية ويجعلون المطاف بالليل للنساء اذا لم تكن عليهم هذه الثياب .

* * *

ومن رعاية جوار البيت حلف الفضول الذي تعاهد عليه أناس من علية قريش : لينصُرن كل مظلوم ، ويردُّن الحق إلى كل مغصوب ، وليكونن يدا واحدا في قتال كل غاصب يلج في ظلمه وغصبه اعتزازا بماله أو بعصبته وحزبه ، وما من مقدمة للدعوة المحمدية كانت ألزم ولا أكرم من هذه المقدمة تيسيرا لاجتماع الكلمة على الخير وتوحيد أبناء الجزيرة العربية في دعوة واحدة ليست لذي سلطان من ملوك اليمن أو خليج فارس أو مشارف الشام الذين يدينون بالولاء للأكاسرة وللقياصرة وللنجاشيين ، بل هي دعوة الله يتلقاها أصحاب التيجان والعروش كما يتلقاها عامة الخلق من عباد الله .

أسرة النبي

منذ ثبتت للبيت الحرام تلك المكانة العالية بين العرب كافة ، وجبت له أمانة الخدمة بما له من حق محفوظ وشرف ملحوظ ، ووجب لخدامه السمت الذي يجمل بهذا المقام وهو فوق مقام الرئاسة الدنيوية وعلى مثابة من مقام العبادة والتقديس .

ولم يقم بهذه الامانة أحد كما قام بها أجداد النبي عليه السلام من بني هاشم ، فقد حفظوا حقها وعرفوا سمتها بل طبعوا عليه فطرة بغير كلفة ، وبدا منهم الايمان بها في مآزق الشدة التي يمتحن فيها الايمان بحب النفس وحب البنين ، فيغلب الايمان على حب المرء لنفسه وحبه لبنيه ..

وقد تنافس بنو هاشم وبنو أمية على هذا الشرف فأسفرت المنافسة بينهما عن فارق في الطباع ملحوظ الأثر في خلائق الاسرتين من أيام الجاهلية إلى ما بعد الاسلام بعدة قرون ، ومهما تجد من ندين متناظرين في هاشم وأمية الا وجدت هذا الفارق على نحو من الانحاء .

كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ووسامة ، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء ، وينعقد الاجماع أو ما يشبه الاجماع على أخبار الجاهلية التي تنم على هذه الخصال في الاسرتين وبقي الكثير منها إلى ما بعد قيام الدولة الاموية فلم يفندوه .

ومن هذه الأخبار أخبار المنافرات المتتالية تجمعها منافرة حرب وعبد المطلب إلى نفيل جد عمر بن الخطاب ، اذ يقضي لعبد المطلب ويخاطب حربا قائلا : « أتنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة وأوسم منك

وسامة وأقل منك لامة وأكثر منك ولدا وأجزل منك صفدا وأطول منك مذودا :

أبوك معاهــرٌ وأبوه عـــفٌ ... وذادَ الفيل عن بلد حــرام

والنسابون يؤيدون ما تواترت به هذه المنافرات ، فيقول دغفل النسابة لمعاوية وقد سأله عن جده أمية : « رأيته رجلا قصيرا ضريرا يقود عبده ذكوان » .. قال معاوية « ذلك ابنه أبو عمرو ؟ » قال دغفل : « ذلك شيء تقولونه أنتم أما قريش فلم تكن تعرف الا انه عبده » .

ويقول الكلبي في أبناء عبد المطلب : « كانوا اذا طافوا بالبيت يأخذون البصر » ..

قلنا في كتابنا عن ذي النورين عثمان بن عفان : « وقد يتردد المؤرخ في قبول بعض الروايات المتقدمة على علاتها ، ولكنه لا يحتاج إلى المشكوك فيه من تلك الروايات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الاسلام وبعد الاسلام ، ففي حلف الفضول قام بنو هاشم بالامر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم ، وتخلى عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه .. وخلاصة قصته أن رجلا يمانيا قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها رجل فلواه بحقه ، وأبى أن يرد عليه بضاعته ، فقام في الحجر ، أو في مكان على شرف ، وصاح يستغيث ، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بني هاشم وأحلافهم الا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد والا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وعمدوا إلى ماء من زمزم فجعلوه في جفنة وبعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه وشربوه . وقد أبى الامويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف ، فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول : « لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول » .

وربما خفي السبب الذي يرجع اليه هذا الفارق بين الأسرتين ، فقد يرى بعضهم أنه يرجع إلى النسب المدخول ، وقد رُمي الأمويون الأوائل بشبهات

كثيرة في عمود النسب وعرض لهم بذلك أناس من ذوي قرباهم في صدر الاسلام وأشهر ما اشتهر من هذه الشبهات قصة ذكوان الذي يقولون انه من آبائهم ، ويقول النسابون انه عبد مُستلحق على غير سنة العرب في الجاهلية . ومما يعلل به هذا الفارق أن بني أمية كانوا يغيبون عن ديارهم ويعودون اليها فلا يطيب للمقيمين فيها أن يعترفوا لهم بدعوى الزعامة عليهم ، وأنهم أكثروا من الرحلة في بادىء الأمر لحاجتهم وقلة محصولهم من نتاج النَّعم وأرباح التجارة ، وليس بالبعيد أن « المعاهرة » التي أشار اليها المحكمون بينهم وبين الهاشميين قد أورثتهم بعض أمراضها ودست في أخلاقهم شيئا من خبائثها ، وليس بالبعيد أيضا أن الفارق بين الأسرتين انما كان من قبيل تلك الفوارق التي نراها بين الإخوة كأنها قسمت بينهم ميراث الأخلاق ، فذهب أحدهم بالحول وذهب أخوه بالحيلة ، أو ذهب أحدهم بالكرم والأريحية وذهب أخوه بنقائضها من خلال الاثرة والدعوى ..

وأياً ما كان سر هذا الفارق البيِّن ، لقد كان بنو هاشم — أسرة النبي — أصحاب رئاسة ، وكان لهم أخلاق رئاسة .

عرفوا بالنبل والكرم والهمة والوفاء والعفة ، وبرزت كل خليقة من هذه الخلائق في حادثة مأثورة مذكورة ، فلم تكن خلائقهم هذه من مناقب الأماديح التي يتبرع بها الشعراء أو من الكلمات التي ترسل ارسالا على الألسنة ولا يراد بها معناها .

كان هاشم غياث قومه في عام المجاعة ، فبذل طعامه لكل نازل بمكة أو وارد عليها ، وسمي بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الثريد ودعوة الجياع إلى قصاعه :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

ومما يروى عنه أنه كان أول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الصيف ورحلة الشتاء . وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمي تلك الرحلات وينظمها ، فنسب اليه أنه أول من سنها .

ومكانته في غير قريش ، وفي مدن التجارة خاصة ، تدل عليها مصاهرته لبني النجار في المدينة ، وزواجه من سلمى بنت عمرو التي كانت – لشرفها وعزتها – تأبى أن تتزوج الا أن يكون أمرها بيدها ، ولو لم يكن لهاشم مقامه في الحجاز كله لما أصهر إلى القوم ولا ارتضى القوم هذه المصاهرة من رجل يزور مدينتهم زيارة الطريق بين مكة والشام . وقد كان المعهود في بني عبد مناف أنهم لا يقعدون جميعا في ديارهم وأنهم لا تزال لهم همة طامحة في رحلاتهم وأسفارهم ، ومات أكثرهم في غير وطنهم ، فمات هاشم بغزة في الشام ومات عبد المطلب برومان إلى ناحية من أرض اليمن ، ومات نوفل بسلمان في العراق .

وابن هاشم عبد المطلب سيد قريش غير مدافع ، ويبلغ هذا التقابل بين الأسرتين أقصاه في عهد مناظره حرب بن أمية ، فكان كلاهما نمطا في بابه من طرفي العقيدة والأريحية وطرف السعي والحيلة .

وكان عبد المطلب متدينا صادق اليقين ، مؤمنا بمحارم دينه في الجاهلية لأن ثقة الايمان طبيعة في وجدانه ، وهو أول من حلى الكعبة بالذهب من ماله ، ويعنينا منه أنه كان في الحق نمطا فريدا بين أصحاب الطبائع التي فطرت على الاعتقاد ومناقب النبل والايثار .

فلم تكن مناقبه من مناقب الطابع والوتيرة التي تتكرر على صورة واحدة بين المتصفين بها ، ولم يكن كرمه ولا حزمه ولا شجاعته من قبيل الصفات التي تعرف بهذه الأسماء في جميع الكرماء وذوي الحزم والشجاعة ..

بل كانت مناقبه مُطَّلِبِيّة تدل عليه ولا تصدر من غيره ، وكانت كلها مزيجا من الأنفة والرصانة والاستقلال ومواجهة الغيب على ثقة وصبر وأناة ..

وهذه طائفة من أخباره لا نفتقد في واحدة منها تلك المناقب المطلبية .. التي تعز على خيال المتخيل ما لم يكن وراءها أصل تحكيه وترجع اليه ..

وصل ابرهة الحبشي عام الفيل إلى أرباض مكة وبعث رجلاً من العرب

يسمى حناطة يسأل عن « أمير مكة » ويبلغه أن ابرهة لم يأت لقتالهم وانما أتى لهدم البيت الحرام فان لم يمنعوه فهم في أمان من حربه . فلما لقي الرسول عبد المطلب وأبلغه رسالة ابرهة قال عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وهذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم فان يشأ منع بيته وحرمه وان لم يشأ تخلى عنه ، ووالله ما عندنا من قتال .

قال الرسول : انطلق معي إلى الملك ، فانطلق معه عبد المطلب إلى أن أتى معسكر أبرهة وأدخلوه عليه .

يقول الرواة : وكان عبد المطلب رجلاً عظيماً مهيباً وسيماً فنزل أبرهة عن سريره وأجلسه معه وسأله عن طلبته فقال عبد المطلب : الابل التي ساقها جندك !

ويقول الرواة : فهان أمر عبد المطلب في نظر أبرهة وقال له : اتسأل عن البعير وتترك البيت الذي هو دين آبائك ودينك من بعدهم ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب الابل ، وللبيت رب يحميه . فأمر برد إبل عبد المطلب دون غيرها ، فأخذها عبد المطلب وقلدها النعال وساقها هديا إلى الحرم ، ووقف على باب الكعبة يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا   يا رب فامنع منهم حماكا

ان عدو البيت من عاداكا   فامنعهم أن يخربوا قراكا

هذه هي « المطلبية » التي نعنيها في خصال هذا الرجل العظيم : لا تهور مع القوة الطاغية ، ولكن لا خضوع لها بل وضع لها في موضعها . وقول يناسب كل مقام ، فاذا خامر الظن أحداً لا يفهم معنى هذه الأنفة التي تأنف من التهور كما تأنف من الجبن ، فهناك الجواب الفعال الذي يغني ما ليس يغنيه المقال : ما سألت عن الابل لأنني أضن بأثمانها فانني قد وهبتها بعد ذلك للبيت ، ولكنني سألت عنها لأنها هي موضع سؤالي ، وتركت السؤال عن البيت لأن استجداء الرحمة من ابرهة لبيت الله ينفي الثقة بالبيت وبالله ..

وقد حدث بعد ذلك ما حدث مما لا شك فيه ، وهو فتك الجدري بجنود ابرهة . وانهزامه عن البيت وخوفه من أن يتقدم اليه بأذى ، وانه لخبر قد يسهل انكاره على المتحذلقة من أدعياء التاريخ الذين يجمعون التمحيص كله في الانكار ، لولا أن حديث الجدري الذي فشا (في سنة ٥٦٩) مثبت كما تقدم في تاريخ بروكوب Procope الوزير البيزنطي المعروف ..

وخبر آخر من أخبار هذه المناقب المطلبية انه عاش زمناً قليل الولد لم يرزق غير ابنه الحارث الذي كان يكنى به . وعيَّره عدي بن نوفل بن مناف يوماً فقال له : أتستطيل علينا عبد المطلب وأنت فذ لا ولد لك ؟ فأجابه عبد المطلب جوابه الذي أثر عن ذلك اليوم : أبالمقلة تعيرني !؟ فوالله لئن آتاني الله عشرة من الولد لأنحرنَّ أحدهم عند الكعبة !

وسنعود إلى التعقيب على هذه القصة في حديث عبدالله أبي النبي عليه السلام ، ولكننا نجتزىء هنا بأن نقول اننا لا نسقطها لمجرد اختلاف الروايات فيها ، فان أخبار الحاضر تتناقض أمامنا ونحن لا ننكر وقوعها لهذا التناقض ، وقد اختلفت الرواة في عبد الله بن عبد المطلب هل هو أصغر أبنائه جميعاً أو أصغر أبنائه من أمه ، وهل بلغ ابناؤه العشرة أو حسب منهم أبناء الأبناء ، وكل أولئك لا يسقط القصة كما أسلفناه وكما يجيء في سيرة عبدالله .

وملتقى الروايات في هذه القصة انه أمر بنيه أن يكتب كل منهم اسمه في قدح وطلب من صاحب القداح أن يضرب عليها فخرج السهم باسم عبدالله . فهم بانفاذ نذره لو لم يتشفع عنده ابنه العباس ورجالات قريش ، وتنادوا بينهم : لئن فعل ذلك لتكونن سنة ولا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه ، فان يكن فداء فبأموالنا جميعاً نفديه .

واحتكموا إلى عرافة بالحجاز فسألتهم : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشرة من الابل . قالت : « قربوا عن ولدكم عشرة من الابل ثم اضربوا عليها وعلى ولدكم ، ثم زيدوا الابل كلما أخطأها السهم حتى يخرج السهم عليها فانحروها عنه ، فقد رضي ربكم ونجا ولدكم » .

يقول الرواة : وعادوا إلى مكة فقربوا عشرة من الابل وضربوا القداح فخرج القدح على عبد الله ، وجعلوا يزيدون عشرة فعشرة حتى بلغت مائة وقيل ثلثمائة ، فخرج السهم عليها فنحروها وتركوها لا يمنع من لحمها انس ولا وحش ولا طير .

ومن أخباره ان قريشاً خاصمته في ماء زمزم بعد أن احتفرها وعارضوه في احتفارها ، فاحتكموا إلى كاهنة بني سعد بن تميم بمشارف الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني عبد مناف وركب من كل قبيلة من قريش نفر يتقدمون ، وفني ماء عبد المطلب عند بعض المفاوز بين الحجاز والشام فظمىء أصحابه حتى أيقنوا بالهلكة ، وطلبوا الماء ممن معهم من قريش فلم يسقوهم ، فجمع أصحابه وسألهم : ما ترون ؟ قالوا : رأينا تبع لرأيك فمرنا بما شئت . قال : فاني أرى أن يحفر كل منا حفرته فيواريه فيها أصحابه اذا مات ، حتى يكون آخركم موتاً قد وارى الجميع ، فضيعة رجل واحد خير من ضيعة الركب كله . . ثم بدا له رأي أصوب من هذا الرأي فقال لأصحابه : والله ان إلقاءنا أنفسنا بأيدينا للموت هكذا دون أن نضرب في الارض ونبتغي لأنفسنا لهو العجز ، فهلموا نرتحل . ولم يذهبوا في طريقهم غير يسير حتى انفجرت عين ماء عذب تحت خف راحلته ، فشربوا وملأوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلموا إلى الماء فقد سقانا الله . فقال أصحابه : لا نسقيهم والله لأنهم لم يسقونا . فقال : نحن اذن مثلهم ، ولم يرضه أن يعمل مثل عملهم وهو أحق بالرجحان عليهم ، وعرف القرشيون له هذا الحق فكفوا عن منازعته في ماء زمزم وسلموا له السقاية التي كانوا ينفسونها عليه .

ويروى عنه انه كان له جار يهودي يسمى أذينة ، وكان له مال كثير فطمع فيه حرب بن أمية وأغرى به فتياناً من قومه فقتلوه ، فلم يزل عبد المطلب يستقصي خبره حتى علم باغتياله ومن اغتالوه ، فأبى الا أن يكره حرباً على الدية وأخذ منه مائة ناقة اسلمها إلى ابن عم اليهودي وارتجع ماله الا شيئاً هلك فارتجعه من ماله ..

وهذه هي المناقب « المخصصة » التي نقول انها لا تجري مجرى الطابع والوتيرة ولا تغني عناوينها عن النظر في ملامح أصحابها ومميزاتهم في التفكير والعمل ، وهي مناقب لا تخترع ولا يضيرها أن يضاف فيها الخبر المخترع إلى الخبر الواقع . لأن الرواة المخترعين في هذه الحالة انما ينقلون عن صورة أصيلة تمت في أذهانهم قبل اختراع أخبارهم عنها ، فحاولوا أن تكون أخبارهم المخترعة مطابقة لحقيقتها .

ففي كل خبر من هذه الأخبار « المطلبية » ايمان وحزم ووفاء وجرأة على الخطر ولكن في غير مغالطة ولا اصطناع ، وانما قوام ذلك كله حزم يملك زمامه ، ويفعل واجبه كما يراه .

وأدعياء التاريخ خلقاء أن يسألوا أنفسهم هنا سؤالين ، لا يغفلهما أحد يفقه معنى تمحيص الخبر ، وأولهما في هذا السياق : لماذا يخترع الرواة هذه الأخبار عن عبد المطلب دون غيره ؟ وثانيهما : لماذا لم يخترعوها ولا اخترعوا أمثالها عن حرب بن أمية ؟

فاذا كانت صورة الرجل في الأذهان هي علة الاختراع فهناك حقيقة اذن ماثلة وراء هذه المخترعات، وهناك دلالة في اتفاق الأذهان على الاختراع أولى بالتصديق من اتفاقهم على رؤية العيان ، لأن رؤية العيان تحتاج بعدها إلى البحث عما تدل .

وقد اتفقت الروايات كلها على صفات عبد المطلب قبل الاتفاق على أخباره ، واتفقت الصفات والأخبار معا على ملامح شخصية قوامها الايمان والحزم والوفاء وضبط النفس في مواجهة القوة والخطر بعزيمة لا تتهور في غير جدوى ولا تنكص على عقبيها خوفاً من فوات الجدوى .

وكلها صفات جديرة بآباء الأنبياء والمرسلين .

عبد المطلب

ولد عبد المطلب في المدينة وسمي « شيبة » تفاؤلا له بطول العمر في

أسرة لم يكن طول الاعمار من خصائصها ، وتربى بعيداً من آل أبيه فصدق عليه في طفولته قول القائلين في عصرنا : ان الطفل أبو الرجل . لأنه كان يلاعب الصبيان من لداته فيذكرون آباءهم ويفخرون بهم عليه وهو لا يرى أباه بينهم ، وحز ذلك في نفسه فجعلت أمه تسري عنه وتحدثه عن آل أبيه ومآثرهم في جوار البيت الحرام ، فطال اشتياقه إلى رؤيتهم والاقامة بينهم ، بيد انه أحجم عن السفر مع عمه « المطلب » حين قدم إلى المدينة لأخذه إلى مكة ، وبصر بأمه في الدار حزينة واجمة تبكي لفراقه وتستمهل عمه عسى أن يبقيه لديها إلى عام قابل ، فقهر في تلك السن الباكرة شوقه إلى أهل أبيه وقد عز عليه في المدينة أن يفاخر بهم لداته بين آبائهم وذويهم ، وقهر في ابان الطفولة ذلك التطلع إلى المجهول وذلك الحنين إلى الغرائب وتلك الرغبة في كل حركة وكل انتقال من مكانه الذي هو فيه ، وقال لعمه بعد أن تهلل لمرآه ورحب بالعودة معه إلى قومه : لن أترك أمي أو تأذن لي بالسفر معك راضية .

وفي سفرته تلك سمي عند مدخل مكة بعبد المطلب لأن أهلها رأوه مع المطلب لأول مرة فحسبوه عبداً اشتراه ، وجعلوا يدعونه باسم « عبد المطلب » كلما أرادوا أن يميزوه من أبنائه ، فغلبت عليه .

وشب الغلام عزوفاً أبياً لا يستكين للهضيمة ولا ينزل عن حق له أو حق كان لأبيه ، فلما أراد عمه نوفل أن يستأثر بمنزلة أبيه هاشم وميراثه لديه تحين الفرصة للسفر إلى المدينة وعاد إلى مكة بعصبة من أقارب أمه وأخواله ، وهم أولو عصبة أشداء ، يشاد بغوثهم في مدائح الشعراء :

ولو بأبي وهب انخت مطيتي

غدت من نداه رحلها غير خائب

فتلقاهم عمه نوفل مرحباً ودعاهم إلى ضيافته فلم يقبلوها أو يرضي فتاهم ، فصالحهم على ما يرضيهم ويرضيه .

وصح التفاؤل في عبد المطلب فعاش حتى ناهز المائة أو جاوزها

ومات والنبي عليه السلام دون العاشرة فعهد به إلى كفالة عمه أبي طالب شقيق أبيه ..

وكل ما تفرقت فيه الروايات من أمره قد استقرت على صفة لا تتفرق فيها روايتان ، وهي صدق التدين والايمان بمحارم الدين في سدانته أو في غير سدانته ، واسم ولد من أولاده عبد العزى الذي اشتهر بعد ذلك باسم أبي لهب لزُهرة كانت في لون وجهه ، ومن حديثه انه كان يتعصب للعزى التي نمي اليها باسمه ، وانه زار أحد عبادها المتنسكين لها في مرض موته فوجده يبكي ، فسأله : ما يبكيك ؟ أمن الموت تبكي ولا مفر منه ؟ قال الرجل : كلا . ولكني أخاف ألا تعبد العزى بعدي !

فقال أبو لهب : والله ما عبدت وانت حي لأجلك ولا تترك بعدك لموتك، فاطمأن الرجل ومات وهو يقول : الآن علمت ان لي خليفة يرعاها ..

وكانت العزّى بوادي خُراص على يمين المصعد إلى العراق من مكة وكانت قريش قد حمت لها شِعْبا يقال له سُقَام ، يضاهون به الكعبة ، وهي التي يعنيها أبو جندب الهذلي اذ يقول في بعض غزله :

لقد حلفت جهـــداً يمينـــاً غليظة
بفرعِ التي أحمت فروعَ سُقَـــام

ولها منحر تذبح فيه الذبائح ويقصد اليه الحاج بعد مِنى ، كما يقول نهيكة الفزاري يخاطب عامر بن الطفيل :

يا عام لو قدرت عليـــك رماحنا
والراقصات إلى مِنى فالغبغـــب

وشأن هذه القصة في مناقب عبد المطلب أن التدين لم يكن وسيلة من وسائل الرجل إلى طلب السيادة والسدانة ، وانه لم يتدين لأنه سادن الكعبة وصاحب المنفعة في تعظيمها . بل كان يعظم العزى ولا منفعة له في هذا التعظيم ، وكان الدين عنده ايماناً خالصاً من الحيلة ومن مآرب الكهانة ..

ولا يخفى أن الوراثة في الطبائع لا في الشعائر وظواهر العبادة ، فمن كانت عنده عقيدة الايمان بالغيب والعلو بما يؤمن به عن عوارض الأهواء واللذات ، وهان عليه نسيان المنافع والشهوات في سبيل رضاه ، وطابت نفسه بالفداء وفرائض الطاعة والوفاء فهذه هي الطبيعة التي تورث على اختلاف الشعائر والعبادات ، ومثلها في ذلك مثل الشجاعة في القتال ومثل السخاء بالمال ، فان الابن الذي يرث الشجاعة من أبيه لا يرث منه ميدانه ولا تتوقف شجاعته الموروثة على سلاحه . فقد يحارب الابن بسلاح لم يعرفه أبوه ، وفي ميدان غير ميدانه ، وقد يبذل المال لاقامة مسجد ولم يبذل أبوه المال الا لنحت صنم أو ذبح قربان على وثن ، ولا غضاضة على ما ورثه من شجاعة ولا ما ورث من سخاء .

وهذه هي الطبيعة التي ينظر اليها الناظر في مناقب الأسرة الموروثة ، فلو كان عبد المطلب ينافق بالتدين ليخدع به قومه ويتذرع به إلى الرئاسة عليهم لما كان هو عبد المطلب الذي تورث منه خصال الصدق والايمان ، ولكن تورث منه هذه الخصال حين يصدق في معتقده بالكعبة وبالعزى ، وحين يدين الناس بما يدين به نفسه في رئاسة هؤلاء الناس .

ابو طالب

وكان ابو طالب — خليفته في الوصاية على النبي — أشبه أبنائه به في جميع خصاله ومناقبه .

والخلاف كثير في اسلام أبي طالب ، اذ لم يتفق الرواة على اسلام أحد من أعمام النبي غير حمزة والعباس وهما في مثل سنه ، والعباس يكبرهما بنحو ثلاث سنوات .

ولكن لا خلاف على حمايته له وحبه اياه وصبره على عداوة قريش كلها في سبيل نصرته ورد أذاهم عنه ، وقد لقي في ذلك ما يطيق وما لا يطيق ، وعظم عليه الخطب وأشفق من مغبته عليه وعلى ابن أخيه فقال له

في ساعة من أشد ساعات الحرج . « ابق على نفسك يا بني ولا تحملني من الألم ما لا أطيق » ... فحزن النبي وحسب أنه سيخذله وقال له وهو يهم بمفارقته : « والله يا عم ! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته » ..

فلم يبرح النبي غير قليل حتى ناداه عمه وقال له وهو حزين لحزنه : « اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً » .

وفي رواية ابن اسحاق : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها فاذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا ، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بن أخي ! ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟ قال : أي عم . هذا دين الله ودين رسله ودين أبينا ابراهيم .. بعثني الله به رسولاً إلى العباد ، وأنت – أي عم – أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابني اليه وأعانني عليه » .. فقال أبو طالب : « أي ابن أخي ! اني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن – والله – لا يخلص اليك بشيء تكرهه ما بقيت » .

وقال ابن اسحاق : « وذكروا انه قال لعلي : أي بني ! ما هذا الدين الذي أنت عليه ! فقال : يا أبت آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته ، فزعموا انه قال له : اما انه لم يدعك إلا على خير ، فالزمه » ..

وبرَّ أبو طالب بقسمه ، وحمل السيف في سبيل نجدته ، وروى القرطبي انه ناجز أبا جهل وجلة قريش في مجموعهم يوم اعتدى ابن الزبعري عليه في صلاته . وكان النبي عليه السلام قد دخل الكعبة ليصلي كعادته فقال أبو جهل : من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته ؟ .. فقام ابن الزبعري فأخذ فرثا ودماً فلطخ به وجه النبي ، وانفتل النبي من صلاته وقصد إلى

عمه فسأله عمه : من فعل هذا بك ؟ قال : عبدالله بن الزبعري ! فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشي معه حتى أتى القوم ، فلما رأوه قد أقبل جعلوا ينهضون ، فقال أبو طالب : والله لئن قام رجل لجللته بسيفي ، فقعدوا حتى دنا منهم ، وأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ به وجوههم ولحاهم وانصرف وهو يغلظ لهم القول .

وقد تكفل أبو طالب بالنبي في طفولته الباكرة وصحبه في غدواته وروحاته خوفاً عليه من اساءة تمسه في غيابه وانتوى السفر إلى الشام والنبي في نحو الثانية عشرة من عمره فأشفق عليه أن يجشمه عناء السفر البعيد ، ثم تهيأ للرحيل فتعلق به الغلام الودود وبكى لفراقه ، فلم يقو على مفارقته وهو باك ، وقال لصحبه : والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً ..

ولقد كان الرجل الجليد يذكر أخاه كلما لمحت عيناه الغلام اليتيم فتشرق عيناه بالدموع ، ويقول : ما أشبهه بعبد الله ! وقد كان أبو طالب وعبدالله — كما تقدم — أخوين شقيقين ، ولم يثبت قط أن هذا العم الكريم تخلى طرفة عين عن ابن أخيه أو أحزنه بكلمة لا ترضيه من طفولته الى أن جهر بدعوته ، ولم يخالف هذا الاجماع من أخبار أبي طالب والنبي أحد من المؤرخين حتى أولئك المفسرين الذين حسبوا أن أبا طالب هو المقصود بما جاء في القرآن في سورة الانعام : « وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه وان يهلكون الا أنفسهم وما يشعرون » .

فقد وهم أولئك المفسرون أن أبا طالب كان هو المقصود بهذه الآيات لانه كان ينهى عن أذى النبي ولا يدين بدينه ، ولم يكن أبو طالب ممن يلقون النبي ليجادلوه فيصدق عليه ذلك التفسير ، وأوضح من خطأ هؤلاء المفسرين هنا ظنهم ان أبا طالب مقصود بعد وفاته بقوله تعالى في سورة القصص : « انك لا تهدي من أحببت » .. فان سورة الأنعام قد نزلت بعد سورة القصص كما جاء في كتاب الاتقان ، فلا هداية ولا جدال ولا نهي عن أذى النبي بعد الوفاة .

وعلى الجملة تبدو لنا رعاية أبي طالب لابن أخيه على الرغم من قريش خلائق رحمة ووفاء واعتداد بالجاه والكرامة ، وتبدو لنا من سيرته كلها خلائق أخرى من قبيل هذه الخلائق التي تجمع بين الطيبة والقوة . فاننا نعلم انه كان يلقب بسيد الأباطح ، وانه كان يخرج للتجارة آنة بعد أخرى ، وان أباه عبد المطلب كان على ثراء عظيم وكان سادات بني أمية ينافسونه بالغنى والسخاء فلا يدركونه في هذا ولا ذاك ، ثم نعلم على كل هذا أن أبا طالب قد لقي ضنكاً في شيخوخته وأن النبي قد أعانه بكفالة ابنه علي وتربيته في داره ، ونعلم كذلك أن النبي لم يكن على حال من الوفر قبل اشتغاله بتجارة السيدة خديجة ومشاركته في ربح أموالها ، فمصير ابن عبد المطلب وحفيده إلى حال من القلة بعد غنى الجدود والأوائل قد ينبيء عن نصيب الاسرة النبوية من السدانة ومن مناصب الدين في البيت المعمور ، فأكبر الظن أنها كانت مغرماً يأخذ من أموالهم ولم تكن مغنماً يربحون منه الكثير أو القليل ، ولولا سعة التجارة التي عمل فيها هاشم والمطلب حتى قيل ان أحدهما سن لقريش سنة الرحلتين إلى الشام واليمن — لما وصل اليهما ذلك الثراء المشهور ولا استطاعا النهوض بأعباء الشرف ومناصب الدين .

ولقد مر بنا من نجدة أبي طالب لابن أخيه ما تم به فضيلة النجدة كاملة لهذا الشيخ الكريم ، ولكنها كانت في الحق نجدة تتسع لكل قاصد ومستجير ولو لم تكن حقوق ابن الأخ على عمه ، فقد استجار به أبو سلمة صاحب بني مخزوم فأجاره وأعلن على الملأ جواره ، فمشى اليه رجال من بني مخزوم فقالوا : يا أبا طالب ما هذا ؟ منعت منا ابن أخيك محمداً فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ قال : انه استجار بي وهو ابن أختي ، وان أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي . فغضب ابو لهب في هذه المرة لأخيه الشيخ وثار بهم قائلاً : يا معشر قريش ! والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ . ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهُنَّ عنه أو لنقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد . فخشي زعماء قريش مغبة الوفاق بين الأخوين في النجدة والجوار ، وكان أبو لهب معهم على رسول الله في دعوته ، فقالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة ، وانصرفوا راغمين ..

وحكي عن هشام بن السائب الكلبي عن أبيه في رواية لا نثبتها ولا ننفيها أن أبا طالب لما أحس الموت «جمع اليه وجوه قريش فأوصاهم فقال: يا معشر قريش ! .. اني أوصيكم بمحمد خيراً فانه الأمين في قريش والصديق في العرب وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وقد جاء بأمر قَبِلَه الجِنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن ، وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف المستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ودورها خراباً وضعفاؤها أرباباً واذا أعظمهم عليه أحوجهم اليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها وأصفت له فؤادها وأعطته قيادها . يا معشر قريش ! كونوا له ولاة ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد سبيله الا رشد ، ولا يأخذ بهديه الا سعد ، ولو كان لنفسي مدة ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهي .. »

وهذه الوصية لا يثبتها القارىء لها على هذا الأسلوب الا أن تكون لسان حال لا لسان مقال ، والا أن يكون ما قيل بعض لفظها وبعض معناها ، ولم يكن كل ما جاء فيها .

العباس وحمزة

وعمّان آخران ، غير أبي طالب ، كانت لهما شهرة وصلة بالدعوة النبوية عرفنا منها بعض ما اتصفا به من صفات وكفايات ، وهما العباس وحمزة ، وكلاهما أخ لعبد الله غير شقيق .

فالعباس على صغره تولى السقاية بعد أبيه ، وامتاز بين سادات قريش بالرأي والدهاء وطول الأناة ، وكان له علم بالأنساب وقدرة على تألف الناس ودفع العداوات ، مع هيبة يحسب لها حسابها جلة قريش من هاشميين وأمويين ، وهو جد بني العباس ومن خلائقه خلائق أبنائه الكفاة والدهاة من كل رئيس مطاع في هذا البيت الفريد بين بيوتات الهاشميين ..

وحمزة فارس الفرسان في خلائق الفروسية كلها ، من شجاعة وصدق وايمان ودراية بالسيف والخيل . قال ابن اسحاق في قصة اسلامه : « فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحا قوسه راجعا من قنص يرميه ويخرج له ، وكان اذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان اذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش الا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة — مولاة عبد الله بن جدعان — قالت له : يا أبا عمارة . لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام ! وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، معدا لأبي جهل اذا لقيه أن يوقع به . فلما دخل المسجد نظر اليه جالسا في القوم فأقبل نحوه ، حتى اذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فردّ ذلك عليّ ان استطعت . فقامت رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة . فاني والله قد سببت محمدا ابن أخيه سبا قبيحا .. »

قال القوم : ما نراك يا حمزة الا قد صبأت .

فقال حمزة : وما يمنعني وقد استبان لي منه ذلك .. أنا أشهد انه رسول الله ..

ومن أعمام رسول الله غير حمزة والعباس رجلان لم يسلما وهما الزبير وعبد العزى أبو لهب ، وكلاهما كان يحتفي بالطفل الصغير ويدلله ويواليه بالسؤال عنه ، وكان الزبير يرقصه بأبيات الشعر يرجو له طول العمر والنجابة ، ووهب له أبو لهب جاريته ثُويْبَة ، ترضعه وتخدمه في طفولته ، ولا نعرف من أخبار الزبير ما ينبيء عن صفاته وكفاياته ، وأما أبو لهب فالمعروف عنه — ولا سيما في علاقاته بابن أخيه بعد الدعوة — غير قليل ...

* * *

كان بنو هاشم وبنو المطلب جميعا في نصرة النبي من آمن منهم به ومن لم يؤمن ما عدا أبا لهب ، وبنيه ، وفيه نزلت الآيات : « تبّت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد » .

وتعليل هذا الشذوذ انه من لوازم الأسر الكبيرة التي لا تشذ منها أسرة ذات خطر في التاريخ ، فهو هنا القياس المطرد مع طبائع الامور ، كان من علله أنه يدعى بعبد العزى يتعصب لها ويغضب أن يحسب أحد أمامه ان عبادتها مرهونة بحياته كما تقوم .

وكان من علله انفة الكبير أن ينقاد للصغير ، ولا ننسى انها انفة لا تستغرب في عشائر البادية وعشائر الرئاسة منها على التخصيص ، ومن استغربها فليذكر أن العباس وحمزة — عمي الرسول اللذين أسلما — كانا من لداته عليه السلام الا سنوات ثلاثا أو أربعا تقدم بها العباس فكان لها أثرها في تأخير اسلامه سنوات .

* * *

وكان من علل ذلك الشذوذ أنه كان على حلف ومشاركة لبيوتات قريش كلها لكثرة ماله وسعة تجارته وأعماله ، وقد قال للنبي في مجمع الأسرة : هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصبأة ، واعلم انه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك ، فحسبك بنو أبيك وان أقمت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب .. فما رأيت أحدا جاء على بني أبيه بِشرٍّ مما جئتهم به ..

وفي مجلس آخر قال له أبو طالب : هؤلاء بنو أبيك مجتمعون وانما أنا أحدهم ، غير أني أسرعهم إلى ما تحب ، فامض لما أمرت . فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك . غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب ..

قال أبو لهب : هذه والله السوأة . خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ..

وانفض المجلس على غيظ يكظمه أبو لهب ، وعهد يبرمه أبو طالب ويقول فيه مقسما : والله لنمنعنه ما بقينا ..

وهذا هو الهوى الذي يزين لصاحبه أن يسوقه مساق الحكمة والحيطة ، فيزعم أنه يدفع الشر عن ابن أخيه وعن قومه ويجنبهم ما لا يطيقونه من جهاد العرب ، وانه في طويته ليأنف أن ينقاد لمن هو أصغر منه ، ويخشى ما يصيبه من جراء انقياده لو سلست له كبرياؤه ..

* * *

وليس من العلل التي تنسى في هذا المقام انه كان زوجا لاخت أبي سفيان ، وان ولديه كانا متزوجين لرقية وأم كلثوم كريمتي رسول الله ، وبين الزوجتين والزوجة احن لا تهدأ ، ولا تزال تتحين الفرصة للوقيعة والتفرقة والعداء ..

وأيا ما كان من أبي لهب ، فهو الشذوذ الذي يستغرب ألا يكون ، وليس بالغريب أن يكون !

وأشهر أبناء الأسرة من غير الاعمام ابن عمه الحبيب وابنه بالتربية علي ابن أبي طالب رضوان الله عليه ، وصفاته وكفاياته تأخذ من كل سيد من ساداتها بنصيب : شجاعة وطيبة وفهم واقبال على المعرفة وايثار للمعروف ..

أسرة لا تخرج النبوة ، وما خرجت قط ، من خير منها ..

ونشأة النبي عليه السلام فيها أصدق المقدمات التي قلنا انها مقدمات التمهيد والتحضير .

الا انها كسائر المقدمات التي مهدت من جانب لتقيم المصاعب كلها من جانب آخر ..

أسرة عزيزة الآباء والاجداد ، فخرها بالنسب أعظم من كل فخر ، وسيادتها بالخلائق الموروثة أثبت من كل سيادة . ثم ينشأ لها من بينها نبي ينعى على الآباء والاجداد ما كانوا عليه من ضلالة ، وينكر من الابناء أن يسلكوا مسلكهم ويهيموا على آثارهم ، ويقول لهم كما قال ابراهيم :

« لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين » .

ويهيب بمن آمن منهم : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان » .

ويدعوهم أن يتبعوا ما أنزل الله لان آباءهم لا يعقلون : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .

* * *

لقد نشأ محمد في الأسرة التي تعطيه خير ما تعطي الاسر بنيها .

ولكنه جاءها بالنبوة التي لا يعطيها غير الله !

وكانت الاسرة تمهيدا له فيما ورث منها .

ولكنها وما ورثت من قومها هي عقبة الأرض التي تمهدها السماء .

والدا النبي : عبد الله وآمنة

تلك هي الاسرة العامة التي شملت الاجداد والاعمام ، وللنبي صلوات الله عليه ، مع هذه الاسرة العامة ، أسرة خاصة من أبويه الشريفين عبد الله وآمنة ..

ولم يعقب لنا التاريخ كثيرا من أنباء هذين الابوين الشريفين ولكنه أعقب لنا ما فيه الكفاية لبيان أثرهما النفساني في وجدان ولدهما العظيم .

ندرت في أبواب العظماء أبوة كأبوة عبد الله بن عبد المطلب ، ونكاد نقول إنها مرت بغير نظير فيما وعيناه من تواريخ الأنبياء والهداة من كل قبيل ..

فتى لم يكد ينجو من الموت ذبيحا حتى مات بعيدا عن زوجه التي فارقها عروسا وعن ولده الذي لم تره عيناه .

لكأنما وجد هذا الفتى في الدنيا ليعقب ذرية تريدها العناية الالهية ، ثم يتركها في كلاءة تلك العناية لقدر لا تغني فيه عناية الآباء .

وفي تاريخ الانبياء أب عاش حتى شهد بعثة ابنه فأنكرها وتواطأ مع قومه على خذلانها ، فبقيت ذكراه خيبة أمل وحيرة لمن يجل الدعوة ويجل ابراهيم ..

فأما هذه الابوة فالرحمة فيها تملأ مكان الخيبة ، والبر بالذكرى يملأ مكان الحيرة ويتطلع وراءه إلى الأسى على الفقيد والعزاء للوليد الوحيد .

وحياة لا تشبع سجل الحوادث والخطوب ، ولكن النفس تشبعها بما يعوضها عن حوادثها وخطوبها حبا سابغا وجمالا يفتن فيه الحس والخيال ∴

وهذا الذي صنعته بديهة الحياة الصادقة فلم تدع سيرة عبد الله حتى أودعتها من الخواطر والاماني ما تزدحم به أعمار طوال ، فما تمناه له المحزونون على صباه وتقواه يفيض في جوانب سيرته حتى تمتلىء به مائة حياة ∴

قيل في بعض ما قيل من هذه الخواطر والاماني « انه لما انصرف مع أبيه بعد أن فداه بنحر مائة من الابل لرؤيا رآها ، مر على امرأة كاهنة متهودة قد قرأت في الكتب ، يقال لها فاطمة ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه — وكان أحسن رجل في قريش — لك مثل الابل التي نحرت عنك وأبذل لك نفسي ، لما رأت في وجهه من نور النبوة ورجت أن تحمل بهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، فأجابها بقوله :

أما الحرام فالممـــات دونـــــه والحِلُّ لا حـــلَّ فأستبينـــه
فكيف بالأمـــر الذي تبغينـــه يحمي الكريم عرضه ودينـــه

ثم خرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد زهرة نسبا وشرفا فزوجه ابنته آمنة وهي يومئذ أفضل امرأة من قريش نسبا وموضعا ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج من عندها فمر بالمرأة التي عرضت عليه ما عرضت فقال لها : مالك لا تعرضين علي اليوم ما عرضت بالامس ، فقالت فارقك النور الذي كان معك فليس لي بذلك اليوم حاجة . انما أردت أن يكون النور فيَّ ، فأبى الله الا أن يجعله حيث شاء » .

وفي أسانيد ابن هشام أن عبد الله « انما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب ، وقد عمل في طين له وبه آثار من الطين فدعاها فأبطأت عليه لما رأت به من أثر الطين ، فخرج من عندها فتوضأ وغسل ما كان به ثم خرج عائدا إلى آمنة فمر بامرأته الاولى فدعته فلم يجبها وعمد إلى آمنة فحملت

بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بامرأته تلك ... فقالت له : مررت بي وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت » .

قال اسحاق بن يسار صاحب الخبر : فزعموا أن امرأته تلك كانت تحدث انه مر بها وبين عينيه غرة مثل غرة الفرس . قالت : فدعوته رجاء أن تكون لي ، فأبى علي ، ودخل على آمنة فحملت برسول الله ... » .

وجاء في غير خبر أن فتيات مكة ذهبت بهن الحسرة لزواج عبد الله من آمنة ، وكانت كل فتاة منهن تتمناه زوجا لها لجماله وتحدث الناس بفدائه .

وفي كل هذه الاخبار قسط من الصحة لا نهمله ولا نسوي بين رواية السير له وبين خلوها منه ، فان مجيئه في السِّيَر يثبت لنا معنى صادق الدلالة وان يكن غير معناه المقصود : يثبت لنا لونا من شعور الناس بصاحب السيرة ولونا من تعبيرهم عن ذلك الشعور ، ومن كان هذا المعنى لغوا عنده فخير له أن يتجنب السير والتواريخ .

وأما حكم الواقع على حدوث الخبر فحسبنا فيه حكم القرآن الكريم الذي يبطل علم الكهان بالغيب كما ينكره على أعوانهم من الجان ، وفي سورة سبأ عن سليمان بن داود عليهما السلام : « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

والقرآن الكريم يقول في غير موضع أنه لا يعلم الغيب الا الله ، ويقول بلسان النبي : ولا أعلم الغيب .

فلا كاهن يعلم من أمر الدنيا سرا من أسرار الغيب فضلا عن أمر النبوة والرسالة ، والكاهنة التي تريد أن تحمل بنبي لا يخطر لها أن تحمل به سفاحا فيقول لها عبد الله :

أما الحرام فالممات دونه   والحل لا حل فاستبينه

وأما أن تكون زوجة ثم لا ترى من زوجها تلك الغرة قبل ذهابها ثم

يأتي معاشرته بعد ذهابها — فليس مما يجوز تصديقه من شئون الزواج .

فالقصة كلها ، وما شابهها من القصص ، رغوة وزبد وزبدتها جمال عبد الله وأسى النفوس لما فات ذلك الجمال في عنفوان صباه .

ولا نكران لما كان عليه عبد الله من الوسامة والوضاءة ونضارة الشباب سواء حفظت لنا السيرة قصة من تلك القصص أو جاءتنا غفلا منها ، فقد حفظت لنا رؤية العيان انه كان واخوته يطوفون بالكعبة مع أبيهم فيأخذون الابصار ، ولم يصف الواصفون بني هاشم بدمامة أو معابة في الخلق والصورة ، حتى فيما وصفهم به الشانئون وطلاب العيوب .

* * *

وفيما وصل الينا من سيرته قصة غير تلك القصص لا قبل للمبالغة وحدها بأن تخلقها ، لأنها تحتاج إلى افتنان في وصفها وتحتاج — مع الافتنان — إلى مصلحة مفروضة تدعو إلى اختلاقها ، أو علة من العلل المعروفة تفسر لنا ذلك الاختلاق .

وتلك هي قصة النذر التي أوردناها في الكلام على الكعبة ، وهي تقوم بديوان جامع من القصص للتعريف بخلائق عبد الله .

وليس يكفي في معيار النقد التاريخي أن يكون اختراع القصة ممكنا ليقال انها مخترعة ، فان اتهام كل خبر بالاختراع لأنه يجوز أن يخترع يسقط أخبار التاريخ كله في الزمن القديم وفي الزمن الحديث ، وانما يظن الاختراع بالخبر لمسوغ يدعو إلى الشك فيه ، ولمصلحة توجب اختراعه وتضطرنا اضطرارا إلى نفيه على ثقة أو على ترجيح .

وهذه القصة بعينها ينبغي قبل نفيها أن نعرف مصلحة المسلم أو الجاهلي في اختراعها وإلصاقها بعبد المطلب وعبد الله ، فقد قيل انها اخترعت لتصوير عبد الله أبي النبي في صورة الذبيح اسماعيل ، وقيل انها لم تظهر في الجاهلية قبل البعثة الاسلامية .

فهل من مصلحة مسلم أن يختلق القصة ليقول أن جد النبي أوشك أن يذبح أباه قربانا للاصنام ؟

وهل من مصلحة جاهلي أن يبدع الافتنان في القصة وفي وسيلة الخلاص من الفداء لينكر على سدنة الكعبة قدرتهم على استخبار أربابها ويرجع بالفضل في الوسيلة والاستخبار إلى كاهنة خيبرية تفتي لهم في شئون عباداتهم وأبنائهم حيث يعجزون عن الفتيا وهم مفتقرون اليها ؟

ولِمَ هذا التخصيص بعبد المطلب وعبد الله ؟ .. ومن الذي كان عنده من قدرة الافتنان في القصص مثل هذه القدرة ، ثم خفي أمره ، ولم تأتِ منه أفنونة مثلها في زمانها ؟ ..

وهناك مسوغ آخر للظن يبدر إلى الذهن اذا كانت هذه القصة قد حدثت لأحد قبل عصر عبد المطلب ثم نقلت اليه ، كما حدث كثيرا في القصص المتكررة التي تروى عن أناس متفرقين ، ولكن هذه القصة بذاتها لم ترد بها الرواية في بلاد العرب أو غيرها عن أحد غير عبد الله ، وليست هي مما يوضع في بلاد لم تعهد السهام وضرب القداح والفداء بالابل والتقرب إلى كعبة تجمع الاصنام من هبل إلى نائلة إلى اساف . فلماذا اخترعت في بلاد العرب وخص عبد الله باختراعها عليه ؟

ان لم تكن هناك شبهة من هذه الشبهات ومسوغ من هذه المسوغات فقبول القصة أولى من رفضها ، وتأليفها على هذا الافتنان لغير قصد معلوم أصعب من وقوعها ، وقد تساق في معرض ترجيحها وتداولها إلى منتصف القرن الاول للهجرة رواية للطبري يقول فيها بعد سند متصل : « ان ابن عباس سألته امرأة انها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الابل وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب ، وسألت عبد الله بن عمر فلم يفتها بشيء بل توقف ، فبلغ ذلك مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فقال انهما لم يصيبا الفتيا ، ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ونهاها عن ذبح ولدها ولم يأمرها بذبح الابل ، وأخذ الناس بقول مروان » ..

والحق بين رفض القصة وقبولها انه لا موجب لرفضها وليس في قبولها ما يخالف مألوفا من مألوفات زمانها ؛ وقد كان لنذر عبد المطلب طلبا عزيزا من الاله يبذل له فديته ، وكان الوفاء من فضائله المأثورة وكان مع الوفاء بالنذر ايمان بسوء العقبى وحذر من أن يصيب الجزاء أبناءه جميعا ، فليس في هذا الوفاء خليقة تختلق لأنها فوق طاقة الانسان ؟

ومن ارتضى قصة النذر هذه فنصيب عبد الله عنده أعظم من نصيب أبيه ، لأنه سلم حياته فدية لاخوته ولم ينكص عن طاعة أب وطاعة رب . ومن يفعل ذلك ينبيء عن ايمان قوي بالواجب واقدام على الموت في ريعان الشباب ، وقد كان له أن يتمحل المعاذير فلا تعوزه الحيلة ، فكأي من رجل لا ينكر الدين ولا يمرق منه اذا سامه الدين ما يعز عليه لم تتعذر عليه الحجة للتحلل من فرائضه والاجتراء على أوامره ونواهيه .

على أن الملاحظة التي تستوقف النظر من أمر هذه الاسرة القوية المباركة ان أخبارها المتناثرة التي ترسل ارسالا في المناسبات المتفرقة أدل عليها من الاخبار التي تنتظم في مناسبة واحدة وتحتمل مظنة الوضع والتأليف . ومهما تتناثر الاخبار عن أحوالها في الجاهلية تخلص بنا إلى خصلة ملحوظة في جميع هذه الأخبار وهي « النظام » الذي تتوخاه في معاملاتها وعلاقات أفرادها على البديهة بغير تدبير مقصود .

فمن هنا كلمة ، ومن هناك خبر ، ومن جوانب شتى أحاديث وروايات ، وكلها ينطبع بهذا الطابع بغير شذوذ حتى حين ينتظر الشذوذ ولا يستغرب ، فأبو لهب نفسه — وهو الخارج على اجماع الاسرة — يأبى في مجلس قريش أن يسام أخوه الكبير — أبو طالب — ما لم يتعوده من الطاعة والتوقير ، ويحضر مجلس الاسرة فلا يزيد على كلمة يقولها حين يسمع من أخيه انه ينصر محمدا ولا يستمع فيه لملامة بعيد أو قريب ، ثم ينصرف من المجلس وهو كظيم .

أما في سائر مجامع الاسرة فالطاعة والتوقير سنة لا يخالفها صغار الاسرة في مجالس كبارها ، فاذا جلس عميدها جلسوا وراءه وصمتوا في حضرته لا

يبدأون بالكلام الا أن يدعوهم اليه . ومن هنا عجبهم أن يقبل الغلام اليتيم إلى مجلس جده فيقصد اليه ويجلس إلى جواره ، وهم مع علمهم باشفاق الجد عليه وتدليله اياه يستدعونه اليهم ليجلس معهم حتى يأمرهم الجد فيسكتوا عنه وهم لا يقلون اشفاقا عليه .

ومن نظام الاسرة ان عبد الله خرج بعد زواجه مع أول قافلة حان موعدها ولم يتخلف عامه ذاك إلى عام قابل ، وهو لما يفرغ من عرسه الذي كان خليقا أن يطيله تلهف أبيه وآله على حياته بعد اليأس منه في قصة النذر المشهور ، فخرج مع القافلة ولما ينقض على زفافه أسبوعان على أرجح الاقوال .

ولا شيء أشبه بالواقع المنظور في قصة زواج عبد الله بعد الوفاء بنذره واستبقاء حياته ، فان أباه – لا جرم – قد امتلأت نفسه زمنا بشبح الموت يطيف بولده الحبيب اليه ، فليس أقرب إلى خاطره من تعويض ذلك الشعور الجاثم على صدره بالاطمئنان على بقاء فتاه ، والغبطة بدوامه ودوام ذريته من بعده ، ولا سيما الدوام بعد النذر الذي كان مبعثه تعيير الشانئين بقلة الذرية ، وابتئاس الاب خوفا من انقطاع العقب مع ولد وحيد ..

واختار الاب زوجة عبد الله من بني زهرة أحلاف بني هاشم والمطلب في كل خلاف : زوجه آمنة بنت وهب أعرق بني زهرة نسبا وأكرمها محتدا ، ومدره العشيرة كلها في مجامع قريش ، وينتهي نسبه لأبيه وأمه إلى عبد مناف ، وقد فخر رسول الله بانتسابه إلى هذه الامومة فقال : « أنا ابن العواتك من سُلَيْم » .

* * *

روى الامام أبو نعيم الحافظ في كتاب دلائل النبوة بعد اسناد متصل : « ان عبد المطلب قدم اليمن في رحلة الشتاء فنزل على حبر من اليهود . قال : فقال لي رجل من أهل الديور – يعني أهلَ الكتاب – يا عبد المطلب ! أتأذن لي أن أنظر إلى بعضك ؟ قال : نعم اذا لم يكن عورة ، قال : ففتح احدى منخري فنظر فيه ثم نظر في الآخر فقال : أشهد أن في احدى يديك ملكا

وفي الاخرى نبوة ، وانا نجد ذلك في بني زهرة فكيف ذلك ؟ قلت لا أدري ! قال هل لك من شاغة ؟ قلت وما الشاغة ؟ قال زوجة ! قلت : أما اليوم فلا . قال فاذا رجعت فتزوج فيهم . فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن مناف بن زهرة فولدت حمزة وصفية ، ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب فولدت رسول الله ، فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة : فلج – أي فاز – وغلب عبد الله على أبيه » .

وهذا مثل من الاخبار التي لا تثبت على النظر ، وتبنى على حقيقة ثابتة وهي اتصال النسب بين آل عبد المطلب وآل وهب ، واتصال البيتين في الحياة الزوجية لما كان من الاتصال بينهما في الحياة العامة ، ولم يأت هذا الاتصال القديم بنبوءة من ناسك في اليمن تنكشف من النظر في منخرين .

* * *

انتقل عبد الله بعروسه من حي وهب إلى حي عبد المطلب بعد أيام العرس ، فلم يطل فيه البقاء الا ريثما اذن مؤذن القافلة بالرحيل .

ولم يعد من رحلته تلك إلى داره . فانها كانت الرحلة الاخيرة لكل راحل أو قاعد في هذه الحياة : رحلة من ظاهر الأرض إلى جوف الضريح .

وولد النبي عليه السلام بعد موت أبيه على أشهر الروايات ، فأرضعته أمه ، وأرضعته معها ثويبة جارية عمه أبي لهب ، ثم عهد به إلى حليمة بنت ذؤيب تستتم رضاعه في بادية قومها بني سعد على سنة العلية من أشراف مكة ، يبتغون النشأة السليمة واللغة الصحيحة بعيدا من أخلاط مكة وأهوائها . ولم يكن الطفل اليتيم علي يسار لأن أباه مات في مقتبل الشباب ، ولكن أسرة أبيه وأسرة أمه تكفلتا بنشأته كما ينشأ أبناء السراة من قريش ، فأخذته المرضعة بعد تردد ، ثم أعادته إلى مكة قبل أن يبلغ الثالثة ، لانها سمعت من ابنها أن أخاه القرشي قد صرع وهو معه ، وان رجلين أخذاه فاذا هما يشقان بطنه ولا يزالان يسوطانه ، فلما ذهبت اليه حيث تركه ابنها وجدته قائما ممتقع الوجه ، فبادرت به إلى مكة مخافة عليه ، وطلبت اليها أمه أن تعود به إلى البادية

تخشي على الطفل من هواء البلد ولا تخشي عليه من ذلك الخطر الذي خشيته المرضع الرؤوم ، بعدما سمعته من ابنها ورأته من امتقاع لون الوليد القرشي وقيامه منفردا في الخلاء ، فلما عادت به إلى البادية أتم رضاعه فيها ولبث معها إلى الخامسة أو قبلها بقليل ، وتكلم وجرى لسانه بالعربية الفصحى وهو بين بني سعد ، فذاك فخره بعد النبوة اذ يعجب الصحابة من فصاحته فلا يرى عليه السلام عجبا في فصاحة عربي نشأ في بني سعد وتربى في الذؤابة من قريش .

* * *

ولم يكد الصبي يطمئن إلى جوار أمه بعد عودته من البادية حتى فقدها وهما في زيارة لقبر أبيه بالمدينة .

وما كان قد بقي في الدنيا للفتاة الايم غير هذا الصبي وذكرى أبيه الراحل في غربتين : غربة الموت وغربة المكان .

فخرجت به ضيفا تزور الفقيد الراحل في مثواه وتحسبه مشوقا تحت طباق الأرض إلى رؤية الوليد الذي لم تبصره عيناه تحت شمس النهار .

وكذلك تزير الوليد اليتيم أباه .

فلما قضت حق الزيارة ولبثت في جيرة أخوال عبد الله شهرا أو بعض شهر ، قفلت بوليدها راجعة إلى مكة ، فماتت ودفنت في الطريق .

وكل ما وعته السيرة من مرضها انها وعكت من لفحة السموم فلم تطل بها الوعكة غير أيام .

* * *

ومن اليسير أن نعلم وقع هذه الفاجعة في نفس الصبي اليتيم ، يتجدد له مصابه في أبيه فلا يكاد يبرح ضريحه حتى يقف على ضريح أمه مهجورا في عرض الطريق .

الا ان هذه الفاجعة بما تدل عليه ، أهم في دراستنا هذه مما خلفته في نفس الصبي الصغير .

مصابه في أبيه ومصابه في أمه ، ولم يزل صبيا صغيرا حين أطبق عليهما مصابه في جدّه الذي ضمه اليه بعد فقد أبويه ..

لو نفس صغيرة تتابعت عليها هذه الضربات في صباها لسحقتها واستنزفت كل ما حوته من عطف وأمل ، فلا تعيش — ان عاشت بضرباتها — الا كما يعيش الاشباح في ظلمات الحياة ..

فاذا وجبت لنا وقفة عند هذه الضربات التي تلقاها الصبي فأول ما نقف لديه وأولاه بالوقوف أنها دلالة على القوة في مكمنها وعلى الروح العظيم الذي تجلى بعد ذلك في تاريخ بني الانسان ، كفؤا لاعظم الاعباء وأفدح الخطوب .

وتلي ذلك وقفتنا أمام العطف الذي أفادته تلك النفس القوية من ضربات تسحق ما دونها وتنزف منها كل عطف وأمل .

* * *

وقد خرج الصبي من تلك الضربات القاصمة بالعاطفة الزاخرة التي تشمل العالمين : عالم الحياة وما بعد الحياة ، مذ كان أحب الناس اليه في عالم آخر لا تبديه له هذه الحياة ، وجاءت بعثته إلى الناس كافة باسم الله الرحمن الرحيم .

ولعله أول فتح أطل عليه من فتوح عالم الغيب فاستمد منه بعد ذلك قوته التي دان لها هذا العالم المشهود .

دنياه بعد ذلك أوسع من دنيا الناس وأعم من دنيا الاحياء ، وحاجز الموت عنده برزخ تتصل به الدنيا والآخرة ويعيش فيه الحي والميت ، ولا ينتقل فيه الخلق في دنياهم ليهلكوا آخر الدهر بل ليعيشوا آخر الدهر خالدين..

وقليل في جنب هذا فائدة العطف الذي عهدناه من صباه إلى ختام حياته يحيط به كل انسان وكل حي وكل شيء . وانما يترجم عنه عطفه على حاضنته

وعلى مرضعته وعلى كل باق من بقايا أمه وأبيه ، ولم يزل يترجم عنه عطفه الذي لم يحرمه أحد قط ، من صاحب أو صديق ..

ولا ندع الكلام على الاسرة النبوية وفي الخاطر سؤال توحي الينا أن نسأله ، وأن نجيب عنه ما استُطيع الجواب ..

لقد مات عبد الله وآمنة ولما يجاوزا الخامسة والعشرين. ولا يكون الموت في هذه السن الا علامة على الضعف والهزال ، ان لم يكن من مرض يستنفد الاجل في عنفوان الشباب .

فهل كان محمد عليه السلام سليل أبوين ضعيفين هزيلين ؟ .

ان لم تكن غرابة الالتقاء بين الابوين على هذا الضعف كافية لدفع هذا الظن فلا حاجة إلى دافع له غير حياة الوليد ، بما استوفته من قوة الروح وقوة الجثمان .

وقد سأل أناس من كتاب الغرب هذا السؤال وخيل اليهم انهم وجدوا جوابه في قصة الصرع المزعوم قبل الفطام ، وفيما كان يعروه من برحاء الوحي التي وصفها الاقربون منه ، وأيسرها انه كان عليه السلام يرعد ويضطرب ويتقاطر منه في اليوم الشاتي عرق كحب الجمان .

وعجيب أن يصاب الانسان بصرع ولا يعروه غير مرة واحدة في سن الرضاع ، ثم لا يعاوده مرة أخرى إلى قرابة الاربعين .

وأعجب منه أن يصاب به بعد الاربعين في حال واحدة : حين يتلقى الوحي ، ثم لا يصاب به مرة في غير تلك الحال .

ولكنه ليس بالعجيب أن تجيش بنية اللحم والدم من أعماقها في غاشية كغاشية الوحي كائنا ما كان قوام البدن الذي تغشاه .

ولا نعلم أن أحدا من الانبياء وصف لنا كما وصف محمد عليه السلام ، في كل لمحة من لمحاته وفي كل حركة من حركاته ، وفي يقظته ورقاده ،

وفي حديثه وصمته ، وفي جلوسه ومسيره ، وفي ركوبه وارتجاله ، فلم تكن له صفة قط في كل أولئك غير صفة البنية السوية والخلق القويم .

كان باتفاق جميع واصفيه فوق المربوع ، بعيد ما بين المنكبين ، غزير الشعر ، تلمس جُمَّته شحمة أذنيه ، شثن الكفين والقدمين ، ضخم الكراديس — أي ملتقى العظام — ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم ، ادعج العينين ، أهدب الاشفار ، اذا مشي تقلع كأنما ينحط من صبب ، ذريع الخطوة ، سائل الاطراف [1] .

والنطق أبين عن حالات الصرع من سائر الصفات ، وما وصف منطق النبي بشيء ينم على اضطراب في عصب أو في عضل أو ينبيء عن عرض من الاعراض غير سليم أو قويم : كان ضليع الفم ، يتكلم بكلام بيِّن فصل مفسر ، اذا أشار أشار بكفه كلها واذا تعجب قلبها ، واذا تحدث اتصل بها — أي صحب كلامه بما يوافقه من حركتها — واذا غضب أعرض وأشاح واذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ليس بصخاب ولا يرتفع له صوت في غير دعاء .

وهذه صفات كلامه من أكثر من عشرين مصدرا ، جمعها أبو عيسى الترمذي صاحب الشمائل المحمدية ، ولم يأت بين ثناياها مساغ اشتباه في عرض من أعراض خلل الصرع والاضطراب ، بل هي كلها توكيد للمنطق السليم والخلق القويم .

* * *

الله أعلم حيث يجعل رسالته ..

وقد جعلت رسالة محمد حيث ينبغي أن تكون — خَلْقا وخُلُقاً — من ميراث الزمن وميراث الاجداد والآباء ، فكل خلق وصف به فهو الصالح

(١) المطهم المنتفخ الوجه والمكلثم المدور ، والاهدب طويل أهداب العين مع انعطاف .

لأداء رسالته والنهوض بأمانته . ان تكن ضريبة من ضرائب العظمة الكبرى – ولا بد لها من ضريبة – فتلك هي النقص في نسله ليستوفي التمام من أمر هذه الذرية الباقية إلى يومنا ، وبعد يومنا ، جامعة واعية لكل تابع من تابعيه ، وكل مولود له في عالم الضمير من بنيه وغير بنيه .

وانه لعلى خلق عظيم ..

وانه لعلى خلق قويم ..

نتيجة النتائج

ونتيجة النتائج من مقدماتها جميعا أن حوادث الدنيا وحوادث الجزيرة وحوادث الاسرة ، قد مهدت سبلا شتى للرسالة المحمدية ، ولكنها مهدتها لتأتي الرسالة بعدها فتثور عليها وتنكث غزلها ، وتعيدها على العالم الانساني في نسج جديد .

يتيم في غير ذلة ..

عزيز في غير قسوة ..

يرث الكعبة ولكنه يهدم أربابها ، ويرث الاريحية من يقين بني هاشم ولكنه يغير مجراها ، ويرث العصبية في أقواها وأمنعها ولكنه يقودها إلى عصبية واحدة تضم اليها العرب والعجم ، وتؤمن برب واحد هو رب العالمين ..

وجائز أن يكون صاحب الرسالة قد عرف في صباه كل دين من أديان الجزيرة العربية ، ولكنه ليس بالجائز أن تُعَلِّمه كيف ينكر أخطاءها ، ويقوم التواءها ويترقى بها من أوشاب الشرك إلى صفاء التوحيد .

مهدت له الدنيا طريقا ولكنه هداها إلى غير تلك الطريق .

فهما تمهيدان يتلاقيان ويفترقان : تمهيد من قوانين الكون وتمهيد من العناية الازلية ، وحيث ينهض رجل واحد بما يأباه قومه ويأباه معهم أقوام زمانه ، فليست هي بارادة انسان ولكنها ارادة الله ، وما هي أحد أو آحاد ولكنها قدرة الخالق فيما خلق ، يوليها من يشاء حيث شاء ..